من داخل السجن ١٦

اللامنطق

في الفكر والسلوك

مواجهة النبي موسى لفرعون

(الجزء الأول)

الأستاذ عبد الوهاب حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

دار الوفاء للثقافة والإعلام

اسم الكتاب: اللامنطق في الفكر والسلوك (الجزء الأول)

المؤلف: الأستاذ عبدالوهاب حسين

نشر: دارالوفاء للثقافة والإعلام

الطبعة الأولى: مايو ٢٠٢٠م - رمضان ١٤٤١هـ

دار الوفاء - البحرين

البريد الالكتروني: Mediaalwafa@gmail.com

اللامنطق

في الفكر والسلوك

مواجهة النبي موسى لفرعون

(الجزء الأول)

الأستاذ عبد الوهاب حسين

الفهرس

مقدمة الناشر.. ١١

المقدمات

المقدمة الأولى: التعريف بموسى الكليم عليه السلام ١٧

اسمه وشأنه في بيت فرعون ١٧

قتل الرجل القبطي وخروج موسى عليه السلام من مصر.. ٢٠

موسى عليه السلام في أرض مدين ٢٤

عودة موسى عليه السلام لمصر وحمله لواء الرسالة والتغيير.. ٣٣

المقدمة الثانية: التعريف بهارون عليه السلام ٣٧

استضعاف بني إسرائيل لهارون ٣٩

استخلاف موسى الكليم لهارون عليهما السلام ٤٤

تصدى هارون عليه السلام لفتنة العجل.. ٤٦

تأنيب موسى الكليم عليه السلام لبني إسرائيل وتوبيخهم بشأن عبادة العجل ٥٢

جواب بنو إسرائيل على أسئلة موسى الكليم عليه السلام وتأنيبه ٥٨

محاسبة موسى الكليم لأخيه هارون عليهما السلام ٥٩

جواب هارون على أسئلة أخيه موسى الكليم عليه السلام ٦١

تقبل موسى الكليم عليه السلام لعذر أخيه هارون عليه السلام ٦٤

محاكمة موسى الكليم عليه السلام للسامري على جريمته ومعاقبته ٦٥

الاجراءات الاحترازية التي اتخذها موسى الكليم عليه السلام بشأن العجل ٦٨

توبة بني إسرائيل والعفو الإلهي عنهم.. ٧٠

التيه في الصحراء ووفاة هارون عليه السلام ٧٢

المقدمة الثالثة: التعريف بإسرائيل وبني إسرائيل ٩١
والبشارة به ٩١
دولة إسرائيل الصهيونية ١٠٤
بني إسرائيل و إقامتهم في مصر ١٠٧
المقدمة الرابعة: التعريف بفرعون الطاغية ١١٩
الحضارة الفرعونية وميزات النظام الفرعوني ١٢٦

المحور الأول:سورة الأعراف (١٠٣-١٣٧)

الفصل الأول: حمل موسى الرسالة الربانية إلى فرعون وملئه ١٣٥
تبليغ الرسالة وموقف فرعون منها ١٣٥
برنامج الرسالة الربانية ١٤٥
الحجة على صدق نبوة موسى عليه السلام ورسالته ١٦٤
موقف فرعون وجهازه من دعوة موسى الكليم عليه السلام ومعجزاته ١٧٤
الفصل الثاني: المبارزة التاريخية الفاصلة و إيمان السحرة ٢٠٣
طلب السحرة الأجر على عملهم من فرعون ٢٠٤
المبارزة التاريخية الفاصلة وظهور الحق وتجليه للجميع ٢١٣
هزيمة السحرة في ميدان المبارزة ٢٢٢
إعلان السحرة إيمانهم أمام الجماهير المحتشدة في ميدان المبارزة ٢٣١
دروس وعبر مستفادة ٢٣٧
تهديد فرعون ووعيده بالانتقام منهم ٢٤٤
شروط الدولة الرشيدة ٢٧٢
سياسة الإخضاع لدى فرعون الطاغية ٢٨٢

رد السحرة المؤمنين الكرام على تهديدات فرعون الطاغية لهم ٢٨٥
انقطاع السحرة إلى الله ٢٩٨
شرف الحالة الفكرية والروحية للسحرة ٣٠٨

الفصل الثالث: محنة بني إسرائيل ٣١٥

تحريض الملأ لفرعون على الانتقام من موسى وقومه ٣١٥
استجابة فرعون لتحريض ملئه ضد موسى عليه السلام وقومه ٣٢٧
توصيات موسى عليه السلام لقومه لمواجهة التهديدات الجديدة ٣٤٢
جوانب مشرقة من فلسفة التاريخ ٣٤٩
شروط الانتصار والتسديد الإلهي ٣٦٠
تضجّر بنو إسرائيل وشكواهم لموسى الكليم عليه السلام ٣٦٣
رد موسى الكليم عليه السلام على شكوى بني إسرائيل إليه ٣٦٨

الفصل الرابع: آيات العذاب وهلاك فرعون واستخلاف بني إسرائيل ٣٨١

ابتلاء آل فرعون بالقحط والجدب ونقص الثمرات ٣٨٢
تفسير آل فرعون الخاطئ للابتلاء ٣٨٩
نقض القرآن الكريم لتفسير آل فرعون للابتلاء ٣٩٧
عناد آل فرعون ونزول آيات العذاب عليهم ٤٠٢
آل فرعون يراوغون ويخادعون الله ٤٢٥
نكث آل فرعون بوعدهم وهلاكهم جميعاً ٤٣٣
استخلاف بني إسرائيل في الأرض ٤٤٣

المحور الثاني: سورة يونس (٧٥-٩٣)

الفصل الأول: حمل موسى وهارون الرسالة إلى فرعون وملئه وحوارهما معهم ٤٥٥

إيصال موسى وهارون الرسالة إلى فرعون وملئه ٤٥٥

موقف فرعون وملئه الاستكباري من الرسالة........................ ٤٦٢
تمادي فرعون وملئه في الغي والاستكبار........................ ٤٦٨
رد موسى على أباطيل فرعون وملئه ٤٧٤
تعصب فرعون وملئه واستكبارهم على الإيمان ٤٨٤
الفصل الثاني: المبارزة التاريخية وهلاك فرعون........................ ٥٠٧
المبارزة التاريخية بين موسى والسحرة ٥٠٨
عناد فرعون وقومه واستكبارهم على الحق........................ ٥٢٩
دواعي مخالفة الأنبياء والمصلحين ومحاربتهم ٥٣٥
برنامج موسى عليه السلام للمقاومة........................ ٥٤٤
بعض الاجراءات العملية في برنامج المقاومة ٥٦٤
دعاء موسى عليه السلام على فرعون وحزبه........................ ٥٨٣
استجابة الله لدعاء موسى وهارون عليهما السلام........................ ٥٩٣
هلاك فرعون وجنوده وحزبه المجرمين أجمعين ٦٠٤
توبة فرعون في الوقت الضائع ٦٢٠
فوائد وعِبَر........................ ٦٣٠
خطاب رب العالمين إلى فرعون رداً على توبته الباطلة........................ ٦٣٥
تمام النعمة الإلهية على بني إسرائيل........................ ٦٤٨
مقابلة بني إسرائيل النعم بالجحود........................ ٦٥٢

مقدمة الناشر

الحمدلله رب العالمين وأفضل الصلاة على المبعوث رحمة للعالمين حبيب إله الخلق أجمعين محمد وآله الطاهرين.

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[1].

وقال ﷻ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

إن قصة نبي الله موسى عليه السلام مليئة بالعبر، وغنية بالأحداث والمواقف السلوكية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية، وهي القصة الأكثر تكرراً في القرآن الكريم، والتي جاءت آياتها تشرح بعض تفاصيل تلك الأحداث، وممّا يميز قصة نبي الله موسى عليه السلام أنها تعرضت إلى العديد من المظاهر الفكرية والسلوكية الخاصة بالفرد والمجتمع على حد سواء،

١. يوسف: ٣

٢. يوسف: ١٢٠

فعلى المستوى الفردي ومن خلال استعراض الأحداث في تكامل نبي الله موسى عليه السلام ووصوله إلى مقام النبوة تعطي هذه القصة دستور حياة لكل إنسان على وجه المعمورة في كيفية الترقي على درجات سلم التكامل، وعلى المستوى الاجتماعي فقد ركزت الآيات مفاهيم العدل ورفض الظلم والمطالبة بالحقوق المشروعة وبينت العلاقة بين المجتمع والناصح، والمجتمع المظلوم والحاكم الظالم، فهي تجربة متكاملة للإنسان والأمة اللذين يريدان السير على طريق الكمال والتحرر من قيود النفس والحاكم الظالمين.

بالإضافة إلى أهمية قصة نبي الله موسى عليه السلام في استسقاء العبر والاستفادة من أحداثها في رفد تجارب التحرر الحديثة فإن هذا الكتاب يكتسب خصوصية مهمة تجعله كتاباً مثيراً للاهتمام، حيث كتبت كلماته وصيغت عباراته في سجن جو المركزي، بما يحويه من تشديد وضغوطات تمارس على المعتقلين، وفي ظل شح المصادر التي يمكن أن يعتمد عليها الباحث في كتابته، ولا يخفى على ذي بصر صعوبة استحضار المعلومة والتوسع في المطلب وبيانه بشكل واضح وسلسل من دون توفر بيئة هادئة وأجواء بعيدة عن الشواغل والمزعجات، ووجود المصادر اللازمة لقراءة النصوص والمقارنة بينها، ورغم ذلك إلا أن مؤلفه برع في صياغة أفكاره، وتنظيمها، ووضعها في قالب مناسب للقارئ، وقد أشبع الكتاب بياناً وشرحاً مفصلاً جاء في جزئين.

ثم إن من خط بقلمه هذا الكتاب هو فضيلة الأستاذ المجاهد

عبدالوهاب حسين، أحد المفكرين الإسلاميين والسياسيين في الساحة الإسلامية، والذي يقضي حكماً بالسجن المؤبد في سجن جو المركزي في البحرين، فقد أشبع الكتاب تفصيلاً من بصيرة وعلم باحث طالب للحق متمسك بقيم الإسلام، وخاض في بيان أفكاره من تجربة قائد سياسي وناصح اجتماعي قضى سنين عمره في تجربة سياسية واجتماعية غنية وعميقة.

يسر دار الوفاء للثقافة والإعلام أن تقدم كتاب «اللامنطق في الفكر والسلوك» الذي كتبه فضيلة الأستاذ المجاهد عبدالوهاب حسين من سجن جو المركزي المعتقل فيه منذ عام ٢٠١١ في البحرين بسبب مشاركته في إشعال شرارة الثورة والقيام ضد النظام الخليفي.

دار الوفاء للثقافة والإعلام

المقدمات

- المقدمة الأولى: التعريف بموسى الكليم عليه السلام
- المقدمة الثانية: التعريف بهارون عليه السلام
- المقدمة الثالثة: التعريف بإسرائيل وبني إسرائيل
- المقدمة الرابعة: التعريف بفرعون الطاغية

المقدمة الأولى: التعريف بموسى الكليم عليه السلام

اسمه وشأنه في بيت فرعون

هو نبي الله الكريم موسى بن عمران بن يصهر بن يافت بن لاوي بن يعقوب (إسرائيل) بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، قيل في اشتقاق اسمه: أنه مركّب من كلمتين، (مو) بمعنى: الماء في اللغة المصرية القديمة، (سى) بمعنى: الشجرة، وقد سُمِّيَ بذلك: لأنه وُجِدَ حيث ألقته أمه في الماء، بين ماء وشجر، وعليه فإن في اسمه تذكير بالقدرة وحسن التدبير الإلهي والمكر الرباني، ونعمة الله تبارك وتعالى العظيمة عليه وعلى آل عمران وبني إسرائيل، وقيل: أصله (سى) بمعنى الطفل.

وقد وُلِدَ موسى الكليم عليه السلام في مصر، في القرن الثالث عشر قبل الميلاد (١٣ق.م)، وقد دأب فرعون في ذلك الوقت على قتل كل طفل ذكر يولد في بني إسرائيل المستضعفين؛ لأن كاهناً أخبر فرعون الطاغية بأن ذهاب نظامه الفرعوني الدكتاتوري الفاسد وملكه، يكون على يد رجل يولد في بني إسرائيل، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ

طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[١].

ولما ولدت أم موسى الكليم عليه السلام به خافت عليه من القتل، فألهمها الله تبارك وتعالى أن تضعه في صندوق، وتلقيه في نهر النيل العظيم، وبشَّرها بأنه سيحفظه من القتل ولن يصيبه سوء، وأنه سيرجعه سالماً غانماً وسيجعله من المرسلين، قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٢]، ففعلت أم موسى - وهي المرأة المؤمنة الصالحة من سلالة النبيين الكرام - ما أمرها الله جل جلاله به.

فانتشله آل فرعون، وعندما فتحوا الصندوق وقعت عين امرأة فرعون عليه، فألقى الله تبارك وتعالى محبته في قلبها الطاهر الشفاف، وخافت أن يقتله فرعون كما هي عادته مع أولاد بني إسرائيل، وقد عرفوا بالطبع أنه منهم، وعرفوا أسباب وضعه في صندوق و إلقائه في النيل، فبادرت إلى فرعون واستوهبته الطفل، وقالت: سيكون قرة عين لي ولك، لا تقتله، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٣] وكان لفرعون بنات، ولم يكن له ولد ذكر، فاستجاب لطلبها ووهبها إياه، وقيل: إن فرعون نفسه قد أحب موسى عليه السلام.

١. القصص: ٤

٢. القصص: ٧

٣. القصص: ٩

تأمل: إلهٌ وهو لا يستطيع أن يمنح نفسه الولد الذكر، ويشعر بالحرمان من هذه النعمة الكبيرة. ويزعم أنه أعلى الأرباب، ويقتل أطفال بني إسرائيل لكي لا يأتي الرجل الذي يقضي على نظامه وملكه، ثم يستضيف الطفل الذي يقضي الله عز وجل على يديه على نظامه وملكه ويقوم على تربيته، قول الله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[1].

ولما علمت أم موسى بالتقاط آل فرعون لابنها شعرت بالخوف الشديد عليه، لأنهم سيعلمون قطعاً بأنه من بني إسرائيل، وقد دفعها خوفها الشديد عليه؛ لأن تبدي لآل فرعون بأنها أمه، لولا أن ربط الله عز وجل على قلبها وألهمها الصبر والسلوان، فامتنعت عن ذلك.

ومن جهة بيت آل فرعون فقد أتوا بالمرضعات لموسى عليه السلام فعافهن جميعاً، فتقدمت أخته مريم التي كلفتها أمها يوخابيد بأن تقتفي أثره فعرضت عليهم أن تدعو لهم امرأة صالحة ترضعه، فقبلوا بذلك، فجاءتهم بأمه، فاستأنس بها والتقم ثديها، ففرح فرعون ووعدها بأن يجزل لها العطاء، وهكذا أرجع الله عز وجل موسى الكليم عليه السلام إلى أمه سالماً غانماً وطمأنها عليه كي تقر عينها وتأنس به، وتعلم أن وعد الله حق وصدق، وأن الله لا يخلف الميعاد، قول الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن

---

١. القصص: ٨

قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقد ترعرع موسى الكليم عليه السلام في البلاط الملكي الفرعوني، في حجر المرأة الصالحة الطيبة، آسية بنت مزاحم (رضوان الله تعالى عليها) وهي زوجة فرعون، وكانت من نساء بني إسرائيل وقد تزوجها فرعون الطاغية وفضلها على نساء قومه الأقباط، لما كانت عليه من الحسن والجمال والعقل والأخلاق.

قتل الرجل القبطي وخروج موسى عليه السلام من مصر

ولما بلغ موسى الكليم عليه السلام مرحلة الشباب، منحه الله تبارك وتعالى القوة والفتوة والعلم والحكمة، وأنشأه على عينه على الفضائل والاستقامة ومكارم الأخلاق، وألهمه عمل الخيرات والصالحات.

وفي ذات يوم خرج موسى الكليم عليه السلام من القصر الملكي، ودخل المدينة، فوجد فيها رجلين يتشاجران، أحدهما إسرائيلي مستضعف، والآخر من آل فرعون الأقباط المستكبرين، فاستغاثه الإسرائيلي فأغاثه، بدافع الدفاع عن المستضعفين المظلومين وحماية المظلوم من الظالم، فوكز القبطي وكزة واحدة فقضت عليه؛ لما كان عليه موسى الكليم عليه السلام من القوة، ولم يكن يريد قتله، ولكنها إرادة الله عز وجل وتدبيره، وعليه: فإن الإسرائيلي كان مظلوماً والقبطي كان ظالماً، وكانت نية موسى الكليم عليه السلام

---

١. القصص: ١٠-١٣

حماية المظلوم من الظالم، وربما يكون القبطي مستحقاً للقتل في نفسه، إلا إن موسى الكليم عليه السلام لم يكن يريد قتله لأسباب موضوعية في تقديره، إلا إن القتل حدث بالخطأ ولم يكن مقصوداً، وذلك لحكمة إلهية بالغة في التدبير.

وفي اليوم الثاني خرج موسى الكليم عليه السلام من القصر الملكي ثانية ودخل المدينة، فوجد نفس الإسرائيلي يتشاجر مع فرعوني آخر، ويبدو أنه شاب أبيٌّ في غاية الحماس، وكان متمرداً على الوضع القائم ورافضاً للتمييز الواقع عليه وعلى قومه وللذل والهوان والظلم الذي هم فيه ومقاوماً له. فلما رأى الشاب موسى الكليم عليه السلام استغاثه، و إغاثة المظلوم واجبة، إلا أن موسى الكليم عليه السلام غضب على الإسرائيلي وأنّبه لمشاكسته، ولأن الظروف الموضوعية لم تكن ناضجة وملائمة للثورة بحسب تقديره، لا أنه كان ظالماً؛ لأنه لو كان ظالماً أو لم يكن مظلوماً لما أغاثه موسى الكليم عليه السلام ووقف إلى صفه ونصره، فإنما أغاثه ونصره؛ لأن إغاثة المظلوم ونصرته واجبة، وهنا ينبغي التنبيه إلى أن الاختلاف مع المظلوم في تقدير الظروف الموضوعية لا يعني خذلانه، فضلاً عن الوقوف ضده والعياذ بالله، و إنما ينبغي نصحه و إرشاده، فلما أراد موسى الكليم عليه السلام التدخل لفض النزاع، وكان في غاية الحذر لكي لا يتكرر خطأ الأمس، خاف الإسرائيلي المعتدي، وقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾[1] فكشف بذلك السر الذي كان مجهولاً لآل فرعون، وراحوا يبحثون عن موسى الكليم عليه السلام ليقتلوه بصاحبهم، والحادث يدل على أن آل فرعون والأقباط قد دأبوا

١. القصص: ١٩

على ظلم بني إسرائيل المستضعفين والاعتداء عليهم دائماً وبشكل مستمر ومتواصل، وأن في شباب بني إسرائيل من كان يرفض ذلك ويقاومه، وهذه ظاهرة طبيعية في مثل هذه الحالة، وكان موسى الكليم عليه السلام يدرك ذلك تماماً، ويدرك مشروعية الثورة وضرورتها، إلا أنه كان يدرك كذلك عدم نضج الظروف الموضوعية للثورة وضرورة التحضير إليها من أجل نجاحها في الوصول إلى تحقيق أهدافها، وفي مقدمتها تحرير بني إسرائيل من أسر الأقباط، وحصولهم على كامل حقوقهم الطبيعية، وعدم التمييز بينهم وبين المواطنين الأقباط في الحقوق والواجبات.

وكان في وسط آل فرعون رجل مؤمن بالتوحيد وصالح يتعبد على دين إبراهيم الخليل عليه السلام يسمى حزقيل، وكان يتحلى بالعدل والحكمة وسمو النفس، وكان يرفض ما كان عليه فرعون والأقباط من الكفر والاستكبار والطغيان، وما يوقعوه ببني إسرائيل من الاستعباد والظلم والتمييز، وقد سمع بحادثة القتل والشجار، وكان عارفاً عن قرب بما يتحلى به موسى الكليم عليه السلام من العلم والحكمة والفضيلة والاستقامة مما يدفعه لأن يستبعد منه القتل العمد بغير حق، كما يعرف عن قرب أيضاً ما يتعرض له بنو إسرائيل من الاستعباد والظلم والتمييز ضدهم، مما يدفعهم بشكل طبيعي بحكم العقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني إلى الرفض والتمرد والمقاومة والثورة. وربما كان عارفاً بانحراف الرجل القبطي المقتول، وقد عرف وتأكد له بأن آل فرعون يبحثون عن موسى الكليم عليه السلام ليقتلوه بصاحبهم، فأسرع وأخبر موسى الكليم عليه السلام بما يريده به آل فرعون، ونصحه بأن يخرج من مصر إلى مكان يأمن فيه لينجو بنفسه، قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ

وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ
مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي
مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ
عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ
﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا
يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا
أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا
بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ
إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾[1].

استجاب موسى الكليم عليه السلام إلى نصيحة العبد المؤمن حزقيل، وخرج من مصر خفية متوجهاً إلى قرية مدين، وهي مكان سكن نبي الله شعيب عليه السلام وقبيلته، وهم من أبناء نبي الله إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام وتقع عند النهاية الشمالية لخليج العقبة، جنوبي فلسطين، حيث لا ملك ولا سلطة لفرعون الطاغية عليها، وتسمى في الوقت الحاضر معان.

ويدل سياق الأحداث أن بين موسى الكليم عليه السلام وحزقيل (مؤمن آل فرعون) معرفة سابقة وثقة متبادلة، حيث كان موسى الكليم عليه السلام ربيب فرعون ومعه في قصره، وحزقيل ابن عم فرعون أو ابن خاله وولي عهده ورئيس شرطته (المسؤول الأمني)، وقيل: مسؤول الخزانة؛ ولهذا كانت

---

١. القصص: ١٤-٢٠

استجابة موسى الكليم عليه السلام لنصيحة حزقيل سريعة وخالية من الجدال.

وكان موسى الكليم عليه السلام خائفاً من أن تدركه شرطة فرعون، قبل أن يصل إلى مأمنه، فيقتلوه ظلماً قصاصاً بصاحبهم، فتوجه إلى ساحة القدس الإلهي، فقال ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1].

فنجاه وأوصله إلى مأمنه سالماً، وهذا يدل على أن الخوف غريزة طبيعية في الإنسان، ولا تضر بالإيمان أو بتمام النبوة والرسالة، وهي التي تدفع الإنسان إلى اتقاء الشر ودفع الضرر عن نفسه، والتوجه إلى ساحة القدس الإلهي، أي: تكون سبباً إلى سمو الإنسان وارتقائه في سلم الكمال الإنساني، وهي في الحالة الإنسانية الطبيعية، لا تحمل الإنسان على التخلي عن مسؤولياته ومخالفة التكليف الشرعي، أي: خوفاً من عقوبة الحكام المستبدين الظلمة ونحوهم؛ لأن ذلك يلحق بالإنسان أعلى مراتب الضرر التي وجدت غريزة الخوف لتقيه، حيث أن التخلي عن المسؤولية ومخالفة التكليف الشرعي مخافة عقوبة الحكام المستبدين الظلمة ونحوهم يؤدي إلى انسلاخ الإنسان من إنسانيته وكرامته، وجعله عرضة لغضب الله عز وجل وسخطه وانتقامه أي: هلاكه وشقائه في الدارين الدنيا والاخرة.

موسى عليه السلام في أرض مدين

لما وصل موسى الكليم عليه السلام إلى مأمنه بدخول أرض مدين، قصد ماءها

---

١. القصص: ٢١

ليروي ظمأه، وعندها وجد جماعة كثيرة من الناس قد تزاحموا عليها بشدة لسقي مواشيهم، وكل واحد منهم، يعتمد على قوته في التقدم إلى الحوض وسقي مواشيه وأخذ نصيبه من الماء، ورأى على مقربة من الماء، فتاتين معهما غنيمات لا ترد الماء، وكلما أرادت الغنيمات ورود الماء لتشرب منه، دفعتها الفتاتان عنه. فأثار هذا المشهد الغريب انتباه موسى الكليم عليه السلام وتعجب منه، فتقدم نحو الفتاتين في تأدب واحترام، وسألهما عن شأنهما: لم تمنعان الأغنام عن شرب الماء ولا تستقيان مع الناس؟ فأجابتاه: أنهما أتتا لسقي غنمهما، ولكن جرت عادتهما على أن تنتظرا ولا تسقيا عنهما حتى ينصرف جميع الرعاة، لئلا تزاحما الرجال وتحتكا بهم، وعللتا حضورهما للسقي، بقولهما: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[1] تمنعه الشيخوخة عن الرعي والسقي، وليس لنا أخ يعينه، فنضطر نحن إلى الحضور من أجل السقي والرعي.

فأخذت موسى الكليم عليه السلام النخوة والحمية والفتوة، وحركته الشفقة والرحمة، وهي عينها التي حركته لنصرة الإسرائيلي المظلوم، وخرج بسببها من مصر وأصبح غريباً عن وطنه وأهله، فهو لا يستطيع أن يترك طريقته وسيرته الفاضلة التى جُبِل عليها، وهي سيرة الصالحين دائماً بما هم صالحين، في نصرة المظلومين، وقضاء حوائج المحتاجين، والتفريج عن المكروبين، وتقديم الخدمات الصالحة إلى الناس، وعدم مساومة الظالمين، ونحو ذلك، فسقى لهما غنمهما، وقد برزت في عمله قوته وصلابته وفتوته وشهامته وحسن شمائله، وبعد أن انتهى من سقي الأغنام

---

١. القصص: ٢٣

للفتاتين اتجه إلى ظل شجرة ليستريح فيه، وكان متعباً منهوك القوى من السير الطويل الذي استغرق ثمانية أيام، وقد تورمت قدماه من السير حافياً في الطريق الطويل الوعر، وكان جائعاً، والحر شديداً، وتوجه بقلبه الطاهر المنكسر إلى ساحة القدس الإلهي، يشكو حاله ويرفع إلى ربه حاجته، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1] أي: إني فقير ومحتاج في نفسي إليك وأنت الغني الحميد، وأنا مفتقر ومحتاج إلى الخير الذي تسوقه وتيسره إليّ، وبهذا التوجه والدعاء، فقد كان في غاية الأدب في سؤال حاجته من رب العالمين، فقد اعترف بفقره وكشف عن حاجته ولم يفصل في ذكر ما يحتاج وترك ذلك إلى علم الله سبحانه وتعالى بحاله واستغنى بلطف الله تبارك وتعالى وكرمه عن السؤال، وقد أجابه الله تبارك وتعالى بأحسن الإجابة.

وتشتمل الحادثة على فوائد عديدة، منها:

أ. أن الفتاتين كانتا تتحليان بالعفة والشرف والحياء وحسن التربية وصلاح الحال.

ب. أن خروج المرأة للعمل وكسب الرزق الحلال، لا ينتقص من عفتها وشرفها وحيائها.

ج. أن اجتماع المرأة مع الرجل في مكان واحد للعمل وتبادل الحديث بينهما لا يضر بشرف المرأة وحيائها وعفتها، ولكن يجب التقيد فيه

---

١. القصص: ٢٤

بالأحكام والآداب الشرعية.

د. أن شرف المرأة وعفتها وحياءها تدفع المرأة إلى التخلف والاحتياط والتحرز في المواقف التى يختلط فيها النساء بالرجال ويكثر فيها التزاحم.

هـ. أن المساعدة والتعاون والتضامن وخدمة الناس ونصرة المظلومين والرحمة بالخلق والإحسان إليهم، من شيم المؤمنين الأتقياء الصالحين وأخلاقهم الراسخة، وأن الإنسان السوي يندفع إليها بحسب نظرته وطبعه الإنساني السليم، ومن زعم أنه يريد الإصلاح وتهيب الظالمين وأهل المعاصي فهو كاذب.

وبينما كان موسى الكليم عليه السلام يستريح تحت ظل الشجرة، جاءته إحدى الفتاتين وهي تمشي على استحياء، مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة الصالحة، مما يدل على كرم أصلها وحسن خلقها، والقيمة السامية الرفيعة لهذه الصفة الجميلة (الحياء) عند الفتاة، وأنها وجدت شمائل موسى الكليم عليه السلام وعزة نفسه وقوة شخصيته ما يوجب لها الحياء منه، فقالت بدقة ووضوح واختصار شديد: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ﴾[1] أي: لا لمن عليك، و إنما مكافأة على إحسانك، وكأن الفتاتين قد أحستا بغربته وحاله لشدة فطنتهما، وأنهما أخبرتا أبوهما بذلك، فطلب من إحداهن دعوته إليه، وجدير بها وقد تربت في حجر النبوة، أن تكون نبيهة فطنة، وأن تؤدي الكلام بحقه في أقل العبارات وأجزلها.

١. القصص: ٢٥

وكان موسى الكليم عليه السلام قد عرف من سلوك الفتاتين ومنطقهما، حسن أدبهما وأخلاقهما وتربيتهما، أنهما من عائلة نجيبة كريمة، وأن أبوهما شيخ جليل وفاضل جداً، وعليه فقد لاحت له بشائر الأمل، ووجد في الدعوة الكريمة من هذا الشيخ الجليل، فرصة عظيمة سانحة، يدخل من خلالها مدخلاً حسناً إلى المكان الجديد الذي قصده، وأنها أول بشائر استجابة الدعاء ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾،[1] فاستجاب لدعوة الشيخ الكريمة، وقام من مكانه ومشى مع الفتاة، وتقدمت لتدله على الطريق وهو خلفها. وكانت الريح تضرب ثوبها فتصف لموسى الكليم عليه السلام شيئاً من جسدها، وربما انكشف الثوب عنها. ولِمَا كان عليه موسى الكليم عليه السلام من العفة والحياء وحسن الخلق كان يعرض عنها تارة ويغض النظر تارة أخرى، ثم ناداها: يا أمة الله!! كوني خلفي وأريني الطريق بقولك، وذلك خوفاً من أن ترفع الريح ثوبها فيقع نظره على شيء من جسدها.

فلما وصل إلى بيت الشيخ الجليل، وجده بيتاً بسيطاً من الناحية المادية، ولكنه بيتاً شامخاً من ناحية العز والطهارة، وكان مليئاً بالعلم والتقوى والروحانية العالية. وكان الشيخ هو نبي الله شعيب عليه السلام فانشرح صدره له وأنس به كثيراً وقصّ عليه القصص من لدن ولادته، والسبب الذي خرج من أجله، وأفضى إليه بمكنون سره. فوقف الشيخ الجليل منه موقف الرجل الشهم الكريم، فحمد الله عز وجل على سلامته ونجاته وطيب نفسه، وطمأنه بأنه صار في مكان يأمن فيه من القوم الظالمين،

---

١. القصص: ٢٤

حيث لا ملك ولا سلطة لفرعون على أرض مدين، واستضافه عنده، وقيل: دخل موسى الكليم على شعيب عليه السلام والعشاء مهيأ لشعيب، فقال لموسى عليه السلام: اجلس يا شاب فتعشى، فقال له موسى عليه السلام: أعوذ بالله!! قال شعيب عليه السلام: ولمَ ذلك؟ ألست بجائع؟ قال موسى عليه السلام: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملك الأرض ذهبًا!! فقال له شعيب عليه السلام: لا والله يا شاب، ولكنها عادتي وعادة آبائي، نقري الضيف ونضع الطعام. وعلى كل حال: فشعيب وموسى عليه السلام أبناء عم، شعيب من أبناء إسماعيل الذبيح بن إبراهيم الخليل، وموسى من أبناء إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[١].

وقد أثارت شمائل موسى الكليم عليه السلام وحسن أخلاقه وسلامة منطقه في نفس شيخ الأنبياء عليه السلام وخطيبهم، وفي نفس ابنتيه الإعجاب الشديد بشخصيته، فقالت إحدى الابنتين لأبيها: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[٢] أي: استأجره للعمل عندك في رعي الأغنام، ليكفينا مؤونة

---

١. القصص: ٢٢-٢٥

٢. القصص: ٢٦

هذا العمل الشاق ويريحنا من مزاحمة الرجال، وذكرت صفتين مهمتين وجدتهما في شخصية موسى الكليم عليه السلام وهما « القوي الأمين».

وهذا العرض من الفتاة، يدل على أمرين مهمين، وهما:

أ. أن دأب الأسرة المؤمنة الصالحة وعادتها التشاور بين أفرادها بدون فرق في ذلك بين الرجل والمرأة.

ب. أن الكفاءة والأمانة هما أهم صفتين في تولي المناصب العامة، فبهما يتم العمل ويكمل نظام المجتمع والدولة، ولا تغني إحدى الصفتين عن الأخرى، فلا الكفاءة تغني عن الأمانة، ولا الأمانة تغني عن الكفاءة، وأن تولي الكفؤ غير الأمين، أو تولي الأمين غير الكفؤ، يؤدي إلى الفساد ويلحق الضرر البليغ والخراب بالمجتمعات والدول، وصاحبهما هو أولى من غيره بتولي المنصب العام، وهي الحالة المفقودة في المجتمعات والدول المتخلفة، التي يعتمد فيها على المحسوبية في تولي المناصب العامة، مما يساهم في تكريس التخلف، ونشر الخراب والفساد في الدولة والمجتمع.

ج. أن ذكر الفتاة للصفتين يدل على فطنتها ودقة تشخيصها، وعلو مكانتها العلمية وخبرتها العملية ونضج تجربتها في الحياة رغم صغر سنها.

وبناءً على الاقتراح البناء للفتاة، قال الشيخ الجليل لموسى الكليم عليه السلام: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ

عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[١]
أي: عرض شيخ الأنبياء الكرام شعيب، على موسى الكليم عليه السلام أمرين:

أ. الزواج من إحدى ابنتيه، وأراد بذلك: أن يكون حضوره بين الأسرة حضوراً طبيعياً خالياً من التكلف وبعيداً عن الإحراج للطرفين أفراد الأسرة، وموسى الكليم عليه السلام، وذلك بمهر خاص، على أن فوز إحدى بناته بالزواج من موسى الكليم عليه السلام يعد مكسباً كبيراً للفتاة والأسرة أيضاً، ولعل نبي الله شعيب عليه السلام قد أحسّ من نفس الفتاة ونفس موسى الكليم عليه السلام ثقة متبادلة وميلاً فطرياً سليماً وطاهراً، يشكل أساساً صالحاً لبناء أسرة مسلمة صالحة.

ب. العمل عنده في رعي غنمه لمدة ثماني سنوات، وإن زاد المدة سنتين فجعلها عشر سنوات، فتلك منّة جليلة منه سوف تكون محل تقدير الشيخ الجليل، فكأن الثماني سنوات، تمثل المدة اللازمة لبقاء موسى الكليم عليه السلام خارج مصر ليأمن على نفسه، وطلب الزيادة يعكس الرغبة الكبيرة لدى الشيخ الجليل في بقاء موسى الكليم عليه السلام إلى جانبه إلى فترة أطول، إلا أن طول المدة قد يشكل عبئاً نفسياً كبيراً على موسى الكليم عليه السلام ببقائه بعيداً عن أسرته في مصر لفترة أطول، وعليه ترك إليه الخيار في قضاء أحد الأجلين، ووعده بأن يجد عنده وفيه الوفاء بالعهد والميثاق، والصلاح في الصحبة، وحسن المعاملة، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان

١. القصص: ٢٧

المؤمن دائماً، أن يحسن خلقه ومعاملته لأجيره وخادمه، فلا يشق عليه في العمل بأن يكلفه فوق طاقته، ولا يسيء إليه بالكلام الجارح أو الخشن، ولا ينقص شيئاً من أجره وحقوقه أو ما تعهد أو التزم به إليه ونحو ذلك.

وعرض شيخ الأنبياء على موسى الكليم عليه السلام الزواج من إحدى ابنتيه، يدل على جواز عرض الفتاة نفسها للزواج من شاب صالح مؤهل، أو عرض ولي أمرها ذلك، بدون أن ينقص ذلك من قيمتها أو مكانتها أو حيائها أو عفتها أو شرفها أو نحو ذلك، واعتقاد غير ذلك من الأعراف الجاهلية ولا علاقة له بالدين الحنيف والفطرة والطبع السليم والمنطق.

قد قبل موسى الكليم عليه السلام العرض من شيخ الأنبياء الكرام عليه السلام بشقيه، الزواج من إحدى الفتاتين، والعمل في رعي أغنام الشيخ الجليل. وجعل لنفسه الخيار بالنسبة إلى المدتين اللتين يقضيهما في خدمة الشيخ الجليل: ثماني سنوات، أو عشر سنوات. وتم الاتفاق بينهما على ذلك، ومن أجل استحكام العقد جعلا الله عز وجل وكيلاً وشاهداً عليهما، وإليه الحكم والقضاء بينهما لو اختلفا، وفي الحديث الشريف: «**إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه**» وفي الحقيقة والواقع أن موسى عليه السلام قد وجد في شعيب شيخ الأنبياء وخطيبهم عليه السلام أنه استاذٌ وملهمٌ عظيمٌ، تنبع من جوانبه عيون الحكمة والعلم والمعرفة والخبرة الواسعة في الحياة، ويغمر وجوده التقوى والروحانية العالية، ويمكنه أن يروي ظمأه منه .. وفي المقابل: وجد شعيب في موسى الكليم عليه السلام التلميذ النجيب

اللائق الذى يمتلك كامل الأهلية والاستعداد لكي يفرغ له ما لديه من الحكمة والعلوم والمعارف الإلهية الحقة، وبذلك فقد التقى النور بالنور، ليزداد نوراً على نور، وعليه فقد استجاب الله تبارك وتعالى دعاء موسى الكليم: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1]، بأحسن الاستجابة فأعطاه القوة في البدن والنجاة والأمان من الظالمين، وكفل رزقه عشر سنين، ووهب له زوجة مؤمنة صالحة يسكن إليها، وشرّفه بخدمة شيخ الأنبياء الكرام عليه السلام وصحبته والتزود من حكمته وعلمه ومواعظه، مما يدل على البركة العظيمة التي يتركها الإخلاص في النية لله رب العالمين، وخدمة الخلق والإحسان إليهم والقيام بقضاء حوائجهم، فببركة دلو من الماء، فتح الله تبارك وتعالى لموسى الكليم عليه السلام فصلاً مباركاً جديداً من حياته مليئاً بالبركات والمسرات المادية والمعنوية، بالتفصيل سابق الذكر، قول الله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[2].

عودة موسى عليه السلام لمصر وحمله لواء الرسالة والتغيير

بعد عشر سنين قضاها موسى الكليم في خدمة شيخ الأنبياء الكرام شعيب عليه السلام وهي أتم الأجلين، ارتوى فيها من معين علمه وحكمته، أراد

١. القصص: ٢٤

٢. القصص: ٢٦-٢٨

العودة بأهله إلى وطنه وعشيرته في مصر. وفي صحراء سينا، عند جبل طور سيناء، نزلت عليه الرحمة الإلهية بالنبوة، وكلمه الله ﷻ من وراء الشجرة النورانية المباركة التي كانت تنبت في الجانب الأيمن من الوادي المقدس أسفل الجانب الأيمن من جبل طور، وكان في الأربعين من عمره الشريف، وحمله الله ﷻ رسالته إلى فرعون وملئه وجميع أهل مملكته من الأقباط والإسرائيليين وغيرهم، يدعوهم فيها إلى عقيدة التوحيد والنبوة والمعاد، وكلفه بإنقاذ بني إسرائيل من مظالم فرعون وطغيانه، ودعمه بمعجزتين عظيمتين تثبتان صدق نبوته ورسالته، وهما: العصا التي تتحول إلى ثعبان حقيقي عظيم، واليد السمراء التي تتحول إلى بيضاء من غير سوء أو مرض وتشع نوراً عظيماً. وكان فرعون موسى عليه السلام أعتى الفراعنة الذين حكموا مصر وأسودهم ملكاً وأعظمهم طغياناً، فكذّب هو وملؤه وجميع قومه بنبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته واتهموه بالسحر، وأنه جاء بالسحر وادعى النبوة والرسالة من رب العالمين لأهداف سياسية انقلابية خبيثة، وهي: الانقلاب على النظام الملكي الفرعوني القائم، وطرد الأقباط من مصر بهدف الاستئثار بالحكم والثروة والمقدرات في الدولة، وقرروا مبارزته بالسحرة المهرة الذين جمعوهم من جميع أنحاء مصر، إلا أنهم لم يؤمنوا حتى بعد أن استطاع موسى الكليم عليه السلام هزيمة السحرة، وإعلان السحرة إيمانهم بالتوحيد والنبوة والرسالة، فقتلهم فرعون جميعاً شر قتلة وصلبهم على جذوع النخل نكالاً لهم وليكونوا عبرة لغيرهم، وأذاق المؤمنين من بني إسرائيل صنوف العذاب، وأعاد سيرته السابقة فيهم، وهي: قتل الأبناء، واستحياء النساء للخدمة والمتعة الجنسية ونحو

ذلك. فأنزل الله عز وجل عليهم آيات العذاب، مثل: الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم والقحط ونقص الثمرات، ولم يؤمنوا، فكانت عاقبتهم السيئة أن أهلكهم الله عز وجل جميعاً بإغراقهم في نهر النيل العظيم، الذي كان مصدر ثروتهم ورخائهم وقوتهم وحضارتهم وفخرهم، ليكونوا بهذه النهاية السيئة المؤلمة عبرة لكل فرعون وطاغية ومتكبر يأتي بعدهم، ولهذا سَمي موسى الكليم عليه السلام بالمؤسس والمخلص، وسأذكر تفاصيل ذلك مع الآيات في محاور البحث.

وقد أنزل الله تبارك وتعالى على موسى الكليم عليه السلام التوراة، وفيها كل ما تحتاجه بنو إسرائيل من مسائل العقيدة والمواعظ والأحكام الشرعية والسير، فكانت دستور بني إسرائيل الديني والمدني، الذي ينظم شؤون حياتهم العامة والخاصة. وقد لقب موسى عليه السلام بكليم الله جل جلاله؛ لأن الله سبحانه وتعالى كلمه من وراء الشجرة النورانية المباركة من جانب الطور الأيمن تكليماً، وفي الحديث الشريف: أن الله تبارك وتعالى اصطفى موسى عليه السلام لكلامه، لشدة تواضعه لله ذي الجلال والإكرام، مما يدل على موافقة الجزاء الإلهي للعمل، فقابل الله جل جلاله تواضع موسى الكليم عليه السلام بأن رفع شأنه، وأعلى مكانته، واصطفاه لكلامه، وجعله أحد أفضل الأنبياء الخمسة، وهم أولو العزم: نوح و إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

وقد توفي موسى الكليم عليه السلام في سنوات التيه الأربعين في صحراء سيناء، حيث أمره الله جل جلاله بأن يذهب ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة (فلسطين) للإقامة فيها، وقبل أن يدخلها أرسل من يستطلع الوضع فيها،

ويعرف أخبار أهلها، فأخبره رجال الاستطلاع أن قومها أقوياء جبارين طوال القامة، وأن مدنها حصينة جداً، فخاف بنو إسرائيل ورفضوا دخولها، وتمردوا على أمر الله ﷻ وأمر رسوله الكريم ومخلصهم موسى بن عمران الكليم عليه السلام وقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[1] فغضب الله ﷻ عليهم، وعاقبهم على معصيتهم لله ﷷ ولرسوله الكريم عليه السلام بالتيه في الصحراء، وأخبر نبيه الكريم موسى بن عمران عليه السلام بأن الأرض المقدسة محرمة عليهم، وأنهم سيتيهون في صحراء سيناء لمدة أربعين سنة، قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۝٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[2] وفي هذه السنوات الأربعين توفي كذلك أخوه ووزيره وشريكه في الرسالة هارون عليه السلام وهو أكبر منه بثلاث سنين، وكانت وفاة موسى الكليم بعد وفاة أخيه هارون عليه السلام بثلاث سنين، وذلك بتاريخ: ٢١ رمضان، ودفن في صحراء سيناء، ولم يدخل الأرض المقدسة، وخلفه وصيه يوشع بن نون عليه السلام.

١. المائدة: ٢٢

٢. المائدة: ٢٥-٢٦

المقدمة الثانية: التعريف بهارون عليه السلام

اسمه: هارون بن عمران بن يصهر بن يافث بن لاوي بن يعقوب «إسرائيل» بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام وجدته: سارة زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام بينما كانت هاجر هي أم عمهم إسماعيل الذبيح بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وهارون: هو أخو نبي الله موسى الكليم عليه السلام لأمه وأبيه ووزيره وشريكه في الرسالة، وأمهما: يوخابيد، وكان بينهما وبين جدهما إبراهيم الخليل عليه السلام خمسمائة عام تقريباً، وبينهما وبين حكومة عمهما يوسف الصديق عليه السلام في مصر بناءً على طلب يوسف الصديق عليه السلام، أربعمائة عام تقريباً.

وكان هارون عليه السلام شريكاً لأخيه موسى الكليم عليه السلام في النبوة والرسالة وحركة الإصلاح والمطالبة بالحقوق المسلوبة لبني إسرائيل، قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾[١].

ولد هارون عليه السلام في مصر، في القرن الثالث عشر قبل الميلاد (١٣.ق.م) وكانت ولادته قبل أخيه موسى الكليم عليه السلام بعام، وقيل: بثلاثة أعوام، وعليه فإنه بعث وعمره الشريف إما واحد وأربعين، أو ثلاثة وأربعون سنة، حيث كان عمر أخيه موسى الكليم عليه السلام حين البعثة: أربعون سنة.

وكانت رسالتهما تتضمن شقين:

الشق الأول - نظري: وهو الدعوة إلى عقيدة التوحيد والنبوة والمعاد.

الشق الثاني - عملي: وهو إنقاذ بني إسرائيل وتحريرهم من مظالم فرعون الطاغية وتجبره، وهذا يدل على أن المطالبة بالحقوق المشروعة المسلوبة من طائفة مظلومة، لا يدل على الطائفية والتمييز بين المطالبين بالحقوق، و إنما يدل على ظلم وطائفية الطرف أو الجهة التي تسلب الحقوق المشروعة من هذه الطائفة المظلومة المستضعفة وميزت ضدها، قول الله تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾[٢].

---

١. طه: ٢٤-٣٦

٢. طه: ٤٢-٤٧

استضعاف بني إسرائيل لهارون

أخبر الله عز وجل بني إسرائيل على لسان نبيه الكريم موسى الكليم عليه السلام: بأن الله عز وجل سيهلك فرعون وجنوده أجمعين، ويقضي على النظام الملكي الفرعوني الفاسد، وأنهم سيرثون الأرض والحكم والثروة والمقدرات بعد هلاك فرعون وزوال نظامه الفاسد، وأن الله تبارك وتعالى سينزل عليهم كتاباً من عنده، يمَثّل لهم دستوراً شاملاً ينظم حياتهم الخاصة والعامة، ويبين لهم ما يحتاجونه من المعارف الإلهية الحقة، والمواعظ والأحكام والسيرة، وما ينبغي أن يسيروا عليه في أمور الدين والدنيا.

فلما أهلك الله عز وجل فرعون وجنوده أجمعين بالغرق في نهر النيل العظيم، ليكونوا عبرة لغيرهم الذين يأتون بعدهم، فلا يفعلوا مثل فعلهم في العناد والتعصب الأعمى والكفر وتكذيب الرسل الكرام والأوصياء الهادين المهديين عليهم السلام وقتل الصالحين والمصلحين والمطالبين بالحقوق، وظلم العباد والطغيان عليهم، ونشر الفساد في الأرض ونحو ذلك من المفاسد والمظالم والذنوب والمعاصي والجرائم والجنايات، توجه موسى الكليم عليه السلام إلى ساحة القدس، وسأل ربه الكريم عن الكتاب الذي وعده بأن ينزله عليه لهداية بني إسرائيل و إصلاح شأنهم.

فأمره ربه تبارك وتعالى أن يقصد جبل الطور الذي كلمها عنده من الشجرة النورانية المباركة تكليماً أول الوحي عند عودته من أرض مدين إلى موطنه مصر ليخلو به لمناجاته، وأن يمكث فيه ثلاثين يوماً من ذي القعدة صائماً متعبداً، فلما أتم موسى الكليم عليه السلام الثلاثين يوماً أمره

ربه تبارك وتعالى أن يواصل الصيام والعبادة لعشرة أيام أخرى من ذي الحجة، وبذلك فقد أتم موسى الكليم عليه السلام الصيام والعبادة لمدة أربعين يوماً، وقد وافق آخر يوم فيها يوم العاشر من ذي الحجة ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[١]، وقد وردت آيات قرآنية كريمة وأحاديث شريفة في فضل عدد الأربعين بالذات، مما يجعل له شأناً خاصاً لا يتوفر لغيره من الأرقام والأعداد، منها: عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «**ما أخلص عبد الإيمان بالله أربعين يوماً أو قال ما أجمل عبد ذكر الله أربعين يوماً، إلا زهده الله في الدنيا، وبصره داءها ودواءها، وأثبت الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه**»[٢].

وفي فضل العشر الأوائل من شهر ذي الحجة منها الحديث النبوي الشريف: «**ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله عز وجل من أيام هذه العشرة**» يعني العشر الأوائل من شهر ذي الحجة. وفي حديث آخر: «**ما من أيام أزكى عند الله تعالى ولا أعظم أجرًا من خير من عشر الأضحى**»[٣] وقيل هي الأيام المعلومات المذكورة في القرآن الكريم، قول الله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾[٤]، وقول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾[٥]، فقد اختارها الله جل جلاله لذكره، وجعلها محلًا لخزانة سره،

١. الأعراف: ١٤٢

٢. بحار الأنوار، جزء ٧٠، صفحة ٢٤٠، الحديث ٨

٣. الإقبال، ابن طاووس، جزء ٢، صفحة ٣٥

٤. الحج: ٢٨

٥. البقرة: ٢٠٣

وأهلاً لتشريفها بتعظيم قدره، ومنزلاً لإطلاق بره، ومنهلاً للتلذذ بكاسات شكره، ووقتاً للدخول إليه والثناء عليه، ولها أعمال خاصة مستحبة في الشريعة المقدسة مفصلة في الكتب المعتبرة.

وبعد أن أتم موسى الكليم عليه السلام الأربعين يوماً في الصيام والعبادة، أنزل الله تبارك وتعالى عليه الألواح (أسفار التوراة) وفيها مبيّن كل ما يحتاجه بنو إسرائيل في مسيرتهم التكاملية المعرفية والتربوية والحضارية، من المعارف الإلهية الحقة، والمواعظ والأحكام الشرعية والسيرة، وكل ما يحتاجه بنو إسرائيل في أمور دينهم ودنياهم في ذلك الزمان، وأمره الله تعالى تبارك وتعالى بأن يعمل بما فيها ويدعو إليها بجد واجتهاد وحزم وعزم ونشاط، وبنية صادقة وخالصة لوجه الله سبحانه وتعالى، وأن يحذر من أن يفوته منها شيء، وأن يأمر قومه (بني إسرائيل) بأن يتجنبوا المعاصي والسيئات فلا يقاربوها، وأن يعملوا بما تهدي إليه التوراة وتأمرهم به من الحسنات والأعمال الصالحة، وأن يحرصوا على سلامة العمل وإتقانه والإتيان به على أحسن وأكمل وجه، وأن يأخذوا بالاحتياط ويتبعوا الأرقى والأسمى والأكمل، ويعملوا بأفضل الخيارات مما أجره أكثر من غيره فيما ترك لهم الخيار فيه ما استطاعوا إلى ذلك، مثل: كظم الغيظ والعفو بدل معاقبة المعتدي، والتجاوز عن بعض الحق بدل المطالبة به كله، والصدقة المستحبة، ونحو ذلك.

وحذرهم من مخالفة تعاليم التوراة، والفرار من التكاليف والمسؤوليات والوظائف الشرعية العبادية والمالية والجهادية ونحوها، الأمر الذي

تستتبعه نتائج وخيمة وعواقب سيئة مؤلمة في الدارين الدنيا والآخرة، قول الله تعالى ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾[1]، وفي الآية الشريفة دليل على أن أوامر الله ﷻ في كل شريعة سماوية، أوامر كاملة شاملة وعادلة وحسنة وليس فيها سيء أبداً، وأنها أنزلت على علم وهدىً ورحمة للعالمين.

كما أخبر الله ﷻ نبيه الكريم موسى الكليم عليه السلام بأن السامري - نسبة إلى قبيلة تعرف بالسامرة - قد أضل بني إسرائيل أثناء غيبته عنهم وذهابه إلى ميقات ربه، واستبطائهم رجوعه في العشر المزيدة في الميقات على الثلاثين يوماً، حيث سوّلت للسامري نفسه الأمّارة بالسوء، وكان مطاعاً في بني إسرائيل فأخذ من نسائهم ما كان معهم من الحلي التي كن يتحلين بها من الذهب والفضة وقد جلبنها معهن من مصر، فألقاها في النار فأذابها، وصنع منها تمثالاً لصورة عجل، وجعله جسداً لا روح له ولا حياة فيه، وقد صنعه بطريقة هندسية متقنة الصنع، بحيث تدخل الرياح في جوفه، فيخرج من فمه صوت كصوت الثور، وأمرهم بعبادته، - وكانت عبادة البقر موجودة في مصر آنذاك -، فأطاعوه واتخذوا جسد العجل المصنوع إلهاً وسجدوا له، رغم أنهم صنعوه بأيديهم ويرون منه الجمود وعدم الحركة، وأنه لا يرد عليهم جواباًولا يكلمهم ولا يهديهم طريق حق أو باطل مادي أو معنوي، ولا ينفعهم ولا يضرهم بشيء، وليس فيه شيء من الصفات ما يوجب أن يكون لهم إلهاً، وقد عهدوا من موسى

١. الأعراف: ١٤٥

الكليم عليه السلام أن الله سبحانه وتعالى يكلمه ويهديه ويدافع عنه، مما يدل على حمقهم وضعف عقولهم ومنطقهم وسفاهة أحلامهم، فهم في الحقيقة والواقع ظالمون لأنفسهم؛ لأنهم خالفوا العقل والمنطق والحق المبين، بأن أشركوا بالله سبحانه وتعالى بدون حجة ولا برهان، ووضعوا العبادة في غير موضعها، واتخذوا إلهاً لا يتكلم ولا يضر ولا ينفع، وهو من أبطل الباطل وأسمج السفه، قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾[1]، وعبارة ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ تدل على أن الإله الحقيقي المستحق للعبادة والطاعة يجب أن يكون كاملاً من جميع الجهات، وأن تكون عبادته وطاعته نافعة للإنسان نفسه، كما تدل على أن يكون كل من يتولى وظيفة عامة مؤهلاً لها، وأن يكون وجوده فيها نافعاً للناس أكثر من غيره.

وظاهر الأخبار أن الله عز وجل، قد واعد موسى الكليم عليه السلام ثلاثين يوماً لمناجاته في جبل طور سيناء، ثم زاده عشرة أيام اختباراً لبني إسرائيل، ليعلم الله عز وجل إخلاصهم وحقيقة إيمانهم بعد كل ما رأوه من المعجزات والأدلة والبراهين الساطعة القاطعة، وما منّ الله تبارك وتعالى به عليهم من النجاة والخلاص من القوم الظالمين، والنعم العظيمة التي أنعم الله تبارك وتعالى عليهم.

وقد ظهر وتبين ضعف إيمانهم ومنطقهم وقلة يقينهم، واستعدادهم

---

١. الأعراف: ١٤٨

للكفر والجحود، رغم كل ما رأوه من المعجزات والبينات وعقلوه من الأدلة والبراهين، فأطاعوا أولياء الشيطان وعبدوا العجل وعصوا الرحيم الرحمن، ولم ينظروا بعقولهم ولم يسمعوا بنصائح الوصي الهادي المهدي هارون عليه السلام الذي أمرهم الله جل جلاله وأوصاهم موسى الكليم عليه السلام بطاعته واتباع أمره ونهيه فيهم، لكنهم عصوه واستضعفوه وأصروا على البقاء على عبادة العجل حتى يرجع إليهم موسى الكليم عليه السلام وينظروا رأيه، وكأنهم توقعوا لضعف وسفاهة تفكيرهم، بأن يتركهم موسى الكليم عليه السلام على الشرك والبقاء على عبادة العجل، قول الله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[1]، وفي الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**والذي نفسي بيده، لتركبن سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، حتى لا تخطؤون طريقهم ولا تخطأكم سُنّة بني إسرائيل**»[2].

استخلاف موسى الكليم لهارون عليهما السلام

وكان موسى الكليم عليه السلام قد استخلف أخاه ووزيره وشريكه في الرسالة هارون عليه السلام على بني إسرائيل قبل أن يخرج إلى ميقات ربه لمناجاته على جبل طور سيناء، وأوصاهم بطاعته والامتثال لتعاليمه ونصائحه ومواعظه و إرشاداته وتوجيهاته الحكيمة المعصومة، وأن يفعلوا كما يفعل ويقتدوا به في كل شيء، وحذرهم من معصيته ومخالفته وعدم الامتثال لأمره ونهيه، قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ

---

١. الأعراف: ١٥٩

٢. تفسير الصافي، الكاشاني، جزء٢، صفحة ٤٠٢

﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[١]، أي: قال موسى الكليم لأخيه ووزيره وشريكه في الرسالة هارون عليه السلام عند خروجه لميقات ربه لمناجاته على جبل طور سيناء: كن خليفتي ووصيّي في قومي أثناء غيابي عنهم لميعاد ربي لمناجاته على جبل طور سيناء، واعمل فيهم بما كنت أعمل، واحرص تمام الحرص على إصلاح فاسدهم وما يجب أن يصلح من أمورهم ويرفع شأنهم ومكانتهم بين الأمم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وذلك سبيل أهل الصلاح والإصلاح، ولا تسلك سبيل المفسدين، ولا تكن عوناً للظالمين والجائرين عن طريق الحق والعدل والصواب، ولا تتبع في تدبيرك لشؤون بني إسرائيل و إدارة أمورهم، ما يقترحه عليك المفسدون العاصون المخالفون للتكليف الشرعي، الذين يتبعون أهواءهم الشيطانية وشهواتهم الحيوانية ومصالحهم الخاصة ويسعون للرئاسة والزعامة ونحو ذلك، ويكيدون ببني إسرائيل ويريدون لهم الشر ويسعون لتفريق شملهم واختلاف كلمتهم ويوقعونهم في الفتنة والضلال والاختلاف في الدين الحق من أجل مصالحهم الأنانية المفرطة، مما يدل على أن في بني إسرائيل كما هو الحال في كل أمة وشعب، منافقين أنانيين خطرين يجب على هارون عليه السلام كما هو واجب على كل مخلص شريف واعي أن يكون على حذر شديد منهم، وأن يتحلى باليقظة ويراقب حركاتهم وتصرفاتهم بشكل دائم، وأن يبادر لإجهاض مؤامراتهم الخبيثة قبل أن تولد وتستفحل، فهؤلاء الخبثاء الأنانيون لا تهمهم إلا أنفسهم ومصالحهم الأنانية، ولا يهمهم الدين والمبادئ والمصالح العامة الإنسانية والدينية والقومية والوطنية ونحوها.

---

١. الأعراف: ١٤٢

تصدى هارون عليه السلام لفتنة العجل

فلما جاء السامري ببدعة عبادة العجل الذهبي، وهي بدعة عجيبة ومؤسفة جداً، وتدل على ضعف منطق بني إسرائيل وإيمانهم، وتكشف عن شدة تعلقهم بعالم المادة والمال والذهب والفضة وزخارف الحياة الدنيا، على حساب قيم الفكر والروح، فتصدى لهم هارون عليه السلام وأدى ما عليه من الواجب والتكليف الشرعي في محاربة الضلال والانحراف، وبذل ما في وسعه من النصح والوعظ والإرشاد لهداية بني إسرائيل وردهم عن غيهم وضلالهم، قول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾[1] أي: قال الوصي والخليفة بحق هارون عليه السلام لبني إسرائيل الذين عبدوا عجل السامري وسجدوا له حين جاء السامري ببدعته الضالة هذه قبل أن يرجع موسى الكليم عليه السلام إلى بني إسرائيل من الميقات الذي واعده ربه لمناجاته على جبل طور سيناء: يا قوم!! لقد ابتليتم ووقعتم في الفتنة، وخالفتم منطق العقل والفطرة والطبع السليم، وضللتم عن الدين الحق الحنيف، حين عبدتم العجل وسجدتم له من دون الله سبحانه وتعالى، الذي هو ربكم الحق، الذي تجب عليكم عبادته وطاعته والسجود له وحده لا شريك له، فهو الرحمن الرحيم بكم، الذي خلقكم وخلق كل شيء في الوجود سواه، وهو يرزقكم ويدبر أمركم وأمر العالم كله، ويدفع عنكم الضرر ويجلب لكم النفع، وقد أنعم عليكم بنعمه العظيمة، حيث كنتم عبيداً فحرركم، وكنتم متفرقين فجمعكم ووحدكم تحت رجل رباني منكم، وكنتم جاهلين فعلمكم وألقى إليكم

---

١. طه: ٩٠

نور المعرفة، وكنتم ضالين فهداكم إلى الدين الحق والصراط المستقيم، وإليه معادكم وعليه حسابكم وجزاؤكم على أعمالكم في يوم القيامة، لا هذا العجل الذهبي الذي صنعه السامري بيده وأعنتموه على صنعه، ثم دعاكم إلى عبادته والسجود له فأطعتموه، وهو جسد لا روح له ولا حياة فيه، ولا يضركم ولا ينفعكم بشيء، ولا يسمع كلامكم إذا كلمتموه ولا يجيب عليه، ولا يهديكم إلى طريق حق أو خير مادي أو معنوي فتسلكوه، ولا طريق باطل أو شر فتجتنبوه، فاسمعوا لي وأطيعوني فيما آمركم به وأرشدكم إليه، وفيما أنهاكم عنه وأحذركم منه، فأنا الوصي المؤتمن عليكم، فقد خلفني فيكم نبيكم وقائدكم الأعظم موسى الكليم عليه السلام وأوصاكم بطاعتي وحذركم من معصيتي ومخالفة أمري، وأنا نبي معصوم، وشريك لأخي موسى الكليم عليه السلام في الرسالة والقيادة، وطريقي هو طريق الحق والعدل والفضيلة والصواب. فلا تنقضوا العهد والميثاق وتخالفوا الدين والعقل والمنطق بمخالفتكم لي ومعصيتي، واتبعوني في عبادة الله الواحد القهار سبحانه وتعالى، ولا تسمعوا للسامري وتتبعوه، فترموا بأنفسكم في هاوية الهلاك والشقاء، فهو منافق ضال مضل ومفرط في الأنانية وتضخم الذات، وطاعته تؤدي بكم حتماً إلى الشقاء وسوء العاقبة في الدارين الدنيا والآخرة.

إلا أن عبدة العجل الضالين، لم يسمعوا من الوصي الناصح الأمين نصحه لهم ولم يستجيبوا لتحذيراته، ولم يؤثر فيهم المنطق المتين، والبيان الواضح، وحرارة الصدق والإخلاص في الوعظ والإرشاد، ولا أي شيء من هذا القبيل، وعصوه واضطهدوه وكادوا يقتلونه، وأصروا على

الاستمرار في عبادة العجل لفرط حمقهم وسفاهة أحلامهم، إلى حين يرجع إليهم موسى الكليم عليه السلام ليروا رأيه، إن كان يقرهم على عبادة العجل الذهبي أو ينهاهم عنها!! قول الله تعالى: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾[1] أي: أنهم لفرط حمقهم وسفاهة أحلامهم وضعف منطقهم وتخلف تفكيرهم، توقعوا بأن من الممكن أو الجائز أن يقرهم موسى الكليم عليه السلام على شركهم بالله سبحانه وتعالى والضلال البين، ويسمح لهم بالبقاء على عبادة العجل الذهبي وربما يسجد له مثلهم.

وعليه: فإنهم لم يكتفوا بمخالفة العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم ونداء الضمير، بل أعرضوا أيضاً عن نداء نبيهم وخالفوا الوصي والخليفة والقائد الهادي المهدي هارون عليه السلام الذي أمروا بالرجوع إليه وأوجبت عليهم طاعته واتباعه بحكم العقل والدين، قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[2].

وفتنة عجل السامري تسلط الضوء على خطورة الحركات الرجعية المضادة التي تسعى إلى الانقضاض على الثورات والحركات الإصلاحية وتحطيم نتائجها والرجوع بالأمة أو الشعب إلى الوراء، وذلك بدوافع التعصب الأعم للتراث، أو لتحقيق مصالح شخصية أنانية على حساب تاريخ الأمة أو الشعب ومصالحها الحيوية والجوهرية، وتعتمد لتنفيذ مخططاتها وتحقيق أهدافها الخبيثة على الجذور العميقة للنظام القديم

١. طه: ٩١

٢. الملك: ١٠

والنزاعات المنحرفة والاستعدادات الشاذة والعناصر الانتهازية وفقاً لمستوى الضعف في الأمة، واستغلال الفرص الزمانية والمكانية المؤاتية. وتدل على أن التخريب والإفساد والإضلال، يمكن أن يحدث في الأمة المسلمة، وربما استطاع شخص منافق واحد كالسامري، يتمتع بالدهاء والمكر، ويحظى بثقة عامة الناس، أن يغوي ببدعه وأفكاره الضالة جماعات كبيرة أو طائفة كبيرة من الأمة ويجمعهم حوله، وينجح في تخريب كيانٍ عظيمٍ بذلت الأرواح والأنفس في بنائه وتشييده لسنين طويلة، خاصة إذا سرت في الأمة نزعة منحرفة أو استعداد شاذ ووافق الانحراف والضلال هوى الأكثرية ورغباتها، وساندته جماعة كبيرة من النخبة الدينية والفكرية والسياسية والمهنية الانتهازية، مما يوجب على قيادات الحركات الثورية والإصلاحية وجماهيرها الواعية، اليقظة والحذر الشديد، وضرورة التعرف على أشخاص المنافقين الخطرين وأدوارهم ودوافعهم، ومراقبة تحركاتهم، والمبادرة السريعة لإجهاض مؤامراتهم الخبيثة قبل أن تبيض وتستفحل.

كما تكشف فتنة العجل عن الحاجة الضرورية المستمرة المواكِبة إلى مسيرة الأمة، إلى القيادة الواعية البصيرة، والإمام الهادي المهدي الذي بدونه تصبح الاستقامة على الدين الحق وتصحيح الانحراف المستشري والمتأصل في الأمة أمراً مستحيلاً.

كما تكشف الفتنة عن ضرورة تحصين القاعدة الجماهيرية العريضة بالوعي والبصيرة وقوة الإيمان، قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ

بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[١] فلا يكفي لتحصين الثورة والإصلاح توفر القيادات والنخبة على الوعي والبصيرة، بل يجب أن ينتقل الوعي والبصيرة من القيادات والنخبة إلى القاعدة الجماهيرية الواسعة في سبيل تأمين نتائج الثورة والحركة الإصلاحية من الانقلاب عليها والعودة إلى الوراء. وفي الوقت الحاضر تكشف عن أهمية الدور الذي تلعبه الأحزاب السياسية ومؤسسات المجتمع المدني في المحافظة على نتائج الثورة والإصلاحات، مما يعني ضرورة بنائها على أسس فكرية وسياسية ثورية و إصلاحية، وتعزيز الحالة التنظيمية المؤسسية، ووضع آليات واضحة لاتخاذ القرارات والإلتزام بها، وترشيد الحالة الشعبية وضبط حركاتها وفق قواعد رئيسية، مثل: التمييز بين الإمام والولي الفقيه وغيرهما، والتثبت من أهلية الرموز والقيادات الشعبية واستحقاقها للدور، وجعل الحق والمصير والمصالح العامة فوق الأشخاص، وأن الأشخاص يعرفون بالحق لا أن الحق يعرف بالأشخاص، والحذر الشديد من الغوغائيين والانتهازيين ونحو ذلك.

كما تدل فتنة عجل السامري على صعوبة التصحيح إذا سرى الانحراف والضلال في الأمة وتمكن منها، وأصبحت له رموزه ومرجعياته الفكرية والسياسية والاجتماعية، وربما أدى إلى الاقتتال وسفك الدماء، وضياع الثورة، و إعاقة مسيرة التقدم والتطور المعرفي والتربوي والحضاري، وربما احتاج التصحيح إلى بذل جهود وتضحيات جسيمة، ربما تفوق تلك التي بذلت في التأسيس والبناء، و إلى زمن أطول بكثير، وسبقت الإثارة إلى أن التصحيح يصبح أمراً مستحيلاً بدون وجود مرجعية هادية متفق عليها.

---

١. يوسف: ١٠٨

الجدير بالذكر أن النبي محمد صلى الله عليه وآله قد قال لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**» وهذا حديث متواتر روته مجامع الحديث عند جميع الفرق الإسلامية، منها: صحيح البخاري وصحيح مسلم، عن عدد كبير من الصحابة، منهم: عمر بن الخطاب، ومعاوية بن أبي سفيان، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأبوسعيد الخدري، وابن عباس، وعبدالله بن مسعود، وأنس بن مالك، وزيد بن أرقم، وأبو أيوب، وأسماء بنت عميس، وأم سلمة، وغيرهم، ويدل الحديث على أن لعلي بن أبي طالب عليه السلام جميع المراتب والمنازل المعنوية السامية التي كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله ما عدا النبوة والوحي وله جميع المناصب القيادية العليا التي كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله، مثل: التبليغ عن الله تبارك وتعالى والحكم والقضاء، وله جميع الحقوق على المسلمين، مثل: الطاعة والاتباع والامتثال لأوامره ونواهيه، كالتي كانت لهارون عليه السلام في بني إسرائيل. و إن علي بن أبي طالب عليه السلام هو أفضل المسلمين بعد الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله كما كان هارون في بني إسرائيل، وأن علي بن أبي طالب عليه السلام هو الخليفة مباشرة بعد الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله كما كان هارون في بني إسرائيل إبان غيبة موسى الكليم عليه السلام، وليس هناك من هو أصلح منه لهذا المنصب، ولا يجوز لغيره أن يتولى هذا المنصب مع وجوده، وأن طاعة علي بن أبي طالب عليه السلام واتباعه هدى، ومعصيته ومخالفته ضلال، كما يدل على ذلك حديث الثقلين، قول الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ**

الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[١].

وقد اختلفت الأمة المسلمة بعد الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وقتل بعضها بعضاً، ووقعت في فتن عظيمة، ولا زال الاختلاف موجوداً ويتسع يوماً بعد يوم، وقد بلغ مدىً خطيراً في الوقت الراهن حيث تكفير المسلمين بعضهم بعضاً، وحدوث الاقتتال الدامي بينهم على أسس وأغراض طائفية، ولا سبيل لخروج المسلمين من هذه الأزمة البالغة إلا بالرجوع إلى سفينة النجاة، وهم أهل بيت النبي ﷺ قول الرسول الأعظم الأكرم: «**مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق**»[٢]. وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم». وهذا ما سيحدث حتماً في آخر الزمان على يد الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف ولكن الطموح إلى حصول شرف السبق إليه قبل الظهور.

تأنيب موسى الكليم عليه السلام لبني إسرائيل وتوبيخهم بشأن عبادة العجل

أخبر الله عز وجل نبيه الكريم موسى بن عمران الكليم عليه السلام حين كان غائباً عن بني إسرائيل في ميقات ربه لمناجاته على جبل طور سيناء، بأن السامري قد أضل بني إسرائيل بعبادة العجل الذهبي، قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾[٣] أي: امتحنا قومك الإسرائيليين

١. صحيح الترمزي، جزء٢، صفحة ٨

٢. مستدرك الصحيحين، جزء٢، صفحة ٣٤٣

٣. طه: ٨٥

واختبرناهم وابتليناهم وأوقعناهم في فتنة عظيمة بعد خروجك عنهم لميعادنا على جبل طور سيناء، ليظهروا على حقيقتهم ويتبين صدق إيمانهم أو كذبهم، ونميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، ونميز قوي الإيمان من ضعيف الإيمان، والواعي البصير من الغث الجاهل، ولتكون لنا الحجة البالغة عليهم، ونجازي كلاً بحسب عمله وبما هو عليه من حقيقة العقيدة والدين بعد إقامة الحجة، وذلك بأن سبك لهم السامري العجل مما كان في أيديهم من الحلي المصنوعة من الذهب والفضة، ودعاهم إلى عبادته والسجود له فأطاعوه؛ لأنه يوافق هوى أنفسهم، حيث طلبوا منك من قبلُ بعدَ عبور النيل، أن تجعل لهم صنماً يعبدونه وقد وبختهم على ذلك ونهيتهم عنه بشدة، وبينت لهم حقيقته، قول الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] إلا أنهم اغتنموا فرصة غيابك عنهم، فصنع السامري العجل، ودعاهم إلى عبادته والسجود له فأطاعوا السامري في دعوته الضالة التي توافق هوى أنفسهم، ووقعوا في فتنته، مما يدل على ضعف منطقهم وإيمانهم وتخلف تفكيرهم وتأصل الاستعداد للجحود والضلال في أنفسهم، فما كان لهذا الضلال البين أن يحدث بهذا العمق والسعة بدون أن توجد له أرضية مناسبة في أنفسهم وتفكيرهم، فلا تكن واثقاً منه بالبقاء على الدين والإيمان الذي خلفتهم عليه.

وفتنة بني إسرائيل بالعجل السامري، تدل على أهمية الابتلاء في

---

١. طه: ١٣٨-١٣٩

غربلة الأمة وتأهيلها فكرياً وروحياً وسلوكياً، والارتقاء بها في سلم التكامل المعرفي والتربوي والحضاري، والوصول بها إلى درجة الخلافة الإلهية للإنسان و إقامة الحضارة الإنسانية الإلهية المتكاملة المتوازنة.

وبعد أن استوفى موسى الكليم عليه السلام الأربعين يوماً في الميعاد على جبل طور سيناء، ونزلت عليه التوراة وفيها كل ما يحتاجه الإسرائيليون من مسائل العقيدة والأحكام الشرعية والمواعظ والسيرة وغيرها، وأخبره ربه عز وجل عن فتنة السامري وضلال بني إسرائيل، رجع إلى قومه الإسرائيليين وهو في أشد حالات الغضب والأسف والحزن حيث وجد نفسه أمام أسوأ المشاهد والتوقعات في قومه، ألا وهو الانحراف عن عقيدة التوحيد والدين الحق والصراط المستقيم، إلى عبادة العجل والسجود له وهو ضلال بيّن، بعد كل ما رأوه من المعجزات النيرات الباهرات والبينات الواضحات، وقد أرهق نفسه وتحمل المصائب والمصاعب وواجه الأخطار وحمل روحه على كفه وبذل عمره طوال السنين العديدة التي قضاها فيهم في سبيل هدايتهم ووضع أقدامهم على طريق الدين الحق وتثبيتهم على الصراط المستقيم، وها هو يرى جهوده التي بذلها طوال عمره قد ذهبت أدراج الرياح مع وقوعهم في فتنة السامري المشؤومة وضلالهم وعبادتهم للعجل الذهبي وسجودهم له، ويرى ببصيرته الثاقبة آثار تلك الفتنة والضلال وأبعادهما وأخطارهما وعواقبهما السيئة المذمومة على بني إسرائيل في الدارين الدنيا والآخرة، فألقى الألواح (التوراة) من يده، لما عراه من الدهشة، ولفرط الحزن والأسف والغضب على قومه، وحمية على الدين الحنيف، وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه، وقيل: فعل ذلك بأخيه

كما يفعل المرء بنفسه عند شدة الغضب، فهارون عليه السلام بمقام النفس عند موسى الكليم عليه السلام حيث فوجئ بالردة عن الدين الحق والتوحيد، إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى وعبادة العجل من قومه الإسرائيليين، قول الله تعالى ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾[1] وقد أراد بتلك الحركة المثيرة للعجب والدهشة أن يشد انتباه بني إسرائيل، ويعرفهم خطورة الانحراف والضلال الذي وقعوا فيه، وشدة الجرم الذي ارتكبوه، وعظمة الذنب القبيح جداً الذي ارتكبوه، فهو على مستوى عالٍ جداً من الخطورة إلى الدرجة التي حملته على إلقاء الألواح والأخذ برأس أخيه وجره إليه من شدة الغضب، وليوقظ عقولهم ويحرك ضمائرهم لمواجهة ذلك الانحراف والضلال الخطير جداً على حاضرهم ومستقبلهم في الدارين الدنيا والآخرة، وليردهم إلى طريق الدين الحق والصواب والفضيلة، وعليه يكون هذا العمل: «إلقاء الألواح والأخذ أخيه»، عملاً طبيعياً وسلوكاً سوياً ومناسباً في موضوعه وواقعه، بل هو سلوك أخلاقي نبيل وسامي، وواجبٌ شرعيٌ يليق بالنبوة والرسالة، وليس عملاً طائشاً أو انفعالياً مزعوماً، وكان هارون عليه السلام متفهماً لهذا التصرف الرسالي المسؤول من ولي الله الأعظم وأخيه وقائده و إمامه موسى الكليم عليه السلام وراضياً به كل الرضا الرسالي السامي، من أجل مرضاة الله جل جلاله، ومصلحة بني إسرائيل العليا.

وقد نجح موسى الكليم عليه السلام بحركته الرسالية النبيلة والمسؤولة تلك أن يشد انتباه بني إسرائيل، ويعرفهم خطورة الانحراف والضلال الذي وقعوا فيه، وأن يترك في نفوسهم الأثر التربوي البالغ، ويعيدهم إلى رشدهم و إلى

---

١. الأعراف: ١٥٠

طريق الدين الحق الحنيف، ويثبتهم من جديد على الصراط المستقيم والنهج القويم، فقد عرفوا قبح عملهم وبشاعة جرمهم وعظيم ذنبهم، فتابوا إلى الله سبحانه وتعالى، واستغفروه وطلبوا منه العفو والرحمة، فقبل توبتهم وغفر لهم وعفا عنهم ورحمهم. ثم توجه إلى بني إسرائيل يلومهم ويؤنبهم ويوبخهم على ما فعلوه من الضلال البين المخالف لمنطق العقل والفطرة والطبع السليم وقواعد الدين الحنيف التي علمهم إياها وبثها بينهم، فقال: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾[1] أي: بئس العمل ما عملتموه وبئس الصنع ما صنعتموه من بعد غيبتي عنكم لميعاد ربي على جبل طور سيناء، باتخاذكم العجل إلها وعبادتكم وسجودكم له، وهو ضلال مبين، مخالف لمنطق العقل والفطرة والطبع السليم وما علمتكم إياه ونشرته بينكم من قواعد الدين الحنيف ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾[2] ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً بالجنة والنعيم العظيم فيها إذا قمتم على طاعته، وأن ينجيكم من عدوكم ويهلكه ويستخلفكم في الأرض ويمكنكم من الحكم والثروة ومقدرات الدولة بدلاً عنه، ويعطيكم الأرض المقدسة (فلسطين) لتسكنوها وتحكموها مطمئنين آمنين، وأن ينزل عليكم التوراة لهدايتكم، وفيها كل ما تحتاجونه من مسائل العقيدة والأحكام الشرعية والمواعظ والسيرة، وجعل في العمل بما فيها سعادتكم الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة، ونحو ذلك. ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾[3] و﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾[4] أي:

١. نفس المصدر

٢. طه: ٨٦

٣. نفس المصدر

٤. الأعراف: ١٥٠

هل طال عليكم زمان غيابي عنكم في الميقات لمناجاة ربي، وعجلتم عودتي إليكم، أو أعجلتم في الحكم في أمر ربكم بأن بنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره بنهاية الثلاثين يوماً ولم تجعلوا احتمالاً لتمديده، فاعتبرتم عدم رجوعي إليكم في المدة المعلومة لديكم دليلاً على موتي أو شيئاً من هذا القبيل، أو تعجلتم أمر ربكم وطلبتموه قبل أوانه ففعلتم ما فعلتم من الشرك بالله سبحانه وتعالى والضلال عن دينه الحق، وغيرتم في الدين الحق كما غيرت الأمم قبلكم في الدين الحق بعد أنبيائها، وعبدتم العجل وسجدتم له على خلاف العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم وما علمتم من الدين الحنيف، فكنتم بذلك من الظالمين لأنفسكم وللأجيال القادمة بعدكم. وكان الجدير بكم أن ترجعوا إلى الوصي والخليفة فيكم هارون عليه السلام وأن تتريثوا وتنتظروا ريثما تتضح الحقيقة وتتبين كما جرت عليه سيرة العقلاء في المسائل المهمة والقضايا الكبيرة والمصيرية، لا أن تتعجلوا وتتجاهلوا أمر ربكم الذي هو أبصر بما فيه خيركم وصلاحكم، ويجري الأمور كلها على ما تقتضيه حكمته البالغة والرحمة بالعباد وما فيه صلاح أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1] أي: أردتم بما عملتموه من الضلال وعبادة العجل والسجود له، أن يلزمكم وينزل عليكم سخط ربكم وعقوبته الشديدة المؤلمة في الدارين الدنيا والآخرة ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾[2] أي: أخلفتم موعدي بحسن الخلافة أثناء غيبتي عنكم، وقد وعدوه بالثبات على دين الله الحق وما تركهم

١. طه: ٨٦

٢. نفس المصدر

عليه من الإيمان، وأن يقيموا على طاعة الله ذي الجلال والإكرام وطاعة الوصي والخليفة والإمام فيهم بعده هارون عليه السلام واتباعه والاقتداء به، وأن لا يغيروا ولا يبدلوا في التدين والسيرة الحسنة ونحو ذلك، إلى أن يرجع إليهم من الميقات، فيجدهم على أحسن ما تركهم عليه.

جواب بنو إسرائيل على أسئلة موسى الكليم عليه السلام وتأنيبه

وقد أجاب بنو إسرائيل على أسئلة موسى الكليم عليه السلام وتأنيبه بقولهم ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾[1] أي: لم نخلف الذي وعدناك من الثبات على الدين والإيمان والاستقامة والطاعة للوصي باختيارنا، بل كنا مضطرين إلى ذلك، وذلك للتخلص من أوزار الحلي التي كانت معنا، والتي تعود لقوم فرعون حيث أخذناها كما تعلم، بعد أن ألقاها البحر على الساحل بعد إغراق فرعون وجيشه، وقيل غير ذلك. وقد قال لهم السامري حين تخلف موسى الكليم عليه السلام عن الرجوع إليهم في العشرة الأيام المزادة، بعد انتهاء الثلاثين يوماً المعلومة لديهم: إنما تخلف موسى الكليم عليه السلام عن الميعاد الذي بينكم وبينه؛ لأنه مات. وقيل: تأخر بسبب ما صار معكم من الحلي التي تعود إلى قوم فرعون وهي حرام عليكم. وأمرهم بالقائها في النار، فكان من أمر العجل ما كان ... وعليه: فلسنا بأصحاب جريمة، ولكننا ضحايا مؤامرة السامري الخبيثة، الذي غلب علينا بكيده ومكره، ولو ملكنا أمرنا وخلينا ورأينا، لما أخلفنا ما وعدناك به. وهذا هو دأب ضعفاء العقول

١. طه: ٨٧

والمنطق والإيمان وفاقدي البصيرة وسخفاء التفكير والأحلام، إذا سقطوا أمام الأهواء الشيطانية والشهوات الحيوانية والضغوط والتحديات وخانوا الأمانة ثم انكشف أمرهم وظهرت أخطاؤهم الجسيمة للرأي العام، فإنهم لا يعترفون بقصورهم وتقصيرهم وأخطاؤهم الجسيمة للرأي العام، فإنهم لا يعترفون بقصورهم وتقصيرهم وأخطائهم، و إنما ينكرونها ويلقون بتبعات أعمالهم وأخطائهم على عواتق غيرهم، ويبرورنها بالقضاء والقدر ونحو ذلك من سخافات الفكر وانحطاط الأخلاق، غافلين عن فضيلة الأمانة في تحمل المسؤولية والشجاعة الأدبية في الاعتراف بالتقصير والأخطاء وعن العواقب السيئة لمثل هذه الخيانة على حاضر الأمة ومستقبلها، مما يجعلهم غير مؤهلين ولا لائقين للثقة ولتحمل المسؤولية العامة في المجتمع والدولة والأمة.

محاسبة موسى الكليم لأخيه هارون عليهما السلام

ثم توجه موسى الكليم إلى أخيه ووزيره هارون عليه السلام فسأله: ما منعك إذ رأيتهم قد فتنوا بعجل السامري وضلوا عن دين الحق، أن تسلك طريقتي فيهم، بأن تمنعهم عن الانحراف والضلال والوقوع في الفتنة، ولو باللجوء إلى الشدة والقوة والغلظة وقتال من كفر منهم بمن آمن واتقى، أو أن تلحق بي لتخبرني بحالهم، أو يكون بخروجك عنهم نزول العذاب عليهم، بدلاً من البقاء بينهم؟ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ لك بأن تتبع طريقتي فيهم والقيام لله جل جلاله والشدة في ذاته ومنابذة من خالف دين الله الحق ومقاومته، وأقمت بين هؤلاء الضالين الفاسقين الذين اتخذوا العجل إلها وعبدوه وسجدوا

له، ولم تنابذهم وتقاتلهم، أو تخرج عنهم لتخبرني بحالهم أو لينزل عليهم العذاب؟

والتعبير يدل في الظاهر: على لوم من موسى الكليم عليه السلام إلى أخيه ووزيره وشريكه في الرسالة هارون عليه السلام إلا أنه في الحقيقة والواقع ليس كذلك، بل هو إفهام إلى بني إسرائيل بأنهم قد ارتكبوا ذنباً عظيماً جداً وجرماً شنيعاً يجب الوقوف في وجهه بكل حزم وعزم وصرامة وشدة، ولا يمكن السكوت عنه والتجاوز عن أصحاب المسؤولية عنه وترك محاسبتهم ومعاقبتهم، وأنه من الخطورة بمكان رفيع، إلى المستوى الذي وضع فيه موسى الكليم أخيه هارون عليه السلام موضع المساءلة والمحاسبة مما يكشف عن أهمية مراقبة المسؤولين في المنظمات والدولة ومحاسبتهم، فمهما علت مرتبتهم أو وظيفتهم، ولا يوجد أحد في المؤسسة أو الدولة فوق المراقبة والمحاسبة، حتى رئيس الدولة أو المؤسسة، وأن المحاسبة يجب أن تبدأ بالمسؤول الأول (القائد) المعني بالموضوع، فإذا ثبتت براءته وعدم تقصيره أو خطأه تتجه المساءلة إلى الأتباع ومحاسبتهم، ثم معاقبة كل من يثبت خطأه وتقصيره، وبدون ذلك تقع الفتنة، ويتمكن الانحراف، وينتشر الفساد، ويحصل الضعف في المؤسسة أو الدولة، ويحل التخلف والانحلال في المؤسسة والشعب والأمة.

وتعتبر مساءلة موسى الكليم لأخيه هارون عليهما السلام وسيلة لاستظهار الحجة على بني إسرائيل، ولكي يثبت للجميع براءة هارون عليه السلام من كل خطأ أو تقصير أو اهمال أو نحو ذلك، وذلك من خلال التوضيحات والبينات

والحجج التي يأتي بها هارون عليه السلام ويكشف عنها، أي: أن موسى الكليم عليه السلام قد وضع أخاه ووزيره الأمين وشريكه في الرسالة هارون عليه السلام في موضع المساءلة والمحاسبة، تنبيها لبني إسرائيل على عظيم الذنب الذي ارتكبوه، وتثبيتاً لمبدأ المساءلة والمحاسبة لجميع المسؤولين بدون مؤاربة ومحاباة أو استثناء، و إثباتاً لبراءة هارون عليه السلام من الخطأ والتقصر والاهمال أو نحو ذلك، وتحمل بني إسرائيل وعلى رأسهم السامري المسؤولية كاملة عما حدث، وفتح الباب أمام التحقيق العلمي الموضوعي واثبات الحقيقة في الموضوع، والكشف عن أسبابها الموضوعية والذاتية في نفوس المسؤولين عنها بحيادية تامة، لتكون الفتنة عبرة واضحة كاملة الأركان لجميع الأمم اللاحقة. و إلا فإن موسى الكليم عليه السلام يعلم علم اليقين الذي لا يشوبه شك أو تردد بأن أخاه ووزيره ووصيه وخليفته الأمين وشريكه في النبوة والرسالة هارون عليه السلام معصوم مثله، وحريص على هداية بني إسرائيل وصلاحهم وسعادتهم ونجاتهم من الهلاك والشقاء في الدارين الدنيا والآخرة مثله، وأنه لم يخالف أمره في شيء وقام بواجبه الإنساني وتكليفه الشرعي تجاه بني إسرائيل على أكمل الوجوه وأحسنها.

جواب هارون على أسئلة أخيه موسى الكليم عليه السلام

وقد أجاب هارون عليه السلام على أسئلة أخيه وقائده و إمامه موسى الكليم عليه السلام التى ساءله بها، يقوله: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ﴾[1] استرحاماً واسترقاقاً، ولأجل تحريك مشاعر العطف والرحمة وتسكين الغضب لديه، فقد كان أخاه لأبيه

١. طه: ٩٤

وأمه وخص نسبه إلى الأم؛ لأن ذكر الأم أبلغ وأنسب في الاستعطاف، ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾[١]، أي: لا تفعل بي ذلك عقوبة منك لي، فإن لي عذر وحجة فيما نقلت، فإني لم آل جهداً في نصحهم وإرشادهم وكفهم عن الكفر والضلال وإنذارهم من العواقب السيئة المذمومة لعملهم في الدارين الدنيا والآخرة، ولكن:

أ. ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾[٢] أي: إن القوم الذين تركتني خليفةً لك فيهم ووصياً منك على هدايتهم وإرشادهم وتدبير أمورهم، قد رأوني ضعيفاً وعاجزاً عن ردهم بالقوة والشدة، فخالفوني وقهروني وأوشكوا أن يقتلوني لشدة ما أنكرت عليهم وحذرتهم من عبادة العجل الذهبي الذي صنعه لهم السامري بيده وفتنهم به، ولكنهم عاندوا وكابروا ولم يسمعوا مني ولم يتيحوا لي الفرصة لكي أرشدهم إلى الهدى والحق والصواب والفضيلة، وأصحح ما بدلوه وغيروه في الدين الحنيف، وعليه: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾[٣] الذين عبدوا العجل وتسرهم معاقبتك لي، أو أن تفعل بي ما ظاهره الإهانة وعلى خلاف التعظيم والتكريم، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٤] أي: لاتجعلني في صف هؤلاء الظالمين الذين عبدوا العجل وسجدوا له، بأن تظهر غضبك الشديد علي كما أظهرته عليهم، أو تنسب

---

١. نفس المصدر

٢. الأعراف: ١٥٠

٣. نفس المصدر

٤. نفس المصدر

لي التقصير في القيام بواجبي وأداء تكليفي الشرعي نحوهم، فأنا بريء ولست منهم حقيقةً وواقعاً وقد أنكرت عليهم، ووقفت منهم موقف المعارض المنتقد، وقد بذلت ما في وسعي ولم أقصر بما وجب عليّ من النصح والوعظ والإرشاد والتحذير وأداء التكليف، وقد اتبعني القليل من بني إسرائيل وخالفني أكثرهم.

ب. ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[1] لأن استخدامي للشدة معهم، وخروجي من بينهم، يتيح الفرصة أكثر لتفرقهم وظهور الاختلاف والعداوة الشديدة بينهم، وقد يقدم بعضهم على قتل بعض بأن يتقاتل الذين اتبعوا السامري وعبدوا العجل، مع الذين اتقوا وآمنوا وخالفوا السامري ورفضوا عبادة العجل، فيسفك بذلك بعضهم دماء بعض، وليس بينهم من يعيدهم إلى رشدهم، ويضع حداً إلى الاقتتال وسفك الدماء، فتنعكس الآية، ويحدث عكس المراد، وعليه: فإن كانت هناك وجاهة في التوجه إليك لإخبارك عما حدث ونحو ذلك، فإن هناك وجاهة أكبر في البقاء بينهم، وقد امتثلت أمرك لي بالبقاء بينهم، من أجل صلاحهم ومداراتهم وحفظ دمائهم والعمل على إرشادهم إلى الهدى والحق والعدل والصواب والفضيلة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وانتظرت رجوعك إليهم وتسلمك الأمانة التي ائتمنتني عليها والفصل فيما حدث بينهم. ولو خرجت من بينهم، لحق لك أن تلومني وتقول لي بعد رجوعك: أني فرقت بين بني

---

١. طه: ٩٤

إسرائيل، وجعلت بعضهم يقتل ويسفك دم بعض، وأني خالفت وصيتك لي ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾[1] ولم أعمل بها، فإن الإصلاح كان في بقائي بينهم وليس بخروجي.

الجدير بالذكر: أن هارون عليه السلام قد أجل الفصل في مسألة عبادة عجل السامري وتركها إلى أن يرجع ولي الله الأعظم موسى الكليم عليه السلام ليفصل فيها بنفسه، وركز عمله على النصح والإرشاد و إدارة الأزمة بنجاح، للخروج منها بأقل الخسائر المادية والبشرية والمعنوية والدينية، مما يدل على أن المعالجة للأزمات والقضايا الحيوية والمسائل الجوهرية الدينية والدنيوية في الأمة، يجب أن تستند إلى رؤية فكرية وشرعية وموضوعية شاملة وواضحة، نأخذ بعين الاعتبار جميع العناصر المهمة النظرية والعملية، الحاضرة والمستقبلية، وثقل كل عنصر، ويقودها شخص رشيد وناضج ولديه شعور عميق بالأمانة والمسؤولية، أي: يجمع بين العلم والأمانة، ولا تصح معالجتها بدون رؤية واضحة وبصيرة نافذة، أو وفق نظرة جزئية قاصرة وغامضة، تأخذ بعين الاعتبار بعض العناصر، وتغفل أو تتجاهل عناصر أخرى، أو تغفل أو تتجاهل ثقل كل عنصر وأهميته، أو إسناد المعالجة والإدارة إلى شخص لا يتمتع بالأمانة والكفاءة والنصح ونحو ذلك.

تقبل موسى الكليم عليه السلام لعذر أخيه هارون عليه السلام

وقد تقبل موسى الكليم عليه السلام عذر أخيه ووزيره ووصيه وخليفته في

---

١. الأعراف: ١٤٢

قومه وشريكه في الرسالة هارون عليه السلام ودعى إليه وإلى نفسه بالخير والرحمة، مما يثبت قناعته ببراءته التامة من كل خطأ أو تقصير، قول الله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1] مما يدل على الفناء التام والكامل في الله ذي الجلال والاكرام، والحرص الكامل على الفوز برضاه، والنفور الكامل من أعمال الوثنية والمعاصي القبيحة، وشدة التعلق وصدق النصح والإخلاص بينهما موسى الكليم وهارون عليهما السلام، واليقظة الروحية لديهما، وشدة المحاسبة للنفس والمراجعة والحرص على دوام البقاء في ساحة القدس الإلهي وعدم الخروج منها بأي حال من الأحوال، والقوة والحزم والصرامة في ذات الله عز وجل، وطلب الرحمة والمغفرة من الله تبارك وتعالى، ونحو ذلك.

محاكمة موسى الكليم عليه السلام للسامري على جريمته ومعاقبته

ثم توجه موسى الكليم عليه السلام إلى مساءلة السامري المتهم الأول في جريمة العجل الذهبي الشنيعة ومحاكمته بشأنها، فسأله عن السبب الذي دعاه إلى ارتكاب هذا الذنب العظيم والجريمة الشنيعة والعمل القبيح وهدفه من وراء ذلك، فقال: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾[2] أي: ما شأنك وما الذي دعاك إلى صنع هذا الأمر الشنيع والجرم الفظيع والذنب العظيم والعمل القبيح الذى ابتدعته وجئت به من عند نفسك وعلى خلاف العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم والتعاليم الإلهية التي علمتكم إياها

١. الأعراف: ١٥١

٢. طه: ٩٥

ونشرتها بينكم، وأنت العالم غير الجاهل بها، وما هو هدفك وما الذي تريد أو تطلب من وراء ذلك؟

فأجاب السامري على سؤال موسى الكليم عليه السلام بقوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾[١] أي: زعم السامري بأنه ذو بصيرة نافذة لا يملكها غيره من بني إسرائيل وأنه علم بما لم يعلمه غيره منهم، ورأى ما لم يتمكن غيره من رؤيته، فقد رأى جبرائيل عليه السلام على فرس وهو يُرغِّب جيش فرعون في الدخول إلى الطريق اليابس الذي سلكه بنو إسرائيل في البحر فعرفه، ولم يره غيره أو يعرفه، وقد ألقى في روعه أن يقبض قبضة تراب من أثر حافر فرسه، وأن ذلك التراب من أثر حافر فرسه لا يقع على جماد إلا صار حياً. فأخذ القبضة من التراب وادخرها، ثم ألقاها في الحلي المذابة التي سبكها في صورة العجل، أو ألقاها في فم العجل بعد سبكه، فكان من أمر العجل ما كان ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾[٢] أي: صنعت العجل الذهبي من الزينة، وألقيت القبضة من أثر الرسول (جبرائيل) عليه السلام في الزينة المذابة أو في فم تمثال العجل، فكان من أمره ما كان، ودعوت بني إسرائيل إلى عبادته والسجود له بسبب تسويل نفسي الأمارة بالسوء، والخارجة عن الرشد ومنطق العقل والفطرة والطبع السليم وتعاليم الدين الحنيف، فأطاعوني وفعلوا ما أمرتهم به باختيارهم ولم أجبرهم على شيء من ذلك، مما يدل على حمقهم وضعف عقولهم ومنطقهم و إيمانهم وسفاهة أحلامهم، كما هو دأب السفهاء ونحوهم من

---

١. طه: ٩٦

٢. نفس المصدر

الأمم السابقة الذين خالفوا تعاليم أنبيائهم الكرام عليهم السلام وغيروا وبدلوا في الدين الحق الحنيف وحرفوه وخالفوا الأوصياء الهادين المهديين بعد رحيل أنبيائهم (عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام).

وعليه: فقد اعترف السامري بجريمته، ولم يقتنع موسى الكليم عليه السلام بعذره، فلامه لوماً شديداً، وعاقبه بطرده طرداً كلياً مؤبداً (ما دام حياً) من صفوف بني إسرائيل، وأمر بني إسرائيل جميعاً بمقاطعته، وحرَم عليهم مخالطته ومكالمته والتعامل معه، قوله تعالى: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾[1] أي: عقوبتك في الحياة الدنيا، أن تكون منبوذاً من كل الناس ومعزولاً عنهم، فلا يقربك أحد بصحبة أو إيواء أو مؤاكلة أو مبايعة أو تكليم أو أي شيء من نحو ذلك أبداً، فتصبح كالحيوان الأجرب أو الكائن الشرير القذر أو نحو ذلك، وتبقى وحيداً في الصحراء حتى تموت وحيداً مطروداً من رحمة الله تبارك وتعالى، ومحروماً من شفقة الناس وإحسانهم إليك بسبب جريمتك البشعة وعملك القبيح وذنبك العظيم الذي لا يغتفر، والذي هددت بسببه حاضر ومستقبل بني إسرائيل، وكدت أن توقعهم في الشقاء والهلاك في الدارين الدنيا والآخرة.

وقيل: أن موسى الكليم عليه السلام قد دعا على السامري ولعنه بعد أن ثبتت عليه الجريمة والخيانة، فابتلي بحساسية شديدة في جسمه، فلا يقترب منه أحد من الناس، إلا أصابته حمّى شديدة.

وقيل: ابتلي بوسواس شديد، فكان يتوحش ويضر كل من يلقاه، وكان

١. طه: ٩٧

في الحالتين الحساسية والوسواس، ينادي إذا لقى أحداً من الناس: لا مساس .. لا مساس، أي: لا تقترب مني ولا تمسني، فكان يهيم في الصحراء مع الوحوش حتى لقي حتفه وفارق الحياة ملعوناً مذموماً.

هذا بالإضافة إلى عقوبة الآخرة الأبدية، وهي عقوبة أشد إيلاماً من عقوبات الدنيا كلها ولو اجتمعت على شخص واحد، قوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾[1] أي: لك مع الله ﷻ موعداً حتمياً لن يخلفك الله ﷻ إياه، تلقاه في يوم القيامة، فيحاسبك ويجازيك الجزاء الأوفى على ما أسلفت من جرائمك واقترفت من ذنوب عظيمة وما افتريت به على الله سبحانه وتعالى من أنك عظيم، ظلمت به نفسك والذين اتبعوك في الحاضر ويتبعونك في المستقبل، وعليه: فأنت الخاسر الأكبر في الدنيا والآخرة.

الاجراءات الاحترازية التي اتخذها موسى الكليم عليه السلام بشأن العجل

ثم عمد موسى الكليم عليه السلام إلى عجل الفتنة التي أوقد نارها السامري بمكره فأحرقه بالنار، وقيل: سحقه بالمبارد، ثم رمى بقاياه (الرماد) في البحر، على مرأى من الذين صنعوه والذين عبدوه، ولكي لا يبقى له أثر يعود إليه أو يتمسك به الضالون المنافقون ويحيون به عبادة العجل أو يقدسونه في المستقبل، وبذلك تبددت أحلام السامري والذين اتبعوه وضاع أملهم ويأسوا وذهبت آمالهم وأحلامهم وجهودهم الخبيثة أدراج الرياح، قوله: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي

---

١. نفس المصدر

الْيَمِّ نَسْفًا﴾[1] وهذا الاجراء الحكيم الذي قضى به موسى الكليم عليه السلام على كل أثر للعجل لكي لا يبقى منه شيء، يثبت أيضاً: بأن العجل ليس إلهاً، ولا يليق بحكم العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم أن يكون إلهاً ولو كان إلهاً حقيقياً لما انتهى إلى هذا المصير وهذه النهاية التي تدل على ضعفه وعجزه التام عن أن يدفع عن نفسه فضلاً عن أن يدفع الضرر عن الآخرين أو يقدر على فعل أي شيء.

وبهذه الطريقة الحكيمة والحاسمة والتعامل الحازم مع فتنة عجل السامري استطاع موسى الكليم عليه السلام أن يقضي عليها تماماً ويمحو آثارها من عقول بني إسرائيل وأنفسهم.

وهكذا ينبغي أن يكون الموقف في الأصل في مكافحة الانحرافات الجذرية والإبقاء على نتائج الثورات والحركات الإصلاحية، ولكن ينبغي كذلك الأخذ بعين الاعتبار التوقيت وسائر الظروف الموضوعية، التي قد تتطلب تأجيل الحسم في بعض القضايا إلى بعض الوقت، كما فعل هارون عليه السلام ويفعله الكثير من قيادات الثورات والحركات الإصلاحية، ولا يعد ذلك من التنازل، بل هو ضروري من أجل المحافظة على الرسالة ومكتسبات الثورة والحركة الإصلاحية، بحكم العقل والدين، وتقره الفطرة والطبع السليم.

وتعتبر نهاية العجل الذهبي النهاية المنطقية وفق السنن الإلهية

---

١. نفس المصدر

الحاكمة في الكون والحياة، لكل أكذوبة ووهم وخرافة وبدعة ضالة في الدين الحق، ولكل ما هو مزيف وغادر ويعتمد على فرض حكم الأمر الواقع بالقوة والمكر والخداع والتضليل ونحو ذلك، ولا حقيقة له ولا أساس في العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم والدين الحنيف.

وقد أخبر الله ﷻ عن المصير الأسود والعاقبة السيئة المذمومة التي لحقت بالسامري والذين اتبعوه في الدارين الدنيا والآخرة، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1] أي: عقوبتهم في الحياة الدنيا الذلة والخزي والعار، وفي الآخرة غضب الله ﷻ وعقابه الشديد المؤلم في نار جهنم وأكد القرآن الكريم بأن هذا المصير الأسود والعاقبة السيئة ستلحق حتماً بكل من يفتري على الله جَلَّ جَلَالُهُ الكذب، ويغير في دين الله الحق، فيدخل في الدين ما ليس فيه، أو يخرج منه ما هو ثابت فيه، قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[2] أي: أن تلك العقوبة في الدارين، سنة إلهية جارية باقية أبد الدهر في المفترين على الله جَلَّ جَلَالُهُ الكذب.

توبة بني إسرائيل والعفو الإلهي عنهم

قد ندم بنو إسرائيل وتحسَروا على ما حدث منهم من شرك وضلال ووقوع في فتنة عجل السامري، وذلك بعد أن رجع إليهم موسى الكليم عليه السلام

---

١. الأعشراف: ١٥٢

٢. الأعراف: ١٥٢

حيث أنّبهم ولامهم ووبّخهم على ما صنعوا، وعيّن لهم حقيقته وأبعاده الخطرة عليهم وعاقبته السيئة المذمومة في الدارين الدنيا والآخرة، فعلموا وتيقنوا بأنهم قد وقعوا في فتنة عظيمة، وارتكبوا جريمة شنيعة وذنباً عظيماً، فتابوا واستغفروا وتضرّعوا إلى الله عز وجل وابتهلوا وسألوا الله تبارك وتعالى الرحمة والغفران، قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١] فتقبل الله برحمته وكرمه توبتهم؛ لأنه التواب الغفور الرحيم، وقضى بذلك موسى الكليم عليه السلام بشكل عام على فتنة السامري وعجله.

وقد وعد الله تبارك وتعالى عباده بالعفو عن الذين يرتكبون السيئات والمعاصي ثم يتوبون إلى الله عز وجل توبةً نصوحة وتتوفر في توبتهم شروط التوبة الصادقة، ويعودون بتوبتهم إلى الله ذي الجلال والإكرام و إلى الإيمان الصادق والدين الحق والصراط المستقيم، و إلى العمل الصالح والفضيلة بإخلاص، قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] وهذا الأمر يشمل بني إسرائيل وغيرهم، وفي الحديث النبوي الشريف: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[٣]

١. الأعراف: ١٤٩

٢. الأعراف: ١٥٣

٣. كنز العمال، الهندي، الحديث: ١٠١٧٤

التيه في الصحراء ووفاة هارون عليه السلام

أمر الله جل جلاله نبيه الكريم موسى الكليم عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل من مصر، ويذهب معهم إلى الأرض المقدسة، أرض المعاد فلسطين المباركة، وكان عدد بني إسرائيل آنذاك حوالي ستمائة ألف إنسان، وذلك للإقامة فيها واتخاذها وطناً دائماً لهم، كما كانت لجدهم إسرائيل، وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام قبل هجرته منها إلى مصر في عهد حكومة ابنه يوسف الصديق عليه السلام قبل أربعمائة عام تقريباً، فامتثل موسى الكليم عليه السلام أمر ربه جل جلاله، وخرج ببني إسرائيل متوجهاً إلى الأرض المقدسة فلسطين، وقبل أن يدخلها أرسل رواداً من بني إسرائيل للاستطلاع عنها وعن أحوال أهلها وما هم عليه، فرجعوا إليه وأخبروه: بأن أهلها قوم من العمالقة الكنعانيين الجبارين الأشداء، وأن مدنها حصينة ومنيعة. فلما عرف بنو إسرائيل ذلك، ارتاعوا وتمردوا على أمر قائدهم وإمامهم موسى الكليم عليه السلام وهو أمر الله جل جلاله لهم بالدخول، وقالوا: إن في هذه الأرض عمالقة جبارين، شديدي القوة والبطش ولا طاقة لنا بمواجهتهم، فلن ندخلها ما داموا فيها، ولم ينفع معهم نصح وتشجيع المؤمنين المخلصين الشجعان، وأصرّوا على موقفهم، وقالوا بحماقة واستهتار واستهانة بالله جل جلاله وبمقام النبوة والرسالة وعلى خلاف العقل والمنطق والسنن الإلهية الحاكمة في الحياة وتدبير المسيرة التاريخية للإنسان: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[1] فشكى موسى الكليم عليه السلام أمرهم إلى الله جل جلاله قائلًا: ليس لي ولا لأخي ووزيري هارون عليه السلام سلطان على هؤلاء الجبناء الفاسقين العاصين،

---

١. المائدة: ٢٥

وليس لنا حيلةً أو سبيلاً لإقناعهم بالدخول إلى الأرض المقدسة ما دام العمالقة فيها فاقض بيننا وبينهم بالحق وأنت أحكم الحاكمين. فأخبره الله جل جلاله: بأن دخولهم إلى الأرض المقدسة كلمة مقضية وحتمية الحدوث إلا أنها مشروطة بالصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، ولأنهم عصوا أمر الله سبحانه وتعالى وأمر رسوله الكريم عليه السلام بأن الأرض المقدسة محرمة عليهم، وسيتيهون في صحراء سيناء والنقب لمدة أربعين سنة عقوبة لهم على معصيتهم، قبل أن يوفقوا إلى دخولها بعد التوبة وقبول الله تبارك وتعالى توبتهم ورضاه عنهم. وطمأن الله تبارك وتعالى نبيه الكريم موسى الكليم عليه السلام وقال له: لا تحزن على هؤلاء القوم الفاسقين العاصين للتكليف الشرعي الإلهي إليهم، من نزول هذه النقمة الإلهية عليهم؛ لأنهم فاسقون يستحقون بمعصيتهم لله عز وجل ولرسوله الكريم عليه السلام هذه العقوبة ولا ينبغي الحزن عليهم إذا أذيقوا وبال أمرهم، قول الله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[1] أي: قال موسى الكليم عليه السلام لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر: يا قومي!! ادخلوا

---

١. المائدة: ٢١-٢٦

الأرض المقدسة التي هي أرض فلسطين والشام كلها، المطهرة من الشرك والمباركة بكثرة خيراتها المادية والمعنوية والفيوضات الإلهية على أهلها، وكانت مستقراً للكثير من الأنبياء الكرام ﷨ ومهبطاً للوحي والتنزيل، ومحلاً لظهور الأديان السماوية، ومركزاً للتوحيد ونشر التعاليم والمعارف الإلهية الحقة ونحو ذلك، لفترات طوال من التاريخ، مما يجعل القتال وبذل التضحيات الجسيمة من أجل الدخول إليها أمراً راجحاً بحكم العقل والمصلحة والدين، وقد كتب الله ﷻ في اللوح المحفوظ وقدّر وقسم لكم هذا الدخول والانتصار على عدوكم، لتسكنوا الأرض المقدسة وتعيشوا فيها في رغد ورخاء ورفاه، وتحكموها مطمئنين آمنين إن آمنتم وأطعتم وعملتم بتعاليم الأنبياء الكرام ﷨ لكم، فادخلوها ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من قتال العمالقة الظالمين، أو ركوناً إلى الراحة والدعة والكسل، وعدم الرغبة الصادقة في الجهاد والتضحية في سبيل الله ﷯ والحرية والكرامة، فتنقلبوا بهذا القعود والتراجع مرتدين عن الدين الحق الحنيف، لمخالفتكم أمر ربكم ﷻ وعصيان أمري وترك طاعتي وما أوجبته عليكم من فرض قتال الجبارين الظالمين، فيكون بذلك مصيركم إلى الذل والخزي والعار والخسران المبين في الدارين الدنيا بما فاتكم من النصر على عدوكم والتنعم بخيرات الأرض المقدسة المادية والمعنوية، والآخرة بما فاتكم من الثواب الجزيل والرضوان الإلهي بما استحققتم من العقاب الإلهي المؤلم والشديد في نار جهنم، أي: أن الامتناع عن دخول الأرض المقدسة، فيه فسق ومعصية ورذيلة، وخسارة مادية ومعنوية في الدارين الدنيا والآخرة، وما سبق يدل على أمرين:

أ. أن الحتميات التاريخية والإلهية، وتحقيق الإنجازات الحضارية الفكرية والفنية والأدبية والتكنولوجية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ونحوها، وتحقيق الانتصارات على الأعداء، لا تأتي أو لا تتحقق من تلقاء نفسها أو صدفة أو بإرادة إلهية بحتة، وإنما يشترط فيها العمل والجهاد وبذل الوسع، ومن ذلك، حتمية دخول بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة التي كتبها لهم وقسمها في اللوح المحفوظ، فإنه مشروط بالجهاد وبذل التضحيات من المال والأنفس، وأن التطلع إلى الإنجازات والانتصارات والتطور والتقدم في الحياة ونحو ذلك، بدون عناء وتخطيط وعمل وتضحيات، أمر مخالف لمنطق العقل والواقع، ومخالف للسنن الإلهية الحكيمة الحاكمة في الكون والإنسان والحياة والتاريخ.

ب. أن الارتداد عن الدين الإلهي الحق الحنيف، له معنيان: المعنى الأول الكفر بالدين بعد الإيمان به، والمعنى الثاني التخلي العملي عن التكليف الإلهي والمسؤولية الدينية في الحياة، مثل: التخلي عن فريضة الجهاد، وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحت تأثير الكسل والرغبة في الراحة والدعة، أو تحت تأثير الخوف والطمع أو نحو ذلك. وأن عاقبة الارتداد بنوعيه الكفر بعد الإيمان، والتخلي عن التكليف عاقبة سيئة مذمومة في الدارين الدنيا والآخرة.

إلا أن بني إسرائيل العصاة الفاسقين واجهوا طلب نبيهم وإمامهم

وقائدهم موسى الكليم عليه السلام إليهم بقتال العمالقة الجبارين ودخول الأرض المقدسة مواجهة الجبناء الضعفاء الحمقى سفهاء الأحلام الذين يتمنون أن تتحقق لهم الإنجازات والانتصارات العظيمة من تلقاء نفسها أو عن طريق الصدفة أو المعاجز الإلهية، في ظل الكسل والدعة والراحة، بدون أن يبذلوا جهداً حقيقياً يُذكر، وبدون أن يبذلوا ويقدموا التضحيات من أنفسهم وأموالهم، فخالفوا بذلك العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم والسنن الإلهية الحاكمة في الكون والإنسان والحياة والتاريخ، وعصوا أمر ربهم لهم بالجهاد، وتمردوا على أمر قائدهم وإمامهم موسى الكليم عليه السلام الذي كُلِّفوا بطاعته واتباعه والاقتداء به والجهاد معه من أجل مجدهم وعزتهم وكرامتهم، وقد أمرهم بالجهاد وقتال العمالقة والدخول فاتحين إلى الأرض المقدسة، وعللوا عصيانهم وبرروه، بقولهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾[1] وهم العمالقة الكنعانيون الذين يتمتعون بالقوة والسطوة ولهم أجسام ضخمة، ويجبرون الناس على ما يريدون ويخضعونهم لإرادتهم بالقوة والبطش والعنف والإرهاب وأنه ليس لهم من الطاقة والقوة والإمكانيات لمقاومتهم والانتصار عليهم.

وعليه: فهم لن يطيعوا نبيهم وإمامهم وقائدهم الذي أمرهم بقتال العمالقة والدخول إلى الأرض المقدسة فاتحين، وأوقفوا دخولهم إليها بخروج العمالقة الجبارين منها، بقولهم ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[2] أي: إن يخرجوا منها طائعين من تلقاء أنفسهم، أو يخرجهم الله عز وجل منها

١. المائدة: ٢٢

٢. نفس المصدر

مجبورين بعقوبة منه لهم كما فعل بآل فرعون، فإن فعل ذلك بهم، فإنا حينئذٍ سندخلها فرحين مسرورين، ولنا الرغبة الشديدة في دخولها، لأنها الأرض المباركة المقدسة، وفيها الكثير من النعم والخيرات المادية والمعنوية والفيوضات الإلهية، وكانت وطناً لجدنا إسرائيل (يعقوب) عليه السلام قبل هجرته إلى مصر في عهد حكومة ابنه يوسف الصديق عليه السلام قبل أربعمائة عام تقريباً، وعليه فإن سبب امتناعهم عن دخول الأرض المقدسة هو الخوف الشديد والجبن وعدم الرغبة في بذل التضحيات الكبيرة والصغيرة من الأنفس والمال من أجل تحرير الأرض المقدسة وتطهيرها، وتحصيل الحياة الكريمة التي تتجسد فيها الحرية والكرامة، وإقامة حكومة العدل الإلهي، ونحو ذلك من الإنجازات العظيمة المشرفة، فهم يريدون نصراً مريحاً لا يكلفهم قتيلاً أو جريحاً أو مالاً وتحقيق إنجازات عظيمة بدون جهد أو عناء.

ولا شك إن هذا منطق أحمق وتصرف غير مسؤول ومخالف للسنن الإلهية الحكيمة الحاكمة في الكون والإنسان والحياة، وهو يدل على ضعف قلوبهم وإيمانهم وهممهم وخور نفوسهم وسخافة تفكيرهم وسطحيته، وانحطاط أخلاقهم، وعدم اهتمامهم بأمر الله عز وجل ونهيه، وأمر رسوله الكريم عليه السلام ونهيه، ولو كانوا أصحاب منطق متين، وفكر رشيد، وهمة عالية، لعلموا بأن القوي حقيقة وواقعاً هو كل من أعانه الله عز وجل بقوة من عنده، والضعيف حقيقة وواقعاً هو كل من خذله الله عز وجل، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأن لا مؤثر في الوجود بشكل مستقل إلا غيره، فكل تأثير ينتهي إليه وحده لا شريك له، ولا أحد غيره يملك لنفسه

أو لغيره نفعاً أو ضراً أو موتاً أو نشوراً. ولأقبلوا على الجهاد بنفوسٍ راضيةٍ مطمئنة، وهم يعلمون بأنهم سينتصرون حتماً على عدوهم، ويدخلون الأرض المقدسة فاتحين؛ لأن الله ﷻ قد وعدهم بذلك وعداً خاصاً.

ويعتبر هذا العصيان والخذلان والقعود عن الجهاد في سبيل الله ﷻ من الآثار السلبية المدمرة التي تركها النظام الفرعوني الغاشم في نفوسهم، في ظل غياب الإرشاد والتوجيه الرباني والتربية الرسالية الفاعلة، حيث استولى الخوف والذعر العميق على نفوسهم، وفقدوا الاستعداد للنهوض والتطور والبحث عن الحياة الطيبة الكريمة التي تتجسد فيها الحرية والعزة والكرامة، وذلك بسبب ما تعرضوا له من الاضطهاد والقمع والإرهاب والإذلال من قبل النظام الفرعوني الغاشم، وهي عينها الآثار السلبية المدمرة التي تتركها الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة الغاشمة في نفوس الشعوب المستضعفة، ما لم تقاوم بفكر واضح نيّر وثقافة نهضوية، وقيم ثورية تضحوية، مثل: قيم الحرية والشجاعة والإباء ونحوها.

وقد انبرى لمناصرة خيار الجهاد وقتال العمالقة رجلان رشيدان من خيرة المؤمنين الصالحين، وهما: يوشع بن نون، وكالب بن يوحنا. وهما ابنا عم موسى الكليم عليه السلام ومن نقباء بني إسرائيل الإثني عشر الذين بعثهم موسى الكليم عليه السلام ليتعرفوا على أحوال الأرض المقدسة وأهلها، ويتصفون بالرشد والبصيرة النافذة في مسائل الفكر والعقيدة والأخلاق، وقضايا الحياة العملية، والمعرفة بالسنن التاريخية، ولديهم خبرة عسكرية واسعة، وقد أنعم الله عليهم بالإيمان الصادق والولاية الإلهية الحقة والتقوى

والخوف من معصية الله سبحانه وتعالى ومعصية الرسول الكريم عليه السلام والتثبت والشجاعة والشهامة والمقاومة والصبر واليقين بالنصر الإلهي والظفر على الأعداء مع الالتزام التام بالتكليف الشرعي، والتوفيق لكلمة الحق والصواب والفضيلة في هذا الموطن الحرج الحساس، والخوف على مستقبل بني إسرائيل، بأن يصيبهم الضعف والمذلة والهوان، ويتلوثوا بالخزي والعار، ويكونوا عرضة للهلاك والشقاء، في الدارين الدنيا والآخرة، بمعصيتهم لله جل جلاله ولرسوله الكريم عليه السلام وبتركهم للجهاد في سبيل الله عز وجل. وهذا يدل على رحمتهما بقومهما وشفقتهما عليهم وحرصهما الشديد جداً على كمالهم ونجاتهم من الهلاك والشقاء وتحصيل السعادة الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة. والصفات المذكورة هي صفات القيادة الربانية الرشيدة، وكل من لا يتحلى بهذه الصفات، فهو ليس أهلاً للقيادة أصلاً.

وعليه: قام الرجلان خطيبين في بني إسرائيل، وأخذا يدافعان عن التكليف الشرعي بالجهاد وقتال العمالقة الجبارين وفتح الأرض المقدسة وتحريرها وتطهيرها، ويرشدان قومهما ويحثونهم على السمع والطاعة لله جل جلاله ولوليه الأعظم ورسوله الكريم موسى الكليم عليه السلام ويحفزونهم ويشجعونهم ويحرضونهم على الزحف إلى الأرض المقدسة ومباغتة الجبارين واقتحام بلادهم من بابها، يعني: الاقتحام المباغت لأول مدينة من مدن الجبابرة مما يلي بني إسرائيل، وقيل: هي أريحاء، ووعدوهم بالنصر الإلهي، لأن الله عز وجل كتب لهم النصر على الأعداء ودخول الأرض المقدسة وتحريرها من قبضتهم وتطهيرها من الشرك ولا راد لحكمه، وكذلك جزاءً لهم على طاعتهم الصادقة وإخلاص نيتهم في الجهاد، وثقتهم التامة بوعد الله

الصادق لهم بالنصر والثواب الجزيل في الآخرة، ولأن العمالقة لهم أجسام ضخمة وقامات طويلة ولكنهم لا يمتلكون قوة الإيمان واليقين في قلوبهم، فلا ينبغي للمؤمنين الأقوياء في دينهم ويقينهم أن يخافوا منهم، قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾[١] أي: باغتوا القوم واغزوهم في عقر دراهم، فينكسروا أمامكم، ويذلوا لكم، فليس بينكم وبين النصر على عدوكم وفتح الأرض المقدسة وتحريرها وتطهيرها، إلا أن تباغتوا أعداءكم بالهجوم عليهم، بالدخول إلى أول قرية أو مدينة من بلادهم، التي هي بمثابة الباب والمدخل إلى بلادهم كلها، فإذا فعلتم ذلك فإنهم سينهزمون أمامكم وستنتصرون عليهم إن شاء الله تعالى، وتلعب المفاجأة دوراً مهماً جداً قد يكون حاسماً حتى في المقاومة الحديثة، وقيل: الرجلان كانا من العمالقة الجبارين، أسلما وأحسنا إسلامهم، فمعنى ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ هو من الذين يخافهم بنو إسرائيل وهم العمالقة الجبارين، وكانت نصيحتهم لبني إسرائيل بمباغتة العمالقة كأسلوب ناجع، مبنية على خبرة عملية ومعرفة مباشرة بأخلاق وصفات العمالقة الداخلية أو النفسية.

وما سبق يدل على أن حتمية دخول الأرض المقدسة التي قسمها الله ﷻ وكتبها لهم في اللوح المحفوظ، حتمية مشروطة بالجهاد.

وقد أمر الرجلان المؤمنان الصالحان الرشيدان أن بني إسرائيل بالتوكل على الله ﷻ والثقة به وبوعده الصادق بنصرته لهم على أعدائهم العمالقة

---

١. المائدة: ٢٣

الجبارين، وبينا لهم ضرورة الاعتماد على الله عز وجل في كل خطوة يخطونها، والاستمداد في مواقفهم كلها من روح الإيمان الصادق، وبينا لهم كذلك أن التوكل على الله عز وجل والثقة به وبوعده الصادق، هو من صدق الإيمان، وطريق إلى النصر وتيسير الأمور كافة؛ لأن الله عز وجل كاف عبده الذي يتوكل عليه دائماً، وكل من يخرج عن التوكل والثقة بالله عز وجل، يخرج من الإيمان حقيقة وواقعاً ويضعف ويتيه، وبحسب صدق إيمان العبد ويقينه، يكون توكله على الله عز وجل وثقته به، قول الله تعالى على لسانهما: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] وفيه إشارة إلى أن الجهاد في سبيل الله عز وجل من مقتضيات الإيمان والتوكل والثقة بالله سبحانه وتعالى، وفيه تطييب لنفوس بني إسرائيل، وتشجيع لهم على الجهاد والتضحية في سبيل الله عز وجل، وتحذير من المعصية وخذلان الرسول الكريم عليه السلام وترك الجهاد ضعفًا أو كسلاً أو نحو ذلك.

إلا أن بني إسرائيل لم ينفع معهم الكلام والنصح والوعظ والملامة، فلم يستجيبوا لله سبحانه وتعالى، ولأمر إمامهم وقائدهم الرباني موسى الكليم عليه السلام وهو الناصح الصادق الأمين على الوحي وعلى مصالحهم وسعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة، ولم يسمعوا النصح ووعظ و إرشادات الرجلين المؤمنين الصالحين الراشدين، يوشع وكالب، وتجاهلوها تماماً وأعرضوا عنهما إهانةً لهما وتحقيراً، وأصروا على ترك الجهاد وعدم بذل التضحية بالنفس والمال في سبيل الله عز وجل والحرية والعزة والكرامة والحياة الطيبة في الدارين الدنيا والآخرة، وأكدوا رفضهم القاطع لقتال الجبابرة

---

١. نفس المصدر

والدخول إلى الأرض المقدسة ما دام العمالقة الجبارين فيها، وقالوا جبناً وضعفاً و إياساً لموسى الكليم عليه السلام من أن يصر على تكليفهم بالقتال ودخول الأرض المقدسة: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾[1] هذا هو موقفنا الثابت الذي لن نتراجع عنه ولن نغيره، فلا تطل الحديث معنا، ولن نطيل الحديث معك، وفي التوراة في الباب الرابع من سفر الأعداد، أنهم قالوا: (ليتنا متنا جميعاً في أرض مصر أو في الفلاة، فلماذا جاء بنا الرب إلى هذه الأرض لكي نقتل بحد السيف، وتسبى عيالنا وأطفالنا بعدنا، بل ذهبوا إلى ما هو أخطر وأفظع من ذلك، فقالوا بوقاحة وصلافة وجهلاً بالله سبحانه وتعالى وبصفاته، واستهتاراً بمقام الألوهية والربوبية والنبوة والرسالة والولاية، وجرأة على الله جل جلاله الكريم، وإهانة لرسوله الكريم عليه السلام وازدراءً بمقامه العظيم وبما ذكَّرهم به من أمر ربهم سبحانه وتعالى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ أي: لن نبرح هذا المكان، لن نتقدم معك ولن نتأخر عن هذا الموضع.

وقيل: كانوا على جبل نبو المشرف على أرض فلسطين من الأراضي الأردنية، (فاذهب) أنت وربك الذي أوحى إليك بهذا الأمر الذي هو فوق طاقتنا ووسعنا، ووعدك بالنصر على الأعداء العمالقة، فقاتلا وحدكما هؤلاء الأعداء الجبارين الأشداء، فإنا لا طاقة لنا على قتالهم ومقاومتهم، فإن انتصرتما عليهم، أخبرونا لكي ندخل إلى الأرض المقدسة، ولكن لا رغبة لنا في دخولها والتنعم بخيراتها المادية والمعنوية، إذا كان دخولها والحصول على الملك والعز فيها والتنعم بخيراتها المادية والمعنوية،

---

١. المائدة: ٢٤

يتوقف على قتال أهلها العمالقة الجبارين وبذل التضحيات الكبيرة من الأنفس والأموال. وهذا القول منهم لنبيهم وقائدهم وإمامهم في هذا الموطن الحساس والحرج جداً، في الوقت الذي يدل على الوقاحة والصلافة والاستهانة بمقام الربوبية والنبوة والرسالة، فإنه يدل أيضاً على انحطاط أخلاقهم، وضعف شعورهم بالمسؤولية الدينية والأخلاقية والاجتماعية والتاريخية، وضعف منطقهم وسخافة تفكيرهم، ولو كان لديهم شعور عميق بالمسؤولية ومنطق سليم لقالوا لنبيهم الكريم وقائدهم المخلص الأمين: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، من بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن شمالك، كما هو دأب المؤمنين الواعين الصادقين في إيمانهم والمناضلين الأحرار في الأمم قاطبة طوال التاريخ، يقول الشيخ محمد جواد مغنية في تعليقه على قولهم ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾[1]: «**إنه ربهم إذا خدم مصالحهم الشخصية، ولم يكلفهم بما يزعجهم، وقتل أعداءهم .. وهم (قاعدون) سالمون آمنون، أما إذا انزعج خاطرهم بأدنى تكليف فهو رب موسى، وليس بربهم .. ومعنى هذا في واقعه أن أهواءهم وشهواتهم وحدها هي ربهم وإلههم الذي يستحق منهم العبادة والتقديس بحمده**».[2] والحق أن هذه الظاهرة المأساوية البائسة المفجعة، لا تخص اليهود وحدهم، بل تشمل كل المنافقين والانتهازيين وضعفاء الإيمان في كل دين ومذهب سماوي ووضعي. وهو حال كل من تعلق بعالم الدنيا والمادة، على حساب عالم الروح والقيم الإنسانية.

---

١. المائدة: ٢٤

٢. تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، جزء٦، صفحة ٤٣

وأمام هذا الموقف المتخاذل والمتخلف الصعب من بني إسرائيل، الذي يغيب عنه المنطق والقيم والشعور بالمسؤولية، ويدل على التعالي والغطرسة أيضاً توجه موسى الكليم عليه السلام إلى ساحة القدس الإلهي بحرقة وحزن ورقة قلب، شاكياً إلى الله سبحانه وتعالى غربته الفكرية والروحية والقيمية بين قومه وأتباعه المجبولين على البغي والعصيان والفساد، وقد خذلوه في هذا الموطن الحرج جداً، وأصابه اليأس والقنوط من تراجعهم وإصلاحهم، فلم يبقَ من هو موافق ومطيع له منهم إلا القليل، وعلى رأسهم أخيه ووزيره هارون عليه السلام وابنيه والرجلين الصالحين المذكورين، وأغلب بني إسرائيل على المخالفة والعصيان والخذلان له، فقال شاكياً إلى الله عز وجل وطالباً للنصرة: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[1] أي: إني قد أبلغت وأعذرت وأقمت الحجة على بني إسرائيل، ولا أملك التصرف في أحد لنصرة دينك وإقامة أمرك، إلا نفسي وأخي ووزيري هارون عليه السلام فقد أخلصنا أنفسنا إليك طلباً لرضاك عنا، وقد قمنا بواجبنا وأدينا تكليفنا الشرعي في السعي لهداية هؤلاء القوم الفاسقين العاصين، ونصحهم ووعظهم وتحذيرهم وإرشادهم إلى الحق والصواب وما يجب عليهم القيام به طاعة لك، ولأجل خيرهم وكمالهم ومصلحتهم وسعادتهم الحقيقية ونجاتهم من الهلاك والشقاء في الدارين الدنيا والآخرة، إلا أنهم تمردوا علينا وخرجوا عن طاعتك، ولا حيلة لي ولا لأخي ووزيري هارون عليه السلام مع هؤلاء القوم الجبناء الفاسقين لإقناعهم بالجهاد في سبيلك، ومن أجل عزتهم وكرامتهم وحياتهم الطيبة، وحملهم

---

١. المائدة: ٢٥

بالتي هي أحسن على طاعتك والاستجابة به لأمرك ونهيك ولست عليهم بجبار، وأنا الآن آيس منهم، ووصلت معهم إلى طريق مسدود، فميزنا عن جملتهم، ولا تجعل حكمهم وحكمنا واحداً، وتلحقنا بهم في العقوبة، فلسنا منهم في الحقيقة والواقع، واحكم بيننا وبينهم بالحق، بأن تحكم لنا بما نستحق على عقيدتنا وأعمالنا، وتحكم عليهم بما يستحقون بحسب عقيدتهم وأعمالهم، لكي يلقوا جزاء نفاقهم وعصيانهم وتمردهم وأعمالهم السيئة، ويبادروا إلى إصلاح أنفسهم وعقيدتهم وأعمالهم فأنت أحكم الحاكمين وأعدلهم على الإطلاق.

وقيل: ليس في دعاء موسى عليه السلام طلب نزول العذاب الإلهي على قومه، فقد كان بهم رحيماً مشفقاً عليهم من نزول العذاب والسخط والغضب الإلهي في الدارين الدنيا والآخرة، ولكن أراد الوسيلة إلى إصلاحهم وإعادتهم وإلى رشدهم.

وقد أجاب الله عز وجل على شكوى رسوله الكريم موسى الكليم عليه السلام بقوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾[1] أي: أن عقوبة بني إسرائيل العصاة الجبناء الذين رفضوا الانصياع لأمر الله عز وجل وأمر إمامهم وقائدهم الرباني موسى الكليم عليه السلام بالجهاد في سبيل الله عز وجل وقتال العمالقة، عقوبتهم في الحياة الدنيا أن الأرض المقدسة المباركة فلسطين محرمة على الذين قالوا: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾[2] تحريماً تكوينياً لمدة

١. المائدة: ٢٦

٢. المائدة: ٢٤

أربعين سنة، وذلك بسبب جبنهم وسوء طبعهم وأخلاقهم ومعصيتهم لله سبحانه وتعالى ولرسوله الكريم عليه السلام وامتناعهم عن الجهاد في سبيل الله عز وجل وقتال أعداء الله العمالقة الجبارين، فيتيهون في صحراء سيناء والنقب، يذهبون ويجيئون ضائعين متحيرين فيها لا يهتدون إلى طريق الخروج منها ولا يدرون إلى أين سيكون المصير، فلا يدخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة فاتحين ويحررونها ويملكونها، إلا بعد أربعين سنة يقضونها في التيه في الصحراء، أي: عاقب الله عز وجل بني إسرائيل بعقوبتين: الحرمان من دخول الأرض المقدسة والتنعم بخيراتها المادية والمعنوية، وبالتيه والضياع في الصحراء والخوف من المجهول، وهذه عقوبة دنيوية مناسِبة لما عملوه، وليس الهدف منها الانتقام منهم، بل تقويم سلوكهم وحملهم على المبادرة لإصلاح أنفسهم وعقيدتهم وأعمالهم، ولعلّ الله تبارك وتعالى كفَر بها ذنوبهم ودفع بها عنهم عقوبة أعظم منها، مما يدل على أن العقوبة الإلهية على بعض الذنوب للمؤمنين، قد تكون في الحياة الدنيا بمرض أو زوال نعمة موجودة أو نحو ذلك. ثم يدخل بنو إسرائيل إلى الأرض المقدسة فاتحين يحررونها ويطهرونها بجيل جديد صالح منهم، قد تشبع بالتعاليم الإسلامية الصحيحة النيرة والمعارف الإلهية الحقة، وتربوا على مبادئ الحقوق والحرية والإباء والعزة والكرامة ونحوها، وصقلت نفوسهم الأبية النقية حياة الصحراء القاسية ومعاناتها، ووهبت لهم الصفاء والنقاء والقوة الجسمية والنفسية، وأعدتهم لخوض غمار الجهاد في سبيل الله عز وجل بإخلاص نية وصدق، بقيادة الخليفة والوصي الأمين يوشع بن نون، وذلك بعد هلاك وزوال الجيل القديم الضعيف العاجز الذي تورط في المعصية

والتمرد على أوامر ولي الله الأعظم موسى الكليم عليه السلام بشكل تدريجي وطبيعي.

وتعتبر عقوبة الحرمان من دخول الأرض المقدسة والتيه في الصحراء عقوبة مناسِبة لذنوبهم ونتيجة وجودية لها، وقد تحرر بنو إسرائيل بفعلها من الآثار السلبية المدمرة، مثل: الإحساس باحتقار الذات والذل والهوان والضعف والنقص ونحو ذلك، التي تركها العيش في ظل الاستعباد والخضوع للنظام الفرعوني الغاشم المستبد، ولم يكونوا مستعدين أبداً بسبب أثقالها الفكرية والروحية والسلوكية، لتلك القفزة الحضارية والنهوض من الركام الذي سعى إلى تحقيقه موسى الكليم عليه السلام ومن شأنه أن يهيئ لهم حياة جديدة أفضل، مقرونة بالشعور العميق بالحرية والعزة والكرامة والمجد.

وتعتبر هذه العقوبة سنة إلهية ثابتة في كل قوم أو شعب يتصفون بالخوف والجبن والضعف النفسي والكسل والقعود عن الجهاد والمقاومة والعمل الصالح المثمر الدؤوب من أجل البناء والتطور والتقدم المعرفي والتربوي والحضاري، والاعتماد على الصدف والأوهام وما تقدمه لهم الأمم والشعوب الأخرى المتحضرة والمنتجة والمبدعة من علوم وتكنولوجيا وفنون ومظاهر حضارية من أجل الاستهلاك، لأنها السبيل إلى حملهم على المراجعة والسعي لإصلاح أنفسهم في ظل المعاناة وقساوة الحياة والاعتماد على النفس والعمل من أجل النهوض الشامل المادي والمعرفي والروحي، والتقدم في مسيرة التكامل الإنساني والحضاري، وإقامة حكومة الحق والعدل والحرية والعزة والكرامة والفضيلة على ضوء التعاليم

الإسلامية الصحيحة النيرة والمعارف الإلهية الحقة والأحكام الشرعية السمحة، للوقوف إلى صف الأمم والشعوب المتحضرة المتقدمة، وهذه هي غاية خلق الإنسان واستمرار وجوده وخوضه غمار الصراعات ومواجهة التحديات والصعوبات الداخلية والخارجية في الحياة.

الجدير بالذكر: أن الانتصارات والإنجازات التي تتحقق صدفة وبدون جهود ومعاناة وكفاح حقيقي وتضحيات تذكر لإيجادها من أبناء الشعب أو الأمة، فإنهم لا يكونون جديرين بها وحريصين عليها ويعجزون عن استيعابها ويفشلون في إدارتها وحسن توظيفها، ويشمل ذلك الحصول على التكنولوجيا المتقدمة المدنية والعسكرية، ومظاهر الحضارة المستوردة كلها، أي: يجب أن نميز بين العقلية والروحية التي تستهلكها، وأن الفضل والارتقاء الحقيقي يقوم على إيجاد الإنجازات والإبداعات وليس في اقتنائها واستهلاكها. ويجب أن نميز بين التبادل الحضاري المتكافئ الذي يساهم في إثراء الحضارة وتوازنها وتكاملها، وبين العلاقة غير المتكافئة للإنجازات بين الكسالى الخاملين المتخلفين الذين يقتنون ويستهلكون إنجازات و إبداعات الآخرين.

وقد روي أن بني إسرائيل قد لبثوا أربعين سنةً تائهين في صحراء سيناء والنقب يجولون في كل ستة فراسخ، يسيرون في كل يوم جادين، حتى إذا أمسوا أو أصبحوا وجدوا أنفسهم في منازلهم التي كانوا فيها بالأمس، فيقول بعضهم لبعض: يا قوم لقد ضللتم وأخطأتم الطريق. وبقوا على هذا الحال التعيس، حتى أذن الله تبارك وتعالى لهم بدخول الأرض المقدسة

بعد أربعين سنة، هلك خلالها جميع الذين قالوا: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾[١] وقال الله عزّ وجلّ عنهم: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾[٢] فلم يروا الأرض المقدسة التي حرمها الله جلّ جلاله عليهم، ودخلها جيل جديد من بني إسرائيل، تربى تربية رسالية صحيحة، على يد موسى الكليم وهارون عليهما السلام وقادهم يوشع بن نون لفتحها وتحريرها وتطهيرها، ونجح في ذلك، وتحقق الوعد الإلهي الحتمي على أيديهم بعد أن توفرت جميع الشروط لذلك. ولعل الحكمة الإلهية في مدة الأربعين سنة، أنها المدة اللازمة لهلاك أولئك الذين قالوا تلك المقولة الشنيعة: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُون﴾[٣] بشكل تدريجي طبيعي، وهي مقولة صادرة عن قلوب ضعيفة الإيمان واليقين متعلقة بعالم الدنيا والمادة، ولا صبر لديها على المكاره والثبات أمام الصعوبات والتحديات، وليس لديها الهمة والإرادة التي تحملها على السمو والارتقاء في معارج الكمال المعرفي والتربوي والحضاري. وليظهر جيل جديد صالح وطموح تربى على ثقافة الحقوق وقيم الحرية والإباء والعزة والكرامة، ويطلب النصر والرفعة وقهر الأعداء، ويتطلع إلى إظهار الحق ونشر الفضيلة و إقامة العدل، ويرفض الذل والهوان والاستعباد وفرض حكم الأمر الواقع عليه، مما يدل على أن الانتصارات والحتميات الإلهية التاريخية، تحتاج في تحققها إلى شروط، منها: صدق الإيمان، و إخلاص النية، وبذل الوسع في التحصيل العلمي والصناعة والعمل والجهاد ونحو

١. المائدة: ٢٤

٢. المائدة: ٢٦

٣. المائدة: ٢٤

ذلك، ولا يوفق إليها أو تجري على يد كل أحد.

الجدير بالذكر: أن موسى الكليم عليه السلام قد خص بالذكر أخيه هارون عليه السلام في قوله: ﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾[1] لأنه شريك له في النبوة والرسالة، ولكونه أبرز شخصية في بني إسرائيل وأكملهم بعده، فحكمه وحكم أخيه حكماً واحداً، أو أنه بحكم نفسه، وهذا لا يعني أبداً نفي ثبات قلة من بني إسرائيل معه غير هارون عليه السلام وعلى رأسهم ابنا هارون عليه السلام ويوشع بن نون وكالب بن يوحنا وغيرهم، وقيل: المراد بأخي يؤاخيه في الدين.

وفي سنوات التيه الأربعين توفي نبي الله الكريم هارون عليه السلام وبعده بثلاث سنين توفي نبي الله الكريم موسى الكليم عليه السلام. أي: أنهما توفيا عن نفس العمر تقريباً، لأن هارون عليه السلام يكبر موسى الكليم عليه السلام في العمر بثلاث سنين، وقيل: إنهما توفيا عن عمر مائتين وأربعين سنة تقريباً، قبل أن يدخلوا الأرض المقدسة، ودفنا في صحراء سيناء، وقيل غير ذلك: بشأن دخولهما إلى الأرض المقدسة. وقد خلف موسى الكليم عليه السلام في بني إسرائيل وصيه يوشع بن نون، وهو ابن عمه. وقيل: ابن اخته، وقد نجح في الدخول مع الجيل الجديد من بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة فاتحين وتحريرها من أيدي العمالقة الجبارين الغاشمين وتطهيرها من الشرك.

---

١. المائدة: ٢٥

المقدمة الثالثة: التعريف بإسرائيل وبني إسرائيل

والبشارة به

إسرائيل: لقب أطلق على نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وأمه رفقة بنت بتوئيل بن ناحور بن الأرامي، وهي ابنة أخ إبراهيم الخليل عليه السلام، وجدته أم أبيه سارة بنت لاحج التي بشرتها الملائكة بأبيه إسحاق وبه من بعد أبيه، قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[1] أي: جاءت رسل الله تبارك وتعالى من الملائكة الذين أمروا بتدمير مدن قوم لوط

---

١. هود: ٦٩-٧٣

وقراهم، وقيل هم: جبرائيل وميكائيل و إسرافيل وكروبيل، إلى نبي الله إبراهيم الخليل محطم الأصنام عليه السلام وكانوا في صور الغلمان من الآدميين، وقيل: كان عددهم تسعة، وقيل: أحد عشر، وقيل: ثلاثة بدون كروبيل، فحيوا إبراهيم الخليل عليه السلام بأحسن تحية، ورد عليهم التحية بأحسن منها، وكانوا على هيئة في غاية الحسن والجمال والهيبة والوقار، فقال: لا يخدم هؤلاء إلا أنا بنفسي، وهو من أخلاق المؤمنين الصالحين، وكان إبراهيم الخليل عليه السلام كريماً صاحب ضيافة يحب الضيوف ويقوم على خدمتهم بنفسه، ويكنى بأبا الضيفان، فبالغ في إكرامهم ظنّاً منه أنهم ضيوف من البشر، وأسرع في القيام بواجب الضيافة، وما أبطأ حتى هيأ وجاء لهم بعجل ذكي مشوي نضيج يقطر دسمه، فقال: كلوا، قالوا: لا نأكل حتى تخبرنا ما ثمنه؟ فقال: إذا أكلتم، فقولوا: بسم الله، و إذا فرغتم، فقولوا: الحمد لله، فالتفت جبرائيل إلى أصحابه وكان رئيسهم، فقال: حق لله أن يتخذ هذا خليلاً.[1] وفي عمل إبراهيم الخليل عليه السلام دليل على استحباب أن يعجل المضيف للضيف بالطعام، خاصة إذا كان الضيف مسافراً فإنه غالباً ما يكون متعباً وجائعاً وبحاجة إلى الطعام، فينبغي أن يقدم إليه الطعام عاجلاً، ليخلد بعده إلى الراحة.

إلا أن إبراهيم الخليل عليه السلام رأى أن الضيوف لا يمدون أيديهم إلى الطعام، فنكرهم؛ لأن الإحجام عن الطعام فعل جديد وغير معهود بالنسبة إليه وهو إمارة عداوة و إضمار الشر، أو لأنه أدرك بأنهم ليسوا من البشر ولم يعرف حقيقتهم ولا يعلم ما يريدون، فاستشعر في نفسه بشيء من الخوف،

١. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، جزء ٦٣، صفحة ٣٦٨

وصارحهم بذلك، فقال: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾[١] وقيل: خاف أن يكونوا نزلوا لأمر أنكره الله ﷻ من قومه.

وقد عُرِف إبراهيم الخليل محطم الأصنام عليه السلام بالشجاعة والإقدام، فقد كسر الأصنام التي يعبدها قومه، وحاج نمرود الجبار، ولم يرتع أمام هول النار الموقدة لإحراقه بها، وعليه: فإن هو خاف من شيء، فإنما يخافه خوف حزم لا خوف جُبن وهلع، وهذا يدل على أن ما اعتراه من الخوف بشأن ما رآه من الضيوف، هو خوف طبيعي وليس بمذموم. فالخوف تأثر نفساني يعرض للإنسان بسبب تصور شر قريب الوقوع، أو توقع محذور من إمارة مظنونة أو معلومة، فيبعث النفس على التحرر والمبادرة إلى دفع الشر أو المحذور الدنيوي أو الأخروي، وقد فطر عليه الإنسان ليدفع به الشر والضرر الدنيوي والأخروي عن نفسه، كما فطر على الشوق والسرور لمشاهدة المحبوب ليجلب به الخير والنفع إلى نفسه في الدارين الدنيا والآخرة، ويحصل للإنسان إذا فاجأه أمر لا يعرف عواقبه، فهو ليس من الرذائل، ولا يخالف مقام النبوة والرسالة والإمامة والعصمة، و إنما الرذيلة: الخوف الذي يستوجب ظهور الفزع وبطلان الرأي والمقاومة والذهول عن التدبير ويستتبع الغي والانهزام وهو المعروف بالجبن، وكذلك الخوف المرضي من أشياء لا تبعث بطبيعتها على الخوف، مثل: الخوف من الظلام، أو من المكان المرتفع، أو من الحيوان الأليف، أو نحو ذلك.

ولما اطّلع الملائكة عليهم السلام على ما في نفس إبراهيم الخليل محطم

---

١. الحجر: ٥٢

الأصنام عليه السلام من الخوف، بادروا إلى دفع ما وقع في نفسه الزكية الطاهرة، فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[1] أي: لنهلكهم بسبب ما دأبوا عليه من الفسوق والعصيان وجرائم ورذيلة اللواط التي لوثوا بها البشرية، ولم ينفع معهم نصح ووعظ و إرشادات نبيهم الكريم لوط عليه السلام وأخبروه بأنهم لا يريدون به ولا بقومه سوء، فعلم أنهم من الملائكة الكرام المنزهين عن لوازم البدن المادية، مثل: الطعام والشراب ونحوهما، وأنهم يرسلون لخطب جليل. ولما علم أنهم من الملائكة وماذا يريدون بشّروه بولادة إسحاق، ومن بعده بعقوب عليه السلام وقيل: البشرى كانت بهلاك قوم لوط لأنه كان مستاء جداً مما هم عليه من الفسوق والعصيان والتلوث برذيلة اللواط وكانوا من أفجر الناس وأكذبهم وأسوأهم طويةً وسلوكاً، وبولادة إسحاق ويعقوب عليهما السلام.

وكانت زوجته سارة وهي ابنة عمه، وقيل: ابنة خالته، هناك قائمة بجوار إبراهيم الخليل عليه السلام وضيوفه الكرام تخدمهم. فلما علمت أنهم من الملائكة وعلمت ماذا يريدون وسمعت منهم البشارة بالولد والحفيد، ضحكت فرحاً وسروراً لزوال الخيفة وأن لا شر سيتوجه إليهم، ولهلاك قوم لوط الملوثين بالعصيان والآثام ولكثرة فسوقهم وفسادهم و إجرامهم وما دأبوا عليه من الجنايات والخبائث، ولما سمعت منهم من البشارة بالولد والحفيد، وقيل: لأن أضيافها لم يأكلوا من طعامها الذي أعدته لهم وقامت بنفسها على خدمتهم.

---

١. هود: ٧٠

وقيل في معنى ضحكت: جاءها الحيض (العادة الشهرية النسائية) وكانت عجوزاً عقيماً قد يئست من الحيض منذ سنين عديدة، ولم يخطر ببالها أنها ستحيض وهي عجوز، ففاجأها أنها حاضت، والحيض هو الحدث المناسب الذي يقرب البشرى بالولد التي جاءت بها الملائكة لإبراهيم الخليل عليه السلام من عند الله رب العالمين إلى القبول بها، وآية باهرة تهيء نفس سارة وعقلها للإذعان بصدقها، لأن الحيض يدل على إمكان الإنجاب، فأكدت الملائكة البشرى لسارة: بأنها ستلد لإبراهيم الخليل عليه السلام ولدًا هو إسحاق عليه السلام وأن إسحاق عليه السلام سيولد له ولد اسمه يعقوب (إسرائيل) أي: بشرت الملائكة الكرام إبراهيم الخليل عليه السلام وزوجته سارة بالولد إسحاق وبالحفيد يعقوب عليه السلام وأن كلاهما سيكون نبياً رسولاً من الله تبارك وتعالى إلى الناس وفي العبارة دلالة على أن ولد الولد(الحفيد) ولداً، وقيل: سمي يعقوب؛ لأنه يعقب بحسب هذه البشارة أبيه إسحاق.

وكانت البشارة لإبراهيم الخليل عليه السلام وزوجته سارة من الملائكة الكرام عليهم السلام بإسحاق ويعقوب عليهما السلام بعد ولادة إسماعيل الذبيح عليه السلام من زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام هاجر بخمس سنين، وقيل: بأربع عشرة سنة. وكان عمر سارة في ذلك الحين تسع وتسعين (٩٩) سنة، وقيل: ثمانية وسبعون (٧٨) سنة، وقيل: تسع وثمانون (٨٩) سنة، وعمر زوجها إبراهيم الخليل عليه السلام مائة (١٠٠) سنة، وقيل: مائة واثنا عشر (١١٢) سنة، وقيل: مائة وعشرون (١٢٠) سنة، فتعجبت سارة من أن تلد وهي عجوز عقيم، وزوجها شيخ هرم، أي: أن يولد ولد من هرمين بالغين في الكبر، فإنه خارق للعادة ولم يعهد بين الناس مثله في الاستيلاد، فهو أمر عجيب بحق، وكانت بذلك الحال آيسة من

الولد بشدة، وقيل: أنها لم تتعجب من قدرة الله سبحانه وتعالى، فهي تعلم أنه على كل شيء قدير، ولكنها أرادت أن تعرف: هل تتحول شابة، أم تلد على تلك الحال؟ فهو استعجاب بحسب العادة وليس بحسب القدرة الإلهية. فقالت: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾[1] وذلك: لأنه غير مألوف ولم يعهد مثله بين الناس وربما حملهم على الضحك والاستهزاء!! فقالت لها الملائكة فوراً بإرادة إزالة التعجب عنها، فذكّروها بقدرة الله ﷻ وأفعاله الخارقة للعادة، وبنعمه العظيمة عليهم أهل البيت، فقالوا: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[2] استفهام إنكاري، أنكرت الملائكة فيه تعجب سارة من البشارة بالولد والحفيد؛ لأن التعجب إنما يكون للجهل بالسبب واستغراب الأمر، والأمر المنسوب إلى الله سبحانه وتعالى وهو الذي يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير، لا وجه للتعجب منه، والمعنى: أتعجبين من قدرة الله سبحانه وتعالى أن يعطيكما ولداً وأنتما هرمان بالغان في الكبر؟ ألم تعلمي أن قدرة الله ﷻ قدرة مطلقة، وهو يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير، فلا يمتنع عليه شيء من الممكنات العقلية مهما كانت غير مألوفة أو غير معتادة بين الناس، فمشيئته نافذة وأمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون من غير مخالفة أو منازعة. وهو مصدر كل نعمة على العباد، وكل خير وكل رفعة وكل فعل محمود يستحق به الحمد من عباده. وهو منشأ كل وجود وكرم وكثير الإحسان إلى عباده، يفيض من رحمته وبركاته

١. هود: ٧٢

٢. هود: ٧٣

على من يشاء من عباده بلا حدود وبدون استحقاق تفضلاً منه ورحمة. وأن رحمته و إحسانه وبركاته دائمة عليكم أهل البيت بلا انقطاع، وذلك بسبب النبوة والرسالة والإمامة والولاية والأعمال الصالحة، وقد خصّكم من نعمه و إحسانه ومواهبه العالية بالشيء العظيم الذي تنفردون به من بين الناس جميعاً، مثل: نجاة إبراهيم عليه السلام من النار بعد أن أُلقي فيها، فقال الله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[1] وانتصاره على نمرود الجبار وجماعة المشركين وهو وحيد، و إلهامه البصيرة والاستقامة على الدين الحق والصراط المستقيم، ونحو ذلك.

وعليه: فلا عجب إن أضاف إلى ما مضى من نعمه العظيمة النازلة عليكم، نعمة عظيمة جديدة، يختصكم بها بين الناس، وهي ما بشرناك به، بأن يرزقكم الله تبارك وتعالى ويمن عليكم بإسحاق ومن بعده يعقوب عليه السلام وأنتما في هذا العمر المتقدم جداً الذي لا يولد في مثله ولد عادة، فهذه واحدة كأخواتها من النعم العظيمة التي أنعم الله تبارك وتعالى وامتن وأكرمكم بها يا أهل بيت النبوة والرسالة والإمامة والولاية والعصمة، فليس هذا هو مكان عجب، بل هو مكان شكر وحمد.

وقد أضافت الملائكة الأمر إلى الله سبحانه وتعالى لينقطع بذلك مورد كل استعجاب واستغراب؛ لأن ساحة الرب الجليل الحق، لا يشق ولا يمتنع عليها شيء من الممكنات العقلية. وذكّروا سارة الصالحة بأن الله تبارك وتعالى أنزل رحمته وبركاته عليهم أهل البيت دائماً بدون انقطاع، فليس

---

١. الأنبياء: ٦٩

من البعيد أن ينعم عليهم ويكرمهم بمولود من والدين هرمين بالغين في الكبر لا يعهد من مثلهما الاستيلاد عادة. وفي الحديث النبوي الشريف: **«قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد»**[١].

ويحسن بنا الإشارة إلى مسألتين:

أ. فضيلة الضيافة: تكشف استضافة إبراهيم الخليل عليه السلام للملائكة الكرام عليهم السلام عن فضيلة الضيافة، وكان إبراهيم الخليل يُكنى: أبا الضيفان. والضيافة من أحب الأعمال إلى الله تبارك وتعالى، وفضلها عظيم عنده، وثمرها جسيم، وبركاتها سريعة، وثوابها جزيل، فلا يدري أحد من الخلق ما لصاحب الضيافة من الأجر لا ملك ولا رسول إلا رب العالمين، وفي الحديث النبوي الشريف: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»**[٢] فإكرام الضيف من الإيمان، وهي دليل على سمو النفس لما فيها من السخاء، وتعزز المحبة بين الناس، وترفع قيمة الإنسانية وترسخها في مقابل المصلحة والقيم المادية، حيث يكرم الإنسان ضيفه ويحسن إليه لإنسانيته أو لأنه أخوه في الإنسانية، مما يعود على صاحب الضيافة والمجتمع والمسيرة الإنسانية بالخير العظيم، وفي الحديث النبوي الشريف:

---

١. كنز العمال، جزء ٢، صفحة ١٧٦

٢. جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، جزء ٢، صفحة ١١٦

«الضيف دليل الجنة»[١] وينبغي أن يقصد صاحب الضيافة من الضيافة التقرب إلى الله ذي الجلال والإكرام، والتسنن بسنة الأنبياء الكرام عليهم السلام وإدخال السرور على قلب الضيف، وعليه أن يحرص تمام الحرص على السعي في إكرام الضيف ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فيظهر له طلاقة الوجه، وطيب الكلام، والتواضع وترك التكبر، والخروج معه إلى باب الدار، ونحو ذلك من مظاهر التكريم والاحترام والتقدير، وذلك لكي تؤتي الضيافة أكلها في الدارين الدنيا والآخرة. وينبغي لصاحب الضيافة أن يحذر حذراً شديداً من قصد الرياء والسمعة والمفاخرة والمباهاة، ومن الإساءة إلى الضيف بأي نحو كان، ونحو ذلك من الرذائل، لكي لا يضيع الأجر وتنعكس الآية، وفي الحديث النبوي الشريف: «**ما من صاحب يصحب صاحباً ولو ساعة من نهار، إلا وسئل عن صحبته: هل أقام فيه حق الله تعالى أو أضاعه**»[٢].

ب. تعتبر عقوبة الهلاك والاستئصال لقوم لوط، دليل على مدى استهجان وفحش هذه الرذيلة عند ساحة القدس الإلهي، فهي من أقبح الأعمال وأحطها، وأشنع الفواحش والانحرافات وأخطرها، ووجودها في شخص، دليل على مرض نفسي وانحراف المزاج وفساد الطبع والخروج عن الفطرة، إلى درجة يفقد من كانت فيه توازنه وإرادته ويحس بالغربة عن نفسه ومجتمعه، وينحدر إلى

١. نفس المصدر، صفحة ١١٧

٢. المحجة البيضاء، الفيض الكاشاني، جزء ٣، صفحة ٣٢٨

درك الحيوانية والبهيمة، وهي رذيلة تعف عنها الحيوانات إلا أربعة أنواع: الإنسان والقرد والخنزير والقط، والإنسان الذي يمارسها أكثر الأربعة انحطاطاً وهذا شقاء عظيم. وهذه الرذيلة تقضي على نظام الأسرة، وتعطل النسل، وتخلق الأرضية النفسية لانحرافات أخرى، وتشكل خطراً جسيماً على تماسك المجتمع الإنساني وسلامته. وقد ذمها القرآن الكريم في مواضع عديدة، وعدها بمثابة الكفر، وجعل عقوبة مرتكبها القتل، وتعتبر عقوبة قوم لوط وعيداً من الله ﷻ لمن يرتكبها بالعذاب الشديد في الدارين الدنيا والآخرة، وقد حذر القرآن الكريم جميع الشعوب والأمم من العاقبة السيئة المذمومة لكل من يسقط في مستنقع هذه الرذيلة والجريمة الشنيعة، بأن يصيبهم مثل ما أصاب قوم لوط من العقاب الإلهي الشديد، وهو الهلاك أو الاستئصال، قول الله تعالى:﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[1] وعليه: يجب على كل مرتكب لهذه الرذيلة الإقلاع عنها فوراً وبدون تأخير، حتى لو تطلب أمر الإقلاع عنها الاستعانة بالطبيب النفسي أو الجسمي أو غيرهما. ومن المؤسف جداً أن بعض الدول أخذت في الوقت الحاضر في شرعنة هذه الرذيلة تحت عنوان الحرية الشخصية وحقوق الإنسان، وهي غريبة تماماً عن حقيقة هذه العناوين، مما يدل بحق على انحراف المزاج وفساد الطبع والفطرة وضلال المعايير.

---

١. هود: ٨٢-٨٣

- إسرائيل: لقب أُطلق على نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام قيل: إنه مركب من لفظين: إسرا بمعنى عبد، أو صفوة، أو إنسان، أو مهاجر، أو محارب، أو مجاهد، و إيل، بمعنى: الله، فيكون معنى إسرائيل: عبد الله، أو صفوة الله، أو المهاجر إلى الله، أو المجاهد إلى الله، أو المحارب مع الله، ويكنى بإسرائيل الله بمعنى خالصه.

أمه: رفقة بنت بتوئيل بن ناحور الأرامي، وهي ابنة أخ إبراهيم الخليل عليه السلام وجدته أم أبيه: سارة بنت لاحج التي بشرتها الملائكة.

عاش في أوائل القرن الثامن عشر (١٨) قبل الميلاد مع أبيه إسحاق عليه السلام في فلسطين وقد طلبت منه أمه رفقة بنت بتوئيل أن يذهب إلى خاله لابان بأرض حاران في العراق، وأن يتزوج من بناته. وطلبت من زوجها إسحاق عليه السلام أن يأمره بذلك ففعل. فخرج يعقوب عليه السلام إلى أرض حاران في العراق، وأقام عند خاله لابان يخدمه وطلب منه أن يزوجه بابنته ليثه أو ليا، فزوجه إياها وأنجبت له ستة أبناء، ثم توفيت فزوجه خاله ابنته الأخرى راحيل، فأنجبت له ابنين. وكان لابان قد وهب لكل واحدة من ابنتيه جارية، فوهب لليثه جارية اسمها زلفه، ووهب لراحيل جارية اسمها بلهة، وقد وهبت كل واحدة منهما جاريتها إلى يعقوب عليه السلام فصارت له أربع زوجات، رزق منهن باثني عشر ولداً، كالتالي:

أ. من زوجته ليثه، رزق: رأوبين، وشمعون، ولاوي، ويهودا، ويساكر، وزبولون.

ب. من زوجته راحيل، رزق: يوسف، بنيامين.

ج. من زوجته بلهة، رزق: دان، ونفتال.

د. من زوجته زلفة، رزق: جاد، واشير.

وبعد عشرين سنة قضاها عند خاله بأرض حاران في العراق، عاد إلى أهله في فلسطين، وأقام فيها مع أبيه إسحاق عليه السلام في بلدة جبران التي تسمى في الوقت الحاضر الخليل. ثم هاجر من فلسطين مع جميع أهله (بني إسرائيل) إلى مصر في عهد حكومة ابنه يوسف الصديق عليه السلام ومات في مصر عن عمر يناهز مائة وأربعين (١٤٠) سنة، ودفن فيها.

وقد نص القرآن الكريم على نبوة يعقوب (إسرائيل) عليه السلام في مواضع عديدة، منها: قول الله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[١] وقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[٢] وقد أثنى الله تبارك وتعالى عليه وعلى أبيه إسحاق وجده إبراهيم الخليل عليه السلام في مواضع عديدة من القرآن الكريم، منها قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى

١. آل عمران: ٨٤

٢. النساء: ١٦٣

الدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾[1] وقد وصفهم بالقوة في طاعة الله ذي الجلال والإكرام وعبادته سبحانه وتعالى وإيصال الخير والنفع المادي والمعنوي إلى الناس، والبصيرة النافذة في دين الله الحق وقضايا الحياة وشؤون الأفراد والمجتمعات وسلوك سبيل العبودية إلى الله ذي الجلال والإكرام، أي: وصفهم بالعلم النافع والعمل الصالح بمقتضى العمل النافع، والخلق الكريم والاستقامة على الصراط و النهج القويم، والزهد في الحياة الدنيا والتخلص من الجمود على ظاهر الحياة الدنيا وزينتها وزخرفها، والجهاد في سبيل الله ﷻ بالنفس والمال والنفيس .. وهذه من صفات الكمال الجوهرية التي ينبغي للمؤمن الصالح الواعي الصادق في إيمانه أن يتحلى بها.

وأن الله تبارك وتعالى قد استخلصهم واصطفاهم للنبوة والرسالة والولاية والإمامة، بسبب فنائهم في الله ذي الجلال والإكرام، واستغراقهم في ذكر الآخرة، وركوز همتهم فيها دائماً، والاستعداد والتأهب التام لها بالإتيان بالأعمال الصالحة وإيصال الخير والنفع المادي والمعنوي إلى الناس وقضاء حوائجهم والقيام بخدمتهم، وإيثار الله ذي الجلال والإكرام والآخرة على كل شيء، وتذكير الناس بهما والعمل من أجلهما، للفوز برضوان الله ذي الجلال والإكرام وجواره ونعيم الله تبارك وتعالى الأبدي في الآخرة، مما يدل على التأثير البالغ لتذكر الله ذي الجلال والإكرام والآخرة في تطهير النفس وتزكيتها، والخضوع التام لأمر الله ﷻ ونهيه، والسعي لتحصيل كمال المعرفة به، والإتيان بالأعمال الصالحة والنفع المادي والمعنوي إلى

١. ص: ٤٥-٤٧

الناس، والارتقاء في مدارج الكمال الإنساني.

دولة إسرائيل الصهيونية

وأُطلق لفظ إسرائيل في التوراة وأريد به الشعب العبراني(اليهودي) كله. و إسرائيل: اسم للدولة الصهيونية التي أقامها اليهود المعاصرون على أرض فلسطين المحتلة. وفلسطين: اسم يطلق على الإقليم الجغرافي الذي يقع بين جنوب حدود سوريا ولبنان في الشمال، وصحراء سيناء المصرية في الجنوب، وكانت جزءً من الشام التاريخية التي تضم: سوريا ولبنان والأردن وفلسطين حتى العام(١٩١٦م). وبرز اسم فلسطين كوحدة سياسية منذ اتفاقية سايكس بيكو السرية بين بريطانيا وفرنسا في العام(١٩١٦م) التي وضعت فلسطين ضمن النفوذ البريطاني. وقد احتلت بريطانيا القدس، بتاريخ: ٩ / مارس/ ١٩١٧م وجعلت منها مقراً للحاكم العسكري البريطاني. وكان وزير الخارجية البريطاني (لورد بلفور) قد أعلن من قبل، بتاريخ: ٢ / نوفمبر / ١٩١٧م الوعد المعروف باسمه (وعد بلفور) الذي تضمن عطف بريطانيا على إقامة وطن قومي لهم لليهود في فلسطين. وبتاريخ: ٣ / فبراير/ ١٩١٩م تقدم وفد صهيوني إلى مؤتمر الصلح بباريس بعد الحرب العالمية الأولى بمطالب تضمنت: الاعتراف بالحق التاريخي لليهود في فلسطين، و إقامة وطن قومي فيها، حيث كانت موطن جدهم الأول نبي الله يعقوب (إسرائيل) عليه السلام قبل هجرته منها إلى مصر على عهد حكومة ابنه نبي الله يوسف الصديق عليه السلام فيها في القرن الثامن عشر (١٨) قبل الميلاد، ثم عودتهم إليها في عهد يوشع بن نون وصي القائد التاريخي

العظيم لهم نبي الله موسى بن عمران الكليم عليه السلام الذي توفي في سنوات التيه الأربعين في صحراء سيناء ودفن فيها قبل الدخول إلى الأرض المقدسة فلسطين في القرن الثالث عشر (١٣) قبل الميلاد، بعد أكثر من أربع مائة (٤٠٠) سنة وذلك بأمر الله جل جلاله، قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝٢٠ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[1] وتعرف فلسطين بالنسبة إليهم بأرض الميعاد، كما تضمنت مطالب الوفد الصهيوني: وضع حدود معينة لفلسطين، تشمل جنوب لبنان، الأردن، العقبة، ووضعها تحت الانتداب البريطاني. وبتاريخ: ١٥ / إبريل / ١٩٢٠م قرر مجلس الحلفاء الأعلى المنعقد بسان ديمو في إيطاليا، وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وأعلن صك الانتداب بتاريخ: ٦ / يونيو / ١٩٢٢م، ووضع موضع التنفيذ، بتاريخ: ٢٩ / سبتمبر / ١٩٢٣م، وقد تضمنت مادته الثانية ما نصه: تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في أحوال سياسية و إدارية واقتصادية، تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي، وتضمن كذلك الاعتراف بقيام وكالة يهودية تكون بمثابة حكومة يهودية داخل حكومة الانتداب. وقد أخذت الحكومة البريطانية آنذاك على عاتقها مسؤولية التمهيد لقيام الدولة الصهيونية، فاعترفت باللغة العبرية وسهلت عمليات هجرة اليهود إلى فلسطين، وسهلت عمليات نقل ملكية الأراضي إليهم، وأمدتهم بالسلاح والعتاد، وغير ذلك.

---

١. المائدة: ٢٠-٢١

وبتاريخ: ١٥ / مايو / ١٩٤٨م ليلاً، أنهت بريطانيا رسمياً انتدابها على فلسطين، وفي الحال: أعلن اليهود قيام الدولة الصهيونية باسم إسرائيل، واعترفت أمريكا على لسان رئيسها هاري ترومان بالدولة الصهيونية (إسرائيل) في نفس ليلة إعلانها من قبل اليهود، وبتاريخ: ٤ / مارس / ١٩٤٩م، أصدر مجلس الأمن قراراً بقبول إسرائيل عضواً في الأمم المتحدة، بتاريخ: ١١ / مايو / ١٩٤٩م، وافقت الجمعية العمومية على هذه التوصية، وبتاريخ: ٢٥ / مايو / ١٩٥٠م، أصدر تصريح ثلاثي: أمريكي بريطاني فرنسي بشأن مسؤولية هذه الدول المحافظة على الحدود القائمة في المنطقة، أي: المحافظة على وجود الكيان الصهيوني(إسرائيل).

وقد شهدت أرض فلسطين في فترة الاحتلال البريطاني العديد من الثورات الشعبية التي قوبلت بالقمع والإرهاب إلى جانب المؤامرات السياسية الخبيثة التي قادتها بريطانيا تنفيذاً للمخطط الصهيوني، فعقد بتاريخ ٧ فبراير ١٩٣٩م مؤتمر لندن الذي شاركت فيه وفود عربية وصهيونية، وانتهت المباحثات بإصدار الكتاب الأبيض الذي تضمن تشكيل دولة فلسطينية لا عربية ولا يهودية، وتقسيمها إلى ثلاث مناطق، ورفعت بريطانيا القضير الفلسطينية إلى هيئة الأمم المتحدة التي عقدت دورة استثنائية في أبريل ١٩٤٧م وانتهت إلى مشروع قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين: عربية ويهودية، وقيام نظام دولي لمدينة القدس، وبتاريخ ١٥ مايو ١٩٤٨م انهت بريطانيا رسمياً الانتداب على فلسطين، وسلمتها عملياً إلى أيدي الصهاينة الذين أعلنوا قيام دولة إسرائيل الصهيونية، ثم أخذ الصهاينة في التوسع والامتداد وضم الأراضي والمناطق إلى دولتهم حتى

نشبت حرب العام ١٩٦٧م التي تمكن فيها الكيان الصهيوني من احتلال القدس والضفة الغربية والجولان وسيناء، وقد أعيدت سيناء منزوعة السلاح ضمن اتفاقية كامب ديفيد، بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٩٧٨م، ولا تزال مشاريع التسوية والتقسيم مستمرة، وإلى جانبها مشروع المقاومة والتحرير الكامل لأرض فلسطين بقيادة الجمهورية الإسلامية في إيران، ويبذل الكيان الصهيوني جهوداً سياسية كبيرة لضم الجولات وسيناء إلى الكيان الصهيوني في ظل الأزمة السورية منذ العام ٢٠١١م، والأمل يراود المؤمنين في تحرير كامل التراب الفلسطيني رغم التخاذل العربي الشامل، وذلك الأمل في التحرير ينبعث من الوعد الإلهي بذلك، وسيحدث حتماً على أيدي المؤمنين الصادقين المخلصين، ولن يكون للمنافقين فيه أي دور، وسيكون نصيبهم الخزي والعار في الدنيا، وفي الآخرة عذاب عظيم، ولن يكون يوم التحرير ببعيد إن شاء الله ﷻ.

بني إسرائيل وإقامتهم في مصر

بني إسرائيل: هم سلالة نبي الله يعقوب (إسرائيل) عليه السلام ويعرفون بالأسباط، والسبط في اللغة: ولد الولد، والسبط من اليهود كالقبيلة من العرب، وهم الذين يعودون إلى أب واحد من أبناء يعقوب (إسرائيل) عليه السلام حيث أصبح كل من أولاد يعقوب الاثنا عشر الذين سبق ذكرهم، أبالسبط (قبيلة) من أسباط بني إسرائيل، فجميع بني إسرائيل انحدروا وتناسلوا من هؤلاء الأولاد الاثنا عشر لنبي الله يعقوب (إسرائيل) عليه السلام وقد ظهر فيهم أنبياء كرام، مثل:

أ. موسى، وهارون، و إلياس، واليسع، من سبط لاوى.

ب. داوود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى، من سبط يهودا,

ج. يونس من سبط بنيامين.

ويعتبر يوسف الصديق عليه السلام النبي الوحيد من أولاد يعقوب عليه السلام ، وقيل: بنيامين أيضاً، وكان يوسف الصديق عليه السلام أحب أبناء يعقوب عليه السلام إليه، وذلك لما جعل فيه من النبوة والرسالة والإمامة والولاية والحكمة والخير المادي والمعنوي إلى الناس، وقد سمى القرآن الكريم سورة باسم (سورة يوسف) فيها بيان لحياته ومحنته مع إخوته، ومحنته مع امرأة العزيز، ودخوله السجن، وتعبيره الرؤيا للملك، وخروجه من السجن، وجعله على خزائن مصر (وزيراً للمالية) رئيساً للحكومة، وذهاب إخوته إلى مصر لطلب المؤونة لأهلهم؛ بسبب القحط وتعرفه عليهم، ثم هجرة يعقوب عليه السلام وجميع أهله وبني إسرائيل من وطنهم فلسطين إلى مصر بطلب من يوسف الصديق عليه السلام وذلك في القرن الثامن عشر (١٨) قبل الميلاد، قول الله تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١]، وقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[٢]، أي: طلب نبي الله يوسف الصديق عليه السلام من إخوته الذين تعرف عليهم في مصر أن يذهبوا بقميصه الجديد، مقابل قميصه القديم الذي أخذوه ملطخاً بدم

---

١. يوسف: ٩٣

٢. يوسف: ٩٩-١٠٠

كذب إلى أبيهم يعقوب عليه السلام، وقد جر عليه البلاء والأحزان والأدواء والآلام والغموم حتى ابيضت عيناه من شدة الحزن على فراق المحبوب وما نزل به من الحوادث، وذلك لما في القميص الجديد من أثر ريح المحبوب والبشرى بسلامته وسعادته، بعد ما أودع فراقه في قلب أبيه العاشق لأنواره الملكوتية من الحزن والشوق والحنين والألم ما لا يعلم مقداره إلا الله سبحانه وتعالى، وقد أراد يوسف الصديق عليه السلام موافقاً لإرادة الله تبارك وتعالى وألطافه ومواهبه، أن يشم أبوه قميصه، فترجع إليه روحه، ويكون فيه شفاؤه وراحته وسروره، ويعود إليه بصره كما كان قبل أن يفقده. وقيل: أن يوسف الصديق عليه السلام قال لإخوته: إنما يذهب بقميصي هذا من ذهب بقميصي أولاً، فقال يهودا أنا ذهبت به وهو ملطخ بالدم وأخبرته أنه أكلك الذئب، فقال يوسف عليه السلام فاذهب بهذا أيضاً وأخبره أني حي وأفرحه كما أحزنته[1]. وقيل: أن جبرائيل عليه السلام أمر يوسف الصديق عليه السلام أن يرسل إلى أبيه قميصه؛ لأن فيه ريح الجنة، وأنه لا يقع على سقيم ولا مبتلى إلا عوفي[2]. وقيل: أنه قميص موروث من إبراهيم الخليل عليه السلام، وأمر يوسف الصديق عليه السلام أخوته بأن يلقوا القميص على وجه أبيه، وأخبرهم بأن من شأن ذلك أن يعيد البصر إلى عين أبيه بعد ما صار من كثرة الحزن والبكاء على فراق ابنه المحبوب يوسف الصديق عليه السلام ضريراً لا يبصر. وهذا يدل على نبوة يوسف الصديق عليه السلام وفضلة وكرامته العظيمة عند الله تبارك وتعالى، فعودة بصر أبيه إليه، التي هي أمنية جميع إخوته وفيها

---

١. الجوهر الثمين، سيد عبدالله شبر، جزء ٣، صفحة ٢٢٨

٢. نفس المصدر

تخفيف كبير لما يشعرون به من الذنب بفضل قميصه، هي بدون شك أحد معاجزه التي تدل على نبوته وعظيم مكانته ومنزلته عند الله تبارك وتعالى، وهي من العنايات الإلهية البديعة التي أظهرها الله ﷻ في حق عبده ووليه يوسف الصديق عليه السلام؛ ليكشف لنا عنايته بعباده الصالحين الذين يتعرضون للظلم والحسد من إخوانهم وأقرب الناس إليهم بسبب ما يتمتعون به من الفضائل ومكارم الأخلاق، وليس لجرم ارتكبوه أو لتقصير ونحوهما، فيصبروا حباً لله ذي الجلال والإكرام وابتغاءً لمرضاته حيث تتحول الأسباب التي أراد بها الحساد الظالمون كيداً إلى خلاف الجهة التي يريدونها تماماً. فقد أراد أخوة يوسف الصديق عليه السلام به الأذى والإذلال والغربة بإلقائه في الجب ثم بيعه بثمن بخس، فإذا هذا السبب نفسه، يتحول إلى سبب وصوله إلى بيت عزيز مصر وقراره فيه، ثم جلوسه على عرش الملك والسلطان، وتظهر كرامته وعظيم منزلته عند الله جل جلاله، أي: ظهرت كرامته في عالم الدنيا بالملك والسلطان، وكرامته الروحية بالنبوة والرسالة والإمامة والولاية والعصمة. ثم إن هذه المعجزة التي من شأنها أن تخفف عن أنفسهم المثقلة ما تعاني من الشعور بالذنب، من شأنها كذلك أن تزيل كل ما كان عالقاً في نفوسهم من رواسب الماضي، وتفتح فيها صفحة جديدة نقية في العلاقة بينهم تقوم على الأخوة والمحبة والاعتراف بالجميل والخضوع التام للولاية الإلهية، مما يعزز التوبة ويقود إلى صلاح النفس والأعمال الصالحة وذلك من ألطاف الله تبارك وتعالى بهم، كما تدل على صحة التوسل والتبرك بالأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين عليهم السلام، ويقود إلى بر الوالدين ويكشف عن قيمته العظيمة، يقول

الشيخ محمد جواد مغنية: «**والعاقل يستخلص العبرة من الفرق بين الولد العاق العقور كإخوة يوسف، حيث فعلوا ما فعلوا بأعز الخلق على أبيهم وجاؤوا بالقميص الأول الذي جر عليه الأذى والعمى، وبين الولد البار الشكور كيوسف وقميصه الثاني الذي كان لأبيه حياة وشفاء وسعادة وهناء**»[1].

كما طلب يوسف الصديق عليه السلام من إخوته أن يأتوه بأبيه يعقوب عليه السلام وجميع أهله من الرجال والنساء والأطفال والتوابع؛ ليحصل تمام اللقاء، ويسكنوا عنده مقدرين معززين مكرمين، ويكونوا تحت عينه ورعايته المباشرة لهم ويمكثوا في مصر ويتخذوها وطناً لهم، حيث كانوا أهل بادية في فلسطين، يرعون المواشي ويعانون من القحط وضيق الرزق ونكد العيش واختلال الأمن بينما تعتبر مصر بلاد المدنية والحضارة والرخاء والرقي والازدهار المادي والعلمي والأمن والاستقرار. ففعل أخوة يوسف ما أمرهم به يوسف الصديق عليه السلام ولبى يعقوب الدعوة، وولى وجهه شطر المحبوب، وهب مسرعاً في المسير.

وقد عمل يوسف الصديق عليه السلام لأبيه وعشيرته استقبالاً رسمياً على الحدود المصرية مع فلسطين، فأقام مضرباً أو سرادقات وهيأ مقدمات الاستقبال وانتظر حتى دخل أبوه وعشيرته إلى مكان الاستقبال الرسمي في مصر، وكان عددهم ثلاثة وسبعون (٧٣) إنساناً، وكانت لحظات اللقاء الأولى بين الحبيبين يوسف ويعقوب عليهما السلام بعد سنين الفراق الطويلة لحظات لا توصف، فلا يعلم إلا الله سبحانه وتعالى ما كان فيها من أمواج

---

١. التفسير المبين، محمد جواد مغنية، صفحة ٣١٧

متلاطمة وعواصف وتيارات من مشاعر العشق والحنين والبهجة والسرور وما انسكبت فيها من دموع الفرح، وكانت بدون شك من أحلى اللحظات التي مرت عليهما في حياتهما كلها، لا تعلو عليها إلا تلك اللحظات التي كان فيها أول الوحي والاتصال بالمحبوب الأول والمعشوق المطلق الذي لا يقاس به أحد من الخلق أبداً.

وقد منح يوسف الصديق عليه السلام إخوته في أول دخولهم إلى مصر صك الأمان التام فيها من جميع المخاوف والمكاره التي تدخل في دائرة السلطة والحكومة، وقيد ذلك بمشيئة الله سبحانه وتعالى، قوله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[1] لأن المشيئة الإنسانية لا تؤثر أثرها إلا إذا وافقت المشيئة الإلهية. وهذا يدل على أهمية الأمن والاستقرار في الدولة والمجتمع من أجل الإنتاج والإبداع والتفكير الهادي المتزن والرخاء والرفاه والحياة الحرة الكريمة، وبدون الأمن والاستقرار ينعدم كل ذلك ويحدق الخطر بالدولة والمجتمع ويعم الخراب فيها، ومقولة يوسف الصديق عليه السلام تؤثر على الفرق بين دولة أولياء الله والعدل الإلهي وبين دولة الطاغوت والاستكبار والاستبداد الفرعونية، وتعتبر الأمن والاستقرار وما يصاحبهما من أهم مظاهر دولة أولياء الله والعدل الإلهي، والخوف والاضطراب وانعدام الأمن والاستقرار وما يصاحبهما من أهم مظاهر دولة الفراعنة والظلم والديكتاتورية والاستبداد.

ثم عمل يوسف الصديق عليه السلام لأبيه وعشيرته حفلاً عظيماً خاصاً

---

١. يوسف: ٩٩

بالمناسبة في القصر الملكي، حضره فرعون (الملك) وجميع أفراد أسرته ومستشاريه وكبار الموظفين ورجال الدولة المدنيين والعسكريين والأشراف والوجهاء ونحوهم، وفي الحفل أجلس يوسف الصديق عليه السلام أبويه معه على السرير الذي كان يجلس عليه أثناء الحفل، وأبدى لهما شيئاً عظيماً من البر والاحترام والتقدير والتكريم والتبجيل والتعظيم، يليق بمقامهما كأبوين من الأولياء الصالحين العظام، ويعبر فيه عن أخلاقه النبوية الرفيعة وعن تواضعه عموماً ولأبويه العظيمين خصوصاً، وعن كرامة النبوة وعظمة الإمامة والولاية وعزة الملك والسلطان ورفعة المقام.

وقبل الاحتفال جلس الحضور في قاعة الاحتفال الضخمة جداً، وفيهم نبي الله يعقوب عليه السلام وأبناؤه الأحد عشر وجميع أهل بيته وعشيرته فلما دخل عليهم يوسف الصديق عليه السلام قاعة الاحتفال، قام له الحضور جميعاً، وخر أبواه و إخوته له سجداً، وذلك إجلالاً له لما رأوا من مظاهر العظمة والجلال والمواهب والألطاف الإلهية عليه والمقام الرفيع الذي كان له، وتحية منهم إليه، و إظهاراً للعشق والمحبة له، وشكراً لنعمة الرب تبارك وتعالى عليه وعليهم، وتكريماً وتعظيماً لمقامه السامي الرفيع، ولم يكن سجود عبادة؛ لأن سجود العبادة لا يجوز إلا لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ولا يجوز لغيره مهما كان مقامه وكانت منزلته الدنيوية والروحية، ولا يمكن أن يصدر عن نبي معصوم مثل نبي الله يعقوب عليه السلام أو يرضى به ولي الله الأعظم يوسف الصديق عليه السلام وكان سجود التحية للمعظم جائزاً في شريعتهم ومتعارفاً في زمانهم، وقد حرم في شريعة خاتم الأنبياء الكرام محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وقيل: كان سجود نبي الله يعقوب عليه السلام

وزوجته راحيل أم يوسف الصديق عليه السلام وأبناءه الأحد عشر أخوة يوسف الصديق عليه السلام سجوداً لله سبحانه وتعالى، وأنهم أخذوا يوسف كآية لله جل جلاله وقبلة لهم في سجودهم، تماماً كما تتخذ الكعبة قبلة فيصلي إليها، والصلاة هي لله سبحانه وتعالى وليس للكعبة، وكذلك سجود نبي الله يعقوب عليه السلام وزوجته وأبناءه الأحد عشر لله سبحانه وتعالى لا لغيره، وقيل: كان سجوداً لله تبارك وتعالى شكراً له على نعمة اجتماع الشمل وغيرها من النعم الكبرى التي أنعم بها على يوسف الصديق عليه السلام وعليهم، وقد أخذهم الجمال اليوسفي الطبيعي والروحي البديع، وغشيهم النور الإلهي المتلألئ من محياه ومن جماله البديع وقد أراهم الله عز وجل فيه ما لم يره غيرهم فلم يتمالكوا أنفسهم حتى خروا له ساجدين.

ثم أنزل يوسف الصديق عليه السلام أبويه عنده في منزله وضمهما إلى بيته وعائلته وأخلصهما بقربه وحبه ورعايته وتكفل بهما بنفسه، وأسكن إخوته وبقية أهله وعشيرته في مكان خاص اقتطعه لهم الملك (فرعون) وأعده لهم وجهزه بكل ما يحتاجون إليه من مقومات الحياة الكريمة، وكان المكان في أطراف مصر، معروف بالخصوبة وكثرة الزرع. وكان بدخول نبي الله يعقوب (إسرائيل) عليه السلام وجميع بني إسرائيل إلى مصر الحضارة والمدنية على تلك الحالة السارة، وما حدث لهم من حسن الاستقبال وحسن الضيافة وضمان الحياة الكريمة والأمن والسلامة، قد أزال عنهم النصب والتعب ونكد العيش وضيق الرزق، وفتحت لهم صفحة جديدة في حياتهم وتاريخهم تقوم على النعيم الإلهي والرعاية اليوسفية الرحيمة والمشفقة.

وقد بقى بنو إسرائيل في المكان الذي أسكنهم فيه يوسف الصديق عليه السلام إلى عهد نبي الله موسى بن عمران الكليم عليه السلام في القرن الثالث عشر (١٣) قبل الميلاد، حيث خرج بهم بأمر الله جل جلاله من مصر متوجهاً إلى فلسطين بعد أكثر من أربعمائة (٤٠٠) سنة أقاموا خلالها في مصر، وكان عددهم قد تجاوز في ذلك العهد الموسوي الميمون ستمائة ألف وخمسمائة وسبعون (٦٠٠,٥٧٠) وقد دخلوا فلسطين في عهد وصي موسى الكليم عليه السلام وخليفته يوشع بن نون بعد أربعين سنة قضوها في التيه في صحراء سيناء والنقب بسبب معاصيهم وتركهم الجهاد في سبيل الله عز وجل، وقد توفي موسى الكليم وأخوه هارون عليه السلام في هذه السنوات الأربعين ودفنا في صحراء سيناء قبل أن يدخلا إلى فلسطين.

وموسى الكليم وأخوه هارون عليه السلام من نسل يعقوب و إسرائيل عليهم السلام أي: من بني إسرائيل. وكانوا مستعبدين ومستضعفين جداً من قبل فرعون الطاغية الجبار وحكومة الأقباط المستكبرين، وكانوا ممنوعين من الرجوع إلى وطنهم الأصلي فلسطين، حيث كان يسكن جدهم الأول يعقوب (إسرائيل) قبل هجرته إلى مصر في عهد حكومة ولده يوسف الصديق عليه السلام في القرن الثامن عشر (١٨) قبل الميلاد، وذلك بهدف إبقائهم تحت سلطة فرعون ولكي يستخدمهم الأقباط الذين هم قوم فرعون في الأعمال الشاقة والدنيا، مثل: أعمال البناء والزراعة ونقل الماء وخدمة البيوت ونحوها، وذلك رغم تاريخهم العريق وشرفهم وكونهم من أولاد الأنبياء الكرام عليه السلام ومن سلالة نبي الله يعقوب عليه السلام والد عزيز مصر ورئيس وزرائها البارز والمميز وصاحب الأفضال على أهلها يوسف الصديق عليه السلام، مما يدل على أن الملوك الجبابرة

الذين يحكمون بفرض الأمر الواقع لا يرون إلا أنفسهم ولا يرون غيرها، ولا يفكرون إلا في مصالحهم وفي البقاء في السلطة والتمتع بامتيازات الحكم والسلطة، ولا يؤمنون إلا بالقوة، ولا يقيمون لأحد وزناً أو كرامة أو فضل ولا يحفظون لأحد حرمة، ولا يعترفون لأحد بتاريخ، ولا يعتبرون بدين أو مبدأ أو قيمة أخلاقية أو إنسانية ولا بشيء من هذا القبيل، وتلك بدون شك رذيلة لا يفعلها إلا خسيس الطبع، خارج عن الفطرة من الفراعنة والمترفين والانتهازيين الأنانيين.

وفي المقابل يقع الأنبياء الكرام والأوصياء المطهرون والأولياء الصالحون، الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا، والقيم الروحية على القيم المادية، ويحرصون على الإنسان تمام الحرص، ولا يكتفون بالتبليغ عن الله تبارك وتعالى والتربية الصالحة للمؤمنين، بل يعملون على الأرض ويجاهدون بالنفس والنفيس من أجل صالح الناس وعزتهم وكرامتهم والوصول بهم إلى كمالهم الإنساني اللائق بهم والمقدر لهم وإلى سعادتهم الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة، وينخرطون في حركات الإصلاح والمطالبة بالحقوق ويشاركون في عمليات المقاومة والتحرير بكل ما أوتوا من قوة، ويقودون الثورات المشروعة على الطواغيت الضالين والفراعنة الجبارين الفاسدين والمستكبرين في الأرض وكل مظاهر الباطل والظلم والجور والفساد والاستكبار والاستبداد والدكتاتورية والتخلف والتحلل والانحطاط، وهذا ما ينبغي أن يتحلى به المؤمنون الصالحون الصادقون في إيمانهم والشرفاء ويكونوا عليه.

الجدير بالذكر: أن الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة، كانت ولا تزال تمارس صنوف القمع والاضطهاد والتعذيب والتضييق والقتل والسجن والتشريد وتشويه السمعة ضد قادة ورموز وجماهير حركات الإصلاح والثورات والمطالبين بحقوق الإنسان، تريد بذلك أن توقف عجلة التاريخ والمسيرة البشرية، ولكن بدون جدوى، فمساعي الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين، مساعي بائسة غير منتجة ولا يمكن أن تفلح وتصل إلى أهدافها؛ لأنها ضد المنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم وضد السنن الإلهية الحاكمة في المسيرة البشرية التاريخية.

وإلى جانب ذلك يحتفظ الضمير الإنساني العالمي التاريخي والمعاصر بالاحترام والتقدير والتبجيل، لقادة ورموز وجماهير حركات الإصلاح والثورات في العالم لما لهم فضل ودور تضحوي وتنويري كبير في تجميل وتحسين وجه العالم وإضاءة صفحات التاريخ والتقدم بالبشرية إلى الأمام في مسيرتها التاريخية والحضارية التكاملية، ويحتفظ بالاستهجان والتحقير والذم واللعن إلى قادة ورموز وأتباع الأنظمة الدكتاتورية والحكام المستبدين؛ لفساد طبائعهم وسوء أخلاقهم وانحراف سلوكهم، ولما لهم من دور سيء في انتهاكات حقوق الإنسان الطبيعية والمكتسبة، ولما تسببوا فيه من أحزان وآلام ومصائب للشعوب، وتسويد صفحات التاريخ وإعاقة تقدم البشرية في مسيرتها التكاملية المعرفية والتربوية والحضارية.

المقدمة الرابعة: التعريف بفرعون الطاغية

فرعون اسم أعجمي يطلق على ملوك مصر في تاريخ مصر القديم، ويطلق على كل عات متمرد ومتكبر، وعلى كل طاغية وحاكم متجبر، والجمع فراعنة.

وأصله في اللغة المصرية القديمة: يرعا، ومعناه: البيت العظيم، مما يدل على السلطة المركزية المطلقة لفرعون.

وتفرعن: تخلق بأخلاق الفراعنة وطغيانهم وتجبرهم وتعاطى فعلهم. وتفرعن النبات: طال وقوى. وذو فرعنة: ذو دهاء ومكر وخداع وطغيان وتجبر.

والفرعوني: المنسوب إلى فرعون.

وفرعون موسى عليه السلام اسمه في الروايات: الوليد بن مصعب وقيل: الريان. وقيل: قابوس. واسمه في كتب التاريخ منفتاح بن رعميس الثاني، ويلقب بسليل الإله، وكان من أكثر الفراعنة طغياناً وتجبراً ودهاءً. عاش في

القرن الثامن عشر (١٣) قبل الميلاد ومات غرقاً مع جنوده حينما كان يسعى للحاق بموسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل للقضاء عليهم واستئصال شأفتهم قبل أن يتمكنوا من الخروج من الحدود المصرية والدخول في حدود فلسطين، وذلك لأنهم خرجوا من مصر هرباً من ظلمه وطغيانه وبدون علمه وعلى خلاف إرادته متحدين بذلك رغبته وسلطته. وحين أشرف فرعون على الغرق وانطبق عليه ماء البحر وأصبح كالقشة تتقاذفه الأمواج، وتيقن من الموت والهلاك، قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1] وذلك بعد أن كان يدّعي ما ليس له بحق، ويقول كذباً وزوراً وبدون دليل: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[2] ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[3] وهذا هو شأن اللئيم خسيس الطبع سيء الخلق الذي لا مصداقية له، يتعاظم عند النعماء، ويتصاغر عند البأساء ولا يفي بعهد أو وعد قطعه على نفسه. وقد أراد بإيمانه في هذا الوقت أن يظفر بما ظفر به موسى الكليم عليه السلام وبنو إسرائيل بإيمانهم، وهو مجاوزة البحر والأمان من الغرق.

وقوله: ﴿آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[4] يدل على أمرين:

الأمر الأول: أن غرور الملك والسلطان والقوة والمال، وعقدة التميز الطائفي بين الأقباط والأسياد وبين بني إسرائيل المستعبدين، كانا

١. يونس: ٩٠

٢. النازعات: ٢٤

٣. القصص: ٣٨

٤. يونس: ٩٠

يمثلان حجاباً يحيل بين فرعون ورؤية الحقيقة والإقرار بها والتسليم إليها، ولما سقط هذا الحجاب بالإشراف على الغرق، رأى الحقيقة كما هي عليه وسلم بها. ومثل هذا الحجاب يمكن أن يوجد عند الإنسان الذي هو في مثل حالة فرعون من الملوك والقادة المترفين ونحوهم، ويمكن أن يسقط هذا الحجاب بسببين:

١. التربية: وهو سبب اختياري يحصل للإنسان بالمراجعة والمحاسبة والتصميم على العمل بمقتضى العلم والمنطق السليم.

٢. الاضطرار: وهو سبب يحصل للإنسان قسراً وخارج إرادته كما حصل لفرعون حين أشرف على الغرق.

الأمر الثاني: أن فرعون كان يعلم عن يقين صدق نبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته قبل حادث الإغراق، وذلك من خلال ما جاء به موسى الكليم عليه السلام من المعجزات الباهرات والبينات الواضحات والأدلة العقلية القاطعة النيرة، ولكنه كان ينكر ذلك ولا يعترف به، تحت تأثير الغرور والتميز، ولما أشرف على الغرق اضطر إلى الاعتراف بذلك وإظهاره، على أمل أن ينقذه هذا الاعتراف بذلك من الغرق، وعليه فالإشراف على الغرق لم يكن عن صدق نبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته، فقد كان ذلك منكشفاً له تماماً من قبل، وإنما اضطره إلى الاعتراف به على أمل أن ينجيه من الغرق.

إلا أن توبة فرعون وإيمانه لم يقبلا منه، وجاءه الجواب من الله جل جلاله:

﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1] أي: لقد عاندت واستكبرت على الحق وأهله، وأصريت على الكفر، وبارزت الله ﷻ بالمعاصي والذنوب، وبغيت وأفسدت في الأرض، وأفنيت عمرك كله في ارتكاب الجرائم والجنايات العظيمة، مثل قتل المؤمنين الصالحين بغير ذنب، وذبح الأطفال الأبرياء، وانتهكت الحقوق، وشوهت سمعة المعارضين الشرفاء، ونحو ذلك، حين كان الخيار بيدك، وباب التوبة والرجوع إلى الحق مفتوح إليك، والآن قد أيست من نفسك، وعاينت الموت بأم عينيك، وأدركت العذاب الإلهي بذنبك، وتيقنت الهلاك وأيست من النجاة ولم يبقَ لك اختيار، تريد أن تتوب وتكون من المؤمنين، فلست صادقاً في هذه التوبة، و إنما أردت النجاة من الموت والهلاك كما نجى موسى الكليم عليه السلام وبنو إسرائيل، والإيمان والتوبة في مثل هذه الحالة الاضطرارية غير مقبولين ولا ينفعان بشيء. فلن تقبل توبتك ولن يقبل إيمانك، فقد فات وقت التوبة وانتهى وقت التكليف، إذ لا إيمان حقيقي ولا توبة مقبولة حين غشيان العذاب الإلهي ورؤية الموت وتيقن الهلاك؛ لأنه لا توجد طاعة ولا عصيان، أي: لا تكليف؛ لأنه لا توجد إرادة ولا يوجد اختيار، وهذه التوبة الكذوب، يلجأ إليها كل مجرم وجاني وعاصي اضطراراً، ولا مصداقية لهما ولا قيمة فعلية، ولا تعد دليلاً على حسن النية والتغيير الفعلي في النفس لما لبسها من الاضطرار والإلجاء، ولو كتبت لصاحبها النجاة لعاد إلى ما كان عليه من الكفر والجريمة والمعصية، قول الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ

---

١. يونس: ٩١

﴿مِن قَبۡلُ وَلَوۡ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَاذِبُونَ﴾[١] وعليه: ذق جزاء ذنوبك وعملك السيء، وهو الهلاك بالغرق وأن يلحقك الخزي والعار في الحياة الدنيا، وترد إلى أشد العذاب الأبدي الخالد في الآخرة.

وأخبر الله ﷻ فرعون في تلك اللحظات المأساوية المفجعة بأنه سوف ينجيه ببدنه لا بروحه التي هي علة الحياة الإنسانية، وبها يكون الإدراك وتكون الأفعال وتحقق للإنسان إنسانيته، قول الله تعالى: ﴿فَالۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ آيَةً﴾[٢] فهذه النجاة، هي التي تتناسب مع إيمانك الباهت الذي لا روح فيه، وتوبتك الظاهرة الباطلة التي لا حقيقة لها ولا قيمة فعلية، ويقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**ومن الممكن أن يكون ذلك إشارة إلى أن إيمان فرعون الباهت في هذه اللحظة اليائسة وفي ساعة الاحتضار، كان كالجسد بدون روح، ولذلك أثر بالمقدار الذي أنجى الله جسد فرعون من الماء بعد أن فارقته الروح حتى لا يكون طعمة للأسماك، وليكون عبرة للأجيال القادمة**».[٣] وعليه: قدر الله ﷻ أن يهلكه غرقاً، وتنفصل روحه عن جسده، فتذهب روحه إلى العذاب الإلهي الشديد في نار البرزخ ثم إلى العذاب الإلهي الأشد في نار جهنم في الآخرة، وأن يبقى جسده محفوظاً ليراه الناس بعد هلاكه، لا سيما الذين كانوا يعظمون شأنه وشأن الملك والسلطة والقوة والمال ونحوها، ويرون فيه أنه إله لا يفنى، بيده القوة كلها وأنه فوق أن يغرق ويهلك،

---

١. الأنعام: ٢٨

٢. يونس: ٩٢

٣. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ٦، صفحة ٢٦٤

حيث قذفته أمواج البحر ميتاً على نجوة (مكان مرتفع) من الشاطئ، فشاهده الناس جثة هامدة مطروحة بالعراء لا روح فيه ولا حراك. ولكن بدنه كان كاملاً سوياً لم ينقص منه شيء ولم يتغير، فعرفوه وتيقنوا أنه هو فرعون بدون شك أو ريب أو تردد، وتيقنوا أنه هلك بالغرق مع الهالكين، ليعلموا ويتيقنوا أنه بشر كسائر الناس، ضعيف مقهور مغلوب على أمره، لا يستطيع أن يدفع الموت والهلاك عن نفسه وعن أتباعه، فهو ليس بإله كما يدّعي ويقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1] ولولا هذه المعجزة الإلهية، لنسجت المخيلة الشعبية وعقلية الانتهازيين حول نجاته الخرافات الكاذبة والأساطير ولم يصدقوا غرقه وهلاكه لما كانوا يعتقدونه فيه من الألوهية والعظمة. وليكون عبرة وآية يتعظ بها من تحدثه نفسه ممن سيأتي بعده من الأمم بأن يفعل مثل فعله، ويسير على طريق الفساد والطغيان والتجبر والتكبر على الحق وأهله والتمرد على الله رب العالمين وأمره ونهيه مثله، فلا يتجرأ أحد على ما اجترأ عليه، ولا يتجاوز حده ويدّعي ما ليس له بحق، مثل: الألوهية والربوبية والمالكية ونحوها.

هذا وقد عثر علماء الآثار والتنقيب على جثة فرعون هذا، وهو منفتاح بن رعميس الثاني في العام (١٩٠٠م) في الحفريات في الأقصر في قبر (امنحتب الثاني) وجثته اليوم محفوظة بالمتحف المصري، وقد ظهر من آثار قبره أنه لم يكن مهيأ كما ينبغي لدفن فرعون عظيم مثله، وذلك لأن موته كان مفاجئاً فلم يهيأ له قبر خاص يليق به.

---

١. النازعات: ٢٤

ويعتبر هلاك فرعون وجنوده عن طريق الغرق وهم يلاحقون ولي الله الأعظم موسى بن عمران الكليم عليه السلام وبني اسرائيل المستضعفين بهدف القضاء عليهم واستئصال شأفتهم، رسالة واضحة وبليغة للغاية من رب العالمين يتبين فيها للناس جميعاً:

أ. أن عاقبة الكفر والظلم والطغيان والفساد، والإعراض عن دين الله الحق وشريعته المقدسة وحدوده، واقتراف الذنوب والمعاصي والآثام، عاقبة وخيمة جداً على النوع البشري، حيث الهلاك والخراب والتدمير لكل ما أفنى الإنسان عمره في تشييده، والمآسي والآلام والشرور التي تفقد الإنسان هناء العيش وتعكر صفو الأمن والاستقرار وتعطل مسيرة تطوره وتقدمه الحضاري، قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾[1]، قوله تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأرض بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[2] فهذه سنة إلهية ثابته في الظالمين عبر التاريخ، ولكن ما أكثر العبر وأقل الاعتبار من أناس ساهين عن الآيات والبينات والدلائل التي توجب التفكر والتأمل والاعتبار إذا ضاعت عقولهم في ظلمات ومتاهات الجهل واتباع الأهواء الشيطانية والشهوات الحيوانية والاستغراق في عالم الدنيا والمادة والمصالح الأنانية الدنيوية العاجلة، فتمر عليهم الآيات والبينات والدلائل وتتكرر،

---

١. الكهف: ٥٩

٢. القصص: ٣٩-٤٠

لكنهم لا ينتفعون بها، لعدم إقبالهم عليها وعدم أهليتهم الروحية واستعدادهم للاستفادة منها، فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها ويكونون الأخسرون أعمالاً.

ب. حق الشعوب قاطبة في الحرية والحياة الطيبة الكريمة والتخلص من الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة، وأن الله ﷻ يقف إلى صف المستضعفين المناضلين لينصرهم في نضالهم المشروع لنيل حقوقهم ضد المستكبرين المتجبرين الذين يفرضون على الناس إرادتهم وحكم الأمر الواقع بالحديد والنار.

ج. أن الباطل مهما استعلى ووجد له من أنصار وأعوان وجنود وأتباع، فإنه مغلوب ومهزوم أمام جنود الحق والعدل والخير والفضيلة في نهاية المطاف، وهذا من شأنه أن يشحذ همم المناضلين ويقوي عزائمهم ويزيل الوهن والضعف والشك والتردد من نفوسهم، ويبعد عنهم اليأس والقنوط ويحملهم على الصمود والاستمرار في النضال والفداء وتقديم التضحيات النفيسة اللازمة؛ لأنهم على الحق والله ﷻ ناصرهم والنصر حليفهم في نهاية المطاف.

الحضارة الفرعونية وميزات النظام الفرعوني

الحضارة الفرعونية هي الحضارة التي قامت في مصر وازدهرت منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد، وعمرت نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة (٣٥٠٠) سنة، أي خمسة وثلاثون (٣٥) قرناً، ولم يعرف التاريخ القديم

حضارة عمرت مثلما عمرت الحضارة الفرعونية، وكانت الحضارة الفرعونية حضارة أصيلة مغلقة، نزعت إلى العيش بنفسها لنفسها في داخل إطار مقفل إلى حد كبير، وكانت رغم أصالتها وانغلاقها عرضة إلى كثير من التغيرات والتطورات الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والتفاوت في مستويات الرخاء والازدهار، أو البؤس والانحطاط. وكانت لنهر النيل أهمية عظيمة في نشأة الحضارة المصرية عموما وتطورها حتى قيل بحق: «مصر هبة النيل».

ويتميز النظام الملكي الفرعوني بالمركزية والقوة والشدة والصرامة، ويكون مركزه الملك (فرعون) الذي يتخذ صفة الإله، ويمثل المرجع الأعلى والسيد الأوحد في النظام، وله سلطات مطلقة، وليس عليه رقيب ولا حسيب، فهو رب الأرض ومن عليها الإنسان والحيوان والنبات والجماد ومالكها، وعليه يتوقف كل شيء فيها، ويوجه شؤون الحياة ومظاهرها برمتها، ويرسم جميع معالمها، حتى ما يقع منها ضمن الحياة الخاصة والشخصية، مما يجعل الناس أقرب إلى صفة العبيد منهم إلى صفة المواطنين والرعايا، في نظام لا يقيم وزناً لآلام الإنسان ومعاناته الخاصة، ولا يعبأ بالحياة الفردية، فيفقد الأفراد الحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، فيفرض الاحتكار الكامل لصالح الملك في جميع الموارد، وتفرض إرادته على الجميع في جميع المجالات والشؤون، وتتاح دائماً للعبادة والآلهة التي يرعاها الانتشار والسيطرة، وتذوب فيه صفة الدولة، وتخضع له الطبيعة، وهو مصدر كل إبداع ورخاء وازدهار، ويبقى إلهاً يستحق العبادة حتى بعد وفاته، وهذه الصفات تجدها بدرجات متفاوتة وبأسماء مختلفة

في الممالك المطلقة في العالم الثالث المتخلف، خلافاً للدين والمنطق والفطرة والطبع السليم وروح العصر وكرامة الإنسان.

ويقوم النظام الملكي الفرعوني على التوارث، إلا أنه في أحيان كثيرة يتم الاستيلاء على العرش بالقوة، ويسند ذلك كله إلى إرادة الآلهة، وفي جميع الحالات يتم تتويج الملك (فرعون) في حفل رسمي بذخ، تصاحبه الكثير من الطقوس الرمزية والأدعية الدينية، ويسلم شارات، مثل: الصولجان والسوط، التي ترمز إلى السلطة وتوليه القوة الإلهية، ويدخل في مصاف الآلهة، ويصبح مساوياً لهم، ويعيش كإله وابن إله، ويتمتع بسلطات ربوبية مطلقة، ويعمل ما يجب أن يعمل، أي: أن فعله وقوله هو عين الحكمة والصواب، وتمثل إرادته القانون، ولها ما للعقيدة الدينية من القدسية والقوة، وكل ما يتفوه به يجب التسليم به والخضوع له، ويجب أن يطبق ويعمل به في الحال، حتى لوكان قاسياً ومدعاة للضرر ظاهرًا؛ لأنه يخرج من فم إله، والعمل به ينتهي إلى السعادة في الدارين الدنيا والآخرة، فهو لا يأتي اعتباطاً، وإنما هو عين الحكمة والصواب والعدل والخير والفضيلة. وقد عرف عن المصريين في الحضارة الفرعونية الإلتزام التام في أعمالهم بالواجبات والمحرمات التي يسنها لهم القانون الفرعوني، وتنزل عقوبة الإعدام على كل من يخالف الإرادة الفرعونية.

وفرعون مع كل ذلك يأكل ويشرب ويتنفس الهواء ويلهو ويلعب وينكح وله زوجات وأولاد وجواري، ونحو ذلك من مستلزمات البشر.

ويعتبر فرعون من الناحية الدينية الكاهن الأعظم الذي تقدم القرابين باسمه في الهياكل، والمسؤول عن إدارة الهياكل والمدافن الملكية وكافة

وشؤونها، ويختار من بين الكهنة نواباً له في الخدمة الدينية، ويلعب الكهنة والسحرة الذين يتمتعون بتعليم أفضل من كل الطبقات، دوراً كبيراً في النظام الملكي الفرعوني، الذي تتداخل فيه السلطات الدينية والمدنية، وقد احتل بعض رؤساء الكهنة، مكانة عظيمة عالية ومتميزة في النظام الملكي الفرعوني، وذلك بفضل ما للآلهة التي يقومون على إدارة شؤون معابدها من نفوذ وثروة. ويوجد في طبقة الكهنة، كهنوت نسائي لخدمة معبد الإله، تقوم على رأسه الملكة، وتلقب (بعروس الإله) وتقوم مقامها عملياً، رئيسة الكاهنات.

وكان الكهنة يجمعون بين المراتب الدينية والوظائف المدنية العسكرية، التي كانوا يحرصون على أن تكون وراثية في أولادهم وأسرهم. وقد أصبحت وراثة مركز رئيس الكهنة، القاعدة التي يسير عليها النظام الملكي الفرعوني في أواخر أسرة رعميس الثاني، وهو والد منفتاح الفرعون الطاغية الذي هلك غرقاً في عهد موسى الكليم عليه السلام في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.

ومن وظائف الملك الرئيسية: الدفاع عن مصر أمام الغزاة، وإدارة مواردها الاقتصادية وثرواتها الهائلة التي لا تعد ولا تحصى، حيث تميزت مصر بغنى أسطوري مثير للخيال والشهوة والأطماع، إذ الوفرة في الزراعة مثل: الحبوب بأنواعها والخضروات والفواكهة، إلى جانب التجارة الداخلية الواسعة والخارجية المحدودة، والصناعة، مثل: الصناعات المعدنية والفخار والنبيذ والزخرفة والزينة، والوفرة في المعادن، مثل: الذهب والنحاس والأحجار الكريمة، مثل: الزمرد وغيره، وتقدم العلوم

مثل: الكيمياء والفلك والهندسة والرياضيات، وكثرة العمال والفلاحين وأصحاب الحرف والمهنيين، مثل: الأطباء والمهندسين والصاغة والحاكة والحدادين والنحاتين والنجارين والحلاقين والنقاشين والفنانين وغيرهم.

ومن وظائف الملك أيضاً، المحافظة على الأمن والاستقرار الداخلي في الدولة والمجتمع، والإشراف على ديوان المظالم، وإشاعة الأمن والاستقرار الروحي، وإقامة العدل بين السكان، مما يعد أساساً لسلامة المجتمع والدولة، واستمرار النظام، وتحقيق التقدم والازدهار.

ويتخذ الملك (فرعون) في النظام الفرعوني لنفسه وزراء ومعاونين يسترشد بآرائهم، ويقومون بتبليغ الأوامر والتعليمات والتوجهات التي تصدر عنه، ويشرفون على تنفيذها وتطبيقها، ويعينونه على أعماله، وهو يعيّنهم ويعزلهم كيفما يشاء، وإلى جانبهم بطانة كبيرة من أصحاب المقامات العالية والقادة والوجهاء والأشراف والنبلاء والموظفين، الذين يحملون الألقاب الشرفية، وتختلف درجاتهم ورتبهم وصلاحياتهم، وهؤلاء وإن كانوا من أهم مظاهر العظمة البشرية الزائفة، فهم دليل على بشرية فرعون، لأن الإله الحق لا يحتاج إلى مثلهم، وهم دليل على الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة الظالمة، ما كان لها لتوجد وتستمر لولا وجود هؤلاء الأنانيين الفاسدين التعساء. في الحديث النبوي الشريف: «**إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الظلمة وأعوانهم؟ من لاق لهم دواة أو ربط لهم كيساً أو مد لهم مدة قلم فاحشروهم معهم**»[1] وفي الحديث عن الإمام

١. بحار الأنوار، جزء ٧٥، صفحة ٣٧

الصادق عليه السلام أنه قال: «**لولا أن بني أمية وجدوا من يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقنا**»[1] هذا رغم خساسة طبعهم وسوء أخلاقهم، ولكن المثل يقول: «لكل ساقط لاقط».

إلى جانب هؤلاء يوجد الخدم والحشم والعبيد الذين هم الغالب من أسرى الحروب والقرصنة، في مجتمع يقوم على التمييز والطبقية الوراثية، مثل: الفلاحين والعمال والصناع والتجار والموظفين والجنود والكهنة والسحرة وغيرهم، الذين كانت مراتبهم ومستويات ودرجات قربهم من الملك (فرعون) تتفاوت وتختلف من عهد إلى عهد بحسب الظروف والأوضاع المتغيرة، ولهذا وعد فرعون السحرة بأن يغير درجتهم في السلم الطبقي ويقربهم إذا هم تمكنوا من هزيمة موسى الكليم عليه السلام، قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾[2] وهناك حكام الولايات والأقضية الذين يتمتعون بصلاحيات إدارية واسعة، والى جانبهم العديد من الموظفين والعمال الذين تختلف رتبهم وسلطاتهم وطريقة تعيينهم.

والكل يعمل باسم فرعون ومن أجله، يخضع لسلطته وإرادته المطلقتين، وقد سمح النظام الإداري في النظام السياسي الملكي الفرعوني الذي يقوم على أساس الدين والعقيدة، لجميع هؤلاء المسؤولين بالعبث بمصالح المواطنين ومصائرهم، والتاريخ الفرعوني مليء بالكثير من الأخبار

---

١. الكافي، جزء ٥، صفحة ١٠٦

٢. الأعراف: ١١٣-١١٤

المكررة من الظلم والجور والطغيان والفساد والابتزاز والسخرة، كما هو الحال في كل نظام ملكي دكتاتوري في كل عصر ومصر، تحت عنوان رضى الآلهة الذين شيدت الحضارة الفرعونية من أجل مجدهم، وعنوان مصلحة الدولة وهيبتها وقوتها، ونحو ذلك.

وقد منح النظام السياسي والإداري في الحضارة الفرعونية الكثير من الثروة والرفاه والأبهة والمجد للفراعنة، إلا أنهما أديا في النهاية إلى انحلال النظام الملكي الفرعوني وتقويضه والقضاء عليه، حيث انتقل الحال من التملق إلى الملك (فرعون) والتقرب إليه، إلى التنافس معه على السلطة والثروة، والتجاوز للصلاحيات الممنوحة والمفوضة منه، والاختلاس للثروة، والتأليب على الملك، والدخول في معارك عسكرية ضده وضد الموالين له، وانفصال الولايات، ونحو ذلك، بالإضافة إلى الفقر والبؤس الذي يعيشه النظام في حال غالبية الشعب، فيصبح الملك أمام كل ذلك في حالة عجز عن الدفاع عن نفسه وسلطته وامتيازاته، مما يؤدي إلى خلق الفوضى والوهن في الدولة، انتهى في نهاية المطاف بالقضاء على الحضارة الفرعونية والنظام الفرعوني، وهذا من شأنه أن يكشف لنا عن علة خطورة الفساد والظلم والدكتاتورية والاستبداد على النظام والدولة والمجتمع، ويدلنا على النهاية الحتمية لكل نظام ودولة يقومان على الباطل والظلم وينتشر فيها الفساد ولا يستندان إلى الإرادة الشعبية والدعم الجماهيري، وهو الانهيار والخروج من التاريخ ملطخاً بالخزي والعار والفضيحة.

المحور الأول

سورة الأعراف (١٠٣-١٣٧)

- الفصل الأول: حمل موسى الرسالة الربانية إلى فرعون وملئه
- الفصل الثاني: المبارزة التاريخية الفاصلة و إيمان السحرة
- الفصل الثالث: محنة بني اسرائيل
- الفصل الرابع: آيات العذاب وهلاك فرعون واستخلاف بني إسرائيل

الفصل الأول: حمل موسى الرسالة الربانية إلى فرعون وملئه

قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ
عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا
هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ
هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ
وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[1].

تبليغ الرسالة وموقف فرعون منها

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

---

١. الأعراف: ١٠٣-١١٢

بعث الله تبارك وتعالى نبيه الكريم والإمام العظيم والولي الناصح الأمين موسى بن عمران الكليم عليه السلام، وهو ثالث الأنبياء الكرام أولي العزم العظام، - وهم بحسب الترتيب التاريخي نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -. إلى قوم عتاة مردة متجبرين، وهم: فرعون الطاغية ملك مصر وعظيمها المتجبر، - الذي كان يدّعي الألوهية والربوبية من دون الله جل جلاله بغير حق ولا دليل، ويضطهد بني إسرائيل المستضعفين -، وإلى ملئه الفاسدين، وهم: النبلاء والأعيان والأشراف والمستشارين وكبار الموظفين والمعاونين والقادة السياسيين والعسكريين والكهنة الذين بيدهم الحل والعقد في إدارة شؤون البلاد والعباد وتدبيرهم، وليس لغيرهم إلا الانقياد والتسليم طائعين أو كارهين. وقيل: سموا بالملأ لأنهم يملؤون ببريقهم وظواهرهم الباذخة وملابسهم الفاخرة العيون والنفوس، ولأن لهم حضور لافت وفعال في جميع المجالات وميادين المجتمع، كما بعث الرسل قبله، مثل نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم، الواحد تلو الآخر إلى من سبقهم من الأمم، وسيبعث الرسل بعده الواحد تلو الآخر إلى من سيأتي بعدهم من الأمم، لكي يأخذوا بأيديهم ويهدوهم إلى سبيل الرشاد والدين الإلهي الحق، الذي فيه خيرهم وصلاحهم وكمالهم وسعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة، ويعلموهم ما يوافق استعداداتهم الذهنية من المعارف الإلهية الحقة والمواعظ والإرشادات والعبر، ويأتوهم بالتشريعات التي تلبي احتياجاتهم المستجدة وينقلوهم تدريجياً من النقص إلى الكمال الحضاري، إلى أن ينتهي حال البشرية في مسيرتهم التاريخية والحضارية والتكاملية، إلى

موقف علمي هو أعلى المواقف، فيختتم عنده الرسالة السماوية والنبوة، ويستقر الكتاب والشريعة استقراراً لا مطمع بعده في كتاب جديد أو شريعة جديدة، ويبقى بعده للبشرية التدرج في الكمال المعرفي والتربوي وانتشار الدين الإلهي الحق وانبساطه على المجتمع البشري عالمياً وتمكنه والعمل بمقتضاه على كافة الأصعدة وفي جميع الشؤون الخاصة والعامة، حتى تتهيأ البشرية إلى إقامة دولة العدل الإلهي العالمية، ثم تتكامل بالتدريج حتى تبلغ ذروة كمالها، فتتحقق غاية خلق الإنسان في عالم الدنيا، أي: تستنفذ الدنيا غاية وجودها، ويتهيأ عالم الطبيعة (الكون) للانتقال من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ، ثم يتكامل في عالم البرزخ حتى يصل إلى كماله البرزخي، فينتقل من عالم البرزخ إلى عالم القيامة والآخرة. وهذا ما كتبه الله ﷻ وفرضه على نفسه، بمقتضى رحمته الواسعة وحكمته البالغة، بأن يتكفل بإيصال كل موجود إلى كماله اللائق به والمقدر له ويحقق غاية وجوده، و لئلا يكون للناس على الله ﷻ حجة وتكون له الحجة البالغة عليهم.

وعبارة ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾[1] تدل على الاهتمام الرباني الكبير البالغ بأمر موسى الكليم عليه السلام ورسالته والكتاب الذي أنزل عليه والشريعة التي جاء بها من عند رب العالمين، إلى هداية البشرية وتكامل مسيرتها، وأنه يمثل مرحلة جديدة ثالثة في مسيرة الرسالات السماوية، بعد المرحلة الأولى التي قادها نوح عليه السلام والمرحلة الثانية التي قادها إبراهيم الخليل عليه السلام.

---

١. الأعراف: ١٠٣

وأن إرسال موسى الكليم عليه السلام إلى فرعون وملئه ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[1] يدل على أن معالجة المفاسد الاجتماعية والانحرافات الكبرى في المجتمعات البشرية، لا تتم من خلال الاكتفاء بالتبليغ والتربية ومعالجة المشكلات والانحرافات والمفاسد الفردية، كما يفعل بعض الدعاة والفقهاء العاجزين، وإنما يجب السعي لإصلاح النظام والحكومة وقادة المجتمع والدولة، وهذا هو الدرس الذي يعطيه لنا القرآن الكريم في هذه العبارة، مما يتطلب من الأنبياء الكرام والأوصياء الهادين والأولياء الصالحين عليهم السلام والفقهاء العاملين المجاهدين والدعاة، أن يتصدوا للشأن العام، ولقيادة الحركات الإصلاحية والثورية وإرشادها، لا أن يكتفوا بالتبليغ والتربية وإصلاح الحالات الفردية، وأن يتحلوا بالوعي السياسي، والبصيرة في الدين والعقيدة والشريعة والسيرة والأخلاق والمفاهيم العامة وفي الواقع وشؤون الحياة، أي: يجب أن تصاحب البصيرة في الدين البصيرة في الواقع وشؤون الحياة، ولا يمكن أن تنفصل البصيرة في الدين عن البصيرة في الواقع وشؤون الحياة؛ لأن الدين جاء لقيادة الحياة، فيجب على القادة الربانيين أن يتحلوا بالبصيرة في الواقع لكي يمكّنوا الدين من قيادة الحياة فعلاً، وتمكّن الدين من قيادة الحياة فعلاً يتوقف على تحلي القادة الربانيين بالبصيرة في الواقع وشؤون الحياة وتوفرهم على ذلك.

وقد حمل موسى الكليم عليه السلام رسالة رب العالمين، وذهب معه أخوه ووزيره وشريكه في النبوة والرسالة هارون عليه السلام فدخلا على فرعون الطاغية قصره الملكي، بنفس مطمئنة، وقلب كزبر الحديد، تزول الجبال ولا

---

١. نفس المصدر

يزولا عن عقيدتهما ومواقفهما الرسالية، وبحضور ملئه، ولم يخشيا قوته وسطوته وجبروته وطغيانه، وبلغاه مع ملئه رسالة رب العالمين إليهم.

وفرعون لقب لملوك مصر في التاريخ القديم، كقيصر لملوك الروم، وكسرى لملوك الفرس، والنجاشي لملوك الحبشة، ونحو ذلك، واسم فرعون الذي أُرسل إليه موسى الكليم عليه السلام في الروايات: الوليد بن مصعب بن الريان، وقيل: قابوس، واسمه في كتب التاريخ: منفتاح بن رعميس الثاني، ويلقب بسليل الإله. وقد أضفى على نفسه كغيره من الفراعنة صفة الألوهية، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[1] وهي النزعة النفسية المرضية الاستعلائية التي يميل إليها الملوك الدنيويون الأنانيون دائماً، فإذا وجدوا من يصدقهم وصفت لهم الأمور والأجواء، أعلنوها جميعاً صراحةً أو تلميحًا، قولاً أو فعلاً، ولم يتعففوا عنها أبداً. وزعم كذلك أنه الرب الأعلى لأهل مملكته جميعاً، فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[2] فهو يملك الأرض ومن عليها، وبيده أرزاقهم وتدبير شؤونهم الخاصة والعامة، ويتمتع بسلطات مطلقة، ويمثل المرجع الأعلى والسيد الأوحد إلى الناس، وليس عليه رقيب ولا حسيب، وعليه يتوقف كل شيء في الحياة، مما يجعل الناس أقرب إلى العبيد منهم إلى الرعايا الأحرار والمواطنين الذين يتمتعون بكافة الحقوق الطبيعية، وفي مقدمتها حق الحياة وحرية العقيدة والضمير والتعبير عن الرأي، وحق اختيار نظام دولتهم وحكومتهم، ونحو ذلك، وهذا هو الحال الشنيع في الأنظمة الدكتاتورية والملكيات المطلقة دائماً.

---

١. القصص: ٣٨

٢. النازعات: ٢٤

ورسالة موسى الكليم عليه السلام موجهة في الحقيقة والواقع إلى فرعون وقومه الأقباط جميعاً، بالإضافة إلى بني إسرائيل وسائر الناس في زمانه، إلا أن القرآن خص فرعون وملئه بالذكر؛ لأنهم الساسة والقادة الذين بيدهم الحل والعقد، وغيرهم أتباع ليس لهم إلا الانقياد والتسليم طائعين أو كارهين، فإن هم آمنوا بالدين الحق وصدقوا بالرسالة، انفتح الطريق أمام غيرهم للإيمان والتصديق، وإن هم عاندوا أو كذبوا وأصروا على الكفر، تبعهم غيرهم في العناد والتكذيب والإصرار على الكفر، كما هي العادة في ظل الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة في المجتمعات المتخلفة. بالإضافة إلى النكتة سابقة الذكر التي تتعلق بالإصلاح في المجتمعات.

وقد أيد الله عز وجل نبيه الكريم موسى الكليم عليه السلام بما يثبت صدق نبوته ورسالته بما لا يدع مجالاً للشك والتردد، فأيده بالمعجزات النيرات الباهرات العظيمة، وبالبينات الواضحات، وبالأدلة والبراهين العقلية الساطعة اللامعة القاطعة، وكانت المعجزات التي جاء بها موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين، تسع معجزات، وهي: العصا التي تتحول إلى ثعبان فعلي حقيقي عظيم، واليد السمراء التي إذا أدخلها في جيبه ثم أخرجها تخرج بيضاء جميلة تشع نوراً عظيماً يملأ المكان، وآيات العذاب السبع، الطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم والقحط ونقص الثمرات، وهي آيات لم يشاهد لها نظير، فلم ينقل القرآن الكريم لنبي من الأنبياء الكرام عليهم السلام من المعجزات مثلما نقله عن موسى الكليم عليه السلام.

إلا أن فرعون الطاغية وملئه الفاسدين المستكبرين على الحق، لم

ينقادوا لحق هذه المعجزات الباهرات العظيمة، بل استكبروا عليها وعاندوا، وكان موقفهم الكفر بدل الإيمان، والإنكار والتكذيب بدل القبول والتصديق، والاستكبار على الحق وأهله بدل الخضوع والتسليم، وفي ذلك ظلم عظيم للحقيقة لجحودهم بها ووضعها في غير موضعها، وللمنطق والإنسانية والكرامة، ومخالفة للفطرة والطبع السليم، وخروج عن طور العبودية لله سبحانه وتعالى، وعن رتبة الإنسانية، وهبوط إلى درك الشيطانية والحيوانية؛ لأنه تكذيب للحق المبين الظاهر، ولأصدق الصدق وأبينه، رغم قيام الدليل الساطع القاطع عليه. وفيه أيضاً ظلم عظيم للنفس؛ لأنه يوردها موارد المهالك والشقاء في الدارين الدنيا والآخرة، وظلم عظيم للناس للمؤمنين بما يوقعوه عليهم من الأذى المادي والمعنوي، أو لغير المؤمنين بصدهم عن الهداية وإبعادهم عن الإيمان والقبول بالدين الحق، الذي فيه خيرهم وصلاحهم وكمالهم وسعادتهم الحقيقة الفعلية في الدارين الدنيا والآخرة، ومخالفته والخروج عليه يؤدي إلى الهلاك والشقاء الحقيقي الفعلي في الدارين الدنيا والآخرة، أي: أن تكذيب أهل الحل والعقد بالرسل، يقطع على العامة من الناس، طريق الصلاح والنجاة والسعادة ويؤدي بها إلى الضلال وفساد الأحوال والهلاك والشقاء في الدارين الدنيا والآخرة، ومسؤولية ذلك كله تقع على عواتقهم، دون أن تنقص أو تخلى العامة من مسؤولية ضلالهم وسوء اختيارهم.

ويعتبر الموقف الاستعلائي الذي وقفه فرعون الطاغية وملؤه الفاسدون المستكبرون، هو عين الموقف الجاهلي الأحمق الذي يقفه الطواغيت الضالون والفراعنة المتجبرون والحكام المستبدون الظلمة والمترفون

المستغلون الأنانيون وأتباعهم وأنصارهم الانتهازيون في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، مؤثرين مصالحهم الأنانية الدنيوية العاجلة على المصالح الحيوية الجوهرية العامة للناس العاجلة وفي دورة الحياة الكاملة، ومؤثرين الباطل على الحق، والرذيلة على الفضيلة، والشر على الخير، والقيم المادية على القيم المعنوية، والدنيا على الآخرة، ومتجاهلين ومتجاوزين حقيقة أن خيرهم وصلاحهم وكمالهم وسعادتهم الحقيقية الفعلية في الدارين الدنيا والآخرة، لا تتحقق إلا بمعرفة الحق والعمل بمقتضاه لما بينهما من التلازم الوجودي الذي لا ينفك، وهو بدون شك موقف أخرق أحمق مخالف للمنطق والحكمة والصواب ولكرامة الإنسان؛ لأنه يضع الأشياء في غير محالها، فالمنطق والحكمة والصواب تقتضي كلها بأن تقابل آيات الله ﷻ ومعجزاته وبيناته والأدلة والبراهين العقلية الصحيحة بالقبول والتسليم والعمل بمقتضاها من أجل صلاح النفس والمجتمع والدولة، والنجاة من الشقاء والهلاك، والوصول إلى الكمال الإنساني المقرر واللائق، وتحصيل السعادة الحقيقية الفعلية في الدارين الدنيا والآخرة، لا أن تقابل بالعناد والرفض والإنكار والتكذيب والمخالفة بدون حجة أو برهان؛ لأن النفي يحتاج إلى دليل كالإثبات، كما فعل فرعون وملؤه، ويفعل السفهاء من الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدون والمترفون في كل عصر ومصر.

وبسبب إفراط فرعون وملئه الأشرار والمجرمين في تعصبهم وعنادهم وإصرارهم على الكفر والتكذيب بدون حجة ولا دليل أو برهان، وإصرارهم على المعاصي والذنوب الكبيرة والصغيرة، الظاهرة والباطنة، وعلى شرورهم

وجرائمهم وجناياتهم الشنيعة، فقد أخذهم الله ﷻ أخذ عزيز مقتدر، فأهلكهم جميعاً بالغرق في نهر النيل العظيم، الذي هو هبة مصر ومصدر حياة أهلها وثروتهم ومجدهم وعزهم ونهضتهم وحضارتهم وافتخارهم، فإذا به يتحول إلى مقبرة جماعية لهم، ثم أتبعهم باللعن والذم والخزي والعار في عالم الدنيا ويلحقهم بأشد العذاب في الآخرة. وهذه عاقبة سيئة مذمومة ونهاية مأساوية مؤلمة، جدير بكل إنسان عاقل أن ينظر ويتدبر فيها بعمق، ويتأمل في دلالاتها.

قول الله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[1] توجيه رباني حكيم، إلى كل إنسان عاقل، حريص على سلامة نفسه وصيانتها من الهلاك والعذاب، بأن ينظر ويتأمل ويتفكر ويتدبر في العاقبة السيئة المذمومة والنهاية المأساوية المؤلمة التي آل إليها أمر المعاندين المتمردين على الله ﷻ المستكبرين على الدين الحق وأهله المجرمين الأشرار المفسدين في الأرض، وهم فرعون الطاغية وملئه الفاسدين، الذين تحكموا بالبلاد والعباد بدون وجه حق، واستضعفوا المؤمنين الصالحين والمواطنين، وأذاقوهم صنوف العذاب بغير ذنب، وأنكروا الحق الحقيق، وكذبوا الرسول الصادق الأمين عليه السلام وما جاء به من عند رب العالمين من الآيات والمعجزات والبينات والأدلة والحجج والبراهين، تعجرفاً وبدون حجة، طمعاً في الدنيا وزخارفها، وكفراً بالحق والمنطق، فكانت عاقبتهم أن أغرقهم الله ﷻ جميعاً في نهر النيل العظيم، وأفنى جمعهم وقطع دابرهم عن آخرهم، فلم ينجو منهم أحد، وأتبعهم لعنة في الدار الدنيا،

١. الأعراف: ١٠٣

وأدخلهم إلى نار البرزخ، ثم يدخلهم إلى نار جهنم في الآخرة خالدين فيها أبداً.

وهذا المصير الأسود والعاقبة السيئة المذمومة، هما نفس المصير والعاقبة التي تنتظر كل من يفعل مثل فعلهم من الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستعلين والانتهازيين الأنانيين وكل من لف لفهم.

وهذه العاقبة السيئة: تدل بكل وضوح، على أن الانحراف عن الدين الحق الحنيف، وتكذيب الرسل الكرام والأوصياء الهادين عليهم السلام والتنكيل بقيادات ورموز الإصلاح والمطالبين بحقوق الإنسان، وموالاة الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين الظلمة ومناصرتهم وتمكينهم، والإصرار على الأعمال السيئة والأخلاق القبيحة والجرائم والجنايات والشرور، يترتب عليها ويلزم عنها بالضرورة الفساد في الأرض، وتنتهي إلى الهلاك والشقاء الحقيقي الفعلي في الدارين الدنيا والآخرة، وهذه نتيجة وجودية حتمية، محكومة بالسنة الإلهية الكونية والتاريخية، ويؤيدها العقل والمنطق، وتتجلى فيها الحكمة الإلهية البالغة، وعدالة رب العالمين ورحمته الواسعة بعباده والجزاء العادل الموافق للعمل إن خيراً فخير، و إن شراً فشر، وتطهير الأرض من رجس المجرمين المفسدين، وفتح الطريق أمام الصالحين لمواصلة مسيرة التكامل الفردي والمجتمعي، والوصول إلى أعلى مراتب الكمال الإنساني المعرفي والتربوي الحضاري المقدّر في الحكمة الإلهية البالغة، وأنبل وأشرف وأسمى وأقرب المنازل إلى الله العلي الأعلى

ذي الجلال والإكرام، وفيها دلالة على وجوب مقاومة الباطل والظلم والطغيان والاستكبار والاستبداد، من أجل صلاح النفس والمجتمع، ولكن ما أكثر العبر وأقل الاعتبار، فالحال هي نفس الحال، بلاغ و إنذار من الرسل الكرام عليهم السلام، وعناد و إنكار من المرسل إليهم، ثم هلاك وتدمير لكل ما أفنى الإنسان عمره في بنائه وتشييده، وعواقب سيئة مذمومة في الدارين الدنيا والآخرة.

برنامج الرسالة الربانية

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

خاطب نبي الله الكريم موسى بن عمران الكليم عليه السلام فرعون، الذي أضفى على نفسه صفة الألوهية بغير حق، وزعم كذباً وزوراً أنه رب الأرض ومن عليها، وله ملك مصر وما فيها من الأنهار تجري بإرادته وتحت سلطته، وعليه يتوقف كل شيء في البلاد، وقد طغى وتجبر وأفسد في الأرض، وسفك الدماء المحرمة بغير حقها.

وأفهم موسى الكليم عليه السلام فرعون الطاغية وملأه، القسم الأول من الرسالة، وهو أنه رسول من موجود عظيم هو رب العالمين، الذي هو واجب الوجود ورب الأرباب، أي: مربي جميع الموجودات، والقائم على تدبير جميع العالم الأرضي والسماوي، أو العلوي والسفلي، بأنواع التدابير، ومن جملة التدابير أنه لا يترك الإنسان الذي هو أفضل الموجودات سدى،

بل يرسل إلى الناس الرسل مبشرين ومنذرين لهدايتهم إلى الرشاد والدين الحق الذي فيه خيرهم وصلاحهم وكمالهم، وسعادتهم الحقيقية الفعلية في الدارين الدنيا والآخرة، ويعلمونهم ما يوافق استعداداتهم الذهنية من العقائد والمفاهيم والمعارف الإلهية الحقة، ويأتونهم من عند الله ﷻ بكل ما يلبي احتياجاتهم العصرية من التشريعات والقوانين لتنظيم حياتهم الخاصة والعامة، وما يهذب أنفسهم ويزكيهم من المواعظ والإرشادات والعبر والأعمال الصالحة ونحو ذلك. ولا يقدر أحد أن يتجرأ عليه ويدّعي كذباً بأنه أرسله ولم يرسله، ثم يأتي بما لا يشك أحد بحكم العقل والفطرة والطبع السليم في صدقه، وأنه قد اختاره واصطفاه لرسالته، وأرسله إليهم لكي يبلغهم رسالته، ويقيم عليهم الحجة البالغة التامة في ذلك. ومن كان مرسلاً من جهة من كان هذا شأنه، فالواجب عليهم بحكم العقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم، أن يقبلوا منه ويخضعوا وينقادوا ويسلموا له ويعلموا بمقتضى رسالته إليهم، وعليه: دعاهم - فرعون وملأه - إلى الإيمان به واتباعه والتسليم لرسالته، قوله: ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

والعبارة من ناحية الشكل، تدل على أن الخطاب مقرون باللين واللطف والرعاية للأدب، وخال تماماً من كل لفظ يدل على الفحش والتحقير والإهانة ونحو ذلك، وفي نفس الوقت لم يتضمن ألقاباً وصفات التعظيم والتبجيل الزائفة، مثل: يا صاحب الجلالة أو يا صاحب العظمة أو يا صاحب الفخامة أو يا سيدنا أو أي نوع من أنواع التملق والتزلف

١. الأعراف: ١٠٤

و إظهار العبودية والخضوع أو نحو ذلك؛ لأن لسان الرسالة لسان صدق وأمانة و إظهار تام للحقيقة بكل جلاء ووضوح، يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «**لأنه (أي موسى) يتكلم بلسان الله، ويبلغ رسالات الله التي يصغر عندها كل كبير ... وبهذا ندرك سر سيرة الصلحاء الذين يترفعون على الفاسقين، ويخفضون جناح الذل من الرحمة للمؤمنين**»[1] مع أن إظهار التبجيل والاحترام للحكام ليس فيه شيء في نفسه من الناحية الشرعية، وقد يكون مطلوباً من الناحية الأدبية والأخلاقية، وقد وجد في سيرة الأنبياء الكرام والأوصياء الهادين المهديين عليهم السلام ولكن المقام الذي كان فيه النبي الكريم موسى بن عمران الكليم عليه السلام كان يتطلب الصرامة والوضوح والواقعية، لكي لا يكون هناك لبس فتقع المفسدة، وينقلب الأمر إلى عكسه. فموسى الكليم عليه السلام يريد أن يخلع عن فرعون الطاغية المتجبر صفتي الألوهية والربوبية اللتين أضفاهما على نفسه كذباً وزوراً وبدون حجة أو دليل، ويرده إلى الرشد والصواب عما كان عليه من الطغيان والتجبر والفساد في الأرض، ويأخذ منه ما كان يتمتع به من امتيازات وصلاحية دينية ودنيوية غير واقعية وهي ليست له بحق، ولهذا اختار التوازن الدقيق بين الطرفين اللين والصراحة.

وكان في خطاب موسى الكليم عليه السلام الرسالي الواضح الصريح، ما يعتبر في الحقيقة والواقع، إنذاراً يدق ناقوس الخطر الوجودي لفرعون الطاغية وملئه الفاسدين ولنظامه الملكي الفرعوني المطلق؛ لأن المدلول الواضح المفهوم للكلام، هو أن فرعون وكافة نظرائه من الفراعنة الطغاة المتجبرين

---

١. تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، جزء ٣، صفحة ٣٧٤

السابقين واللاحقين، ماهم في الحقيقة والواقع، إلا بشر كسائر البشر، ليس لهم في أنفسهم أن يتمتعوا بحق الملك والسلطة والتشريع وفرض إرادتهم على الآخرين وإخضاعهم لأنفسهم بغير إرادتهم أو بفرض حكم الأمر الواقع عن طريق القوة والخداع ونحو ذلك، ويجب أن يراقبوا ويحاسبوا على أعمالهم ويجازوا عليها جزاءً موافقاً لها كما هي عليه في نفسها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، أي أنهم يكذبون في ادعائهم الألوهية والربوبية والمالكية، فهم ليسوا بآلهة ولا أرباب، وإنما هم أولياء كذابون مفسدون في الأرض وأنهم مجرمون فيما يتمتعون به من امتيازات وصلاحيات: دينية ودنيوية استولوا عليها بدون وجه حق، وأن الإله والرب على وجه الحقيقة والواقع، هو إله ورب واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وهو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، المتصف بجميع صفات الكمال والغنى عن الكل والكل مفتقر إليه، وهو وحده الخالق للعالم والمالك له والقائم على تدبيره وإليه يعود كل شيء فيه ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والأرض وإليه معاد العباد وحسابهم وجزاؤهم على أعمالهم.

وعليه: فقد نفى موسى الكليم عليه السلام عن فرعون الطاغية صفتي الألوهية والربوبية، ونسبهما إلى الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، وهذه حقيقة وجودية فعلية يدركها العقل بالمنطق والبرهان السليم، ويميل إليها الإنسان بفطرته وطبعه الإنساني السليم، أي أن خالق العالم ومدبره على الحقيقة، يجب أن يكون واجب الوجود، أزلي أبدي غني في ذاته، عالم قادر مطلقاً، وهو وحده الذي يستحق الطاعة والعبادة، وفرعون

مخلوق ضعيف حقير في نفسه، مفتقر إلى غيره في وجوده وصفاته وأفعاله، محدود العلم والقدرة والدراية، يتنفس ويأكل ويشرب وينكح ويلهو ويمرض ويموت ويدفن في الأرض أو يُحرق كسائر البشر، فهو ليس بإله ولا رب ولا مالك على الحقيقة قطعاً وبدون شك أو ريب أو تردد بحكم العقل والمنطق السليم.

وعليه: يجب على فرعون أن يعترف بحقيقة أنه بشر كسائر الناس، وأن يتوب عن دعوى الألوهية والربوبية وعما أخذه واستولى عليه بدون حق من السلطة والثروة والامتيازات والصلاحيات، وأن يعيد الحقوق إلى أهلها، وأن يتوب عن جميع المعاصي والذنوب الكبيرة والصغيرة، والظاهرة والباطنة، وعن جميع الجرائم والجنايات التي ارتكبها بحق الناس الأبرياء، وأن يأوب ويعود إلى الله ﷻ ويخضع إلى إرادته ويسلم إليه، وأن يؤمن برسوله الكريم موسى الكليم عليه السلام ويصدق رسالته ويقبل منه ما يبلغ به عن الله تبارك وتعالى ويعمل بمقتضاه ويقتدي به، فإن الله ﷻ لا يظلم عباده ولا يضل ولا يترك عباده سدى، وهذا يعني أن يتصف الرسل بالصدق والأمانة والعصمة وبجميع الفضائل والخصال الحسنة وصفات الكمال الإنساني.

ومما سبق يتضح أن ما جاء به موسى الكليم عليه السلام من عقيدة التوحيد والنبوة والرسالة يهدم الأساس الفكري والديني الباطل الذي يقوم عليه النظام الملكي الفرعوني الفاسد الضال، ويفقد فرعون الامتيازات والصلاحيات غير الواقعية الدينية والمدنية، وقد أدرك فرعون بفطنته ودهائه هذه الحقيقة بكل وضوح وجلاء، وعليه لم يقبل من موسى الكليم عليه السلام دعوته

ورسالته، لا لأنه وجدها على غير الحق، أو لأنه لم يجد عليها دليل أو برهان، بل لأنه عاند وكابر من أجل ملكه وثروته وامتيازاته، فأعلن الحرب الضروس الشاملة ضد نبي الله ورسوله الصادق الأمين الناصح للعباد عليه السلام، وهي الحرب التي يجب أن يساهم كل إنسان عاقل حر أبي، يعي معنى الإنسانية ومدلولها، ومقومات وجودها وتطورها وتكاملها المعرفي والتربوي والحضاري، ويعرف حقيقة الإنسان ومبدأه ومعاده، والصراط المستقيم والنهج القويم في الحياة، في الدفاع عن موسى الكليم عليه السلام ومنهجه وخياراته في سبيل إزالة الزيف والباطل، وتحرير الإنسان وحماية وجوده المادي والمعنوي، و إقامة العدل و إعادة الحقوق إلى أصحابها، وتأمين مصالح الناس وما فيه خيرهم وصلاحهم وكمالهم وسعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة.

ثم أشار موسى الكليم عليه السلام إلى ما يتمتع به من صفات الكمال الإنساني، التي يجب أن يتصف بها بوصفه رسول كريم من الله رب العالمين، فقال: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي: أن رسل الله رب العالمين، وجميع المؤمنين الصالحين، يجب أن يتحلوا بالصدق والأمانة، ولا يقولوا إلا الحق، وأنا متصف بغاية وكمال الصدق والأمانة، وواجب عليّ قول الحق والصدق، وليس هناك من هو أولى مني بقول الحق والصدق بين الناس، ولا يرضى مثلي لنفسه غير قول الحق والصدق.

كما يجب أن يتصف رسل الله رب العالمين سبحانه وتعالى بالعصمة، لكي يثق الناس فيهم ويصدقوهم ويأخذوا منهم ويتبعوهم ويقتدوا بهم،

فيؤدي الرسل بذلك رسالة ربهم إلى الناس على أحسن وجه، ويطبقوها بشكل صحيح. ولأنه واحد منهم، ولديه الدليل الساطع القاطع على ذلك، فهو لا يقول على الله ﷻ إلا الحق الحقيق، ولا يمكن أن ينسب إليه شيئاً من الباطل، أو يأتي بخطأ. شأنه في ذلك شأن جميع الأنبياء والرسل الكرام والأوصياء عليهم السلام، المنزهين عن جميع العيوب والنقائص، إذ ائتمنهم الله ﷻ على وصيه واصطفاهم لرسالته، فهم معصومون بحكم العقل والمنطق السليم ومقتضى الحكمة الإلهية البالغة، والقدرة الإلهية المطلقة ومنزهون عن كل رذيلة، لا سيما الكذب وقول الباطل والخيانة؛ لأنها على نقيض الرسالة والاصطفاء، ومخالفة لما جاءت به الشرائع السماوية ولما يميل إليه الإنسان بفطرته وطبعه السليم، ويحكم به العقل والمنطق.

وعليه فإن صفة الصدق صفة مؤكدة وملازمة للأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين عليهم السلام وللمؤمنين الصالحين الأتقياء ولا تفارقهم، وهو ملتزم بالصدق تمام الالتزام، وحريص عليه كامل وتمام الحرص، أي: ملتزم وحريص كامل وتمام الحرص على أن يبلّغ عن الله ﷻ ما أرسله به كما هو، بدون زيادة أو نقصان أو تغير أو تبديل، تحت أي ظرف من الظروف العسر أو اليسر، السعة أو الضيق، الترهيب أو الترغيب أو نحو ذلك، ولو فعل غير ذلك لخالف الصدق وخان الأمانة، ولم يكن مستحقاً للنبوة والرسالة، بل يكون مستحقاً للمقت والغضب الإلهي، ولتعجيل العقوبة والعذاب الإلهي، قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[1] أي: لو قدر أن اختلق الرسول وافترى -

١. الحاقة: ٤٤-٤٦

وحاشا وكلا – بعض الأقاويل، التي لم نقلها، بأن تكلف شيئاً وجاء به من جهة نفسه ثم نسبه إلينا، ولو بزيادة حرف أو نقصان حرف، لعاجلناه بالعقوبة وانتقمنا منه أشد الانتقام، فأخذناه بقوة أخذ عزيز مقتدر من يده اليمنى إذلالاً له، وقبضنا عليه كما يقبض على المجرم المتلبس بالجريمة، ثم لقتلناه أبشع قتلة، بقطع شريان الوتين، وهو العرق الرئيسي الذي يصدر عن البطين الأيسر في القلب ويغذي الجسم بكامله بالدم، وفي ذلك تصوير لإهلاكه بأبشع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه، وفيه دليل على أن الله ﷻ، بمقتضى حكمته البالغة، وهو القادر على كل شيء، لا يهمل الكاذب عليه، بل يعاجله بالعقوبة، ومن المستحيل عقلاً، أن يؤيده بالمعجزات والبينات؛ لأن فيه تغرير بالناس وتشجيع على الكذب عليه، فإذا جاء بالمعجزات، وبرهن على صدقة بالأدلة الساطعة القاطعة، ونصره على أعدائه ومكّنه منهم، فهي شهادة من الله سبحانه وتعالى على صدق نبوته ورسالته. ولأن موسى الكليم عليه السلام جاء بالمعجزات والبينات، فهو صادق في جميع ما يقول وينسبه إلى الله ﷻ في جميع ما يدعو إليه.

وفي عبارة: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ تأكيد على فضيلة الصدق وأهميتها في قيام الحياة واستقامتها، وأن الله سبحانه وتعالى لا يأمر ولا يطاع إلا به، وأن الكذب رذيلة تنافي الإيمان الصحيح الصادق، وتخالف العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم، وأن كل شخص يلتزم الصدق على مقدار عقله وفضيلته وسمو روحه وقربه من الله ذي الجلال والإكرام، وكل من استشعر عظمة الله جل جلاله وأحبه وعشقه وسلك طريق

طاعته، لا يحيد عن الصدق والأمانة ولا يكذب ولا يخون أبداً ما دام الإيمان حاضراً في قلبه، وهو الأمر، - أي: التزام الصدق والأمانة -، الذي ينبغي أن يكون عليه الناس جميعاً بحسب فطرتهم وطبيعتهم الإنسانية السليمة، وبما هم عقلاء وحريصون على سلامة مجتمعاتهم، لا سيما العلماء الفضلاء والأشراف والأعيان والنبلاء، والحكام والزعماء وكبار المسؤولين والقادة والموظفين والمهنيين والتجار والصناع وغيرهم، من أجل صلاح أنفسهم، وصلاح أحوال مجتمعاتهم، واستقامة كافة الأمور ووصولها إلى غاياتها المطلوبة وفق الدين والعقل.

وفي العبارة أيضاً تأكيد على ضرورة التزام الرسل والسفراء والوسطاء بخلق الصدق والأمانة في نقل الرسائل التي يحملونها، وحسن الأداء في القيام بوظائفهم والمهام التي تسند إليهم؛ لأن الكذب وخيانة الرسل في نقل الرسائل، وإخلال السفراء والوسطاء بوظائفهم وتقصيرهم في أداء المهام التي تسند إليهم، من شأنه أن يبطل الرسالات والسفارات والوساطات، وتؤدي إلى فساد وتدهور العلاقات بين الأفراد والجماعات والدول، ونشوب الخصومات والصراعات والحروب، وينجم عن ذلك خسائر كارثية وخيمة مادية ومعنوية وبشرية، وتدمير ما قد بُني على كافة الأصعدة، مع أن الرسالات والسفارات والوساطات من لوازم الحياة في العلاقات الداخلية والخارجية بين الجماعات والمجتمعات والدول والأمم، وهذا يفرض الحذر الشديد والتدقيق في صفات وأخلاق وكفاءات الرسل والسفراء والوسطاء، لا سيما في القضايا المهمة والجوهرية والمصيرية، وأن الإهمال والتقصير في ذلك، مخالف للعقل والحكمة، وقد يؤدي إلى

نتائج عكس المطلوب والمراد منها، والحكيم لا ينقض غايته.

ولأن دعوى النبوة والرسالة من رب العالمين التي جاء بها موسى الكليم عليه السلام دعوى عظيمة جداً، وتترتب عليها نتائج ضخمة وحاسمة ومصيرية في الحياة الشخصية للأفراد، وفي الحياة العامة للمجتمعات، في حالتي القبول والرفض، التصديق والتكذيب، ومنها هدم الأساس الفكري والديني الذي يقوم عليه النظام السياسي والاجتماعي برمته، أي: أن الدعوى تربط بين الأيديولوجيا (العقيدة) وبين السلوك والواقع بجميع أبعاده الفردية والمجتمعية وعلى كافة الأصعدة ومختلف المجالات الفكرية والأدبية والفنية والعلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية والحقوقية وغيرها، ولأنها دعوى بهذه الضخامة والأهمية الكبيرة، فإنها يجب أن تستند إلى دليل قطعي لا يقبل الشك والريب، ويكون في غاية الجلاء والوضوح ولا يقبل اللبس والاشتباه. فلا يمكن لعقل سليم أن يقبل مثل هذه الدعوى الخطيرة ويخضع ويسلم إليها ويعمل بمقتضاها، بدون أن يمتلك الدليل القوي القاطع المصاحب لها، كما أن رفضها أيضاً يجب أن يستند إلى دليل ساطع وقاطع، فالإثبات والنفي يحتاجان إلى دليل قطعي، وما يقال عن النبوة يقال عن الخلافة؛ لأنه تترتب عليها نفس النتائج في حالتي القبول والرفض.

وعليه: من الحمق والمؤسف جداً، أن ينخرط الكثير من الناس في خياراتهم المصيرية الكبرى في الحياة تحت تأثير العامة والتقليد ونحوهما وبدون هدى أو حجة أو برهان، وهو بدون شك مخالف للعقل

والشرع والفطرة وعليه: فقد صرح موسى الكليم عليه السلام بأنه التزاماً منه بحكم العقل والمنطق، فإنه لا يدّعي ما ادعاه من النبوة والرسالة بدون حجة أو برهان، وإنما معه ما يؤيده ويصدّق دعواه من المعجزات الباهرات النيرات، والبينات الواضحات، والأدلة والبراهين العقلية الساطعة الواضحة القاطعة، فقال: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1] وعبارة: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدل على أمور عديدة مهمة، منها:

أ. أنه رسول من الله رب العالمين، ويحمل رسالته إليهم، وأنه يمتلك الأدلة القاطعة التي تثبت هذا الارتباط المقدس العظيم، بينه وبين الله سبحانه وتعالى، وليس الأمر أنه يمتلك مجرد علوم وقدرات ومواهب وملكات بشرية خارقة، وأنه منزه عن الأغراض والمصالح الخاصة، أي: أنه لا يبحث عن استحقاقات وامتيازات ولا صلاحيات لنفسه تستند إلى ما يمتلك من قدرات ومواهب وملكات وعلوم، أو أنه يريد أن يفرض حكم الأمر الواقع على فرعون وقومه، وإنما هدفه وغايته أن يهديهم إلى الله ذي الجلال والإكرام، ويعرّفهم به، ويرشدهم إلى دينه الحق وصراطه المستقيم والأعمال الصالحة التي فيها صلاح أنفسهم ومجتمعاتهم وخيرهم وكمالهم وسعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة.

ب. أن الله سبحانه وتعالى هو ربه وربهم ورب العالمين أجمعين على التحقيق، ولا رب لهم سواه، فهو الذي خلقهم، وهو مالك رقابهم،

---

١. الأعراف: ١٠٥

وبيده أمر تدبيرهم، و إليه مرجعهم وحسابهم وجزاؤهم على أعمالهم، إن خيراً فخير و إن شراً فشر. وأن الواجب عليهم بحكم العقل والمنطق والأخلاق والضمير والفطرة والطبع السليم، أن يخضعوا له ويسلموا، ويطيعوا رسله ويقتدوا بهم، وأن يتخلوا عن الأكاذيب والخرافات والأوهام والدعوات الباطلة، فإن في ذلك صلاح أنفسهم ومجتمعاتهم وخيرهم وكمالهم وسعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة.

ج. أن لا شرعية لنظام أو قانون أو حكومة لا تصدر عن الله رب العالمين أو يقرها.

والخلاصة، يجب على فرعون وملئه وقومه وجميع أهل مملكته، أن يصدقوا نبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته، وأن يتبعوه فيما يأمرهم به وينهاهم عنه ويقتدوا به في حياتهم، ويعملوا بمقتضى رسالته إليهم في جميع القضايا والمجالات وشؤون الحياة الخاصة والعامة.

ثم بيّن موسى الكليم عليه السلام إلى فرعون وملئه، القسم الثاني من رسالته إليهم، وهي تحرير بني إسرائيل من العبودية والاسترقاق، حيث كان فرعون وقومه يستخدمونهم كأرقاء أذلاء، وكان فرعون يقتل أبناءهم الذكور ويستحيي نساءهم للخدمة والمتعة الجنسية، ويستخدم مع قومه الأقباط رجالهم في الأعمال الصعبة الثقيلة الشاقة، مثل البناء ونقل الصخور والماء، والأعمال الدنيا السافلة المهينة - بحسب نظرهم - مثل: التنظيف ونحوه، ويعتبرونهم طبقة واطئة دنيا في النظام الاجتماعي الطبقي، وكان النظام الملكي الفرعوني، يمارس ضدهم التمييز في الحقوق

مع المواطنين الأقباط، ويمنعهم من الهجرة والرجوع إلى أرض الميعاد فلسطين التي هي موطن جدهم يعقوب (إسرائيل) عليه السلام قبل هجرته إلى مصر في القرن الثامن عشر (١٨) قبل الميلاد على عهد حكومة ولده يوسف الصديق عليه السلام وذلك بهدف إبقائهم مستعبدين وخاضعين لسلطته وإرادته، ويستخدمهم في الأعمال المذكورة التي يحتاجهم في بلاده ويترفع عنها قومه الأقباط، وكان فرعون يفعل ذلك ببني إسرائيل رغم حقيقة كونهم من أولاد الأنبياء الكرام عليهم السلام مما يدل على طبيعة النظام الملكي الفرعوني الذي لا يفكر إلا في مصلحته ومصلحة القائمين عليه، ولا يقيم وزناً للإنسان بما هو إنسان، ولا للدين والقيم الإنسانية والمبادئ السامية الرفيعة، وهذه طبيعة كل نظام ملكي دكتاتوري في العالم، طوال التاريخ في الماضي والحاضر والمستقبل، فقال موسى الكليم عليه السلام لفرعون مطالباً بحقوق بني إسرائيل الطبيعية: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[1] أي: طلب موسى الكليم عليه السلام من فرعون الطاغية، أن يرفع التمييز في المعاملة والحقوق عن بني إسرائيل، وأن يساوي بينهم في الحقوق والواجبات مع الأقباط على أساس المواطنة الكاملة، وأن يحرر بني إسرائيل من الرق والعبودية، ويتوقف عن استخدامهم في الأعمال الشاقة والسافلة بغير إرادتهم، وأن يتركهم وشأنهم ليقرروا مصيرهم بأنفسهم، ويمنحهم حق حرية السفر والإقامة، فيبقوا في مصر إن شاؤوا، ويخرجوا معه إلى الأرض المقدسة أرض الميعاد فلسطين إن أرادوا، أو يذهبوا إلى حيث يشاؤون.

وتعتبر مهمة تحرير بني إسرائيل من عبودية فرعون وقومه، العمدة

---

١. الأعراف: ١٠٥

العملية لرسالة موسى الكليم عليه السلام التي بعثه الله عز وجل من أجلها، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[1] أي: أن فرعون طغى وتجبر في ملكه وسلطانه، واستكبر على الله جل جلاله، وأفسد في أرض مصر التي يحكمها بالحديد والنار، وادعى الربوبية واستعبد الناس في مملكته، وجعل أهلها طبقات وأصناف في خدمته، وفرقهم شيعاً مختلفة لا تجتمع كلمتهم على شيء، وأوقع بينهم العداوة والفتن لتضعف قوتهم عن معارضته ومقاومته، وينقادوا له ويخضعوا لإرادته وسلطته، وينفذ فيهم ما يريد من قهره وسطوته، ويشايعوه على ما يريد طائعين أو كارهين، ويتصرف فيهم بحسب أهوائه وشهواته ورغباته، فصار بذلك من أهل العلو والاستكبار في الأرض لا من الأعلين النبلاء، وكان يستضعف طائفة من المواطنين في مملكته ويميز ضدهم، ويتعدى الحدود في ظلمهم والجور عليهم، وهم بنو إسرائيل؛ لأنه وجد أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما يريده فيهم من الشر والبطش، فصار لا يبالي بهم ولا يهتم بشأنهم، حتى بلغت به الحال معهم أن يذبح أبناءهم عند ولادتهم، ويستبقي بناتهم للخدمة والمتعة الجنسية، أي: كان يسعى للقضاء على مصدر قوتهم لكي لا يقووا ويثوروا عليه، ويبقي على ما يظن أنه مصدر ذلتهم وبه يخضعهم ويسترقهم، وكان جدير به أن يكرمهم؛ لأنهم من أولاد الأنبياء الكرام عليهم السلام، وغايته من استضعافهم التخلص

---

١. القصص: ٤-٦

من المولود المنتظر الذي سيقضي على ملكه ونظامه الدكتاتوري الجائر؛ لأن كاهناً أخبره بأنه سيولد في بني إسرائيل مولود يذهب ملكه على يديه، وقيل: أن الأنبياء الكرام عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى الكليم عليه السلام قد بشروا بمجيئه وبهلاك فرعون وذهاب ملكه وخلاص بني إسرائيل على يديه المباركتين.

والآية الشريفة المباركة: تدل على أن ما كان يقوم به فرعون الطاغية من الجرائم والجنايات والاجراءات الاستباقية المذكورة، هي سلوك أحمق وإفساد في الأرض، إذ اجترأ على خلق الفتنة الطائفية والتمييز بين المواطنين لتفريقهم وإضعافهم، وقتل خلق كثير من الأطفال والمواطنين الأبرياء من أجل بقاء ملكه وليكون أبناء الشعب خاضعين لإرادته وسلطته، لتبقى له مصالحه وامتيازاته وصلاحياته غير المشروعة وغير الواقعية، وهذا ما يفعله الفراعنة الطغاة والحكام المستبدون الظلمة في العالم طوال التاريخ، رغم حقيقة كونه سلوك أحمق وإفساد في الأرض لا طائل منه ولا فائدة فيه ولا نفع، ولا يمكن أن يغير القدر وما تعلقت به الإرادة والمشيئة الإلهية، بل على العكس تماماً، يعجل في هلاكهم وزوال ملكهم وذهابهم من الدنيا متبوعين بالخزي والعار واللعنة، وفي الحديث الشريف عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال: «**والذي بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً أن الأبرار منا أهل البيت وشيعتهم، بمنزلة موسى وشيعته، وأن عدونا وأشياعهم، بمنزلة فرعون وأشياعه**»[1].

---

١. تفسير جوامع الجامع، الطبرسي، جزء ٣، صفحة ٢٠٨

وفي مقابل استضعاف فرعون لبني إسرائيل، كان الله ﷻ، يريد بتدبيره الحكيم المحكم أن يمن على بني إسرائيل المستضعفين الذين اضطهدهم فرعون الطاغية وملؤه الفاسدون المستكبرون وقومه المتواطئون معه، وتسلطوا على أبدانهم وأقواتهم ومقدراتهم ظلماً وعدواناً، ويتفضل عليهم بخلاصهم في المآل من بأس فرعون وقومه وظلمهم، ويجعلهم يرفلون في لباس العزة والكرامة والحرية والنصر والغلبة، ويثقلهم بالنعم الإلهية العظيمة المادية والمعنوية، ويجعلهم أئمة متقدمين في الدين والدنيا، ويقتدى بهم في الخير والطاعات، وقادةً أحراراً متبوعين بعدما كانوا تابعين خاضعين مقهورين، ويجعلهم الوارثين: يرثون فرعون وقومه السلطة والثروة والمقدرات بعدما كانت في يد غيرهم المفسدين، وأن يمّكن لهم في الأرض، بأن يجعل لهم مكاناً يستقرون فيه ويملكونه ويحكمونه، مصر والشام، ويجعلهم مقتدرين على الأرض، يتصرفون فيها كيف يشاؤون بعدما لم يكن لهم من المكان إلا ما يريد غيرهم أن يقرهم فيه ويملكهم إياه. وأن يري الله ﷻ فرعون الطاغية ووزيره وشريكه في جميع جرائمه هامان وجنودهما الذين بهم صالوا وجالوا وبغوا، حيث يمثلون الأداة القوية لتنفيذ الكثير الكثير من جرائهم وجناياتهم، يريهم من هؤلاء المستضعفين الذين كانوا يسعون في قمعهم وكسر شوكتهم بكل وسيلة وقوة، ما كانوا يحذرونه ويخافونه ويجتهدون في دفعه، وهو ذهاب ملكهم وسلطتهم وضياع ما كانوا يتمتعون به من الامتيازات والصلاحيات غير المشروعة وغير الواقعية وهلاكهم وتصفيتهم من الوجود على يد القائد الموعود المنتظر منهم، أي: كان ظاهر الأمر إحاطة قدرة فرعون وقومه ببني

إسرائيل و إحكام السيطرة عليهم، وفي الحقيقة والواقع الخفي الذي لا تراه العيون، أنه الطريق إلى هلاك فرعون وقومه وزوال ملكهم، وهذا أمر قد تعلقت به الإرادة الإلهية وجرت به المشيئة والتدبير وفق السنن الإلهية الحاكمة في الكون والتاريخ.

فما كان يقوم به فرعون الطاغية وملؤه المستكبرون من التدابير والاحتياطات والإجراءات الاحترازية والضربات الاستباقية الحمقى، لا طائل منها ولا فائدة ولا نفع فيها وقد ذهبت جميعاً أدراج الرياح وبدون جدوى. فقد قتلوا كل مولود ذكر من بني إسرائيل، وأبقوا على موسى الكليم عليه السلام ليكون لهم قرة أعين. فكان المخلص لبني إسرائيل، وأتى فرعون الطاغية وقومه المتواطئون معه الخطر من مكمنه ومن حيث لا يعلمون ولا يحتسبون، وأوقعهم الله عز وجل بتدبيره الخفي الحكيم المحكم فيما كانوا منه يخافون ويحذرون ويهربون، وفي ذلك عبرة وموعظة بالغة لكل فرعون وطاغية وحاكم ظالم مستبد يأتي بعدهم. فقد هيأ الله تبارك وتعالى باصطفاء موسى الكليم عليه السلام و إرساله إلى فرعون وملئه، وبما أيده به من الآيات والمعجزات والبينات، إلى إخراج بني اسرائيل من مصر وأهلك فرعون وجنوده.

وعليه: فإن حصول هذه النتيجة، مشروط بأن يؤمن بنو إسرائيل بالدين الحق ويستقيموا على الطريقة ويسيروا في ركب ولي الله الأعظم موسى بن عمران الكليم عليه السلام ويطيعوه ويقتدوا به ويتوحدوا تحت رايته وقيادته، ويجاهدوا ويثابروا مستهدفين الحق والفضيلة، والتحرر من

البغي والظلم والاستغلال، ويضحوا من أجل عزتهم كرامتهم ومصلحتهم الحيوية والجوهرية وحياتهم الطيبة السعيدة، تماماً كالمريض الذي يشفى باستعمال الدواء والعلاج الصحيح، فيكون موسى الكليم عليه السلام بقيادته الميمونة لهم، وبصبرهم وجهادهم المبارك تحت رايته، هو الوسيلة إلى نجاتهم وخلاصهم وهلاك فرعون وجنوده أجمعين؛ لأن سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه أن يجري الأمور بأسبابها والغايات على وسائلها، وأن الله جل جلاله مع المظلوم المجاهد الصابر، يقف معه ويؤيده ويمده بعونه وتوفيقه، وأن وسيلة النصر الإلهي، هي إخلاص النية في الجهاد تحت راية القيادة الربانية الشرعية، فمن ثار على الظلم والجور واستمات من أجل عزته وكرامته وأخلص نيته لله سبحانه وتعالى، نصره الله عز وجل على عدوه، ومن تخاذل واستكان وركع للظالمين وقبل بحكم الأمر الواقع ورضى به، خذله الله عز وجل وأوكله إلى من ظلمه وأركسه في الآخرة على منخره في نار جهنم، لأنه خذل الحق والهدى ونصر الباطل والضلال.

وعليه: فإن رسالة موسى الكليم عليه السلام تتألف من شطرين:

أ. التبليغ بالرسالة الإلهية بما تشتمل عليه من عقائد ومعارف إلهية حقة، وقيم أخلاقية سامية، وأحكام شرعية، وسيرة وعبر، وغيرها، على أحسن وأكمل وجه، والتربية للمؤمنين و إرشادهم وتوجيههم لما فيه صلاحهم وخيرهم وكمالهم وسعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة.

ب. الشق العملي وهو تحرير بني إسرائيل من العبودية والاسترقاق،

والنهوض بالمجتمع وتطويره والتقدم به على كافة الأصعدة الفكرية والأدبية والتقنية والعلمية والتكنولوجية والصناعية والتجارية والزراعية والاجتماعية والسياسية والقانونية والحقوقية وغيرها، وإقامة حضارة إنسانية شاملة ومتكاملة ومتوازنة مادياً وروحياً يتجسد فيها مفهوم الخلافة الإلهية للإنسان أحسن وأكمل تجسيد. وهذا يدل على أن الأنبياء الكرام والأوصياء الهادين المهديين المطهرين عليهم السلام والعلماء الربانيين والأولياء الصالحين والمؤمنين العاملين المتقين، لا يكتفون بالتبليغ عن الله تبارك وتعالى والدعوة إليه والتربية للمؤمنين ومعالجة المشكلات والحالات والقضايا الفردية فقط، بل يهتمون بالشأن العام كثيراً، ويعملون من أجل صلاح الناس والمجتمعات، وعزة الإنسان وكرامته، والمحافظة على مصالح الناس الجوهرية والحيوية الخاصة والعامة، وينخرطون في قيادة حركات الإصلاح والمطالبة بالحقوق وعمليات المقاومة المشروعة والتحرير والثورات على الطواغيت والفراعنة والمستكبرين والمترفين المستغلين، ويحاربون الباطل والظلم والشر والرذيلة والاستكبار والاستبداد والاستعباد والفساد والتخلف والتحلل والانحطاط ونحو ذلك. فالواجب على المؤمنين الأعزاء، أن لا يقبلوا بفرض حكم الأمر الواقع عليهم وعلى المستضعفين، ولا بالذل والهوان وأشكال الظلم والتمييز ضدهم، وأن يرفضوا ذلك ويحاربوه ويقاوموه ويقدموا التضحيات اللازمة من أجل تحرير أنفسهم وأوطانهم والحصول على كافة حقوقهم الطبيعية

والمكتسبة، والمحافظة على مصالحهم المشروعة و إظهار الحق، و إقامة القسط والعدل، ونشر الفضيلة، وتقرير مصيرهم بأنفسهم وفق آليات محددة.

الحجة على صدق نبوة موسى عليه السلام ورسالته

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝١٠٦ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾

وأمام هذا الادعاء الخطير جداً، والثقة التامة التي أظهرها موسى الكليم عليه السلام تماسك فرعون الطاغية والمتجبر وطالب موسى الكليم عليه السلام بالدليل على صدق دعواه النبوة والرسالة، فقال: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1]، أي: قال فرعون الطاغية المتجبر، وهو ممتلئ بالغرور والاستعلاء لموسى الكليم عليه السلام: إن كنت صادقاً فيما تدعيه، وجئت بآية (معجزة) من عند الله الذي تزعم أنه رب العالمين، تثبت صدق نبوتك ورسالتك منه إلينا، وتشهد لك بما تقول، فأتي بها وأظهرها لنا إن صح أنك قادر على أن تأتي بها حتى نشاهدها وننظر فيها ونرى حقيقتها ودلالتها على مدعاك ونصدر حكمنا فيها، فيثبت صدقك وصحة دعواك، أو كذبك وبطلان دعواك؛ لأن اتخاذ الإنسان الخيارات المصيرية الكبرى في الحياة، مثل الخيار الذي تدعوننا إليه، وانخراطنا فيه بدون حجة واضحة تامة وبرهان قاطع، قبيح عقلاً ومخالف للفطرة

---

١. الأعراف: ١٠٦

والطبع الإنساني السليم، إلا أني ما أظنك تصدق في قولك، أي: أن فرعون لا يعتقد بصدق موسى الكليم عليه السلام في إخباره بوجود آية معه، وقيل: أن عبارة ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ تدل على الإلزام، بمعنى إن كنت صادقاً فيما تدعيه، وجئت بآية من عند الله رب العالمين الذي تزعم أنه بعثك نبياً وأرسلك إلينا، فإني أُلزمك بأن تأتي بها وتظهرها لنا حتى نشاهدها وننظر فيها، وفي قوله ذلك إظهار للسيادة والملك والسيطرة على الموقف، أي: أن فرعون الطاغية لم يتخلَ عن تجبره وغطرسته حتى في هذا الموقف، مما يكشف عن النفسية المريضة لهؤلاء الحكام المتجبرين، وحقيقة ما يدور في خواطرهم من التكبر والاستعلاء!

وفي قول فرعون الطاغية: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1]، وجهان:

١. الوجه الظاهر: ويدل على رباطة جأش فرعون وثقته بنفسه وموقفه وقوة عرشه وسلطانه، فلم يبطش بموسى الكليم عليه السلام ولم يعاجله بالعقوبة، بل لم يظهر غضبه وحنقه عليه، و إنما طالبه بالدليل والبرهان والحجة على صحة مدعاه، كما هي سيرة العقلاء، وحال طالب الحق والباحث عن الحقيقة بموضوعية ونزاهة وحياد تام، وذلك رغم خطورة المدعى وضخامة الآثار وما يترتب عليه من نتائج مصيرية كبيرة في الحياة الخاصة له شخصياً، ولجميع أهل مملكته، وفي الشأن والحياة العامة لجميع الناس، والتأثير

---

١. الأعراف: ١٠٦

البالغ على النظام السياسي الملكي، حيث يترتب عليه قلب النظام السياسي الملكي الفرعوني رأساً على عقب؛ لأنه ينسف كلياً الأساس الفكري والديني الذي يقوم عليه. وهذه هي الحالة الغريبة العجيبة التي يكون عليها الفراعنة والحكام المستبدون الظلمة أمام خصومهم السياسيين والمعارضين لهم، حيث يتظاهرون بالموضوعية والعدالة والإنصاف حينما يرون بأنهم في مركز قوة، وأن الحجة لهم والقانون في مصلحتهم، حتى إذا غُلِبوا بالحجة وظهر الحق لغير مصلحتهم انقلبوا على المنطق والقانون ومؤسسات الدولة، وظهروا على حقيقتهم الطاغوتية واستعلائهم واستكبارهم وطغيانهم، وأظهروا حنقهم على الحقيقة والمنطق والقانون ومؤسسات الدولة وحاربوها ولووا أعناقها، وصبوا جام غضبهم على خصومهم ومعارضيهم في الظاهر باسم القانون ومصالح الشعب والمحافظة على الدولة، وفي الحقيقة يفرض حكم الواقع بالعنف والقوة والإرهاب.

٢. الوجه الباطن الخفي: ويدل على ثقة فرعون ويقينه بكذب موسى الكليم عليه السلام فيما ادعاه وفيما أخبر عنه من وجود آية بينة تثبت صدق ادعائه، فهو يعتقد بأن موسى الكليم عليه السلام لا يملك الدليل المقنع على صدق دعوى النبوة والرسالة، فلا يقدر على أن يأتي بآية ولا يمكنه ذلك، فقوله: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾[1] تعني: ما أظنك جئت بآية؛ لأن دعواك غير واقعية وغير ممكنة ولا أساس

١. نفس المصدر

لها بحسب عقيدة فرعون وثقافته الخاصة؛ لأن فرعون الطاغية غرق تماماً في عالم الدنيا والمادة والملك والمصالح الخاصة والامتيازات والصلاحيات الملكية، فلا يرى غيرها، ولبعده عن عالم المعرفة الحقة والمنطق السليم والعفة والفضيلة والقيم الإنسانية وعالمها، ولما استولى عليه من الاغترار بالملك والسلطة والقوة والثروة، وما يتمتع به من القداسة الدينية في ظل دعوى الألوهية والربوبية الباطلة، وبوصفه الكاهن الأعظم الذي حجبته عن رؤية الحقائق الثابتة النيرة، والسنن الإلهية الحاكمة في الكون والتاريخ، وفصلته عن الواقع وأدخلته إلى عالم الوهم والخيال كما هو حال جميع الفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين والانتهازين الأنانيين الفاسدين في طول التاريخ وعرض الجغرافيا في العالم. وتدل هذه الثقة العمياء على لغة التشكيك والريب والاستعلاء، قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِين﴾[1] أي: لا أظنك صادقاً، أو أعلم بأنك غير صادق، وعليه فإن حقيقة الأمر لدى فرعون الطاغية في إلزام موسى الكليم عليه السلام أو مطالبته بإظهار الحجة والدليل، ليس طلب الحق والبحث بموضوعية عن الحقيقة وتحريها، وإنما السعي لإثبات كذب موسى الكليم عليه السلام وفضحه أمام الملأ، أي: التكذيب والاستعلاء، وقد اتخذ هيئة الطالب للحق، وتظاهر بالموضوعية والنزاهة والحياد في البحث عن الحقيقة وتحريها، كأسلوب دبلوماسي يغلب عليه الدهاء

---

١. نفس المصدر

ومناورة خبيثة من أجل إثبات كذب موسى الكليم عليه السلام وفضحه والإيقاع به، كمقدمة لمحاكمته ومعاقبته بعد إقامة الحجة عليه، فلا يؤاخذ بمعاقبته، ولا يتعاطف معه الناس تحت عنوان القسوة والمظلومية، بل ينضموا إلى صفوف المطالبين بمعاقبته بجرمه وجريرته. وإن لم يجد الحجة عليه بطش به عند الحاجة بحكم الأمر الواقع؛ لأن بيده القوة والسلطة، قوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[1] كما يفعل الفراعنة والحكام المستبدون الظلمة دائماً في كل عصر ومصر مع خصومهم ومعارضيهم.

وما إن طلب فرعون الطاغية من موسى الكليم عليه السلام أن يأتي بما لديه من الآيات والمعجزات التي تثبت صدق دعواه النبوة والرسالة من رب العالمين، وتظاهر بالنزاهة والموضوعية والحياد في طلب الحقيقة وتحريها والبحث عنها، بادر موسى الكليم عليه السلام من دون تأخير إلى إظهار ما عنده أو جاء به من عند رب العالمين، ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾[2] أي: بمجرد أن ألقى موسى الكليم عليه السلام عصاه من يده على الأرض، فإذا هي تفاجئ الحضور وتتحول في الحال إلى ثعبان حقيقي ضخم الجثة وطويل، وأخذ يسعى ويتحرك حركة سريعة جداً ويهتز كأنه جان، ويتمتع بجميع خواص الثعابين ظاهراً وواقعاً، لا إيهاماً وتمويهاً، على خلاف ما يظهر في أعمال السحرة الذين يقوم سحرهم على الخداع والتمويه والإيهام، ولا حقيقة له في الواقع، أي: كان الثعبان

---

١. الأعراف: ١٢٧

٢. الأعراف: ١٠٧-١٠٨

الذي تحولت إليه العصا ظاهراً بشكل مرئي واضح لا لبس فيه بحيث لا يشك الرائي أبداً في حقيقة كونه ثعباناً حقيقياً، وكان فرعون وملؤه يشاهدون ذلك ولا يشكون في حقيقة أن ما يرونه ثعباناً حقيقياً واقعياً يتمتع بجميع خواص الثعابين الحقيقية ظاهراً وواقعاً، حتى أن فرعون الطاغية فزع كثيراً، ووثب من سريره وهرب واستغاث بموسى الكليم عليه السلام، ليمنع عنه شره بعدما كان يزعم جهلاً وبغير حق أنه الرب الأعلى لأهل مملكته، فأمسك موسى الكليم عليه السلام الثعبان بيده المباركة، فعادت العصا إلى طبيعتها الأولى التي كانت عليها قبل إلقائها[1]، ثم أدخل موسى الكليم عليه السلام يده في جيب قميصه أو تحت إبطه، ثم أخرجها، وكانت يده شديدة السمرة؛ لأن بشرته كانت شديدة السمرة، فإذا لونها يتحول إلى أبيض بياضاً نورانياً حسناً جميلا بصورة خارقة للعادة من غير سوءٍ أو علةٍ أو مرضٍ أو داء، وكانت تتلألأ ناصعةً، وتشع نوراً ظاهراً كالشمس الطالعة لكل ناظر، وقد ملأ نورها المكان، وقيل: كان شعاعها يغلب على شعاع الشمس.

والمستفاد أن يد موسى الكليم عليه السلام المباركة تتحول إلى هذه الحالة النورانية الاستثنائية في حالة الإعجاز، ثم تعود بعد ذلك إلى سيرتها وحالتها الطبيعية الأولى، وهي في الحالتين، تحولها إلى بيضاء مضيئة، وعودتها إلى حالتها الأولى الطبيعية، معجزة في الحقيقة. وعليه لا يشك الرائي العاقل المنصف الطالب للحقيقة والباحث عنها، أنهما - العصا واليد - آيتان عظيمتان تقف وراءها قوة مطلقة فوق الطبيعة، وفوق قدرة

١. تاريخ الطبري، جزء ١، صفحة ٢٨٦

البشر، وأنهما ليسا من جنس السحر أو غيره من الأعمال الخارقة التي يأتي بها البشر من عند أنفسهم؛ بسبب التعلم والتدريب والخبرة المكتسبة الممكنة لكل الناس أصحاب المهارة والاستعداد لاكتسابها، أي: أنهما من رب العالمين، الذي بيده الموت والحياة، الذي خلق جميع الكائنات والموجودات، وقد خلق أبونا آدم عليه السلام من طين ثم نفخ فيه من روحه فكان بشراً سوياً، قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[1] وكذلك خلق أمنا حواء عليها السلام، وأخرج ناقة صالح عليه السلام وفصيلها بعد طلب قومه من الجبل؛ لتكون حجة وآية له على صدق نبوته ورسالته من عند رب العالمين، قول الله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾[2]، وتحول العصا إلى ثعبان ليس بأعظم ولا أصعب من خلق آدم وحواء عليهما السلام من طين، أو إخراج ناقة صالح وفصيلها من صخرة في الجبل، فالله عز وجل القادر على كل شيء ممكن عقلاً، وجميع قوانين المادة وعالم الطبيعة بيده ومحكومة بإرادته وخاضعة لمشيئته سبحانه وتعالى، فإذا أراد شيئاً من الممكنات العقلية أن يقول له كن فيكون بدون امتناع ومنازعة أو تأخير.

الجدير بالذكر: أن منشأ جميع النباتات والحيوانات في عالم الطبيعة وفق الرؤية العلمية وفي نظرية دارون من الطين، غاية ما في الأمر، أن تبدل

---

١. الحجر: ٢٨-٢٩

٢. الشعراء: ١٥٣-١٥٥

الطين إلى كائن حي نبات أو حيوان، يحتاج عادة إلى ملايين السنين، ولكن في حالة الإعجاز تحدث تحولات في لحظة واحدة أو لحظات قليلة بقوة الله المطلقة ووفق إرادته ومشيئته الحاكمة على قوانين علم الطبيعة كلها.

وعليه: الآيتان العظيمتان اللتان جاء بهما موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين، وهما العصا واليد، تدلان دلالة واضحة صريحة، وبشكل قاطع لا لبس فيه ولا إشكال ولا غموض ولا شك ولا ريب ولا تردد، لكل ذي عقل وفهم منصف وطالب للحقيقة وباحث عنها، على أنها من عند رب العالمين، حيث لا يقدر عليهما غيره، وتدلان كذلك على صدق نبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته من رب العالمين جل جلاله، حيث لا يمكن تفسيرها بالتفسير العلمي الطبيعي المألوف، أو بالتحليلات المادية المتعارفة، فهما غير ممكنتين عقلياً إلا بتدخل قوة مطلقة فوق الطبيعة، ولا يمكن تفسيرهما بغير ذلك أبداً. ولا يمكن اعتبارهما من السحر الذي يقوم على الإيهام والتمويه والخداع والتضليل ولا حقيقة له في الواقع، وهذا ما أقره واعترف به السحرة أنفسهم بكل صراحة ووضوح، وأعلنوا إيمانهم بالتوحيد والنبوة والمعاد وصدّقوا بنبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته بالاستناد إلى ذلك، وهم أصحاب الفن والخبرة وأعلم الناس بفنون السحر ودقائقه وأسراره وخباياه والحجة على الناس فيه، إلا أن المعاندين المكابرين لا يؤمنون ولا بأي آية ولا دليل، فلا ينفع معهم شيء حتى يروا العذاب الأليم.

وقد رأى آية الله الشيخ ناصر الشيرازي بحق، «**أن تحول العصا إلى**

ثعبان يقوم مقام الإنذار والترهيب بالقدرة الإلهية والتحذير من العاقبة السيئة المذمومة في الدارين الدنيا والآخرة، وأن تحول اليد السمراء إلى بيضاء حسناء جميلة من غير علة أو مرض أو داء، تشع نوراً عظيماً كالشمس الطالعة، يقوم مقام البشارة والترغيب والتشويق، وأن الله ﷻ أراد بإظهار هاتين الآيتين العظيمتين على يد وليه الأعظم موسى بن عمران الكليم ﵇، أن يوضح للناس بأن برنامج موسى الكليم ﵇ ورسالته لهما جانبان: جانب الترهيب والتحذير للمخالفين المعاندين، وجانب الترغيب والتشويق للمؤمنين المطيعين العاملين؛ من أجل هداية الناس إلى صلاح أنفسهم وأحوالهم الخاصة والعامة على كافة الأصعدة والمستويات وفي كافة المجالات، و إيصال الإنسان إلى كماله الإنساني اللائق به والمقرر له، وتحقيق السعادة الحقيقية الكاملة له في الدارين الدنيا والآخرة».[1]

ويستفاد مما سبق: أن الدعاة إلى الله تبارك وتعالى، والمصلحين الثوار المخلصين الشرفاء المضحين، يجب أن يتمتعوا بروح معنوية عالية، وأن يتأهلوا من جميع النواحي علمياً ومهنياً وعملياً، ويستعدوا للمواجهة والطوارئ، وأن يوفروا شروط وظروف النجاح في مهامهم والنصر والغلبة على الأعداء، وأن يركزوا اهتماماتهم على الأهداف والغايات والمطالب التي يجب أن تكون واقعية في نفسها أو تكتيكية لغيرها، وأن تسمو نفوسهم فوق المهاترات وصغائر الأمور، وأن يتحلوا بالفضائل والأخلاق الحميدة والاستقامة في السلوك والمواقف والعلاقات، ومراعاة مشاعر الناس ومقاماتهم و إظهار الحرص الشديد الواقعي والفعلي، وليس رياءً وسمعة

١. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ٥، صفحة ٩١

عليهم وعلى مصالحهم ومصائرهم، وأن تكون رؤيتهم واضحة، وحجتهم قوية مفحمة قاطعة، وأن يتحلوا بالجد والحزم والعزم في العمل، والمثابرة فيه، وحسم الأمور في مفترقات الطريق وعدم تركها عائمة أو للصدفة، والصراحة والوضوح في طرح المسائل الجوهرية ومعالجة القضايا الحيوية وعدم تركها عائمة أو للصدفة، وأن يجتنبوا الادعاءات الكاذبة، والبرامج الصورية الفارغة من المضمون، والفرقعات الإعلامية الاستهلاكية التي تأتي على حساب الأمانة والمصداقية، ولا تقدم شيئاً يذكر فعلياً للقضية، والتي هي دليل الضعف والعجز ومدعاة إلى الفشل والخيبة، وأن لا يأخذوا أو ينسبوا لأنفسهم ما ليس لهم، أو يحبوا أن يمدحوا بما لا يفعلوا، وأن يتحلوا بالجرأة والشجاعة الكافية التي تلامس إمكانياتهم الفعلية الظاهرية والكامنة، المادية والمعنوية والبشرية، وأن يمتلكوا الشجاعة الأدبية في الاعتراف بأخطائهم وتقصيرهم، ويقبلوا بالنقد البنّاء لأنفسهم وبرامجهم ومؤسساتهم، وأن لا يتخلوا عن آرائهم المحقة وأهدافهم ومطالبهم العادلة تحت تأثير المجاملات أو المراءاة أو الترغيب أو الترهيب أو نحو ذلك؛ لكي يحصلوا على الدعم والتأييد والتوفيق والمساندة الإلهية، ويحصلوا على النصر والغلبة من الله ﷻ، ويتمكنوا من تحصيل المطالب العادلة وتحقيق الأهداف والغايات المشروعة بشكل حقيقي فعلي، وليس بشكل صوري وهمي، مكاسب وهمية يخدعون بها أنفسهم وأنصارهم، ويعطون لأنفسهم بها المشروعية ومبررات البقاء الوهمية الباطلة، بدون أن يقدموا شيئاً نافعاً للدين والوطن والقضية والشعب.

موقف فرعون وجهازه من دعوة موسى الكليم عليه السلام ومعجزاته

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾

أمام الحقائق العظيمة الدامغة التي ظهرت أمامهم فجأة على يد موسى الكليم عليه السلام، صغر شأن فرعون عند نفسه، وأدرك الملأ ذلك بوضوح تام، وشعروا جميعاً بالفزع والمذلة والهوان والخوف الشديد على مستقبلهم السياسي، وعلى مصالحهم التي يضمنها لهم النظام الملكي الفرعوني الفاسد، وأنهم أمام خطر وجودي عظيم داهم، وفي مأزق محكم شديد الخطورة، لكنهم مع ذلك تمالكوا أنفسهم، ولم يعترفوا بالحق المبين الجلي الواضح، ولم يذعنوا للدليل الساطع القاطع ويستسلموا له، بل عاندوا وكابروا وعتوا عن الحق، وفكروا في مواجهة الحقائق العظيمة الدامغة الصارخة بالدلالة على التوحيد والمعاد وصدق نبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته، وكيفية طمسها بالحيلة والخداع والتمويه والتضليل، خوفاً على مستقبلهم السياسي وقوتهم ومصالحهم وامتيازاتهم الأنانية غير المشروعة التي يضمنها لهم النظام الفرعوني الفاسد الجائر، كما هو دأب الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين الفاسدين والانتهازيين النفعيين الأنانيين في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، في إنكار الحقائق التي تتعارض مع أهوائهم الشيطانية ورغباتهم وشهواتهم ونزواتهم الحيوانية ومصالحهم الأنانية

وامتيازاتهم وصلاحياتهم غير الواقعية وغير المشروعة، فاتهموا موسى الكليم بالسحر، وأن ما جاء به من عند رب العالمين ليس بمعجزة تدل على صدق دعواه النبوة والرسالة، و إنما هو مجرد سحر جاء به من عند نفسه، من أجل التضليل ليتوسل به إلى تحقيق أهداف دنيوية سياسية واقتصادية، أي: من أجل قلب النظام السياسي الملكي الفرعوني القائم والسيطرة على الحكم والثروة والمقدرات العظيمة في البلاد والاستئثار بها، وطرد الأقباط، وهم قوم فرعون الموالون له وللنظام القائم في مصر.

فقالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[1] أي: قال الأشراف والأعيان والنبلاء وكبار الموظفين والقادة المدنيين والعسكريين والكهنة وغيرهم المحيطين بفرعون في القصر الملكي لما شاهدوا انقلاب العصا إلى ثعبان حقيقي عظيم، وتحول اليد السمراء إلى بيضاء تتلألأ وتشع نوراً، وبهرهم ما رأوا، وهما معجزتان حقيقيتان عظيمتان من عند رب العالمين العظيم الرحمن الرحيم، قالوا بعد التشاور والتحاور بينهم لقائدهم وولي نعمتهم فرعون: هذا يعني أن موسى الكليم عليه السلام القائم أمامهم بلحمه ودمه وروحه وعقله وقلبه، الذي جاءهم بالمعجزات النيرات الباهرات والحجج البالغة من عند رب العالمين، ما هو في الحقيقة عندهم وبحسب زعمهم، إلا ساحر مخادع ضال غير صادق فيما ادعاه من النبوة والرسالة وطلب الهداية إلى الناس، وأنه قوي العلم واسع المعرفة بفنون السحر ودقائق أسراره وخباياه، حاذق محترف كثير الخبرة في السحر، وأن ما جاء به من الأعمال الخارقة

١. الأعراف: ١٠٩-١١٠

للعادة، ما هو إلا سحر محض يتوسل به مع ادعاء النبوة والرسالة وطلب الهداية إلى الناس لتحقيق أهداف دنيوية سياسية واقتصادية واستعمارية، وليس بمعاجز أو آيات من عند رب العالمين كما يزعم، فهو كاذب فيما يدعيه من النبوة والرسالة وطلب الهداية إلى الناس؛ لأن النبوة والرسالة غير ممكنة، ولا يمكن أن يقوم عليها دليل صحيح. أي: أن فرعون الطاغية وملأه المستكبرين الفاسدين، لم يقبلوا حجة موسى الكليم عليه السلام وما جاءهم به من المعجزات النيرات الباهرات والبينات الواضحات والأدلة النيرة الساطعة القاطعة، فلم يؤمنوا به، ولم يصدقوا رسالته، وعاندوا الحقيقة وتكبروا عليها وعلى أهلها، وطلبوا التبريرات والتأويلات الباطلة الفاسدة، وبحثوا عنها لإبطال ما جاءهم به، وأنكروا فضله ومكانته وأهانوه ووصفوه بالسحر والكذب، ونالوا من كرامته وأمانته ومصداقيته، كما هو دأب الفراعنة المتجبرين وبطانتهم الفاسدة وأتباعهم المارقين وأنصارهم من المتملقين والمتزحلقين والمتزلفين والانتهازيين والنفعيين الأنانيين الطامعين في الفتات والمناصب والمصالح والامتيازات والصلاحيات غير المشروعة، التي يضمنها لهم النظام الفاسد في مواجهة المعارضين للحاكم والنظام، حين يشعرون بالضعف أمام المعارضين، والعجز عن مواجهة حجتهم بحجة مثلها، ودليلهم بدليل مثله، فيلجؤون إلى إلصاق التهم الجزافية الباطلة بهم؛ من أجل تشويه سمعتهم والنيل من كرامتهم، بهدف إبعاد الناس عنهم ومنعهم من التعاطف معهم عند معاقبتهم بغير جرم أو جريرة تحت عنوان الإرهاب والخيانة ونحوهما، بل قد يحصلون على التأييد التام والمساندة للإجراءات القمعية الجائرة ضدهم، بغض النظر

عن قوة منطقهم وسلامة حجتهم وعدالة قضيتهم ومطالبهم.

قول الله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1] وذلك لأنانيتهم المفرطة، واستغراقهم في عالم الدنيا والمادة، وعدم النظر إلى غير أنفسهم ومصالحهم الأنانية العاجلة، وتجاهلهم التام إلى الحقائق الواقعية الفعلية الساطعة البينة، والى الحقوق المشروعة الطبيعية والمكتسبة إلى الناس، والى المبادئ الرفيعة والقيم الإنسانية السامية، والمصالح الحيوية والجوهرية العامة إلى أبناء الشعب والمواطنين، وفصلهم التام بين الحقائق والمنطق، وبين الواقع والسلوك، والمواقف والمصالح، مما يدل على أن مجرد ظهور الحقيقة الجلية، حتى الحقائق الوجودية التي يتوقف عليها المصير والمصلحة الجوهرية للإنسان في دورة الحياة الكاملة وصلاحه وكماله وخيره وسعادته في الدارين الدنيا والآخرة، وقيام الدليل النير الساطع القاطع عليها، لا يكفي لإقناع الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين والانتهازيين الأنانيين بها، والتسليم إليها، وذلك: بسبب حجاب الأنانية المفرطة والاستغراق في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية، ولخبث نفوسهم وفساد طباعهم واستيلاء الشيطان الرجيم عليهم، فلا ينفع معهم دليل أو برهان، ولا يفقهون حجة أو آية.

---

١. الأنعام: ٢٤-٢٦

قول الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤۡمِنُوا بِهَا﴾[1]) فهم من الضالين الذين لا يرون إلا عالم الدنيا والمادة، ولا يرون عالم الغيب والآخرة، ومن المغضوب عليهم الذين لا يعفون عن ذنب أو جريمة؛ لأنهم لا يفكرون إلا في أنفسهم ومصالحهم وشهواتهم وغرائزهم الحيوانية، وأهوائهم الشيطانية ولا يعيشون إلا اللحظة، ولا يرون المستقبل والعاقبة والآخرة، فلا ينزلون على الحقيقة، ولا يرون الواقع كما هو عليه، ولا يعطون الحقوق لأصحابها إلا مكرهين مرغمين لا طائعين مختارين.

الجدير بالذكر: أن القرآن الكريم قد نسب هذا القول المشين في سورة الشعراء إلى فرعون نفسه، قول الله تعالى: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾[2] بينما هنا في سورة الأعراف ينسبه إلى الملأ من قوم فرعون قول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾[3] وهذا يدل على توافق الملأ التام مع فرعون في هذا الوضع الخبيث لموسى الكليم عليه السلام، وذلك ليس حصيلة التشاور والتداول الحر بينهم للآراء وتنقيحها والبحث بحرية عن الصواب فيها، وإنما هو من الثمار الخبيثة لطبيعة الحكم الاستبدادي ونشاطه وأسلوب إدارته للأمور، فالبطانة والمعاونين ومؤسسات الدولة الخاصة كسلطة الحاكم المستبد في النظام الدكتاتوري الفاسد، كلها تفكر وتعمل باسم الدكتاتور ومن أجل تحقيق إرادته ورغباته، وليس لهم هدف إلا رضاه، ولا يفكرون بحرية ومنطق سليم واستقلال، ولا يبحثون

---

١. الأعراف: ١٤٦

٢. الشعراء: ٣٤

٣. الأعراف: ١٠٩

عن الحقيقة، وما فيه الصلاح والخير والمصلحة للشعب والوطن، فهم أرقام تضاف إلى بعضها وصور لزخرفة وتزيين النظام، وكلها مختصرة أو ذائبة في فكر الحاكم المستبد وإرادته ورغباته ومصالحه، وتكرر ما يقول لتحصل من وراء ذلك على الفتات.

وليس هذا السلوك المشين المخالف للعقل والمنطق وكرامة الإنسان يختص بفرعون وحاشيته، بل هو دأب وسلوك جميع الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين في العالم كله مع حواشيهم وأعوانهم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، فقد ألقى الدكتاتور الطاغية الملك فرعون إلى بطانته وأعوانه (الملأ) برأيه، وتركهم يتشاورون ويتبادلون الرأي بخصوص ما يجب عليهم فعله واتخاذه من اجراءات لمواجهة موسى الكليم عليه السلام ودعوته وحركته الإصلاحية، أي: هو الذي يرسم الاستراتيجية والسياسة العامة، وليس هم، فوافقوه بالطبع فيما رسمه، وقدموا ما أجمعوا عليه من رأي حول أسلوب المواجهة في المرحلة الراهنة، ولم يظهر بينهم رأي رشيد واحد يعكس الحقيقة كما هي، ويسعى لردهم إلى رشدهم وصوابهم، مما يدل على تبعيتهم التامة وخضوعهم المطلق إلى إرادة فرعون ومسايرته في جميع ما يريد!

ثم أضاف فرعون الطاغية بوصفه الزعيم الأوحد والبصير بمختلف الشؤون والمصالح، والقادر على كشف المؤثرات والأسرار بخصوص أهداف موسى الكليم عليه السلام وراء دعوته وما جاء به من الأفعال الخارقة للعادة،

فقال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾[1] أي: أن لموسى الكليم عليه السلام وراء دعوته الباطلة وما جاء به من الأعمال الخارقة للعادة، أهداف دنيوية انقلابية سياسية واقتصادية واستعمارية، خبيثة خطيرة جداً على النظام الملكي والحكومة وشخص الملك، وعلى مصالح الشعب ومقدراته، ولا علاقة لها بالدين والعقيدة، فهو يريد بأعماله الخارقة للعادة وبادعاء النبوة والرسالة، الانقلاب على النظام الملكي الفرعوني الشرعي القائم، الذي يمثل إرادة الآلهة، ويخدم مصالح الشعب ويحافظ على مقدراته، وأن يدغدغ عواطف الهمج من بني إسرائيل ليؤثر فيهم تحت عناوين براقة جذابة ساحرة، ولكنها كاذبة ولا واقع لها، مثل: المظلومية والحرمان والتمييز و إرادة التحرير من الاسترقاق والاستعباد وتحصيل الاستقلال في أمرهم ونحو ذلك، ليستميلهم إلى نفسه، ويحرضهم على التمرد والخروج عن طاعة الملك العظيم (فرعون)، والثورة على النظام، ليتأيَد ويتقوى بهم من أجل إسقاط النظام والقضاء عليه وتصفية رموزه وقادته، وتغيير الطريقة الملكية الفرعونية المثلى في الحكم وتوزيع السلطة والثروة وتدبير كافة شؤون الدولة، وفرض الهيمنة الكاملة على الأرض والبلاد، ويتملك مصر ويستعمرها، ثم يخرج أهلها الأقباط الذين هم قوم فرعون والموالون له ولنظامه من أرضهم ويجليهم عن ديارهم ووطنهم، للاستئثار بالحكم والثروة والمقدرات في البلاد مع قومه بني إسرائيل، كما جرت العادة في ذلك العهد القديم، أن يهجم قوم على قوم في أرضهم وبلادهم، فيتغلبوا عليهم، ويملكوا أرضهم وديارهم وثراوتهم ومقدراتهم، ويخرجوهم من

---

١. الأعراف: ١١٠ - الشعراء: ٣٥

أرضهم وبلادهم، ويشردوهم في الأرض كما يفعل الكثير من الهمج في وقتنا الحاضر.

إلا أن الاستعمار الغربي رائد الحضارة، قد طوّر ذلك إلى نسخة عصرية تتناسب مع روح العصر الحديث، فبدأ بالاستعمار التقليدي الذي يقوم على الاحتلال العسكري للأرض وفرض سيطرته السياسية والاقتصادية والإدارية على شعب دولة بغير رضاه، وتشجيع رعاياه على الهجرة إلى الدولة المستعمرة لغرض الاستيطان بهدف وإرادة إحكام السيطرة على البلاد المستعمرة، وقد يلجأ إلى طرد السكان الأصليين من بلادهم بوضعهم تحت ظروف معيشية وأمنية قاسية جداً، وقد يلجأ إلى إبادتهم وتصفيتهم الجسدية إذا اقتضت الحاجة الاستعمارية ذلك. ثم طوّر الغرب الاستعمار إلى نسخة أكثر عصرية بغرض هيمنته على البلاد عن طريق الاتفاقيات الثنائية غير المتكافئة، التي تكبِّل الدولة المستعمرة بشروط تحرمها من حرية التصرف، أو باستغلال المشاكل السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة، والضغط عليها عن طريق تقديم المعونات والمساعدات الفنية والإدارية المشروطة، أو يخلق مشاكل وإثارة القلاقل والاضطرابات والانقسامات الدينية والطائفية والعرقية والحزبية ونحوها؛ لإضعاف الدولة ووضعها تحت السيطرة (الفوضى الخلاقة) وإقامة القواعد العسكرية والتكتلات الاقتصادية وإنشاء المشروعات، وتشجيع الأقليات والنخبة الموالية لها للسيطرة على الحكم ومقدرات البلاد وتصدير أنماط السلوك والثقافة الاستعمارية (القوة الناعمة) ونحو ذلك، مما يسمى اليوم بالإمبريالية الجديدة.

وقد أراد فرعون الطاغية من وراء تضليله ومغالطاته بهذا الطرح الخبيث، تخويف ضعفاء العقول وسفهاء الأحلام من ملئه والعامة من الأقباط والموالين له وللنظام، الذين ارتبطوا بالنظام ارتباط وجودٍ ومصير، وارتبطت مصالحهم بشخص الملك ونظامه، وتخويفهم من أبعاد الحركة الإصلاحية والثورية لبني إسرائيل بقيادة إمامهم وزعيمهم موسى الكليم عليه السلام وخطرها عليهم، و إيهامهم بأنها تمثل خطراً وجودياً عليهم، وليس مجرد خطر ديني أو ثقافي على هويتهم الدينية والثقافية، أو خطراً أمنياً أو سياسياً أو اقتصادياً محدوداً ثم يزول، وذلك من أجل استفزازهم وتحريضهم على مناهضة موسى الكليم عليه السلام، والتكذيب بنبوته ورسالته ودعوته، ومحاربة الحركة الإصلاحية والثورية الاستقلالية والحقوقية لبني إسرائيل بقيادته و إمامته، وليقفوا إلى صف فرعون الملك والنظام، ويقدموا لهما الدعم والمساندة المادية والمعنوية والبشرية، في حربهما ضد موسى الكليم عليه السلام ودعوته ورسالته وحركته الإصلاحية والثورية، والسعي للقضاء المبرم على دعوته و إبطال رسالته، تحت تأثير الخوف والتعصب الديني والمذهبي والعرقي، رغم أنه لا مصلحة للأقباط في الحقيقة والواقع وراء محاربة موسى الكليم عليه السلام ودعوته، ودعم فرعون الطاغية ونظامه الملكي الفاسد، بل هم يتضررون من وراء ذلك ضرراً بليغاً؛ لأن النظام الملكي الفرعوني نظام فاسد جائر، وفرعون طاغية وحاكم مستبد لا تهمه إلا نفسه ومصلحته، ويسخرهم من أجل ذلك، فهو في غاية الأنانية والاستئثار والقسوة، ولا يهتم بأحد من شعبه الأقباط وبني إسرائيل وغيرهم، إلا بمقدار ما يخدم نظامه وعرشه وسلطته ومصالحه الأنانية الخاصة، ولا يؤمن بدين ولا مذهب ولا مبادئ

ولا قيم ولا مصالح عامة دينية أو وطنية، ولا بأي شيء من هذا القبيل. وفي المقابل، موسى الكليم عليه السلام ولي عظيم من أولياء الله الصالحين، اصطفاه الله تبارك وتعالى للنبوة والرسالة وهداية الناس، وهو حريص تمام الحرص على صلاح الناس وخيرهم وكمالهم ورفاههم وسعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة، وأمين على كافة مصالحهم الخاصة والعامة وحركته الإصلاحية ليس فيها مصلحة دنيوية خاصة به، بل تقتضي منه بذل التضحية والفداء، ولا تخدم مصالح بني إسرائيل فقط، بل تخدم مصالح كل المواطنين والمقيمين في مصر، الأقباط وبني إسرائيل وغيرهم، بل مصلحة كل إنسان على وجه الأرض ويريد لهم تمام الخير والصلاح والرفاه والسعادة الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة.

وعليه: فقد رمى فرعون الطاغية موسى الكليم الصفي الصادق الأمين عليه السلام بداء نفسه، وما في نفسه من الخبث والأنانية وسوء الطبع والنية والاستغراق في عالم الدنيا والمادة، وفي مصالحه الدنيوية والأنانية الخاصة العاجلة، وسعيه من أجل تسخير الآخرين في مصالحه، وإرغامهم على اتباعه والخضوع المطلق لإرادته.

وهذا الاتهام الباطل من فرعون الطاغية لموسى الكليم الصفي القديس عليه السلام، هو الاتهام الباطل المجافي للحقيقة والواقع، الذي دأب كل الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين والانتهازيين الأنانيين على توجيه مثله لخصومهم السياسيين والمعارضين لهم، حين يستشعرون خطر حركة المعارضة

الإصلاحية والثورية الشريفة عليهم، فيعملون على إثارة الفتن الدينية والطائفية والعرقية والحزبية، والقلاقل الأمنية على الوجه الذي فيه خدمة مصالحهم، ويحقق أهدافم وغاياتهم على كافة الأصعدة، ويثيرون الخوف والفزع لدى أتباعهم وأنصارهم والموالين لهم من الإصلاح والتعبير ووصول المعارضة إلى سدة الحكم والسلطة في البلاد، لكي يقفوا إلى صفهم ويستميتوا في الدفاع عنهم، ومناهضة الحركة الإصلاحية والثورية ومحاربتها بكل وسيلة وما أوتوا من قوة وبأس.

الجدير بالذكر: أن الحكام المستبدين وإن خالفوا في ذلك الدين والمنطق والمبادئ والقيم والضمير، فإنهم يفعلون ذلك من أجل مصالحهم الدنيوية، والعتب الحقيقي ليس عليهم وإنما على الموالين لهم من عامة الناس، الذين يساندونهم في تعزيز سلطتهم وبسط نفوذهم وظلمهم إلى المعارضين والجور عليهم، ولا فائدة لهم ولا مصلحة من وراء ذلك، بل يلحقهم الضرر المادي والمعنوي كما يلحق المعارضين للنظام، لما يتصف به النظام من الاستبداد والفساد والظلم والجور وانتهاكات حقوق الإنسان ونحو ذلك، وقد يضحون بأنفسهم وفلذات أكبادهم في دفاعهم المستميت عن النظام، أي: باعوا دينهم وكرامتهم من أجل دنيا غيرهم، وليس ذلك إلا بسبب الجهل والحمق والتعصب وضعف المنطق وانسياقهم وراء الرواد الخونة لأمانة الكلمة والقادة الأنانيين.

وقد لجأ فرعون الطاغية وملؤه الفاسدون إلى الكذب والتضليل رغم أن موسى الكليم عليه السلام قد حدد بوضوح تام أهدافه السياسية، وهي:

١. إصلاح النظام وإعادة بنائه على أساس عقائدي وقيمي سليم وتشريعي عادل، وهو التوحيد الواقعي الفعلي القائم على الإيمان بربوبية رب العالمين والتسليم لأمره ونهيه، وهو التوحيد المدعوم بالدليل العقلي المنطقي الصحيح، ويميل إليه الإنسان بحسب طبعه السليم وفطرته، بدل البناء القائم على أساس ألوهية فرعون الكاذبة وربوبيته الباطلة وفرض إرادته التشريعية القانونية على الناس بدون وجه حق، وعلى خلاف العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم وكرامة الإنسان، ولحقيقة كون الإنسان مخلوقاً لله سبحانه وتعالى، وهو ربه الوحيد وإليه معاده وعليه حسابه، وجزاؤه على أعماله في يوم القيامة، وعلى خلاف صلاحه وخيره وكماله ورفاهه وكرامته وسعادته في الدارين الدنيا والآخرة.

٢. تحرير بني إسرائيل من العبودية والاسترقاق، ورفع المظلومية والحرمان والتمييز عنهم، ومساواتهم مع الأقباط في الحقوق والواجبات على أساس المواطنة، وهو حق طبيعي وسياسي مشروع لهم، وإعطائهم حقهم الطبيعي في تقرير المصير، وحقهم في الإقامة والهجرة، بأن يقرروا لأنفسهم ما يشاؤون، البقاء في مصر أو الهجرة منها والسفر معه إلى الأرض المقدسة فلسطين التي أمرهم الله تعالى بالعودة إليها والإقامة فيها واتخاذها موطناً لهم؛ لأنها أرض مقدسة، فهي مهبط الوحي والتنزيل؛ ولأنها موطنهم الذي ولد فيها جدهم الذي ينتسبون إليه إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وعاش فيها مع أبيه إسحاق عليه السلام قبل هجرته منها

إلى مصر في عهد حكومة ابنه يوسف الصديقﷺ في مصر في القرن الثامن (١٨) قبل الميلاد، أي قبل أكثر من أربعمائة سنة، والمطالبة بهذا الحق لبني إسرائيل؛ لأنهم كانوا ممنوعين من ذلك من قبل النظام الفرعوني، ليبقوا دائماً وأبداً خاضعين له ومسخرين في الأعمال الشاقة في البلاد التي لا يريد الأقباط وهم قوم فرعون العمل فيها، مثل: البناء والزراعة ونقل الصخور والمياه وأعمال التنظيف، أي: لأهداف سياسية واقتصادية واجتماعية طبقية.

وعليه، فإن النظام الملكي الفرعوني نظام فاسد غير واقعي، ومخالف للعقل والمنطق والفطرة والطبع السليم ولمصلحة الإنسان ورفاهه وكرامته، وفيه هلاك الإنسان وشقاؤه الحقيقي الكامل في الدارين الدنيا والآخرة، وأن دعوة موسى الكليمﷺ إلى التوحيد الواقعي الصحيح، وحركته الإصلاحية المطالبة بإعادة بناء النظام في الدولة على أساس التوحيد الواقعي والتشريع الإلهي والقيم الإنسانية السامية، وتحرير بني إسرائيل من العبودية والاسترقاق و إعطائهم كافة حقوقهم الطبيعية والمكتسبة المشروعة، هما: دعوة وحركة منطقية مشروعة وواجبة وضرورية جداً، وتتوقف عليها المصالح الجوهرية والحيوية لأبناء الشعب جميعاً، الأقباط وبني إسرائيل وغيرهم من الأقليات، وفيهما صلاح أبناء الشعب وخيرهم وكمالهم ورفاههم وكرامتهم وسعادتهم الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، وتدخلان ضمن الحقوق الطبيعية للإنسان بما هو إنسان، ويطالب بهما بحسب عقله وفطرته وطبعه السليم، أي ضمن حقه في حرية العقيدة والضمير والتعبير عن الرأي وتقرير المصير، وهما تستندان

إلى الدليل الصحيح والبرهان النير الساطع القاطع، وهما دعوة وحركة سلمية تقومان على الحوار والجدال بالتي هي أحسن، ولا تلجئان إلى العنف والإرهاب، وقد أوصى الله تبارك وتعالى موسى الكليم وهارون عليهما السلام باللين مع فرعون، وإقراره على ملكه إن هو آمن وصدّق بنبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام ورسالتهما إليه من عند رب العالمين، قول الله تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۝٤٢ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝٤٣ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[1] فليس بين أهداف موسى الكليم عليه السلام في الأصل الاستيلاء على السلطة والثروة والمقدرات، فضلاً عن طرد الأقباط من وطنهم الذي هو ظلم ينزه موسى الكليم عليه السلام وحركته الإصلاحية عنه، وهذا معروف لدى أصحاب العقل والمنطق المنصفين.

إلا أن فرعون سخر منهما ولم يصدق بنبوتهما ورسالتهما، ووصفهما بالكذب، ورماهما بالسحر؛ لأنه كسائر الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة، لا يؤمنون بعقل أو منطق ولا بحق وحقوق، ومنفصلين عن الواقع كل الانفصال، ويقيسون حقيقة المصلحين بحقيقة أنفسهم الخبيثة، ودوافع المصلحين النبيلة في الإصلاح والثورة بدوافعهم الأنانية الخسيسة في السلطة، وأفكار المصلحين النيرة بأفكارهم المظلمة المنحرفة ونحو ذلك، إذ أنهم متعلقون تمام التعلق بعالم الدنيا والمادة، ومستغرقون كل الاستغراق في الأهواء الشيطانية والشهوات الحيوانية والمصالح الدنيوية الأنانية الخاصة، ولا يرون إلا أنفسهم ومصالحهم، ولا يفكرون إلا في السلطة والثروة والامتيازات

---

١. طه: ٤٢-٤٤

والصلاحيات التي يمنحها لهم النظام الفاسد، ولا يقيمون وزناً للدين والمذهب والمبادئ والقيم والأخلاق والعقل والمنطق والحق والحقوق ولكرامة الإنسان والمصالح العامة الإنسانية والدينية والقومية والوطنية أو نحو ذلك، بل يتخذونها عناوين ووسائل يتاجرون بها وعلل لمهاجمة خصومهم والنيل منهم وتشويه سمعتهم وقلب الطاولة عليهم على خلاف الصدق والمصداقية وبغير وجه حق، حتى لوكان خصومهم ومعارضوهم من خيرة الناس وأشرفهم وأرفعهم مكاناً ومنزلة ومن القديسين والصديقين والصالحين، مثل موسى الكليم، وهارون، والحسين الشهيد عليهم السلام وأمثالهم، وتكون خيارات الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين الظلمة مفتوحة في مواجهة المصلحين والثوار الصالحين والشرفاء النبلاء المضحين، والسعي للقضاء على حركتهم، وتشمل الخيارات، التضييق الأمني والمعيشي والتعبير عن الرأي وتشويه السمعة والسجن والتعذيب والنفي والتشريد والقتل ونحو ذلك.

وبعد أن حدد فرعون ماهية ما جاء به موسى الكليم عليه السلام وأهدافه السياسية من وراء ذلك، استشار أعوانه حول الخيارات المناسبة؛ للتعامل معه بهدف القضاء على دعوته و إخماد فتنته ونار ثورته، أمن الواجب أن يقتل، أو يصلب، أو يسجن ويعذب، أو يضيق عليه في حياته ومعيشته، أو تقيد حريته في الحركة والتعبير، أو ينفى من البلاد ويشرد في أقطار الأرض، أو يعارض بسحر مثل سحره، أو أي شيء آخر؟ فقال: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[1] أي: بعد أن شخصتم ما جاء به موسى بأنه مجرد سحر وليس فيه دليل على

١. الأعراف: ١١٠ - الشعراء: ٣٥

صدق النبوة والرسالة من رب العالمين كما يزعم، وأن له أهدافاً سياسيةً انقلابيةً خبيثةً، وخطراً وجودياً على النظام والدولة ومصالح الشعب ومصالحكم الخاصة، وأهداف اقتصادية واستعمارية، فماذا تأمرون به من الإجراءات للتصرف معه لإبطال كيده ودفع خطره الوجودي وإخماد نار فتنته التي أوقدها بيننا؟ فإن ما جاء به وادعاه من الخطورة بمكان كبير، فإن لم يقابل في الحال أو بأسرع ما يمكن بما يبطله ويدفع خطره ويمنع ضرره، فإنه سيدخل إلى كل بيت وينتشر بين الناس كانتشار النار في الهشيم، ويتمكن من عقول الناس وأحلامهم وعندئذ لن ينفع حل وستقع المصيبة على رؤوس الجميع!

وفي عبارة ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ إشارة إلى ضرورة توحيد الكلمة والصفوف والاتحاد في الموقف لمواجهة الخطر الوجودي الداهم وشدته، ولوحدة المصير المشترك والمصالح بينهم.

الجدير بالذكر: أن فرعون الطاغية الذي كان يزعم أنه الرب الأعلى لجميع أهل مملكته، ويجب عليهم جميعاً أن يخضعوا لإرادته المطلقة، وينفذوا جميع أقواله في الحال وبدون نقاش أو تراخي أو تردد؛ لأنها عين الحقيقة والحكمة والصواب، نجده في هذه الساعة الحرجة التي يواجه فيها الخطر الوجودي والمصير الكبير المحدق به ويهدد ملكه ونظامه، يظهر على حقيقته ويكشف عن ضعفه وحاجته الوجودية إلى معاونيه ومستشاريه للإشارة عليه بالرأي والوقوف إلى صفه في مواجهه الخطر، مما يدل على كذب ادعائه للألوهية والربوبية، وعلى الطبيعة الخسيسة

للفراعنة الطغاة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة في العالم، فهم جميعاً يستعلون حينما يتمكنون ويشعرون بالقوة، ويتمسكنون حينما يشعرون بالضعف والخطر، ويعطون الوعود والعهود والمواثيق الغليظة على أنفسهم، حتى إذا تمكنوا من جديد وشعروا بالقوة، نقضوا جميع وعودهم وعهودهم وما أعطوه من المواثيق والأقسام المغلظة، وعادوا إلى ما كانوا عليه من الاستعلاء والاستبداد والظلم والطغيان والبطش والقسوة والفساد، وكأن شيئاً لم يكن، فلا يثق بوعودهم إلا جاهل أحمق سفيه، وفي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «**صاحب السلطان كراكب الأسد، يغبط بموقعه وهو أعلم بموضعه**»[1] أي: يغبطه الناس، ويتمنون منزلته وما يتمتع به من امتيازات وصلاحيات، ولكنه أعلم بموضعه من الخطر، فهو يشعر دائماً بالخوف ويخشى من السلطان أن يعزله ويغتاله، فهو وإن خاف على مركزه، فهو في خوف دائم على حياته ومستقبله.

فأجاب الملأ فرعون بما أجمعوا عليه وانعقد عليه رأيهم، وكان جواباً مملوءاً بالتملق والتزلف والخضوع المطلق لإرادته الطاغية، فقالوا: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝١١١ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[2] أي: أنهم رأوا أن يأخذوا بالخيار السياسي السلمي، بدلاً من الخيار الأمني بقتل موسى الكليم عليه السلام وتصفيته جسدياً، أو بسجنه وتعذيبه، أو بنفيه وتشريده، أو نحو ذلك من الخيارات الأمنية القمعية، وبدلاً من الخيار العسكري بمحاربة

---

١. نهج البلاغة، قصار الحكم، حكمة ٢٦٣

٢. الأعراف: ١١١-١١٢ - الشعراء: ٣٦-٣٧

بني إسرائيل الذين هم قوم موسى الكليم ﵇ وحاضنته الشعبية، وأخذهم لهذا الخيار ليس رحمةً، ولا تورعاً عن القمع والعنف والإرهاب والقسوة، فهذه الأخلاق السيئة المذمومة تجري في نفوسهم مجرى الدم في العروق، و إنما أرادوا لجهلهم وقصر نظرهم وبعدهم عن المنطق وانفصالهم عن الواقع، أن يفضحوا بحسب وهمهم سر موسى الكليم ﵇ ويكشفوا حقيقة أمره عند جميع الناس، لا سيما عند قومه بني إسرائيل؛ لكي لا ينخدعوا به ويصدقوا بنبوته ورسالته، ويستجيبوا إلى حركته التحررية، فيخرجوا على النظام الملكي الفرعوني القائم ويثوروا عليه، أي: أنهم كذبوا وصدقوا أنفسهم، بأن موسى الكليم ﵇ مجرد ساحر عليم بالسحر، وأن ما جاء به من المعجزات العصا واليد هما من السحر، وليس فيهما الدليل على صدق نبوته ورسالته، ثم أرادوا أن يسوّقوا هذه الكذبة على الناس عن طريق الخداع والتضليل، وكأن الكذب والخداع يغيران الحقائق، وأملهم أن لا يميز الناس بين السحر والمعجزة لما بينهما من التشابه الظاهري، فكلاهما عمل خارق للعادة، وبهذا ينكشف لنا دور الغرور بالسلطة والثروة والقوة والاستغراق في عالم الدنيا والمادة والمصالح في حجب الإنسان عن الحقائق و إضعاف منطقه وعقله وفصله عن عالم الواقع.

وعلى كل حال، يعتبر الخيار السياسي السلمي المبارزة أو مقابلة ما جاء به موسى الكليم ﵇ على أساس أنه سحر يقابل بسحر مثله - و إن كان في الحقيقة والمنطق مخالف للحقيقة والواقع - فإنه الخيار الأفضل للنظام؛ لأنه أقل كلفة للنظام من الناحية المادية والمعنوية والبشرية، ولأن الخيار الأمني والعسكري يخلق التعاطف معه ومع قومه، بسبب ما يتجسد فيهما

من المظلومية والقسوة والاستضعاف، والناس دائماً يتعاطفون بحسب فطرتهم وطبعهم مع المظلوم، إلا الذين طبع الله ﷻ على قلوبهم المظلمة بالتعصب والحقد، لا سيما وأن دعوة موسى الكليم عليه السلام وحركته التحررية، قد امتزجت فيهما القداسة الدينية مع العاطفة القومية المرتبطة بالتحرر من العبودية والتخلص من المظلومية والحرمان، ونيل الحرية والاستقلال وتقرير المصير، مما أكسبه مسحة من القداسة الروحية والرمزية القومية والجاذبية النضالية والجهادية، ولأن خيار المقابلة بالسحر يسقط في حال نجاحه - في الواقع أو بالتضليل لعدم التمييز بين السحر والمعجزة - الاعتبار والقدسية عن موسى الكليم عليه السلام بشكل تام، ويحطم قواه المادية والمعنوية، ويهدم دعوته من الأساس بحسب ما يتوهمون، ويخلق الأرضية والأجواء الفكرية والنفسية والسياسية؛ للانتقام منه بدون أن يحصل التعاطف الشعبي معه، وقد ترتفع الأصوات المطالبة بالانتقام منه، لما ثبت من كذبه وخداعه وتضليله وخطره على النظام والدولة والدين والثقافة والتراث ومصالح الشعب، وهو لا يمتنع في حال فشله من اللجوء إلى الخيارات الأخرى الأمنية والعسكرية اذا اقتضت الحاجة، بل يمنح فرصة كسب الوقت للتفكير الملي ودراسة الخيارات بشكل أفضل، فلا حاجة إذن إلى الاستعجال، ويجب حساب الخطوات بدقة كبيرة، وذلك لخطورة الموقف على مستقبل النظام والدولة والأشخاص والمصالح، وعليه فهم يريدون افتعال ذريعة سياسية مقنعة لأي موقف أمني سيتخذونه ضد موسى وهارون عليهما السلام والحاضنة الشعبية لهما ولدعوتهما وحركتهما التحررية، وتمنع إثارة غضب الرأي العام الإسرائيلي

أو القطبي، والتعاطف معهما كما هي عادة الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين مع خصومهم ومعارضيهم، حينما يكونون في سعة من أمرهم، ويعتبرون ذلك شطارةً ودهاءً وحسن سياسة وتدبير!! وعليه: فكروا في بداية الأمر في إجهاض دعوته بأعمال خارقة للعادة (السحر) وإسقاط اعتباره وقدسيته، ثم معاقبته والانتقام منه بقتله وتصفيته جسدياً أو غير ذلك من الخيارات الأمنية، مثل: السجن والتعذيب، أو النفي والتشريد ونحو ذلك.

ويتألف خيار فرعون وملئه من نقطتين رئيستين، وهما:

أ. تأخير الخيارين الأمني والعسكري. أي: عدم التعرض لموسى الكليم وأخيه هارون عليه السلام بالقتل، أو السجن، أو النفي، وعدم اللجوء إلى الحرب مع بني إسرائيل في أول الأمر، وذلك بالنظر إلى ما تركته المعجزتين من رغبة لدى مجموعة في دعوته، ولكي لا يتهم النظام والملك بالظلم والقسوة، وتستثار عواطف بني إسرائيل: العرقية والدينية كما هي العادة عند الأقوام والجماعات في مثل هذه الحالات، وكان بنو إسرائيل يتعبدون على الأرجح على دين ابراهيم الخليل عليه السلام، فيزيد تعاطفهم الشعبي والنخبوي مع موسى الكليم عليه السلام وتزيد نصرتهم له ولدينه ودعوته، ويزيد غضبهم على النظام الفرعوني والملك، خصوصاً وقد امتزجت فيه فكرتي النبوة والرسالة مع الدفاع عن المظلومين والمحرومين وتحريرهم من العبودية والاسترقاق، ثم يضاف إلى ذلك المظلومية التي تقع عليه

والشهادة، فيزيد الطين بلة وينقلب الأمر إلى عكس ما يراد منه، وربما يحصل التأثير في الأقباط الموالين للنظام والملك، فتظهر جماعات منهم تتعاطف معه وتنصره وتؤيده، بدافع من فطرتهم وطبعهم الإنساني، بسبب ما قد يعتقدون أنه وقع عليه من الظلم والجور والقسوة، وعدم استفراغ الوسع في إقامة الحجة عليه وإدانته، مما يشكل خطراً شعبياً وتهديداً أمنياً وسياسياً واجتماعياً حقيقياً على النظام والدولة والحكومة والملك.

ب. إرسال أفرادٍ من الجيش، ضباط وجنود إلى كافة المناطق المدن والقرى في مصر؛ من أجل التعرف على كل ساحر عليم بأسرار ودقائق وخبايا ودفائن السحر، وحاذق في صناعته، وماهر في فنونه، وحشدهم جميعاً في العاصمة السياسية في البلاد ومركز الحكم فيها حيث يقيم الملك (فرعون) وجهازه المركزي اجتماعاً، وذلك لمبارزة موسى الكليم عليه السلام ومقابلة سحره بسحرٍ مثله كما يزعمون، في الموعد المحدد للمبارزة وهو يوم الزينة، أي: يوم العيد الكبير في مصر.

وكانت مصر تموج بالسحرة في عهد الفراعنة، ويمثل السحرة طبقة مهمة من طبقات المجتمع المصري في النظام الفرعوني القائم على التقسيم الطبقي الوراثي، ويتمتع السحرة بتعليم أفضل من سائر الطبقات، ولا يضاهيهم في ذلك ويبادلهم فيه إلا الكهنة وسدنة الآلهة، وكان الكهنة وسدنة الآلهة يمارسون السحر أيضاً، وكان فرعون نفسه يمارس السحر، وبه

توصل إلى الملك والاستيلاء على السلطة والثروة، وكان يوظف السحرة لأهداف عديدة دينية وسياسية واجتماعية تخدم النظام وسلطة الملك ونفوذه، مما يكشف لنا عن أهمية معجزتي العصا واليد بشكل خاص، وقيمتهما العلمية والروحية وتأثيرهما الكبير في إحداث التغيير في ذلك الوقت والنظام في مصر، على قاعدة أن معجزة كل نبي تأتي من الفن الأكثر شهرة وأهميه في عهده، فالعصا واليد تشبهان من حيث الشكل أكثر الفنون والعلوم قيمة وأهمية في المجتمع المصري والنظام الفرعوني في ذلك الوقت، وهي السحر والطب والكيمياء، ويتفوقان عليها في الحقيقة والمضمون والظاهر؛ ليكون بذلك التحدي أقوى والحجة أبلغ وأتم.

وكان يقين فرعون وملئه بأن السحرة سوف يتغلبون حتماً بسحرهم على سحر موسى الكليم عليه السلام؛ لأن ما لديه بحسب زعمهم مجرد سحر لا أكثر، وهو واحد في مقابل جيش من السحرة المهرة الحاذقين في فنون السحر والمدربين عليه العارفين بدقائق أسراره وخفاياه، وقيل: أن عدد السحرة الذين حشدهم فرعون الطاغية لمبارزة موسى الكليم عليه السلام قد بلغ عشرة آلاف ساحر، وقيل: غير ذلك، فمهما بلغت مهارة موسى الكليم عليه السلام في السحر، فلن يستطيع أن يهزم ويتغلب على هذا الجيش العظيم من السحرة المهرة، أو على الأقل سوف يستطيع السحرة بجمعهم العظيم ومهارتهم، خداع الناس وتضليلهم، حيث يكون الكم الهائل في مقابل النوع، فلا يستطيع الناس معرفة الحقيقة؛ لأن التمييز بين السحر والمعجزة، يحتاج إلى معرفة لا يتمتع بها العامة من الناس، الذين

تخدعهم المظاهر ويميلون إليها أكثر من الجوهر والحقائق، وهذه من القواعد المهمة التي يعتمد عليها الفراعنة والحكام المستبدون الظلمة في خداع عامة الناس وتضليلهم، وليس لموسى الكليم عليه السلام الذي يعتمد على قاعدة النوع مقابل الكم، أن يحتج ويعترض على أنه واحد والسحرة كثر؛ لأنه يدّعي بأن ما لديه معجزة تقف وراءها قوة مطلقة فوق الطبيعة وفوق طاقة البشر وليس سحراً، والمعجزة لا يمكن أن تهزم بالسحر مهما كان عظيماً وهائلاً وكبيراً، وعليه: فإن الكثرة في مقابل واحد، لا تخل بقواعد المواجهة، ثم إذا تمكنوا منه وغلبوه من خلال المواجهة السلمية الحضارية التي تتسم بالواقعية والمنطقية والإنصاف، وسقطت حجته، وسقط عنه القناع والزيف، وسقط اعتباره، وانمحت هالة القدسية التي تحيطه، أو استطاع السحرة خداع الناس وتضليلهم، كان قتله والتخلص منه مبرراً ومقبولاً في الرأي العام، بل قد ترتفع الأصوات مطالبةً بالانتقام منه؛ لما ثبت من كذبه وخداعه وتضليله وخطره على النظام والدولة ومصالح الشعب، ولن تكون للانتقام منه عواقب تخشى، كما لو قتل أو سجن أو نفي قبل فضحه وإسقاط اعتباره.

وعلى فرض أن موسى الكليم عليه السلام استطاع التغلب على السحرة وهزيمتهم، وهو بعيد جداً في تقديرهم، فإن الفرصة لا تزال باقية للخيارات الأخرى الأمنية والعسكرية، بهدف القضاء عليه وتصفيته، والقضاء على دعوته، وإخماد نار فتنته، ولجم زمام نهضة بني إسرائيل الإصلاحية وثورتهم التحريرية ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1] إذ أصبح الجيش العظيم

١. آل عمران: ٥٤

من السحرة المهرة عامل حسمٍ نهائي في المعركة، فنتج عنها إيمان السحرة جميعاً وتسليمهم بنبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام ورسالتهما من عند رب العالمين وعدالة قضيتهما ومطالبهما الحقوقية والسياسية من النظام وفساد النظام وعدم شرعيته ومعارضتهم له والوقوف في وجهه إلى درجة الاستشهاد!!

ولاشك فإن التسلسل الذي أخذ به النظام الفرعوني في ترتيب خيارات المواجهة مع موسى الكليم عليه السلام مع أنها لم تغنِ له شيئاً، إلا إنها كانت الأفضل لصالح النظام الملكي الفرعوني مع سياسة المواجهة التي قررها، ويدل التسلسل في الخيارات على ذكاء فرعون ودهائه وخبثه ووجود سياسة منهجية مدروسة وواضحة لديه، ولم يكن متخبطاً رغم عظيم المفاجأة وخطرها الوجودي العظيم على نظامه ودولته وملكه، أي: كان متماسكاً رغم كل ما أصابه من القلق، وأدار المعركة باقتدار، ولم يتخل عن غروره وكبريائه واستعلائه حتى في أشد اللحظات حلاكة.

وهنا ينبغي التنبيه إلى ثلاثة أمور رئيسية، وهي:

١. ما دأب عليه فرعون وملؤه من توظيف إمكانيات الدولة وقدراتها المادية والبشرية والمعنوية، واستخدام السلطة ومقدرات الدولة ووسائل إعلامها وغيرها، لخدمة مشاريعهم ومصالحهم الخاصة وتعزيز سلطتهم الشخصية والحفاظ على مصالحهم الخاصة وامتيازاتهم من الدولة، ومواجهة قوى المعارضة للقضاء عليها وتصفية قادتها ومشروعها في الإصلاح والثورة بكل وسيلة وما أوتوا

من قوة، وهذا السلوك الأناني المشين القديم الجديد، هو الأسلوب الذي تلجأ إليه كافة الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، وكأن النظام والدولة وإمكانياتها ومقدراتها المادية والبشرية والمعنوية ملك خاص للحاكم المستبد، وليس للنظام والحكومة أية علاقة بإرادة الشعب ومصالحه، وأن أبناء الشعب عبيد يجب أن يسبحوا بحمد الحاكم المستبد ويصفقوا له ويؤدوا ما عليهم من الواجبات بحق الحاكم وليس لهم عليه حقوق، وأن ما يعطيه لهم هي مكرمات ملكية يجب أن يشكر عليها ويدينوا له بالولاء بسببها!!

٢. أن فرعون الطاغية الذي كان يزعم أنه إله والرب الأعلى لجميع أهل مملكته، ويجب عليهم الخضوع المطلق لإرادته وينفذوا أوامره ونواهيه بدون تخلف أو استرخاء أو نقاش مهما كانت قاسية وصعبة، ومهما كان في ظاهرها من مشقة وضرر؛ لأنها عين الحقيقة والحكمة والصواب، ويجب عليهم أن يعملوا باسمه، وليس لهم حق معارضته ومخالفته، فإذا به يخاطب معاونيه ومستشاريه، بقوله ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾[1]؟ ما يدل على بشريته في الحقيقة والواقع، ونفي صفتي الألوهية والربوبية عنه، كما يدل على الضعف الملازم لهؤلاء الفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين وخسة طبعهم، فهم طغاة متجبرون، يبطشون ويقتلون ويهاجمون المستضعفين بكل ضراوة كالسباع التي لا تبقي ولا تذر وبلا رحمة، ولا يتعففون عن

١. الأعراف: ١١٠ - الشعراء: ٣٥

ارتكاب أية جريمة أو خيانة بحق أي إنسان لا سيما المعارضين لهم، ما داموا يشعرون بالقوة والتمكن، ولكن بمجرد أن يشعروا بالخوف ويقترب منهم الخطر ويحدق بهم ويهدد وجودهم ونظامهم وسلطتهم ومصالحهم، يظهرون على حقيقتهم، ويهربون إلى جحورهم كالفئران فزعين مرعوبين يرتجفون من شدة الخوف والفزع، ويتمسكنون ويظهرون الطيبة والميل إلى الديمقراطية والشورى والحرص على مشاركة الناس همومهم وآمالهم كذباً ويزايدون في ذلك على الشرفاء النبلاء المضحين، ويعطون الوعود والعهود والمواثيق والأقسام الغليظة على أنفسهم، حتى إذا تمكنوا من جديد وشعروا بالقوة، نقضوا كل ما أعطوه من وعود وعهود ومواثيق، وعادوا إلى ما كانوا عليه من قبل من الاستبداد والظلم والجور والبطش والتنكيل بمعارضيهم بدون رحمة ولا شفقة، فلا تأخذهم في سلطتهم ومصلحتهم لومة لائم، وعليه: لا يثق في الحكام المستبدين الظلمة الخبثاء إلا أحمق جاهل أو مجنون، ولا يمكن لعاقل أن يقع في هذه الخطيئة الجهلاء، وفي الحديث النبوي الشريف: (لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين)[1] وكفى بذلك حكمة وموعظة.

٣. الحالة الخلقية السيئة المذمومة التي يكون عليها أتباع وأنصار وأعوان وبطانة الفراعنة والحكام المستبدين الظلمة، وما يظهرونه من التملق والتزلف والتضامن المطلق معه، فالكل يسبح بحمد

---

١. بحار الأنوار، جزء ١٩، صفحة ٣٤٦

الفرعون والحاكم المستبد ويقدس له، ويفكر ويعمل من أجل رضاه وتحقيق رغباته ونزواته ويزين له كل ما يريد، ولا يفكرون بحرية واستقلال أبداً، ولا يتصرفون بنبل وشرف، فهم مجرد أرقام تضاف إلى بعضها وصور توضع للتزيين والزخرفة والتسلية واللهو واللعب والتباهي والتفاخر والاستعراض كما يفعل تماماً مع المقتنيات، وعقولهم وأفكارهم ووجدانهم وضمائرهم مختصرة في عقل الفرعون والحاكم المستبد وفكره ووجدانه وضميره، وليس لهم فيها استقلال أو تنوع أو إضافة حقيقية، فلا يمكن أن يهتدوا إلى رشد أو خير أو صلاح، بل يساندون ويدعمون ويصفقون لما يريده الفرعون والحاكم المستبد ويرغب فيه ويحقق رضاه، فهو ولي نعمتهم وبطرهم، ولأن مصالحهم تلتقي مع مصالحه، ومصيرهم مع مصيره. وقيل: أن عبارة ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[1] هي خطابٌ وجهَه الملأ إلى فرعون حين استشارهم، يعني أنهم وافقوه الرأي فيما وصف به موسى الكليم عليه السلام من أوصاف وحدده من أهداف سياسية واقتصادية واستعمارية، تقف وراء دعوته، ثم ردوا عليه بقولهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ حضرتكم وجلالتكم، فالرأي رأيكم والقرار قراركم، ونحن على نهجكم سائرون، ولأمركم متبعون، وصيغة الجمع في لفظ (تأمرون) لرعاية التعظيم منهم إلى فرعون الطاغية، وهذه أحد الثمار الخبيثة للحكم الاستبدادي المطلق، ويبقون على هذه الحالة المشينة المذمومة ما داموا يشعرون بأنها السبيل لتأمين مصالحهم الأنانية الخاصة وكسب

١. الأعراف: ١١٠ - الشعراء: ٣٥

المعركة، فهم لا يفكرون إلا في أنفسهم ومصالحهم، ومحجوبون عن رؤية الحقيقة والفضيلة، فهم عملياً لا يؤمنون بدين أو مذهب أو مبادئ أو قيم خارج ذواتهم ومصالحهم، ولا يقيمون وزناً لغيرهم مهما كان عظيماً ومقدساً في نفسه ولا للمصالح العامة الإنسانية والدينية والقومية والوطنية، ولكن متى شعروا بخسارتهم للموقف أو للمعركة وأن الخطر يقترب منهم، انقلبوا على أولياء نعمهم وعلى خلفائهم وأسلموهم إلى قدرهم ومصيرهم وولوا عنهم مدبرين وكأن لا معرفة سابقة بينهم ولا رابطة، قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾[1] أي: تعجب من حال المنافقين، وهم عبدالله بن أبيّ وأصحابه الذين معه، إذ يقولون مغررين لإخوانهم في الكفر وعداوة الرسول الأعظم الأكرم ﷺ والمؤمنين، وهم حلفاء اليهود (بني النضير)، نقسم لكم أننا معكم ولا نسلمكم ولا نفارقكم، ولئن أخرجكم المسلمون وأجلوكم من دياركم، لنخرجن معكم وننزح من ديارنا في صحبتكم ملازمين لكم ولا نفارقكم ولا نطيع في شأنكم ومن أجلكم أحداً، ولا نصغي إليه ولا نسمع منه إذا أشار علينا أو أمرنا أو نصحنا بالتخلي عنكم ومفارقتكم وخذلانكم، أو يعذبنا أو يخوفنا، لا محمد ﷺ ولا غيره وإن طال الزمان. وإن

---

١. الحشر: ١١-١٢

قاتلكم المسلمون لنقاتل معكم وننصركم عليهم.

والله يشهد أن المنافقين بما هم منافقين انتهازيون نفعيون كاذبون فيما يقولونه، ولا يفون بما أعطوه لحلفائهم على أنفسهم من وعود بالخروج معهم والنصرة لهم. ثم أقسم رب العزة والجلال: لئن أُخرج بنو النضير من ديارهم لا يخرج معهم حلفاؤهم المنافقون كما وعدوهم، بل يقيمون في بيوتهم وديارهم ويحافظون على أملاكهم فيها، ولئن وقعت الحرب والقتال بين اليهود (بني النضير) وبين المسلمين، فإن حلفاء اليهود المنافقين لا ينصرونهم، ولئن نصروهم فرضاً وتقديراً في أول الأمر، فإنهم لا يثبتون في نصرتهم وسيولون الأدبار فراراً حين يطول أمد الحرب، أو حين تشتد المعركة ويظهر الانكسار على حلفائهم، فهذه هي الطبيعة الخبيثة الثابتة في المنافقين الانتهازيين الأنانيين الذين يركضون وراء مصالحهم الخاصة ولا يفكرون إلا في أنفسهم، الذين تخالف ألسنتهم قلوبهم، وتخالف أفعالهم أقوالهم، وتخالف علانيتهم سرهم، والكذب صفتهم، والغدر ملازم لهم لا يفارقهم، والجبن والخوف يصحبهم أينما كانوا، ومن يعتمد عليهم ويثق بهم، فإنه يجني الخيبة ولا ينتصر، وينتهي أمره إلى الخسران والهلاك!!

الفصل الثاني: المبارزة التاريخية الفاصلة و إيمان السحرة

قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ
﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ
الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ
﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا
آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ
إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾
وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[1]

---

١. الأعراف: ١١٣-١٢٦

طلب السحرة الأجر على عملهم من فرعون

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

انتشر الضباط والجنود التابعين للنظام الذين بعثهم فرعون الطاغية المتجبر في جميع المناطق والأنحاء في مصر، فساقوا السحرة المهرة الحاذقين والمدربين على فنون السحر والعارفين بدقائق أسراره وخفاياه وخباياه إلى العاصمة السياسية حيث يقيم الملك ومركز الحكم، بهدف مبارزة موسى الكليم عليه السلام بالسحر والتغلب عليه وفضحه وكشف سره وإبطال دعوته ورسالته.

فلما حضر السحرة إلى العاصمة، ومثلوا بين يدي فرعون الذي هو في عرفهم ودينهم الرسمي الرب الأعلى لجميع أهل مملكته، وعقدوا معه بحضور معاونيه اجتماع عمل، وكان عدد السحرة يقارب بحسب بعض الروايات الخمسة عشر (١٥) ألف، وقيل: غير ذلك، وكانوا عارفين تمام المعرفة بالمهمة الخطيرة المكلفين بها، وعارفين بأهميتها البالغة وأهمية النتائج التاريخية والمصيرية المترتبة عليها، على صعيد النظام والدولة والمجتمع المصري والملك، ومتهيئين لها ومستعدين كامل الاستعداد. فتوجهوا إلى فرعون قائلين: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾[1] أي: هل لنا مكافأة وأجراً عظيماً على عملنا؟ أو ينبغي أن يكون لنا أجراً عظيماً خاصاً، أو جدير بك أن تجعل لنا أجراً عظيماً على عملنا إن كنا نحن

---

١. الأعراف: ١١٣

الغالبين والمنتصرين في المبارزة على موسى.

لقد كان السحرة يدركون خطورة المهمة أو المبارزة التاريخية الفاصلة التي سيدخلونها مع موسى الكليم عليه السلام، ويدركون أبعادها الفكرية والنفسية والعملية الواسعة، ونتائجها العظيمة التاريخية الفاصلة وانعكاساتها على النظام والدولة والمجتمع والملك شخصياً، ويدركون حاجة فرعون الشخصية الماسة إليهم وإلى عملهم في هذه الظروف الحساسة والرياح العاتية والمأزق الخطير الذي يمر فيه مع نظامه ودولته وجهازه الحاكم برمته، وبالتالي استعداده الكبير والتام للبذل من أجل إنقاذ نفسه وملكه ودولته ونظامه، فأراد السحرة أن يستفيدوا من الفرصة غاية الاستفادة، وأن يضمنوا مقدماً لأنفسهم المكافأة الكبيرة المستحقة لهم بعملهم الثمين والمتميز في هذه الظروف المتميزة والفرصة الذهبية من النظام والملك شخصياً.

ويعتبر التنكير في لفظ «أجراً» دليل على التعظيم وإبراز الأهمية، لما في التنكير من إخفاء الماهية والنوعية، أي: أن السحرة طالبوا فرعون أن يعطيهم أجراً خاصاً عظيماً وعوضاً مهماً مقابل عملهم إذا كانوا هم الغالبين والمنتصرين في المبارزة على موسى الكليم عليه السلام، وذلك بعد الفراغ من أصل استحقاقهم للأجر والمثوبة، فمن المفروغ منه استحقاقهم للأجر، ولكن المطالب به هو الأجر الخاص العظيم والعوض المهم نظراً للأهمية الاستثنائية لعملهم في الظرف الاستثنائي. وهذا هو دأب الانتهازيين والنفعيين الأنانيين والسماسرة الخسيسين الذين يظهرون الولاء

للأنظمة الدكتاتورية الفاسدة والحكومات المستبدة الجائرة، وينافقون من أجل مصالحهم الدنيوية الأنانية الخاصة، على حساب الدين والمبادئ والقيم والمنطق والحقائق الدامغة والمصالح العامة، ويساومونهم على الأثمان التي يقبضونها مقابل خدماتهم وبيع أديانهم وضمائرهم، لا سيما في أوقات الشدة والأزمات وكلما ظهرت الحاجة إلى خدماتهم العلمية والتقنية والأدبية والسمسرة، لإرضاء غرور الحاكم المستبد وأنانيته و إشباع رغباته ونزواته الحيوانية؛ لأن علاقة هؤلاء السفلة الحمقى مع النظام الدكتاتوري الفاسد، والحاكم المستبد الظالم، تقوم في الأساس على تبادل المصالح وسياسة الإخضاع عن طريق الترهيب والترغيب التي يلجأ إليها الحاكم المستبد معهم، ولا صلة لها بالقناعة الفكرية والمصلحة العامة والدين والمبادئ والقيم الإنسانية والمنطق والحقائق ونحوها، وهي بدون شك حالة غير إنسانية ومخالفة للعقل والمنطق والفطرة والطبع السليم، وتتنكر لعزة النفس والكرامة الإنسانية والنبل والشرف، وتؤدي إلى إضعاف الدول والمجتمعات وتخلفها وتحللها وانحطاطها الفكري والروحي والتربوي والحضاري، ولا يلجأ لها إلا خسيس الطبع، فاسد الفطرة، عديم الضمير والوجدان.

يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «**كان السحرة في ذلك يمثلون الدين، فساوموا صاحب السلطان والجاه والمال ضد نبي الله، وفي كل عصر يوجد من يتسم بسمة الدين، ويساوم عليه المترفين والملوك والشياطين**»[1] أي: لهم أشباه ونظائر في كل عصر ومصر يساومون على دينهم وضمائرهم كل

١. التفسير المبين، محمد جواد مغنية، صفحة ٢١٠

من يدفع الثمن لهم مقابل خدماتهم التي يقدمونها له ويقتطعونها في الحقيقة من دينهم ووجدانهم وضمائرهم الرخيصة جداً عندهم، ويقومون بتحريض وحث شديد منهم على تشكيل الهيئات والجمعيات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفنية والأدبية والأحزاب والنقابات باسم الدين والمبادئ والحقوق والوطن والقومية ونحوها، من أجل خدمتهم وتحقيق أهدافهم، وقد تنطلي لعبتهم القذرة وأهدافهم الخبيثة على البسطاء من الناس، ولكن سرعان ما تنكشف لعبتهم ويفتضح أمرهم وتظهر عوراتهم أمام الجميع، ويصبحوا مسبة ولعنة على لسان كل واع مخلص، ثم يحشروا في يوم القيامة مع الذين كانوا يعملون لأجلهم وبئس المصير.

والنظام الدكتاتوري الفاسد، والحاكم المستبد الظالم، يشتريان من هؤلاء السفهاء الحمقى المفلسين، الدين والمذهب والوجدان والضمير والخدمات الفكرية والفنية والأدبية والعلاقات العامة وغيرها في سوق النخاسة السياسية، ويدفعان إليهم الثمن بحسب قواعد السوق، لا سيما قاعدة العرض والطلب، فتكون الأثمان كبيرة وضخمة جدًا في وقت ازدياد الطلب وقلة العرض في أوقات الأزمات والشدة، مثل: الأوقات التي تنشط فيها حركة المعارضة الإصلاحية والثورية، وتزداد الاحتجاجات الشعبية وتزداد المخاطر، وفي وسائل الإعلام العالمية والمحافل الدولية، وأن تكون الشخصية ذات مكانة دينية أو علمية أو وجاهة اجتماعية أو صحفي بارز ونحو ذلك، أي: لكل شخص ثمنه، ثم يرميان بهم في الزبالة بعد الاستغناء عن خدماتهم، أو كما ترى النواة بعد أكل الثمرة؛ لأنه لا

قيمة لهم ولا حرمة ولا كرامة في أنفسهم، ولما لديهم من العلم والخبرة والمكانة؛ لأنهم تنازلوا عنها طائعين، وباعوها بثمن بخس في سوق النخاسة السياسية، وقيمتهم فقط فيما يقدمونه من خدمات وبحسب مقدار الحاجة فقط، وهناك من يورث هذه التبعية لأبنائه وأحفاده، حتى تتوجد عوائل من هذا النوع السافل الخسيس.

وقد أقر فرعون وهو رأس النظام والدولة للسحرة بأهمية الأمر، وبخطورة المهمة المكلفين بها، وبخطورة نتائجها التاريخية المصيرية الفاصلة، وأبعادها العملية المتشعبة وانعكاساتها الخطيرة جداً على النظام والدولة والمجتمع المصري وعلى شخص الملك وسلطته ومستقبله السياسي والديني والاجتماعي، وبناءً عليه ضمن لهم الأجر العظيم والمكافأة السخية الضخمة المادية والمعنوية التي طلبوها وزيادة عليها، إن هم حققوا الغلبة والانتصار على موسى الكليم عليه السلام وهزموه، فقال لهم: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[1] أي: نعم ستكون لكم مكافأة مادية سخية جداً وضخمة كما طلبتم، وزيادة على الأجر الذي تطلبونه أهم منه، ستكون لكم مكافأة معنوية في غاية الأهمية تقديراً لكم ولجهودكم في خدمة النظام والدولة (الملك) تقر بها عيونكم وترضون بها غاية الرضا، وهي أني سأرفع مكانتكم ومنزلتكم عندي وفي النظام الطبقي، وستكونون من المقربين لدي جداً، ومن أصحاب التبجيل والتكريم في مجلسي، وتكونون أول من يدخل عليَّ وآخر من يخرج من عندي. أي: وعدهم بأن يعطيهم الأجر العظيم الذي طلبوه منه، ويضيف عليه لهم ما يقل عنده ذلك الأجر ويزيد عليه في

١. الأعراف: ١١٤

القيمة والأهمية، وهو أن يجري تعديلات مهمة جداً على النظام الطبقي الموروث، وعلى النظام في الديوان الملكي، على غرار ما يقوم به الفراعنة والملوك والحكام المستبدون الذين يتمتعون بسلطات مطلقة في الأنظمة والهيئات الدكتاتورية في زماننا هذا، بإجراء تعديلات دستورية وعلى القوانين والأنظمة والهيئات الإدارية، كلما دعت الحاجة لخدمة أوضاعهم الخاصة، ولإرضاء رغباتهم الشخصية وخدمة مصالحهم وتعزيز سلطاتهم، ولتمكين الأشخاص والأطراف والجماعات الموالية إليهم وتقويتهم، و إبعاد خصومهم و إضعافهم والحد من نفوذهم وسلطتهم والتضييق عليهم ومحاصرتهم، وكل ذلك باسم القانون والشرعية، وللمحافظة على هيبة الدولة ونظامها الدستوري، وحفظ مكانتها ودورها على الساحة الوطنية والقومية، وعلى المستوى الإقليمي والدولي والمحافظة على أمن المواطنين والمقيمين ومصالح أبناء الشعب وتحقيق الرفاه إليهم، ونحو ذلك، وبواسطة مؤسسات الدولة الصورية، مثل: البرلمان، والقضاء، ومؤسسات المجتمع المدني، ومنظمات حقوق الإنسان، والمؤسسات البحثية ونحوها التي يخضع جميعها فعلياً لإرادة الحاكم المستبد وتابعة له وتعمل باسمه، ثم تغرد له وسائل الإعلام وتطبل.

وبناءً على هذا التعديل وطبقاً له، سيجعل فرعون الطاغية المستبد، طبقة السحرة الذين قدموا له أفضل الخدمات في أصعب الأوقات وأشد الأزمات خطورة في منزلة أعلى ومكانة أسمى مما كانوا عليها من قبل، أكثر تبجيلاً وتكريماً وتمجيداً في مجلسه، وتقدم لهم التحيات الخاصة تقديراً لخدماتهم الجليلة للنظام والدولة والملك، وسيمنحون

المناصب الكبيرة الاستشارية والتنفيذية ويتمتعون بالامتيازات الضخمة والصلاحيات الواسعة، ويلعبون أدواراً أكثر أهمية في صناعة القرارات، ونحو ذلك، رغم أن السحرة كانوا من قبل يحتلون مراكز مهمة ودرجات رفيعة ويشغلون وظائف دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية في غاية الأهمية والحساسية، وكانوا يحظون بثقة الملك ويعتمد عليهم كثيراً، ويتمتعون بامتيازات ضخمة وامتيازات واسعة مستمدة من الحياة الكهنوتية، وكانت أعمالهم في السحر ذات تأثيرات كبيرة واسعة، ويقدمون خدمات جليلة للنظام الذي تمتزج فيه السياسة بالدين، وقد طغت موجة السحر على الحياة المصرية في عهد الفراعنة، وكانت مصر مهداً للمعارف السرية والأعمال الخفية الخارقة للعادة، وكانت الروزنامة الفرعونية تنطوي على أيام فأل وأيام شؤم، والأدوية الطبية في الثقافة الفرعونية تشفي المرض في بعض الشهور وتبقى بدون جدوى في شهور أخرى، وذلك وفق تقديرات السحرة والكهنة والمنجمين، وترافق الأدوية عند الاستعمال الرقي والتعويذات التي يقدمها الكهنة والسحرة، ويحرص الناس الذين كانوا يتمتعون بحس ديني رفيع على أن يحملوا التمائم والرقي والعوذ من أنواع ولأغراض عديدة، تتعلق بالصحة والحفظ والبركة ونحوها، ومع ذلك وعد فرعون السحرة بأن يمنحهم المزيد، فهو يتمتع بسلطات مطلقة، وكل الأمور في يده وتتوقف عليه.

الجدير بالذكر والتنبيه: أن مثل هذه الأعمال والطقوس، موجودة من حيث الشكل في التراث الإسلامي الشرعي على نطاق واسع لدى جميع الفرق الإسلامية، و أن كون الأدوية تشفي المرضى في بعض الشهور دون

بعض، ربما يعود لأسباب طبيعية تتعلق بطبيعة الدواء وتركيبه، وبطبيعة المناخ وخصائصه، لإحداث التفاعل المطلوب، واستعمال العوذ والرقي للصحة والحفظ والبركة ونحوها، يمكن تفسيرها بتوظيف الأسباب النفسية والروحية في ذلك. فالأساس غير الأساس في الحالتين الفرعونية والوثنية والإسلامية التي تقوم على التوحيد والإيمان بعالم الغيب والشهادة.

ويعدُّ إجراء فرعون الطاغية للتعديلات على النظام الطبقي الوراثي والنظام الإداري والبرتكولي في الديوان الملكي لصالح السحرة، مكافأةً معنوية وعطاءً نوعياً وتكريماً خاصاً منقطع النظير للسحرة، وهو في الواقع وبالطبع، أعظم و أعلى و أسمى و أكثر أهمية من المكافأة المادية، المال والثروة والمنصب المجرد، مهما كانت المكافأة المادية ضخمة وسخية؛ لأن المكافأة المادية آنية أو مؤقتة، تزول وتذهب نتائجها وآثارها مع الوقت، على خلاف التعديل في الميزان الطبقي لصالح السحرة ورفع درجتهم ومنزلتهم ومكانتهم وتقريبهم من ساحة عظمة الملك والزلفى لديه، وما يصاحب ذلك من مزيد الاحترام والتقدير والتكريم والتبجيل، فإنها مكافأة معنوية باقية دائمة لا تذهب ولا تزول مع الوقت، وستعود عليهم بمردودات مادية ومعنوية كبيرة، وبامتيازات ضخمة وصلاحيات واسعة وخدمات ومكاسب لا تقدر بثمن وتصبح بذاتها منشأً دائماً للحصول على الأموال الكثيرة والثروات الضخمة.

ويعدُّ أيضاً إعطاء فرعون الطاغية هذه المكافأة الخاصة النوعية ذات المردودات المادية والمعنوية الضخمة وغير المحدودة في هذا الوقت

بالذات وفي هذا المأزق الكبير، دليل واضح وصريح ولا لبس فيه ولا غموض، على شعوره العميق بالعجز الكبير أمام معجزة موسى الكليم عليه السلام، وإدراكه للخطر الوجودي على نظامه ودولته وملكه وشخصه من جهة موسى الكليم عليه السلام ورسالته ومطالبه الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية وحركته التحررية، والأهمية الكبيرة للمهمة الإنقاذية التي يقوم بها السحرة ونتائجها التاريخية المصيرية الفاصلة وأبعادها وانعكاساتها الخطيرة على النظام والدولة والمجتمع والملك، مما يسبب فقره وضعفه وحاجته الوجودية إلى غيره؛ لقيام ودوام نظامه ودولته وملكه، مما يعني أنه بشر كسائر البشر، وليس بإله أو رب حقيقي.

كما أن فرعون الطاغية قدم كل هذا العطاء السخي جداً إلى السحرة، لكي يغريهم ويحثهم ويحرضهم أكثر على المزيد من الاجتهاد وبذل أقصى الوسع والطاقة، وتوظيف كافة علومهم وقدراتهم ومواهبهم الظاهرة والكامنة، وإخراج أفضل ما عندهم من أجل إلحاق الهزيمة لموسى الكليم عليه السلام والانتصار عليه. فهو يتعامل مع السحرة بمثابة المنقذين الحقيقيين له ولنظامه ودولته وحكومته، وهو يعلم علم اليقين وبوضوح تام بالتبعات الخطرة جداً والكلفة الضخمة الباهظة للخيارات الأخرى: الأمنية والعسكرية في حال فشل خيار المبارزة السلمي، وذلك بسبب ما يتمتع به من خبرة ودهاء كشفت عنها التجارب والمواقف.

المبارزة التاريخية الفاصلة وظهور الحق وتجليه للجميع

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾

حل اليوم الموعود للمبارزة، وهو يوم الزينة، وحضرت جماهير غفيرة جداً لمشاهدة النزال بين السحرة وبين موسى الكليم عليه السلام، والوقوف على نتائجه المصيرية والفاصلة، وكان للتحريض والحث الشديد للجماهير على الحضور من قبل الإعلام الفرعوني باسم الملك الإله (فرعون) الذي هو الرب الأعلى لهم، والأسباب المثيرة جداً التي دعت لتنظيم المبارزة، وما يترتب عليها من نتائج تاريخية مصيرية حاسمة ومفصلية، و أبعاد واسعة وعميقة جداً دينية وثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها، وانعكاساتها الشاملة على النظام والدولة والحكومة والمجتمع والملك، كلها عوامل ساعدت على زيادة الحضور وتفاعله وخلقت عظمة المشهد، وتدل على أن فرعون الطاغية وملئه الفاسدين، كانوا واثقين تمام الثقة ومطمئنين كامل الاطمئنان إلى انتصار السحرة على موسى الكليم عليه السلام أو كسب المعركة عن طريق التضليل على الأقل، بأن تنخدع الجماهير بكثرة وعظمة ما يأتي به السحرة فلا يميزون بين السحر وبين المعجزة، وهذا يكفي فرعون وملئه، إذ يعملون على توظيفه إعلامياً في المواجهة مع موسى الكليم عليه السلام وتحقيق أهدافهم السياسية في المعركة الدائرة بينهما.

وكان السحرة قد هيئوا كل مقدمات العمل، وكانوا على كامل الاستعداد

والجهوزية للمبارزة، وكانوا واثقين من أنفسهم ومن مهاراتهم ومهنيتهم وقدراتهم ومواهبهم وخبراتهم التي لا تبارى ولا تجارى في السحر، وكان موسى الكليم عليه السلام وحيداً ليس معه إلا الله عز وجل وأخوه هارون عليه السلام في الظاهر، ومعجزتهما وآيتهما واحدة ومشتركة بينهما وهي العصا، مواجهان الجيش العرمرم والمجموعة الهائلة من السحرة المهنيين المهرة الحاذقين، وأمام ذلك الحشد الهائل العظيم من الجماهير الغفيرة، الذين قدموا لمشاهدة النزال والمبارزة التاريخية الفاصلة بين السحرة وبين موسى الكليم عليه السلام وما ينجم عنها من نتائج، ومعظمهم من الموالين إلى فرعون ونظامه ودولته، ويؤيدون السحرة ويناصرونهم على موسى الكليم وهارون عليهما السلام، وبحضور فرعون الطاغية بما يمثله من رمزية خرافية هائلة، وكامل جهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري بما يمثله من هيبة وسطوة.

وعليه: التفت السحرة في غرور خاص وثقة كبيرة منهم بأنفسهم وقدرتهم على الغلبة إلى موسى الكليم عليه السلام وخيروه بين أن يبتدئ هو بإلقاء عصاه ويتأخرون هم، وبين أن يبتدؤوا هم بإلقاء ما يريدون ويتأخر هو، فقالوا له: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾[1] فلم يكونوا مبالين بأمر موسى الكليم عليه السلام ولم يكونوا مكترثين بما عنده؛ لوثوقهم بالنصر والغلبة عليه، حيث كانوا يتوهمون بأن ما عنده هو مجرد سحر كسحرهم، حيث أخبرهم فرعون وأغراهم به، وموسى لم يكن معروفاً عندهم من أرباب السحر وكبار أساتذته ومعلميه وممتهنيه، ومهما كان مبلغ علمه، ومهما كان متقدماً ماهراً وحاذقاً في السحر، فلن يستطيع أن يغلبهم

١. الأعراف: ١١٥

وينتصر عليهم؛ لأنه واحد وهم كثر وليس لديه إلا العصا، ولأن عندهم ما ليس عند غيرهم من العلم الجم بالسحر والتدريب منقطع النظير على مختلف فنونه، ولا يجاريهم أحد في المهارة والحذق والمهنية في صناعة السحر، ولديهم آلاف الحبال والعصي بمختلف الأطوال والأحجام وغيرها، فكانوا على ثقة تامة بأنهم هم الغالبون والمنتصرون في هذه المبارزة حتماً، سواء بدأ موسى الكليم بإلقاء عصاه وكانت له فرصة السبق، أم بدؤوا هم بإلقاء ما يريدون وتأخر موسى الكليم عليه السلام، وقيل: كان تخيير السحرة لموسى الكليم عليه السلام بقولهم: ﴿إِمَّا أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ تأدباً منهم واحتراماً له كما يفعل أهل الفن والصناعات إذا التقوا، أو لما ظهر عليه من سمات العظمة الروحية والثقة التامة بالنفس في مواجهتهم، واستشعروه من الهيبة منه في داخل أنفسهم، وقيل أيضاً: فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله.

فاختار موسى الكليم عليه السلام أن يكونوا هم المتقدمين عليه بإلقاء ما يريدون ويتأخر هو، لتكون لهم فرصة السبق غير مبال بكثرة جمعهم ولا هائب لما جاء به من السحر وما لديهم من المهنية والمهارة والحذاقة والخبرة، وما تمرسوا فيه من الحيل والخداع والتمويه والتضليل، فأجابهم بمنتهى الثقة والاطمئنان وقال لهم: (ألقوا) أي ابدأوا أنتم أولاً بإلقاء ما تريدون، وأفرغوا كل ما في وسعكم من الجهد والطاقة، وأخرجوا كل ما عندكم مخزون في جعبتكم من العلوم والفنون والمهارات والقدرات والخبرات والحذق، وما تمرستم عليه من الحيل والكيد والكذب والخداع والتضليل، لكي يراه الناس ويشاهدوه بأم أعينهم، ويعظم في أنفسهم

غاية ما ترغبون أن يعظم، ويشهدوا لكم بالإنصاف وبشكل مستقل وبدون القياس على عمل غيركم بعظمة عملكم، ثم يرون فعل العصا التي هي معجزة عظيمة وآية كبرى من عند رب العالمين في إبطال ما جئتم به من السحر، فيعلم عموم الناس المتفرجين على المشهد، وتعلمون أنتم خصوصاً؛ لأنكم أصحاب المهنة وأهل الفن، ويعلم فرعون الطاغية وملؤه الذين نظموا هذه المبارزة من أجل معارضة معجزة رب العالمين بالسحر، الفرق العظيم الذي لا يقاس، بين باطل السحر وبين حقيقة المعجزة، وبين الوهم والخداع والتضليل الذي يقوم عليها السحر وبين الحقيقة والواقعية والفعلية الفاعلة التي تقوم عليها المعجزة، فيكون ذلك التقدم منكم والتأخر منه، أظهر للحقيقة كما هي، وأقرب للإنصاف وأبلغ في التأثير في نفوس المشاهدين، وأكمل في إيصال الرسالة الإلهية، وأتم في إقامة الحجة على الجميع، فلم يكن موسى الكليم عليه السلام مبالياً بكثرة السحرة، ولا عابئاً بجمعهم، ولا هائباً من مهاراتهم وحذقهم وخبراتهم، بل كان مستخفاً بسحرهم وغير مكترث بالأجواء الرهيبة التي كانت تحيط بالمشهد؛ لأنه يعلم علم اليقين بأن ما عنده معجزة وحقيقة فعلية تقف وراءها قوة أزلية مطلقة، لا تبارى ولا تجارى ولا تغلب ولا تقهر، وما عند السحرة مجرد حيل وتضليل وتمويه وخداع لا واقع له ولا حقيقة وراءه، وكان في منتهى الثقة بالتأييد والإمداد الإلهي له، والاطمئنان التام بالنصر والغلبة على السحرة، وظهور الحقيقة تامة جلية لجميع الحاضرين أو المتفرجين على المشهد في الميدان كما وعده ربه القادر على كل شيء وهو لا يخلف الميعاد، وقيل: كان إعطاء موسى الكليم عليه السلام للسحرة فرصة

السبق بإلقاء ما يريدون قبله كرماً منه عليهم وتسامحاً معهم؛ لأنه أعطاهم ما كانوا فيه راغبين، و إظهاراً لأخلاق النبوة والإيمان، وثقةً بما كان بصدده من المعجزة، وبالتأييد الإلهي له، ولتمام الحجة على أعدائه وخصومه وجميع من حضر المشهد.

فاستجاب السحرة لما تكرم به موسى الكليم عليه السلام عليهم، وأخذوا بالخيار الذي فضلهم به على نفسه، فبدؤوا بإلقاء ما يريدون إلقاءه، فألقوا بعشرات الألوف من الحبال والعصي المتفاوتة الأحجام والأطوال: الطويلة والمتوسطة والقصيرة، المعدة سلفاً لهذا الغرض، ألقوا بها في وسط الميدان في ظل تصفيق وتشجيع الجماهير المتفرجة لهم، وقيل: كانت الحبال والعصي معبأة بمواد كيميائية خاصة تبعث على حركتها مع إدخال عوامل فيزيائية، مثل: حرارة الشمس. ورياضية عليها، وهي عوامل تخفى على إدراك وفهم عوام الناس، أي: اعتمدوا على الخواص الكيميائية والفيزيائية والرياضية الغامضة الموجودة والمؤثرة في الأشياء والمواد الموجودة لتحريكها، بحيث تبدوا في أعين الناس وكأنها حيات وثعابين فعلية تتحرك وتسعى من تلقاء نفسها، وأن تحولها وحركتها أمر خارق للعادة، بينما هي في الحقيقة والواقع لا تزال حبالاً وعصياً لم تتغير في حقيقتها ولم تتحول عن طبيعتها الأولى، وأن ما ظهرت فيه وكأنها حيات وثعابين، ما هو إلا مجرد إيهام وتضليل وخداع ظاهري في عيون المشاهدين، وليس له واقع وليس وراءه حقيقة، أي: أنها بدت في الظاهر وتراءت في عيون المتفرجين الناظرين كأنها حيات وثعابين حقيقة تتحرك ويسعى ويركب بعضها بعضاً، بسبب العوامل الطبيعية الكيميائية

والفيزيائية، وتركيبها وفق معادلات رياضية محسوبة علمياً بدقة بالغة على أيدي علماء مهنيين مهرة (السحرة)، لكنها في الحقيقة والواقع لا تزال حبالاً وعصياً ولم تتحول عن طبيعتها إلى حيات وثعابين حقيقة، وقيل: كانت المواد الكيمائية تتحول إذا سطعت عليها الشمس إلى غازات خفيفة تؤدي إلى الحركة في الحبال والعصي.

وقد جاء السحرة وفق مقاييس وموازين ومعايير وقواعد السحر المعروفة والمعمول بها في السحر، بسحر عظيم جداً، بهروا به أعين المشاهدين جميعاً، حيث بدت الحبال والعصي بمختلف أطوالها وأحجامها، وكأنها حيات وثعابين حقيقية عظيمة، وأخذت تهتز وتتحرك وتسعى حتى ملأت الوادي وركب بعضها بعضاً، فخاف الناس خوفاً شديداً، وفزعوا لهول ما رأوه وشاهدوه، ولم يشاهدوا له نظير من قبل، وانبهروا لفرط ما فيه من المهارة والحذق والحرفية والمهنية، قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[1]، أي: أضلوا عيون الناس عن صحة وسلامة إدراكها، فخيلوا إليها الحقيقة على خلاف ما هي عليه، بأن احتالوا في تحريك الحبال والعصي بما جعلوا فيها من مواد كيميائية وما وظفوه معها من عوامل فيزيائية ومعادلات وحسابات رياضية في غاية المهنية والدقة، فجعلوا أعين الناس تدرك أشياء لا حقيقة لها في الخارج بسبب الخداع العلمي والتمويه والتظليل الذي تخفى أسبابه عن عوام الناس، ونسبة السحر إلى الأعين في قوله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾[2]

١. الأعراف: ١١٦

٢. نفس المصدر

تدل على أن سحرهم لا واقع له، و إنما هو مجرد حيل وتمويه وخداع وتضليل لا يتجاوز الظاهر إلى الحقيقة الفعلية الواقعية، وهو الأمر الذي دأب عليه المشعوذون والسحرة وأهل خفة الحركة.

وقد نجح السحرة في إدخال غاية الخوف والرهبة في قلوب المتفرجين الحاضرين في الميدان الناظرين للمشهد، بأن خيلوا لهم بأن الوادي ممتلئ بالحيات والثعابين حقيقية يركب بعضها بعضاً، وعبارة (واسترهبوهم) تدل على أن السحرة كانوا يطلبون ويهدفون إلى إرهاب الناس و إدخال غاية الخوف والفزع إلى قلوبهم من أجل التأثير عليهم غاية التأثير وكسب تأييدهم والحكم لصالحهم في المبارزة.

وكان المشهد الذي أوجده السحرة وما تركه من تأثير على المشاهدين، يدل على أنه كان مهيباً ومدروساً وفي غاية الدقة والحذق والمهنية والمهارة، بحيث يصدق عليه بحسب مقاييس ومعايير وموازين وقواعد السحر، أنه سحر عظيم ومهم، لا نظير له، بهر أعين الناس واستوقفهم لعظمته، مما يدل على أن السحرة كانوا على درجة عالية من العلم والتدريب والخبرة والمهارة والحذق والجودة والدقة في عملهم، وأنهم قد بلغوا الغاية والنهاية في إتقان الفن وجودته، وعليه تعالت صيحات الابتهاج والفرح والسرور، واعترت الحشد الغفير من الجماهير الموالية للنظام الملكي ولفرعون نشوة النصر وحالة عارمة من الحيوية والنشاط، واستبشروا بالنصر القادم الذي ظهرت علائمه وبشائره للأنظار، واستبشر فرعون وملؤه كذلك، وتيقنوا من النصر والغلبة وعلت وجوههم ابتسامات

الرضا، ولمع في عيونهم بريق الأمل، رغم أنهم لم يروا إلا عمل طرف واحد، ولم يروا عمل الطرف الآخر المنافس، ولم يشكك أحد في قدرات السحرة ومهاراتهم ومواهبهم وتجاربهم وخبراتهم، فمصر تعج بالسحرة المهرة الحاذقين وتموج بسحرهم الهائل العظيم، ولكن الرهان على أن يثبت هذا السحر رغم عظمته في فنه أمام المعجزة العظيمة التي تقف وراءها قدرة إلهية أزلية مطلقة؟ هذا هو الرهان.

وفي الحقيقة فقد أوجس موسى الكليم عليه السلام خيفة في نفسه، لم يظهر أثرها في الخارج ولم تؤثر في سلوكه وحركاته وسكناته، بل كانت مخفية مستورة في داخل نفسه لم يعلم بها سواه إلا الله رب العالمين الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتلك الخيفة الصغيرة البسيطة المستورة في داخل نفس موسى الكليم عليه السلام ليس بسبب عظمة السحر وهيبته وضعف ثقته بما هو بصدده من المعجزة، أو ضعف ثقته بربه وضعف يقينه بصدق ما وعده به من النصر وظهور الأمر، وإنما بسبب ما يمكن أن تتركه عظمة السحر الذي جاء به السحرة ورهبته وهيبته من أثر بالغ في نفوس الجهلة من الناس، إلى درجة تصعب إزالته من نفوسهم وإرجاعهم إلى الحق، أي: كان خوفاً على الناس من الضلال بسبب ما يعرض لهم من اللبس وعدم التمييز بين السحر وبين المعجزة.

وفي ظل ذلك شد الله عز وجل من أزر موسى الكليم عليه السلام وعزمه وربط على قلبه وثبته، وأوحى إليه أنه معه يؤيده وينصره، وأن ما جاء السحرة رغم عظمته وأهميته في فنه، إلا أنه ليس بشيء أمام ما هو بصدده من

المعجزة، فما جاء به السحرة إنما هو مجرد افتعال يعتمد على الحيلة والخداع والتمويه والتضليل، وما هو بصدده من المعجزة حقيقة فعلية فعالة قوية وشديدة التأثير، فالنصر والغلبة ستكون حليفته و إلى جانبه حتماً، وستظهر الحقيقة وتلمع وتنكشف للجميع وتعلو، وأمره بأن يلقي عصاه من يده على الأرض، فألقاها كما أمره رب العالمين، فإذا تتحول فجأة وبمجرد أن ألقاها إلى ثعبان عظيم الجثة طويل لا مثيل له ولا نظير في نوعه ولم يشاهد مثله من قبل، وأخذت في الحال تفعل فعلها وتبتلع بسرعة مذهلة وقوة فائقة لا مثيل لها ما جاء به السحرة من الحبال والعصي الطويلة والمتوسطة والقصيرة، وسحروا به أعين الناس، فتراءى للناظرين في قوة الوهم والخيال بأنها حيات وثعابين حقيقية تملأ الوادي ويركب بعضها بعضاً في مشهد مهيب ورهيب، وهي في الواقع مجرد وهم يعتمد على الحيلة والتمويه والخداع والتضليل ولا حقيقة لها، فابتلعتها جميعاً حتى أتت على آخرها، فتلاشت ولم يبق منها شيء، قول الله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾[1] أي: أعدم الله ﷻ بقدرته تلك الحبال والعصي التي كانت تملأ الوادي في شكل حيات وثعابين، أو جعلها أجزاء لطيفة أو دقيقة جداً لا ترى ولا يظهر لها أثر في باطن العصا، وكلا الأمرين، إعدامها حتى كأنها لم تكن، أو تحويلها إلى أجزاء لطيفة أو دقيقة في باطن العصا، هما ما لا يقدر عليه البشر لا بسحر ولا بغيره من العلوم والفنون المكتسبة بالتعليم والخبرة والتدريب، فبطل بفعل العصا (المعجزة) جميع ما فعله السحرة، وبطلت المعارضة

١. الأعراف: ١١٧

بين السحر وبين المعجزة من الأساس، وظهر الحق وبان عياناً وانكشف للجميع وعلا.

ولما انتهت المبارزة واستبانت الحقيقة تامة بشكل جلي واضح لا لبس فيه ولا غموض ولا شك، أخذ موسى الكليم عليه السلام العصا بيده ورفعها عن الأرض، فعادت إلى طبيعتها الأولى كما كانت من قبل، فكانت العصا معجزة بتحولها إلى ثعبان عظيم، ومعجزة بعودتها في الحال إلى طبيعتها الأولى بمجرد أن أخذها موسى الكليم عليه السلام بيده النورانية المباركة ورفعها عن الأرض.

هزيمة السحرة في ميدان المبارزة

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾

قد أذهل المشهد المثير جميع الحاضرين في الميدان، السحرة وفرعون وملؤه، والجماهير المتفرجة، وانقطعت حجتهم بحسب العقل والمنطق السليم، وبان لهم الحق وثبت واستقر وعلا، قول الله تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] أي: ظهر الحق وبان وانكشف وثبت واستقر وعلا، وبطل السحر والمعارضة من الأساس، فقال السحرة جهاراً: لو كان ما جاء به موسى الكليم عليه السلام من نوع السحر لعرفناه؛ لأننا أهل الفن وأصحاب الصناعة وأعلم الناس بأسرار السحر والمحترفين فيه، وعندنا من العلم والخبرة والتدريب والمهارة والحذق في فنون السحر ما لا يوجد عند

---

١. الأعراف: ١١٨

غيرنا، ولدينا معرفة واسعة وشاملة بالمعلمين والأساتذة وكبار المحترفين في السحر، وموسى الكليم عليه السلام ليس واحداً منهم، بل لم نكن نعرفه بين أصحاب الفن والمحترفين فيه، ولو كان ما جاء به موسى الكليم عليه السلام من نوع السحر لبقيت حبالنا وعصينا على حالها، ولم تتلاشَ وتنتهِ من الوجود وكأنها لم تكن؛ لأن السحر لا يفعل ولا يؤثر مثل ذلك الفعل والتأثير، وليس في مقدور البشر أن يفعل مثل هذا الفعل ويؤثر هذا التأثير.

وعليه: فإن ما جاء به موسى الكليم عليه السلام ليس من السحر قطعاً ويقيناً، و إنما هو آية إلهية كبرى ومعجزة عظيمة تقف وراءها قوة أزلية مطلقة قادرة على كل شيء، فوق الطبيعة وفوق قدرات البشر، وتجري قوانين عالم الطبيعة وفق مشيئتها وتقديرها، أي: عرف السحرة معرفة يقينية، وعلموا علماً صحيحاً منطقياً، استناداً إلى ما عندهم من العلم بحقيقة السحر والاطلاع على دقائق أسراره وخباياه وخفاياه والخبرة المهنية فيه، إلى درجة لا يمكن معها أن يخدعهم أو يضلهم أحد فيه وبشأنه، أن موسى الكليم عليه السلام ليس إنساناً عادياً، و إنما هو إنسان رباني صالح وطاهر ومؤيد بقوة غيبية أزلية أبدية مطلقة، تستطيع أن تحول العصا الجامدة الميتة إلى ثعبان حقيقي عظيم وفعال ومؤثر، ثم تعيدها إلى طبيعتها وسيرتها الأولى، وأن تعدم الأجسام وتفنيها من الوجود وكأنها لم تكن، أو تجعلها أجزاء لطيفة ودقيقة، لا ترى ولا يظهر لها أثر، لأن بيدها الموت والحياة، وأنها خلقت الأشياء من العدم، وجعلتها بأشكال وحقائق وأطوار مختلفة وتحت إرادتها جميع قوانين عالم الطبيعة وتجري وفق مشيئتها، وتجب طاعتها وتقديسها وعبادتها، لما تتمتع به من العلم والقدرة والرحمة

بالعباد، وأن إليها معاد العباد وعليها حسابهم وجزاؤهم يوم القيامة.

وعليه: فموسى الكليم عليه السلام صادق في دعوى النبوة والرسالة عن رب العالمين، وأن قضيته عادلة، ومطالبه الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية مشروعة، وتجب طاعته مطلقاً والتسليم إليه، وأن فرعون كاذب في دعوى الألوهية والربوبية وخائن للحقيقة ولأمانة الحكم والرعاية والمسؤولية، ونظامه الملكي فاسد، وحكومته ظالمة جائرة مفسدة في الأرض، وهو غير مستحق لأن يكون ملكاً أو حاكماً أو أن يتولى مسؤولية وطنية عامة.

وكانت هذه النتيجة العلمية المنطقية المجردة، الضربة القاسية المفجعة الأولى التي وجهها موسى الكليم عليه السلام إلى النظام الملكي الفرعوني الفاسد، وإلى فرعون الملك المتجبر الطاغية الخائن للحقيقة ولأمانة الحكم والرعاية والمسؤولية، حيث نسب إلى نفسه صفتي الألوهية والربوبية كذباً وزوراً وبدون وجه حق وبلا دليل أو برهان عقلي صحيح أو حجة مقبولة، وأقام نظامه الملكي الفاسد الجائر على هذا الأساس الباطل، وبسط نفوذه وسلطته على الناس وتحكم في إرادتهم، واستولى على ثروات البلاد ومقدرات العباد واستأثر بها مع ملئه وبطانته الفاسدة وجهازه الحاكم، الديني والسياسي والإداري والفني بفرض حكم الأمر الواقع عن طريق الإرهاب والعنف والقوة، وتحكم في مصائر الناس بغير وجه حق وبغير رضاهم وعلى خلاف إرادتهم ومصلحتهم، وخالف السنن الإلهية: الكونية والتاريخية، وخالف العقل والمنطق والفطرة والطبع

الإنساني السليم، وانتهك حقوق الإنسان الطبيعية والمكتسبة (الوضعية) وحريته وكرامته، وأفسد في الأرض، وغيّر خلق الله تبارك وتعالى، وما ينبغي أن تكون عليه حياة الناس الخاصة والعامة والقوانين والتشريعات التي ينبغي أن تسير عليها، والمبادئ السامية والقيم الإنسانية التي ينبغي أن توجهها إلى غاية وجودها ومنتهاها، إلخ.

وبهذه النتيجة العلمية المنطقية المجردة للمبارزة بين السحرة وبين موسى الكليم عليه السلام ظهر الحق واستبان أمره للجميع وثبت واستقر على الباطل، وتبين الفرق الواضح الجلي الكبير بين الإفك والكذب والتمويه والخداع والتضليل، الذي يمثله سحر السحرة، وبين الحق الحقيق البيّن والصدق الوثيق والواقعية الفعلية الفاعلة المؤثرة تمام التأثير في الواقع الذي تمثّله عصا موسى الكليم عليه السلام وآيته الكبرى ومعجزته العظيمة من عند رب العالمين، أي: قد ثبت بما لا شك فيه ولا ريب ولا تردد بأن عصا موسى الكليم عليه السلام قد تحولت فعلاً وواقعاً وحقيقةً إلى ثعبان عظيم وفعّال في الظاهر وفي الحقيقة والواقع، فهي حق حقيق ثابت للعيان لا يشك فيه، وهي معجزة عظيمة وآية إلهية كبرى لا يقوى على مثلها إلا رب العالمين الذي بيده الموت والحياة، والذي خلق الكائنات الحية كلها، النبات والحيوان والإنسان من التراب، ثم يعيدها إلى التراب بعد الموت، ثم يبعثها ويعيدها إلى الحياة من جديد في يوم القيامة، وعلى وفق إرادته ومشيئته تجري جميع قوانين عالم الطبيعة، وهو القادر على كل شيء ولا يمكن أن يأتي بها غيره، لا بسحر ولا بغيره مما يكتسبه الإنسان بالتعليم والتدريب والخبرة.

وإن ما جاء به السحرة، ما هو إلا مجرد اِفتعال يقوم على الحيل والخداع والتمويه والتضليل، ولا حقيقة له وراء ذلك في الواقع ولا فاعلية، فهو الباطل والإفك المحض، قول الله تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] أي: ظهر الحق واستبان للجميع وثبت واستقر، واندحر السحر وتلاشى كتلاشي الظلام أمام الشمس الساطعة واستبان بطلانه للجميع أمام المعجزة، وبطلت المعارضة بين السحر وبين المعجزة من الأساس، وثبت بالدليل القطعي الواضح وبدون لبس أو شك صدق نبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام ورسالتهما عند رب العالمين وعدالة قضيتهما وشرعية مطالبهما الإصلاحية الدينية السياسية والحقوقية، وثبت بطلان دين فرعون وفساد نظامه وخيانته وظلمه وجريرته وجور حكومته وأجهزة دولته. يقول العلامة الطباطبائي: «﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ **فيه استعارة بالكناية بتشبيه الحق بشيء كأنه معلق لا يعلم حاله، أيستقر في الأرض بالوقوع عليها والتمكن فيها أم لا؟ فوقع واستقر**﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ **من السحر**».[2] وذلك تصوير للحالة التي كان عليها الحق في نفوس الناس وعقولهم بعد أن ألقى السحرة عصيهم وحبالهم، فاسترهبوا الناس وخوفوهم غاية التخويف والترهيب، وجاؤوا بسحر عظيم لا مثيل له ولا نظير في فنه، بحيث ترك أثراً بالغاً في نفوسهم أصابهم بالانبهار والإعجاب الشديد، حتى أن موسى الكليم عليه السلام أوجس في نفسه خيفة بأن يترك ما جاء به السحرة من السحر العظيم أثراً بالغاً في نفوس الناس تصعب إزالته

---

١. نفس المصدر

٢. تفسير الميزان، العلامة محمد حسين الطباطبائي، جزء ٢، صفحة ٢٠٤

و إرجاع الناس إلى جادة الحق والصواب، قبل أن يلقي موسى الكليم عليه السلام عصاه فتتحول فجأة إلى ثعبان عظيم وتأخذ في ابتلاع جميع ما جاء به السحرة حتى تلاشى واختفى عن آخره، فتظهر الحقيقة واضحة تامة عياناً للجميع، ويتبيّن الفرق بين الحق (المعجزة) وبين الباطل (السحر) لكل طالب للحقيقة وباحث عنها بموضوعية ونزاهة. وهذا يدل على أن الحق و إن كان قوياً وواضحاً في نفسه، إلا أن الإنسان لا يستغني عن طلبه وبذل الجهد في تحصيله وسلوك أفضل السبل وتوفير الشروط اللازمة لذلك، وأن المرسلين والدعاة والمصلحين لا يستغنون عن جهاد الكلمة والقلم لبيانه ونشره و إقامة الدليل عليه والدعوة للعمل بمقتضاه.

وكانت تلك النتيجة العلمية المنطقية المجردة قد حلت كالصاعقة على رأس فرعون الطاغية ورؤوس ملئه وأعوانه وبطانته وجهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري والفني، وزعزعت مفاصلهم، وقصمت ظهورهم، وأصيبوا جميعاً بالصدمة والذهول لهول وعظمة ما رأوه وشاهدوه بأم أعينهم وخيبة الأمل، وشعروا بالضعف والحقارة والخجل والفشل أمام ذلك الحشد والمشهد العظيم في ميدان المبارزة، فقد أتوا بالسحرة المحترفين المهرة الحاذقين المدربين على مختلف فنون السحر والعارفين بأسراره وخفاياه وخباياه من جميع المناطق والأنحاء في مصر، وبذلوا جهوداً جبارة في جلبهم وتنظيمهم وتهيئتهم وعمل المقدمات استعداداً للمبارزة التاريخية الفاصلة، وتحملوا في سبيل ذلك نفقات عظيمة باهظة لميزانية الدولة، وأعطوا السحرة ومنوهم ووعدوهم بأفضل ما يحلمون به من الأجر العظيم على عملهم والمكافآت المادية والمعنوية التي لا نظير

لها ولا مثيل إن هم انتصروا على موسى الكليم عليه السلام ورفعوا رأس الملك والدولة والنظام في هذه المبارزة التاريخية الفاصلة، وحرضوهم على موسى الكليم عليه السلام ورسالته وحركته التحررية والإصلاحية بما لا مزيد عليه من التحريض، ونشر الإعلانات والدعايات عن طريق جميع وسائل الإعلام الرسمية والشعبية، وحرضوا الناس عن طريقها لحضور المبارزة واستثاروهم واستفزوهم من أجل ذلك، ووفروا كافة الوسائل والمستلزمات والظروف المشجعة والدافعة لحضور أكبر عدد ممكن من الجماهير، ووفروا أفضل الظروف والشروط من حيث الزمان، يوم العيد في وقت الضحى، ومن حيث المكان، استواء المكان وتهيئته لراحة المشاهدين والحصول على أفضل صور المشاهدة لوقائع المبارزة، مما يدل على أنهم كانوا واثقين تمام الثقة ومطمئنين كامل الاطمئنان إلى النصر والغلبة على موسى الكليم عليه السلام وكان هدفهم فضح كذب موسى الكليم عليه السلام وافترائه و إخماد نار فتنة دينه وثورته التحررية وحركته الإصلاحية، وتعزيز قوة النظام الملكي الفرعوني والأسس الدينية والفكرية التي يقوم عليها والثقة به، وترسيخ سلطة فرعون الملك الذي هو رأس الدولة والنظام والرب الأعلى لجميع مملكته والأولى بطاعتهم المطلقة له وبعبادته وتقديسه، أو على الأقل تضليل الجماهير عن طريق اللبس عليهم بعدم التمييز بين السحر وبين المعجزة؛ للشك في صدق نبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته و إثبات سوء نيته وأهدافه التآمرية، للانقلاب على النظام الشرعي القائم المدعوم من الآلهة، وعلى الدولة وأجهزتها، وعلى الملك ومصالح الشعب؛ تمهيداً لمعاقبته والانتقام منه وتصفيته إذا تطلبت الحاجة ذلك. فإذا بالسحر ينقلب على الساحر،

وتنقلب الآية رأساً على عقب، وينقلب المكر على أهله، ويعود الكيد إلى نحور أصحابه، وتجري الأمور على خلاف ما يشتهون وما كانوا يخططون له ويريدون، لينكسر فرعون وملؤه بالعوامل التي أراد بها كسر موسى عليه السلام فينقلب الأمر عليه فتثبت عقيدة التوحيد، ويثبت صدق نبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام ورسالتهما وأمانتهما وعدالة قضيتهما وشرعية مطالبهما الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية وواقعيتها، ويثبت في المقابل كذب فرعون فيما ينسبه إلى نفسه من صفتي الألوهية والربوبية، وخيانته للحقيقة ولأمانة الحكم والرعاية والمسؤولية، وفساد نظامه، وفرض إرادته على الناس، وحكمهم بغير رضاهم وبغير وجه حق ولا دليل، واستئثاره بالسلطة والثروة والمقدرات ونحو ذلك من المظالم والمفاسد.

وبعد أن ابتهج فرعون وملؤه والموالون لهم، وأصابهم الزهو والغرور بما رأوه وشاهدوه من السحر العظيم الذي جاء به السحرة بادئ الأمر، وتوهموا النصر والغلبة للسحرة الفجرة على الولي الناصح الأمين موسى الكليم عليه السلام، انقلب السحر على الساحر وانعكست الآية وتغيرت المعادلة تماماً، وعاد كيد فرعون وملؤه إلى نحورهم حين ألقى موسى الكليم عليه السلام عصاه، فابتعلت جميع ما جاء به السحرة وتلاشى تماماً واختفى، ولم يعد له وجود وكأنه لم يكن له أصلاً وجود، فأدرك الجميع الفرق الكبير الذي لا يمكن قياسه بين السحر المفتعل القائم على الحيل والتمويه والخداع والتضليل ولا حقيقة له في الواقع، وبين المعجزة التي تمثل حقيقة واقعية فعلية فعّالة، وتقف وراءها قوة أزلية أبدية مطلقة فوق الطبيعة وفوق البشر ولو اجتمعوا جميعاً، وقادرة على كل شيء ممكن عقلاً، ولا يعجزها إيجاد شيء ممكن عقلاً،

فظهر بذلك الحق عياناً للجميع واستبان وانكشف وعلا، وزهق الباطل وتلاشى تماماً وكأنه لم يكن، وصعق فرعون الطاغية وملؤه المستكبرون الفاسدون وبهتوا من هول الصدمة المفاجئة وعظمة وجلال ما رأوه وشاهدوه بأم أعينهم، وأدركوا الحقيقة كما هي عليه واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض ولا شك ولا شبهة، وشعروا أمام ذلك التجلي العظيم للحقيقة وانكشافها في ذلك الجمع الغفير والحشد الكبير بالهزيمة النكراء، العلمية والسياسية، وأصبحوا بعد الكبرياء والاستعلاء صاغرين أذلاء مهانين مقهورين مبهورين مستوحشين، وأصبحت جميع العوامل التي عملوا على توفيرها من أجل هزيمة موسى الكليم عليه السلام وفضحه، مثل: حشد جيش من السحرة المحترفين المهرة الحاذقين لمبارزته، وجمع أكبر عدد ممكن من الجماهير لمشاهدة النزال، وتوفير أفضل السبل لأفضل مشاهدة لوقائع النزال، ونحوها، كلها أصبحت لصالح قضية موسى الكليم عليه السلام وإثبات حجته البالغة التامة على الناس، ولم يمر في خلد فرعون وملئه ومعاونيه وجهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري والفني، أنهم سيواجهون موقفاً عسيراً مثل هذا الموقف، ومأزقاً شديداً مثل هذا المأزق، ومشهداً رهيباً مثل هذا المشهد، وكلها ليس بيدهم لها حل وليس لهم سبيل إلى الخروج والهروب منها. فباطلهم قد اضمحل وتلاشى تماماً، ولم يحصل فرعون الطاغية وملؤه على شيء مما أرادوه وخططوا له وبذلوا من أجله أقصى الجهود وأفرغوا أقصى الوسع والطاقة وبذلوا الأموال الطائلة، وكلها ذهبت هدراً أدراج الرياح.

بل حصل عكس نقيض ما أرادوا وخططوا له، فقد ظهرت الحقيقة وانكشفت تماماً للجميع، وثبتت عقيدة التوحيد، وصدق نبوة موسى

الكليم وهارون عليهما السلام ورسالتهما وأمانتهما وعدالة قضيتهما وشرعية مطالبهما الإصلاحية: الدينية والسياسية والحقوقية بالدليل الساطع القاطع الذي لا يقبل الشك والريب والتردد، وثبت في المقابل نفس الدليل، كذب فرعون وخيانته وعدم استحقاقه لتولي الحكم والمناصب العامة وتحمل المسؤولية، وفساد نظامه الملكي الجائر، وانهدم الأساس الفكري والديني الباطل الذي بني عليه، وتصاغر فرعون في نظر نفسه وفي نظر ملئه والناس من حوله أمام تلك الآية الإلهية الكبرى والمعجزة العظمى والرب الجليل القادر على كل شيء الذي يقف وراءها، ويشعر بالخجل والفشل والهزيمة، وتساقطت قطرات العرق على وجهه لتخفف من حرقة قلبه وحرارة جسمه رحمة من رب العالمين به، لعله يتذكر أو يخشى. واضطربت الجماهير المتفرجة، وداخلها الخوف والرعب الشديد، وأخذوا يصيحون ويصرخون ويستغيثون، وبعضهم فروا من المكان من شدة الخوف والفزع، وأغمي على بعضهم من قوة الصدمة وفجأتها، وقيل: أنها لما تلقفت جميع ما صنع السحرة وابتلعته عن آخره، أقبلت نحو الحاضرين فأصابهم ما أصابهم، قول الله تعالى: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾[1].

إعلان السحرة إيمانهم أمام الجماهير المحتشدة في ميدان المبارزة

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾

أما السحرة الكرام، فلأنهم كانوا أكثر من تبين لهم الحق وتجلى في

---

١. الأعراف: ١١٩

أعظم صوره؛ لأنهم كانوا يعرفون عن فنون السحر وصناعته ورموزه وأسراره وخباياه ما لا يعرفه غيرهم، فقد خروا فوراً وبصورة تلقائية لا تكلف فيها ولا تأخر ولا تردد ساجدين لله رب العالمين، قول الله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾[١] فالتعبير في الجملة يدل على التلقائية والفورية، وكمال تأثير آية موسى الكليم عليه السلام ومعجزته فيهم و إدهاشها إياهم، فلم يشعروا بأنفسهم حين شاهدوا عظمة المعجزة وظهورها عليهم وتجلي قدرة الرب الجليل الكاملة لهم، إلا وهم ملقون على الأرض من تلقاء أنفسهم ومن دون اختيارهم، أي: أن الحق بهرهم وأدهشهم، واضطرتهم الآية الإلهية الكبرى والمعجزة العظيمة إلى الخرور على الأرض ساجدين، إذ لم يتمالكوا أنفسهم لعظمة وهول ما رأوه وشاهدوه من الآيات والمعجزات، فكأنهم لشدة غرورهم قد ألقاهم ملقٍ من دون اختيار منهم، ودفعهم إلى الإقرار والاعتراف و إعلان الإيمان.

كما يدل سجودهم من حيث الكيفية والتوقيت والظروف المحيطة على غاية الصدق وكمال الإخلاص، ثم نادوا بأعلى أصواتهم، وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾[٢] أي: صرحوا أمام ذلك الحشد الجماهيري العظيم، وبحضور فرعون وملئه ومعاوينه وجهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري والفني وبشكل واضح وصريح لا لبس فيه ولا غموض، أنهم آمنوا برب العالمين الذي اتخذه موسى وهارون عليهما السلام رباً إليهما، وهو الخالق المالك المدبر للعالم بأسره، وقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ

١. الأعراف: ١٢٠

٢. الأعراف: ١٢١-١٢٢

وَهَارُونَ﴾[١] لئلا يتوهم متوهم من قوم فرعون القائلين بألوهيته، وأنه ربهم الأعلى، أو من غيرهم، بأنهم سجدوا لفرعون أو لأحد من أمثاله المدعين كذباً وزوراً للألوهية والربوبية بغير وجه حق ولا حجة ولا برهان صحيح، أو يسعى فرعون الطاغية كدأب الفراعنة والحكام المستبدين في كل عصر ومصر للتدليس على الناس، فيقول: إياي يعنون برب العالمين، فقطعوا بقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾[٢] الطريق على كل لبس وغموض وتدليس واستقلال من قبل أي طرف كان.

كما يدل ذكر موسى وهارون عليهما السلام على تشريفهما من قبل السحرة و إعلاء مقامهما والإيمان بنبوتهما وصدق رسالتهما وعدالة قضيتهما وشرعية مطالبهما الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية، والاستقبال بشوق بالغ لدعوتهما والتسليم المطلق لهما، إلى جانب الإيمان برب العالمين، مما يكشف عن الأثر القوي لجاذبيتهما في نفوس السحرة وقلوبهم.

فقد أدرك السحرة بوضوح ويقين الفرق بين السحر الذي جاؤوا به، والذي يعتمد على الحيلة والخداع والتمويه والتضليل ولا حقيقة له في الواقع، وبين المعجزة الإلهية العظيمة التي جاء بها موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين جل جلاله، ولها حقيقة واقعية فعلية فعّالة، على خلاف السحر الذي يفتقر إلى ذلك، فأذعنوا للحقيقة وآمنوا بها وأعلنوها بصراحة ووضوح وبكل شجاعة وجرأة أمام الجماهير الغفيرة المحتشدة

---

١. نفس المصدر

٢. نفس المصدر

في الميدان، وبحضور فرعون وملئه ومعاونيه وجهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري والفني، ولم يخافوا ولم يهابوا ولم يترددوا، مما يدل على شجاعتهم وثباتهم وقوة إيمانهم وقناعتهم بصواب سلوكهم وموقفهم، أي: أن السحرة صدقوا بما جاء به موسى الكليم عليه السلام من الآيات الكبرى والمعجزات النيرات الباهرات العظيمة والبينات الواضحة والأدلة الساطعة القاطعة الدالة بيقين لا يقبل الشك على ربوبية رب العالمين وتوحيده، وعلى صدق نبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام، وصدق رسالتهما من رب العالمين الذي أيدهم وأمدهم بالمعجزات؛ لإثبات صدقهما وأمانتهما، من أجل هداية الناس وإرشادهم إلى الدين الإلهي الحق والصراط المستقيم والنهج القويم، وإلى الأعمال الصالحة والأخلاق الجميلة، التي فيها خيرهم وصلاح أنفسهم وأحوالهم وأوضاعهم الخاصة والعامة، وتحقق لهم الرفاه والسعادة الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، وتوصلهم إلى كمالهم الإنساني المقدر لهم واللائق بهم، كما تدل على عدالة قضيتهم التي يسعون فيها ويعملون من أجلها، وشرعية مطالبهم الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية.

ويترتب على ذلك نفي صفتي الألوهية والربوبية عن فرعون الطاغية، وحصرهما في الله رب العالمين الحقيقي وحده لا شريك له، الذي هو رب واحد في العالم بأسره، الذي خلق العالم والمالك له والمدبر لشؤونه ولشؤون جميع الخلائق فيه، وهو وحده المستحق للعبادة والتقديس والطاعة، فلا طاعة لغيره بغير إذنه وعلى خلاف إرادته، وقد ثبت بالدليل القاطع الذي لا لبس فيه ولا شك ولا غموض ولا شبهة، أنه رب

موسى وهارون عليهما السلام الذي بعثهما بالحق والعدل والصدق والخير والفضيلة، وأرسلهما إلى فرعون وقومه الأقباط و إلى بني إسرائيل و إلى الناس قاطبة في زمانهما، و إلى أن تنقضي دورة رسالتهما وتبدأ دورة رسالة جديدة، وأيدهما بما يثبت بشكل يقيني قطعي صدق نبوتهما ورسالتهما، وليس الرب الحقيقي هو فرعون ولا غيره من الذين ادّعوا الألوهية والربوبية كذباً وزوراً وبغير وجه حق ولا حجة ولا برهان. ويترتب كذلك إثبات كذب فرعون وضلاله وخيانته وظلمه وفساد نظامه.

إن إعلان السحرة لإيمانهم أمام ذلك الحشد الجماهيري الكبير، وبحضور فرعون الطاغية وملئه ومعاونيه وجهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري والفني بجرأة وشجاعة منقطعة النظير، هو موقف إنساني نبيل، يسمو بالسحرة الكرام ويعلو بمقامهم، ويدل على سلامة طبعهم وفطرتهم وقوة منطقهم و إيمانهم وصدقهم وكمال إخلاصهم وثباتهم وعلو همتهم وقوة عزمهم وشدة قناعتهم بصواب سلوكهم وموقفهم، ولذا فاجأوا فرعون الطاغية وملأه، وكامل جهازه بموقفهم الإنساني السامي البطولي الشجاع، فلم يكن فرعون وملؤه ومعاونوه وكامل جهازه يتوقعون هذا الموقف منهم مطلقاً، وقد زاد موقفهم الإنساني البطولي من خطب الهزيمة على فرعون وملئه ومعاونيه وكامل جهازه، وجعل الأمر أكثر تعقيداً وصعوبة وحرجاً عليهم. فقد وقع الموقف في تلك الأجواء المضطربة في ظل الصدمة النفسية المفاجئة القاسية التي أحدثتها معجزة موسى الكليم عليه السلام، و إبطال عمل السحرة وتلاشيه بالكامل كالصاعقة المفاجئة وغير المتوقعة على رؤوسهم فهشمتها وأحرقت قلوبهم وحيرتهم وأصابتهم باليأس وخيبة الأمل،

أي: أنهم تعرضوا بشكل مفاجئ وغير متوقع لضربتين قاسيتين متتالتين، نزلتا على رؤوسهم كالصاعقة، وهما: بطلان عمل السحرة وهزيمتهم عن طريق المعجزة، ثم سجود السحرة طائعين وإعلان إيمانهم بالتوحيد والمعاد وصدق نبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام ورسالتهما من رب العالمين، وما يترتب على ذلك من آثار ونتائج وأبعاد نظرية وعملية، وانعكاسات جمة خطيرة، على النظام والدولة والمجتمع والملك.

فقد أتى فرعون الطاغية بالسحرة المحترفين المهرة من كل مناطق وأنحاء مصر، وبذل جهوداً جبارة مضنية، وأنفق أموالاً طائلة في حشدهم وتنظيمهم، وتحدى بهم موسى الكليم عليه السلام برجاء أن يبطل بسحرهم دعوته، ويخمد نار فتنة دينه وثورته، فإذا بالمشهد يتغير كلياً وتنقلب الأمور رأساً على عقب، فالسحرة الذين جاء بهم من كل مكان وتحدى بهم موسى الكليم عليه السلام وعلق عليهم الآمال لهزيمته، يستسلمون له طائعين غير كارهين، ويسجدون أمام الناس لرب العالمين، الذي هو رب موسى وهارون عليهما السلام، ويكفرون بألوهية فرعون وربانيته ونظامه، ويعلنون معارضتهما، ويصبحون في طليعة المؤمنين بالتوحيد وبنبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام وبرسالتهما وبعدالة قضيتهما وشرعية مطالبهما الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية، غير مبالين بما يمكن أن يتخذه فرعون والنظام من إجراءات عقابية متوقعة وغير متوقعة؛ انتقاماً منهم، غير خائفين من ذلك ولا وجلين، وذلك حين رأوا الآيات والبينات، وظهر الحق واستبان، وزهق الباطل وتلاشى وغُلب.

دروس وعبر مستفادة

ويستفاد مما سبق أمور مهمة رئيسية عديدة، منها:

أ. أن حملة الرسالات وقادة الإصلاح والثورة، يجب أن يتسلحوا أمام خصمهم بالحجج القاطعة والأدلة والبراهين الساطعة الواضحة الصحيحة، التي تثبت صحة رسالتهم وعدالة قضيتهم وشرعية حركتهم ومطالبهم الدينية والسياسية والحقوقية وغيرها، ولا يكتفوا بالمناكفة والتبريرات الباطلة ونحوها، فكل رسالة وكل دعوة وكل حركة وكل قضية وكل مطلب لا يملك أصحابها وأهلها والقائمون عليها الدليل القطعي الثابت على صحتها، فهي ساقطة من الاعتبار عن العقلاء والمنصفين ولا قيمة لها. لكن يجب التمييز بين صحة الدليل في نفسه وبالاعتبارات الموضوعية، وبين القول بفساده وتوهينه ورفضه عند المعاندين والمعارضين من الانتهازيين والنفعيين ونحوهم، الذين يتبعون أهواءهم الشيطانية ونزواتهم وشهواتهم الحيوانية، ويستغرقون في مصالحهم الخاصة وتأخذهم الحمية والعصبية الجاهلية، ويعتمدون على المناكفات والتبريرات الواهية والشبهات والأكاذيب لقلب الطاولة على الخصم ومضايقته وإحراجه والقضاء المادي والمعنوي عليه وتصفيته، ويتاجرون بالعلم والمنطق والشعارات من أجل الوصول إلى أهدافهم، ولا تنفع معهم حجة أو برهان، كما لمسنا ذلك في موقف فرعون وملئه من الآيات والبينات التي جاء بها موسى الكليم عليه السلام من عند رب

العالمين.

ب. أن موقف السحرة الإنساني البطولي النبيل والشجاع، يكشف لنا عن الفرق الكبير بين إدراك العالم الخبير للأمور، وبين إدراك غير العالم، فالعالم يدرك من الحقائق والأبعاد العلمية والعملية ومن الدلالات المنطقية والمنهجية الصحيحة، ما لا يدركه غيره. فقد أدرك السحرة، وهم أصحاب العلم وأهل الفن والخبرة والصناعة وأساتذة كبار في فنون وصناعة السحر، وكانوا أعرف من غيرهم بفنون السحر وأسرار المهنة، ويملكون من الخبرة والتدريب والحذق والمهارة في السحر ما لا يملكه غيرهم، ولا يمكن أن يخدعوا أو يغلبوا فيه، أدركوا عن علم ويقين لا يقبل الشك والريب وبوضوح لا يدخله لبس أو غموض أو شبهة، الفرق بين السحر الذين هم محترفون له وأساتذة كبار فيه، وبين المعجزة الإلهية العظيمة التي تقف وراءها قوة أزلية أبدية مطلقة قادرة على كل شيء ولا يعجزها شيء من الممكنات العقلية.

فما جاؤوا هم به، هو سحر عظيم لا نظير له ولا مثيل في فنه، وما جاء به موسى الكليم عليه السلام هو آية كبرى ومعجزة عظيمة، لها حقيقة فعلية في الواقع الخارجي وفاعلية مؤثرة لا يتوفر السحر على شيء منها، تقف وراءها أو أتت بها قوة غيبية أزلية أبدية مطلقة، فوق الطبيعة وفوق البشر، فلا يقدر غير رب العالمين القادر على كل شيء والذي خلق الكائنات الحية النبات والحيوان والإنسان من

التراب، والتي تجري جميع قوانين الطبيعة وفق مشيئته و إرادته، أن يأتي بمثلها، أي: لا يستطيع الإنسان أن يأتي بمثلها عن طريق المهارات والقدرات المكتسبة بالتعليم والتدريب والخبرة ولا بأي حالٍ من الأحوال ولا بأية صورة من الصور. وأن العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم، كلها توجب الخضوع والخشوع والتقديس والعبادة والطاعة المطلقة لهذه القوة النورانية الغيبية الأزلية الأبدية المطلقة، أي: لله رب العالمين الجامع لصفات الكمال، صفات الجمال وصفات الجلال، وتقترن عنده القدرة المطلقة بالرحمة الغامرة الواسعة، ولا يستحق غيره العبادة والطاعة، و إنما يطاع غيره بإذنه ووفق إرادته وتشريعه، ولا يطاع غيره بشكل مستقل عنه أو مخالف لإرادته وتشريعه، على قاعدة لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ومخالفة هذه القاعدة، مخالفة للعقل والمنطق والفطرة والطبع السليم ولكرامة الإنسان وحريته، ويؤدي به إلى الهلاك والشقاء الحقيقي الكامل في الدارين الدنيا والآخرة.

و إدراك الفرق بين السحر والمعجزة قد يخفى على غير أهل الفن، وقد يحتاجون لإدراكه ومعرفته إلى بعض الوقت والمطالعة والبحث والتدقيق، وقد يداخلهم فيه اللبس والشك والغموض والشبهة، أما أصحاب الحرفة وأهل الفن، فإنه يكون عندهم في غاية الوضوح واليقين، وعليه: لا استغراب ولا تعجب من سرعة إعلان السحرة لإيمانهم بالتوحيد وتصديقهم بنبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام ورسالتهما من عند رب العالمين، الذي بعثهما وأرسلهما وأيدهما

بما يثبت صدقهما، وأن يكون ذلك الإعلان أمام الجماهير الغفيرة المحتشدة، وبحضور فرعون وملئه ومعاونيه وكامل جهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري والفني، وبكل وضوح وصراحة، وتوطين أنفسهم على تحمل كافة التبعات والمسؤوليات، وعدم مبالاتهم بالإجراءات الفرعونية العقابية، المتوقعة وغير المتوقعة؛ انتقاماً منهم.

ب. كشف الموقف الإنساني النبيل والشجاع للسحرة، عن طيب أنفسهم وسموهم وحسن طبعهم وسلامة فطرتهم ورجحان عقلهم، وقوة ومتانة منطقهم ومنهجهم في التفكير، فقد أدركوا الحقيقة كما هي عليه، وأدركوا أبعادها وتبعاتها العلمية والعملية، ووجوب التسليم بها والخضوع إليها والعمل بمقتضاها؛ لأن الوصول إلى كمالهم الإنساني المقدر لهم واللائق بهم وصيانة كرامتهم، وتحصيل ما فيه خيرهم وصلاحهم و إصلاح أحوالهم وأوضاعهم الخاصة والعامة، وما فيه مصلحتهم الخاصة، ومصالح الناس الجوهرية العامة في دورة الحياة الكاملة، وسعادتهم الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، كلها تتوقف على معرفة الحقيقة والتسليم بها والخضوع إليها واتباعها والعمل بمقتضاها، مما جعلهم يتغلبون على عوامل الخوف والطمع، ويتجاوزون الترهيب والترغيب والإغراءات والمصالح الآنية الضخمة، وكل ما به تكون عملية افتضاض الضمير الإنساني وسياسة الإخضاع اللاإنسانية، وهو الأمر الذي يفشل فيه الكثير من الناس من أصحاب النفوس الواطية

والعقول الضعيفة والأحلام السفيهة من الانتهازيين والنفعيين الأنانيين من أدعياء الثقافة وحملة الشهادات وأصحاب الأقلام الرخيصة التافهة، الذين يتعلقون بعالم الدنيا والمادة، ويستغرقون في ذواتهم ومصالحهم الدنيوية الفانية، والشهوات والملذات الحيوانية، ويضعفون أمام التهديدات والاغراءات، وينسون الله ذا الجلال والإكرام والآخرة والدين الحنيف والمبادئ السامية والقيم العالية والمصالح العامة، ويبيعون كرامتهم ودينهم وضميرهم وما لديهم من الثقافة والفنون والعلوم والأدب والمواهب، رخيصة لمن يدفع إليهم الثمن في سوق النخاسة السياسية، وذلك لفساد طبعهم وفطرتهم وضعف منطقهم وانحراف منهجهم في التفكير، ولجهلهم بحقيقة أنفسهم ومبدئهم ومعادهم وما فيه خيرهم وصلاحهم و إصلاح أوضاعهم وأحوالهم ومصلحتهم الحقيقية، وما يوصلهم إلى كمالهم الإنساني المقدر لهم واللائق بهم، وسعادتهم الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة.

وبناءً عليه: ليس كل من يعرف الحقيقة يسلم بها ويخضع إليها ويعمل بمقتضاها، قول الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1] كما هم الحمقى السفهاء ضعفاء العقول سفهاء الأحلام فاسدي الطبع من الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين والانتهازيين الأنانيين والنفعيين الفاسدين الذين أفسد غرور السلطة والثروة

١. النمل: ١٤

والقوة والاستغراق في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية الفانية والأهواء الشيطانية والشهوات والملذات الحيوانية، فطرتهم وطبعهم ومزاجهم وأضعف منطقهم وحرف منهجهم في التفكير عن جادة الصواب، وحجبهم عن رؤية نور الحقيقة الساطع، وكذلك حال الأتباع الضالين الذين يعيشون ويتصرفون تحت تأثير التعصب الأعمى الديني والمذهبي والعرقي، ويقبلون بالخنوع والمذلة والهوان بالخضوع للأمر الواقع المفروض عليهم على غير إرادتهم ومصلحتهم، ويخافون ويخشون من التغيير والإصلاح، وقد يتوهمون بأن الخير والصلاح في الأمر الواقع المفروض عليهم، فلا يهتدون للحق والصواب ولا تنفع معهم موعظة ولا حجة ولا برهان ولا منطق، ويبيعون دينهم وآخرتهم بدنيا غيرهم، ويسلم بالحقيقة ويخضع إليها ويتبعها ويعمل بمقتضاها ولا ينفك ولا ينفصل عنها ولا يخالفها العاقل الحكيم سليم الفطرة قوي المنطق الذي يضع الأمور في مواضعها الصحيحة.

ج. أن التغيير المفاجئ الذي حدث للسحرة الكرام، فكانوا مؤمنين بررة واصلين، بعد أن كانوا كفرة فجرة مطرودين مبعدين عن ساحة القدس الإلهي، و إعلانهم إيمانهم أمام الجماهير الغفيرة المحتشدة في الميدان، وبحضور فرعون وملئه وأعوانه وكامل جهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري والفني، بكل وضوح وصراحة وشجاعة منقطعة النظير، موطّنين أنفسهم على تحمل التبعات والمسؤوليات كافة أمام الأجهزة الرسمية والرأي العام والتاريخ،

غير خائفين ولا مبالين بالإجراءات الفرعونية العقابية والمتوقعة وغير المتوقعة؛ للانتقام منهم، يدل على أن نور الإيمان والهداية والتوحيد، موجود في قلب كل إنسان بفطرته، إلا أن التربية الاجتماعية المنحرفة، وبعض العوامل، مثل: غرور السلطة والقوة والثروة والمناصب العليا والمكانة المتميزة، الدينية والعملية والاجتماعية، والاستغراق في عالم الدنيا والمادة والمصالح والأهواء والشهوات والملذات الحسية والتعصب الأعمى الديني والمذهبي والعرقي ونحو ذلك، قد تحجب قلب الإنسان عن رؤية نور الإيمان والهداية والحجة والبرهان والموعظة، وتمنع الإنسان عن إعلان الإيمان وما يتقنه في أعماق نفسه من الحقائق. وقد يقف ضدها ويحاربها على أنها أباطيل وأوهام وخرافات، رغم يقينه في داخل نفسه من أنها حقائق. وقد تطول المدة أو تقصر، ثم تهب بعض العواصف وتحدث بعض الابتلاءات والمحن والتنبيهات والتحذيرات، فتزيح تلك الحجب ويسطع ذلك النور الإلهي في قلب الإنسان ويأخذ بالإبصار، فيهتدي الإنسان بعد الضلال، ويطيع ويخضع للحقيقة بعد المعصية والتمرد كما حصل للسحرة الكرام، وقد لا ينفع شيء من تلك الابتلاءات والمحن والتنبيهات والتحذيرات فتبقى تلك الحجب راسخة في مكانها رغم كل تلك العواصف، فيبقى صاحبها على الكفر والضلال حتى يرى العذاب الأليم كما حصل لفرعون وملئه وجنوده وأعوانه.

الجدير بالتنبيه: ليس غرور السلطة والقوة والثروة والمناصب العليا

وحده، الذي يحجب القلب عن رؤية نور الإيمان ويمنع الإنسان عن التصريح به، و إنما غرور المكانة الدينية والعلمية قد يحجب القلب عن رؤيه نور الإيمان والحقيقة والبرهان، ويمنع الإنسان عن إعلانه والتصريح به، فيرى صاحب المكانة بأنه لمكانته فوق أن ينصح أو يهدى أو يُعلّم أو يغلب في حوار ونحوه، فيعاند ويكابر ويجادل بالباطل حتى يضل ويكفر عن علم ويقين، وقد يبرر ويصوّر الباطل في صورة الحق بسبب أنانيته، دفاعاً عن ذاته المتضخمة، وهذا مما كشفت عنه التجارب التاريخية والمعاصرة، وهو من شأنه أن يحمل الجميع، لا سيّما المعنيين، على الحذر الشديد، وفرض المراقبة والمحاسبة الدقيقة للنفس، والعمل على تصحيح الخلل إن وجد، من أجل النجاة من الهلاك والشقاء والوصول إلى الكمال الأسمى، وتحصيل السعادة الحقيقية الكاملة وما هو أفضل.

تهديد فرعون ووعيده بالانتقام منهم

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

كان موقف السحرة الكرام، لما رأوا بعقل مفتوح ونفس زكية طاهرةٍ من الأغراض الدنيوية الدنيئة، ابتلاع عصا موسى الكليم عليه السلام لكل ما جمعوه من الحبال والعصي وأتوا به من السحر الذي سحروا به أعين الناس واسترهبوهم، وأدركوا الفرق الكبير الذي لا يمكن قياسه بين السحر القائم على الحيلة والخداع، وبين المعجزة الإلهية العظيمة، وعلموا علم اليقين الذي لا يقبل

الشك والريب والرد استناداً إلى ما لديهم من العلم والخبرة والمهنية في السحر، بأن ما جاء به موسى الكليم عليه السلام ليس من السحر ولا مشابه له، بل هو آية إلهية كبرى ومعجزة عظمى أتت بها وتقف وراءها قوة غيبية أزلية مطلقة، فوق الطبيعة وفوق البشر، وهو رب العالمين، مالك ومدبر العالم بأسره، وهو رب موسى وهارون عليهما السلام الذين بعثهما رحمة للعالمين وأيدهما بما يثبت صدقهما، وأن العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم، كلها توجب وجوباً عينياً على كل إنسان عاقل، أن يعبده ويقدسه ويطيعه ويخضع له خضوعاً تاماً صادقاً مطلقاً بدون قيد أو شرط، ويستقبح العقل والمنطق معصيته والاستكبار عليه وجحود نعمته، فخرُّوا تلقائياً وبدون تكلف أو تخلف أو تردد ساجدين لله رب العالمين ذي الجلال والاكرام الرحمن الرحيم معلنين بشكل واضح وصريح وبشجاعة منقطعة النظير، الإيمان بالتوحيد والمعاد، ومصدقين بنبوة موسى وهارون عليهما السلام ورسالتهما العالمية الشاملة الجامعة لكل ما يحتاجه الناس من المعارف الإلهية الحقة والتشريعات والمواعظ والسيرة في دورتها الرسالية، وبعدالة قضيتها وشرعية مطالبها الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية، وعازمين عزماً جازماً على الامتثال إلى الأوامر والنواهي الإلهية والنبوية، وناقمين لصفتي الألوهية والربوبية عن فرعون الطاغية المتجبر وأمثاله، ومتهمين له بالكذب والافتراء؛ لأنه ادعى ما ليس له بحق عن علم ويقين، وبالخيانة؛ لأنه خان الحقيقة وأمانة الحكم والرعاية والمسؤولية والكلمة، وبالفساد؛ لأنه طغى وتجبر ومارس الظلم والجور والتمييز والاضطهاد والاستعباد والاستحمار، واستولى على الملك والثروة والمقدرات واستأثر بها دون الناس

بغير حق ولا حجة ولا برهان، وفرض إرادته السياسية والتشريعية عليهم بدون رضاهم وعلى خلاف مصلحتهم، وأعلنوا التمرد على النظام الملكي الفرعوني الفاسد، والأسس الفكرية والدينية التي يقوم عليها، وعلى الدولة الفرعونية والحكومة الفرعونية المستبدة الظالمة؛ لأنها جميعاً لا تقوم على أساس عقلي منطقي صحيح، وتنتهك حقوق الإنسان وحريته وكرامته، وتعمل على غير مصلحته.

وفي المقابل كان موقف فرعون الطاغية: فهو بسبب الاستغراق في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية الفانية، وفي حب الذات المتضخمة والأنانية المفرطة، والابتلاء بجنون العظمة والوقوع تحت تأثير غرور الملك والسلطة والقوة والثروة، ولفساد فطرته وخبث طبعه وضعف منطقه، لا ينظر إلى الأمور ويقيمها من جهة الحقائق الواقعية الموضوعية، ولا بحسب العقل والمنطق وما تقوم عليها وتستند إليها من حجج وبراهين وأدلة، ولا بحسب المبادئ السامية والقيم الإنسانية العالية الرفيعة والمصالح العامة المشتركة بين الناس، أو نحو ذلك، وإنما ينظر إليها ويقيمها بأنانية مفرطة من جهة ذاته المتضخمة ومصلحته الدنيوية الخاصة ومصلحة نظامه ودولته وحكومته بما هي متعلقة به وتدور في فلكه وتخدم مصلحته الخاصة وتشبع شهواته ورغباته الحيوانية وترضي أهواءه الشيطانية، لا بما هي مؤسسات ضرورية للحياة الاجتماعية للإنسان، وتصب في المصلحة العامة المشتركة بين الناس، وتعبر عن قناعتهم وإرادتهم ووسيلة إلى تحضّرهم ومدنيتهم وتطورهم، وإن ذكر شيء من ذلك في المناسبات، فمن باب التشدق، وليس عن قناعة وإيمان ورغبة جادة في العمل بها

وتطبيقها. فهو يرى نفسه رب المصريين الأعلى ومالكهم وسيدهم ورازقهم ومدبر أمورهم وأحوالهم وأوضاعهم وكافة شؤونهم الخاصة والعامة، وبيده لا بيد غيره مصيرهم وله السلطة المطلقة عليهم، فقوله مطاع وأمره نافذ، ولا يحق لأحد منهم أن يخرج لأي سبب كان عن قوله وحكمه، أو يتصرف بشيء أو يعمل أو يقول شيئاً من دون إجازته وإذنه وعلى خلاف إرادته ورغبته، لأن رأيه وقوله هما عين الحقيقة والحكمة والصواب. حتى الإيمان الذي هو قضية مصير وجودي للإنسان، تتوقف عليها نجاته أو هلاكه، سعادته أو شقاؤه، ويعبر عن جوهر كرامة الإنسان ومكانته الوجودية بين كافه المخلوقات، وهو من أعمال القلوب، ويجب أن يخضع لحكم العقل والمنطق والبرهان والدليل، وينبع من وجدان الإنسان وضميره، وقد لا يكون للإنسان فيه اختيار، وليس له عليه سلطة؛ لأنه متى ظهر الدليل وبان للعقل، فرض نفسه عليه وانعقد، ولا يملك الإنسان إلا أن يكون مقتنعاً به في داخل نفسه، حتى وإن أنكره في الظاهر بلسانه.

قول الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1] أي: نفوا وأنكروا بألسنتهم ما ثبت وقر بالدليل، وأيقنت بصحته قلوبهم، فلم يكن جحودهم به عن شك أو جهل، بل مع العلم واليقين بأنه حق، وذلك تعدياً منهم على الحقيقة والمنطق، وظلماً لأنفسهم؛ لأنهم أوردوها بذلك موارد المهالك، واستكباراً منهم على الحق، وأنفةً عن الانقياد لأهل الحقيقة وأربابها، وطلب التفوق والتميز بغير وجه حق، ومع ذلك فإن فرعون الطاغية المتجبر، الغارق في جنون العظمة والتسلط وفي ظلمات

١. نفس المصدر

الأنانية المفرطة وحب الذات المتضخمة، يريد لفساد رأيه وضعف منطقه، أن يكون الإيمان بإذنه وإجازته، كما هو منطق الطغاة الذي لا يقوم على المنطق والحجة، فلا يحق لأحد أن يكفر أو يؤمن أو يعبر عن رأيه بدون أمره وإجازته، وعلى خلاف إرادته ورغبته.

وعليه: استنكر فرعون الطاغية على السحرة الكرام الإيمان بالتوحيد الذي دعا إليه موسى الكليم عليه السلام والمعاد، وبنبوة موسى وهارون عليهما السلام ورسالتهما، وبعدالة قضيتهما وشرعية مطالبهما الإصلاحية، الدينية والسياسية والحقوقية، استناداً إلى الحجة الواضحة والدليل الساطع والبرهان القاطع، قبل أن يأمرهم بذلك ويأذن لهم به، قوله تعالى: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾[1] وقال ذلك تأنفاً واستكباراً، وهو إخبار يفيد بحسب المقام الإنكار والتوبيخ، أو استفهاماً إنكارياً أو توبيخياً محذوف الأداة؛ لأنه ربهم الأعلى، وله سلطات مطلقة عليهم، وإليه يجب أن تخضع أجسامهم وعقولهم وقلوبهم، وليس لهم أن يخالفوه أو يعارضوه في شيء من أعمال الأجسام أو العقول أو القلوب، مثل: الإيمان والتفكير والعمل، أو يقرروا مصيرهم العام أو الوجودي بأنفسهم بدون إذنه وإجازته وعلى خلاف رغبته وإرادته، استناداً إلى الحقائق الواقعية الموضوعية التي تنكشف لأبصارهم بالنظر والمعاينة، أو لعقولهم بالحجة والدليل والبرهان، أو لقلوبهم بالمشاهدة والتجلي والعرفان، ويتساوى في ذلك جميع أهل المملكة العامة والنخبة، الدينية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية وغيرهم، ويعتبر التصرف المخالف لرغبته وإرادته في شيء من أعمال

---

١. الأعراف: ١٢٣

الأجسام أو العقول أو القلوب، من سوء الأدب معه، والجرأة على مقامه وعظمته وسلطانه، وخروج على الدين الرسمي والأعراف والتقاليد والدستور والقوانين المعمول بها في البلاد، فذاته مصونه لا تمس. وهذا في الحقيقة أمر في غاية الاستعباد والاستحمار، ويمثل أقصى درجات الانتهاك لحقوق الإنسان وحريته وكرامته، بأن يكون الشعب بأسره مقيداً وأسيراً بيد الحاكم المستبد الجائر، إلى درجة لا يملك أحد حق التفكير المستقل والإيمان بعقيدة والتعبير عن الرأي بخلاف إرادة الحاكم المستبد ورغبته، وباسم الدستور والقانون، ومن أجل المحافظة على رمزية الحاكم المستبد وهيبة الدولة والأمن والاستقرار ومصالح الشعب!! وتفرض الرقابة الشديدة وراء الأسوار الحديدية المعلقة على كل شيء، لا سيما وسائل الإعلام والأجهزة الثقافية والمنابر الدينية ونحوها؛ لكي لا يصل نور العلم والمعرفة والهداية الحقة إلى أبناء الشعب، فيعلنوا رفض حكم الأمر الواقع والظلم والجور والاستعباد والاستحمار والانتهاك لحقوق الإنسان، ويتمردوا على النظام الفاسد والدولة الجائرة والحاكم المستبد، ثم تتمكن الأجهزة الحكومية الدينية والثقافية والإعلامية والسياسية والحقوقية وغيرها، الخاضعة بالتمام والكمال للحاكم المستبد، من عملية غسيل جماعي للأدمغة من أجل إخضاعها للتبعية، وهذا بلاء عظيم، وشكل للانحطاط: الفكري والروحي والسلوكي، والتحلل الأخلاقي والاجتماعي، وسبب كافٍ للتخلف الحضاري الشامل بين الأمم.

وقيل: أراد فرعون الطاغية من التعبير عن موسى الكليم عليه السلام بالضمير،

في قوله ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾[١] التحقير والاستهانة بشأنه والازدراء به، في مقابل ما يتمتع به من الأبهة والعظمة والجلال، علماً بأن مجرد دخول الإيمان إلى قلوب السحرة وغيرهم من أهل مملكته بغير إذنه و إجازته، وعلى خلاف رغبته و إرادته، دليل على ضعفه ومحدوديته وحقارته، وبطلان ألوهيته وربوبيته و إثبات كذبه وخيانته، وعدم استحقاقه للملك وتولي المناصب العامة وتحمل المسؤولية.

وقيل: أراد فرعون الطاغية من التوبيخ والاستنكار على السحرة إيمانهم قبل أن يأمرهم ويأذن لهم بذلك أمور عديدة، منها:

أ. أن يصف نفسه بالأمانة والنزاهة والموضوعية والتجرد في طلب الحقيقة وتحريها والبحث عنها، و إثبات رجحان العقل وقوة المنطق والخبرة والحكمة العملية، والمعرفة بخبايا الأمور والمؤامرات ونحوها لنفسه.

ب. أنه لم يتبين له بالدليل الصحيح، وهو الخبير والراجح عقلاً، صدق موسى الكليم عليه السلام فيما يدعيه من النبوة والرسالة عن إله عظيم هو رب العالمين كما يزعم، ولو تبين له صدقه، لكان بطبيعة الحال وبحكم المسؤولية التاريخية عن شعبه أول المؤمنين به، ولأذن للسحرة ولجميع الناس بالإيمان به وحثهم وشجعهم عليه.

وبناءً على ما تقدم: فإن مسارعة السحرة إلى الإيمان بالتوحيد والمعاد والتصديق بنبوة موسى وهارون عليهما السلام ورسالتهما وعدالة قضيتها وشرعية

---

١. نفس المصدر

مطالبهم الاصلاحية، يدل على التهور وعدم التبين والتثبت ومخالف لحكم العقل ولمقتضى الحكمة والصواب، بسبب عدم الرجوع إلى أهل العلم والخبرة والبصيرة في مسألة جوهرية ومصيرية وذات أبعاد جمة واسعة، عملياً ونظرياً، وانعكاسات خطيرة جداً على النظام والدولة والحكومة والدين والثراث والثقافة ومصالح الشعب، متجاهلاً كون هذه المسألة من المسائل التي يجب أن يستقل بها الإنسان عن غيره، وأن مكانته الوجودية كإنسان تتوقف على هذه الاستقلالية، وبفقدان الاستقلالية يفقد إنسانيته ومكانته. كما اعتبر فرعون في إيمان السحرة قبل أمره وبدون إذنه و إجازته، إساءة للأدب مع مقامه وعظمته، وجرأة مفرطة على سلطته، وسعي لتحطيم هيبته الشخصية وهيبة النظام والدولة، وتشجيع العوام والجهلة والهمج الرعاع على التمرد وتحريضهم على ذلك، وهذا من شأنه أن يهدد الأمن والاستقرار ويضر بمصالح الشعب ويستحق فاعله أشد العقوبات.

ولأن الموقف جاء من السحرة وهم من العقلاء ومن خيرة النخبة في الدولة، فهذا يدل على أنه لم يكن عملاً عفوياً، بل هو عمل مدروس ومخطط له، فهو يكشف عن حيلة وعن مؤامرة خبيثة مدروسة وكاملة الأركان، قد تم تدبيرها وتبييتها منذ مدة، وتواطأ عليها السحرة المجرمون الخونة مع معلمهم الأكبر وقائدهم الأوحد الذي علمهم السحر وهو موسى الكليم عليه السلام قبل أن يخرجوا إلى ميدان المبارزة في الصحراء، ولعلماء التفسير قولان حول وقت إعداد المؤامرة ومكانها، فمنهم من قال: أن

مكانها كان العاصمة بدليل قوله: ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾[١] في اجتماع عقده موسى الكليم عليه السلام مع السحرة قبل خروجهم إلى ميدان المبارزة في الصحراء، ومنهم من قال: أن المؤامرة قد تم إعدادها وتوافق عليها موسى الكليم عليه السلام مع السحرة قبل مدة طويلة، وأن ادعاء موسى الكليم عليه السلام للنبوة والرسالة، كان جزءاً من المؤامرة، وأن لفظ المدينة لا يدل على العاصمة كما ذهب إليه أصحاب الرأي الأول، و إنما يدل على عموم البلاد مصر. وعلى كل حال فإن تهمة التآمر مع الأعداء والخيانة العظمى هي من التهم التي دأبت على توجيهها الأنظمة الدكتاتورية الفاسدة والحكومات المستبدة الظالمة لمواجهة مطالب المعارضة العادلة، الإصلاحية والثورية، بهدف تضليل الرأي العام وتشويه سمعة المعارضين وتبرر معاقبتهم والانتقام منهم والقضاء عليهم، وهذا مما ينبغي فهمه وحسن التعامل معه.

وقد بيّن فرعون بأن هدف المؤامرة هو الانقلاب على النظام الفرعوني الشرعي القائم والمدعوم والمبارك من الآلهة، وعلى الدولة والحكومة والملك والشعب والدين والتراث، و إسقاط النظام والدولة وجميع مؤسساتها المدنية والأمنية والعسكرية، وتغيير الدين والتراث، والسيطرة على الأوضاع في البلاد، واستلام زمام السلطة والقيادة، و إقصاء الملك وأعوانه وأنصاره و إبعادهم عن جميع المناصب العليا والحساسة، وطرد الأقباط من أرضهم ووطنهم وديارهم من أجل الاستئثار بالحكم والثروة والمقدرات دونهم، وقد جرى إعداد المؤامرة والسعي في تنفيذها في غفلة من الملك وأجهزة الدولة ورجال الأمن المخلصين الشرفاء من المواطنين

---

١. نفس المصدر

الموالين للشرعية، وكلها جرائم وذنوب كبيرة يستحقون عليها أشد العقوبات، قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[١] أي: تعلمون ما أحل بكم من العقوبة به جزاء مكركم وخيانتكم العظمى وجرائمكم الكبيرة بعد اكتشافها وقيام الدليل عليها و إدانتكم بها.

وهذه التهمة الباطلة من كيد فرعون بالسحرة، من أجل معاقبتهم ليكونوا عبرة لغيرهم لكي لا يفعلوا مثل فعلهم. فهو يعلم علم اليقين، بأن موسى الكليم عليه السلام لا علاقة له بالسحر، ولم يلتق بالسحرة قبل أن يراهم في ميدان المبارزة في الصحراء في يوم الزينة، ولا يعرفهم ولا يعرفونه. فموسى الكليم عليه السلام قد تربى في قصر فرعون وتحت نظره منذ كان رضيعاً إلى أن خرج من مصر خائفاً على نفسه يترقب القتل بعد قتله للرجل القبطي عن طريق الخطأ. فهو يعرف موسى الكليم عليه السلام عن قرب، ويعرف خصائص شخصيته وطبائعه وأخلاقه واستقامة سلوكه. وبعد رجوعه إلى مصر، دخل مباشرة إلى قصره يحمل إليه رسالة رب العالمين ولم يلتق بأحد فيها قبله غير أخيه وشريكه في النبوة والرسالة هارون عليه السلام وأن فرعون وملئه هم الذين اختاروا مواجهة موسى الكليم عليه السلام بالسحرة، وجمعوا السحرة المحترفين المهرة عن طريق ضباط وجنود الجيش الموالين لفرعون والنظام من جميع مناطق وأنحاء مصر، وعقدوا معهم اجتماع عمل قبل المبارزة، وحثوهم وشجعوهم وحرضوهم ضد موسى الكليم عليه السلام وجعلوا المبارزة في الصحراء في يوم الزينة (يوم العيد) ونشروا الاعلانات والدعايات من خلال كافة وسائل الإعلام الرسمية والشعبية،

---

١. نفس المصدر

وحثوا الناس من خلال الرموز والمنابر الدينية لضمان حضور أكبر عدد ممكن من الناس، وذلك لثقتهم التامة وكامل اطمئنانهم بأن النصر والغلبة ستكون حتماً للسحرة.

ولم يلتق أحد من السحرة بموسى الكليم عليه السلام إلا في يوم وميدان المبارزة في الصحراء، ولم يكن يعرفهم أو يعرفونه من قبل، وكان السحرة يؤلهون فرعون الطاغية، وساهموا بفاعلية كبيرة في تعزيز حكمه ونفوذه وبسط سلطته وتحكيمه في رقاب العباد، عن طريق الأدوار التي كانوا يمارسونها في الحياة العامة للمصريين، الدينية والعلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية وغيرها، وباسم الدين والعلم والثقافة والفن والقومية والدستور والقانون وغيرها، ومارسوا الكذب والتضليل والخداع والتمويه على نطاق واسع وشامل في سبيل ذلك، كما هو دأب النخبة الزائفة من المثقفين والفنانين وأصحاب الحرف ورجال الأعمال وحملة الشهادات العليا ونحوهم، المتملقين للنظام الدكتاتوري الفاسد والحاكم المستبد الظالم، وتبرير أخطائهم وفسادهم وجرائمهم والدفاع عنهم وعما يتمتعون به من امتيازات وصلاحيات واسعة وسلطات مطلقة، ويثنون عليهم ويحمدونهم بما لم يفعلوا، وينسبون إليهم كل إنجاز وتطور ويختصرون الأمة كلها فيهم، وينفون عنهم كل خطأ وتقصير ويضعونهم في صفوف الأصفياء والقديسين، وذلك بدافع أنانيتهم ومن أجل مصالحهم الخاصة، وللحصول على الفتات من موائدهم ومن قمامة منازلهم، متنكرين للدين الحنيف والعقل والمنطق والمبادئ السامية والقيم الرفيعة والمصالح العامة، الإنسانية والدينية والقومية والوطنية العليا، فتباً لهم

وتعساً.

ولو كان موسى الكليم عليه السلام هو كبير السحرة وعظيمهم وأستاذهم الذي علمهم السحر كما يزعم فرعون الطاغية، لوجب أن يكون معروفاً ومشهوراً في جميع الأماكن وبين أكثر الناس إن لم يكن جميعهم، بحكم الأمر وطبيعته، لما يتمتع به السحرة من مكانة رسمية وشعبية، ولما يقومون به من أدوار مهمة وكبيرة في حياة المصريين العامة والخاصة، ولم يكن إنساناً بسيطاً مطموراً بين ركام الحياة.

وقد بذل السحرة أقصى وغاية مجهودهم، وأخرجوا أفضل ما عندهم من العلم والمعرفة والخبرة والمواهب والقدرات والمهارات الفنية والحذق في صناعة السحر، ونثروا كل ما وسعته جعبتهم من فنون الكذب والخداع والتمويه والتضليل، ولم يدخروا شيئاً يملكونه من أجل تحقيق الغلبة على موسى الكليم عليه السلام لإثبات تفوقهم عليه والتقرب إلى فرعون الإله والفوز برضوانه ومكافأته العظيمة النوعية المادية والمعنوية التي وعدهم بها، ولكنهم عجزوا بعد الاجتهاد وبذل أقصى الوسع والطاقة وفشلوا في الوصول إلى ما قصدوا، وانتصر عليهم موسى الكليم عليه السلام بالرغم عنهم، وكانت الهزيمة النكراء غير المتوقعة التي فاجأتهم، هي الواقعة التي فاقت كل المقاييس، وكشفت عن حقيقة أن ما جاء به موسى الكليم عليه السلام ليس من السحر ولا مشابه له، بل هو آية إلهية كبرى ومعجزة إلهية نيرة عظمى، تقف وراءها بالتأكيد قوة غيبية أزلية أبدية مطلقة، فوق الطبيعة وفوق البشر، فتبين لهم الحق وعرفوه، وتيقنوا منه بشكل

قاطع لا شك فيه وواضح لا لبس فيه ولا غموض ولا شبهة عليه، بما هم أهل العلم والخبرة المحترفين في الفن، مستندين في علمهم ويقينهم إلى الدليل المنطقي الصحيح والمشاهدة العلمية المنهجية الواضحة والتامة، فخضعوا للحقيقة حين عرفوها وتيقنوا منها، وسلموا لها ولم يكابروا كما يفعل أهل العناد، وأعلنوا إيمانهم إلى الناس بتلقائية وبدون تكلف أو تخلف أو تردد، وبجرأة وشجاعة منقطعة النظير.

وقد وطنوا أنفسهم على تحمل جميع العواقب والتبعات، واستعدوا لإنزال العقوبات المتوقعة وغير المتوقعة؛ انتقاماً منهم، وهو موقف إنساني بطولي نبيل، تقتضيه الحكمة والكرامة الإنسانية، وتستدعيه الفطرة والطبع السليم، ويحكم به العقل والمنطق والدين الحنيف، لكن الطواغيت الضالين والفراعنة والطغاة المتجبرين، والحكام المستبدين الظلمة، والمترفين المستغلين، والانتهازيين الأنانيين، والنفعيين الفاسدين، كلهم لا يعرفون معنى للإنسانية والحرية والكرامة، ولا يقيمون وزناً للحقائق والدين الحق والعقل والمنطق والمبادئ والقيم، ومنطقهم الوحيد هو منطق العنف والإرهاب وسياسة الحديد والنار، وأسلوبهم الوحيد هو الترغيب والترهيب لفض وشراء الضمائر، و إذا غُلِبوا بالحقائق والحجة والدليل والمنطق، ردوا بلغة الحديد والنار ومنطق العنف والإرهاب والقوة، لفرض حكم الأمر الواقع، المخالف للعقل والمنطق، والمعاكس للإنسانية والحرية والكرامة وحقوق الإنسان الطبيعية في الحياة.

وعليه: فإن دعوى الإلتقاء والتآمر والتواطؤ بين السحرة وبين موسى

الكليم عليه السلام أكذوبة مفضوحة لا يقتنع بها إلا الجهلة والمغرضين من التابعين والموالين للنظام والملك، ولا تستند إلى حجة صحيحة ولا برهان.

وقول فرعون الطاغية: ﴿آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾[1] مشبع بالأنانية المفرطة، والتعجرف والأنفة والكبرياء والتجبر، ويكشف عن ذات في غاية التغول والتضخم، والاعتقاد لنفسه بالسلطة المطلقة على الناس، بغير وجه حق وبلا حجة أو دليل أو برهان، كما هو حال جميع الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين الظالمين والمترفين المستغلين الواقعين تحت تأثير غرور السلطة والقوة والثروة والمناصب على طول التاريخ وعرض الجغرافيا.

ولأن فرعون الطاغية رأى، بأن استقلال السحرة بالإيمان و إعلانه قبل أمره وبدون الرجوع إليه و إلى إذنه و إجازته، قد لا يكون مبرراً كافياً عند عامة الناس لإنزال العقوبة بالسحرة والانتقام منهم، وقد يعتقد البعض بأن ذلك حق لهم أو أنهم معذورون، رغم تربية أجهزة الدولة الفرعونية للناس على الطاعة المطلقة العمياء لفرعون والخضوع لإرادته، لكن التجارب علمته بأن الناس في أنفسهم وبحسب منطقهم الطبيعي وفطرتهم، قد ينكرون ذلك ولا يرضونه ويتعاطفون مع الضحية تحت عنوان المظلومية ونحوها، أي: أن فرعون و إن كان يعتقد في نظر نفسه ويوافقه ملؤه وأنصاره ومعاونوه، بأن مجرد إيمان السحرة و إعلانهم له بدون إذن فرعون و إجازته، يعد سبباً كافياً لمعاقبتهم والانتقام منهم؛ لأنهم خالفوا مقتضى

---

١. نفس المصدر

الإيمان بألوهية فرعون وربوبيته وتحدوا سلطاته المطلقة عليهم، ونالوا من هيبته ومقامه وعظمته، ولما يشكله موقفهم من خطر جسيم وتهديد للنظام والدولة، إلا أنه يهتم في مثل هذه الظروف الحساسة والصعبة بالغة الخطورة بالرأي العام، لا إيماناً منه به في نفسه، بل لحاجته الملحة إليه في هذه الظروف.

وعليه: فقد بحث عن أسباب إضافية لتكون مبرراً كافياً لمعاقبته السحرة والتنكيل بهم؛ لأنه في حاجة سياسية وأمنية بالغة لإنزال أشد العقوبات بالسحرة، لكي يجعلهم عبرةً لغيرهم، فلا يفعل أحد مثل فعلهم، ولكي يبطل مفعول إيمانهم الخطير جداً في الناس، فيفكر الناس في كيفية الانتقام منهم، أكثر من تفكيرهم في حقيقة إيمانهم ودوافعه، وذلك لما يمثله إيمان السحرة من تهديد جدي وبعيد المدى على النظام والدولة يجب وقفه والقضاء عليه في مهده، لما يتمتع به السحرة من مكانة دينية وعلمية وثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية، والأدوار الخدمية التي يقوم بها السحرة في الحياة العامة والخاصة للمصريين. فقد تحدى السحرة بموقفهم الإنساني البطولي صفة فرعون الدينية ومقام عظمته وسلطانه، وحطموا الهالة القدسية الوهمية التي أحاط بها نفسه وأحاطه بها ملؤه وبطانته وأعوانه وجوقة المتملقين والمتزلفين من الانتهازيين الأنانيين والنفعيين الفاسدين بغير وجه حق ولا حجة وبرهان.

لقد رأى فرعون الطاغية وتيقن بدهائه وخبرته العملية، بأن الانتقام من السحرة و إنزال أشد العقوبات الجسمية والنفسية عليهم والتنكيل بهم،

هو السبيل الوحيد أمامه، والوسيلة المثلى لإنقاذ نظامه الملكي الفاسد ودولته الجائرة عن الحق والعدل وحكومته المستبدة الظالمة وملكه ومصالحه وصلاحياته وامتيازاته غير الشرعية وغير الواقعية والمخالفة للعقل والمنطق ولكرامة الإنسان وحقوقه والمصلحة العامة. وقد شاركه ملؤه ومعاونوه وأنصاره وكامل جهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري والفني الرأي؛ لأن الانتقام و إنزال أشد العقوبات الجسمية والنفسية والتنكيل البشع بالسحرة، يشغل الناس بالتفكير في الانتقام والخوف منه، أكثر من اشتغالهم بالتفكير في حقيقة إيمانهم ودوافعه بل يصرفهم عنه تماماً، و إذا لم يفعل فرعون ذلك، ولم يظهر ردة فعل عنيفة وقاسية جداً وفورية إزاء جرأة السحرة وشجاعتهم في إعلان إيمانهم أمام الجماهير وبحضرته مع ملئه ومعاونيه وأنصاره وكامل جهازه، فإن الأمر سينتهي حتماً إلى إيمان غالبية الناس و إظهار إيمانهم و إعلانه اقتداءً بالسحرة ومتابعة لهم، وهي سابقة خطيرة جداً، يفقد معها النظام والدولة والحكومة والملك لهيبتهم في نفوس الناس، ويظهر الناس الجرأة عليهم، وذلك لأسباب عديدة، منها:

١. ظهور الآيات الواضحات والمعجزات النيرات الباهرات على يد موسى الكليم عليه السلام وهي دليل قاطع على صدق نبوته ورسالته وعدالة قضيته وشرعية مطالبه الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية.

٢. المكانة العالية الدينية والعلمية والثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يتمتع بها السحرة في المجتمع المصري القائم

على التقسيم الطبقي الوراثي، والدور البارز الواسع الذي يقوم به السحرة في الحياة: العامة والخاصة، والخدمات الكبيرة التي يقدمونها للمصريين على كافة الأصعدة الدينية والمدنية.

٣. لأن فرعون وملأه قد جاؤوا بالسحرة من كل المناطق والأنحاء في مصر، وتحدوا بهم موسى الكليم عليه السلام لإبطال دعوته و إخماد فتنة دينه وثورته، وجعلوهم الحجة بينهم وبين موسى الكليم عليه السلام في فصل الخصومة والاختلاف.

فإذا لم ينتقم فرعون من السحرة وظهرت مفاعيل إعلانهم لإيمانهم وانتشرت بين الناس، فستكون السيطرة على الأوضاع و إرجاعها إلى سابق عهدها في غاية الصعوبة، بل غير ممكنة مما يهدد النظام والدولة والحكومة بالسقوط، ويهدد ملك فرعون وسلطانه بالزوال.

ولما كان فرعون الطاغية لا ينظر إلا إلى نفسه، ولا يفكر إلا في مصالحه الخاصة، ولا يقيم وزناً لدين ولا حقيقة ولا منطق ولا حجة ولا برهان ولا مبادئ ولا قيم ولا مصالح عامة ولا لشيء آخر على هذا النحو، فقد سارع بدهائه ولوضوح الصورة والعواقب لديه، إلى اتهام السحرة بالخروج على الدين الرسمي والشعبي، وعلى الأعراف والتقاليد والقوانين المعمول بها في البلاد، ونفى عن إيمانهم بكل صلافة وعنجهية ووقاحة وصفاقة وتعجرف صفات البراءة والطهارة والصدق والقناعة المستندة إلى انكشاف الحقائق بالدليل والبرهان، ونسب إيمانهم و إعلانهم إلى دوافع دنيوية تآمرية خبيثة، ليثبت بحقهم الجناية والجريمة والخيانة العظمى، فقال

لهم وهو يستشيط غيظاً: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[1] أي: أنتم كافرون بالنعمة والدين الرسمي للدولة ومتآمرون على النظام والدولة والحكومة والملك والشعب، ومفسدون في الأرض، وما حصل منكم من الإيمان و إعلانه إلى الناس بحضرتي قبل أن آمركم به وآذن لكم فيه، لم يكن عن قناعة حقيقية، بل هو حيلة خفية ومؤامرة خبيثة دبرتموها بليل في غفلة من رجال الدولة وأجهزتها ورجال الأمن والمخلصين الشرفاء من المواطنين الموالين للنظام والملك، وتوافقتم عليها وتواطأتم مع موسى الذي هو كبيركم وعظيمكم وأستاذكم الذي علمكم السحر وقائدكم الأوحد، على أن يغلبكم بسحره ثم تعلنوا إيمانكم به وتصدقوا برسالته وتأخذوا بحركته، التي هي على خلاف الدين الرسمي والشعبي للدولة والنظام، وعلى خلاف الأعراف والتقاليد والقوانين المعمول بها في البلاد، وعلى خلاف الإرادة الملكية، وتكشف عن خيانتكم وسوء أدبكم مع الإرادة والمقام الملكي العظيم، فيتبعكم في ذلك الجهلة من الناس، تحت تأثير الكذب والخداع والتمويه والتضليل، ويعصوا ربهم الأعلى ويخالفوا الأعراف والتقاليد والقوانين المعمول بها في البلاد، ويعلنوا الخروج والتمرد على الإرادة الملكية والنظام والدولة، تحت عنوان الدين الجديد والثورة على الظلم والفساد والدفاع عن المستضعفين والمحرومين ونحو ذلك من العناوين البراقة التي تستهوي وتجذب إليها الجهلة والرعاع من الناس، وبهذا يتحقق لكم ما أردتم وقصدتم من الانقلاب، وتتم المؤامرة الخبيثة ويسقط النظام وكافة أجهزة

---

١. نفس المصدر

الدولة، الدينية والمدنية والأمنية والعسكرية، وتسيطروا على الحكم والثروة والمقدرات، وتغيروا الأوضاع بما يحقق أهدافكم وفيه مصلحتكم، وتبعدوا أنصار النظام عن المناصب العليا الرئيسية والحساسة، المدنية والأمنية والعسكرية، وتطردوا الأقباط وتخرجوهم من أرضهم وديارهم ووطنهم؛ لتستأثروا بالسلطة والثروة والمقدرات كلها فتكون لكم خالصة دونهم، وبذلك تنتقمون من النظام والدولة والحكومة والملك والموالين جميعاً في ضربة تاريخية واسعة واحدة.

وقد أراد فرعون الطاغية من وراء نفي صفات الصدق والطهارة والأمانة، وتوجيه الاتهامات الباطلة إليهم، تحقيق مجموعة من الأهداف الرئيسية، منها:-

أ. أن يقلب بمكره ودهائه الحقائق ويكيد بالسحرة، فيوهم الرأي العام بأن ما أظهره السحرة من الإيمان بالتوحيد والمعاد والتصديق بنبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام ورسالتهما إلى الناس من رب العالمين وعدالة قضيتهما وشرعية مطالبهما الدينية والسياسية والحقوقية، لا علاقة له بالحقائق الموضوعية والقناعة العقلية اعتماداً على الدليل والبرهان، و إنما هو حيلة ومؤامرة مدبرة بليل في غفلة من الملك وأجهزة الدولة ورجال الأمن والمخلصين الشرفاء من أبناء الشعب، وقد انكشفت المؤامرة وبدت خيوطها وأبعادها إلى العيان من خلال الموقف في ميدان المبارزة.

ب. أن ما ينزله من العقاب الشديد بالسحرة، ليس فيه انتهاك لحقوق

الإنسـان ولحريـة العقيـدة والضمير؛ لأنـه ليـس انتقامـاً منهـم لأنهـم مارسوا بزعمهم حقهم في التعبير عن الرأي وحرية المعتقد والضمير، حتى و إن كان فيه إساءة الأدب لمقام الملك الإله الذي هو ربهم الأعلى وله السلطة المطلقة عليهم ولا تجوز لهم معصيته ومخالفته والخروج عن أمره ونهيه، و إنما هو جزاء عادل يطالب به العقلاء على جريمة الخيانة العظمى النكراء والتآمر الخبيث في السر للانقلاب على النظام الشرعي القائم المدعوم والمبارك من الآلهة والسيطرة على أجهزة الدولة والإمساك بزمام السلطة، ووضع اليد على الثروة والمقدرات والاستئثار بها، و إبعاد أنصار النظام ومحبيه عن الوظائف والمناصب العليا والحساسة في الدولة وطرد الأقباط الموالين الحاليين للنظام والدولة من أرضهم وديارهم ووطنهم.

ج. إدخال الخوف الشديد والفزع العظيم في قلوب المعارضين، لكي لا يحذوا حذو السحرة ويفعلوا مثل فعلهم، فيحدّ بذلك من عدد المناصرين لموسى الكليم عليه السلام والمنخرطين في حركته الإصلاحية ومساحة تأثيره في قلوب الموالين للنظام، لكي يوهمهم بالعواقب السيئة الوخيمة، ويحجبهم الخوف والفزع عن الإيمان بنبوة موسى وهارون عليهما السلام والتصديق برسالتهما من رب العالمين وبعدالة قضيتهما ومشروعية مطالبهما الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية، وعن التعاطف معهما ومع بني إسرائيل تحت عنوان المظلومية والحرمان ونحو ذلك، ولكي يستفزهم لمناهضة موسى الكليم عليه السلام ومحاربته، ويحرضهم على الوقوف إلى صف النظام ومناصرته

وتأييده في جميع الاجراءات العقابية؛ للانتقام من السحرة ومن بني اسرائيل وعموم المؤمنين ومن موسى وهارون عليهما السلام.

وهذه هي السياسة الخبيثة الماكرة التي دأبت عليها الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا مع المعارضين لهم، وعليه: أصدر فرعون الطاغية حكمه الملكي القاضي بوجوب معاقبة السحرة بأشد وأقصى العقوبات والانتقام منهم أشر انتقام، والتنكيل بهم غاية التنكيل؛ ليعلموا عاقبة تآمرهم الموهوم الذي فصّله وألبسهم إياه كما يريد، فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[1] أي تعلمون ما أحله بكم من العقوبات القاسية، جزاء جريمتكم وخيانتكم العظمى وجرأتكم على سيدكم الملك الإله وربكم الأعلى، لتكونوا عبرة إلى غيركم فلا يفعل أحد مثل فعلكم؛ لأن الجميع سيعلمون بأن سلامتهم ستكون في قبول حكم الأمر الواقع والخضوع التام إليه، وأن معارضته والخروج عليه سيُعد فساداً في الأرض، وتهديداً للأمن والاستقرار في البلاد، وتحدي للهيبة والمقام والإرادة الملكية ولسلطة الدولة، والإضرار بالتنمية وبمصالح الشعب الجوهرية والحيوية، وهي أمور لا يمكن التسامح والتساهل بشأنها؛ لأن التسامح والتساهل في هذه الحالة، يأتي على خلاف الحكمة والعقل والمنطق، ونقيض الغاية منها، ونقيض مسؤولية الحكم وأمانة الرعاية والسياسة والتدبير، فيجب إنزال أشد وأقصى العقوبات على كل سفيه أحمق وخائن تسول له نفسه الخبيثة معارضة النظام الشرعي والدولة القائمة والحكومة الرشيدة والملك العظيم، والانخراط في أية حركة

---

١. نفس المصدر

إصلاحية أو ثورية أو حقوقية سلمية أو غير سلمية، حتى و إن كان من العلم والطهارة الروحية والقداسة والمنزلة الرفيعة والمقام العظيم، وكان من الأصفياء والأولياء الصالحين، مثل: موسى الكليم وهارون عليهما السلام، أو كان من الفقهاء والمعارضين والمجاهدين الشرفاء النجباء المخلصين، مثل: الشهيد الصدر والشهيد السيد قطب، ونحوهما، أي: أن المعارضة للنظام الدكتاتوري والحاكم المستبد الظالم، ستكلف صاحبها أياً كانت منزلته ومكانته الدينية والعلمية والاجتماعية حياته وأعز وأنفس ما يملك؛ لأنه لا قيمة للشخص بما هو عليه في نفسه من العلم والطهارة والخيرية والصلاح، و إنما قيمته بما هو موالٍ للنظام ونافع له أو على الأقل لا يشكل خطراً عليه.

وفي ظل ذلك وعلى خلفيته، توعد فرعون الطاغية السحرة بأشد العقوبات التي تنزل عادةً بالمفسدين في الأرض، وهي جريمة وهمية اخترعها وألبسها السحرة كما يريد على حسب رغبته ظلماً وعدواناً، من أجل مصلحته ومصلحة نظامه ودولته وحكومته و إرضاءً لأهوائه وغروره بدون حجة أو برهان، وعلى خلاف العقل والمنطق وكرامة الإنسان وحريته وحقوقه، فقال في غرور تام وأنانية مفرطة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] أي: قرر أن ينفذ في السحرة المؤمنين المجاهدين الأبطال حكم الإعدام عن طريق قطع الأطراف من خلاف، أي: قطع الرجل اليمنى مع اليد اليسرى، أو قطع الرجل اليسرى مع اليد اليمنى، ليكون القطع من الجانبين أبشع، ثم يصلبهم على

١. الأعراف: ١٢٤

جذوع النخل ليفتضحوا بزعمه، ويتركهم ينزفون حتى يموتوا موتاً بطيئاً بعد تعذيب جسدي ونفسي شديدين؛ ليتحملوا بهذه العقوبة الشديدة الجسمية والنفسية أكبر قدر ممكن من العذاب والألم، وقرر أن ينزل هذه العقوبة الجسيمة والنفسية القاسية والمؤلمة جداً بالسحرة جميعاً، فلن يستثني منهم أحداً أبداً؛ لأنهم جميعاً وقفوا متضامنين في جريمة الانقلاب والتآمر والخيانة العظمى على النظام والدولة والحكومة والملك والشعب والدين والتراث القومي.

وهذا النوع من العقوبة القاسية الجسمية والنفسية والتنكيل الوحشي البشع، يهدف إلى أمور عديدة، منها:

١. الإشارة إلى عظيم الجرم وقبحه.

٢. تشويه صور المعارضين للنظام وسمعتهم، وهدم مكانتهم المعنوية والاجتماعية في نفوس الناس.

٣. تحطيم إرادة المعارضين للنظام وقتل روحهم المعنوية تماماً.

٤. أن يكون الضحايا عبرة لغيرهم، حيث أن الصلب بعنف على جذوع النخل، وقطع الأطراف من خلاف، وتدفق الدم من الأجساد، والموت موتاً بطيئاً مع شدة العذاب والألم، مما يثير الرعب والفزع الشديد في نفوس الناس، لا سيما ضعفاء القلوب والعقيدة والإيمان بالقضية، فلا يفعلون مثل فعلهم، لكي لا ينزل بهم ما نزل بالضحايا وحل بساحتهم، وقيل: أن فرعون الطاغية هو

أول مـن قطـع مـن خـلاف وصلـب[1].

الجديـر بالذكـر: أن هـذه الأسـاليب القمعيـة الوحشـية وغيـر الإنسـانية، التـي لا تعـرف معنـى للإنسـانية ولحريـة الإنسـان وكرامتـه، ولا تقيـم للعقـل والمنطـق والمبـادئ والقيـم وزنـاً، التـي تلجـأ إليهـا الأنظمـة الدكتاتوريـة الفاسـدة، والحكومات المستبدة الظالمة في العالـم، قد تفيدها في التعامل مـع الفئـات ضعيفـة القلـوب والعقيـدة والإيمـان بالقضيـة، التـي ترخـص نفسها أمام التهديدات والإغراءات، فتبيعها بثمن بخس في سوق النخاسة السياسـية، أو تتخلـى عـن حريتهـا وكرامتهـا وتبتعـد عـن تحمـل المسـؤولية العامـة الإنسـانية والدينيـة القوميـة والوطنيـة، لكنهـا لـن تفيدهـا بشـيء مـع المعارضيـن الشـرفاء الأبـاة الأحـرار، الذيـن ينطلقـون فـي معارضتهـم عـن عقيـدة ويقيـن ووضـوح رؤيـة وبصيـرة وقناعـة تامـة بصـواب وسـلامة مسـلكهم الجهـادي المعـارض، وعدالـة قضيتهـم وشـرعية مطالبهـم الإصلاحيـة أو الثوريـة، وسـوف يبقـون يعارضـون ويضحـون ويقدمـون القرابيـن مـن الشـهداء الأحـرار والسـجناء المعذبيـن والمنفييـن والمطارديـن وغيرهـم، حتّـى ينتصـروا ويحققـوا أهدافهـم ويحصلـوا علـى تمـام مطالبهـم الإصلاحيـة والثوريـة وحقوقهـم الطبيعيـة والمكتسـبة كاملـة غيـر منقوصـة، ويقضـوا علـى الدكتاتوريـة والاسـتبداد والظلـم والفسـاد والانحـراف والتخلـف والضعـف والتحلـل والانحطـاط، وتتحقـق الإرادة الشـعبية فـي اختيـار نظامهـا السياسـي وحكومتهـا وتقريـر مصيرهـا بنفسـها، ومنافسـة الشـعوب والأمـم المتحضـرة علـى التقـدم والرخـاء، وتكـون حصيلـة الحـكّام المسـتبدين فـي نهايـة المطـاف ارتـكاب الجرائـم و التنكـر

١. تفسير الطبري، جزء ٦، صفحة ٢٤

للإنسانية بدون حدود، وتحمل عذابات الضمير، ثم يخسرون الملك ويخرجون من الدنيا وهم يحملون معهم الخزي والعار واللعنة وتبعات أعمالهم التي سودوا بها صفحات التاريخ ثم يردون إلى أشد العذاب في الآخرة.

وقد تفيد هذه الأساليب الوحشية القاسية وغير الإنسانية الأنظمة الدكتاتورية المستبدة إلى حين من الزمان، لكنها تتحول إلى عوامل فشل وتقويض لهذه الأنظمة والحكومات من الأساس على المدى البعيد، حتى تخرجها من عقول الناس وقناعاتهم وتقضي عليها إلى الأبد، وتلحق بالقائمين عليها وأهلها الخزي والعار واللعنة في الحياة الدنيا، وفي الآخرة أشد العذاب وبئس المصير، وفي الحديث: «**بالظلم تزول النعم**»[1]، «**والملك يدوم مع الكفر ولا يدوم مع الظلم**»[2].

لقد كان هدف فرعون الطاغية من التنكيل الوحشي بالسحرة - كما ذُكر - أن يضع حداً أخيراً للتأثر بهم في صفوف الناس الموالين والمعارضين، المواطنين والمقيمين، فلا يسلك أحد سلوكهم، ولا يفعل أحد مثل فعلهم؛ لكي لا ينتفض الناس ويتمردوا عليه ويثوروا على نظامه ودولته وحكومته، ويتركوه ويلحقوا بموسى الكليم عليه السلام ويؤمنوا بنبوته ودينه ويصدقوا برسالته، وينخرطوا في حركته الإصلاحية وثورة بني إسرائيل التحررية. وليس المهم في حساب فرعون السياسي الموقف القمعي التصفوي للسحرة، الحق

١. غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة ١٠٤١٣، صفحة ٢٩٨

٢. نهج البلاغة، الخطبة: ٢٢٤

والعدل وحقوق الإنسان وحريته وكرامته والعقل والمنطق والحجج والبرهان ونحو ذلك، فهو كدأب الفراعنة والحكام المستبدين الظلمة في العلم، لا يؤمن بشيء من ذلك ولا يقيم له وزناً لكن المهم لديه، أن يضع حداً نهائياً للمعارضة والمعارضين ويوقف تقدمهم ويقضي على خطرهم تماماً، ليدوم بقاؤه على العرش ويستمر بدون منغصات، بأي ثمن كان، وبغض النظر عن عدد الضحايا ومن يكونون؛ لأن الوصول إلى الحكم والبقاء فيه، له طريقان:

أ. الإرادة الشعبية.

ب. فرض حكم الأمر الواقع بالعنف والقوة والإرهاب والخداع والتضليل ونحوها من الأساليب الوحشية وغير الإنسانية وغير المنطقية وغير المعقولة وغير المشروعة، وعمليات فض شراء الضمائر.

ولأن الإرادة الشعبية لا يمكن توفيرها للأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة الظالمة على المدى الطويل، حتى و إن حصلت على التأييد الشعبي على المدى القصير، عن طريق ممارسة الكذب والتضليل والخداع وتبني بعض الشعارات البراقة ونحو ذلك، إلا أنها تخسر وتفقد شعبيتها وتتعرض للثورة و الانقلاب عليها والتمرد ضدها على المدى البعيد؛ لأنها مخالفة للعقل والمنطق والفطرة والطبع السليم والسنن الإلهية والمصالح العامة للناس، وتتنكر للحرية والكرامة والحقوق الطبيعية للإنسان، فلا يبقى أمامها للوصول إلى الحكم والبقاء والاستمرار فيه، إلا الطريق الآخر، وهو طريق القوة والعنف والإرهاب واتباع سياسة الترهيب والترغيب

(العصا والجزرة)؛ لفض وشراء الضمائر من أصحاب النفوس الرخيصة، ضعفاء العقول وسفهاء الأحلام، وهذا ما لجأ إليه وسلكه فرعون الطاغية بالفعل، ويسلكه ويلجأ إليه على الدوام جميع الطواغيت الضالين والفراعنة الطغاة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، فهم يمارسون نفس الجرائم والجنايات الشنيعة ضد المعارضين والمصلحين والمطالبين بالحقوق وبنفس الأساليب الإرهابية العنيفة والأساليب القذرة التي تختلف في الشكل وتتفق في المضمون والجوهر، بدون أي اعتبار للإنسانية والكرامة والعقل والمنطق والحق والحقوق والمبادئ والقيم، التي لا يؤمنون بشيء منها ولا يقيمون لها وزناً؛ لأن الغاية عندهم تبرر الوسيلة، وهنا تجدر الإشارة إلى بعض الأمور الرئيسية المهمة، وهي:

أ. أن الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة لن تستطيع أن تقضي على المعارضة عن طريق القوة والعنف والإرهاب والقمع الوحشي وسياسة فض الضمائر وشرائها القذرة إلى الأبد، و إن نجحت فإلى حين، ثم تؤدي هذه السياسة وتعمل على زيادة دائرة الغضب الشعبي وتعميقه، حتى ينتهي الأمر حتماً إلى القضاء عليها وزوالها من الوجود إلى الأبد، مصحوبة باللعنة والخزي والعار.

ب. أن القمع و إرهاب الدولة ضد المعارضة، يؤدي ويعمل بشكل فعّال جداً إلى تقليص المعارضة المعتدلة والسلمية، وزيادة المعارضة المتشددة العنيفة، وانتشار الأفكار المتطرفة وزيادة المخاطر

الإرهابية، وتقضي على فرص الحل السلمي، و إطالة زمن الأزمة، وزيادة حجم الخسائر المادية والبشرية والمعنوية، والدخول في طريق اللارجعة والطلاق البائن، وتعطيل فرص التنمية والازدهار في الدولة والمجتمع.

ج. أن تفجر العنف في الصراعات الداخلية بين الحكومات والمعارضة وطول أمدها، من شأنه أن يهدد دول الجوار ويفتح الطريق لنقل الأزمة إلى أراضيها، وقد يجرها إلى التدخل، فتتحول الصراعات الداخلية إلى حرب بالوكالة، وربما تتحول إلى حرب إقليمية واسعة النطاق وربما أكثر، وهذا ما أثبتته بوضوح تام التجارب التاريخية والمعاصرة.

د. قد يؤدي تطور الصراعات الداخلية وتفجر العنف، فيها إلى تدهور الأوضاع الإنسانية حتى تصل إلى معدلات خطيرة جداً تثير القلق العالمي، وتترتب عليها هجرات جماعية تدفع كلفتها دول الجوار والعالم بأسره.

وعليه: فإن العمل من أجل الإصلاح السياسي والحكم الرشيد، وتحقيق العدالة الاجتماعية، والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، وتجريم التمييز، وفرض الشراكة الشعبية الحقيقية، ومشاركة جميع الأطراف في السلطة وصناعة القرار وتقرير المصير، وفرض حكم القانون، والمحافظة على الأمن والاستقرار، وتشجيع التنمية الشاملة، والقضاء على الفقر والمرض والجريمة المنظمة ونحوها في دول العالم، هي مسؤولية

المجتمع الدولي كله، ويجب أن تحدث وفق معايير عادلة واحدة بعيدة عن التمييز والكيل بمكيالين بين الأصدقاء والخصوم ونحو ذلك، ولا يجوز للمجتمع الدولي أن يتخلى عن مسؤوليته في ذلك تحت حجة السيادة الوطنية أو نحوها، فالسيادة الوطنية لا يصح أن تأتي بأي حال من الأحوال على حساب حقوق الناس، الذي يؤدي انتهاكها إلى المساس بالإنسانية في نفسها، ويهدد الأمن والاستقرار العالمي، وهي أمور لا يجوز التساهل بشأنها، حتى و إن تطلب الأمر إحداث تغيير في المواثيق الدولية القديمة التي تخطاها الزمن؛ لأن التساهل في هذا الأمر من شأنه أن يشجع الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة وأطراف المعارضة على المزيد من العدوانية وأعمال العنف والإرهاب، ويجعل الصراع أكثر دموية وأطول أمداً، ويهدد بانتشار الحروب الأهلية والإقليمية، وهذا ما تفرضه الطبيعة البشرية ومنطق الصراع وأثبتته التجارب التاريخية والمعاصرة، بما لا يدع أي مجالاً للشك والريب والتردد.

شروط الدولة الرشيدة

قد ظهر فرعون في المشهد بصفة الخصم والمشرّع للقوانين والقاضي في الخصومة والمنفذ للعقوبة، كما هو دأب الأنظمة الدكتاتورية والملكيات المطلقة والحكومات المستبدة في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، في علاقاتهم مع شعوبهم المستضعفة عموماً والمعارضين خصوصاً، التي تقوم على الاستعباد والاستحمار في الأساس، فهي في الحقيقة والجوهر، علاقة السيد المالك بالعبد المملوك، ويكون فيها العبد

المملوك وكل ما يملك ملك للسيد المالك وخاضع لإرادته المطلقة، فلا يملك العبد المملوك أن يقرر مصيره بنفسه أو يستقل في شيء من إرادته؛ لأنه لا إرادة له مستقلة عن إرادة سيده ومالكه وفي مقابلها. فالسيد المالك يتمتع بسلطات مطلقة غير مقيدة وغير مشروطة على العبد المملوك، ليس فقط على جسمه، بل على عقله وقلبه وروحه ووجدانه وضميره أيضاً، وإن اتخذت في الظاهر عنوان العلاقة بين الحاكم والمواطن، ووُجدت مؤسسات الدولة الرسمية تشريعية (برلمان) وقضائية (قضاء ونيابة عامة ومحامون وغيرهم) وسلطة تنفيذية (حكومة) ومؤسسات حقوقية ورقابية ومستشارين وغيرهم، ومؤسسات مجتمع مدني وأحزاب ونقابات وصحافة ووسائل إعلام وغيرها، ووُجِد دستور وقوانين وأعراف ونحوها، فكلها صورية وشكلية (ديكور) وغير فاعلة، وُجدت للزينة والزخرفة، وكلها تابعة للدكتاتور والحاكم المستبد وخاضعة لإرادته المطلقة، وتعبر عنه وتعمل باسمه وتسبح بحمده وتقدسه، وتتجلى فيها روح الدكتاتورية والاستبداد ونفسهما، والهدف منها عملياً إعطاء صورة عصرية جميلة للنظام الدكتاتوري، و تحسّن وجه الحاكم المستبد أمام الرأي العالمي، وتحجب عيون المراقبين عن مشاهدة جرائمه، والدفاع عنه، وتخفف الضغوط عليه، وترفع الإحراج عن أصدقائه وحلفائه المتحضرين جداً في العالم، وتساعدهم على التسويق إليه، وتغنيهم من الضغط عليه من أجل الإصلاح؛ لأنه موجود وتدريجي ومناسب ونحو ذلك من الجوقات والمعزوفات السيئة والقبيحة جداً وغير الإنسانية، إلا أنها تناسب مصالحهم وتنسجم مع فلسفتهم وسياستهم البرجماتية.

ويستفاد مما سبق: لكي تتحقق العدالة والأمن والاستقرار والتنمية المستدامة والرفاه في أية دولة في العالم، يجب أن تتوفر خمسة شروط رئيسية، وهي:

١. إيجاد دولة المؤسسات والقانون الفعلية وليست الصورية، وفيها لا يوجد شخص يستمد الشرعية من نفسه، ويتمتع بسلطات مطلقة، ويعمل خارج مؤسسات الدولة وفوق القانون، والكل يمكن مراقبته ومحاسبته على أعماله، والكل سواسية أمام القانون، ولا تمييز بين المواطنين في الحقوق والواجبات، والتمييز جريمة يعاقب عليها القانون.

٢. شرعية القوانين وعدالتها، ولا شرعية في الأساس بحكم العقل والمنطق وفق التفكير المنهجي السليم لغير التشريع الإلهي؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق المالك للإنسان والمدبر إليه والعالم بما يصلحه ويفسده، وإليه معاده وعليه حسابه وجزاؤه في يوم القيامة، فهو الوحيد صاحب الولاية الحقة التامة عليه، والحكم والتشريع مختصان به، وهو صاحب الحق الوحيد فيهما، وليس فيهما لأحدٍ حق غيره سبحانه، قول الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[١] وقول الله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾[٢] والأنبياء والأوصياء الكرام عليهم السلام مبلِّغون مبشِّرون

١. الكهف: ٤٤

٢ الأنعام: ٧٥

ومنذرون عن الله ﷻ، ومنصوبون باسمائهم عنه للحكم، والفقهاء العدول مستنبطون للأحكام الشرعية الإلهية من مصادرها المعتبرة وفق قواعد علمية ومنهج واضح دقيق، ومبينون لها ومنصوبون بصفاتهم عن الله ﷻ للحكم، ومجالس النواب (البرلمان) يمارسون (التقنين) للقوانين والتخطيط ووضع البرامج والسياسات، ويراقبون عمل الحكومات على ضوء الأحكام الشرعية الإلهية التي يقوم الفقهاء باستنباطها، وليست لهم وظيفة إنشاء التشريعات وسنها في الدولة الإسلامية، قول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1].

وعليه: فإن الحكومات والتشريعات القائمة في المجتمعات البشرية، يجب أن تكون شرعيتها في الأساس مستمدة من ولاية الله سبحانه وتعالى وحكمه، في ظل شروط خاصة، مثل: العدل والرحمة ورعاية الأحكام الإلهية والاستقامة عليها ونحو ذلك، لا من ذات الحاكم أو المحكوم، و إلا عدّت شرعاً حكومات وتشريعات جاهلية طاغوتية لا قيمة لها ولا وزن عقلاً وشرعاً. ولا يقبل العقل بحسب المنطق السليم في الحكومات والتشريعات الوضعية بأقل من التعبير عن الإرادة والمصلحة والقبول الشعبي، ويُعتبر فرض حكم الأمر الواقع مخالف للعقل والمنطق والفطرة والطبع السليم، وينتهك حقوق الإنسان وحريته وكرامته بكل المقاييس، ويجب رفضه ومقاومته والسعي لتغييره وفرض الإرادة الشعبية من أجل

---

١. المائدة: ٥٠

حرية الإنسان وكرامته ومصلحته وسعادته الحقيقية في الحياة، بل ومن أجل الأمن والاستقرار والتنمية والرفاه والازدهار في الحياة.

٣. صلاح القائمين على السلطات الثلاث، التشريعية والقضائية والتنفيذية، والمتولين للوظائف العامة والمناصب العليا في الدولة، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] أي: أن الله ﷻ لا يغير ما بقوم من الأحوال والأوضاع التي يعيشونها، الإيجابية والسلبية، مثل الغنى والفقر، الصحة والمرض، القوة والضعف، التقدم والتخلف، التحلل والتماسك، التحضر والانحطاط ونحو ذلك، حتى يغيروا ما بأنفسهم من الحالات الفكرية والروحية، التي تصدر عنها أفعال الإنسان وتصرفاته ومواقفه وعلاقاته في الحياة، فهناك تلازم حتمي بين النعم الموهوبة من عند الله تبارك وتعالى، وبين الحالات الداخلية الفكرية والروحية الراجعة إلى اختيار الإنسان، وأنها تتغير تبعاً لتغيرها. وعليه: بدون هذا الصلاح تفسد جميع المؤسسات وتبطل فاعلية الدساتير والقوانين الصالحة العادلة، وفي الحديث الشريف: «**كيف يصلح غيره من لا يصلح نفسه**»[2].

٤. تفعيل الرقابة والمحاسبة؛ لأن غيابهما يشجّع حتى الصالحين ويغريهم مع التمكن والقوة على التجاوز والثواب، على قاعدة: «من

---

١. الرعد: ١١

٢. عيون الحكم والمواعظ، الليثي، صفحة ٣٨٣

أمن العقوبة أساء الأدب» وتفعيل الرقابة والمحاسبة في النظام السياسي، يتطلب أموراً عديدة، منها:

أ. ضمان استقلال السلطات الثلاث، التشريعية والقضائية والتنفيذية، وتمكينها دستورياً وعملياً من مراقبة بعضها بعضاً، ومحاسبتها وفق آليات دستورية واضحة ومحددة، وقد أثبتت التجارب العديدة التاريخية والمعاصرة، بأن السلطة التنفيذية هي التي تتغول عادة بسبب ما في يدها من أسباب القوة، المخابرات والأمن والجيش والأجهزة المدنية التنفيذية، وتفرض نفسها وهيمنتها على باقي السلطات، وتجبرها على تبعيتها، وربما تحولها إلى موجودات صورية لا فاعلية لها، ومن السلطة التنفيذية تخرج رؤوس الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين الظلمة، وعليه: يجب فرض الرقابة عليها والمحاسبة لها من قِبل السلطتين التشريعية والقضائية بشكل حازم جداً وفق آليات دستورية واضحة ومحددة، ومنعها من التغول وتجاوز حدودها وصلاحياتها الدستورية، وإفساد النظام السياسي برمته.

ب. بناء مؤسسات المجتمع المدني، ومنها: الأحزاب السياسية والنقابات العمالية والمهنية المستقلة، ووسائل الإعلام الحرة المرئية والمسموعة والمقروءة، وضمان استقلالها التام عن السلطات الرسمية الثلاث، لتكون بإزائها وموازية لها، وتمارس

الرقابة والضغط عليها وفضح أخطائها وتقصيرها.

ج. تفعيل الرقابة الشعبية على جميع مؤسسات الدولة الرسمية والأجهزة الحكومية، بضمان حرية الرأي والتعبير، وحرية الاحتجاج والتجمع، الكتابة والتواصل الاجتماعي عن طريق الشبكات الإلكترونية، الإنترنت والفيس بوك وغيرها، وفي الحديث الشريف: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل توزنوا**»[1] والمحاسبة قسمان: محاسبة ذاتية للنفس، ومحاسبة الغير للشخص أو الطرف، وهما متكاملتان ومطلوبتان على المستويين الخاص والعام، والمحاسبة للغير على المستوى العام قسمين: رسمي وشعبي.

٥. الاهتمام بالتنمية الاقتصادية، وتنويع مصادر الدخل، والاهتمام بالعلوم والتعليم والفنون والأدب والتكنولوجيا والتربية الروحية والأخلاقية، بالإضافة إلى الأمن الداخلي والخارجي لحماية الوطن والمواطن والمنجزات وليس للاعتداء على الحقوق والحريات وحماية السلكة وقمع المواطنين، وتترتب على توفير الشروط الخمسة نتائج مهمة عديدة، منها: العدالة الاجتماعية، والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، وتكافؤ الفرص بين الجميع، و إصلاح الأحوال والأوضاع العامة الثقافية والسياسية

---

١. وسائل الشيعة، الحر العاملي، جزء ١٦، صفحة ٩٩، باب وجوب محاسبة النفس كل يوم...، حديث ٢١٠٨٢

والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، وتحقق الأمن والاستقرار وترشيد الإنفاق والاستهلاك، وتوفير فرص العمل العادلة وزيادة وتيرة التنمية الشاملة وتسارعها، وتحقيق الرخاء والرفاه للمواطنين والازدهار الشامل للوطن، قول الله تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[1] وقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[2] أي: لو أن العباد اتبعوا الأنبياء الكرام عليهم السلام، وعملوا بشريعة الحق والعدل والفضيلة، واتخذوها منهجاً لهم في الحياة، واستقاموا على العمل بها، وعاشوا إخواناً متحابين متضامنين متعاونين فيما بينهم على البر والتقوى، لتحقق لهم الأمن والاستقرار وعم بينهم السلام الأهلي والعالمي، ولتوجه الانتاج بالكامل إلى السلم والتنمية وسد الحاجات وتيسرت لهم أسباب الرزق، وفتحت عليهم بركات الأرض والسماء، وعم الازدهار، ورفعت عنهم النقم، وظفروا براحة البال، ورغد العيش، وسعة الرزق، وعاشوا منعّمين مرفّهين، ونالوا التقدم والتطور، والقوة والهيبة والمناعة والمنافسة على الدرجات الأولى والمراتب العليا من المدنية والحضارة ونحو ذلك.

الجدير بالذكر: من الحمق والجهل والسفاهة البالغة أن تتقيد المعارضة بالعمل الرسمي وبالقوانين المقيدة للحريات في ظل الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة الظالمة؛ لأن المؤسسات الصورية والقوانين المقيدة

---

١. الجن: ١٦

٢. المائدة: ٦٦

للحريات، وجدت أصلاً من أجل حماية الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة وإدامة بقائها والقضاء على فرص تغييرها وإصلاحها، والتقيد بالعمل الرسمي وبالقوانين المقيدة للحريات من شأنه أن يرسّخ الدكتاتورية والاستبداد ويبطل مفعول المعارضة ويقضي على فرص الإصلاح ويحقق للدكتاتور والمستبد ما يريد حتماً.

وثمة سؤال مهم جداً: هل يتمتع المعصوم بسلطات مطلقة في الدولة الإسلامية؟

الجواب: البعض يقول نعم؛ لأن المعصوم مفوّض من الله سبحانه وتعالى، ولا يصدر منه الظلم والجور والحيف، ولا يفشل ولا يخيب في نفسه، وإن فشل بسبب غيره، ولا يتبع هواه ولا يعمل من أجل مصلحة نفسه، بل يعمل بما فيه الخير والصلاح والمصلحة للناس، فهو منزّه عن جميع الآفات التي يحذر منها الناس في السلطات المطلقة للحاكم، وقد جعل الله سبحانه وتعالى له ولاية التصرف في الأموال والأنفس، وولايته مقدمة على ولاية الناس على أنفسهم قول الله تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1] وذلك لتمام صلاح نفسه وكماله الإنساني المطلق، وتطابق إرادته مع إرادة الله سبحانه وتعالى، فلا يريد أبداً خلاف ما يريده الله جَلَّ جَلَالُهُ.

ويقول البعض: لا؛ لأنه لا يستمد سلطته من نفسه بل يستمدها من الله سبحانه وتعالى، وهو مقيد في عمله بإرادة الله سبحانه وتعالى وتشريعه، فلا يمكنه ولا يجوز له الخروج عليهما، وهو يطلب رضا الله ذي الجلال

١. الأحزاب: ٦

والاكرام عنه، قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾[١] وقد أمره الله ﷻ بالتشاور مع المسلمين فيما يعود إليهم من أمور، قول الله تعالى: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾[٢].

في جميع الأحوال، الإرادة الإلهية و إرادة المعصوم متطابقتان، فلا يريد المعصوم خلاف ما يريده الله ﷻ، وهو معصوم فلا يصدر منه الظلم والجور والحيف، ولا يفشل ولا يخيب في نفسه، وفي زمنه لا يختلف المؤمنون معه حول صلاحياته، بل يسلمون له ويطيعونه فيما يأمرهم به وينهاهم عنه ويتبعونه فيما يريده منهم، فالاختلاف في موضوعه نظري، والقيمة العملية هي في بحث صلاحيات الولي الفقيه في الدولة الإسلامية في زمان الغيبة، وهو لا يتمتع بسلطات مطلقة في الدولة الإسلامية بحسب المفهوم الإصلاحي، أي: يجب أن نميز بين الصلاحيات الولائية الواسعة الممنوحة للولي الفقيه التي هي عينها للمعصوم كحاكم شرعي في الدولة الإسلامية، وبين السلطات المطلقة بالمعنى الحرفي وهو التعري عن كل قيد أو شرط أو حصر أو استثناء، ولا يتوقف على غيره، بل يعمل ويستمد سلطته من نفسه، وهذا لا يقول به أحد من المؤمنين حتى للمعصوم، رغم التسليم بالحالة الاستثنائية (العصمة) والصلاحيات الاستثنائية الممنوحة له من الله رب العالمين، وعلى هذا الأساس بُني الرأي القائل بنفي السلطات المطلقة عنه.

---

١. الحاقة: ٤٤-٤٧

٢. الشورى: ٣٨

سياسة الإخضاع لدى فرعون الطاغية

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

لقد اتبع فرعون الطاغية سياسة خبيثة وغير إنسانية لإخضاع السحرة لإرادته وسياسته، وهي سياسة فض الضمير عن طريق الترغيب والترهيب لفرض قناعات معينة نابعة من تأثيرات الخوف والطمع بدل أن تكون نابعة من الإقناع العقلي المعتمد على الحجة والدليل والبرهان، وفيها استلاب واضح لإنسانية الإنسان وحريته وكرامته وشرائه بثمن بخس، يطلق عليها في عالمنا اليوم: بسياسة العصا والجزرة، فحين قدم السحرة إلى العاصمة من أجل مبارزة موسى الكليم عليه السلام وقاموا بين يدي فرعون الطاغية، يعرضون عليه الولاء والإخلاص والخدمة، وطلبوا منه الأجر العظيم على عملهم وخدمتهم، فقالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾[١] فأجابهم بقوله: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[٢] مما يكشف عن أساليب الطغاة والحكام المستبدين الظلمة في شراء عقول وضمائر الأذناب المتملقين من الانتهازيين الأنانيين والنفعيين الفاسدين، وتوظيف ما لديهم من العلوم والمعرفة والخبرة والمكانة لخدمة سلطتهم وتنفيذ سياساتهم وتبرير أخطائهم وتقصيرهم، والدفاع عن مفاسدهم وموبقاتهم، مقابل الفتات على موائدهم وبقليل من المال والمناصب والوجاهة

١. الأعراف: ١١٣

٢. الأعراف: ١١٤

ونحو ذلك، مما يدل على رخص أنفسهم عند أنفسهم، وتضييعهم لمعاني الإنسانية والحرية والعزة والشرف والنخوة والمكانة، يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «**وهكذا كل حكام البغي والضلال، لا يرمون بالفتات للأذناب، إلا أن يتخلوا عن دينهم وعقولهم وضميرهم ومروءتهم وأمتهم**»[1] فبئس الإنسانية إنسانيتهم، وبئس العلوم علومهم، وبئس المعرفة معرفتهم، وبئس الثقافة ثقافتهم، وبئس الفن فنهم، وبئس الأدب أدبهم، وبئس الشعر شعرهم، وبئس العقول عقولهم، وبئس الضمائر ضمائرهم، وبئس الوجدان وجدانهم، وتباً لهم وتعساً وترحاً، وبئس الواقع والمصير واقعهم ومصيرهم.

فلما صحت ضمائر السحرة وعادوا إلى رشدهم و إنسانيتهم وكرامتهم، وأعلنوا إيمانهم، وتمردوا عليه وانقلبوا على نظامه ودولته وحكومته، وأنزل عليهم أشد العقوبات الجسمية والنفسية؛ انتقاماً منهم، وهذا ما يفعله الطواغيت والفراعنة والحكام والمستبدون دائماً حينما تصحو ضمائر بعض أذنابهم، ويعودون إلى عقولهم ورشدهم و إنسانيتهم وكرامتهم،لأي سبب كان من الأسباب، فإنهم ينتقمون منهم أشر انتقام، ويعاقبونهم بأشد العقوبات الجسمية والنفسية، بقسوة وبدون رحمة، ويطردونهم من ساحتهم وقربهم، ويعزلونهم عن وظائفهم ومناصبهم ويهينونهم، و إذا تطلب الأمر سجنوهم وعذّبوهم أو نفوهم من البلاد، وربما قتلوهم وتخلصوا منهم باسم القانون والعدالة، وتحت مظلة مؤسسات الدولة القضائية أو خارجها، أيهما أفضل للنظام والدولة والملك في التخلص منهم والقضاء عليهم، يفعلون ذلك بهم وكأن لا معرفة تجمعهم بهم، وفي الحديث الشريف: «**صاحب**

---

١. التفسير المبين، محمد جواد مغنية، صفحة ٢١١

السلطان كراكب الأسد يغبط بموقعه وهو أعلم بموضعه»[1]. أي: يغبطه الناس ويتمنون منزلته، وهو أعلم بموضعه من الخوف والحذر على نفسه من السلطان بأن ينقلب عليه ويغتاله.

وبمثل هذه السياسة اللاإنسانية الخبيثة، تتمكن الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة الظالمة من غسل الأدمغة، وفرض إرادتها على الناس وإخضاعهم، وهي سياسة خبيثة لا يفلت من قبضتها إلا القلة القليلة جداً من النخبة الشريفة، التي تتمتع بالحكمة والصدق وقوة المنطق، وبالإخلاص والإباء وبوجدان وضمير حي وحس إنساني رفيع، وما أقلهم في ظل الأنظمة الدكتاتورية الفاسدة والحكومات المستبدة الجائرة الظالمة، التي تعمل بكل قوة ووسيلة؛ لإفساد أخلاق الناس وطبائعهم ومنطقهم؛ لأن بقاءها يتوقف على ذلك ويمثل صلاح أخلاق الناس وأديانهم وضمائرهم ومنطقهم أشد الخطر عليها، لما بين وجودها وصلاح الأديان والأخلاق والمنطق من تعارض.

وتمثل هذه السياسة اللاإنسانية الخبيثة، أعلى مراتب الاستعباد والاستحمار والانتهاك لحقوق الإنسان وحريته وكرامته، وهي السياسة التي تمحو كل معنى لإنسانية الإنسان وكرامته لديه، وبها يضل الأفراد ويشقون، وتتخبط الأمم وتتعرض للتحلل والانحطاط، وتكون فريسة الفساد والتخلف والضعف والفقر والمرض والتبعية، ولا يقوم لها قائمة ولا يكون لها وزن بين الأمم المتحضرة، وما يؤسف له حقاً أن وقودها

---

١. غرر الحكم ودرر الكلم، صفحة ٤١٩

هم النخبة الفكرية والفنية والأدبية والمهنية، وحملة الشهادات، ورجال الأعمال الفاسدين، وليس العوام والناس، بل العوام هم ضحايا خيانة هذه النخبة الفاسد.

رد السحرة المؤمنين الكرام على تهديدات فرعون الطاغية لهم

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾

توعد فرعون الطاغية السحرة باستخدام السلطة والقوة والعنف ضدهم، وأنه سينزل بهم أشد العقوبات الجسمية والنفسية وأقساها وأشدها إيلاماً ومثلة وتنكيلاً؛ للانتقام منهم لإيمانهم بالتوحيد والمعاد والنبوة، وكفرهم بألوهية فرعون وربوبيته، وبنظامه ودولته وملكه، إلا أن ذلك التهديد والوعيد لم يرهبهم ولم يثنهم عن موقفهم الإنساني البطولي الشجاع، فلم يخافوا من فرعون وسطوته وقسوته وجبروته، وهو الجبار العنيد رغم تاريخه الدموي الوحشي، ولم يخافوا من سطوة أجهزة الدولة: المدنية والأمنية والعسكرية والدينية، التي تقف خلف فرعون وتدعمه، رغم قسوتها ورغم تاريخها الدموي الوحشي، وكثرة جرائمها التي لا تحد ولا تعد، وما تملكه من قوة ورجال وعتاد، وذلك لأنهم انكشف لهم الحقيقة كاملة كما هي من الجهتين، جهة موسى الكليم عليه السلام، وجهة فرعون الطاغية ونظامه الدكتاتوري الفاسد، وعرفوا أبعادها الواقعية وانعكاساتها عليهم وعلاقتها بصلاح أنفسهم، وصلاح أوضاعهم وأحوالهم، وبخيرهم وكمالهم الإنساني وسعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة، وذاقوا طعم حلاوة

الإيمان واليقين بقلوبهم، وباشروها بأرواحهم الطاهرة، ورأوا ببصائرهم حسن العاقبة والمصير، فوطنوا أنفسهم على ما يتوقعون وما لا يتوقعون من عقوبات انتقامية جسمية ونفسية، وردوا على تهديدات فرعون الطاغية ووعيده بنفوس كريمة راضية مطمئنة، فقالوا: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[1]، أي: إنك تهدد بالقتل والعذاب المؤلم الشديد؛ بسبب ما تنقم منا من الإيمان، ظناً منك بأن ذلك شرٌ لنا؛ لانقطاع حياتنا به ورحيلنا عن هذه الحياة الفانية، ولما قد نقاسيه من ألم العذاب وشدته، ولكن عليك أن تعلم وتتيقن، أنه لا ضرر علينا في الحقيقة من القتل وما يصيبنا من العذاب والأذى في سبيل الله تبارك وتعالى، ولا ينقصنا شيء بل على العكس، هو خير محض وفخر وشرف عظيم لنا، ونحن الكاسبون من وراء ذلك؛ لأننا صائرون بعد تعذيبك وقتلك لنا ظلماً وعدواناً إلى لقاء ربنا ورحمته، فيحاسبنا على أعمالنا، إن خيراً فخير، و إن شراً فشر، ويحكم بيننا وبينك بالحق والعدل، ثم نحيا في جواره سعداء منعّمين في جنته مع أوليائه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وهذه الدنيا زائلة فانية والإنسان لا يملك حياته فيها، فهو راحل عنها حتماً، ولا يعلم في أي وقت ولا في أي مكان ولا لأي سبب، فإن لم نمت بسيفك وعلى مقصلتك، فقد نموت بسبب آخر وبشكل أبشع مما تنوي أن تفعله انتقاماً منا، فنحن لا نضمن حياتنا ولا نضمن الراحة والموت الرحيم، وعليه، فنحن بحسب العقل والمنطق، لا نبالي بالقتل وبعقوباتك ما دمنا مرضيين عند ربنا رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين،

١. الأعراف: ١٢٥

فاقضِ ما أنت قاضٍ، وافعل ما شئت، فإنما تقضي هذه الحياة الدنيا الفانية، يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «**وهكذا كل مؤمن حقاً وصدقاً يستولي إيمانه على جميع مشاعره، وينسى ذويه ومنافعه، ويضحّي بنفسه في سبيل دينه والذود عنه**»[1].

ونحن نعلم كما تعلم أنت عن يقين لا شك فيه ولا ريب ولا تردد، بأن دافعك لبغضنا وكراهيتنا وقتلنا والتنكيل بنا، ليس انتقاماً منا كما زعمت وضللت به الرأي العام بسبب أكذوبة المؤامرة، فنحن لسنا مشاغبين ولا متآمرين ولا متواطئين ضدك، ولسنا نريد الاستيلاء على السلطة والثروة والمقدرات وطرد المواطنين الأقباط من أرضهم وديارهم ووطنهم بغير حق للاستئثار بها، ولا غير ذلك من الإفك والافتراء والأكاذيب التي تروج لها من أجل تضليل الرأي العام وخداعه، فأنت تعلم أكثر من غيرك أنها أكذوبة لا أساس لها من الصحة، ولا واقعية لها تعتمد عليها للدخول إلى العقل بحسب المنطق الذي لا تؤمن به ولا تقيم له وزناً، ولا تأخذه بعين الاعتبار حين تفكر في تصفية الحساب مع خصومك، انتقاماً لذاتك وملكك، فصانع الأكذوبة أعلم بها من غيره، لكن دافعك وراء الانتقام والسخط علينا وقتلنا والتنكيل بنا، هو ما أعلناه من الإيمان لمّا ظهر لنا الحق وانكشف بالدليل القطعي من خلال الآيات الواضحات والمعجزات النيرات الباهرات العظيمة، التي جاء بها موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين، فأجبنا راعي الله جل جلاله ولبينا نداءه وآمنا به وأعلنا إيماننا أمام الجماهير استجابةً للواجب الديني والإنساني علينا، قولهم:

١. التفسير المبين، محمد جواد مغنية، صفحة ٢١١

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾[1] فإيماننا هو ذنبنا الوحيد الحقيقي عندك، وما تعيبه وتطعن به علينا وتنقم منا بسببه، وهو عندنا الشرف العظيم وأصل كل منقبة وخير، وسبب اعتزازنا وفخرنا والطريق إلى حريتنا الحقيقية وكرامتنا وكمالنا الإنساني المقدر لنا واللائق بنا، وتحقيق سعادتنا الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، وعليه: فما تعدّه أنت جرماً وشراً، هو عندنا تكليفٌ شرعيٌ واجبٌ، وخيرٌ محضٌ كاملٌ، وحقيقٌ بالمدح والثناء والجزاء الحسن، وليس بالقدح والعقوبة، فأنت تظن جهلاً منك وطبقاً لرؤيتك المادية في الحياة، أن إيماننا شرٌ لنا؛ لأنه يبعدنا عن ساحتك وجوارك، ويحرمنا من عطائك ورعايتك، ويعرضنا لسخطك وعقابك وانتقامك، إلا أننا في الحقيقة والواقع نعتبر الإيمان بالتوحيد والمعاد والنبوة والطاعة المطلقة لله ذي الجلال والإكرام وللرسول والولي الأعظم موسى الكليمعليه السلام والفوز بالشهادة خير محض؛ لأنه يقربنا من ساحة قدس الله سبحانه وتعالى، والفوز برضاه، والأمن من غضبه، والحياة سعداء منعّمين في الجنة مع الصالحين من عباده، ونحن لا نكترث بك ولا يضرنا الابتعاد عنك وعن ساحتك، والحرمان من عطائك ورعايتك، ولا نبالي بسخطك وعقابك وانتقامك؛ لأنك عبد فقير ضعيف حقير مثلنا، لا تملك لنفسك ولنا ولغيرنا نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ولا جزاءً، والابتعاد عنك وعن ساحتك، ابتعادٌ عن شركك وضلالك وخبثك، وعن علة النقص في إنسانيتنا وحريتنا وكرامتنا، وعن أسباب الضلال والانحلال والانحطاط في شخصياتنا، وعن طريق

---

١. الأعراف: ١٢٦

الشقاء والهلاك لنا في الدارين الدنيا والآخرة، وعقابك فخرٌ لنا وشرفٌ عظيمٌ؛ لأنك تعاقبنا على هدايتنا للحق وسلامة عقيدتنا وحسن أخلاقنا وصالح أعمالنا، فإذا كان ذنبنا عندك الموجب لسخطك علينا وعقابنا، هو إيماننا بالتوحيد والمعاد والنبوة والطاعة المطلقة لله سبحانه وتعالى ولرسوله الكريم ووليه عليه السلام فهو ذنبنا بحق وحقيقة، ونعترف به ونفتخر ونتحمل جميع تبعاته علينا، فاقضِ ما أنت قاض، وافعل ما شئت من عقوباتك، فإنا لا نأبه بك ولا نبالي بقتلك وعقوبتك لنا من أجل ديننا الحنيف وعدالة قضيتنا وشرعية مطالبنا الإصلاحية: الدينية والسياسية والحقوقية وغيرها؛ لأننا على بصيرة ويقين من سلامة طريقنا ومنهجنا ومن لقاء ربنا ذي الجلال والإكرام وعدله ورحمته الواسعة و إحسانه العظيم، وأنه سيجازينا بالمعروف والإحسان لما أصابنا من أجله وفي سبيله، ونحن بفضل الله تبارك وتعالى علينا، نعلم أنك إن تقتلنا فلن ننتهي إلى الفناء والزوال والفساد، بل نمضي شهداء سعداء في سبيل الله عز وجل، ونعود إلى ربنا ذي الجلال والإكرام الذي هو رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، الذي خلقنا وأنعم علينا بالوجود ورزقنا من فضله الواسع والقائم على تدبير جميع أمورنا، وتجب علينا طاعته وعبادته وحده لا شريك له، ثم يحشرنا في يوم القيامة مع الشهداء السعداء، ويجازينا على حسن عقيدتنا وصالح أعمالنا، ويحسن إلينا بما صبرنا وأصابنا من الأذى في جنبه، بما هو أهله، ونحيا عنده وفي جواره بحياة المقربين السعداء مع الخيرة الطيبة من أوليائه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وفي هذا الخيار كمال العقل والحكمة والخير والفضيلة والحرية والكرامة وكمال إنسانيتنا، وهو موافق للفطرة والطبع السليم، وفي المقابل ستعود أنت كذلك إليه؛ لأنه ربك على الحقيقة و إليه معادك وعليه حسابك وجزاؤك، وسيحاسبك ويجازيك بالعدل جزاءً موافقاً لعظيم جرمك وجنايتك، إذ ادّعيت كذباً وزوراً وبهتاناً وظلماً وعدواناً وبغير وجه حق وبلا حجة أو دليل أو برهان الألوهية والربوبية، واستوليت على الحكم والسلطة والثروة والمقدرات، ثم طغيت وتجبّرت وأفسدت في الأرض، وقتلت النفوس المحترمة بغير حقها، وظلمت العباد وانتهكت الحقوق والحريات والمقدسات، وخنت الحقيقة وأمانة الحكم والرعاية والمسؤولية، واستأثرت بالسلطة والثروة والمقدرات، ونحو ذلك من الجرائم والجنايات الشنيعة والمعاصي والذنوب الكبيرة والصغيرة، الظاهرة والباطنة، وسيجازيك على سوء صنيعك بنا، ولن ينفعك حينئذ سلطانك وجنودك وعتادك وبطانتك ومعاونوك وأنصارك، والانتهازيون الأنانيين والمتملقون الفاسدون من أصحاب الشهادات والكتّاب والصحفيون وغيرهم، الذين اشتريت ضمائرهم وأديانهم بأبخس الأثمان، وتدفع لهم من أموال الشعب وتمنحهم المناصب والوظائف العامة مقابل الولاء والتملق والتزلف؛ ليطبلوا لك ويزمروا ويملأوا الدنيا ضجيجاً، ويسوقوا لك ولمشاريعك الجوفاء، ويدافعوا عن فسادك وطغيانك وتجاوزاتك ويبرروها ويشاركوك بالأقوال في الظلم والبطش والفساد والعدوان على الحقوق والحريات والحرمات والمقدسات، لترمي إليهم بشيء من بقايا مائدتك وقمامتك.

والخلاصة: أننا قد آمنا بربنا الذي هو رب العالمين، رب موسى وهارون عليهما السلام، ونحن نرجو رحمته و إحسانه، وأن يقبلنا في صفوف عباده المؤمنين الصالحين، ولا نبالي إن نحن أسخطناك علينا بإيماننا بالتوحيد والدين الإلهي الحق وبحسن أخلاقنا وأعمالنا الصالحة، ولا نبالي بطردك لنا من قربك وساحتك، وحرمانك لنا من عطاياك، والانتقام منا بعقوباتك، والموت قتلاً بسيفك وعدوانك، ما دمنا مرضيين عند ربنا رب العالمين، فالله ذو الجلال والإكرام ورضوانه وحسن جزائه، خيرٌ لنا منك ومن رضاك وجوائزك وعطاياك ومن الدنيا بأسرها وما فيها ومن فيها، وساحته وجواره خيرٌ لنا من ساحتك وجوارك.

وعليه: افعل ما شئت أن تفعل بنا، واقض ما أنت قاض من عقوباتك، فلن تجد منا إلا الصبر والصمود والثبات، فقد اخترنا لأنفسنا ما نعتقد جازمين بأنه موافق للحق والحكمة والصواب والفضيلة، وفيه خيرنا المطلق وكمالنا وصلاح أنفسنا وأحوالنا وأوضاعنا وسعادتنا الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، ونحن على يقين من هدي نبينا وسلامة طريقنا وعدالة قضيتنا وموقفنا وشرعية مطالبنا الإصلاحية والثورية، وقد قررنا مصيرنا بأنفسنا وبمحض إرادتنا وكامل حريتنا ووعينا، بعيداً عن تجبرك وهيمنتك وسلطانك وترهيبك وترغيبك لنا من أجل افتضاض وشراء ضمائرنا، فاختر أنت لنفسك ما تعاقبنا به، فإنك إنما تختار في الحقيقة والواقع لنفسك، وتقدّر لها من الشقاء وكيفية الهلاك والعذاب منك على جناياتك وجرائمك في الآخرة، يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «**وكل من يؤمن بلقاء الله يقف هذا الموقف، بل يرى الاستشهاد**

سعادة ووسيلة لمرضاة الله وثوابه. أما الذين يخافون الموت في سبيل الله، ويتهيبون منه، فهم يؤمنون بلقاء الله نظرياً فقط، أما عملياً فإنهم به كافرون»[١] مع التنبيه إلى أن وصول الإنسان المؤمن إلى درجة تطابق أفعاله مع عقيدته، يحتاج إلى تربية ومراقبة ومحاسبة وتدريب حتى ينتهي الأمر إلى هذه الرتبة والمقام المحترم العظيم، وبناءً عليه: يتبين أن قول السحرة يتضمن التهديد والوعيد لفرعون بالخزي والعار في الحياة الدنيا، وبعذاب الله الشديد المؤلم والهلاك والشقاء الحقيقي الكامل في الآخرة، مقابل ما توعدهم به من الانتقام والتنكيل والتعذيب والقتل بسبب إيمانهم.

كما قابلوه بما يبطل كيده ويقطع حجته من دابرها، حين قالوا: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾[٢] أي:عدّوا الإيمان بالتوحيد والمعاد والنبوة وطاعة الرسول، بعد قيام الحجة، هو وحده الموافق للعقل والمنطق والفطرة والطبع السليم، وفيه خير الإنسان وصلاح نفسه وأحواله والحافظ لحريته وكرامته وحقوقه، وهو المسلك الوحيد في الحياة الذي يجدر بالإنسان العاقل وحقيقٌ به واللائق به أن يسلكه ولا يسلك غيره، وهو المسلك الوحيد في الحياة الذي فيه الخير المطلق للإنسان والعزة والحرية والكرامة والمجد والفخر والشرف العظيم والفضيلة والنقائب الحقة، والطريق الوحيد إلى الكمال الإنساني المقدّر والسعادة الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة. وفي المقابل القول بألوهية فرعون وربوبيته ومالكيته، والخضوع لنظامه الفاسد وحكومته غير الشرعية

---

١. تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، جزء ٣، صفحة ٣٨١

٢. الأعراف: ١٢٦

وسلطته الجائرة، وما يصدر فيها من قوانين وتشريعات ظالمة تنتهك الحق والحقوق، أمر مخالف للعقل والمنطق والفطرة والطبع السليم، وفيه هدر لمعنى الإنسانية ولعزة الإنسان وحريته وكرامته ومجده وشرفه، وهو السبيل إلى التحلل والانحطاط الفكري والروحي والسلوكي، و إلى الضعف والتخلف والفساد، ويؤدي بالإنسان إلى الشقاء الحقيقي الكامل والهلاك في الدارين الدنيا والآخرة، ويجدر بالإنسان العاقل وحقيق به واللائق به أن يخالفه ويعارضه ويثور عليه ليعتدل، ولا يطيع شيئاً منه باختياره.

وبتعبير آخر، قالوا له: إنك تنكر منا وتعيب علينا بجهلك الخير المطلق الذي صرنا إليه، وهو حقيق بالمدح والثناء الكامل عليه عند العقلاء والحكماء والفضلاء، وتدعونا إلى ما هو شر مطلق وحقيقٌ بالعيب والإنكار عليه والذم له، و إنكارك علينا هو في الحقيقة والواقع إنكار إلى الحقيقة الموضوعية الواقعية، المستندة إلى الحجة البالغة والدليل الواضح والبرهان الساطع القاطع، وفيه تنكر للعقل والمنطق والفطرة والطبع السليم؛ لأنك لا تقيم وزناً للحقائق والمنطق والحجج والأدلة والبراهين، ولا تفكر في عواقب الأمور، وما ذلك إلا لأنك استغرقت في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية والملذات الحسية والشهوات الحيوانية، مما يدل على نقصان عقلك وحكمتك وسفاهة أحلامك؛ لأنك تضع الأمور والأشياء في غير مواضعها، وعلى تضخم ذاتك وفرط أنانيتك وموت وجدانك وضميرك و إنسانيتك؛ لأنك لا تفكر في غير نفسك ومصالحك الدنيوية العاجلة الفانية، وعلى جهلك بالحقائق الإلهية والسنن الكونية والتاريخية وبعدك عنها والحيلولة التامة بينك وبينها، وانفصالك التام عن الواقع

والمصير؛ لتعيش في عالم الأوهام والتمنيات والخرافات الموحش المظلم، وذلك كله بسبب ضعف منطقك وفساد طبعك وفطرتك وسوء نيتك وكامل عنادك للحق و استكبارك على الانقياد لأهله وأربابه، واعتمادك الكامل على العنف والقوة والإرهاب لفرض حكم الأمر الواقع على الناس وإخضاعهم إلى إرادتك والانصياع إلى نظامك ودولتك وحكومتك، وتسلب من الناس حقهم في الحرية واختيار نظام دولتهم وحكومتهم وتقرير مصيرهم بأنفسهم بغير وجه حق لك في شيء من ذلك.

وصيغة الجمع في لفظ الآيات: ﴿بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾[1] تدل على أنهم قد عدّوا أمر العصا متضمن لآيات عديدة وليس لآية واحدة، حيث تحولت إلى ثعبان حقيقي عظيم وهذه آية، ولقفت جميع ما صنع السحرة حتى تلاشى عن آخره ولم يبق له أثر بعد حين وكأنه لم يكن له وجود وهذه آية ثانية، ورجعت إلى حالتها وطبيعتها الأولى التي كانت عليها بعد أن أخذها موسى الكليم عليه السلام بيده ورفعها عن الأرض وهذه آية ثالثة، وربما أضافوا إليها معجزة اليد السمراء التي تتحول إلى بيضاء وتشع نوراً كنور الشمس الساطعة يملأ المكان، وربما نظروا إلى جنس الآيات.

والقول الصادر عن السحرة المؤمنين الكرام وخاطبوا به فرعون الطاغية، وهو الجبار العنيد رغم ما عرف عنه من الظلم والبطش والقسوة، يدل على اليقين الراسخ والبصيرة النافذة والرؤية الواضحة لديهم، والجرأة والشجاعة البالغة، والإيمان العميق الراسخ في النفس، المتمكن من العقل

١. نفس المصدر

والقلب، واستيعاب لحقائق وأبعاد الإيمان، النظرية والعملية، رغم حداثة إيمانهم، مما يدل على أن إيمانهم ملهم، وأنهم مسددون ومؤيدون من رب العالمين الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى، لما كانوا يتمتعون به من طيبة النفس وحسن السجايا والطهارة الروحية، والصدق والإخلاص في النية، والاستعداد الكامل للتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الله ﷻ والحق والعدل والخير والفضيلة والحرية والعزة والكرامة والشرف والمجد، وللوصول إلى منازل القرب والزلفى، والاستغراق الكامل في المحبوب ذي الجلال والإكرام والفناء فيه والبقاء به، وهي مفاتيح التوفيق والتسديد والتأييد الإلهي، قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

كما يعتبر رداً بليغاً واضحاً وصريحاً على ما اتهمهم فرعون به، إذ نفى عنهم الطهارة الروحية وصدق النية في الإيمان، وأرجع إيمانهم لأهداف دنيوية سياسية واقتصادية، وهي الانقلاب على النظام السياسي ومؤسسات الدولة والحكومة والملك، وطرد أنصار فرعون من الوظائف العامة والمناصب العليا الحساسة، وطرد الأقباط الموالين للنظام والدولة والملك من أرضهم وديارهم ووطنهم، بهدف الاستئثار بالسلطة والثروة والمقدرات دونهم، مما يدل عنده على الخيانة العظمى التي يستحقون عليها أقصى العقوبات، ونحو ذلك من الأقاويل التحريضية والاتهامات الباطلة، التي ساقها فرعون الطاغية بدهاء منقطع النظير للكيد بالسحرة المؤمنين، من أجل تجريمهم تمهيداً للانتقام منهم و إنزال أشد العقوبات

١. العنكبوت: ٦٩

الجسمية والنفسية بهم؛ ليكونوا عبرة لغيرهم، والحد من تأثيرهم الكبير على الناس، ولكي يضمن تأييد الرأي العام الشعبي له ومناصرته ودعم الإجراءات العقابية التي يعتزم اتخاذها ضدهم، بدلاً من التعاطف معهم على أساس المظلومية والقسوة التي وقعت عليهم. فأراد السحرة الكرام لفطنتهم ونفاذ بصيرتهم نفي التهمه عن أنفسهم و إيضاح الحقيقة كاملة للجماهير؛ ليكونوا على علم ووعي وبصيرة ويقين بحقيقة الأمر من الجانبين، إيمانهم، وسخط فرعون عليهم ومعاقبته لهم، لكي لا يضلهم فرعون بالأكاذيب فيخطؤوا الطريق والموقف.

ويعدُّ ثبات السحرة المؤمنين الكرام على موقفهم الإنساني البطولي الشجاع، أمام عوامل الترغيب والترهيب وسياسة الإخضاع الفرعوني غير الإنسانية، وتحملهم لأشد حملات تشويه الصورة والسمعة في حرب الأكاذيب، وتحملهم لأشد العقوبات الجسمية والنفسية للانتقام منهم والتنكيل بهم، وما أظهروه وتجلى في سلوكهم ومواقفهم وأقوالهم من الاشتياق إلى الموت والشهادة في سبيل الله ﷻ والحق والعدل والخير والفضيلة والحرية والعزة والكرامة والمجد والشرف ولقاء المحبوب ذي الجلال والاكرام، ليدل بما لا يدع مجالاً للشك والريب والتردد عند كل من له عقل سليم ومنطق متين وقلب صافي وروح طاهرة تحمله على الإنصاف، على أن السحرة الكرام كانوا يتمتعون ببصيرة نافذة، ورؤية واضحة للدين، ويقين راسخ، وعلم واسع، وقول بليغ، و إيمان صادق، ونية خالصة، وأمانة بالغة، وقلوب طاهرة ونفوس سامية، والمحبة الشديدة للناس، والصدق معهم، والإخلاص إليهم والحرص التام عليهم،

والرغبة الصادقة الجامحة في إرشادهم وهدايتهم، وتمني الخير والصلاح والسعادة الحقيقية والنجاة لهم، والمحافظة على مصالحهم العامة والخاصة، وصيانة حريتهم وعزتهم وكرامتهم وكامل حقوقهم الطبيعية والمكتسبة، وفدائهم بأنفسهم والتضحية من أجلهم، كل ذلك قولاً وعملاً. على خلاف حال فرعون الطاغية، الذي يعاني من أمراض نفسية وروحية خطيرة جداً، مثل: تضخم الذات والأنانية المفرطة والاستعلاء على الناس والحق، والاستلذاذ بآلام الناس وعذاباتهم، وتسخيرهم بدون رحمة أو شفقة من أجل مصلحته وسلطته وأهوائه الشيطانية ورغباته وشهواته ونزواته وملذاته الحيوانية، بغير رقيب ولا حسيب، لا من الظاهر الاجتماعي والسياسي والقانوني، ولا في الباطن الوجداني؛ لأنه يعاني من موت الضمير والوجدان، ولا يؤمن بالغيب والرقابة الإلهية عليه، ويرفض كل أشكال الرقابة والمحاسبة القانونية والسياسية والشعبية، ويعتبر ذاته مصونة لا تمس، ويجب التسبيح بحمده وتقديسه، ولا يجوز نقده ولا مخالفته أو الاعتراض عليه، ويفرض إرادته وسلطته على الناس طوعاً أو كرهاً، بقوة الحديد والنار والعنف والإرهاب، فيعاقب كل ما يخالفه أو يعترض عليه، بأشد العقوبات ليكون عبرة إلى غيره، فلا يفعل مثل فعله، فهذا هو سبيله للحفاظ على ملكه وسلطته.

وقد مثّل السحرة المؤمنون الكرام بموقفهم الإنساني النبيل والبطولي الشجاع أمام جبروت فرعون وطغيانه وبطشه وقسوته، النموذج والأسوة الحسنة لكل مناضل شريف، ومؤمن صادق في إيمانه وواع بحقيقة الإيمان ومقتضياته وأبعاده الفكرية والروحية والتربوية والحضارية، إذ يستولي

الإيمان الراسخ المشرق النقي على كامل المشاعر والعواطف، ويسمو بالإنسان فكرياً وروحياً فوق عالم الدنيا والمادة، وفوق ذاته ومصالحه الدنيوية العاجلة الفانية، ليحلق في عالم الملكوت والطهارة، في ساحة القدس في جوار الملائكة المقربين، فيهدي الله تبارك وتعالى قلبه ويسدد منطقه ونطقه وموقفه، ويلهمه الحقائق الإلهية الحقة العظيمة، ويريه بقلبه وبصيرته عواقب الأمور في الدارين الدنيا والآخرة، فيقول كلمة الحق والعدل والصدق والخير والفضيلة في المحافل العامة والخاصة، ما كانت الحاجة إليها قائمة والاستفادة منها موجودة، فيقولها خالصة لوجه الله الكريم ومن أجل المصلحة العامة إلى الناس، ويبتعد عن الفضول في القول، وقول الزور والرياء والسمعة ونحو ذلك، ويقف المواقف البطولية الحقة المطلوبة بمقتضى الحكمة والشجاعة والبطولة، ولا يجبن أو يتردد خوفاً أو طمعاً، ويضحي بنفسه وراحته ومصالحه الدنيوية الفانية كلها وبأعز ما يملك فيها، من أجل رضوان ربه ذي الجلال والإكرام، والدفاع عن الدين الإلهي الحق وحدوده وعن المبادئ والقيم والحرمات والمقدسات والحقوق إعلاء لكلمة الحق والصدق والعدل والخير والفضيلة، وصيانة لحرية الإنسان وكرامته والمحافظة على المصالح العامة للعباد، ونحو ذلك.

انقطاع السحرة إلى الله

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾

بعد أن نفّذ السحرة موقفهم البطولي الشجاع، وهو السجود لرب العالمين، و إعلان إيمانهم أمام الجماهير المحتشدة في الميدان وبحضور فرعون وملئه وأعوانه، وكامل جهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري والفني وانتهوا من خطابهم الجريء لفرعون، متجاهلين جبروت فرعون وقوته وطغيانه وقوة جيشه وجنوده وشرطته وجميع الذين حوله، وأدّوا ماكان عليهم من واجبِ أمانةِ الكلمةِ وقول الصدق والشهادة بالعدل، وكشفوا الحقائق الواجبِ كشفها إلى الناس برجاء إرشادهم وهدايتهم إلى الحق ووضع أقدامهم على الصراط المستقيم والنهج القويم في الحياة، وقد جاؤوا بالأمر العجيب من الخطاب الجريء الواضح البليغ تام الدلالة على المراد إلى فرعون الطاغية الجبار العنيد وزمرته وبطانته وملئه وأعوانه الفاسدين المارقين عن الحق فلم يخافوا ولم يذعروا لسطوتهم وتجبرهم وطغيانهم وعنادهم وقسوتهم، بل أعربوا عن اعتقادهم وحجتهم، وما رأوا أن فيه الحق والعدل والصدق والخير والفضيلة والصواب بثبات وبقلوب مطمئنة راسخة ونفوس كريمة ملؤها الإيمان واليقين والتسليم راضية بالقضاء والقدر الإلهي وبما قسمه الله ﷻ لها من نصيبٍ في الدارين الدنيا والآخرة، وبعزمٍ ثابت لا يلين ولا يتراجع عن الحق وسجايا طيّبة وعلمٍ واسعٍ غزيرٍ نافعٍ ومنطقٍ سديدٍ ومتينٍ وقولٍ فصيحٍ وبليغٍ يدلُ على تألقهم الفكري وشرف مكانتهم وحالتهم الروحية.

بعد القيام بهذا الواجب الإنساني والتكليف الإلهي المقدس العظيم، أعرضوا عن فرعون وتجاهلوا وجوده وأشاحوا بوجوههم الكريمة عنه غير مكترثين به ولا مبالين بعقوباته وتهديده ووعيده وتوجهوا إلى ساحة القدس

الإلهي وخاطبوا الجناب العليَّ والرب الجليلَ ذو الرحمةِ الواسعةِ والفضل العظيم، مفوضين الأمر إليه ومتوكلين عليه فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾[1] أي: أخذتهم الجذبةُ الإلهية، فما ذعروا ولم يخافوا ولم يهابوا مما هددهم به فرعون الطاغية، بل استغاثوا بالمعشوق رب العالمين ذو الجلال والإكرام الرحيم الرحمن ليفيض عليهم بالصبر العظيم على ما عزم عليه فرعون الطاغية من تعذيبهم وقتلهم، إذ أضحت الدنيا بكل ما فيها ومن فيها وبجميع أحوالها وشؤونها وراء ظهورهم في هذه اللحظات القليلة المتبقية والعصيبة الحرجة و المصيرية، فلم يعودوا ينظرون إليها أو يفكروا فيها أو يرجوا منها شيئاً، واستقبلوا الآخرة التي أصبحت قبلتهم الوحيدة ودار مقرهم و إليها من مجاورة اللئام مقرهم ومهربهم، وتفرغت إليها قلوبهم وأرواحهم، ولم يعد لهم نظر إلا لله ذي الجلال والإكرام، ولم يعد لغيره حضورٌ في أبصارهم وبصائرهم، ولم تعد قلوبهم تهفوا لغيره، ولا تطرب إلا له، فتوجهوا منجذبين إليه انجذاب العاشقين إلى المعشوق بكليّتهم وكامل وجودهم وكيانهم ومشاعرهم، ومفوضين أمور توجههم وسلوكهم وسعيهم إليه وحده لا شريك له، ولم يعد لفرعون وجبروته وسلطته وملئه وأجهزة دولته أو لغيرهم أي حضور أو تأثير لديهم، وكان الحضور كل الحضور الذي استولى عليهم بالكامل هو حضور المعشوق الحقيقي الأوحد والأعظم والأكمل في الوجود، الذي هو نور السماوات والأرض، ونور العقول والقلوب والأجسام والأفكار والمشاعر والسلوك، والذي يُعَدُّ كل وجودٍ لغيرهِ في قبالِ وجوده هباءً، فتوجهوا إليه واستغاثوا به وحده

---

١. البقرة: ٢٥٠ - الأعراف: ١٢٦

لاشريك له وسألوه بقولهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾[١] أي سألوا الله ذي الجلال والإكرام أن يرحمهم ويلطف بهم ويثبّتهم على الحق والقول الثابت، وأن يغمرهم ويفيض عليهم بفضله ومنّهِ وجوده وكرمه بأبلغ وأوسع وأشمل وأعظم أنواع الصبر ويثبتهم في تلك اللحظات القليلة المتبقية الصعبة الحرجة والمصيرية في مسيرة وجودهم وتجربتهم الإنسانية كلها، استعداداً منهم لما سينزل عليهم من البلاء العظيم والعذاب الشديد المؤلم والانتقام الشنيع والتنكيل المفجع الذي توعدهم وهددهم به فرعون الطاغية وهو عازم عليه بدون تردد، وذلك توطيناً لأنفسهم على التصلّب في الحق وفي ذات الله ذي الجلال والكرام وثبات القدم على الإيمان والصراط المستقيم والنهج القويم في الحياة، وبدون شك فإن في مثل هذا الموقف والحال، يُحمد الصبر على القتل والتعذيب والسجن والتضييق والنفي ونحو ذلك من العقوبات؛ لأنه في سبيل الله ﷻ والحق والعدل والخير والفضيلة والحرية والعزة والكرامة والمجد والشرف والإباء، وقد سألوا الله تبارك وتعالى أن يرزقهم فضيلة الصبر خوفاً من أن تنهار أعصابهم وتتلاشى عزائمهم إذا أحسّوا بوقع السيوف وألم الصلب والجراح والتعذيب، فيرتدّوا عن دينهم وعن موقفهم البطولي الحق ومنهج الصواب فيخسروا شرف الدنيا وثواب الآخرة وهو الخسران المبين. وسألوا الله تبارك وتعالى أن يفرغ عليهم الصبر لما سيستقبلهم من هيبة وجلال لقاء المعشوق ذي الجلال والإكرام؛ لأنهم لا يستطيعون بطبيعة الحال أن يثبتوا من تلقاء أنفسهم في مواجهة ما سيستقبلهم في الحالتين، العقوبات الثقيلة والتنكيل المفجع،

---

١. نفس المصدر

ومفاجأة هيبة وعظمة لقاء المعشوق الكامل ذي الجلال والاكرام سبحانه وتعالى، فهم في حاجة في الحالتين، إلى التأييد الإلهي والتثبيت والدعم والمساندة والإمداد الرباني. أي: لأنهم كانوا يشعرون بأنهم يواجهون أشد العقوبات وأعظم المخاطر المصيرية، فقد سألوا ربهم ومعشوقهم الأوحد أن يعطيهم أعلى وأعظم درجات الصبر والثبات والتحمّل، فعبارة: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾[1] تدل على أمرين:

أ. الشعور بضعفهم في أنفسهم وحاجتهم الذاتية الى الدعم الغيبي والمساندة والتأييد الإلهي وعدم استغنائهم في أنفسهم عن ذلك.

ب. طلب أعلى وأعظم درجات الصبر والإمداد والتثبيت والتحمل، لمواجهة أعلى وأقصى درجات المخاطر المصيرية المحدقة، وأشد التهديدات والعقوبات: الجسمية والنفسية، المتوقعة وغير المتوقعة، وأكثرها أذىً وإيلاماً. لأن الإفراغ يعني صبّ السائلِ في الإناء إلى أن يمتلأ إلى رأسه ونهايته، مما يشير إلى تمام الصبر والإمداد والتثبيت، وتنكير لفظ ﴿صَبْرًا﴾ يدل على التعظيم، فمعنى قولهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: صبّ علينا صبراً عظيماً واسعاً شاملاً يفيض ويغمر وجودنا وكياننا بالكامل في هذه اللحظات القليلة المتبقيّة، وهي لحظات صعبة وحرجة ومصيرية في مسيرة وجودنا وتجربتنا الإنسانية، وثبات أقدامنا أمام المخاطر الوجودية العظيمة، والعقوبات النوعية الشديدة، الجسمية والنفسية، فالمحنة

١. نفس المصدر

جدّاً عظيمة، والألم شديد، بالإضافة إلى ذهاب النفس ومفارقة الأهل والأحبة، فيحتاج الثبات والصمود والتحمل فيها إلى صبرٍ عظيمٍ لتزول الوحشة والإنزعاج، ويطمئن المؤمن على إيمانه، وهو صبر لا يمكن أن يحصل إلا منك. ونحن لا ننظر في هذه اللحظات إلى غيرك، ولا نأمل من أحد سواك شيئاً، فلا نأمل ولا نرجو ولن نسأل الأعداء حين يعذبوننا ويقطعون أيدينا وأرجلنا من خلاف ويصلبوننا على جذوع النحل ويتركوننا ننزف ونتعذب ونتألم أكثر فأكثر حتى نموت ببطء أن يعفوا عنا ويرحموننا، فنحن لا ننظر إلا إليك، ولا نأمل إلا منك ولا نرجو أحداً سواك، فكن معنا وثبتنا وكن أنيسنا في وحشتنا والحاضر الوحيد في بصائرنا وقلوبنا، فلا نشعر بشيء من العذاب أو الألم ولا نعتني بهما، ولكي تذهب عنا الوحشة والإنزعاج، وتطمئن قلوبنا إلى الإيمان، فلا تنهار أعصابنا وتتلاشى عزائمنا عند التعذيب والتنكيل والفراق، فنرتد عن ديننا الحق المبين على أدبارنا كفار خاسرين كما كنا قبل إيماننا وهدايتك المحمودة لنا لدينك الحق الحنيف وصراطك المستقيم ونهجك القويم في الحياة على يد نبيك وحبيبك وصفيك وصفوتك وخيرتك من خلقك ووليك الأعظم موسى بن عمران الكليم عليه السلام، أو أن نأسف على شيءٍ مما فاتنا من فتات الدنيا الفانية وزينتها وزخرفها، فنخسر منازل القرب والزلفى عندك في الآخرة، وأعنّا على دهشة هيبة اللقاء معك يا رحيم يا رحمن، وهذه عقيدة كل مؤمن مخلص بصير، وأمنيته الثبات والصبر على الطاعة والجهاد،

والشهادة أو الموت على الدين الإلهيّ الحق والصراط المستقيم.

وقد أثبتت التجارب العديدة: التاريخية والمعاصرة، بأن الإنسان إذا حدّث نفسه بالدنيا وزخرفها، وبألم وأهوال القتل والتعذيب والسجن ونحوها، وبصعوبة فراق الأهل والأحبة، ونحو ذلك، فإنه يشعر بالضعف الذي يؤدي إلى التراجع والإنهيار، فيكون من الخائبين الخاسرين ويلحق به الخزي والعار في الدارين الدنيا والآخرة، أما إذا حدّث نفسه بمثل ماحدّث به السحرة أنفسهم، وسأل الله تبارك وتعالى بمثل ماسألوه بصدق و إخلاص نيّةٍ وطهارةِ قلبٍ، فإنه يصبر ويصمد ويثبت، فيكون من الفائزين المفلحين الرابحين، ويفوز بمنازل القرب والزلفى والرضوان عند الله العليّ الأعلى.

ثم سأل السحرة ربهم رب العزة والجلال الرحيم الرحمن، أن يثبّت أقدامهم على الإيمان والإسلام الحنيف، فقالوا: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[1] أي: توفنا ثابتين على دينك الحق وهو الإسلام الحنيف وصراطك المستقيم، خاضعين منقادين لجميع أوامرك ونواهيك، ومتبعين صفيّك وحبيبك ورسولك الصادق الأمين ووليك الأعظم موسى بن عمران الكليم عليه السلام وخالصين موحدين لك في الطاعة والعبادة، غير منحرفين عن الحق ولا محرّفين ولا مبدّلين ولا ضالّين ولا مضلّين ولا خاطئين ولا مفتونين عن الحق والصواب، أي: ليس المهم هو الصبر والثبات والتحمل والرضا بالتعذيب والتنكيل ونحو ذلك، ولكن المهم هو معرفة الدين الحق و إمام الدين الحق والموت على ذلك، وهذه أمنية صادقة لكل مؤمن واعي بصير صادق في

١. الأعراف: ١٢٦

إيمانه، تعكس بصيرته ووضوح رؤيته وصدق توجهه إلى الله ذي الجلال والإكرام بنيّة خالصة من الشوائب والتعصب والفناء فيه والبقاء به. ومن كان في مثل حالتهم من المؤمنين، يغالب نفسه ويجاهدها للتخلي عن التعصب ونحوه ويخلص في البحث عن الدين الحق والإمام الحق ويتبعهما ويثبت عليهما أمام أمواج التعصب الديني والمذهبي والمعرفي والثقافي ونحو ذلك، وأمام عواصف الترهيب والترغيب وعمليات فض وشراء الضمائر في عالم السياسة والنخاسة، ويلازم كلمة الحق والعدل والصبر والخير والفضيلة، وطريق الصلاح والإصلاح، وتحصيل الحقوق والعزة والمجد والحرية والكرامة، والسعي الحثيث للوصول إلى أعلى مراتب الكمال الإنساني المقدّر له واللائق به، لا أن يرضى بالذل والهوان والعبثية في الحياة، وبمراتب الحيوانيّة والبهيمية ونحو ذلك، ويحرص كامل الحرص على أن يحيا ويموت على الإسلام الحنيف والصراط المستقيم والنهج القويم صابراً محتسباً ليفوز بالرضوان الإلهي ومنازل القرب والزلفى وبالسعادة الحقيقية الأبدية الكاملة وبالنعيم المقيم في جنات الخلد مع الأولياء السعداء من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ثم إنّ فرعون الطاغية اللئيم أوقع بالسحرة المؤمنين الكرام ما توعّدهم وهددهم به من القتل الشنيع صبراً، ومثّل بأجسامهم تمثيلاً مروعاً فقطّع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ، ثم صلبهم على جذوع النخل وشدّهم بعنفٍ وقسوةٍ، وتركهم ينزفون حتى يموتوا ببطء، وقد نفذ هذه العقوبة الفرعونية القاسية، بالقرب من نهر النيل العظيم، الذي هو بحق هبة مصر

الكبرى، ليكون الموقع شاهد صدقٍ على عظيم النعمة، وعظيم الجرم والكفر بالنعمة. وأن الله تبارك وتعالى قد ثبتّ بلطفه ورحمته السحرة على الإيمان، وتوفاهم على الإسلام صابرين محتسبين، ومضوا إلى ربهم ذي الجلال والإكرام الرحيم الرحمن شهداء أبرار محسنين مستضعفين مظلومين، وثبتت أسماؤهم في صفحات التاريخ وفي صحائف الأعمال والكتاب المبين بأحرف من نورٍ مع الشهداء الأبرار الأحرار، وكانوا أسوة حسنة للمؤمنين الواعين المجاهدين في صدق الإيمان، وحسن الطبع والخلق والسجايا، والصبر الجميل والثبات والصمود على الحق والعدل والخير والفضيلة في المواقف الصعبة والإرادة الفولاذية التي لا تلين ولا تتراجع عن الحق مهما كان الثمن ولكل مناضل شريف في كل أمة أو مذهب أو دين، وهو الأمر الموافق للعقل والحكمة والمنطق والشرع والفطرة والطبع السليم، وطريقاً إلى الحرية والعزة والكرامة والمجد والشرف والحياة الطيبة والنهوض والمدنية والتقدم والتطور ونحو ذلك، وأصبحوا بموقفهم الإنساني البطولي الشجاع النبيل، ذكراً حسناً جميلاً خالداً في التاريخ للأجيال المقاومة من كل دين ومذهب وعرق وفي أعظم كتاب سماوي عرفته البشرية وهو القرآن المجيد، وقد كشفوا عن وجهين متناقضين في الحياة الاجتماعية والتجربة الإنسانية التاريخية، وهما:

أ. وجه فرعون الطاغية المتجبّر القبيح، وأعماله الإجرامية بكل مافيها من أنانية مفرطة وشناعة وتنكر للإنسانية والكرامة الإنسانية والحقائق والمنطق والفضيلة وإصرار على الباطل والشر والرذيلة والجريمة وخيانة الحقيقة وأمانة الحكم والرعاية والمسؤولية،

ويشـاركه نظامـه الفاسـد وحكومتـه الجائـرة فـي جميـع ذلـك.

ب. وجـه السـحرة المؤمنيـن الصالحيـن الكـرام الجميـل، ومـا يتمتعـون بـه من صحـوة الضميـر والبصيـرة والرؤيـة الواضحـة والرغبـة الشـديدة فـي الصـلاح والإصـلاح والتنميـة الحضاريـة الشـاملة فكريـاً وروحيـاً ودينيـاً وسياسـياً واقتصاديـاً واجتماعيـاً و إداريـاً فـي حيـاة الأمـة والشـعب المصـري، والصبـر والفـداء والتضحيـة بالنفـس والنفيـس فـي سـبيل الحـق والعـدل والخيـر والفضيلـة والحريـة والعـزة والكرامـة والحقـوق الإنسـانية الطبيعيـة والمكتسـبة، ومايشـتمل عليـه ذلـك مـن الضيـاء والنـور والبهجـة والسـرور واللطـف والكرامـة، ويكشـف عـن التحـولات الكبيـرة الفكريـة والروحيـة والسـلوكية التـي حدثـت فـي نفـوس السـحرة بعـد الصحـوة والتوبـة النصوحـة والعـودة المحمـودة الصادقـة إلـى الله ذي الجـلال والإكـرام، فكانـوا مـن خيـرة النـاس والعبـاد الصالحيـن، وكان موقفهـم الإنسـاني النبيـل البطولـي الشـجاع نِعـمَ الموقـف، ومصيرهـم نعـم المصيـر، وعاقبتهـم نعـم العاقبـة، فـي الداريـن الدنيـا والآخـرة، وكان لهـم الأثـر الطيـب البالـغ المحمـود فـي إصـلاح النـاس و إصـلاح أوضاعهـم وأحوالهـم والفـوز بالشـرف العظيـم والذكـر الجميـل فـي الأجيـال المتطاولـة عبـر التاريـخ فـي الحيـاة الدنيـا، والفـوز بالرضـوان الإلهـي العظيـم والسـعادة الحقيقيـة الأبديـة الكاملـة والنعيـم المقيـم فـي مراتـب الفـردوس فـي جنـات الخلـد فـي الآخـرة.

شرف الحالة الفكرية والروحية للسحرة

ما صدر عن السحرة المؤمنين الكرام من الأقوال والأفعال الحسنة والمواقف البطولية النبيلة الشجاعة بعد الصحوة والتوبة والعودة المحمودة والرجوع إلى الله ذي الجلال والإكرام وحضن الإنسانية، يدل بوضوح لا لبس فيه ويقين لا شكّ فيه على شرف الحالة الفكرية العالية والحالة الروحية السامية التي صار إليها السحرة بعد الصحوة والتوبة وكمال إيمانهم ويقينهم والمسلك العشقيّ الراقي جدّاً في السلوك والعرفان والعلاقة مع المعشوق الكامل المطلق ذي الجلال والإكرام، والسؤال: كيف حصل للسحرة كل تلك التحولات الفكرية والروحية والسلوكية العميقة والوصول إلى هذا المستوى العالي من الكمال والتألّق الفكريّ والسمو الروحيّ والهدى والصلاح والاستقامة في السلوك والمواقف، مع أنهم حديثوا الإيمان، وكانوا قبل ذلك سحرة كفرة فجرة، يقفون إلى صف فرعون الطاغية المتجبر العنيد وإلى صف نظامه الفاسد وحكومته الجائرة، ويقولون بألوهية فرعون وربوبيته، وكانت لهم مساهمات فعّالة واسعة ودور كبير جداً في الحياة الدينية الوثنية ودعم النظام الملكي الفرعوني الفاسد، والدعاية إليه وتعزيز وجوده وتثبيته وترسيخه و بسط نفوذه في الوسط الشعبي والدفاع عن ظلمه وفساده وجرائمه وخياناته ومشاركته فيها، أي: كيف حدث هذا الانقلاب المفاجئ وصاحبته كل تلك التحولات العميقة الواسعة الشاملة، فكرياً وروحياً وسلوكياً، فتحولوا فجأة من سحرة كفرة مجرمين أشرار إلى مؤمنين صادقين في إيمانهم مصلحين أخيار أبرار، واعين ومدركين لحقائق الإيمان والتوحيد وأبعادها الفكرية والروحية

والعملية على كافة الأصعدة، في مدة قصيرة جداً، بل صاحبت كل تلك التحولات العميقة الواسعة الشاملة لحظة الصحوة والتوبة ولم تتأخر عنها؟ وقد بلغ الانقلاب المفاجئ ووصلت التحولات إلى درجة أنهم كفروا بألوهية فرعون وربوبيته، وعارضوا نظامه ودولته وحكومته، وأعلنوا ذلك بكل صراحة ووضوح لا لبس فيه ولا غموض وبجرأة وشجاعة منقطعة النظير، أمام الجماهير المحتشدة في ميدان المبارزة في الصحراء، وبحضور فرعون وملئه ومعاونيه وأنصاره وكامل جهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري والفنّي، ولم يرهبهم فرعون الجبّار العنيد وطغيانه وقسوته وما تحت يديه من الشرطة والجيش والمخابرات والعتاد وأحدث وسائل وأساليب وأدوات التعذيب، وقطعوا جميع العلاقات مع الملك والنظام وأربابه والقائمين عليه وتبرؤوا منهم جميعاً، وكفروا بعطايا فرعون وجوائزه ورعايته، ووقفوا إلى صفّ الحق والعدل والخير والفضيلة، وانضموا إلى صفوف المعارضة، ودافعوا بكل قوة وشجاعة و إصرار عن عقيدتهم ومبادئهم الجديدة، وعن إمامهم وقائدهم العظيم موسى بن عمران الكليم عليه السلام وعن قضيتهم العادلة ومطالبهم الإصلاحية والثورية المشروعة وموقفهم الجديد المعارض للملك والنظام، وتجاهلوا مكانتهم السابقة وحظوتهم عند الملك والنظام، وماوعدهم به فرعون من المكافأة الماديّة العظيمة والتقريب، أي: تجاهلوا الترغيب بالمصالح الدنيوية، كما تجاهلوا الترهيب وجبروت فرعون ونظامه وأجهزته وقسوتهم وبطشهم وتاريخهم الإجرامي وما توعدوهم به من العقوبات الشديدة المؤلمة، الجسمية والنفسية، وتغلبوا على سياسة فرعون ونظامه في الإخضاع

وفضّ الضمائر وشرائها عن طريق الترغيب والترهيب أو مايعرف بسياسة العصا والجزرة، وعزموا على الشهادة في سبيل الله ﷻ والحق والعدل والخير والفضيلة والحرية والعزة والكرامة والمجد الشرف، واستقبلوها استقبال العاشقين للمعشوق بِوَلَهٍ وشجاعة منقطعة النظير، وبنفوسٍ كريمة راضية مرضية مطمئنةٍ ووجوهٍ مستبشرة، وسلكوا سبيل الإيمان والتوحيد والطاعة والتضحية والفداء عن وعيٍ كاملٍ، وأدلوا بحجج قوية ناصعة صاعقة، وبمنطق قوي سديد، وبراهين محكمة البنيان، وبيان بليغ مؤثر، وسألوا الله ﷻ لفرط عشقهم: أن يفرغ عليهم صبراً ويثبتهم لكي لا يمليوا أو يحيدوا عن الدين الحق والصراط المستقيم في تلك اللحظات العصيبة المصيريّة أمام شدة العقوبات وآلامها وصعوبة الفراق أو يلتفتوا إلى شيءٍ من حطام الدنيا الفانية وزينتها وزخرفها أو يحزنوا لشيءٍ فاتهم منها!!

والجواب: لقد كان لدى السحرة منهجية علمية ومنطقية سليمة، وساعدتهم خبرتهم العلمية والعملية الواسعة بفنون السحر وصناعته والمعرفة الدقيقة بأسراره وخباياه وخفاياه، على الإدراك السريع والمعرفة اليقينية بحقيقة المعجزة العظيمة التي جاء بها موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين، وقطعوا بأنها ليست من السحر ولا مشابهة له ولا تمتّ إليه بصلةٍ من قريب أو بعيد، بل هي حقيقة فعلية واقعية تقف وراءها قوة غيبية أزلية أبدية مطلقةً فوق الطبيعة وفوق البشر ولايمكن أن يؤتى بمثلها عن طريق الاكتساب بالتعليم والتدريب ونحوهما، ومن الواجب عقلاً تقديس هذه القوة المطلقة الكاملة والخضوع المطلق إليها وطاعتها فيما تأمر به وتنهى عنه؛ لأنها تتصف بالعلم المطلق والقدرة المطلقة

والرحمة الواسعة والحرص التام الكامل على هداية الناس و إرشادهم إلى مافيه خيرهم وصلاحهم وكمالهم ورفاههم وسعادتهم الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، ولا أحد من البشر أو من غيرهم يستطيع أن يقف في وجهها أو يحيل بينها وبين ما تريد. أي: أنَّ السحرة علموا بحقيقة التوحيد، وعلموا تبعاً لها بحقيقةِ المعاد و النبوة، وتوصّلوا إلى معرفة الحقائق الإلهية الرئيسية المترتبة عليها في الحياة العملية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، وأدركوا الكثير من التفاصيل الدقيقة اللازمة منها، فكانوا بحقٍ يعلمون أيَّ طريقٍ يسلكون، ولماذا يجاهدون، ومن يكافحون ويعارضون، وأيَّ مصيرٍ حميدٍ وعاقبة حسنة ممدوحة ومستقبل مشرق ينتظرون!!

كما أنَّ السحرة كانوا يتمتعون بنفوس كريمة طيبة سخية وطبائع إنسانيّةٍ سليمةٍ خيرة، مثلّتِ الأرض الخصبة الصالحة لتلك التحولات العظيمة الواسعة، الفكرية والروحية والسلوكيّة، ولولا تلك الخصائص الطيبة والخيّرة للنفوس، وسلامة المنطقِ واستقامة المنهج في التفكير اللذين ربطا بين مصلحة الإنسان الحقيقية وحسن عاقبته ومصيره وسعادته في الدارين الدنيا والآخرة وبين معرفة الحقائق الإلهية والعمل بمقتضاها، لما كان لتلك التحولات العظيمة الواسعة أن تحدث، فلا يكفي لكي تحدث مثل تلك التغيرات والتحولات أن يأتي الخصم بالحجج الساطعة والأدلة القوية والبراهين المحكمة الواضحة المقنعة، أو أن يكتشف الإنسان بنفسه الحقائق لكي يسلّم لها ويتّبعها ويعمل بمقتضاها، فقد يكابر الإنسان ويعاند ويجحد بالحقائق وينكرها بلسانه ويعارضها في سلوكه ومواقفه

حتى و إن كانت واضحة له كالشمس الساطعة ومقتنعاً بها تماماً وعن يقينٍ في داخل نفسه، قول الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1] وذلك بسبب الاستغراق التام في التعصّب وعالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية العاجلة الفانية ونحو ذلك.

ثم امتزج ما يتمتع به السحرة من الصلاح والخيريّة والطيبة والكرم وسلامة المنهج والمنطق مع الوعي الكامل بالحقائق الإلهيّة الرئيسية والتفصيلية، النظرية والعملية، حتى صارت حالتهم منشأً إلى حالة عشقٍ ملتهبةٍ ملأت أركان وجودهم وكيانهم كله وسيطرت على كامل أفكارهم ومشاعرهم وحركاتهم ومكانتهم، وهو عشقٌ لايعرف حدّاً ولا سدّاً، حتى أصبح الإيمان والتوحيد والعشق المحور الوحيد الذي تدور حوله الأفكار والمشاعر والحركات والسكنات، والموجّهَ والمرشدَ الوحيدَ لها، فلا تصدر عن شيءٍ أو تتوجه بشيءٍ غيره. ويعبَّرُ عن مثل هذا التحول العظيم والإنقلاب المفاجئ بقطع مسافة الألف ميل في لمح البصر، حيث تكون الطهارة الروحية وطيب النفس وحسن السجايا وسلامة المنهج في التفكير والمنطق و إخلاص النيّة وغيرها، هي العوامل الاختيارية التي يوفرها العبد الصالح في نفسه، وبسببها يتولى الله تبارك وتعالى أمر العبد بنفسه، فيهديه ويرشده ويسدد خطاه. فما حصل للسحرة المؤمنين الكرام من التحولات العظيمة العميقة الواسعة، كان بتأييدٍ و إمدادٍ إلهي، وما حصل لهم من الإيمان والعلم الغزير كان بإلهامٍ من الله تبارك وتعالى بسبب ماكانوا يتمتعون به من الطهارة والصدق والإخلاص ونحوها، ولا

١. النمل: ١٤

يمكن أن تحدث مثل هذه التحولات الفكرية والروحية والسلوكية بشكل مفاجئ إلا في ظلّ العنايات الغيبية والإمدادات الإلهيّة والتأييدات الربانيّة، وقد تكررت مثل هذه التحولات المفاجئة والعميقة والواسعة في العديد من النماذج التاريخية المعروفة في التجربة الإنسانية، مثل: زليخة بعد توبتها وعودتها إلى الله ذي الجلال والإكرام في عهد نبي الله يوسف الصدّيق عليه السلام في القرن الثامن عشر «١٨» قبل الميلاد، والسحرة الكرام بعد توبتهم في عهد نبي الله موسى بن عمران الكليم عليه السلام في القرن الثالث عشر «١٣» قبل الميلاد، وغيرهم الكثير .. الكثير، ولا زالت السُنّةُ الإلهيّة جارية إلى اليوم، وستبقى ما بقيتِ المسيرة أو التجربة الإنسانيّة إلى نهاية التاريخ على وجه الأرض، فكل مؤمن اختار سلوك طريق الحق والعدل والصدق والخير والفضيلة والحرية والعزة والكرامة والجهاد بشرف و إخلاص نيّةٍ، فسوف تشمله هذه السنّة ويحصل على العنايات الغيبية والإمدادات الإلهيّة والتأييدات الربانية، ولهذه السنّة طرفان، طهارة النفس وسلامة الطبع وحسن السجايا والصدق و إخلاص النيّة من جهة العبد واللطف والرحمة والتوفيق والتسديد والإمداد والعناية من جهة الله تعالى تبارك وتعالى، قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

---

١. العنكبوت: ٦٩

الفصل الثالث: محنة بني إسرائيل

قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٣٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[1].

تحريض الملأ لفرعون على الانتقام من موسى وقومه

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾

بعد أن غلب موسى الكليم عليه السلام وانتصر بمعجزته الإلهية العظيمة وآيات ربه عز وجل على السحرة وسجد السحرة الكرام مذعنين طائعين لرب العالمين، وأعلنوا إيمانهم بالتوحيد الحقيقي والمعاد والنبوة وتصديقهم بنبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام ورسالتهما وعدالة قضيتهما وشرعية مطالبهما الإصلاحيّة، الدينية والسياسية والحقوقية أمام الجماهير المحتشدة في ميدان المبارزة في الصحراء، وبحضور فرعون وملئه

---

١. الأعراف: ١٢٧-١٢٩

ومعاونيه وأنصاره وكامل جهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري والفني، وافتضحت خيانة فرعون وانكشف كذبه وثبتت عدم أهليته للحكم وتحمل المسؤولية العامة وبانَ فسادُ نظامه ودينه، نهض موسى الكليم عليه السلام بالدعوة إلى دين ربّه الحق واجتمع حوله خلق كثيرٌ من الناس، ودليله على دعوته ما حدث بينه وبين السحرة، بالإضافة إلى الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة التي يسوقها لإثبات صحة ما يدعو إليه، ويشفعه ببيان واضح بليغ ومؤثر غاية التأثير في النفوس الصالحة، فخاف الأشراف والأتباع من قوم فرعون، والمتملقين من الانتهازيين الأنانيين والنفعيين الفاسدين من أصحاب رؤوس الأموال وحملة الشهادات والكتّاب والصحفيين ونحوهم، أن تتغير الأوضاع وتصبح الأمور لصالح موسى الكليم عليه السلام ودعوته وحركته الإصلاحية، ويسقط النظام الفرعوني القائم، وتدور دوائر السوء والبلوى عليهم وعلى سيدهم الملك الإله، ويفقدوا بذلك مكانتهم ووظائفهم ومناصبهم ومرتباتهم وعطاءاتهم وامتيازاتهم التي يحصلون عليها ثمناً لولائهم للنظام والملك ومقابل ما يقدمونه من خدمات جليلة لصالحهما، وقد تدور الدوائر عليهم وعلى سيدهم الملك الإله الذي هو وليّ نعمتهم، فيحاسبوا على جرائمهم وخياناتهم وانتهاكاتهم لحقوق الإنسان، ويحاكموا في محاكم عادلة تقتص منهم بالحق وتنزل بهم العقوبات التي يستحقونها، فأصابهم لهذا التصوّر والتقدير المتوقع الحدوث الخوف والرعب الشديد والقلق. ويبدو أن فرعون الطاغية في أول الأمر، بسبب الصدمة العظيمة المفاجئة والرعب والخوف الشديد اللذين أصاباه من تغلب موسى الكليم عليه السلام وانتصاره على السحرة

المحترفين المهرة، وما رآه من معجزاتِ موسى الكليم عليه السلام العظيمة، وإيمان السحرة المفاجئ وغير المتوقع بالتوحيد والمعاد والنبوة وتصديقهم بنبوة موسى وهارون عليهما السلام وبعدالة قضيتهما وشرعية مطالبهما الإصلاحيّة الدينية والسياسية والحقوقيّة، وكفرهم بألوهيّة فرعون وربوبيته وملكه، وإعلانهم ذلك صراحة بين الجماهير المحتشدة في ميدان المبارزة وبحضور فرعون وملئه وأعوانه وأنصاره وكامل جهازه، والهزة العنيفة التي أصابت الجماهير المحتشدة في الميدان من الأقباط والإسرائيليين وغيرهم لما رأوه من المعجزة الإلهيّة العظيمة وإيمان السحرة وإعلانهم له، والتفاعل الشعبيّ الواسع والاختلاف الذي برز بين الجماهير حول حقيقة موسى الكليم عليه السلام ودينه ودعوته وحركته الإصلاحيّة والضجّة والصخب الذي صاحب ذلك، وقد رغب الكثير من الناس في دينه، وخوّف فرعون من عواقب التعرض بالسوء لموسى الكليم عليه السلام وقومه والمؤمنين به؛ بسبب ما يمتلكه من القدرات الخارقة الخطيرة، وكان فرعون مدركاً وشاهداً لجميع ذلك، فلم ير من الحكمة والصواب وهو الداهية في سياسته وتدبيره، أن يتّخذ موقفاً متشدداً من موسى الكليم عليه السلام وقومه والمؤمنين به في مثل تلك الأجواء والظروف، فلم يبادر إلى معاقبة موسى الكليم عليه السلام وقومه، ليس رحمةً بهم أو إنصافاً لهم أو حفظاً لحقوقهم أو لأيّ شيءٍ آخرٍ من هذا النوع، فليس ذلك من أخلاقه ولا من أخلاق الفراعنة المتجبّرين والحكّام المستبدّين الظلمة أمثاله، وإنما من أجل مصلحته ومصلحة نظامه ولشعوره بالعجز والخطر على نفسه وعلى ملكه ونظامه من جرّاء ذلك، ولولا ذلك لم يكفّ عن ظلمهم وإنزال أشد العقوبات بهم كما هي سجيته وطبعه.

وقد وجد موسى الكليم عليه السلام وأتباعه المؤمنين الصالحين في هذا التردد من قبل فرعون في معاقبتهم ومنحهم بعض الحرية نسبياً، الفرصة سانحة لهم للدعوة إلى الدين الإلهي الحق وهو دين التوحيد الخالص، والعمل على توحيد وبناء صفوفهم، فاستفادوا من هذه الفرصة واشتغلوا بجد ومثابرة واجتهاد في الدعوة والتبليغ بالدين الإلهي الحق، فأسلم من بني إسرائيل ستمائة ألف كما تقول بعض الأحاديث الشريفة، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الدعاة والمجاهدون في سبيل الله عزّ وجلّ والمناضلون الشرفاء بخصوص انتهاز الفرص في الدعوة والإصلاح أو الثورة، فلا يضيّعوا الفرص السانحة فإنها تمر مر السحاب ولا تعوّض، وقد تترتب على فواتها خسائر عظيمة وغصص بالغة، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**انتهزوا فرص الخير فإنها تمر مرّ السحاب**»[١] وعنه عليه السلام: «**الفرصة سريعة الفوت وبطيئة العود**»[٢] ويجب فيها إدراك العلاقة بين الموقف والظروف المحيطة، قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**الأمور مرهونة بأوقاتها**»[٣] وعليه: يجب خلق التوازن بين أمرين: اختيار الوقت أو الظروف المناسبة، والمبادرة في الوقت المناسب وعدم التأخر، وفي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «**من الخُرقِ المعاجلة قبل الإمكان، والأناةُ بعد الفرصة**»[٤] ولا يصحّ تضييع الفرص السانحة بحجة الاستقصاء ونحوه، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**من انتظر بمعاجلة الفرصة**

١. غرر الحكم ٢٥٠١

٢. غرر الحكم ٢٠١٩

٣. بحار الأنوار، جزء ٧٧، صفحة ١٦٥

٤. نهج البلاغة، حكمة ٣٦٣

مؤاجلة الاستقصاء، سلبته الأيام فرصته لأن من شأن الأيام السلب، وسبيل الزمان الفوت»[1].

وقد مرّ الإمامان الباقرُ وولده الصادقُ عليهما السلام بظروفٍ مماثلة ولكن بوجه آخر، حيث عاصرا مرحلة تداعي وأفول النظام الأموي، وبروز النظام العباسي وبزوغ نجمه، وانشغال الطرفان بصراعهما من أجل السلطة و إهمال الشؤون الدينية والعملية، وسادت الاضطربات الدولة الإسلامية فاستغل الإمامان العملاقان الفرصة، إذ انسحبا من المواجهة المكشوفة بين الطرفين واتخذا موقف الحياد، وانصرفا بحكمة وحنكة وقوة عزم و إرادة إلى نشر تعاليم مدرسة أهل البيت عليهم السلام في جميع المجالات العلمية والمعرفية والثقافية، وقد أخذ عنهما العلمَ عددٌ كبيرٌ من المسلمين بشتى اتجاهاتهم وميولهم المذهبية والفكرية، وتربى على يديهما جمهرة كبيرة من الفقهاء الكبار والعلماء العظام والرواة والمفسرين، الذين جابوا شرق الأرض وغربها لنشر العلم والمعرفة والثقافة الإسلامية، وتوجّها كذلك إلى بناء القاعدة الصلبة من الجماعة المؤمنة الصالحة التي تتبنى وتتبع مدرسة أهل البيت عليهم السلام وتسعى جاهدة لتحقيق أهدافهم السامية، فأعادا بذلك للإسلام نضارته ورونقه الجميل، وحافظا على ثروته العلمية والفكرية والثقافية من الضياع، وقد اتخذا من المسجد النبوي الشريف مكاناً لإلقاء دروسهما على تلاميذهما.

وبدون شكّ فإنّ انتهاز الفرص في الدعوة والجهاد والنضال والحركات

---

١. بحار الأنوار، جزء ٧٨، صفحة ٢٦٨

الإصلاحية والثورية، يحتاج إلى بصيرة نافذةٍ في تشخيص الواقع والجرأة والشجاعة والتحلي بروح المبادرة، ومن فقد شيئاً من ذلك فإنه بدون شكّ يُضيّع الفرص، وعليه يجب أن تتحلى القيادات الفاعلة بهذه الصفات الثلاث الرئيسة: البصيرة والشجاعة وروح المبادرة.

وأقف وقفة قصيرة مع البصيرة، قول الله تعالى ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[1] فكل قائدٍ يجب أن يتحلى بالبصيرة والبصيرة، تعني: الرؤية الصحيحة لظواهر الأمور وبواطنها التي لا تحيد عن الحق والهدى، وهي قسمين: بصيرة في الدين يؤدي فقدانها إلى الانحراف والضلال، وبصيرة في الواقع يؤدي فقدانها الى ضياع الفرص والفساد والخراب ووضع الأمور في غير مواضعها ولغير غاياتها والمراد منها، والقائد يجب أن يتحلى بالبصيرتين معاً ولا تغني إحداهما عن الأخرى؛ لأنّ الدين هو الطريق إلى الله سبحانه وتعالى، والدين لا يتحرك في فراغ، وإنما يتحرك في الواقع ويقوده، وإذا فقد القائد المسلم البصيرة بأحدهما، لن يصل إلى تحقيق غاية الدين الحنيف وأهدافه.

وقد أدى انصراف موسى الكليم عليه السلام وأتباعه المخلصين إلى الدعوة للدين الجديد وانتشاره ودخول خلقٍ كثيرٍ فيه مع شعورهم بالأمان النسبيّ، إلى تزايد الخوف والقلق لدى الأشراف والأتباع والأنصار من قوم فرعون، فتوجهوا إلى فرعون الطاغية بكل همّة وعزم محذرين، ليهجونه ويحرضونه - كما هو دأب حاشية السوء - على موسى الكليم عليه السلام وقومه

---

١. يوسف: ١٠٨

والمؤمنين، ويغرّونه للإيقاع بهم واتخاذ موقف متشدد منهم وقتلهم، وذلك خوفاً منهم على مكانتهم ومناصبهم ومصالحهم وامتيازاتهم التي يمنحهم إيّاها النظام. فهؤلاء الأشراف والأتباع والأنصار لم يذعنوا إلى الآيات الساطعة والبيّنات الواضحة التي جاء بها موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين جلَّ جلاله، وهي لا تقبل الشكّ والرد، بل جحدوا بها واستكبروا عليها وكابروا الحق وعاندوه، مما يدلّ على أنّ الإنسان إذا استغرق في عالم الدنيا والمادة ولم يفكر إلا في مصالحه الدنيوية العاجلة الفانية، فإنّ نفسه تتلوث ويفسد طبعه ويسوء منطقه ولا ينفع معه دليل ولا برهان، ويتحول إلى شيطانٍ ضالٍ مضلٍ مفسدٍ في الأرض وحيوانٍ هائج، ولا يتورع عن الكذب وقلب الحقائق ولا عن ارتكاب أيّةِ خطيئةٍ أو جريمة؛ لأنه لا يقيم وزناً أو اعتباراً للإنسانية والمبادىء والقيم، وعنده الغاية تبرر الوسيلةَ دائماً، وقد دأب هؤلاء الأنانيون على التملق إلى الحكام المستبدين الظلمة، والإشارة عليهم بالشر والفساد وما يرضي أهواءهم وشهواتهم ولذاتهم ونزواتهم، ليحجزوا بذلك لأنفسهم مكاناً على موائدهم ونصيباً من قمامتهم وجيفهم، فيجدر بكل عاقل وكل شريف ذي مبدأ وضمير، أن يخاف أمثال هؤلاء المرتزقة الشياطين على دينه ونفسه ومصالحه، وأن لا يلتفت إلى مايتشدقون به من زخارف الأقوال المنمقة والتبريرات الواهية ليخدعوه بها.

لقد أنكر هؤلاء المجرمون المرتزقة واستكثروا، أن يترك فرعون الطاغية موسى الكليم عليه السلام وقومه والمؤمنين به و شأنهم، دون أن يضيّقَ عليهم الخناق و يعاقبهم بأشد العقوبات ويقتلهم، وطرحوا سببين يوجبان

بحسب اعتقادهم وتقديرهم العقوبة القاسية والقتل لموسى الكليم عليه السلام وقومه والمؤمنين به، وهما:

أ. الإفساد في الأرض، قوله: ﴿لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1] أي: أنهم اعتبروا الإيمان بالتوحيد والمعاد والنبوة، والدعوة إلى مكارم الأخلاق والأعمال الصالحة التي هي الخير والصلاح بعينه وحقيقته، اعتبروها باطلاً وفساداً و إفساداً في الأرض؛ لأن فيه مخالفةً لفرعون ودينه ونظام حكمه؛ ولأنه يحرض المؤمنين على عصيانه ومخالفته، فيوقع الاختلاف بين أبناء الشعب حول فرعون ويشتت شملهم ويفرق جمعهم، ويضعف جانب فرعون وسلطته ويبدّل الدين الرسمي والشعبي الذي استقامت عليه أمور أهل المملكة وأحوالهم لقرون عديدة من الزمن، وذلك بغض النظر عن واقع الحق والعدل والصدق والخير والفضيلة والصلاح والإصلاح في فرعون ونظامه ودولته وحكومته وخارجها، وبغض النظر عن الحق والعدل والصدق وقوة الحجّة والمنطق التي يقوم عليها التوحيد والدين الجديد، وما يؤسسان له من الخير والفضيلة والحرية والعزة والكرامة والصلاح والإصلاح والرفاه والازدهار والتنميّة الشاملة المستدامة ونحو ذلك، أي: تجاهلوا في حكمهم وموقفهم حقيقة الوضع الفاسد القائم، وحقيقة الدين والدعوة الجديدة، والإرادة الشعبية وحقوق الإنسان، ولم ينظروا إلا إلى أنفسهم، ولم يفكروا إلا في مصالحهم الأنانية الخاصة، وجعلوا ما هو سبباً وأساساً للإصلاح، سبباً

---

١. الأعراف: ١٢٧

وأساساً للفساد، وهكذا يتجاهل المتعصبون الجاهلون الظالمون الحقائق ويغيرونها تبعاً لأهوائهم ونزواتهم ورغباتهم بغير اكتراث، وهذا الموقف الأناني يعني: أنّ الفساد عند الفراعنة والحكّام المستبدين الظلمة والانتهازيين والنفعيين الفاسدين نسبي، وهو كل ما يهدد ملكهم وسلطتهم ويضر بمصالحهم الأنانية الخاصة، وليس فساداً موضوعياً، يعني: الخروج عن الاعتدال والاستقامة، ويقوم على الحقائق والمنطق السليم والمصالح العامة الجوهرية والحيويّة ونحو ذلك.

ب. إنكار ألوهية فرعون وربوبيته، قولهم: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[1] أي: ينكر ألوهيتك وربوبيتك، ويترك طاعتك وعبادتك يعبد غيرك ويطيعه، وينهى عنك ويصدّ الناسَ عن اتباعك وطاعتك وعبادتك ويغيرهم عليك، ويدعوهم إلى مخالفتك فينقلبوا عليك ويغلبوك على الملك ويفسدوا ملكك ونظام دولتك، غير مكترث بك وبملكك وألوهيتك وقوتك وسطوتك. ويترك عبادة الآلهة التي نصبتها وتدعو إليها، ويصدّ الناس عنك وعنها، مما يهون من مكانتك ويفقدك هيبتك وقدسيتك، ويهدم الأساس الديني والفكري الذي يقوم عليه نظام الدولة والحكم ويضعفهما. فإنّ فرعون الطاغية يزعم أنه إله وإبن إله، ويحكم باسم الآلهة المقدسة، وهو الإبن الحبيب لها ويستمد منها شرعية نظامه ودولته وحكومته وملكه وسلطانه، فلا حاكم للمصريين - أهل مملكته - يملكهم ويدبر أمرهم والمنعم

١. نفس المصدر

عليهم والرازق لهم باسم الآلهة وتجب طاعته وعبادته إلا هو وحده لا شريك له، وليس من اتخذه موسى الكليم عليه السلام رباً، ويدعي أنه رب العالمين، وقد أرسله إلى فرعون وقومه وبني إسرائيل والناس أجمعين في دورته الرساليّة، وأن الآلهة هي التي تتولى تسديده وإرشاده، وقيل: إنّ فرعون جعل لقومه آلهة، مثل: الشمس والكواكب والأصنام وغيرها، وأمرهم أن يعبدوها تقرّباً إليه، فهو إله الآلهة والرب الأعلى لجميع أهل مملكته، وأنّ فعله عين الحق والحكمة والصواب، وتمثّل إرادته القانون، ولأقواله ما للعقيدة الدينية من القدسية والقوة، وكل ما يتفوه به يجب التسليم بصحته والخضوع له، ويجب أن يطبّق ويعمل به في الحال وبدون شك أو تردد أو تراخي، حتى لو كان قاسياً ومدعاةً للضرر ظاهراً؛ لأنه يخرج من فم إله ولا يخرج اعتباطاً، وإنما هو عين الحق والحكمة والصواب، والعمل به ينتهي إلى الخير والصلاح والسعادة، وعلى هذا الأساس يقوم نظام الدولة والحكم وتجري الأمور في تدبير شؤون الأفراد والجماعات والأمة.

والجدير بالذكر: أنّ فرعون الطاغية لا يعتقد أنه الخالق للسماوات والأرض وما فيهما ولا يدعو إلى شيء من ذلك؛ لأنه معلوم البطلان بالبداهة والحس، إنما يعتقد بأنه المالك لأرض مصر ومن عليها وهو المدبّر لأمورهم ومصدر الخير والسعد لأهلها وتجب طاعته وعبادته والخضوع لإرادته واتباع ما يأمر به وينهى عنه على هذا الأساس وهذا ما يدعو إليه، وهناك احتمالان حول الاعتقاد بالخالق للكون «واجب

الوجود» عند فرعون، وهما:

أ. أن يكون فرعون من الدهريين الذين ينكرون وجود الصانع للكون كما ذهب لذلك بعض المفسرين وعلى رأسهم الرازي في التفسير الكبير.

ب. أنه يعتقد بوجود الصانع المدبر للكون وهو واجب الوجود و إله الآلهة ورب الأرباب، ولكنه يعتقد كما يعتقد العلمانيون اليوم، بأنّ لا دخل له في التشريع والحكومة، على خلاف الرؤية الإسلامية القرآنية التي تحصر التشريع والحكومة في يد الله سبحانه وتعالى، ويعتقد فرعون بأن التشريع والحكومة من اختصاصه هو، ويؤيد ذلك تعيين الآلهة كما يفعل الوثنيون والاعتقاد بالآخرة.

وعليه؛ فإنّ اعتقاد موسى الكليم عليه السلام بالتوحيد ودعوته له، وانكاره لصفتي الألوهية والربوبية في فرعون، يعني هدم الأساس الفكري والديني الذي يقوم عليه نظام الدولة والحكم الفرعوني، وينتهي بانهيار الدولة وضياع ما يتمتع به فرعون من مكانة دينية وقدسية وامتيازات، وتعرض مصالح الأشراف والمعاونين والأنصار والانتهازين المتملقين إلى الخطر والضياع، وهذا مما لا ينبغي عندهم أن يسمح بحدوثه أبداً، فيجب تتبع موسى الكليم عليه السلام وقومه والمؤمنين به و إنزال أشدّ العقوبات بهم وقتلهم؛ منعاً لانهيار النظام والدولة والحكومة وضياع مصالح القائمين عليها.

وهكذا تكون حاشية الفراعنة والحكام المستبدين وبطانتهم الفاسدة

دائماً، إنهم يسعون دائماً ليكونوا على مستوى أهواء فرعون والحاكم المستبد ونزواته ورغباته، ويعملون مايريده منهم، فلا استقلالية لهم في رأي ولا موقف، وهم تابعون لوليّ نعمتهم، وعبيدُ لبطونهم وفروجهم وفيها تُحبسُ عقولهم، وهم كذلك سواءً كانوا مستشارين أو وزراء أو موظفين كبار أو قضاة أو أعضاء برلمان أو علماء دين أو رجال أعمال أو كتّاب أو صحفيين أو نحو ذلك، ويفعلون ذلك طمعاً في فتات مائدته أو شيئاً من زبالته أو خوفاً منهم على مكانتهم ومرتباتهم وعطيّاتهم الكبيرة والامتيازات التي يحصلون عليها من النظام ثمناً لولائهم ولخدماتهم للنظام والملك، أو خوفاً من سخطه عليهم وغضبه وانتقامه منهم، فهم في الحقيقة ضحايا سياسة الترغيب والترهيب، وسبايا باعوا أنفسهم في سوق النخاسة السياسيّة بثمنٍ بخس، والقاعدة عندهم: كل ما يضر بالنظام الذي يستفيدون منه وبالملك الذي هو ولي نعمتهم فهو يضرّ بهم، وهو باطل وفساد في الأرض ويجب أن يعاقب كل من يقوم به، بغض النظر عمن يكون هو، وما هي حجته وما هو منطقه والحقائق التي يعتمد عليها والبراهين التي يسوقها والأهداف التي يطمح إليها ويعمل من أجلها والأساليب التي يتبعها، وتجب محاربته وتشويه صورته وسمعته وقلب الطاولة عليه وعمل كل ما من شأنه أن يعيق تحركه ويمنعه من الوصول الى أهدافه وتحقيقها؛ لأن هذه البطانة الفاسدة لا تؤمن بدين أو مبادىء أو قيم ولا قيمة عندهم للحقائق والمنطق، ومنطقهم الوحيد هو اللامنطق، ويقطعون الصلة بشكل تام بين الحقائق وبين المصالح، ويربطون فقط بين المصالح وبين الرغبات الفردية والجماعية لأنفسهم

وجماعتهم أو حزبهم ونحو ذلك، والقيمة الوحيدة عندهم هي للمصالح فقط، ونحو ذلك من الأفكار والتصوّرات المادية المنحطة. ولأن فرعون الطاغية يرغب في قتل موسى الكليم عليه السلام وقومه والمؤمنين به، وفي ذلك مصلحته ومصلحتهم وفق تقديراتهم وتصوّراتهم، فقد أشاروا عليه بذلك إرضاءً له ولأنفسهم، وليس طلباً للخير والمصلحة، فهم لا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يلتزمون به.

استجابة فرعون لتحريض ملئه ضد موسى عليه السلام وقومه

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾

استجاب فرعون الطاغية إلى تحريض حاشيته من الأشراف والأعيان والوزراء وكبار الموظفين في القصر الملكي الفرعوني على موسى الكليم عليه السلام وقومه الداعمين له والمؤمنين به وتحذيراتهم له، وصمم على اتخاذ موقف متشدد من بني إسرائيل، فقال لحاشيته: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾[1] أي: سنعيد سيرتنا الأولى وما كنا نفعله في بني إسرائيل، من قتل الأبناء الذكور الذين فيهم النجدة والقوة ويشدون أزرهم في الحروب، والاستبقاء على البنات لاسترقاقهنّ واستخدامهنّ وللمعاشرة الجنسية إذلالاً لهم، حتى نبقي عليهم بهذه السياسة والاجراءات العقابيّة بحالةٍ لايتكاثرون فيها فنأمن كثرتهم السكانية، ونقضي على قوتهم وخطرهم وقدرتهم على الخروج علينا وإلحاق الأذى أو الضرر بالنظام أو الدولة أو الحكومة أو

١. نفس المصدر

سلطتنا الخاصة، كما نبقي عليهم خاضعين لإرادتنا وقائمين على خدمتنا وخدمة مصالحنا ودولتنا ومسخّرين لهم للقيام على ما نشاء من الأعمال والخدمات التي نرغب في أن يقوموا بها ونستخدمهم فيها، ليعلموا أنّا على ما كنا عليه من القوة والقدرة والقهر والغلبة، وأنهم لا زالوا مقهورين مغلوبين خاضعين لنا كما كانوا من قبل، وأنّ ظهور موسى الكليم عليه السلام بينهم وما جاء به من الأمور الخارقة للعادة، وإيمانهم به والتفافهم حوله ونصرتهم له علينا، لا أثر له ولا يغير شيئاً في ميزان القوى، ولئلا يتوهموا أو يتوهم أحد غيرهم، أنّ موسى عليه السلام هو المولود من بني إسرائيل الذي تنبأ به المنجمون والكهنة وأخبروا بذهاب ملكنا ودولتنا ونظامنا على يديه فيشجعهم ذلك ويشجع غيرهم على الإيمان به والإلتفاف حوله واتباعه وطاعته من جهة، والتفرق عنا ومعصيتنا والتمرد علينا من جهة ثانية، وقد أراد فرعون من ذلك، أن يُطيّب خواطر ملئه وإسكانَ ما في نفوسهم من الاضطراب والطيش والقلق، ويؤكد لهم بأنه لا يزال قوياً وبيده أزمّة الأمور ومسيطراً على الأوضاع سيطرةً كاملةً. وهذا يكشف عن إدراك فرعون لخطر الأكثرية أو الكثرة السكانيّة على نظامه ودولته وتهديد ملكه، وسعيه الحثيث بكل وسيلة مهما كانت قذرة وظالمة وغير إنسانية إلى قلب المعادلة الديموغرافية «السكانية» أو تعديلها لتكون في مصلحة نظامه وملكه، بأن يحوّل الأكثرية الدينية أو العرقية المعارضة إلى أقليّة، ويحقق من وراء ذلك هدفين رئيسين:

أ. القضاء على قوتهم وخطرهم.

ب. استخدام البقيّة الباقية منهم كدليل على التنوع وتسخيرهم فيما يشاؤون من أعمال وخدمات.

وقد لجأ إلى مثل هذه السياسة الشيطانيّة الخبيثة، التي تعرف اليوم بسياسة التطهير العرقي أو الديني أو الطائفي، الكثير من شياطين السياسة في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا من الفراعنة والملوك والحكام المستبدين الذين تبرر عندهم الغايةُ الوسيلةَ ولا يؤمنون بدين ولا مبادىء سامية ولا قيم إنسانية أو سماوية رفيعة. ومثلُ هذه السياسات الشيطانية الخبيثة يجب أن تقاوم ببصيرة نافذة ورؤية واضحة وبرامج فاعلة يتضامن عليها المجتمع الدولي والمدافعون عن حقوق الإنسان والفئات المستهدفة وتنفذ بحزم وعزم بدون تراخٍ أو تردد أو ضعف؛ لأن القضية تصبح قضية وجود ومصير وكرامة للجيل المستهدف مباشرة وللأجيال اللاحقة، ولا يجوز بحكم العقل والشرع والحقوق والأخلاق التجاهل أو التراخي بشأنها وتتحمل القيادات أكثر من غيرها المسؤولية كاملة عما سيحدث.

لقد اتهم فرعون وحاشيته من الأشراف والأعيان والوزراء وكبار الموظفين والقيادات المدنية والعسكرية موسى الكليم عليه السلام وقومه الإسرائيليين والمؤمنين به بالخروج على النظام ومخالفة الدستور والقانون وشق الصف الوطني والقومي والإفساد في الأرض والإضرار بمصالح الشعب ومقدراته وتعطيل عجلة التنمية والتقدّم والتطور في البلاد والسعي لإسقاط النظام الشرعي القائم والدولة والحكومة الرشيدة، وعليه قرروا معاقبة بني إسرائيل الذين هم قوم موسى الكليم عليه السلام عقوبة جماعية على خلاف العقل

الذي يقضي بأن تكون العقوبة فردية، إلا أن الفراعنة لا يؤمنون بعقل أو منطق ويتصرفون وفق أهوائهم وما تتطلبه مصالحهم سواءً وافقت العقل والمنطق والمبادىء والقيم أم خالفتها، فقرر فرعون بناءً على تحذير حاشيته وتحريضهم أن يعود إلى ما كان عليه مع بني إسرائيل قبل ولادة موسى الكليم عليه السلام وظهور دعوته، حيث كان فرعون يخشى أن يولد في بني إسرائيل من يقضي على ملكه ومملكته، بحسب ما أخبره وتنبأ به بعض المنجمين والكهنة، وقيل: بحسب ما أخبر به بعض الأنبياء الكرام السابقين عليهم السلام فكان يقتل الأبناء الذكور لبني إسرائيل، ويبقي على البنات، وهذه خطة شيطانية محكمة وجريمة مكتملة الأركان بهدف تحطيم قوة بني إسرائيل الضاربة تحطيماً كاملاً، والتمكن من إخضاعهم وإذلالهم، والقضاء التدريجي عليهم. فقتل الأبناء الذكور الذين فيهم النجدة والقوة وبهم يشدّ الأزر في الحروب والمواجهات الأمنية والسياسيّة وتعتمد عليهم في المقاومة لمخططات النظام الإرهابية والعنيفة، يعني القضاء على القيادات ورجال المستقبل، وتحطيم القوة الضاربة المؤثرة في المواجهة تحطيماً كاملاً، أي: القضاء على كل فرصة للتمرد والخروج على النظام ومقاومته. والإبقاء على البنات اللواتي يمثلنّ بوحدهنّ القوة غير الفاعلة في القتال والمواجهات الأمنية والسياسية والثقافية أحياءً لاسترقاقهنّ واستخدامهنّ للمتعة والمعاشرة الجنسيّة فيه، إذلالٌ بالغٌ وإهانة كاملة لبني إسرائيل، من شأنها أن تحطم روحهم المعنوية بشكل كامل، وتقتل في رجالهم المتبقين روح الرجولة والشهامة والغيرة والحميّة، ويعتبر هذا الاجراء الإجرامي البشع سبيلاً إلى تقليص نفوس بني إسرائيل بسبب

التفريق بين رجالهم ونسائهم، وهدف فرعون من وراء هذه الاجراءات الإجرامية التعسفيّة والقاسية جداً وغير الإنسانية، أن يثبت بأنه لا زال قادراً على بني إسرائيل ومتمكناً منهم غايةَ القدرة والتمكن بعد ظهور موسى الكليم عليه السلام ودعوته، كما كان قادراً عليهم ومتمكناً منهم قبل ذلك، وأنّ ما يدّعيه موسى الكليم عليه السلام من النبوة والرسالة عن رب العالمين، وما جاء به من أعمال وأظهره من قدراتٍ خارقةٍ للعادة، و إيمانهم به والتفافهم حوله ومناصرتهم له، لا يغير شيئاً في ميزان القوى المحلي، ولا أثر له في تغيير السياسة الداخليّة القمعية والأساليب الإرهابيّة العنيفة المتبعة في إخضاعهم، وليس له تأثير على وضع النظام الملكي الفرعوني، ولا يمكن أن يغيّر فيه شيئاً يذكر لصالح بني إسرائيل، الطائفة المستضعفة والمضطهدة والمظلومة من النظام، والمغلوب على أمرها والمسيطر عليها بالقهر والغلبة وفرض حكم الأمر الواقع، والمستخدمة فيما يفرض عليها من أعمال شاقة وخدمات سافلة، فهم في جميع الأحوال مقهورين مغلوبين ومرغمين على الخضوع أمام قوة النظام وجبروته، وتابعين مرغمين كارهين لإرادة الملك وسلطانه. وهذا ما يكشف بكل وضوحٍ وصراحة عن القسوة البالغة والتجبّر والعتو لدى فرعون الطاغية وحاشيته الفاسقين الفاسدين الأنانيين، وعدم تورعهم جميعاً عن ارتكاب الجنايات والجرائم الشنيعة لضمان مصالحهم الخاصة والتنكيل بكل من يعارضهم ويشكّل تهديداً على نظامهم، بغضّ النظر عمّن يكون وما هي أهدافه وعدالة قضيته وواقعية مطالبه وشرعيتها وقوة حجته ومنطقه وسلمية أساليبه ووسائله، ما دام يريد أن يغيّر في النظام ويحدّ من سلطاتهم المطلقة، ويُنقص من امتيازاتهم المحرمة

وغير الواقعية وغير المشروعة ويضر بمصالحهم الأنانية الخاصة، ويدعو إلى العدالة في الحكم وتوزيع الثروة والشراكة في صناعة القرار والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات وتجريم التمييز وتفعيل المراقبة والمحاسبة المؤسسية والشعبية؛ لأن هؤلاء المجرمين لا يؤمنون بحقيقة ولا بمبادئ ولا قيم ولا دين ولا مذهب ولا مصالح وطنية أو قومية ولا بشيءٍ من هذا القبيل، ولا ينفع معهم منطق أو حجة أو برهان، والغاية عندهم تبرر الوسيلة مهما كانت خبيثة أو قذرة، ولا حرمة ولا قدسية لشيءٍ، ولا كرامة لمعارضٍ حتى و إن كان من مثل موسى الكليم والحسين الشهيد عليهما السلام أو الشهيد الصدر أو الشهيد السيد قطب أو غيرهما، وغايتهم دائماً تشويه صورة المعارضين وسمعتهم من أجل إيجاد الحواجز الفكرية والنفسية بين الجماهير، لئلا يتفاعلوا معهم ويتأثروا بهم ويأخذوا عنهم، وأن يقلبوا الطاولة عليهم بأيّة وسيلةٍ وحجة منطقيةٍ أو غير منطقيةٍ معقولةٍ أو غير معقولةٍ فمنطقهم الوحيد هو اللامنطق في إدارة اللعبة السياسية للحيلولة دون وصول المعارضين إلى تحقيق أهدافهم في ظل انعدام الأساليب السلمية لتبادل السطلة، إذ يعتقدون بأن الحق في السلطة حصرٌ عليهم، وليس لأحدٍ غيرهم فيه حقٌ، ووسيلتهم للوصول إلى الحكم والبقاء فيه هو العنف والقوة والإرهاب وشراء ضمائر أصحاب النفوس الضعيفة من النخبة وغيرهم.

وقد طمأن فرعون الطاغية حاشيته المحذرين له والمحرضين، بقوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[1] أي: أن له القوة المالية و الماديّة والبشرية والقدرة والإرادة الكافية ما يمكّنه من تحقيق ما يريده ويعزم عليه في بني إسرائيل،

---

١. نفس المصدر

والقهر لهم والغلبة عليهم وفرض السيطرة الكاملة على الأوضاع، وإخضاع موسى الكليم عليه السلام وقومه والمؤمنين به وإرغامهم على الخضوع للنظام الفرعوني ولإرادة الملك وسلطته، بحيث لا يمكنهم الخروج أو تشكيل خطر جدي أو تهديد حقيقي عليهما؛ لأنهم سيكونون محاصرين بشكل كاملٍ، وسيفقدون القدرات المالية والمادية والبشرية اللازمة لذلك، وعليه فإنّ حياة الحاشية ومكانتهم ومناصبهم ومرتباتهم وأُعطياتهم وامتيازاتهم ستكون في أمان ومحفوظة لهم ومصانة، فلا يخافوا ولا يقلقوا عليها ولتقرّ أعينهم وتسكن نفوسهم المضطربة عن الخوف والفزع والقلق وليضعوا كامل ثقتهم في فرعون ويطمئنوا إلى قدراته ومواهبه وسياسته ودهائه، وإلى ما بيده من جيش وشرطة وما يملكه من إمكانياتٍ مالية ومادية وبشرية ضخمة وعتاد، ولا يخشوا ولا يخافوا ولا يرتاعوا ولا يقلقوا مما رأوه من موسى الكليم عليه السلام من المواهب والقدرات والأفعال الخارقة للعادة ولا من إيمان الكثير من الناس به والتفافهم حوله ومناصرته والانخراط في حركته الإصلاحية والثوريّة واتخاذه رمزاً لهم باعتباره المنقذ التاريخي لهم، فالنظام يمتلك من القوة والامكانيات والقدرات ما يكفي لقهر موسى الكليم عليه السلام مع قومه والمؤمنين به على الخضوع للنظام ولإرادة الملك وإذلالهم والقضاء الكامل على ما يمثلونه من خطر وتهديد، وقد أراد فرعون من وراء ذلك تطييب أنفسهم وليسكّن روعهم واضطرابهم ويزيل ما دخل قلوبهم من الخوف والقلق والطيش، وليضمن ولاءهم ووقوفهم معه وإلى صفه في هذه المحنة العظيمة والمنعطف التاريخيّ الخطير، وهو مجرد كلام مبنيٍ على الجهل والغرور ولا واقعية له عند كل عاقل

يحسب الأمور بواقعيّة ومنطق، إلا أن هؤلاء المنافقون الانتهازيون لا يفقهون ولا يعقلون الحقائق؛ لأنهم مستغرقون في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية، ورغبتهم الأولى هي التضامن مع سيدهم إلى آخر نفس؛ لأنهم لا يريدون أن يسلّموا إلى الحقائق والحجج والمنطق ولا يريدون أن يتنازلوا عن مصالحهم الدنيوية العاجلة الفانية وما يحصلون عليه من النظام من امتيازات مهما كلفهم ذلك من ثمن، وحسابهم بأن الذين سيدفعون الثمن هم الأتباع والجنود والشرطة وليس هم، ومجازفتهم بأن يدفع هؤلاء الجهلة والحمقى الثمن ويسلموا هم وتسلم لهم مصالحهم وغنائمهم، وهذا ما دأب عليه هؤلاء الانتهازيون الأنانيون في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا.

وهنا ينبغى تسجيل بعض الملاحظات المهمة، منها:

أ. أنّ فرعون الطاغية كان غارقاً في ذاته وأنانيته ومغروراً بشكل كامل بقوته وبما يملك من الامكانيات الضخمة المالية والمادية والبشرية، بحيث ينفصل عن الواقع وعن الحقيقة فلا يراهما ولا يعقل حجة أو دليل أو برهان ولا يستفيد من موعظة صادقة ونصيحة مخلصة، فتجاهل تماماً المعجزات النيّرات الباهرات والبيّنات الواضحات والأدلة الواضحة والبراهين الساطعة القاطعة التي جاء بها موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين، وتجاهل القدرة الإلهية المطلقة التي تقف وراء موسى الكليم عليه السلام وتسانده وتدعمه وتنصره، وتجاهل المبادئ السامية والقيم الإنسانية الرفيعة وعدالة

قضية بني إسرائيل وشرعية مطالبهم الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية وحركتهم الثورية التحررية، وما يتمتعون به من قوة الحجة والمنطق، وما لديهم من إرادة فولاذية لا تكسر ولا تلين، وقوة معنوية لا تغلب ولا تقهر، وكان جاهلاً بشكل كاملٍ ومطبقٍ بالسنن الإلهية الحاكمة على الكون والتاريخ، وهنا تنبغي الإشارة إلى الفرق بين الدهاء في الإدارة السياسية على المدى القريب، والعمل وفق السنن التاريخية للمحافظة على النظام والدولة وتحقيق التنمية المستدامة الشاملة على المدى البعيد، فقد ينجح الحاكم الداهية في إدارة البلاد أو الأزمة على المدى القريب، ولكنه يتصرف بما يقضي على النظام والدولة على المدى البعيد، ومن ذلك اللجوء إلى الظلم والعنف والإرهاب في قمع الشعب والدخول في طريق المفاصلة واللاعودة بينه وبين الشعب الذي ينتهي حتماً بالقضاء عليه، فالحاكم يزول والشعب يبقى، وقد ثبت بالتجربة التاريخية والمعاصرة، بأنّ الظلم والتجبّر والطغيان سببٌ كافي لهلاك الحاكم الظالم المتجبر والقضاء التام عليه و إزالة ملكه، وبقاء المظلوم المستضعف ذي المبدأ الصحيح والقضية العادلة وتأييده ونصرته متى صبر واحتسب وجاهد وكافح بجد و إخلاص، وفي الحديث عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام قوله: «**إياك والظلم فإنه يزول عمن تظلمه ويبقى عليك**»[1] وقوله عليه السلام: «**من جار أهلكه**

١. غرر الحكم ٢٦٤٣

جوره»[١] وقال عليه السلام: «**ليس شيءُ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامةٍ على ظلم**»[٢] وعليه: فعاقبة الظلم على خلاف ظاهره، فظاهره القوة والتمكن وعاقبته البوار والهلاك، وهو يقضي على الظالم القوي المتجبر، ويبقي على المظلوم المستضعف الصابر المحتسب المكافح، وهذا ما عبرت عنه السيدة الجليلة عقيلة بني هاشم زينب بنت أمير المؤمنين بوضوح وبلاغة منقطعة النظير في رؤيتها العرفانية الصافية النقية وبصيرتها النافذة التي أظهرتها وكشفت عنها في خطبتها الجريئة البليغة التي خاطبت بها الطاغية يزيد بن معاوية في مجلسه في الشام وكأنها تخطب عن لسان أبيها، وذلك حين أدخلت على يزيد بن معاوية في مجلسه بالشام وهي مكظومة حزينة بعد مقتل أخيها سيد الشهداء وسيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين عليه السلام فقالت: «**أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى، أن بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة؟! وإن ذلك لعظم خطرك عنده؟! فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، مهلاً .. مهلاً، أنسيت قول الله تعالى:** ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا

---

١. غرر الحكم ٧٨٣٦-٨٧٢٣

٢. نهج البلاغة، كتاب ٥٣، من عهد له عليه السلام كتبه للأشتر النخعي

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[١] **إلى أن قالت: فكد كيدك واسعَ سيعك وناصب جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا ولا تدرك أمدنا ولا ترخص عنك عارها، وهل رأيك إلا فند وأيامك إلا عدد وجمعك إلا بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين»**[٢].

ب. أنّ فرعون الطاغية قد استعمل ضمير الجمع في قوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَاءَهُمۡ﴾[٣] وفي قوله: ﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَاهِرُونَ﴾[٤] مما يدل على غرقه بشكل كامل في وحل الأنانية والتكبّر وتضخّم وحب الذات، فهو يختصر الشعب أو الأمة في نفسه، كما هو دأب الفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، فهم يختصرون الأمة في أنفسهم وينسبونها إليهم وينسبون إنجازاتها ونجاحاتها إلى أنفسهم بغير وجه حق وبشكل أناني شنيع، وهم محور وجودها وتاريخها وعملها وحركتها وتنميتها وروحها وعلة حياتها، فلا كلمة لها غير كلمتهم، ولا إرادة لها غير إرادتهم، ولا رغبة لها غير رغبتهم، بل لا عقل لها غير عقلهم ولا تفكير لها غير تفكيرهم ولا همّ لها غير همهم، فهم من جهة يفرضون سلطتهم عليها بحكم الأمر الواقع ويخضعونها لإرادتهم بالعنف والقوة والإرهاب، ومن جهة ثانية هم خيارها الأوحد والأفضل على

---

١. آل عمران: ١٧٨

٢. إكسير العبادات في أسرار الشهادات، الأرندي، جزء ٣، صفحة ٥٣٠-٥٣٢

٣. الأعراف: ١٢٧

٤. نفس المصدر

الإطلاق وكأنّ الإرادة الإلهية انتخبتهم لها ومنّت عليها بهم، وهم فلتات التاريخ وفرصة الدهر للأمة، وعليه: يفرضون عليها التبعية والاستعباد والخضوع لإرادتهم المطلقة ويستخدمونها لأهوائهم ورغباتهم وشهواتهم الحيوانية وملذاتهم الحسيّة ويسخّرونهم لخدمة مصالحهم بدل أن يعبّروا هم عن إرادتها ويعملوا من أجل مصلحتها ومع ذلك عليها أن تمجدهم وتقدسهم وتسبّح بحمدهم، ولا عجب ولا غرابة فهم عنده خلقوا من أجله !!

ج. أنّ فرعون الطاغيّة لم يقرر قتل موسى الكليم عليه السلام في أول الأمر، رغم أنه أراد ذلك ورغب فيه، إلا أنه أعرض عنه تحت تأثير نصيحة مؤمن آل فرعون «حزقيل» وتحذيره، حيث غرس في نفوس فرعون وحاشيته احتمال أن يكون موسى الكليم عليه السلام مرسلاً حقيقةً وواقعاً من الله رب العالمين، وأخافهم من أن يكون قتله سبباً لإنزال العقوبات الإلهيّة عليهم كما حدث للأمم السابقة، مثل: عاد وثمود، وهذا يكشف عن أمورٍ عديدةٍ، منها: مدى القلق والاضطراب المتمكن في نفس فرعون، وعلمه ويقينه بأنه ليس بإله ولا ربّ وإنما مدعٍ كذاب، والتأثير البالغ الذي تركته معجزات موسى الكليم عليه السلام وبيّناته في نفسه، واحتمال صدقه إن لم يكن يقينه بصدقه، إلا أنّ شدّة تعلقه بالملك والامتيازات والصلاحيات الملكية والمكانة الدينية المتميزة عند قومه ومصالحه أغرته بالعناد والمكابرة، رغم أنّ مجرد احتمال الصدق مما تجب العناية به لخطورة النتائج الوجوديّة المصيريّة المترتبة عليه، وعليه: فإنّ

عناد فرعون ومكابرته وسعيه لقلب الحقائق والتهرب منها في هذا الموضوع المهم الخطير جداً، مخالفُ للعقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم والأخلاق الحميدة.

وربما يكون فرعون قد أعرض عن قتل موسى الكليم عليه السلام في بادئ الأمر، خوفاً من أن يؤدي قتله إلى انقلاب الرأي العام ضده والثورة عليه وإسقاط نظامه وملكه، وذلك بسبب التأثير العميق في أبناء الشعب الذي تركه انتصار موسى الكليم عليه السلام وتغلبه على السحرة والظهور عليهم، ثمّ سجود السحرة لرب العالمين وإعلانهم الإيمان بالتوحيد الحقيقي لرب العالمين وبالمعاد والنبوة، وتصديقهم بنبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام وبرسالتهما إلى الناس من رب العالمين وبعدالة قضيتهما وشرعية مطالبهما الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية وكفرهم بألوهية فرعون وربوبيته وبحقه في الملك ومعارضتهم لنظامه ودولته وحكومته، ورغبة الكثير من الناس في دينه، وخوفه أيضاً من أن يؤدي قتله إلى زيادة الغضب لدى قومه بني إسرائيل، مما يدفعهم إلى الثورة العنيفة ضده وضد نظامه ودولته وخروج الأمور عن السيطرة وتطورها إلى ما لا تحمد عقباه، وتكثر الخسائر المادية والبشرية بين الطرفين، وهذا ما كان فرعون حريصاً على تجنبه والابتعاد عنه، أي: لم يكن راغباً في أن تصل الأمور إلى هذا الحد في بادئ الأمر، وهو حذرُ صحيح وفي مكانه وحكيم يحسب له، إلا أنه غيّر رأيه بعد حدوث بعض التطورات، منها: كثرة أتباع موسى الكليم عليه السلام والمؤمنين به، واتخاذهم له

رمزاً منقذاً والالتفاف حوله، وتحديهم للنظام الفرعوني والدولة الفرعونية والحكومة الفرعونية ولشخص فرعون وهيبته وقدسيته والخروج عن طاعته وسلطته، مما أدخل الخوف والقلق في قلوب حاشية فرعون، فذهبوا إلى فرعون وحذروه من خطورة الأوضاع وحرّضوه على اتخاذ موقف متشدد من موسى الكليم عليه السلام وقومه و المؤمنين به، فوافقهم الرأي وقرر التصعيد الأمني الحاسم ضدهم.

والفرق بين الموقفين ترك موسى الكليم عليه السلام وقومه المؤمنين به وعدم التعرض لهم في بادئ الأمر، ثم الاصرار على التصعيد الأمنيّ الحاسم ضدهم ومعاقبتهم والانتقام منهم في آخر الأمر، يدل على أن الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدّة لا تستند في مواقفها على المنطق والمبادئ والقيم والحقوق، فهي لا تؤمن بشيء من ذلك ولا تعترف به، ولكنّها تستند إلى ما فيه مصلحتها بحسب الظروف والمعطيات، وتغير مواقفها بحسب تغيرها وتدور مدار مصالحها فقط. فإذا كانت الظروف والمعطيات تؤشر بحسب تقديرهم على أن مصلحتهم في العنف والإرهاب بكافة أشكاله، لجؤوا إليه وغيّروا الدستور والقوانين لهذا الغرض، وعملت مؤسسات الدولة الصورية البرلمان والقضاء ولجان حقوق الإنسان وغيرها على تنفيذ هذه السياسة الحكيمة الصارمة باسم القانون والشعب والوطن. و إذا كانت الظروف والمعطيات المحلية والإقليمية والدولية تؤشر بحسب تقديرهم على أن مصلحتهم في التسامح والتغاضي لجؤوا إليه وطلبوه مؤقتاً باسم الدين والمبادئ والقيم وحقوق الإنسان والوطن ونحوها حتى تستقيم لهم الأوضاع فيعودوا إلى سيرتهم وطبيعتهم الأولى القائمة على القمع والقسوة

والعنف والإرهاب. والموقف الأخير لا يدل على أن النظام الفرعوني كان في مركز القوة والتمكن، أو كما قال فرعون ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[١] ففرعون نفسه كان غارقاً في القلق والاضطراب، وهذا القول يكشف عن تماسكه الظاهري الذي هو خلاف ما يعانيه في الباطن بوصفه رأس النظام والدولة والحكومة، فأراد أن يطمئن حاشيته لكي يصمدوا ويثبتوا ولا يتفرقوا عنه فإنّ ما جاء به موسى الكليم من المعجزات الباهرات، و إعلان السحرة لإيمانهم أمام الجماهير في ميدان المبارزة وبحضور فرعون وملئه وأعوانه وأنصاره وكامل جهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري والفني، قد وضع فرعون وحاشيته بين خيارين لا ثالث لهما، إما التسليم لموسى الكليم عليه السلام و إما المواجهة الحاسمة معه، وقد رفضوا التسليم وقرروا المواجهة مكابرةً منهم وعناداً، لأنهم لا يريدون التنازل عن مكاسبهم ومصالحهم وامتيازاتهم، ولكنهم كانوا يعانون من الخوف والقلق والرعب الشديد من هذه المواجهة، وهذا الأسلوب مما دأبت عليه الكثير من الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدة في مواجهة الشعوب والمعارضة، وما ينبغي إدراكه ومعرفته والاطمئنان إليه أن لجوئهم إلى العنف والإرهاب والقوة لا يدل على قوتهم وتمكنهم، و إنما يدل على شدة خوفهم وقلقهم وشعورهم العميق بالضعف والخطر، وينبغي أيضاً أن تدرك المعارضة وهذه الحكومات أن لجوئها إلى العنف والإرهاب يدخلها في طريق اللاعودة مع الشعب الذي ينتهي حتماً بالقضاء عليها وزوالها من الوجود.

---

١. نفس المصدر-

توصيات موسى عليه السلام لقومه لمواجهة التهديدات الجديدة

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

أمام الشدائد والصعاب والتهديدات والتحديات الجديدة القديمة التي قصد بها فرعون الطاغية بني إسرائيل، توجه موسى الكليم عليه السلام بوصفه القائد الإلهي الأعلى والمرشد والموجّه لبني إسرائيل والمسؤول الأول عنهم يوصيهم ويسكّنُ من ضجرهم وجزعهم ويسلي قلوبهم ويعزيهم بالرجاء ويرسم لهم استراتيجية المواجهة لما سمعوه من فرعون من تهديد ووعيد وما يمكن أن تواجههم من صعوبات وتحديّاتٍ صعبة وقاسية، فقال: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾[1] وفيه تتضمن الاستراتيجية نقطتين رئيسيتين، وهما:

أ. الاستعانة بالله عز وجل والتوكل عليه والثقة به في جلب ماينفعهم ودفع ما يضرهم، ومنه بلاء فرعون ووعيده فيهم، وأن يتم لهم ما يأملون من النجاة من ظلم فرعون وقومه وأذاهم وطغيانهم والنصر عليهم، وذلك لأن الله عز وجل هو المدبّر للمسيرة التاريخية للإنسان على وجه الأرض، وهي خاضعة لإرادته ومشيئته وقدرته المطلقة، كما هو المدبّر لعالم الطبيعة، وهي خاضعة لإرادته ومشيئته وقدرته كذلك، فإرادته ومشيئته وقدرته ماضيةٌ فيهما بشكلٍ مطلقٍ ولا يحيد منهما شيء عنها مطلقاً، وأنّ النصر والغلبة بيده

---

١. الأعراف: ١٢٨

لا بيد غيره. أي: أنّ بني إسرائيل قد لا يكونون بأنفسهم وبالاعتماد على قوتهم وقدراتهم الذاتية وإمكانياتهم الخاصة قادرين على إنقاذ أنفسهم من قبضة فرعون وقومه وتخليص أنفسهم من أذاهم والانتصار عليهم، ولكنهم إذا أخلصوا لله سبحانه وتعالى وتوكلوا عليه ووثقوا به وعملوا بتكليفهم الشرعي وقاموا بما يجب عليهم القيام به من الرفض والمقاومة والصبر والتخطيط والعمل المبرمج والممنهج وتقديم ما يلزم من تضحيات، فإنّ الله ﷻ قادر على نجدتهم ونصرهم وإنقاذهم من أذى فرعون وقومه وتخليصهم من شرهم وقبضتهم والانتصار عليهم، قول الله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1]، وقول الله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾[2] أي: أنّ النصر الحقيقي بيد الله ﷻ وبإرادته ومشيئته وحده لا شريك له، وهو يمنحه لمن يشاء من عباده، وليست العبرة فيه بالكثرة والعتاد، وإنما بالصدق والإخلاص والثبات على الحق والحقوق والاستقامة في الحق وعمل التكليف والقيام بما يجب القيام به من الأعمال، وأنّ الكثرة والعتاد لا تنفع مع خذلان الله ﷻ، كما لا تضر القلّة مع نصرة الله ﷻ ونجدته ومعونته، وعليه: فالاستغاثة بالله ﷻ لا تنفصل عن العمل من جانب العبد.

وفي توصية موسى الكليم عليه السلام لقومه بالاستغاثة بالله ﷻ سبيل للربط على قلوبهم ورفع معنوياتهم وتحذيرهم من الاغترار بأنفسهم

١. البقرة: ٢٤٩
٢. آل عمران: ١٦٠

والانفصال عن الله سبحانه وتعالى ومن التعدي للحدود الشرعية والقيم الأخلاقية والمبادئ السياسيّة والوقوع في الظلم والطغيان والفساد والتقصير؛ لأن الاغترار بالنفس والانفصال عن الله سبحانه وتعالى من الشرك؛ لأنه يتضمن الاعتقاد باستقلالية التأثير للقوة والعدد والعتاد عن الله ﷻ، ومن شأنه أن يؤدي إلى الخذلان أو إلى ما هو أسوء من ذلك وهو الاستدراج، قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[1] والاستعانة بالله ﷻ والتوكل عليه والثقة به، تعني في الحقيقة أموراً عديدة، منها:

١. استقامة العقيدة وصحتها، واستقامة عملية التفكير ومنهجيتها وسلامة المنطق في دراسة الأمور وتحليلها، مما يتطلب التأهيل الفكري للأمة لا سيّما القيادات لكي تنتصر الأمة أو الجماعة على الأعداء.

٢. العمل بالتكليف والقيام بما يجب القيام به من الأعمال، مثل: التخطيط ووضع الاستراتيجيات الصحيحة الواضحة والبرامج العملية الفاعلة، والتحلي بالصبر والثباب والتحمّل، والمثابرة والعمل الدؤوب وتقديم التضحيات اللازمة.

٣. الاستقامة والالتزام بالحدود الشرعية والقيم الأخلاقية الرفيعة

١. التوبة: ٢٥

والمبادئ السامية وذلك من لوازم العقيدة الصحيحة وشكر النعمة الإلهية، وتجنّب الغرور وتعدي الحدود والوقوع في الظلم والطغيان والفساد ونحو ذلك، وهو من جحود النعمة الإلهيّة ومخالفُ لمقتضى العقيدة الصحيحة والشريعة السماوية السمحة، قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[١] أي: أمرٌ بالشكر لله سبحانه وتعالى وحمده والثناء عليه لما تحقق من النصر وصدق الوعد به، وتسبيحه؛ لأنّ النصر من عنده وحده لا شريك له، وتنزيهاً للنفس عن الزهو والفخر، واستغفاره عن كل غرورٍ بالنصر أو بالقوة والعدد أو نحو ذلك، وعن استعجال النصر قبل أوانه، وعن التعالي في الأرض وتجاوز الحدود الشرعية والقيم والمبادئ والخروج عن الاستقامة في أمر الجهاد أو بعد النصر بالطغيان على الأعداء وحب الانتقام والزهو والفخر والغفلة عن قدرة الله جلّ جلاله أو نحو ذلك، ولا يتم الشكر ولا تحصل سلامة العقيدة إلا بهذا الاستغفار، وقيل: الأمر بالاستغفار مع التسبيح والحمد تكميل للأمر بما هو قوام الدين من الجمع بين الطاعة والاحتراس من المعصية، والتخلق بأخلاق الإسلام الحنيف والقرآن الكريم، وبهما يستمر النصر ويزداد، وبفقد أحدهما يضيع النصر ويتلاشى، يقول السعدي: **«لم يزل نصر الله مستمراً حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل**

---

١. النصر: ١-٣

إليه دين من الأديان، ودخل فيه من لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلوا بتفرق الكلمة وتشتت الأمر، فحصل ما حصل»[١].

ب. أن يلزموا الصبر على ما يحل بهم من المصائب والشدائد والمحن والنكبات، والثبات أمام الصعوبات والتحديات وفي وجه فرعون الطاغية وقومه المستكبرين، وكسر إرادتهم الشيطانية، وانتظار الفرج من عند الله ﷻ، وهذا يعني الصبر على الهدى ودين الحق، والاستقامة على الطاعة لله سبحانه وتعالى وترك معصيته، والصبر على المقاومة السلبية التي تعني عدم الخضوع لإرادة الأعداء، وعلى المقاومة الإيجابية التي تعني النهوض للتغلب على ظلم الظالم وقهر إرادته وتحقيق النصر عليه، وذلك في الحالتين: وفق استراتيجية واضحة وخطط وبرامج عمل منهجية واقعية وفعالة وتقديم ما يلزم من الجهود والتضحيات، وانتظار الفرج في وقته من عند الله ﷻ، وترك استعجاله قبل أوانه، أي: أنّ الصبر المطلوب ليس هو الصبر الأسود الأجوف الذي هو صبر المغلوب على أمره ويعني الخنوع والخضوع لإرادة الأعداء والسلبية والاستسلام والقبول بحكم الأمر الواقع المفروض، ويقال له: صبر الحمير، و إنما هو الصبر الأبيض الإيجابي الفعّال، المقرون بالمقاومة والعمل من أجل النهوض و الإصلاح وتحصيل الحقوق، الذي هو رائد الخير والسابق لكل فرج ونصر، وفي الحديث النبوي الشريف: «**لا يعدم الصبور**

١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، صفحة ١٣٢١

الظفر وإن طال به الزمان»[1].

وفي وصية موسى الكليم عليه السلام لقومه أموراً عديدة، منها:

أ. بيان لوظيفة العبد الشرعية والعقلية والأخلاقية، فهو ممكن شرعاً وعقلاً وأخلاقاً عند القدرة بأن يدافع عن نفسه ويعمل من أجل أن يحصل على حقوقه كاملة، وذلك بحسب ما يقدر عليه وتتوفر له من إمكانيات، وعند العجز يصبر ويستغيث بالله عز وجل وينتظر الفرج من عنده ولا يستسلم ولا يستكين ولا يضعف ولا ييأس، فإن ذلك مخالفٌ للعقل والشرع ولكرامة الإنسان ويتنافى مع العقيدة الصحيحة والمعرفة بسنن الحياة والتاريخ.

ب. تسكيناً لبني إسرائيل من ضجرهم وجزعهم وتسليةً لقلوبهم وتعزيتهم بالرجاء وإزالة اليأس من قلوبهم، واستنهاضاً لهم للعمل بحسب ما يقدرون عليه، للتخلص من استعباد آل فرعون لهم، والفوز بالحرية والاستقلال والعزة والكرامة والحصول على مقصدهم، والثبات أمام الشدائد والمحن والنكبات والصعاب والتحديات وألوان العذاب الذي يهددهم بها فرعون، وعدم الاستكانة والاستسلام لإرادة الأعداء.

وهنا تنبغي الإشارة إلى بعض الأمور المهمة:

---

١. بحار الأنوار، جزء ٧١، صفحة ٩٥

أ. إنّ الصبر بالمعنى السابق من الأخلاق الإسلامية الحميدة التي هي ثمرة من الثمار الطيبة للعقيدة الصحيحة، فكل عقيدة لا تولّد الصبر والشجاعة والصلاح والإخلاص والاستقامة ونحوها، فهي عقيدة عقيمة لا قيمة لها ومشكوك في صدقها وصحتها.

ب. إنّ الصبر شرط من شروط التوفيق والتسديد والعون الإلهي للعبد، وتحصيل النصر والغلبة على الأعداء، وأنّ الجبناء وضعفاء الإرادة سفهاء الأحلام لا نصيب لهم من النصر ولا حظّ لهم فيه، قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

ج. لمّا كان الصبر والتصميم والإرادة الصلبة والثبات والشجاعة والاستقامة والصلاح من شروط الانتصار على الأعداء وتراكم الانتصارات والمكتسبات والمحافظة عليها، كان الإيمان والعقيدة الصحيحة من الشروط؛ لأنها هي التي تولّد هذه القيم الرفيعة وسائر القيم والأخلاق الحميدة عند الإنسان.

د. أنّ الصبر والثبات والنصر لا دوام لها من دون الإيمان بالله ذي الجلال والإكرام والاستقامة على الدين الإلهي الحق والصراط المستقيم والنهج القيّم والأعمال الصالحة وترك المعاصي والموبقات والذنوب.

---

١. البقرة: ٢٤٩

جوانب مشرقة من فلسفة التاريخ

بعد أن بيّن موسى الكليم عليه السلام لقومه المستضعفين من بني إسرائيل استراتيجية المقاومة للتهديدات الجديدة القديمة التي قصدهم وتوعدهم بها فرعون الطاغية وقومه المتواطئون معه على الظلم والفساد والراضين بما توعّد به فرعون بني إسرائيل من الاجراءات الأمنية القاسية الجائرة، بيّن موسى الكليم عليه السلام لقومه بعض الجوانب الرئيسية ذات الصلة بالموضوع من فلسفة التاريخ، كإضاءةِ وعي وهداية، ولشدّ أزرهم وتسلية قلوبهم وتعزيتهم بالرجاء وتقوية عزمهم و إرادتهم على المقاومة والثبات والصمود أمام المخططات الفرعونية القمعية والإرهابية، والجوانب هي:

١. قوله: ﴿الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾[1] أي: أنّ الله جلّ جلاله هو الذي خلق الأرض وكوّنها بجميع ما فيها من الكنوز والخصائص وما تدّخره في جوفها وما تخرجه على سطحها وخلق الفضاء المحيط بها والسماء التي فوقها وهو المدبّر لجميع شؤونها وأحوالها، وهو المالك المطلق لها، فهي ليست لفرعون ولا لقومه حتى يملكوها ويتحكموا فيها كما يشاؤون فيمنحوها من يشاؤون ويمنعون التمتع بها من يشاؤون. وأنّ الله عزّ وجلّ هو المدبر للمسيرة التاريخية للإنسان على وجه الأرض، وهي خاضعة لإرادته ومشيئته وسلطانه، كما هو عالم الطبيعة، وأنه يدبرهما -المسيرة التاريخية وعالم الطبيعة - بمقتضى الحكمة الإلهية البالغة والرحمة الإلهية الواسعة، وأنّ جميع الحوادث

١. الأعراف: ١٢٨

والظواهر في عالم الطبيعة وفي المسيرة التاريخية، تجري وفق السنن أو القوانين الإلهية الحاكمة لها.

٢. قوله: ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١] أي: أنّ الله ﷻ يداول السيطرة على الأرض كلها أو في بقعة من بقاعها بين الناس وينقلها بينهم نقل المواريث، وفق مقتضيات حكمته ومشيئته وما تجري عليه السنن التاريخية، وأنّ الله تبارك وتعالى مع المتقين، وقد جرت سنته التي لا تبديل لها على أن يخصّ المتمسكين بالتقوى من عباده بحسن العاقبة والنهاية المحمودة في الدارين الدنيا والآخرة، وفي العبارة وعد من موسى الكليم ﷺ لبني إسرائيل بالنصرة من الله ﷻ والنصر على الأعداء، وتذكير لهم بما وعدهم الله ﷻ من إهلاك فرعون وجنوده وتوريثهم الأرض والسلطة والثروة، وحثٌ لهم على التقوى، والمعنى إن استعنتم بالله سبحانه وتعالى وصبرتم في ذات الله على ما يهددكم به فرعون من الشدائد والمصائب والمحن، واتقيتم الله سبحانه وتعالى وأطعتموه فيما يأمركم به وينهاكم عنه وأدّيتم ما عليكم من التكاليف الشرعيّة وعملتم ما يجب عليكم عمله، ضمنتم حسن العاقبة والنهاية المحمودة في الدارين الدنيا والآخرة، وأن يورثكم الأرض التي ترونها في أيدي آل فرعون، مصر والشام، التي تتصف بالخصب وكثرة المياه والثروة العظيمة الطائلة، كما أورثها فرعون وقومه من قبل، كما أنكم تساهمون بذلك في التمهيد والإعداد لإقامة دولة العدل

---

١. نفس المصدر

الإلهي العالميّة التي وعد الله ﷻ بها عباده المؤمنين المستضعفين في نهاية المطاف للمسيرة التاريخية التكامليّة. وهو وعد إلهي أنجزه الله ﷻ لبني إسرائيل في الوقت الذي أراده حين توفرت الشروط بمقتضى حكمته البالغة ومشيئته النافدة في خلقه.

وأيضاً فإنه وفق السنن الإلهية الحاكمة للمسيرة التاريخية، فإن الله ﷻ سيورث الأرض بشكل كامل لمن يشاء من عباده المتقين في نهاية المسيرة التاريخية التكاملية للإنسان على وجه الأرض، فقد قضى قضاءً حتمياً لازماً وضرورياً، بأنّ العاقبة الحسنة والنهاية المحمودة بالسيطرة التامة الكاملة على الأرض، سوف تكون لعباده المؤمنين الصالحين المتقين، بأن يقيموا دولة العدل الإلهي العالمية على الأرض في نهاية المسيرة التاريخية التكاملية للإنسان على وجه الأرض، وذلك بعد طول الاستضعاف والابتلاء، يقول العلامة الطباطبائي: «**وكون العاقبة مطلقاً للمتقين من جهة أن السنة الإلهية تقضي بذلك، وذلك أنه تعالى نظم الكون نظماً يؤدي كل نوع إلى غاية وجوده وسعادته التي خلق لأجلها، فإن جرى على صراطه الذي رتب عليه، ولم يخرج عن خط مسيره الذي خطّ له، بلغ غاية سعادته لا محالة. والإنسان الذي هو أحد هذه الأنواع، أيضاً حاله هذا الحال، إن جرى على صراطه الذي رسمته له الفطرة واتقى الخروج عنه والتعدي منه إلى غير سبيل الله بالكفر بآياته والإفساد في أرضه، هداه الله إلى عاقبته الحسنة وأحياه الحياة الطيبة، وأرشده إلى كل خير يبتغيه**»[1]، وفي الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**وجدنا في كتاب**

---

١. تفسير الميزان، العلامة محمد حسين الطباطبائي، جزء ٨، صفحة ٢١٢

علي عليه السلام: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١] **وأنا وأهل بيتي الذين أورثنا الله الأرض ونحن المتقون والأرض كلها لنا»**[٢] وفي العبارة أمر لبني إسرائيل بالتقوى .

وما سبق يفيد أموراً عديدة، منها:

أ. وجوب وضرورة أن يدافع المؤمنون الصالحون عن أنفسهم وحقوقهم ومصالحهم، وأن يدفعوا عن أنفسهم الظلم والجور والطغيان، ويرفضوا كلّ صنوف الإذلال والإهانة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لا أن يستسلموا ويخضعوا لحكم الأمر الواقع المفروض عليهم رغماً عنهم وبغير رضاهم، ويصابوا بالخيبة والخنوع واليأس، فإنه ليس من صفات المؤمنين الصادقين وليس من أخلاقهم الحميدة ونقيض لوازم العقيدة الإسلامية الصحيحة والشرع الحنيف، ومخالفُ لمقتضى السنن الإلهية الحاكمة على المسيرة التاريخية التكاملية للإنسان، التي تشير إلى أن موازين القوى غير ثابتة، وأنها في تغير مستمر تبعاً للظروف والعمل وفق السنن التاريخية في تحصيل القوة والانتصار على كافة الأصعدة. فالقوي يتحول إلى ضعيف والضعيف إلى قوي، والمنتصر يتحول إلى مهزوم والمهزوم إلى منتصر، والحاكم يتحول إلى محكوم والمحكوم إلى حاكم، والمتقدم يتحول إلى متخلف والمتخلف إلى متقدم، ونحو ذلك،

---

١. الأعراف: ١٢٨

٢. تفسير العياشي، جزء ٢، صفحة ٢٥

قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[1] أي: ثقوا أيها المسلمون بالله سبحانه وتعالى وبدينكم الإلهي الحنيف وبأنفسكم، وامضوا على عزيمة الإيمان بالنصر والغلبة وتصلبوا على نضال عدوكم ومقاومته، ولا تستكينوا لعدوكم وتخضعوا له وتضعفوا عن قتاله ومقاومته، ولا تحزنوا لما يصيبكم من الأذى وما فاتكم من الدنيا وما تمنون به من الهزيمة أو تقدمونه من الخسائر والتضحيات والشهداء، فهذه سنة الحياة، مرة تنتصرون ومرة تهزمون، تقدمون التضحيات والقرابين من أجل دينكم ووطنكم ونيل آخرتكم وكرامتكم وحقوقكم الطبيعية والمكتسبة التي ينبغي عليكم صيانتها والمحافظة عليها، ولا يليق بكم الضعف والحزن، وهما يزيدان في مصيبتكم ويعينان عليكم عدوكم، فإنكم الأعلون والفائزون ولكم وراثة الأرض، بما أنتم مؤمنون حقاً وصدقاً وعاملين بمقتضى الإيمان الحقيقي وخاضعين للقيادة الشرعيّة المؤهلة والأمينة على دينكم ومصالحكم ومتبعين لها، فالإيمان يلازم علاءكم؛ لأن فيه التقوى والصبر والثقة بالله ﷻ وقلة المبالاة بأعداء الله سبحانه وتعالى، وهي ملاك الفتح والظفر والغلبة على الأعداء. وإن نال منكم العدو ونزلت بكم الشدائد والمصائب والمحن والنكبات فهذه طبيعة الحياة الدنيا

---

١. آل عمران: ١٣٩-١٤١.

وسنتها، وقد نلتم من العدو ونزل به مثلما نزل بكم، وتختلفون عنهم، أنكم ترجون من الله تبارك وتعالى ما لا يرجون. وقد جرت السنة الإلهية على تغير ميزان القوى ومداولة أيام الظفر والغلبة بين الأمم والشعوب والجماعات، فتارة تكون القوة والغلبة لهؤلاء وتارة لأولئك دون توقفها أو جمودها أو ثباتها على حال لصالح قوم دون الآخرين، وهذا التداول والتغير المستمر في ميزان القوى هو لمصالح عامة، ومما يبتلي الله ﷻ به المؤمنين وليمحصهم ليعلم الصادقين الثابتين على الإيمان بصبرهم وجهادهم في سبيل الله ﷻ وأعمالهم الصالحة، ويميزهم من المنافقين الكاذبين ويخلصهم من الشوائب، ويتخذ منكم أئمة وقادة جديرين بما تسند إليهم من واجبات ومهمات، وهو السبيل الذي يسير فيه الكفر تدريجياً نحو التقلص والانكماش، حتى ينتهي الأمر في خاتمة المطاف إلى محق الكافرين واستئصالهم بهلاكهم ومحو آثارهم تماماً، وعليه: فإنّ الضعف والركون إلى الأعداء والظالمين والخضوع لإرادتهم، مخالف لمقتضى المنطق والفطرة والعقيدة الصحيحة والشرع الحنيف والخلق الحميد والسنن التاريخية وغاية خلق الإنسان وكرامته ولا يليق أبداً بالمؤمنين.

ب. أنّ التقوى والصدق والإخلاص عوامل مهمة وفعالة في تحقيق الحتمية التاريخية الموعودة للمؤمنين المستضعفين في الأرض، وذلك لأن التقوى والصدق والإخلاص موافقة للعقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم وللسنن الإلهية الكونية والتاريخية،

وأنها من دواعي الحق والعدل والخير والفضيلة والحرية والعزة والكرامة والصلاح والإصلاح والمقاومة والجهاد في سبيل الله ﷻ والبعد عن الباطل والظلم والشر والرذيلة والفساد والتخلف والتحلل والإنحطاط والضعف أمام الأعداء واليأس والخضوع والاستكانة والقبول بالذل والهوان والاستعباد ونحو ذلك من الرذائل والصفات القبيحة، وهي الطريق إلى الحياة الإنسانية الطيبة والسعيدة. وما سبق يمنح التقوى والصدق والإخلاص قوة ذاتية فاعلة ومؤثرة في الاستقطاب والتوجيه، وهي صفات لا يمكن تحصيلها بدون المراقبة والمحاسبة والتدريب عليها «التربية» والصبر أمام الشهوات الحيوانية والملذّات الحسيّة وبهارج العالم المادي ومقاومة الأهواء الشيطانية.

ج. أنّ الحتمية التاريخية لا تأتي دفعة واحدة وبدون مقدمات وتراكم المكتسبات، بل تأتي كنتيجة لتراكم تدريجي لنتائج النضالات في التاريخ الطويل، وفي بقاع جغرافيّة عديدة، تتداول فيها الانتصارات مع الهزائم على المؤمنين، ويقدموا فيها الشهداء والتضحيات الجسمية، مثل: السجن والتعذيب والنفي والمطاردة والضيق في المعيشة والجروح ونحو ذلك، إذ يتوجه المؤمنون الصالحون طوال التاريخ وفي بقاع الأرض المختلفة لتوفير عوامل البقاء والإستمرار والصلاح لدينهم وأنفسهم، والحصول على الانتصار والغلبة على عدوهم، وتتراكم نتائج نضالاتهم حتى تنتهي المسيرة التاريخية التكاملية للإنسان إلى هذه الحتمية التاريخية العظيمة، وهي:

تلاشي الكفر وهلاك الكافرين، وظهور الإيمان الحق ووراثة المؤمنين لكل الأرض والسيطرة عليها بشكل كامل و إقامة دولة العدل الإلهي العالمية، وعليه: فكل مقاومة للظلم والجور والطغيان يقوم بها المؤمنون الصالحون والمناضلون الشرفاء، في كل بقعة من بقاع الأرض وفي كل حقبة من حقب التاريخ، تعدّ مساهمة إيجابية مباركة في الإعداد للظهور المبارك لصاحب العصر والزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف والوصول إلى هذه الحتمية التاريخية في نهاية المسيرة التاريخية التكاملية للإنسان، التي هي قضاء إلهي حتمي وضروري ولازم، قول الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1].

الجدير بالذكر والتنبيه: أن الحتمية التاريخية لاتعني أبداً إلغاء أو تعطيل القوانين أو السنن الحاكمة للظواهر الاجتماعية والتاريخية أو تعطيل لإرادة الإنسان واختياره، وتعليقها على الإرادة الإلهية بشكل مجرد ومستقل عن السنن التاريخية وإرادة الإنسان، وإنما تعني أنّ الظواهر الاجتماعية والتاريخية التي تصدر من إرادة الإنسان واختياره، تخضع لقوانين تعرف بالسنن التاريخية، مثلها في ذلك مثل الظواهر الطبيعية قاطبة التي تخضع تماماً للقوانين الطبيعية، وأن الظواهر الاجتماعية والتاريخية مثل الظواهر الطبيعية مقيدة بشروط توجب حدوثها إضطراراً وفق السنن «القوانين» الحاكمة عليها، أي: أنها تجري وفق نظام كلي دائم، وأنها مشروطة بما يتقدمها أو يصحبها من الظواهر والممارسات، فكل

١. القصص: ٥

ظاهرة مرتبطة ومتعلقة بغيرها من الظواهر ارتباطاً محكماً، ويلاحظ هنا أمور عديدة، منها:

أ. أنّ هذه السنن لا تشذّ عن إرادة الله ﷻ ومشيئته، وإنما تنتهي إليه وتخضع لإرادته وسلطانه ومشيئته، وأن مفاعيلها موافقة لحكمته البالغة، وتوصل الكائنات إلى غاية وجودها، فإن الوجود الكامل المطبق لواجب الوجود سبحانه وتعالى يقتضي أن يوجد من الممكنات كماً ونوعاً في عالم الإمكان كل ما كان وجوده موافق للمطلق من الحكمة والرحمة والقدرة ونحوها، على إنّ من مقتضيات الحكمة أيضاً الوجود التدريجي للممكنات حتى يبلغ عالم الإمكان ذروته وغاية كماله المقدّر له، وهو في المسيرة التاريخية خاتمتها، وفي عالم الدنيا نهايتها، وفي الدورة الكاملة للوجود الممكن عالم الآخرة.

ب. أنّ هذه السنن لا تقيّد إرادة الله سبحانه وتعالى وقدرته، فإرادته وقدرته فوق كل شيء وتعملان في كل شيء، وإنّ وسائل الخلق وطرقه متعددة، مثل: خلق آدم وحواء عليهما السلام من تراب وخلق سائر الناس من النطفة بواسطة التزاوج وخلق عيسى بن مريم عليه السلام من غير أب، وأخرج ناقة صالح عليه السلام وفصيلها من الجبل، وحوّل عصا موسى الكليم عليه السلام إلى ثعبان عظيم، وردّ البصر ليعقوب «إسرائيل» بواسطة قميص ابنه يوسف عليه السلام وأعطى عيسى بن مريم عليه السلام القدرة على إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وأن يصنع من الطين

كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﷻ، ومكّن آصف بن برخيا من نقل عرش الملكة بلقيس من صنعاء باليمن إلى القدس في فلسطين في أقل من لمح البصر، ونحو ذلك، على خلاف عقيدة اليهود الذين قالوا: أن الله سبحانه وتعالى قد عيّن كل شيء منذ بدء الخليقة، وأن كل ما يجب أن يحصل قد حصل، وأنّ الله سبحانه وتعالى لا يستطيع من الناحية العملية فعل شيء أمام هذا الواقع، وبحسب لسان الرواية: «**فرغ من الأمر ليس يحدث شيئاً**» تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[1] أي: من مصاديق قولهم: أنهم يعتقدون عدم جواز النسخ في الشريعة ليثبتوا أن التوراة لا تقبل النسخ وأن دينهم لايقبل التبديل، وعدم جواز البداء والخروج عن النظام في التكوين ليثبتوا أن لهم التقدم والسلطة على الأمم الأخرى وأنّ هذه الحالة الحضارية والتاريخية لاتقبل التغيير والتبديل وعبّروا عن ذلك، بقولهم: (يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)[2] أي: مقيدة فهو مسلوب القدرة والإرادة على إحداث التغيير في النظام الكوني والمسيرة التاريخية للإنسان على وجه الأرض، فدعا الله ﷻ عليهم، بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾[3] أي قيّدت أيديهم، كناية عن عجزهم عما يريدون وما يمكرونه للحق وأهله، فلم ينالوا ما قصدوه ولم يدركوا ما أملوه وضربت

١. المائدة: ٦٤

٢. نفس المصدر

٣. نفس المصدر

عليهم الذلة والمسكنة، وكناية عن نقصانهم وعدم كمالهم لعظيم وقاحتهم وجرأتهم منقطعة النظير على الله سبحانه وتعالى، وأبعدوا عن رحمة الله تبارك وتعالى وعذّبوا ولعنوا في الدنيا والآخرة بما قالوا، فإنّ جرمهم عظيم وبهتانهم كبير، يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «**ليس هذا دعاء على اليهود، بل إخباراً من الله سبحانه بأنهم في آخر الزمان سيكونون أذلاّء ملعونين مخذولين بشهادة التوراة فقد جاء في سفر التثنية الأصحاح «٢٨» الفقرة «١٥» وما بعدها: إنّ الربّ خاطب الشعب اليهودي بقوله: إن لم تسمع لصوت الرب إلهك .... يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر في كل ما تمتد إليه يدك لتعمله حتى تهلك وتفنى سريعاً من أجل سوء أفعالك**»[1] ويردّ الله سبحانه وتعالى على اليهود بقوله: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾[2] أي: له غاية القدرة والإرادة التامة في خلقه، يقدم ويؤخر، ويزيد وينقص، وينوع في طرق ووسائل الخلق والتدبير، وله البداء والمشيئة في الخلق، فلا إجبار في عمل الله ﷻ، فليس محكوماً بالجبر الطبيعي، ولا بالجبر التاريخي، وإرادته فوق كل شيء وتعمل في كل شيء، ويبطش البطشة الكبرى بكل من يجرؤ على قدسه وكبريائه، ويفعل ما يشاء كيف يشاء متى يشاء وأين يشاء بإيجاد الأسباب الموجبة لما يشاء على ما تقتضيه حكمته البالغة ومشيئته النافذة، فلا حجر عليه ولا مانع يمنعه مما يشاء

---

١. تفسير المبين، محمد جواد مغنية، صفحة ١٤٩

٢. المائدة: ٦٤

ومما يريد، وصيغة التثنية في اليدين «يداه» ليكون الإنكار لقول اليهود أبلغ، ولثبوت كمال القدرة والقيمومةِ المطلقة على الخلق أدلّ.

ج. أنّ الحتمية التاريخية لا تلغي إرادة الإنسان واختياره، و إنما تعني بأنّ الصراع بين القوى المختلفة المتنافسة والتضامن اللذان ينبعان من إرادة الإنسان واختياره، يخضعان في حدوثهما ونتائجهما للسنن التاريخية، وتشكّل نتائجهما الظواهر الاجتماعية والتاريخية في المسيرة التكاملية للإنسان على وجه الأرض، وسوف تنتهي نتائجهما بشكلٍ حتمي وضروري ولازم إلى حاكمية الدين الإلهي الحق، وأئمة الهدى الذين هم في غاية الإيمان والتقوى.

شروط الانتصار والتسديد الإلهي

و ما سبق يتطلب من المؤمنين أن يتوفروا على شروط عديدة، أهمها:

الشرط الأول: أن تكون قياداتهم قيادات مؤهلة تأهيلاً مناسباً كافياً، فكرياً وروحياً وعملياً، فلا يتولى أحد فيهم منصباً قيادياً أو مسؤولية عامة بدون أن يكون مؤهلاً لذلك.

الشرط الثاني: المحافظة على الاستقامة على الصراط المستقيم والنهج القويم والتحلي بالتقوى والصدق والإخلاص في العمل، فلا قيمة للنضال والتضحيات والسعي للتمهيد للظهور المبارك لصاحب العصر

والزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف ولإقامة دولة العدل الإلهي والوصول إلى الحتمية التاريخية الموعودة، ما لم يكن ذلك في ذات الله سبحانه وتعالى ومن أجله، وهو الأمر الذي لا يمكن أن يتحقق بدون الاستقامة على الصراط المستقيم والتحلي بالتقوى والصدق والإخلاص.

الشرط الثالث: التفكير بشكل منهجي ومنطقي صحيح والعمل بشكل واقعي وفق خطط استراتيجية وبرامج عمل فاعلة، وهذا يتطلب الفهم الواقعي الموضوعي للأمور والوقائع والحوادث، وتحليلها بشكل علمي مسبب واضح، ووضع الخطط وبرامج العمل الفعّالة المناسبة للظروف والإمكانيات المادية والبشرية، بعيداً عن الانفعال والوهم والتخبط وردود الفعل غير المدروسة، والعمل الدؤوب المثمر، والتحلي بالجرأة والشجاعة التي تلامس ظاهر الإمكانيات وتظهر مكنونها، وامتلاك روح المبادرة واغتنام الفرص، وقد سبقت الإشارة في أبحاث سابقة إلى تقسيم السياسات إلى ثلاث أقسام:

أ. السياسة الانفعالية التي تقوم على ردود الفعل غير المدروسة.

ب. السياسة الغرائزية في الهجوم والدفاع حيث يتمتع القائد بغريزة فطرية تشبه غريزة الحيوان التي يتبعها في الدفاع عن نفسه والانقضاض على فريسته.

ج. السياسة العلمية التي تقوم على التفكير والخيال الإنساني الخصب الواسع في تصور الممكن، وهي السياسة التي يستطيع فيها القائد

أن يربط ربطاً محكماً بين الواقع والإمكانيات وبين الخطط والبرامج وبين المبادئ والأهداف، وبين متطلبات المستقبل، وتتسم بالمرونة والمراوغة التي هي من متطلبات التكتيك وسمات التفكير الإنساني، وقد يكون الظاهر فيها خلاف القصد والهدف، ولكنه بحسب الواقع السبيل الأضمن والأكيد لتحقيق الهدف، وهي السياسة الوحيدة التي تستطيع مراكمة المكتسبات وتجميعها والعمل على المدى التاريخي البعيد.

الشرط الرابع: المحافظة على الوحدة وتنظيم الصفوف بشكل محكم وفعّال، ويجب إيجاد التوازن بين الوحدة وبين الاستقامة على الصراط المستقيم والإلتزام بالمنهج السليم والرؤية الواضحة في العمل بدون إفراط ولا تفريط. فقد تختلف الأمة وتنقسم إلى مذاهب ونحل، وهنا ينبغي على الإنسان أن يبحث عن الصراط المستقيم ويتمسك به، ويعمل بمقتضاه، فلا يكون الإفراط في الوحدة مدعاة إلى التفريط في الصراط المستقيم، ولا الإفراط في الصراط المستقيم مدعاة إلى التفريط في الوحدة، و إنما يجب التحلي بفضيلة الاعتدال و إيجاد التوازن بين التكليفين، الوحدة والصراط المستقيم. وقد تختلف المناهج ورؤى العمل بين أتباع المذهب الواحد، وهنا ينبغي على الإنسان أن يبحث عن المنهج السليم والرؤية الصحيحة الصائبة في تقديره للعمل ويسير عليها ويعمل بمقتضاها، فلا يكون الإفراط في الوحدة مدعاة إلى التفريط في المنهج السليم والرؤية الصحيحة المطلوبة في العمل، ولا الإفراط في المنهج والرؤية مدعاة إلى التفريط في الوحدة، و إنما يجب التحلي بفضيلة الاعتدال و إيجاد التوازن

بين التكليفين، الوحدة والمنهج والرؤية، ولا شكّ فإن إيجاد التوازن يحتاج إلى رؤية واضحة لإيجاده وآليات لتطبيقه، كما يحتاج إلى صدق الإيمان والتقوى و إخلاص النيّة لتجاوز الذات والتغلب على الأنانية والتعصب وغير ذلك من الآفات التي تؤدي إلى الإفراط أو التفريط على حساب الحقيقة والمصلحة الحقيقية للدين والعباد.

الشرط الخامس: العمل وفق استراتيجية واضحة يمكن توقع نتائجها بشكل علمي، وخطط وبرامج واقعية وفعّالة كفيلة بتحقيق الأهداف المرسومة ويمكن قياس نتائجها بشكل علمي موضوعي محايد.

الشرط السادس: إعداد القوة اللازمة المادية والبشرية والمعنوية، والتحلي بالصبر والجرأة والشجاعة التي تلامس ظاهر الإمكانيات وتظهر مكنوها ولاتقصر عنها، والتصميم على الوصول إلى المراد وتحقيق الأهداف والغايات المرسومة وتقديم التضحيات اللازمة لذلك.

الشرط السابع: التوكل على الله ﷻ والثقة به والحذر الشديد من الغرور والإعجاب بالنفس والغفلة عن الله ذي الجلال والاكرام، فإنّ ذلك مدخل إلى الفساد والخذلان الإلهي وربما الاستدراج، مما يؤدي إلى الفشل والهلاك والشقاء في الدارين الدنيا والآخرة.

تضجّر بنو إسرائيل وشكواهم لموسى الكليم عليه السلام

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾

بعد أن بين موسى الكليم عليه السلام لبني إسرائيل استراتيجية المقاومة وبعض الجوانب المشرقة في فلسفة التاريخ ليوعّيهم بها ويشدّ أزرهم، قالوا له شاكين ومتضجرين وقد أصيبوا بالفزع والجزع لشدة ولطول ما مكثوا فيه من عذاب فرعون وأذيته: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[1] أي: أوذينا من فرعون الطاغية ومن قومه المستكبرين قبل أن تبعث فينا بالنبوة والرسالة وبعد أن بعثت فينا بالنبوة والرسالة، فقد كانوا يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا ويسوموننا سوء العذاب، إذ كنا عرضة للقتل والمطاردة والأسر والسجن والتعذيب والاستعباد والاسترقاق وأخذ الجزية والتسخير للخدمة في الأعمال الشاقة السافلة والمنزلية بغير أجر أو بأجر يسير غير عادل ولا يضمن لنا الحياة الكريمة، ونحو ذلك من أساليب القمع والإرهاب والإذلال، وقد صبرنا على ذلك وتحملنا وانتظرنا الفرج حتى بعثك الله تبارك وتعالى فينا نبياً ورسولاً، فآمنا بك واتبعناك وأطعناك راجين للنجاة والخلاص من أذى فرعون على يديك، وقد وعدتنا بذلك، إلا أنه لم يتغير شيء، فقد عاد فرعون الطاغية وقومه المستكبرين إلى سيرتهم الأولى معنا من القتل والأسر والقمع والإذلال، فلم تتغير سياسة فرعون القمعية معنا، ولم يذهب شره وشرّ قومه عنا، ولم تتغير أحوالنا السيئة، ولا رأينا عافية، وقد صرنا في حالة سيئة شديدة من الخوف على أنفسنا ونسائنا وأولادنا، وأصبح مجيئك إلينا مثل عدمه ولم يؤثر أثره في تغيير و إصلاح أوضاعنا، فأين وعدك إلينا بالنجاة والخلاص؟!

وهذا القول من بني إسرائيل يدل على إيمان ضعيف متزعزع، ورؤية

١. الأعراف: ١٢٩

خرافية غير صحيحة لسنة الحياة وطبيعتها، وهو قول من يميل إلى الراحة والسكون والدعة، ويتوقع حدوث التحولات التاريخية دفعة واحدة، ولا يملك نفساً طويلاً، ولا يرغب في العمل الدؤوب والجهاد والتضحية، وكأن المكاسب والانتصارات والتحولات الكبيرة تحدث دفعة واحدة وبدون مقدمات ولا شروط ولا عمل ولا تضحيات من قبل مجموع الأفراد، يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**كأن بني إسرائيل مثل كثير منّا يتوقعون أن تصلح جميع الأمور بقيام موسى عليه السلام في ليلة واحدة .. أن يزول فرعون ويسقط ويهلك الجهاز الفرعوني برمته، وتصبح مصر بجميع ثرواتها تحت تصرف بني إسرائيل، ويتحقق كل ذلك عن طريق الإعجاز من دون أن يتحمل بنو إسرائيل أي عناء، ولكن موسى عليه السلام أفهمهم بأنهم سينتصرون في المآل ولكن أمامهم طريقاً طويلاً، وإنّ هذا الانتصار طبقاً للسنة الإلهية .. يتحقق في ظل الاستقامة والثبات والسعي والاجتهاد**»[1].

وقد وقع بعض الصحابة في نفس المستنتع، روي عن خباب بن الأرت أنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله بعد أن لقي من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله!! ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمّر الوجه، فقال: «لقد كان من قبلكم يمشط بمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله»[2] أي: استنكر الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله من الصحابة استعجال النصر، يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «**كان العديد**

١. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ٥، صفحة ١٥٠

٢. تاريخ الطبري، جزء ٢، صفحة ٣٤٤

من الصحابة يستعجلون النصر، ويأخذهم القلق والضجر من التأخير، والنبي ﷺ يقول لهم: وعدني به ربي وهو آتٍ لا محالة، وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ فيه تعريض بهؤلاء المستعجلين القلقين، وأنه كان عليهم أن يصبروا ويثقوا بوعد الله، ويتغلبوا على خواطر النفس ووساوسها»[1] وهي نفس الآفة التي وجدتها عند العديد من القيادات والناشطين في الساحة الوطنية والإسلامية أسأل الله لي وللمؤمنين العافية منها.

وما سبق يدلّ على أن مجرد ظهور المنقذ أو القائد الصالح المصلح أو الثائر، لايعني حدوث الإصلاح والتحول فجأة، ولا يعني توقف العناء والعذابات عن المستضعفين المظلومين وصلاح جميع الأمور بين عشية وضحاها، عن طريق الإعجاز ونحوه وبدون عمل وتضحيات، بل العناء والتعب والعذابات ستستمر بدون توقف وقد تطول لعقود من الزمن، حتى تتراكم المكتسبات وتنقلب الموازين لصالح المستضعفين ويأتي النصر وتتغير الأحوال والظروف بسبب الخطط والبرامج الفعّالة والعمل الجماعي الدؤوب من قبل مجموع الأفراد أو الكتلة البشرية الكافية اللازمة لإحداث التغيير وتقديم التضحيات الجسيمة، فيرتفع عندئذٍ الظلم والاضطهاد والاستضعاف والإذلال والتمييز ونحو ذلك، ويحل محلها العدل والحرية والاستقلال والعزة والكرامة والمساواة في الحقوق والواجبات ونحو ذلك. ثم ليبدأ بعد ذلك عناء البناء والتعمير والتنمية والتطوير، وكل من يعتقد بأن مجرد وجود المنقذ أو القائد الصالح المصلح أو الثائر من شأنه أن يرفع العناء وتصلح الأمور بدون جهاد ولا تضحيات، فهو واهم يعيش في الخيال ومنفصل عن

١. تفسير المبين، محمد جواد مغنية، صفحة ٨٢٥

الواقع وجاهل بسنن الحياة وبالسنن الإلهية في الابتلاء من أجل أن يظهر الناس على حقيقتهم، والتمييز بين الصادقين الصابرين المجاهدين وبين الكاذبين المنافقين والانتهازيين النفعيين والكسالى الذين يميلون إلى الدعة والراحة ويكرهون الجهاد والتضحيات والبذل في سبيل الله ﷻ وسبيل الحرية والعزة والكرامة والمجد والشرف والتقدم والرفعة، ومن أجل تكامل الإنسان المؤمن و إخراج ما هو كامن في نفسه من المواهب والقدرات وكنوز المعرفة والخير والعطاء، ووصوله إلى أعلى مراتب الكمال الإنساني المقدر والرضوان الإلهي والسعادة الحقيقية الأبدية الكاملة والنعيم الأبدي الخالد في الآخرة. وهذا ما ابتلينا به من قبل ضعفاء الإيمان واليقين والبصيرة في أيامنا هذه في بلادنا، ومنهم من يؤمن بالابتلاء نظرياً ولا يطيقه عملياً ولا يقوى عليه ويستعجل النصر قبل أوانه ويريد حرق المراحل وأن ينزل عليه النصر دفعة واحدة ويسلم له الأعداء وينتصر من الجولة الأولى أو الثانية ونحو ذلك، والقاعدة: لا ثمر بدون غرس، ولا إصلاح وتحسن في الأحوال بدون جهاد وتضحيات من قبل مجموع الأفراد أو الكتلة البشرية الكافية وبشكل منظم ومتواصل بحيث تحفظ النتائج والمكتسبات وتتراكم حتى تنجز الأهداف وتحقق الغايات. فالعناء والتعب والعذابات والتضحيات مستمرة مع وجود المنقذ أو القائد الصالح المصلح أو الثوري، ومصاحبة للنهوض والمقاومة، وبعد النصر والغلبة من أجل البناء والتنمية والتطوير، ويعتبر ذلك شرطاً ضرورياً لازماً لإحداث التغيير والإصلاح والتطوير، وتقترن دائماً بشعور المؤمن المجاهد بالعزة والكرامة والفخر، بخلاف الخنوع والاستسلام والركون إلى الراحة والدعة والقعود والامتناع عن البذل والتضحية والفداء، فإنها

تقترن دائماً في نفوس أصحابها مع الشعور بالذل والهوان والعجز، والقبول بها خلاف العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم والخلق الكريم والشرع الحنيف، ويؤدي دائماً إلى الضعف والتخلف والفشل والتحلل والانحطاط والإبادة من الوجود مقروناً بالخزي والعار.

رد موسى الكليم عليه السلام على شكوى بني إسرائيل إليه

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾

قال موسى الكليم عليه السلام في رده على شكوى بني إسرائيل إليه على ما نالهم من أذى فرعون الطاغية وقومه مسلياً لهم وباعثاً للأمل والرجاء فيهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[1] أي: إنكم إن اتقيتم ربكم واستقمتم على الطريقة والنهج القويم وسمعتم وأطعتم لنبيكم فيما يأمركم به وينهاكم عنه واتبعتموه واقتديتم به، واستعنتم بالله عز وجل وتوكلتم عليه ووثقتم به، وصبرتم وقاومتم عدوكم، ولم تضعفوا وتستكينوا وتستسلموا لعدوكم ويصيبكم اليأس والقنوط والخنوع، وتركنوا إلى الظالمين طائعين وتخضعوا إلى إرادتهم وتتبعوهم، فعسى ربكم أن يهلك عدوكم الظالم لكم، ويخلصكم من أذاه وشره، ويستخلفكم مكانه في السيادة على الأرض، ويمكنكم من السلطة والحكم في البلاد والثروة والمقدرات ويجعل لكم التدبير في البلاد.

ولقد كان موسى الكليم عليه السلام على علم يقين من ربه عبر طريق الوحي

---

١. الأعراف: ١٢٩

والتنزيل، بأنّ الله ﷻ سيهلك فرعون الطاغية وجنوده وأنصاره المتابعين إليه والمُعينين له على ظلم بني إسرائيل واستضعافهم، ويمنّ على بني إسرائيل بالنجاة والخلاص من شره وأذاه، ويمكّن لهم ويستخلفهم في الأرض، ولكنه عليه السلام عبّر عن حدوث ذلك التحوّل التاريخي العظيم بأسلوب الرجاء، قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾[1] دون الجزم واليقين، تأدباً مع الله جلّ جلاله ولمحل البداء؛ لأن ذلك التحول مشروط بالصبر والمقاومة وليس مع السلبية والكسل والاستسلام والخنوع، فأراد موسى الكليم عليه السلام أن يشعرهم بما يجب عليهم القيام به من الصبر والتحمل والثبات والعمل الممنهج الدؤوب والجد في السعي وتقديم ما يلزم من التضحيات للوصول إلى ذلك التحول التاريخي العظيم، لا أن يتكلوا على مجرد الوعد الإلهي إليهم بذلك ويقعدوا عن العمل والجهاد ويمتنعوا عن تقديم التضحيات؛ لأن الوعد الإلهي ليس مطلقاً بل مقيداً ومشروطاً.

ثم أشار موسى الكليم عليه السلام إلى مسألة أخرى في غاية الأهمية والخطورة وهي استمرار الامتحان والابتلاء إليهم بعد حدوث التحول التاريخي العظيم وحصول الاستخلاف في الأرض والتمكين من السلطة والثروة والمقدّرات في البلاد ولكنه على نحو مختلف، فقال: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[2] أي: ليمتحنكم بهذا الملك وليبتليكم بهذا التسلط على مصادر القوة والثروة، فينظر كيف تتصرفون وتعملون، بعد أن كنتم تعيشون الحرمان والإذلال والاستضعاف إلى أقصى الحدود ومن جميع النواحي في العقيدة والدين

١. نفس المصدر

٢. نفس المصدر

والشعائر، وفي المعيشة والرزق والأمن الاجتماعي والسياسي وغير ذلك، هل تشكرون نعمة الانتصار والاستخلاف والتمكين، وتطيعون الله سبحانه وتعالى والرسول الكريم ﷺ وتعدلوا بين الناس وتصلحوا في الأرض؟! أم تجحدوا النعمة وتعصوا الله سبحانه وتعالى والرسول الكريم ﷺ وتظلموا الناس وتفسدوا في الأرض، مثلكم في ذلك مثل الذين سبقوكم فرعون الطاغية وقومه المستكبرين، فتكونوا مثلهم سواء بسواء؟! فإن شكرتم واطعتم واتبعتم رضوان الله تبارك وتعالى وعدلتم بين الناس وأصلحتم في الأرض، حصلت لكم البركة الإلهية واستمرار التمكين والاستخلاف، وإن جحدتم النعمة وعصيتم الله جلّ جلاله والرسول الكريم ﷺ وظلمتم الناس وأفسدتم في الأرض، حصل لكم الخذلان والاستدراج والثورة عليكم كما كانت على الذين من قبلكم!! ثم يجزيكم الله ﷻ الجزاء الأخروي بما تستحقون على حسب ما يوجد منكم من أفكار وعقيدة وأخلاق وأعمال، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1] وعليه: ليس المهم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض ويمكّن لكم بدلاً منهم، ولكن المهم كيف تكونون بعد الانتصار والاستخلاف والتمكين والوصول إلى السلطة والسيطرة على مصادر القوة والثروة والمقدرات، هل تتقون وتشكرون النعمة وتطيعون الله سبحانه وتعالى والرسول الكريم ﷺ وتعدلون بين الناس وتحسنون

١. إبراهيم: ٦-٧

إليهم وتصلحون في الأرض وتنشرون الخير والفضيلة وتعملون من البناء والازدهار والتطوير والتنمية الشاملة المستدامة؟! أم تفجرون وتجحدون النعمة وتعصون الله سبحانه وتعالى والرسول الكريم ﷺ وتظلمون الناس وتسيئون إليهم وتفسدون في الأرض وتنشرون الشر والرذيلة وتضعفون الأمة وتقودونها إلى التخلف والتحلل والانحطاط ونحو ذلك.

وما سبق يدل على أن الله تبارك وتعالى لا يستخلف أحداً عبثاً أو جزافاً و إنما لحكمة وهدف، وأن الامتحان والابتلاء الإلهي سنة جارية للإنسان في جميع الأحوال والظروف، في السعة والضيق، في الغنى والفقر، في الصحة والمرض، في الحكم والمعارضة، ونحو ذلك، فلا يخرج الإنسان من الابتلاء والامتحان أبداً، حتى يفارق الحياة، وذلك لكي تظهر حقيقة الإنسان كاملة للعيان، وتقام عليه الحجة المناسبة فلا يبقى له عذر، وهو موافق للحكمة والعدل الإلهي المطلق، وهو السبيل إلى تربية الإنسان وبناء شخصيته وتفعيل قدراته ومواهبه و إخراج أفضل ماعنده والوصول به إلى أعلى مراتب الكمال الإنساني المقدر له واللائق به، وتحصيل السعادة الحقيقية الكاملة الأبدية، وتنمية المجتمع والوصول به إلى أعلى مراتب الازدهار والتنمية والكمال الحضاري، أي: هو السبيل إلى التكامل الفردي التربوي، والتكامل المجتمعي الحضاري، على كافة الأصعدة والميادين الفكرية والمعرفية والعلمية والدينية والفنية والأدبية والروحية والأخلاقية والصناعية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها.

كما يدل استمرار الابتلاء والامتحان على أن لا كرامة لأحد من الناس

أو لشعب أو لأمة في نفسه وبشكل مطلق وبدون قيد أو شرط، وبعيداً عن فكره وعقيدته وأخلاقه وسلوكه وأفعاله وتصرفاته وعمله، بل الكرامة والفضل تدوران مدار الفكر والعقيدة والأخلاق والأعمال، يقول العلامة الطباطبائي: «**وهذا مما يُخطِّئ به القرآن ما يعتقده اليهود من كرامتهم على الله كرامة لا تقبل عزلاً ولا تحتمل شرطاً ولا قيداً، والتوراة تعدّ شعب إسرائيل، شعب الله الذي لهم الأرض المقدسة كأنهم ملكوها من الله سبحانه ملكاً لا يقبل نقلاً ولا إقالة**»[1] ونقل الشيخ محمد جواد مغنية عن جريدة الأهرام المصرية في عددها الصادر بتاريخ: ١٩٦٨/٨/٢٣م ترجمة عن كتاب صدر في الكيان الصهيوني في ذلك العام، اسمه: «سباح لو خاميم» أي: «أحاديث الجنود» ما نصه: «**من لا يستطيع أن يقتل أو لا يدمر بيتاً وينسفه على من فيه، فالأفضل له أن يقعد في بيته. إن الحكومة الصهيونية تقوم على هذا الأساس، عندما جئنا إلى أرض فلسطين كان هناك شعب آخر يسكنها ويعيش فيها، ولم يكن لنا أن نتوقع أنه سوف يترك مزارعه وبيوته لنا بالرضا والقبول، فكان لابد أن نقتلهم لنأخذ البيت والمزرعة أو نخيفهم بالقتل لكي يهربوا ويتركوا لنا البيت والمزرعة**»[2].

وقال الشيخ محمد جواد مغنية معلقاً: «**هذه هي شريعة إسرائيل، وهذا هو هدفها: القتل والتشريد ... إنها ليست مجرد دولة كغيرها من الدول، وإنما هي عصابة مسلحة صهيونية استعمارية تهدد إلى قتل أو تشريد**

١. تفسير الميزان، العلامة محمد حسين الطباطبائي، جزء ٨، صفحة ٢١٢

٢. تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، جزء ٣، صفحة ٣٨٣

أصحاب البيوت والمزارع من النيل إلى الفرات لتحتل بيوتهم ومزارعهم»[١] ولا عزو فإنهم يتصرفون كشعب الله المختار، و أنّ الله سبحانه وتعالى قد ملّكهم الأرض المقدسة ملكاً مطلقاً لا يقبل نقلاً ولا إقالة.

وقيل: أن عبارة ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[٢] تدل ضمناً و إشعاراً على أنهم لن يخرجوا من هذا الاختبار في المستقبل بنجاح، وأنهم سيجحدون النعمة ويعصون الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم ﷺ ويظلمون الناس ويسيؤون إليهم ويفسدون في الأرض كما فعل من كان قبلهم: فرعون الطاغية وقومه المستكبرين. وقد أثبتت التجارب التاريخية والمعاصرة في العالم، بأن الكثير من الأقوام والجماعات الذين يكونون عرضة إلى الظلم والإذلال والاستضعاف في زمن ما، ثم ينتصرون ويتمكنون من السلطة والثروة والمقدرات ويملكون أسباب العز والقوة، فإنهم يمارسون بعد الانتصار والتمكن نفس ما كان يمارس ضدهم من الظلم والتمييز والإذلال والاستضعاف وربما بشكل أبشع وأفظع ضد معارضيهم والمختلفين معهم بعد الانتصار، وربما عدوا على بعضهم البعض، فقتل القوي منهم الضعيف الذي ينافسه ويختلف معه أو سجنه وعذّبه وشرّده ونحو ذلك، وهذه رذيلة أخلاقية يندى لها جبين الإنسانية ونكبة في مسيرتها التاريخية. كما أن الكثير من الأشخاص المعدمين وغيرهم، الذين يلتحقون بالحركات الجهادية والثورية والنضالية وتتكون لهم سمعة طيبة وصور جميلة، يتحولون إلى انتهازيين ونفعيين ويتخلون عن الأخلاق والفضيلة، ويتنكرون

---

١. نفس المصدر

٢. الأعراف: ١٢٩

لشركائهم في النضال والثورة ويعدون عليهم بالقول والفعل، ويتساقطون كما يتساقط الورق من الشجر في فصل الخريف، وذلك حين يتمكنون وتتاح لهم الفرصة، وهذه رذيلة أخلاقية يندى لها جبين الإنسانية ونكبة في مسيرتها التكاملية لا تقل قبحاً وبشاعةً عن سابقتها. وهذا كله يتطلب من الإنسان المؤمن والمناضل الشريف والأقوام والجماعات الجهادية الصادقة والمناضلة الشريفة: اليقظة وتفعيل أدوات النقد الذاتي والموضوعي وأدوات المراقبة والمحاسبة الذاتية والموضوعية الشعبية والرسمية، والحرص على التقوى والاستقامة على الاعتدال والطريقة الوسطى، حتى يكونون من الصالحين المرضيين عند الله سبحانه وتعالى المصلحين في الأرض، ومن السعداء الفائزين بالرضوان الإلهي والنعيم الأبدي الكامل في الآخرة، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1] أي: الذين إن حققنا لهم النصر والغلبة على أعدائهم ومكنّاهم بالحكم والسلطان وملّكناهم أسباب العز والقوة، وثبتنا لهم الأمر من غير منازع ينازعهم، وأقدرناهم على فعل ما يريدونه دون مانع يمنعهم، أحقوا الحق وأبطلوا الباطل ونشروا الخير والفضيلة ولم يشتغلوا باللهو واللعب ولم يأخذهم الكبر والغرور بعد الانتصار والغلبة كما يفعل الحمقى والسفهاء ضعفاء العقول والمنطق، وأسسوا دولة العدل ومجتمعاً صالحاً منتجاً، تؤدّى فيهما الصلاة والعبادات والشعائر التي هي الصلة بين العبد وربه بشكل فردي وجماعي وبحريةٍ تامة، وتؤدّى أداءً كاملاً صحيحاً تحقق به حكمتها وأثرها في

---

١. الحج: ٤١

الفكر والروح والضمير والسلوك والأفعال، وتوثق به الصلة الخالصة مع الله ذي الجلال والإكرام وتصلح به أحوال الأفراد والأقوام، وتؤتى فيهما الزكاة الواجبة والمستحبة التي هي الصلة بين العبد ومجتمعه، ويتجلى من خلالهما التعايش السلمي والمحبة والتضامن والتعاطف بين الناس، وتحفظ فيهما حقوق الله سبحانه وتعالى وحقوق الناس كافة، ويؤمر فيهما بالمعروف وينهى عن المنكر، وما يترتب عليهما من إقامة أحكام الله سبحانه وتعالى وشريعته المقدسة السمحة، و إقامة العدل والقسط والمساواة بين المواطنين كافة في الحقوق والواجبات، وينتشر العلم والمعرفة ويظهر الإيمان والتقوى والصلاح في الدولة والمجتمع، فالنصر لدى هؤلاء المؤمنين الصالحين وسيلة لإظهار الحق و إقامة العدل والقسط ونشر الخير والمحبة والفضيلة، وذلك لارتباطهم الوثيق بالله ذي الجلال والإكرام. وهؤلاء الذين هذه صفاتهم الحميدة هم المرضيون عند الله ﷻ، الذين يحبهم وينصرهم على أعدائهم انتصاراً و إظهاراً لدينه الحق وصراطه المستقيم. مع التأكيد على الحقيقة الوجودية المهمة جداً والحاكمة على المسيرة التاريخية التكاملية للإنسان على وجه الأرض، وهي أن لله ﷻ عاقبة الأمور، أي: أن مرجعها إلى حكمه وتقديره وتدبيره دون غيره، يصرفها كيف يشاء وفق مقتضى حكمته البالغة ورحمته الواسعة بما فيه صلاح الناس ويحقق غاية وجودهم، فهو يؤتي الملك من يشاء ويمنعه عمن يشاء، ويعز من شاء ويذل من يشاء، ويبدل الهزيمة نصراً والنصر هزيمةً لمن يشاء متى يشاء وكيف يشاء، وهنا تنبغي الإشارة إلى بعض الأمور المهمة، منها:

١. أنّ الهزيمة والانحطاط يحصلان عندما تهمل التكاليف الإلهية وتجحد النعمة ويعصى الرسول الكريم والإمام الحق عليه السلام ويعمل بالمعاصي ويحصل الظلم وينتشر الفساد في الأرض.

٢. أنّ من يحكم ويقوم بأمر الله جلّ جلاله ويؤدي ما عليه من التكاليف الإلهية والواجبات والمسؤوليات، تكون له الحالة الرشيدة والعاقبة الحميدة في الدارين الدنيا والآخرة. ومن يحكم ويتجبّر ويطغى ويظلم ويفسد في الأرض، فإن بلاده لاتعرف الأمن والاستقرار والازدهار، ونظامه لا يدوم، وله عاقبة سيئة مذمومة وغير حميدة في الدارين الدنيا والآخرة.

٣. في العبارة وعدٌ من الله عزّ وجلّ بإظهار المؤمنين الصالحين الذين يقومون بما يجب عليهم القيام به من التكاليف الإلهية والواجبات والمسؤوليات العامة، وينصرهم على أعدائهم إعلاءً لدينه وكلمته في الوقت الذي يختاره، بمقتضى حكمته البالغة وذلك حين تتوفر الشروط.

وليعلم الإنسان بأن ملك الدنيا ونعيمها إلى فناء، وملك الآخرة ونعيمها إلى بقاء، وأن ملك الدنيا بأسرها ونعيمها الفاني لا قيمة لهما في الحقيقة بالقياس إلى القليل القليل من ملك الآخرة ونعيمها الباقي، وليكن المؤمن الواعي على حذر شديد من الوقوع في شراك الدنيا والسلطة والجاه والمنصب والقوة والثروة وغيره من حبائل المعاذير المضلّة والتبريرات الباطلة ومن وساوس الشيطان الرجيم، فكثيراً ما تخدع النفس الأمارة

بالسوء ووساوس الشيطان الرجيم الإنسان، لكي يتبع أهواءه الشيطانية وشهواته ونزواته الحيوانية والملذات الحسية، فيبرران له الإقبال على الدنيا وزينتها وزخرفها وملذّاتها وفعل المنكرات وظلم الناس والجور عليهم وارتكاب الجرائم والجنايات من أجل السلطة والجاه والشهرة والمنصب والثروة ونحو ذلك، فيقتل ويسجل ويعذب ويشرّد المعارضين ويشوه سمعتهم وصورتهم أمام الرأي العام ويضيّق عليهم في معيشتهم وأرزاقهم ويرهبهم ويخوّنهم ويحرمهم من حقهم في التعبير ومن سائر حقوقهم ويميّز ضدهم ونحو ذلك من الذنوب والجرائم والجنايات، تحت عناوين براقة مضللة، مثل: المحافظة على الأمن والاستقرار في البلاد، وعلى الوحدة الوطنية والقومية ومصالح الشعب وعلى هيبة الدولة ونحو ذلك من الترّهات، وباسم القانون وتحت مظلة القضاء ومؤسسات الدولة الصورية التي تخضع لإرادة الحاكم المستبد، وهو في الحقيقة والواقع يخدع نفسه ويضلها ويضلل الآخرين ويغويهم كما يفعل الشيطان ويفعل المنكر، من أجل السلطة والجاه والشهرة والثروة والصلاحيات والامتيازات والتشريفات ونحوها، ولا ينجو من هذه الآفة والشر عند التمكّن إلا القليل القليل من خاصة المؤمنين الصالحين الأتقياء، الذين يتحلون بالبصيرة واليقين ووضوح الرؤية والصدق والإخلاص والشفافية مع النفس ومع الآخرين، واليقظة والفطنة والمراقبة والمحاسبة الدائمة للنفس على كل صغيرة وكبيرة، والصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى البلاء وفي المصائب والمحن والشدائد والنكبات، ولديهم كامل الحرص على النجاة من الهلاك والخلاص من الشقاء والوصول إلى أعلى مراتب الكمال الإنساني

المقدّر وتحصيل السعادة الحقيقية الأبدية الكاملة والفوز بالرضوان الإلهي العظيم والنعيم الأبدي الخالد في جنات الفردوس في الآخرة، ولا يؤتى ذلك إلا ذو حظ عظيم، وعليه: وجب التنبيه والتحذير معاً.

وأجزم بأن حال المستضعفين وتصرفاتهم في مرحلة الاستضعاف، تكشف بوضوح وجلاء لذي البصيرة عما ستكون عليه أحوالهم وتصرفاتهم مع المعارضين لهم بعد الانتصار والاستخلاف والتمكن من السلطة والثروة والمقدّرات وامتلاك أسباب القوة والهيمنة. فمن كان ضعيف اليقين والرؤية والبصيرة وقليل المراقبة والمحاسبة للنفس ويميل إلى التسلط على إخوانه، ويمارس الإقصاء والإيذاء بالقول والفعل لإخوانه المجاهدين المناضلين الشرفاء الذين يختلفون معه في الرأي أو المنهج أو التوجه ويظلمهم في مرحلة الاستضعاف، فهو أناني يعمل من أجل نفسه والشهرة والوصول إلى السلطة والثروة، ولا يتمتع بالصدق والإخلاص وإن تظاهر بالقدسية والتقوى وبرر أفعاله القبيحة بالواجب الديني والمسؤولية ونحو ذلك من الإدعاءات والأكاذيب، وهو في الحقيقة لا يختلف عن الذين هم في السلطة من الظالمين، وإنما يختلف عنهم في الشكل والعنوان والصفة التي يقف عليها، ولن يكون رحيماً ولا عطوفاً على الذين يعارضونه في مرحلة الاستخلاف حينما يكون في السلطة ويمتلك أسباب القوة، بل سيكون عليهم كالذئب الضاري، ولن يعفّ عن فعل من كان قبله، ولن يكون أقل سوءً وظلماً وفساداً في الأرض منهم، وقد يكون أشدّ ضراوة وأكثر تنكيلاً، وهذا ما أثبتته التجارب التاريخية والمعاصرة في العالم، هذا بالإضافة إلى إغراءات السلطة والرئاسة التي تغير النفوس وتحدث

فيها تحولات سلبية خطيرة فإن من شأنها أن تلحق بهؤلاء من لم يكن يحمل صفاتهم، وفي الحديث النبوي الشريف عن الرسول ﷺ: «**أول ما عصي الله تبارك وتعالى بست خصال: حب الدنيا وحب الرئاسة وحب الطعام وحب النساء وحب النوم وحب الراحة**»[1] وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**من أراد الرئاسة هلك**»[2].

١.الخصال، الشيخ الصدوق، صفحة ٣٣٠

٢. الكافي، جزء ٢، صفحة ٢٢٦

الفصل الرابع: آيات العذاب وهلاك فرعون واستخلاف بني إسرائيل

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[1].

---

١. الأعراف: ١٣٠-١٣٧

ابتلاء آل فرعون بالقحط والجدب ونقص الثمرات

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

أمر الله جلّ جلاله ورسوله الكريم موسى بن عمران الكليم عليه السلام أن يذهب إلى فرعون الطاغية ويدعوه إلى الحق والإيمان بالتوحيد الحقيقي لرب العالمين، وأن يقوم في الناس بالقسط والعدل، وأن يظهر الحق وينشر الخير والمحبة والفضيلة بين الناس، ويعطي الناس لا سيما المستضعفين حقوقهم الطبيعية في الحياة، وهي الحقوق الأساسية التي تنبع من الحقيقة الإنسانية وتلازمها ولا يجوز انتقاصها ولا التنازل عنها بأي حال من الأحوال وفي أي ظرف من الظروف؛ لأن انتقاصها يعني انتقاص الإنسانية نفسها، والتنازل عنها يعني التنازل عن الإنسانية والكرامة الإنسانية.

وقد أمر الله جل جلاله رسوله الكريم موسى الكليم عليه السلام أن تكون دعوته لفرعون باللين والكلام الطيب اللطيف، وذلك برجاء أن ينفتح قلبه لقبول الحق وعقله لقبول الحجة والمنطق السليم، ولئلا تتحرك الدفاعات النفسية التي تستفزها الكلمات العنيفة في الخطاب فتتعكر الأجواء وتضيع الحجة والمنطق.

إلا أن فرعون الطاغية لم يستفد من ذلك ولم ينتفع منه، فكابر وجادل في الحق بالباطل، فأمر الله جلّ جلاله رسوله الكريم موسى الكليم عليه السلام أن يظهر ما لديه من المعجزات، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان حقيقي عظيم، وأدخل يده السمراء في جيبه ثم أخرجها فإذا هي بيضاء في

غاية الحسن والجمال وتشع نوراً كالشمس الساطعة. إلا أن فرعون لم يسلم وكابر الحق وخرج على المنطق، ورمى موسى الكليم عليه السلام بالسحر واتهمه بالكذب والتنكر للأخلاق ونعمة التربية مما يجعله غير مؤهل في نظره لحمل رسالة من إله عظيم إلى الناس، واتهمه كذلك بالتآمر على النظام والدولة والحكومة والملك، ودعاه إلى المبارزة مع السحرة لإثبات كذب ادعائه للنبوة والرسالة، فقبل موسى الكليم عليه السلام المبارزة، فجمع فرعون كبار السحرة المحترفين المهرة وأكثرهم معرفة بالسحر ومهارة فيه من جميع المناطق والأنحاء في مصر، وحدثت المبارزة وانتصر موسى الكليم عليه السلام على السحرة انتصاراً باهراً ظاهراً مبيناً، وثبت بهذا الانتصار حقيقة ما جاء به موسى الكليم عليه السلام وأنه ليس من السحر ولا مشابه له، بل هو آية كبرى ومعجزة عظيمة لا يقدر على مثلها إلا رب العالمين الذي يتمتع بقدرة مطلقة فوق الطبيعة وفوق البشر، مما يدل على صدق نبوة موسى الكليم عليه السلام وصدق رسالته. وقد أدرك السحرة بخبرتهم الواسعة في السحر ومعرفتهم بدقائق أسراره وخباياه وخفاياه هذه الحقيقة بجلاء ووضوح وعلموا بها علم اليقين بدون لبس أو غموض أو شك، وخضعوا إليها وسلموا بها وأعلنوا إيمانهم صراحة وبشجاعة منقطعة النظير أمام الجماهير المحتشدة في الميدان وبحضور فرعون وملئه ومعاونيه وأنصاره وكامل جهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري والفني، إلا أن فرعون الطاغية وملأه المستكبرين لم يقتنعوا ولم يسلموا، وبدلاً من ذلك اتهموا السحرة بالتآمر والتواطئ مع موسى الكليم عليه السلام على الملك والدولة والنظام، والسعي لقلب نظام الدولة بالحيلة والخديعة، وإخراج

الأقباط - وهم قوم فرعون - من أرضهم وديارهم ووطنهم، من أجل أن يستأثر موسى الكليم عليه السلام وقومه الإسرائيلين والمؤمنين به بالسلطة والثروة والمقدّرات، هذا مع أن فرعون الطاغية هو الذي جمع السحرة المحترفين المهرة الموالين له والقائلين بإلوهيته من جميع المناطق والأنحاء في مصر بواسطة ضباط وجنود الجيش التابعين والموالين له، وأن موسى الكليم عليه السلام لم يلتق بالسحرة بتاتاً قبل موعد المبارزة في الميدان المخصص لها في الصحراء، وقد أنزل فرعون بالسحرة أشدّ العقوبات انتقاماً منهم لإيمانهم بالتوحيد والمعاد والتصديق بنبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام ورسالتهما من رب العالمين إلى الناس، ولم يكتف بذلك، بل قصد بني إسرائيل بأبشع وأقسى أنواع الظلم والإذلال والاستعباد والاستضعاف، وهو قتل الأبناء الذكور والإبقاء على البنات من أجل الخدمة والمتعة الجنسية؛ وذلك لإضعافهم بالقضاء على القوة الضاربة فيهم وهم الأبناء، والانتقاص التدريجي منهم بتقليل التناسل عن طريق التفريق بين الرجال والنساء، ولإذلالهم وقتل روح النخوة والغيرة فيهم بما يُفعل في نسائهم وبناتهم. و إزاء ذلك أمر الله الحكيم الكريم بني إسرائيل بالصبر والتقوى والاستقامة على الطريقة الوسطى والصراط المستقيم، والثقة بوعد الله عز وجل والتوكل عليه، ونهاهم عن اليأس والقنوط والجزع والفزع والخنوع والخضوع لإرادة فرعون الجائرة، ووعدهم -إن هم امتثلوا لما أمروا به- أن يهلك عز وجل فرعون وجنوده، وينجي بني إسرائيل ويخلصهم من ظلمه وجوره وشره وطغيانه مع قومه، وأن يستخلفهم في الأرض بدلاً منهم. ثم قصد الله عز وجل فرعون وقومه بالتحذير والتنبيه، فابتلاهم بالبأساء والضراء وتوالي المصائب،

فأصابهم القحط العام والجدب الشديد في جميع الأراضي والبلدان، ونقص الثمرات: الفواكه والخضار والأموال والأولاد بقلة إنتاجها قلة غير معتادة لهم وضيق المعيشة، عن طريق قلة الماء والمطر، وكثرة الآفات والأوبئة القاتلة، التي أصابت النبات والدواب والذرية، وذلك وفقا للسنة الإلهية في تنبيه الأقوام المعاندين وتحذيرهم وتربية الأمم وتأهليهم، وقيل: كان القحط لباديتهم وأهل مواشيهم لقلة الأمطار والمياه، ونقص الثمرات لمدنهم ولقراهم لكثرة الآفات والعاهات والأوبئة. وكانت مصر بلداً زراعياً خصباً وكانت تفيض بالعطاء وسعة الرزق ورحابة العيش وكثرة الذريّة، ولهذا فإنّ الجدب ونقص الثمرات عاد بالضرر البليغ على جميع الطبقات، وأثّر على مجمل الأوضاع، إلا أنّ الخطاب خصّ أقرباء فرعون ملّاك منتوجها وخاصته، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾[1] لأنهم ملّاك الأراضي وانتاجها غالباً، كما هو الحال في جميع الأنظمة الدكتاتورية والحكومات المستبدّة، إذ تسيطر عائلة الحاكم وأقرباؤه على مصادر الثروة والمناصب والمقدّرات في البلاد، وعليه: كانوا أكثر المتضررين، كما أنّ أزمّة الأمور ومقاليدها بأيديهم، لهذا كانوا أكثر المتضامنين معه، للمصالح المشتركة ووحدة المصير، وعليه: كان من المهم أن ينبّهوا بشكل خاصٍ ليستيقظوا من غفلتهم وتصحوا ضمائرهم ويعودوا إلى رشدهم ويقوموا بمراجعة الأمور وفق المعايير العقلية والمبادئ الإنسانية السامية والقيم الأخلاقية الرفيعة والمصلحة العامة، لكي تصلح الأمور والبلاد والعباد بشكل سلمي وبأقل الخسائر المادية والبشرية والمعنوية، لو كانوا يعقلون.

---

١. الأعراف: ١٣٠

وقد أنزل الله جلّ جلاله هذا البلاء العظيم على آل فرعون، لكي ترقّ قلوبهم وتصحوا ضمائرهم بالشدائد والمصائب والمحن، فينتبهوا من غفلتهم، وتستيقظ في نفوسهم فطرة التوحيد المتكلسة تحت حجاب الغرور بالسلطة والقوة والثروة والغفلة في ظل رغد العيش والرفاه والشعور بالأمن والأمان، ويعودوا إلى عقولهم ورشدهم وضمائرهم ويحاسبوا أنفسهم ويراجعوا حساباتهم العامة في الحياة، ويعلموا أنّ سوء أحوالهم وأوضاعهم وما نزل بهم من المصائب والشدائد والمحن، هي بسبب إصرارهم على العناد والكفر والتكذيب بآيات الله تبارك وتعالى ومعجزاته النيّرات الباهرات وبيّناته الواضحات الزاهرات وأعمالهم القبيحة المذمومة السيئة، وأنها ابتلاء عظيم من الله ﷻ لهم، ولكي يدركوا في ضمائرهم وأعماق أرواحهم بأنهم ضعفاء عاجزون أمام قدرة الله ﷻ جبار السماوات والأرض وأمام جنوده في عالم الطبيعة، مثل: الجدب والقحط والآفات والأمراض ونحوها، وجنوده في عالم الغيب والملكوت وهم الملائكة الأشدّاء المقربون الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون، ويحسّوا بالحاجة إليه، ويتيقنوا بأن لا ملجأ ولا منجى لهم إلا بالعودة إليه، فيفزعوا إليه ويوحدوه ويرغبوا فيما عنده ويخافوه وحده لا شريك له ولا يخافوا غيره ولا يلجأوا ولا يفزعوا إلى غيره من البشر أو من غيرهم، ويستجيبوا إلى دعوة الحق والتوحيد ويؤمنوا بالنبوة والمعاد ويصدّقوا بآيات الله ﷻ ومعجزاته وبيّناته ويتبعوا رسوله الكريم عليه السلام ويقتدوا به، ويتراجعوا عن غوايتهم وعن الكفر والظلم والجور والطغيان والفساد، إلى ساحة الإيمان والطاعة والعدل والأخوة والمحبة والإنصاف والإحسان والخير والفضيلة

والاجتهاد في العطاء بغير حدود، وإرجاع كافة الحقوق إلى أصحابها؛ وذلك لأن الناس يكونون حال الشدة، أضرع خدوداً وألين أعطافاً وأرقَ أفئدةً، ويكونون في حال الرفاه والرخاء والشعور بالأمن والأمان في غفلة، ويصابون بالغرور والطغيان والميل إلى العدوانية على الغير، فإذا نزلت عليهم المصائب والمحن والشدائد، رقّت قلوبهم وأدركوا ضعفهم وعجزهم وعادوا إلى فطرتهم ورشدهم وراجعوا أنفسهم وأعادوا حساباتهم، ويكونون في العادة أكثر استعداداً لقبول الحق، وربما صلحت أنفسهم إلى حينٍ أو أبداً؛ لأن حقيقة التوحيد والميل إلى الحق والعدل والخير والفضيلة والكمال، مغروسة في أعماق نفوسهم بالفطرة، وأن الترف والبذخ وغرور السلطة والقوة والمنصب والثروة والتربية الخاطئة تسترها، فإذا نزل بهم البلاء وأصابتهم شدة نفضت عنها الغبار وأعادتها إلى نقائها وصفائها الأول الذي كانت عليه في أصل فطرتها وخلقتها، فيعود الإنسان إلى الله ربه ذي الجلال والإكرام، الذي هو مرجع التدبير وأصل جميع النعم ومصدرها، ويخضع إليه ويسلم إلى أمره ونهيه وإرادته، ويطلب منه الصفح والعفو والغفران، قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا

مَرجِعُكُم فَنُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم تَعمَلونَ﴾[١].

إلا أن البعض من الناس يشتدّ انحرافهم عن الفطرة وفساد طبعهم إلى درجة أنهم يلجأون إلى غير الله سبحانه وتعالى في ساعة العسرة ونزول البلاء يطلبون منهم النصرة والغوث والنجاة، بحجة أنهم يملكون السلطة والقوة والثروة والجاه والمنصب ونحو ذلك؛ وذلك لأنهم لا يرون إلا المادة وعالم المادة ولا يرون ما وراءها، وقد يفسر بعضهم الظواهر في اليسر والعسر والشدة والرخاء والضيق والسعة تفسيراً مادياً بحتاً، يقدح في آيات الله سبحانه وتعالى ويطعن في دلالاتها الربانية، غافلاً عن قدرة الله ﷻ و إرادته وتدبيره، وعن غاية خلق الإنسان وحقيقة وجوده وتكوينه، وهؤلاء لهم سوء العاقبة حتماً وطبعاً.

ولفظ (لَعَلّ) في عبارة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُون﴾[٢] يفيد الرجاء، بمعنى مرجوُ تذكرهم؛ لأن الابتلاء والمصائب والمحن والشدائد والأضرار التي وقعت عليهم ونزلت بساحتهم المقارنة لتذكير موسى الكليم عليه السلام لهم بالتوحيد وتحذيرهم من سوء العاقبة في الدارين الدنيا والآخرة، من شأنها أن يكون أصحابها الذين حلّت بهم ونزلت عليهم مرجوُ منهم أن يتذكروا بما هم عقلاء وأصحاب ضميرٍ حي و وجدان فعّال. ولقد كان الله سبحانه وتعالى عالم بأنهم في الحقيقة والواقع لن يتذكروا ولن يعودوا إلى رشدهم ويتراجعوا عن غيّهم وغايتهم وضلالهم، لشدة تعلقهم بعالم الدنيا والمادة واستغراقهم

١. يونس: ٢١-٢٣

٢. الأعراف: ١٣٠

في المصالح الدنيوية الفانية وضعف منطقهم وشدة غفلتهم وفساد فطرتهم وطبعهم، ولكنه سبحانه وتعالى أراد الإملاء لهم واستدراجهم و إقامة الحجة التامة البالغة عليهم ولئلا تكون إليهم حجة على الله ﷻ.

وما سبق يدلّ على مدى الحكمة الإلهية والرحمة الواسعة بالعباد، فإنّ الله جلّ جلاله لا يستعجل بالعقوبة، ويمهل المعاندين ويعمل على هدايتهم، فقد أعطاهم العقل للتمييز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الفضيلة والرذيلة، وبين الصلاح والفساد، ونحو ذلك، ودعّمه بالفطرة والطبع، وسنده ببعث الأنبياء والرسل الكرام عليهم السلام و إنزال الكتب السماوية، وعززه بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وأعطاهم الإرادة من أجل الاختيار وتقرير المصير، وأمدّهم بالقوة والقدرة من أجل العمل، ويرسل الآيات وينزل البلاء من أجل إيقاظهم وتنبيههم، وذلك كله بغية نجاتهم من الهلاك والشقاء الأبدي، والسير بهم في طريق الكمال المقدّر إليهم وتحصيل السعادة الحقيقية الأبدية الكاملة والنعيم المقيم الخالص الذي لا زوال له ولا اضمحلال في الآخرة، وفي الآية تنبيه لجميع الناس بأن ينظروا فيما يحيط بهم وأن ينتبهوا لما يأتيهم من دلائل غضب الله ﷻ وسخطه، ومنها: سلب النعم المادية والمعنوية المنعم بها عليهم.

تفسير آل فرعون الخاطئ للابتلاء

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا

إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

صيغة الجمع في لفظ: ﴿بِالسِّنِينَ﴾[١] يفيد بأنّ الله ﷻ قد ابتلى آل فرعون بالقحط والجدب والأمراض والآفات ونقص الثمرات لسنوات عديدة؛ لأن الابتلاء لو كان لسنة أو سنتين، لم يؤت ثماره المرجوة إلا أنه لم يكن متواصلاً و إنما كان منقطعاً، سنة جدب وضيق وسنة خصوبة وسعة؛ وذلك رحمة من الله تبارك وتعالى بالعباد، ولإعطاهم فرصة للتأمل والتدبّر والمراجعة والاتعاظ، إلا أنهم كانوا من أسوء خلق الله سبحانه وتعالى حالاً، فلم يستوعبوا الدرس الإلهي البليغ جداً لهم، ولم تنفتح عقولهم وقلوبهم على الحقائق والمعجزات والبينات، ولم يتفكروا ويتأملوا فيها جيداً، ولم يستفيدوا من الأدلة المنطقية الصحيحة والمواعظ النبوية البليغة النافعة، ولم ترقّ قلوبهم وتصحوا ضمائرهم لما نزل بهم من الشدائد والمصائب والمحن والنكبات، فلم يتراجعوا عن كفرهم وباطلهم وغيّهم وبغيهم وضلالهم وطغيانهم وفسادهم، ولم يعودوا إلى الإيمان والحق والهدى والطاعة والرشاد، وأصروا على ما هم عليه وعاندوا الآيات والبيّنات والأدلة والبراهين واستكبروا استكباراً، وقلبوا الحقائق رأساً على عقب، وفسروا ما حدث تفسيراً مادياً تعسفياً على حسب أهوائهم وأمزجتهم وما ترضيه شهواتهم ويوافق مصالحهم الدنيوية الفانية، بعيداً عن الحقائق الواقعية الكونية والاجتماعية والتاريخية، بعيداً عن العقل والمنطق والاستدلال الصحيح، وكانوا في حالة سيئة جداً، فإذا جاءتهم الحسنة والنعمة المعتادة لهم، مثل: المنصب والرخاء والرفاه والصحة في البدن والسلامة

١. الأعراف: ١٣٠

في النفس والأمن وكثرة المال والثمار وصلاح الحال والسعة في الرزق ورغد المعيشة، عاشوا في راحة واستقرار، وقالوا في غطرسة وشموخ واستعلاء في الأرض بغير الحق: نحن دون غيرنا نستحق هذه الحالة الحسنة والوفرة في الإنتاج والبذخ والرفاهية ومختصون بها على جاري العادة في بلادنا، أي: أنهم يميزون أنفسهم عن غيرهم، ويعتقدون بأنّ لهم استحقاقاً وأهلية في ذاتهم ليست لغيرهم، ويرون أن الوضع الحسن الموافق لرغباتهم، هو بسبب جدارتهم واستحقاقهم وأهليتهم وحسن إدارتهم وتدبيرهم للأمور ولأوضاعهم في بلادهم، وليس لأحد غيرهم فيه فضل عليهم، فلم يتذكروا، وكفروا بفضل الله تبارك وتعالى المنعم عليهم، فلم يشكروه، بل ازدادوا كفراً وطغياناً وغروراً وفساداً في الأرض. وإن نزلت بهم سيئة أو مصيبة نادرة، مثل: القحط والجدب والآفات والعاهات والأمراض ونقص الثمرات وغلاء الأسعار والضيق في الرزق والمعيشة والجوع والخوف ونحو ذلك من البلاء، تشاءموا من موسى الكليم عليه السلام ودينه ودعوته والذين آمنوا معه، وحمّلوهم المسؤولية التامة الكاملة عن المصائب التي نزلت بهم وحلت بساحتهم؛ لأنهم خرجوا على الدين الرسمي ونظام الدولة والقانون، وأخلوا بالأمن والاستقرار وأدخلوا الفوضى إلى البلاد، وعطّلوا عجلة التنمية والحياة، وأضروا بمصالح الشعب، وتسببوا في الفرقة وخرّبوا الوحدة الوطنية والقومية والنسيج الاجتماعي. وقد تجاهل آل فرعون في هذا التفسير التعسفي ما هم عليه من الباطل والكفر والضلال والظلم والطغيان والاستئثار بالسلطة والثروة والمقدّرات، والتمييز بين المواطنين الأقباط والإسرائيليين في الحقوق والواجبات وأمام القانون، وهضم حقوق

الإسرائيليين واستضعافهم وإذلالهم، ونحو ذلك من المظالم والأعمال السيئة المشؤومة.

والتشاؤم: عد الشيء شؤوماً، بحيث يكون وجوده سبباً في وجود ما يحزن ويضر، وعليه: فقد اعتبروا ما حلّ بهم من المصائب ونزل بساحتهم من البلاء، هو بسبب وجود موسى الكليم عليه السلام ودينه ودعوته والذين آمنوا به وساروا في طريقه واتّبعوا دعوته؛ لأن آل فرعون كانوا يعتقدون بتفوقهم وتميزهم في أنفسهم، وفي غاية التعلق بالنظام الفرعوني لارتباطه بهويتهم ومصالحهم الخاصة، ويرون أنهم إن حافظوا عليه كانوا في سعادة وسعة رزق ورغد عيش ورفاهية وتميّز، ووجود من يخالفه ويعمل على هدم بنيانه، يسلبهم جميع ذلك ويكون سبباً في حلول المصائب بهم وظهور المشاكل في أوضاعهم والإضرار بمصالحهم وامتيازاتهم الخاصة.

وتطيرهم بموسى الكليم عليه السلام ودينه ودعوته والذين آمنوا به واتبعوه في الحال السيئة، يدل على اعتبارهم الحسنة واعتبارهم السيئة بدعاً وحالاً غير مألوف لهم، وعليه: حملوا موسى الكليم عليه السلام ودينه ودعوته والذين آمنوا معه واتبعوه المسؤولية التامة الكاملة عمّا حلّ بهم من المصائب ونزل بساحتهم من البلاء، وهو صحيح ولكن بخلاف الوجه الذي فهموه، أي: أن ما حلّ بهم من مصائب ونزل بساحتهم من البلاء هو بسبب إصرارهم على الكفر، وعدم إيمانهم بما جاء به موسى عليه السلام من الحق من عند رب العالمين وأمام الدليل القاطع على صدقه، ولو لم يأتهم موسى الكليم عليه السلام بما جاءهم به لم تحل بهم المصائب ولم ينزل بساحتهم البلاء؛ لأن

الحجة لم تتم عليهم، ولو أنهم كانوا واقعيين ومنصفين ولم يزعموا ويرتكز في نفوسهم بأنهم مخصوصين بالنعمة والرفاه، وأنّ لهم تميز عن غيرهم وتفوق في أنفسهم لا لشيء إلا لأنهم يتحكمون في رقاب العباد، ولو تنبهوا إلى حقيقة كفرهم وضلالهم وطغيانهم وسوء أعمالهم وما تجلبه بطبيعتها من المصائب والمحن والعذاب الشديد، لعرفوا الأسباب الحقيقية لما حلّ بهم من المصائب، ولحاسبوا أنفسهم وسعوا إلى صلاح أنفسهم و إصلاح أحوالهم لتجنب المصائب والشدائد والنكبات، ولما تطيروا بموسى الكليم عليه السلام ودينه ودعوته والذين آمنوا معه، ولما حملوهم المسؤولية عمّا حلّ بهم من المصائب والشدائد، ولعلموا بعدالة قضيتهم وشرعية مطالبهم الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية، ولأنصفوهم من أنفسهم. إلا أن عادة الغافلين الأنانيين الغارقين في ذواتهم المتضخمة ومصالحهم الخاصة ودأبهم، أن لا يبصرون غير أنفسهم ومصالحهم، ولا يشعرون بآلام الآخرين وأوجاعهم، وينصرفون عن رؤية الواقع والأسباب الحقيقية إلى فرض رؤيتهم الخاصة التي تبرر أفعالهم ومصالحهم. وهم بغية قلب الحقائق، يعتبرون كل نجاح وتقدم ناشئاً عن جدارتهم وكفاءتهم و إن لم يكن لهم فيه أدنى دور فعلي، مباشر أو غير مباشر ويعفون أنفسهم دائماً من المسؤولية عن الأخطاء والتقصير والفشل والأوضاع السيئة؛ لأنهم فوق ذلك وفوق أن يحاسبوا، وينسبونها إلى الآخرين ويحملونهم المسؤولية عنها ويتهمونهم بالتآمر والعمالة ونحو ذلك من الاتهامات الباطلة التي لا أساس لها والتي تعودنا سماعها من الأسطوانات المشروخة و إعلامهم المهووس، ويحاسبونهم عليها ويعاقبونهم بها على خلاف العدل والعقل والمنطق والضمير التي لا

يؤمنون بشيء منها ولا يقيمون لها وزناً من أجل تبرئة أنفسهم ودفع التهمة عنهم، وهم بسبب حجاب الغفلة والغرور والاستغراق في عالم المادة والمصالح الخاصة لا يبصرون حقائق الأمور، ولا يفقهون حجة أو برهاناً أو ينتفعون بموعظة أو نصيحة صادقة، ويجهلون السنن الإلهية، ويظنون بأنّ أعمالهم السيئة وما تجنيه أيديهم الآثمة من الأفعال القبيحة تفوت وتزول ولا ترتد عليهم، والحقيقة أنها محفوظة عند الله ﷻ: ﴿فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[1] وأنّ ما يصيبهم من الخير ومن الشر هو من عند الله سبحانه وتعالى وبقدره ويجري على وفق حكمته ومشيئته وبسبب أعمالهم، وقد وعدهم الله ﷻ بالعقاب الشديد على أعمالهم السيئة في الدارين الدنيا والآخرة، أي: إنّ ما حلّ بهم من المصائب والشدائد والمحن والنكبات، وما نزل بساحتهم من البلاء، هو عقاب من الله ﷻ على كفرهم وغيّهم وضلالهم وسوء أعمالهم وقبيح أفعالهم، وليس من عند موسى الكليم عليه السلام والذين معه أو من عند غيرهم من المخلوقين، وأن نسبة الخير والشر إلى غير قدرة الله سبحانه وتعالى وتدبيره ومشيئته، هو من الجهل والخرافة، ولا علاقة لها بالحقيقة والواقع، وهذه حقائق ثابتة بيّنة واضحة لكل ذي عقلٍ وبصيرة ومنطق سليم. إلا أنّ منطق هؤلاء الظلمة الجاحدين للحق والمعروف، منطق أعوج غير مستقيم، تتجلى فيه الغفلة والأنانية والجهل والعزلة عن الواقع وعدم الإنصاف، فهم يتجاهلون الحقائق الكونية والاجتماعية والتاريخية، ودور الخالق وتدبيره، ودور عالم الطبيعة والبناء الاجتماعي والسياق التاريخي للأحداث والأوضاع، ودور

---

١. طه: ٥٢

الفقراء والعمّال وسائر الفئات والطبقات، وتنعدم فيه الرؤية الصحيحة الصائبة للأوضاع والأحداث وأسبابها ومسبباتها القريبة والبعيدة، المباشرة وغير المباشرة، وفرصة المراجعة والتصحيح، فحالهم بين الكفر بالنعمة وبين الظلم للآخرين وهضم حقوقهم، وعلى ضوء هذه النظرة الخاطئة والمنطق المعوّج والسلوك المنحرف، تسير الأوضاع والمواجهات بين النظام والمعارضة من سيء إلى أسوء، بدلاً من أن تسير نحو التهدئة والأحسن، حتى ينتهي الأمر حتماً في نهاية المطاف إلى هلاك الظالمين والبقاء على نظامهم الفاسد ودولتهم المشؤومة وشقائهم في الدارين الدنيا والآخرة.

وقيل: تعريف الحسنة بلام الجنس في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾[1] فيه إشارة إلى أن خير الطبيعة، مثل: الخصب والصحة والأمن والسلامة كثير، وهو كالواجب والأصل الثابت لكثرته واتساعه، فالنعم كثيرة الحصول تأتيهم متوالية متتابعة بحسب العادة في بلادهم. وتنكير السيئة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾[2] فيه إشارة إلى أن شرّ الطبيعة، مثل: القحط والجدب والآفات والمرض والخوف والقتل وكوارث الطبيعة قليل بالقياس إلى الخير، وأنه اتفاقي وغير مألوف الحصول عندهم، على أنه على قسمين:

أ. بعضه بسبب الأعمال السيئة للإنسان، قول الله تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ

---

١. الأعراف: ١٣١

٢. نفس المصدر

فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١] أي: ظهرت المصائب والمحن والشدائد والنكبات وانتشرت البلايا في البر والبحر مثل الزلازل والبراكين والأعاصير والعواصف المدمرة والسيول الجارفة والفيضانات الغامرة والقحط الشديد والجدب والأمراض والآفات والعاهات الغريبة والأوبئة وغلاء الأسعار وضيق المعيشة والحروب الطاحنة وفقدان الأمن والاستقرار وظهور الخوف والجوع ونحو ذلك، بسبب ما كسبت أيدي الناس الآثمين من الشرك والمعاصي والذنوب، أي: بين أعمال الناس السيئة وبين ما يحل بهم من المصائب والمصاعب والشدائد والبلايا رابطة وصلة وثيقة؛ ليذيقهم الله ﷻ عقاب بعض أعمالهم السئية في الدنيا، برجاء أن ترقّ قلوبهم، ويتعظون ويرجعون إلى رشدهم ويتوبون إلى الله سبحانه وتعالى، ويتحولون من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم، فيجب عليهم أن ينتبهوا إلى ذلك جيداً ويعرفوه حق معرفته.

ب. بعضه يحدث بمقتضى قوانين عالم الطبيعة ومن لوازم عالم الإمكان المحدود وتزاحماته، إلا أن خيره في النظام الكوني العام أكثر من شره، فهو لا يخالف الحكمة الإلهية، وله دور فعّال وبالغ في تنمية طاقات الإنسان واستعداداته ومواهبه وقدراته ورقيه، والوصول به إلى كماله اللائق به والمقدّر له.

---

١. الروم: ٤١

وقيل: عبّر في جانب الحسنة بالمجيء، قوله: ﴿جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾[١]، لأن حصول الحسنة كثير ومألوف ومرغوب فيه، فهم يترقبونه كما يترقب الأهل مجيء المسافر، وعبّر في جانب السيئة بالإصابة، قوله ﴿تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾[٢] لأن حصول السيئة قليل وفجأة دون رغبة فيها ولا ترقب لها.

وقيل: جيء في جانب الحسنة بإذا الشرطية، قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾[٣] لأن الغالب في (إِذَا) الدلالة على اليقين بوقوع الشرط أو ما يقرب من اليقين، ولذلك غلب أن يكون فعل الشرط مع (إِذَا) فعلاً ماضياً لكون الماضي أقرب إلى اليقين في الحصول. وجيء في جانب السيئة بحرف إن، قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾[٤] لأن الغالب أن تدل (إِن) على التردد والشك في وقوع الشرط، ولكون الشيء نادراً أو قليل الحصول غير مجزوم بوقوعه ومشكوك فيه.

نقض القرآن الكريم لتفسير آل فرعون للابتلاء

تهرّب آل فرعون من تحمّل المسؤولية عمّا أصابهم وأصاب قومهم من البلاء الشديد وما حلّ بهم من المصائب والشدائد والنكبات، وحملوا موسى الكليم عليه السلام ودينه ودعوته والذين آمنوا به واتبعوه المسؤولية الكاملة عن كل الذي حدث إليهم، وهذا منطقٌ أعوجُ غير واقعي، وقلب صريح

---

١. الأعراف: ١٣١

٢. نفس المصدر

٣. نفس المصدر

٤. نفس المصدر

وواضح للحقائق، وانفصال عن الواقع، وعجز عن مواجهته والتغلب عليه. فقد تجاهلوا الأسباب الواقعية الفعلية للمشكلة، وجعلوا ما ليس بسببٍ سبباً، وجعلوا ما هو سبباً لتفادي المشكلة وطريقاً لحلها سبباً لها!! وقد ردّ عليهم القرآن الكريم ونقض تفسيرهم وبيَّن وأثبت:

أ. أن مرجع كل خير وشر إلى تدبير الله ﷻ الذي تنتهي إليه جميع الأسباب، والذي يجريه بمقتضى حكمته ومشيئته، فهو الذي يشاء كل ما يصيبهم من الحسنة والسيئة.

ب. أن منشأ كل مصيبة تحل بهم وكل بلاء ينزل بساحتهم هو تدبير الله ﷻ الذي يجريه بمقتضى حكمته ومشيئته، وسببه كفرهم وضلالهم، وأفكارهم المنحرفة عن الدين الإلهي الحق وأخلاقهم القبيحة، وأعمالهم السيئة المشؤومة، وهو ما وعدوا به من العقاب في الدنيا على أعمالهم، وما تجنيه أيديهم من الذنوب والمعاصي والآثام، فليس هو من عند موسى الكليم عليه السلام، ولا من عند غيره من المخلوقين أبداً؛ لأن الصلة قائمة ووثيقة جداً بين الأفكار والأخلاق والأعمال وبين الأوضاع القائمة في المجتمع الحسنة والسيئة، وهناك قوانين عامة صارمة تحكم هذه العلاقة والصلة، وهي من تدبير الله ﷻ، وتخضع لإرادته ومشيئته، ولا تخرج عنهما قيد شعرة لا أقل ولا أكثر، وهو العالم بكل صغير وكبير من أحوالنا الفكرية والروحية والنفسية والسلوكية، والعالم بجميع أفعالنا وحركاتنا وسكناتنا.

وعليه: فكل ما يكون في المجتمعات من أوضاع حسنة أو سيئة هي

من تدبير الله ﷻ، الذي تنتهي إليه جميع الأسباب، وقد حذرنا الله ﷻ من عواقب الكفر والمعصية والبطر. وأن التطير جهل وخرافة لا علاقة له بالمنطق السليم والحقائق الكونية، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[1]، أي: أن سنة الله ﷻ في التدبير لمسيرة الإنسان التاريخية التكاملية، قد جرت على أنه لا يغير ما بقوم من الأوضاع العامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الحسنة أو السيئة، حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأفكار والأخلاق والحالات الروحية، وما يصدر عنهم من الأعمال والعلاقات الصالحة والطالحة، فلا يغير النعمة والعافية وسعة العيش والأمن إلى النقمة والبلاء والضيق والخوف، حتى يغيروا الإيمان إلى الكفر، والطاعة إلى المعصية، والشكر إلى البطر والجحود.

ولا يغير ما بهم من الشقاء والضيق والبلاء والحزن والخوف إلى السعادة والسعة والعافية والغبطة والبهجة والسرور والأمن، حتى يغيروا الكفر إلى الإيمان، والمعصية إلى الطاعة، والبطر والجحود إلى الشكر. يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «**ما من شك أن الله لا يغير ما بنا من جهل حتى نبني المدارس والجامعات والمختبرات، والله لا يغير ما بنا من فقر حتى ننشئ المزارع، ونقيم المصانع، والله لا يغير ما بنا من ذل وهوان وعبودية حتى نتفق قلباً واحداً، ونجاهد يداً واحدةً ضد كل معتد أثيم، والله لا يغير ما بنا من شتات حتى نتحرر من الأغراض والشهوات**»[2].

١. الرعد: ١١

٢. التفسير المبين، محمد جواد مغنية، صفحة ٣٢٢

وإذا أراد الله ﷻ بقوم سوءاً وعذاباً وشدةً وضيقاً وهلاكاً، فإن إرادته نافذة فيهم، ولا منجي يستطيع أن ينجيهم ويمنعهم مما أراده الله ﷻ بهم؛ لأن لا مدبر في العالم غيره، ولا مؤثر بدون إذنه وإرادته، ولا يجري شيء على خلاف مشيئته، ولا أحد يستطيع أن يغير أو يمنع أي شيء مما يريد، فلا ولي لهم يستطيع أن يرفع عنهم السوء فيلجؤون إليه غيره.

وعليه: فليحذروا من الإقامة على ما يكره من الكفر والمعصية والبطر ونحوها، حتى لا يحل بهم ما لا يرد عن القوم الظالمين المجرمين من الهلاك والشقاء.

وبناءً على ما سبق: إذا وجدنا سوءاً في أوضاعنا الأمنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها، فعلينا أن نبحث فوراً عن نقاط الضعف والانحراف في داخل أنفسنا، في أفكارنا وحالاتنا الروحية والأخلاقية، وفي أعمالنا ومعاملاتنا مع الآخرين، ونتطهر من كل عيب ورجس، وكل ما هو سيء وقبيح، حتى تتحسن أوضاعنا وتتغير نحو الأفضل، وأن نحذر من الهروب إلى الأمام، ونلتف وندور في الطرق الملتوية، ونلقي بالمسؤولية على الآخرين، وفقاً لما يعرف بعقدة المؤامرة أو أن نلجأ إلى القوة والعنف ضد الأبرياء والضعفاء الذين يطالبون بالحقوق والإصلاح والتطوير، فإن ذلك كله خلاف الحكمة والشجاعة الأدبية والأمانة مع النفس ومع الآخرين، وطريق إلى الفشل والضعف، وتعزيز الانحراف والتخلف والانحطاط. وأن الطريق إلى السلام والأمن والاستقرار والتنمية، هو العدالة والمساواة، وإزالة الشعور بالغربة والغبن والمظلومية

في المجتمع، وتعزيز الشعور بالوحدة والانتماء على هذا الأساس.

غير أن الفراعنة المتجبرين، والحكام المستبدين، والمتربصين المستغلين، والانتهازيين الأنانيين، والنفعيين الفاسدين، الغارقين في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية الأنانية، يجهلون هذه الحقائق وأخواتها، ويجهلون آثارها ونتائجها، ويتوهمون أن أعمالهم السيئة تفوت وتزول ولا ترجع عليهم بشيء، ولا علاقة لها ولا صلة ولا رابطة بما حل عليهم من المصائب والمصاعب والشدائد والمحن والبلايا، ويتوهمون بأن إلقاء المسؤولية عن أخطائهم وتقصيرهم على الآخرين ومحاسبتهم عليها ومعاقبتهم بها، واللجوء إلى العنف والقوة والإرهاب ضد الأبرياء والمصلحين والثوار والمطالبين بالحقوق ينفعهم ويطيل في عمرهم، وهو في الحقيقة يفاقم المشكلة، ويعود بالضرر البليغ عليهم، ويدخلهم في طريق اللاعودة مع الشعب، الذي ينتهي حتماً بهلاكهم، والقضاء على حكمهم.

والأكثر خطورة أنهم لا يتفكرون ليعلموا الحقيقة، لا لأنهم لا يريدون الوصول إليها ومعرفتها، بل لأنهم لا يريدون أن يعرفوها؛ لأنهم لا يريدون أن يغيروا ما هم عليه من الكفر والضلال والطغيان والبطر والفساد، وهنا تبرز مشكلة كبيرة نجدها عند الكثير من الناس من مختلف الفئات والطوائف والطبقات، وهي أنهم يشكلون لأنفسهم قناعات ذاتية تناسب أهواءهم ورغباتهم، ويجعلون لأنفسهم آمال ومعايير خاصة غير موضوعية، ثم يحكمونها بغير حق ولا دليل في جميع ما يصل إليهم ويطرح عليهم من أفكار وقيم ومبادئ، ولا يرضون بغيرها، ويرفضون كل ما يخالفها ويتعارض

معها بحجة أنها غير مقنعة لهم؛ لأنها تخالف قناعاتهم وثوابتهم، مما يجعلهم في طريق مسدود أمام الهداية واتباع الحق، ولن ينفع معهم بطبيعة الحال أي منطق أو حجة أو دليل أو برهان.

وقيل: نفي العلم عن أكثرهم في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، فيه تنبيه على أن قليلاً منهم يعلمون الحقيقة، على خلاف ما عليه أكثر قومهم من الجهل بها، لكن هؤلاء القلة يشايعون ويناصرون مقالة الأكثرين، وهذا هو الضلال المبين، والسبيل إلى الهلاك والشقاء الأبدي الكامل في الآخرة، وهؤلاء أكثر سوءاً من غيرهم؛ لأنهم يعرفون الحق ويخالفونه عن علم ويقين!!

عناد آل فرعون ونزول آيات العذاب عليهم

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾

قال فرعون الطاغية وقومه الفاسقون، المعينون له على الكفر والباطل والظلم والجور والطغيان، والمتضامنون معه في استضعاف بني إسرائيل واستعبادهم وإذلالهم وعلى مناهضة موسى الكليم عليه السلام ودينه وحركته الإصلاحية والثورية، قالوا لموسى الكليم عليه السلام في تحدٍ منهم صارخ، وعناد ومكابرة لدينه وما جاء به من المعجزات النيرات الباهرات والبينات

---

١. الأعراف: ١٣١

الواضحات والبراهين الساطعة القاطعة، وبهدف تأييسه من إيمانهم به وتصديقهم برسالته واتباعهم له: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1]، أي: لا تتعب نفسك معنا وتشق عليها بما تأتي به من السحر، وتحاول أن تأتي بالمزيد مما تدعيه أنها آيات ومعجزات من عند رب العالمين؛ لأننا مصرون على البقاء على ما نحن عليه من الدين الفرعوني والسياسة والاجتماع، وماضون فيه، وثابتون عليه إلى النهاية، ولن نتراجع لك عن شيء من مواقفنا وديننا ونظام دولتنا وسياستنا الفرعونية، ولن نتخلى عن شيء من ذلك، فجدير بك أن تيأس منا، فلن نؤمن بك، ولن نصدقك، ولن نتبعك في شيء مما تدعونا إليه من العقائد والقيم والأحكام والمصالح والسلوك، فقد تقرر عندنا بشكل قاطع ونهائي، أنك ساحر مخادع كذاب، وجزمنا بأن كل شيء تأتينا به على أنه آيات ومعجزات من عند رب العالمين، هو عندنا وفي يقيننا مجرد سحر لا أكثر، تأتي به للتمويه علينا وخداعنا؛ لتصرفنا به عما نحن عليه من الدين والسياسة والنظام الفرعوني ودولته، ولا علاقة له البتة من قريب أو بعيد بما تسميه أنت رب العالمين، الذي لا وجود له، وإن وجد فلا دخل له في حياتنا، فنحن الذين نضع النظام القانوني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي والقضائي الذي يناسبنا، ويخدم مصالحنا، ويحقق أغراضنا المادية والمعنوية في الحياة، ولا علاقة لرب العالمين به من قريب أو بعيد.

وعليه: عليك أن تيأس منا فلن نؤمن بك، ولن نصدقك، ولن نتبعك

---

١. الأعراف: ١٣٢

أبداً، مهما حاولت، ومهما جئتنا بأعمال عجيبة خارقة للعادة، بزعم أنها آيات ومعجزات ممن تدعي أنه رب العالمين. أي: أنهم قابلوا الآيات، وما حل بهم من المصائب والبلايا بمزيد من الغرور والعناد، وأنهم مصرون على تكذيبه والكفر بما يدعوهم إليه إلى الأبد، مهما جاءهم بآيات ومعجزات وحجج وبراهين، ولقد قالوا ذلك، وأصروا عليه، رغم أن السحرة وهم أهل الفن المحترفين في السحر، وأصحاب الاختصاص والخبرة فيه، الذين جاؤوا بهم لمبارزة موسى الكليم عليه السلام وجعلوهم حجة بينهم وبينه، قد أقرّوا صراحة، وأعلنوا جهاراً بكل جرأة وشجاعة منقطعة النظير في ميدان المبارزة، أمام الجماهير المحتشدة، وبحضور فرعون وملئه وأعوانه وأنصاره وكامل جهازه الأمني والعسكري والسياسي والإداري والفني، بأن ما جاء به موسى الكليم عليه السلام ليس من السحر في شيء، ولا مشابه له، وإنما هو آية ومعجزة عظيمة، لها حقيقة فعلية فعالة غير موجودة في السحر، تقف وراءها قوة غيبية مطلقة فوق الطبيعة وفوق طاقة البشر، ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وقد آمنوا السحرة بنبوة موسى الكليم وأخيه ووزيره هارون عليهما السلام ورسالتهما من عند رب العالمين إلى كافة الناس، وأعلنوا ذلك أمام الجماهير في ميدان المبارزة وبحضور فرعون وملئه، ودفعوا حياتهم ثمناً لإيمانهم؛ لفرط يقينهم فيما آمنوا به، وصواب موقفهم الإنساني البطولي العظيم.

لكن فرعون وقومه لم يتبعوا السحرة الكرام المحترفين، الذين جاءوا بهم من جميع المناطق والأنحاء في مصر؛ لكي يبارزوا بهم موسى الكليم عليه السلام وجعلوهم حجة بينهم وبينه، ليظهروا حقيقة ما عنده، وما جاء به، ولم

يصدقوهم فيما عرفوه من الحق، وأيقنوا به، بل أنزلوا بهم أشد العقوبات، وقتلوهم صبراً بأبشع صور القتل، ونكلوا بهم انتقاماً منهم لإيمانهم بالحق استناداً إلى الدليل والبرهان الساطع القاطع والحجة النيرة الباهرة؛ ولأنهم خرجوا على الدين والنظام الفرعوني، وعلى طاعة فرعون وحكومته، وآمنوا بدين موسى الكليم عليه السلام وبرسالته، وعدالة قضيته، وشرعية مطالبه الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية، وشرعية حركة بني إسرائيل وثورتهم التحررية.

وعليه: فقد ساوى فرعون الطاغية وقومه الفاسقون بين المعجزة والسحر، وبين الحقائق والأوهام، وبين المنطق واللامنطق، وبين الدليل واللادليل، وبين الحق والباطل، وقولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1] الذي جابهوا به موسى الكليم عليه السلام، وأصروا عليه، يحمل الكثير من العتو والعناد والمكابرة والسخرية والاستهزاء بموسى الكليم عليه السلام، وعدم الاكتراث، وعدم المبالاة بدعوته ومواعظه و إرشاداته وبما جاء به من الآيات الساطعة والبينات الواضحة والمعجزات العظيمة، وسدوا على أنفسهم باب الفهم والهداية، مع اعترافهم بعظمة ما جاءهم به موسى الكليم عليه السلام، وبعجزهم عن الرد عليه، ومقابلة الدليل بالدليل والحجة بالحجة، ولجأوا إلى القوة والعنف والإرهاب؛ لإسكات صوت الحق والعدل والخير والفضيلة والعقل والمنطق والهدى والصواب، مما يدل على أنهم لا يبحثون عن الحقيقة والعدالة والخير والفضيلة والحقوق والمصلحة العامة، ولا يقيمون لها وزناً ولا اعتباراً؛ لأن المهم عندهم هي مصالحهم

١. نفس المصدر

الدنيوية الخاصة فقط ولا غير، كما هو دأب الفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين والمترفين المستغلين والانتهازيين الأنانيين والنفعيين الفاسدين في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، ولا يعتقدون بالصلة الوثيقة الوجودية القائمة بين معرفة الحقيقة والعمل بمقتضاها، وبين كمال الإنسان وخيريته ومصلحته الحقيقية في دورة الحياة الكاملة وسعادته الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، بل يفصلون فصلاً تاماً بين حياة الإنسان وواقعه وبين الحقائق في نفسها، ولا قيمة للحقائق في نفسها، ويخضعون حياة الإنسان ومصيره وتدبير شؤونه وكافة أموره العامة، لأهواء الحكام والمنتفعين المهيمنين على مقاليد الأمور ومقدرات البلاد، ولرغباتهم ونزواتهم وشهواتهم الحيوانية وملذاتهم الحسية، وما تقتضيه مصالحهم الخاصة وترتضيه عقولهم السخيفة وإراداتهم الجائرة عن الحق والعدل والخير والفضيلة، وأذواقهم الحسية المنحرفة عن الدين الحق والفطرة والطبع السليم والعقل والمنطق، وذلك منهم بدون حجة ولا برهان صحيح.

وهم في الحقيقة والواقع من الفئة الضالة، الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾[1]، أي: أنهم بلغوا من الكفر والعناد والمكابرة والاستغراق في عالم الدنيا والمادة والأنانية وحب الذات والمصالح الدنيوية الخاصة درجة لا يفيد معهم دليل ولا برهان ولا موعظة من أحد أبداً.

---

١. الأنعام: ٢٥

ومن الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَو فَتَحنا عَلَيهِم بابًا مِنَ السماءِ فَظَلوا فيهِ يَعرُجونَ ۝١٤ لَقالوا إِنما سُكِّرَت أَبصارُنا بَل نَحنُ قَومٌ مَسحورونَ﴾[1]، أي: لو أن الله ﷻ مكنهم من الصعود إلى عالم الملكوت الأعلى والمجردات، فرأوا الملائكة الكرام وما فيه من العجائب والآيات والبينات والدلائل الواضحة، التي هي نفس الحقيقة وعينها رؤية عيان ومشاهدة، لقالوا لفرط عنادهم وتعنتهم ومكابرتهم: إنما سكرت أبصارنا، فما رأيناه ليس بحقيقة ولا واقع له، وأننا تعرضنا للسحر وأُصبنا به، فما رأيناه ما هو إلا مجرد أوهام لا حقيقة لها ولا واقع، وسيبقون على عادتهم يجادلون بالباطل واللامنطق؛ ليدحضوا به الحق والمنطق، فهم لا يؤمنون إلا بذواتهم الخبيثة ومنافعهم الدنيوية الخاصة، وعالمهم الوحيد هو عالم الدنيا والمادة والمصلحة، ولا يعترفون بدين أو حقائق أو قيم أو مبادئ أو منطق ولا بشيء من هذا القبيل أبداً، ولا يقيمون وزناً أو اعتباراً.

وقيل: أن عبارة ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[2]، تفيد المبالغة في القطع بانتفاء إيمانهم بنبوة موسى الكليم عليه السلام وما يدعوهم إليه من الإيمان بعقيدة التوحيد والمعاد والنبوة والأخلاق الكريمة والشريعة الإلهية ونحو ذلك، ودوام هذا الانتفاء.

وقيل: أن لفظ ﴿لَكَ﴾[3] في العبارة يومئ إلى العامل المؤثر وهو العناد

---

١. الحجر: ١٤-١٥

٢. الأعراف: ١٣٢

٣. نفس المصدر

والتعصب والمكابرة، وأن الدافع شخصي لا مبدئي، وهو يكشف عن استعلائهم وتكبرهم، إذ يرون أنفسهم من طبقة عليا حاكمة، ويرون موسى الكليم عليه السلام من طبقة سفلى محكومة ومستضعفة، فلا يليق بهم أن يخضعوا لموسى الكليم عليه السلام ليتبعوه، بل يجب عليه هو أن يبقى على خضوعه واتباعه وتبعيته لهم، فالمسألة عندهم ليست مسألة حقائق ومنطق، بل مسألة تمييز طبقي موروث لا دخل له بالفكر والأخلاق والسلوك أو نحو ذلك، فسدّوا بهذا النمط من التفكير والمنطق الجاهلي المتعصب والمتخلف على أنفسهم منافذ وطرق الهداية والرفعة الحقيقية والتكامل الإنساني الفعلي والحقيقي، وهذا هو عينه طريق الهلاك والشقاء الحقيقي في الدارين الدنيا والآخرة، وذلك بسبب انفصالهم عن العقل والمنطق وعن الحقائق والسنن الكونية والتاريخية، وعدم سماعهم للمواعظ البليغة والنصائح الصادقة، وسلوكهم طريق الانسلاخ من الإنسانية، مما يعرضهم إلى السخط والمقت الإلهي، والشقاء الأبدي، والعذاب العظيم في الآخرة.

ولن يضروا الله عز وجل بشيء من ذلك؛ لأنه الغني المطلق وفي مَنَعَةٍ تامةٍ من كيدهم الخبيث، بل لن يضروا الدعوة الإلهية الحقة، ولن يضروا المؤمنين الصالحين، ولن يوقفوا تقدم الدعوة بكيدهم؛ لأن الله عز وجل عالم بكيدهم، وغالب على أمرهم، ولن يفلح الظالمون والكافرون المجرمون في كيدهم ومخططاتهم التي يستهدفون بها الحقيقة والعدالة والدعوة والفضيلة والدعاة المؤمنين الصالحين والمناضلين الشرفاء والمطالبين المخلصين بحقوق الإنسان، ولكنهم للأسف الشديد لا يشعرون بهذا الوبال العظيم عليهم؛ لفرط استغراقهم في عالم الدنيا والمادة والأنانية

والمصالح، وانفصالهم عن الواقع وعالم الحقائق والمنطق والقيم والفضيلة.

وقيل: أن لفظ الآية في قولهم ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾[١]، يفيد الاستهزاء والسخرية منهم بموسى الكليم عليه السلام؛ لأن موسى عليه السلام يصف معاجزه التي يأتيهم بها، بأنها آيات، وهم يصفونها بالسحر، مرادهم: أنك تأتينا بالسحر وتسميه آية ومعجزة، يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**إن لحن الآيات (القرآنية) والقرائن يفيد أن الجهاز الإعلامي الفرعوني الذي كان - تبعاً لذلك العصر - أقوى جهاز إعلامي، وكان النظام الحاكم في مصر يستخدمه كامل الاستخدام... إن هذا الجهاز الإعلامي قد عبأ قواه في توكيد تهمة السحر في كل مكان، وجعلها شعاراً عاماً ضد موسى عليه السلام؛ لأنه لم يكن هناك تهمة أنسب منها بالنسبة إلى معجزات موسى عليه السلام للحيلولة دون انتشار الدعوة الموسوية، ونفوذها المتزايد في الأوساط المصرية**»[٢].

وقيل: أن اللفظ يدل على اعتراف صريح منهم بأنهم يرفضون الحق، وفي نفس الوقت يعترفون بالعجز عن مواجهته بالحجة والبرهان، فقد توصلوا إلى قناعة عقلية مستقرة في داخل أنفسهم، بأن ما جاء به موسى الكليم عليه السلام هي فعلاً آيات إلهية ومعجزات باهرات عظيمة، يعجز البشر عن أن يأتوا بمثلها، ولكنهم يرون أن الدين قضية شخصية موروثة من الآباء والأجداد أو مجرد هوية، وتخضع للاختيار الشخصي البحت وليست ملزمة، ولا علاقة لها بالشأن العام في الحياة وبسلوك الشخص

١. نفس المصدر

٢. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ٥، صفحة ١١٠

ومواقفه في الحياة العامة.

فكل واحد أو جماعة تختار دينها بنفسها بحسب الموروث، وتجعله هوية لها، أو بحسب ما يوافقها ويناسب مصالحها الدنيوية، وليس بالضرورة يتبعون ديناً واحداً قام الدليل على صحته ووجوب اتباعه، فهم لا يعتقدون بأن للدين قيمة موضوعية في نفسه، ولا يعتقدون بوجود صلة وجودية وثيقة بين الدين الحق وبين نظام الدولة والمجتمع والنظام أو المجتمع الدولي، ولا بينه وبين كمال الإنسان المقدر له وخيره وصلاحه وسعادته الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة.

وهذه هي نظرة الكثير من الناس للدين في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، بل هي النظرة العلمانية السائدة في عالمنا اليوم. وربما يكون بهم ما هو أسوء حالاً من ذلك، بأن يكون إبليس الرجيم قد ركبهم واستولى عليهم بالكامل، فكانوا صورة بشرية له في العناد والمكابرة والعناد والاستكبار والأنانية وتضخم الذات، فإبليس الرجيم كان عارفاً بالله ذي الجلال والإكرام، وقد كلمه ﷻ وحاوره مباشرة وبدون واسطة أحد، وكان على يقين بالمعاد والحساب والجزاء في يوم القيامة، وبالنبوة والخلافة الإلهية للإنسان في الأرض، ووجوب الطاعة لله ﷻ، وحرمة معصيته عقلاً حكماً قطعاً.

ومع ذلك كابر الحق وعانده واستكبر عليه وخالفه، وأصر على المعصية وعلى إغواء الإنسان وإضلاله حسداً له من عند نفسه؛ وذلك بسبب الأنانية والحسد وتضخم الذات التي وضعها في مقابل عزة الرب الجليل

جبار السموات والأرض، فهلك وأَهْلَك، وشقى وأشقى، وهذا هو حال الكثير من الناس الذين يسلكون طريق الكفر والضلال عن علم ويقين، وهم أشقى عباد الله سبحانه وتعالى.

وقيل: سموها آية على اعتقاد موسى الكليم عليه السلام لا على اعتقادهم، أو باعتبار الغرض الذي تحداهم به حين الإتيان بها؛ لأنه كان يأتيهم بها استدلالاً على صدق نبوته ورسالته وصحة ما كان يدعوهم إليه من عقيدة التوحيد والنبوة والمعاد والقيم الإلهية والتشريعات الربانية ونحو ذلك، أي: سايروه وجاروه في ذلك لا اعتقاداً منهم بها.

ورغم ما أظهره فرعون الطاغية وقومه الفاسقون من اللؤم والخبث والعناد والمكابرة والاستكبار، وما جابهوا به ولي الله الأعظم موسى بن عمران الكليم عليه السلام من التكذيب والسخرية والاستهزاء والاتهامات الباطلة والتحدي والاصرار على البقاء والاستمرار على ما كانوا عليه من الدين الفرعوني الباطل، وسياسة القمع والعنف والإرهاب والتمييز ضد بني إسرائيل، واستضعافهم و إذلالهم و إخضاعهم للنظام والدولة وسلطة الملك بالقوة وبغير إرادتهم ورضاهم وعلى خلاف مصالحهم، وسلبهم جميع حقوقهم الطبيعية في الحياة، واجتهادهم في تيئيس موسى الكليم عليه السلام من إيمانهم بنبوته، وتصديقهم برسالته، واتباعهم له، واقتدائهم به في جميع الأحوال و إلى الأبد مهما جاءهم بالآيات والمعجزات والبينات والبراهين، وأصدروا حكمهم النهائي الحاسم القاطع فيه، أنه ساحر مخادع كذاب ومتآمر على الملك والحكومة والدولة والنظام والشعب، يريد إسقاط الدولة

والنظام و إقصاء أنصار فرعون عن الوظائف العليا والمناصب الرئيسية في الدولة، و إخراج الأقباط من أرضهم وديارهم ووطنهم من أجل أن يستأثر مع بني إسرائيل والمؤمنين به بالسلطة والثروة والمقدرات.

مع ذلك كله فإن الله ﷻ برحمته الواسعة، لم يدعهم ولم يتخلَّ عنهم، وعمل بكل وسيلة حكيمة من أجل إيقاظهم وهدايتهم بدون أن يسلبهم الخيار؛ لأن سلبهم الخيار خلاف الحكمة وخلاف غاية خلق الإنسان وتميزه بين الكائنات في الوجود بأسره، قول الله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[1]، أي: إن نشأ ننزل عليهم آية إلهية أو معجزة سماوية عظيمة مذهلة، تدل على تهديدهم بالإهلاك تهديداً محسوساً، وجعل تنزيل الآية من السماء أوضح وأشد تخويفاً، فتخضعهم وتجبرهم على قبول الإيمان والهداية، فتصبح أعناقهم خاشعة منقادة لها بالكره منهم، ولكنا لم نشأ ذلك؛ لأنه لا مصلحة فيه، وغير نافع، ومخالف للحكمة الربانية ولغاية خلق الإنسان وتميزه بين الكائنات في الوجود بأسره بالعقل والاختيار، و إرادتنا بمقتضى الحكمة هي أن يسلك الإنسان طريق الإيمان والهداية والحق عن نظر و إرادة واختيار ورضا، وليس عن طريق القهر والغلبة ولو بقوة سماوية غيبية؛ لأنه لا فضل له في إيمان يجبر عليه، ولا يستحق عليه الأجر والثواب، ولو شاء الله ﷻ ذلك، لجعله في أصل خلقته.

وقد تكفلهم الله ﷻ بنفسه، وأراد أن يبالغ في إقامة الحجة البالغة والتامة

---

١. الشعراء: ٤.

عليهم؛ ليضعهم بشكل حاسم بين طريقين لا ثالث لهما: طريق الهداية الحق واتباعه استناداً إلى الدليل والبرهان القاطع، وطريق الهلاك والشقاء الأبدي الكامل بعد إقامة الحجة البالغة المقامة عليهم، أي: أعطاهم الفرصة النهائية للاختيار بين الهداية والسعادة، وبين الضلال والشقاء، بعد أن تمادوا في عنادهم ومكابرتهم وبلغوا حداً من الكفر والطغيان والفساد والانحراف في الأخلاق والسلوك والمواقف الإجرامية. وليس من الحكمة السكوت عنهم، حيث أصبح استمرار وجودهم وبقاؤهم في الحياة مع ما هم عليه يشكل خطراً جدياً على البشرية ومسيرة تكاملها الروحي وتقدمها الإنساني، وهو أمر مخالف للحكمة الإلهية البالغة القاضية بإرادة الهداية والسعادة للبشرية و إيصالها إلى كمالها اللائق بها والمقدر لها في أصل الخلقة والتكوين، وتوفير أسبابها، و إزالة الموانع التي تحيل دونها. ومخالف للعدل الإلهي القاضي بأن لا يترك المستضعفين ألعوبة بيد المستكبرين الظالمين، يتحكمون في مصائرهم بشكل مطلق، ويسومونهم سوء العذاب، ولا حول ولا قوة للمستضعفين في مواجهتهم، والتخلص من جورهم وظلمهم وأذاهم. ومخالف للرحمة الإلهية بالمؤمنين المطيعين لله سبحانه وتعالى وللرسول الكريم ﷺ بأن يتركهم تحت رحمة الطواغيت الضالين المتجبرين، يتحكمون فيهم، ويؤذونهم، ويضعون الصعوبات والعقبات أمام حريتهم في الدين والعبادة والطاعة لله ﷻ والرسول الكريم ﷺ والعمل بشريعة الله سبحانه وتعالى.

وقد جرت السنة الإلهية على أن يبعث الله تبارك وتعالى بالرسل مبشرين ومنذرين، ويزودهم بما يثبت صدق نبوتهم ورسالتهم من الآيات

والمعجزات والبينات والبراهين الساطعة، وأن يضمن بقاء الرسالة واستمرار وجودها، وتمكن الناس من الوصول إليها سليمة صحيحة في دورتها الرسالية، وأن يزيل كل خطر يهدد بقائها واستمرار وجودها في هذه المدة «الدورة الخاصة بها»، ويزيل كل عقبة تمنع من وصولها إلى الناس، بما في ذلك اِهلاك الأقوام الذين ينتج عن بقائهم وقوتهم قطع الطريق على العباد إلى الهداية، كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم صالح ولوط وغيرهم؛ لأن استمرار بقائهم يساوي في النتيجة الامتناع عن بعث الأنبياء والرسل، وهو خلاف الحكمة الإلهية؛ لأنه يدل على عبثية الخلق، وخلاف مقتضى العدل الإلهي والرحمة الإلهية بالمؤمنين، ولا يكون إلا عن عجز القدرة الإلهية، وهو أمر لا يقبله العقل والمنطق سبحان الله عما يصفون. فالله ﷻ قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء، وهو غالب على أمره غير مغلوب.

وعليه: فإن الله ﷻ بعد أن لم تنفع الآيات السابقة، القحط والجدب ونقص الثمرات، وما ترتب عليها من الأضرار البليغة في الأموال والأنفس والمعنويات في إيقاظ آل فرعون، وتنبيههم من غفلتهم، وإعادتهم إلى عقولهم ورشدهم، أنزل الله ﷻ عليهم عقوبات وشدائد متعددة أعظم من سابقتها، وأكثر تدميراً.

فقد أرسل على فرعون وقومه الأقباط الموالين له والمُعينين له على الظلم والجور والطغيان والفساد والمتابعين له في دينه والراضين بسياسة التمييز والعنف والإرهاب والاستضعاف والإذلال لبني إسرائيل خمس آيات بينات، قول الله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ

آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[١]، وقد أرسلها عليهم متفرقة غير متصلة، قوله: ﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾[٢]، أي: منفصل بعضها عن بعض، بين كل واحدة منها والأخرى فواصل زمنية؛ لأن حقيقة التفرقة، هي الفصل بين شيئين بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر.

وقيل: كان امتداد كل واحدة من الآيات أسبوعاً، وما بين الواحدة والأخرى شهراً. وقيل: ستة أشهر. وقيل: سنة كاملة.

وذلك بهدف إيقاظهم من غفلتهم البالغة وتنبيههم من سباتهم العميق، ولكي تكون هناك فرصة زمنية كافية للتأمل والتفكير والمراجعة والتصحيح؛ لأن الغاية ليست العقاب من أجل العقاب، وإنما العقاب من أجل التنبيه والإيصال إلى الهداية وتحصيل السعادة الحقيقية الكاملة للإنسان.

كما يستعار الفصل لإزالة اللبس والاختلاط في المعاني، ولهذا قيل: أن المراد هو الفصل المجازي وهو إزالة اللبس، والمعنى في قوله: ﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾[٣]، أي: آيات لا شبهة لمن نظر نظرَ تفكرٍ واعتبار في كونها معاجز عظيمة باهرة من عند رب العالمين.

وقيل: الفاء في عبارة: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾[٤]، لتصريح إصابتهم بهذه

---

١. الأعراف: ١٣٣
٢. نفس المصدر
٣. نفس المصدر
٤. نفس المصدر

المصائب والشدائد والمحن والنكبات على عتوهم وعنادهم ومكابرتهم على الحق وأهله، ولفظ: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ دال على أن جملة أرسلنا مفرعة تفريع العقاب لا تفريع زيادة الآيات والمعجزات والبينات.

وقد أخبرهم نبي الله الكريم موسى الكليم عليه السلام بحدوث هذه الآيات قبل مجيئها؛ لتكون دليلاً على صدق نبوته ورسالته، فيتركوا ما كانوا عليه من الكفر والضلال والظلم والجور والطغيان والفساد والعناد والمكابرة والاستكبار، ويؤمنوا بالله الواحد الأحد سبحانه وتعالى، ويؤمنوا برسوله الصادق الأمين، ويتبعوه، ويقتدوا به، ويؤمنوا بالآخرة ويعملوا من أجلها، ويخرجوا من الاستغراق في عالم الذات والدنيا والمادة والمصالح الخاصة، وينجوا من هلاكها وعذابها.

ولكي لا يفسروا الآيات والمعجزات تفسيراً تعسفياً منحرفاً بحسب أهوائهم وأمزجتهم وما تمليه عليهم شهواتهم الحيوانية ونزواتهم وملذاتهم ومصالحهم الخاصة بعيداً عن الحقائق والعقل والمنطق والبرهان الصحيح، كأن ينسبوها إلى عمل الطبيعة وحدها، ويقولوا: هذه ظواهر طبيعية حدثت لأسباب طبيعية بحتة، ولا علاقة لها برب العالمين الذي يدعيه موسى الكليم عليه السلام، ولا بتكذيبهم له ورفضهم لنبوته ودينه ورسالته بدون حجة أو برهان، ولا بسياستهم وما يوقعوه من التمييز والظلم والجور والاستضعاف والإذلال لبني إسرائيل، ولا بأخلاقهم القبيحة المذمومة وسلوكهم المنحرف ومواقفهم الجائرة عن الحق والعدل والخير والفضيلة وجرائمهم الشنيعة البشعة ضد الأبرياء والأولياء والصالحين وما ينشرونه من الفساد في الأرض.

روي أن موسى الكليم عليه السلام دعا عليهم، فقال: «**رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا، وإن قومه قد نقضوا عهدك، فخذهم بعقوبة تجعلها لهم ولقومي عظه، ولمن بعدهم آية وعبرة**»[1]، وفي رواية أخرى أنه قال: «**يا رب إن عبدك هذا (يعني فرعون) قد علا في الأرض، فخذه بعقوبة تجعلها له ولقومه نقمة، ولقومي عظة، ولمن بعدي آية**»[2]، فاستجاب الله عز وجل دعوته، فبعث عليهم أول الأمر الطوفان، وهو الماء العظيم المتناهي في الكثرة والسيل المغرق الذي يغمر جهات كثيرة ويطغى على المنازل والمزارع ونحوها، أرسله عليهم من السماء مطراً عظيماً، وتحول إلى سيول جارفة عمت مناطق سكنهم وزرعهم ومصانعهم وأسواقهم، فأغرقت الزرع وأهلكت الماشية، ودخلت إلى بيوتهم، فملأتها بالماء والطين وخربتها، وركد الماء على أراضيهم فلم يقدروا على حرثها وإصلاحها ولا غير ذلك من الأعمال العمرانية ونحوها، فألحق ذلك بهم أضراراً بالغة في الأنفس والأموال والممتلكات.

وقيل: أنهم مُطِروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يرون شمساً ولا قمراً، ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره، حتى كادوا أن يهلكوا.

وقيل: أصابهم الطاعون، وانتشرت بينهم الأوبئة والأمراض، ومات منهم خلق كثير.

وقيل: أصابهم ثلج أحمر لم يروا مثله من قبل، فمات منهم فيه خلق

---

١. معجم مجمع البحرين، الطريحي مادة طوف

٢. الكشاف، الزمخشري، جزء١-٢، صفحة ٤٤٠

كثير، وجزعوا، ففزعوا إلى موسى الكليم عليه السلام، فقالوا: ادع لنا ربك أن يكشف عنا، ونحن نؤمن بك ونتبعك، فدعا، فكُشِفَ عنهم العذاب، فما آمنوا، ولم يتعظوا، ولم يكفوا عن تعنتهم وعنادهم.

وقيل: نبت لهم في تلك السنة من الكلأ والزرع ما لم يعهد مثله كثرة ووفرة، ثم بعث الله عز وجل عليهم بعد فترة من الزمن الجراد، وهي الحشرات المعروفة التي تغزو الأشجار والنباتات وتأكلها، فكثُرت عليهم، ووقعت على كلأهم وعامة زرعهم وثمارهم وأشجارهم أكلاً وقضماً وإتلافاً حتى أفرغتها من جميع الأغصان والأوراق.

وكان هجوم أسراب الجراد عليهم عظيماً جداً، حتى وصلت الآفة إلى حد أكل الجراد الأبواب والثياب والأمتعة، وخربت سقوف المنازل، وأخذت تؤذي أبدانهم، حتى تعالت صيحاتهم واستغاثاتهم لشدة ما أصابهم من الأضرار والأذى، ففزعوا إلى موسى الكليم عليه السلام، فدعا، فكُشِفَ عنهم العذاب، فما آمنوا، ولم يتعظوا، ولم يكفوا عن تعنتهم وعنادهم وكفرهم وطغيانهم وفسادهم في الأرض.

فبعث الله عز وجل عليهم بعد فترة من الزمن القُمّل، وهي حشرة طفيلية صغيرة لا أجنحة لها، تتولد عادة من العرق والوسخ إذا أصاب ثوباً أو بدناً أو ريشاً أو شعراً مع عفونة ودهونة، وتلسع الإنسان بعضتها، وتتغذى على دمه، وتسبب إليه الأمراض، وتنقلها منها إليه. وقد أصابهم القمل، وانتشر بينهم، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده، فيعضه، ويتغذى على دمه، وأخذ شعرهم وأبشارهم وأشعار عيونهم وحواجبهم، ولزم جلودهم، كأنه الجدري،

ومنعهم من النوم والقرار. وكان أحدهم يأكل الطعام فيتساقط فيه القمل فيملأه. وأصاب القُمّل دوابهم، وساهم في نشر الأمراض والأوبئة بينهم.

وهناك قُمّل الزرع، وهو شر ما يكون وأخبثه، وهو دويبة صغيرة تطير كالجراد إلا أنها ليست بجراد، يقع على الزرع، ويأكل السنبلة وهي غضة طرية قبل أن تكتمل، فتبع حرثهم وأشجارهم ونباتهم فأضر بزرعهم كثيراً.

وقيل: أتى على زروعهم كلها واجتثها من أصلها، فذهبت زروعهم ولحس الأرض كلها، وكانت الحصيلة أن أصابهم الجوع وانتشرت فيهم الفاقة الشديدة، ففزعوا إلى موسى الكليم عليه السلام، فدعا فكُشِفَ عنهم العذاب، فما آمنوا، ولم يتعظوا، ولم يكفوا عن تعنتهم وعنادهم وكفرهم وطغيانهم وفسادهم في الأرض.

فبعث الله عز وجل عليهم بعد فترة من الزمن أنواعاً مختلفةً من الضفادع الصغيرة والكبيرة، وهي حيوانات برمائية صغيرة، تمشي على أربع أرجل، وتسبح في الماء، وتكون في الغدران ومناقع الماء، صوته مثل القراقر، يسمى: نقيقاً، فكثرت عليهم وامتلأت منها بيوتهم وأفنيتهم.

وكانت تدخل في فرشهم وبين ثيابهم وفي أطعمتهم، وكانت تلقي بنفسها في القدر وهي تغلي، فتفسد طعامهم، وكانت تلقي بنفسها في التنور فتطفي نيرانهم، إلى غير ذلك من أصناف البلاء الذي أصابهم بسبب الضفادع. فأقلقتهم وآذتهم أذيةً شديدةً، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ففزعوا إلى موسى الكليم عليه السلام، وقالوا: ارحمنا هذه المرة، ونتوب

ولا نعود، فأخذ عليهم العهود، ودعا فكُشِفَ عنهم العذاب، فما آمنوا، ولم يتعظوا، ولم يكفوا عن تعنتهم وعنادهم وكفرهم وضلالهم وطغيانهم وفسادهم في الأرض.

فبعث الله ﷻ عليهم بعد فترة من الزمن الآية الخامسة والأخيرة، وهو الدم. قيل: سال النيل عليهم وصار لونه كلون الدم، بحيث تعيفه الطباع الآدمية، فما كانوا يستقون من الأنهار والآبار إلا بلون الدم العبيط الأحمر.

وقيل: كان القبطي يرى ماء النيل بلون الدم، ويراه الإسرائيلي بلون الماء العادي، فإذا شربه الإسرائيلي كان ماءً، وإذا شربه القبطي كان بلون الدم، حتى ذاقوا من الله ﷻ العذاب الشديد.

وقيل: أصابهم مرض الرعاف، وهو نزول الدم من الأنف، حيث شاع بينهم كداء عام، وأصيبوا به جميعهم.

وكلها - الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم -، آيات بينات من عند رب العالمين، أرسلها على فرعون الطاغية وقومه الأقباط الفاسقين، الموالين له، والمتابعين له في دينه، والمناصرين له على ظلم واستضعاف وإذلال بني إسرائيل؛ لكي يتعظوا ويفيقوا من غفلتهم، ويستيقظوا من سباتهم العميق، ويعودوا إلى عقولهم ورشدهم وضمائرهم، فيؤمنوا بالدين الإلهي الحق، ويتبعوا الرسول الكريم عليه السلام ويقتدوا به، وكان بنو إسرائيل في عافية من جميع ذلك، بسبب إيمانهم وطاعتهم للرسول الكريم عليه السلام.

وفسر بعضهم ذلك بالإعجاز الإلهي، وفسره آخرون تفسيراً طبيعياً؛

لأن مناطق سكن بني إسرائيل منفصلة عن مناطق سكن الأقباط ومناطق زراعتهم ومصانعهم وأسواقهم، إذ كانت مناطق الأقباط السكنية والزراعية والصناعية والتجارية على ضفاف نهر النيل، حيث الخصوبة والجمال ورغد العيش، ومعظم الآيات المذكورة الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، لها علاقة وثيقة بكون مناطق الأقباط قريبة من نهر النيل العظيم، فالطوفان والضفادع يأتيان من النيل، والجراد له علاقة بالزراعة، وهي تقوم على مياه النيل ونحو ذلك، أي: تحول سبب النعيم والرخاء ورغد العيش إلى سبب للشقاء والضيق والعذاب الشديد، بينما يسكن بنو إسرائيل في المناطق البعيدة عن النيل.

وهذا التفسير يمكن القبول به جزئياً وليس كلياً؛ لأن الطوفان كان سببه الرئيسي الأمطار الغزيرة جداً وليس فيضان النيل، وفيضان النيل كان بسبب الأمطار الغزيرة جداً. ولأن حياة بني إسرائيل مختلطة مع حياة الأقباط رغم انفصال مناطق سكنهم على العموم، وعليه: لا يمكن الاستغناء عن التفسير الغيبي «الإعجاز» للتمييز بين بني إسرائيل وبين الأقباط في العقوبات الإلهية.

وقيل: سميت آيات، لأنها دلائل على صدق موسى الكليم عليه السلام وعلى غضب الرحمن على فرعون وقومه، بسبب عنادهم ومكابرتهم وإصرارهم على الكفر والظلم والطغيان والفساد في الأرض؛ ولأنها اِقترنت بالتحدي. وكانت جميع الآيات ظاهرة الدلالة والوضوح لكل عاقل ينظر نظرَ فكرٍ واعتبار بالتالي:

أ. بأنها مقصودة ومدبرة بيد علية قديرة، لا سيما مع إخبار موسى الكليم عليه السلام عنها قبل حدوثها، وليست جزافية أو اِتفاقية أو صدفة أو راجعة إلى محض عمل الطبيعة أو نحو ذلك من التفسيرات المادية التعسفية المنحرفة، بل هي آيات إلهية ونقمات من رب العالمين.

ب. إن فرعون وقومه جميعاً على باطل وضلال في دينهم وسياستهم ونظام دولتهم، وأن ما جاء به موسى الكليم عليه السلام حق وهدى وصدق، وفيه خير وصلاح ومصلحة العباد وكمالهم وسعادتهم الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، وأنه جاء به من عند الله رب العالمين سبحانه وتعالى، وليس من عند نفسه.

وقد مكث موسى الكليم عليه السلام في آل فرعون والأقباط بعد ما غلب السحرة وانتصر عليهم ما يقرب من عشرين سنة، يريهم الآيات والمعجزات والبينات، ويدعوهم إلى الحق والتوحيد والعدل والصلاح والخير والفضيلة، وينهاهم عن الباطل والشرك والظلم والطغيان والفساد والشر والرذيلة، فما آمنوا، ولم يتعظوا، ولم ينتهوا عن فحشاء أو منكر.

وقد جعل الله عز وجل بين الآيات فواصل زمنية كبيرة، يمتحن فيها أحوالهم، أيوفون بما وعدوا به أنفسهم أم ينكثون، وبرجاء إيمانهم وهدايتهم إلى الدارين الدنيا والآخرة، إذ تتوفر لهم الفرصة الزمنية الكافية، والدافع القوي للتفكير والتأمل والمراجعة والتصحيح، قوله تعالى: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَن

بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾[١]. وذلك إلزاماً وإتماماً للحجة الإلهية عليهم، فكيف كانت النتيجة بعد كل هذه الآيات الإلهية، والبينات الظاهرات، والبلايا والمصائب التي نزلت عليهم، وحلت بساحتهم؟

الجواب: أنهم لم يعتبروا، ولم يتعظوا ولم يذعنوا للآيات والبينات، ولم يستجيبوا لدلالاتها القاطعة، وترفعوا عن قبول الإيمان بالدين الإلهي الحق، ولم يتراجعوا عن شيء مما كانوا عليه من الدين الفرعوني، وسياسة التمييز، والظلم والطغيان، والاستضعاف والإذلال لبني إسرائيل، ونشر الفساد والرذيلة في الأرض، وعتوا واستكبروا، ولم يخضعوا للحق ولم يسلموا للدليل الصحيح القاطع.

وقيل: الفاء في عبارة ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾[٢] للتفريع والترتيب، بمعنى: فتفرع إرسال الطوفان وما بعده من الآيات استكبارهم، كما تفرع على أخذهم بالسنين غرورهم، بأن قالوا ذلك من شؤم موسى الكليم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، مما يدل على ضعف عقولهم، وفساد منطقهم؛ إذ انتزعوا المدلولات من أضداد أدلتها، وذلك بسبب استغراقهم في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية، وفرط عتوهم وعنادهم وانغماسهم في البغي والضلال والخذلان والشقاء، وبعدهم عن عالم النور والحقائق والهداية والتوفيق والتسديد والسعادة، فكانوا بحق وحقيقة قوماً مجرمين فاسدي الطبع والفطرة، لا يهتدون إلى حق ولا يتورعون عن باطل، ولا تنفع معهم

---

١. الأنفال: ٤٢

٢. الأعراف: ١٣٣

آية أو رواية أو دليل أو برهان أو موعظة أو نصيحة صادقة أو نحو ذلك، فقد ختم الله ﷻ على قلوبهم وعقولهم، فهم لا يفقهون حجة أو دليل أو برهان، وعاقبهم على سوء اختيارهم، بأن أبقاهم على الغي والضلال.

وقيل: صيغ الخبر عن إجرامهم بصيغة الجملة الإسمية في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِين﴾[1] للدلالة على ثبات وصف الإجرام فيهم وتمكنه منهم، وأنه علة استكبارهم، فلا حل لمعضلتهم إلا بإفنائهم وإهلاكهم عن آخرهم، وتخليص البشرية من شرهم وأذاهم، وفتح الطريق أمام كل من يطلب الحقيقة والهداية والسلام والوصول إليها.

وتعبير ﴿قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[2]، يدل على أن كل من يستغرق في ظلام الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية الخاصة، وينسى الله ذي الجلال والإكرام والآخرة، يتحول بالضرورة إلى شخص مجرم بحق وحقيقة، ويكون مستعداً لارتكاب كل جريمة فردية أو جماعية، صغيرة أو كبيرة، متى اقتضت مصلحته ذلك وتمكن منها، وكان آمناً من العقاب؛ إذ لا رادع يردعه عن الجريمة والذنب والمعصية؛ لأن المصدر الوحيد الواقعي والمنطقي للقيم العليا والمبادئ السامية والردع عن الجريمة، هو الإيمان الواعي العميق بالتوحيد والنبوة والمعاد، متى قطع الإنسان صلته بالإيمان قطع صلته بالمصدر الوحيد الواقعي والمنطقي للقيم العليا والمبادئ السامية وتحرر منها، ولأن التعلق بعالم الدنيا والمادة لا يولد إلا مثله من الشرور والفساد والخراب والدمار

١. نفس المصدر

٢. نفس المصدر

في الأرض، وهو غريب تمام الغربة عن القيم العليا والمبادئ السامية التي هي سر إنسانية الإنسان وخيريته وكماله، فكل من تعلق بعالم الدنيا والمادة يكون بين حالتين، أن يكون شيطاناً يتبع الأهواء ويمارس القتل والفتك والفساد في الأرض، أو يكون بهيمة يجري وراء الشهوات والملذات الحسية، وهذا ما كشفت عنه التجارب التاريخية والمعاصرة.

آل فرعون يراوغون ويخادعون الله

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

لقد أنزل الله ﷻ ألواناً من العذاب على فرعون الطاغية وقومه الفاسقين، وذلك بسبب ما كان منهم من العتو والعناد والاستكبار على الحق والبغي على الناس، وكان العذاب يأتيهم متفرقاً، يأتيهم فترة قصيرة من الزمن «أسبوعاً» ثم يتوقف لمدة ستة أشهر أو سنة كاملة، ثم يأتيهم لون آخر من العذاب لمدة أسبوع، ثم يتوقف لمدة ستة أشهر أو سنة كاملة، ثم يأتيهم لون ثالث من العذاب لمدة قصيرة «أسبوعاً»، ثم يتوقف مدة ستة أشهر أو سنة كاملة، وهكذا حتى أتم الله ﷻ عليهم خمسة ألوان من العذاب الشديد، آيات بينات، وهي الطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم.

وقيل: الرجز هو الطاعون، أصابهم الله ﷻ به فألجأهم إلى الفزع إلى موسى الكليم ﵇، والتوسل به؛ ليدعو لهم، ليُرفعَ عنهم.

وكانت الغاية من تفريق الآيات، هي منحهم فرصة كافية من الزمن للتفكير والتأمل حتى يفيقوا من غفلتهم، ويستيقظوا من سباتهم العميق، ويعودوا إلى عقولهم وضمائرهم ورشدهم، ويقوموا بمراجعة موضوعية جادة لأفكارهم ومعتقداتهم وأخلاقهم وسلوكهم ومواقفهم ويقيسوها بمقياس منطقي وعلمي دقيق، فيتركوا ما كانوا عليه من الكفر والظلم والطغيان والإذلال والاستضعاف لبني إسرائيل، والتمييز ضدهم و إيذائهم، ويتحولوا إلى الإيمان بالدين الإلهي الحق، و إلى العدل والخير والإنصاف والصلاح. ولم يشأ الله ﷻ أن يهلكهم قبل أن يقيم عليهم الحجة البالغة التامة، التي لا تبقي لهم حجة ولا عذر عند الله سبحانه وتعالى.

وكانوا في الحقيقة والواقع قوماً مجرمين، قد انغمسوا في ظلام الدنيا والمادة والمصالح إلى أخمص أقدامهم، واستولى الشيطان الرجيم على عقولهم وقلوبهم ومشاعرهم بالكامل، فعمت قلوبهم، وماتت ضمائرهم، وأصبحوا نسخة بشرية من إبليس الرجيم في عناده ومكابرته واستكباره على الحق وأهله، وفقدوا القدرة على التشخيص الموضوعي للأمور، وانقلبت لديهم الحقائق والموازين، فرأوا الحق باطلاً والباطل حقاً، ورأوا المعروف منكراً والمنكر معروفاً، ورأوا أنفسهم صالحين مصلحين، وأنهم أصحاب بصيرة ووعي ودراية بالأمور، ودهاء في السياسة، وأن موسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل المطالبين بالإصلاح الديني والسياسي والحقوقي، وبالحقوق المشروعة الطبيعية والمكتسبة في الحياة، بأنهم مفسدين ومغرضين، وحمقى وجهلاء، وبسطاء ومخدوعين، ونحو ذلك من الأوصاف والشعارات والأطروحات الباطلة والمضلة.

ولم يعد يفيد معهم دليل أو برهان أو حجة أو رواية أو آية أو معجزة أو موعظة بالغة أو نصيحة صادقة أو أي شيء آخر من هذا القبيل. وكانوا إذا جاءهم لون من العذاب واشتد عليهم، لجأوا إلى موسى الكليم عليه السلام، وفزعوا إليه متوسلين ومتشفعين به؛ ليسأل الله عز وجل أن يكشف عنهم العذاب، قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[1] وذلك لعلمهم بأن له كرامة ومنزلة عالية عند الله جل جلاله، ولقناعتهم في داخل أنفسهم بأن له دور فيما نزل بهم من البلاء والعذاب والشدة، وفي رفعه عنهم، وكانوا يقطعون على أنفسهم العهود والمواثيق المغلظة قائلين: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[2]، أي: يا موسى!! ادع ربك بما عهد عندك من النبوة والرسالة، بمعنى: نقسم عليك بحق مقام نبوتك ورسالتك عند رب العالمين، وبما أودع عندك من الأسرار، وبما اِلتزم عندك بأن لا يرد دعاءك فيما تسأله، وبما علمك من وسائل إجابة دعائك عنده، إلا ما دعوته ليرفع عنا هذا البلاء وهذا العذاب الشديد، الذي ضيّق علينا رحب الفضاء، وقد وعدتنا إن نحن آمنا وأطعناك، فإن ربك سيرفع عنا العذاب، فاسأله بأن يرفعه عنا، ويزيل ما بنا من الشدة والضر، ونحن نعدك، ونتعهد إليك، بأنه إن هو فعل ذلك، فإننا نعود إلى الحق، ونؤمن بنبوتك، ونتبع رسالتك، ونقتدي بك، ونعتق بني إسرائيل من الرق والعبودية، ونرفع التمييز ضدهم والإذلال والاستضعاف لهم، ونطلقهم من استخدامنا لهم لأغراضنا الخاصة،

١. الأعراف: ١٣٤

٢. نفس المصدر

وتكليفهم بالأعمال الشاقة والدنيئة ونحو ذلك، ونجعل أمرهم إليك، ونعطيهم حق المواطنة والإقامة في مصر، وحق الهجرة والسفر، حيث كان فرعون وقومه الأقباط يسترقون بني إسرائيل ويستعملونهم في الأعمال الشاقة والوضيعة، وكانوا يمنعونهم من الهجرة والسفر بهدف الإبقاء على إخضاعهم لإرادتهم وتسخيرهم في خدمتهم لأغراضهم الخاصة، والقيام بالأعمال الشاقة والوضيعة، التي لا يقوم بها الأقباط، ويترفعون عنها.

وكان موسى الكليم عليه السلام قد طالب فرعون بأن يعطي بني إسرائيل حقهم في الهجرة والسفر معه إلى الأرض المقدسة «فلسطين»، التي هي أرض الميعاد، وموطن جدهم إسرائيل، وهو نبي الله الكريم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام قبل هجرته منها مع جميع أهله وعشيرته إلى مصر في عهد وفي زمن حكومة ابنه يوسف الصديق عليه السلام في القرن الثامن عشر «١٨» قبل الميلاد، أي: قبل أربعمائة «٤٠٠» سنة تقريباً من عهد موسى الكليم عليه السلام ، وقد أمرهم الله جل جلاله بالهجرة والعودة إليها والإقامة فيها مع نبيهم موسى الكليم عليه السلام ، فوعد فرعون وقومه موسى الكليم عليه السلام بأن يخلوا سبيل بني إسرائيل ويرفعوا عنهم حظر السفر والهجرة، ويسمحوا لهم بالعودة إلى الأرض المقدسة «فلسطين» متى شاءوا؛ ليعبدوا ربهم فيها بحرية كما يشاؤون إن رفع الله عز وجل عنهم العذاب.

وقول فرعون وقومه الأقباط لموسى الكليم عليه السلام : ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1] ، يدل

١. نفس المصدر

على أمور مهمة عديدة، منها:-

١. أنهم كلما وقعوا في شدة انتبهوا من غفلتهم بصورة مؤقتة، كما هو شأن جميع العصاة، ويبحثون عن وسيلة للخلاص منها، فكانوا يلجأون إلى موسى الكليم عليه السلام ويتوسلون به، فإذا كشف عنهم العذاب نسوا كل شيء، وعادوا إلى سيرتهم الأولى.

٢. أن قولهم: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾[١]، يدل على أنهم قد خامرهم ظن لكثرة ما رأوه من آيات موسى الكليم عليه السلام ومعجزاته، أن له رب قادر عليم، وأن لموسى الكليم عليه السلام عنده مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة، وأنه صادق فيما يدعيه من النبوة والرسالة.

٣. أنهم التفتوا إلى مسألتين غائبتين في حياتهم، وهما: مسألة الإيمان، ومسألة العدالة الاجتماعية، وأنهم يجب أن يصححوا أوضاعهم بالعودة إليهما، وهما محورا دعوة موسى الكليم عليه السلام كما سبق بيانه. وقيل: أن قولهم: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾[٢] هو وعد منهم بالإيمان، بأنه صادق في أنه مرسل من رب بني إسرائيل، إذ أن لكل قوم وأمة ربهم أو أربابهم الخاصين بهم، وأن رب بني إسرائيل، أرسله ليخرجهم من أرض مصر إلى أرض فلسطين، ليعبدوه فيها بحرية كما يشاؤون، وليس وعداً منهم باتباع الدين الإلهي الذي جاء به؛ لأنهم مكذبون

---

١. نفس المصدر

٢. نفس المصدر

به، ولهذا جاء فعل الإيمان متعلقاً بموسى ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾[١]، لا باسم الله سبحانه وتعالى.

٤. أن عبارة: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾[٢]، تكشف عن مدى تحيرهم، والتباس الأمر عليهم، بشأن موسى الكليم عليه السلام، ودينه، ورسالته، وحقيقة أمره.

وفي جميع الأحوال كانوا كاذبين مراوغين لا يفون بما يقولون، إذ كانوا يعودون إلى ما كانوا عليه من الكفر والظلم والطغيان، وينقضون ما وعدوا الله جل جلاله ورسوله الكريم عليه السلام وتعهدوا لهما به بعد كل مرة يكشف عنهم فيها العذاب، فلم يكونوا صادقين، بل كانوا مبيتي النية على نقض جميع ما قطعوه على أنفسهم من العهود والمواثيق، ولا قصد لهم من الفزع إلى موسى الكليم عليه السلام والتوسل به والطلب منه الدعاء بكشف العذاب عنهم إلا زوال العذاب لا غير، يخادعون الله جل جلاله ورسوله الكريم عليه السلام والمؤمنين الأتقياء الصالحين، متوهمين في كل مرة بأن العذاب إن رفع عنهم فلن يعود إليهم، فيعودوا بعد ما يرفع عنهم إلى ما كانوا عليه من الدين الفرعوني والنظام والسياسة الفرعونية الطاغوتية الظالمة، إذ ترتبط بها مصالحهم الدنيوية وبقاؤهم في السلطة وما يتمتعون به من امتيازات وصلاحيات، معتبرين ذلك الكيد والخداع والمراوغة من الذكاء والشطارة والكياسة والدهاء وحسن التدبير في السياسة، إذ لا صلة للدين والقيم والمبادئ

---

١. نفس المصدر

٢. نفس المصدر

بالسياسة، وأن وظيفة السياسة الوصول إلى السلطة والبقاء فيها، وحفظ المصالح، ودوام القوة والسيطرة والنفوذ ونحو ذلك، غافلين عن كيد الله ﷻ ومكره بالظالمين، وعن حقيقة كون ذلك السلوك القبيح انعكاس لمرض روحي خبيث، وأنه مضيعة للوقت والجهد والعمر، وسيعود عليهم بالشر والسوء والضرر البليغ والخسران في الدارين الدنيا والآخرة؛ لأن كمال الإنسان وصلاحه وخيره ومصلحته وسعادته الحقيقية في دورة الحياة الكاملة تتوقف على معرفة الدين الحق والصراط المستقيم والنهج القويم في الحياة والعمل بمقتضاها، وأن الله ﷻ عالم بنياتهم وأعمالهم ومطلع على بواطن أمورهم وظواهرها، ولا يخفى عليه منها شيء، وأنه متمكن منهم غاية التمكن، وقادر عليهم غاية القدرة، ولا يعجزه شيء من أمرهم، وأنه لم يأتهم بالعذاب عبثاً، وإنما جاءهم به لغاية حكيمة وهدف بليغ، وهو إيقاظهم من غفلتهم، وعودتهم إلى عقولهم ورشدهم وفطرتهم، وإلى ما فيه صلاحهم وخيرهم ومصلحتهم وسعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة، فإن هم لم يستجيبوا فإن مصيرهم إلى الهلاك والشقاء الأبدي الكامل، وهو أسوء مصير، وقد بين لهم موسى الكليم عليه السلام ذلك بوضوح تام.

وعليه: فإن ما يظهرونه من الكيد والخداع والمراوغة يدل في الحقيقة والواقع على جهلهم المتمكن منهم، وعلى استغراقهم في سباتهم العميق، وعلى خبث نفوسهم، وسوء طباعهم، وفساد نياتهم، وتمكن الخذلان والشقاء منهم، قول الله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا

أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[١]. أي: أنهم يخادعون الله ﷻ ورسوله والمؤمنين بذلك القول، ولو تدبروا وعقلوا الأمور جيداً؛ لعلموا أنهم في الحقيقة والواقع إنما يخدعون أنفسهم ويضلونها؛ لأن نكثهم لما عاهدوا الله جَلَّ جَلَالُهُ ورسوله الكريم عليه السلام عليه ووعدوهما به، يرجع وباله وشره وضرره عليهم في الدارين الدنيا والآخرة لا على غيرهم.

إلا أن هؤلاء السفهاء الحمقى لا يشعرون للأسف الشديد بهذه الحقيقة، ولا يعلمون عنها شيئاً، أو أنهم يتجاهلون ويتغافلون عنها كأنها غير موجودة، ويعدّون كيدهم وخداعهم ومراوغتهم ضرباً من الذكاء والشطارة والكياسة والفطنة والدهاء وحسن السياسة؛ وذلك بسبب إفراطهم في العناد والمكابرة والكفر والاستكبار، واستغراقهم في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية، قول الله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[٢]، أي: أن ما يظنون أنهم يخدعون الله ﷻ والرسول الكريم عليه السلام والمؤمنين به هو بعينه كيد من الله جَلَّ جَلَالُهُ وخديعة لهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى مطلع عليهم، ومتمكن منهم غاية التمكن، وقادر عليهم غاية القدرة، ولا يتضرر شيئاً بخداعهم، وقد خلى بينهم وبين ما هم عليه من الغي والضلال والأعمال القبيحة والسير في طريق الهاوية، ولم يمنعهم عن شيء من ذلك؛ استدراجاً لهم؛ وليكون وبالاً عليهم في الدارين الدنيا والآخرة، مجازاةً لهم على سوء طبعهم، وفساد نياتهم، وقبيح أعمالهم.

---

١. البقرة: ٩

٢. النساء: ١٤٢

وعليه: فخداعهم عائد عليهم بالسوء والشر والضرر لا على غيرهم، وكأنهم يعملون ما يعملون من أجل إهلاك وإشقاء أنفسهم والإضرار بها، فلله سبحانه وتعالى ما يصنع الحمق والجهل والخذلان بصاحبه!!

نكث آل فرعون بوعدهم وهلاكهم جميعاً

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝١٣٥ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾

كان العذاب الإلهي «الآيات» ينزل على فرعون وقومه متفرقاً، وليس متصلاً، يأتيهم العذاب لمدة قصيرة «أسبوعاً» ثم يتوقف لمدة طويلة «ستة أشهر أو سنة كاملة»، ثم يأتيهم عذاب «آية» آخر، وتكررت التجربة لخمس مرات، وفي كل مرة ينزل فيها العذاب ويشتد عليهم، كانوا يفزعون إلى موسى الكليم عليه السلام، ويتوسلون إليه، ويطلبون منه أن يسأل الله رب العالمين أن يرفع عنهم العذاب، ويقدموا إليه العهود والمواثيق والأيمان الغليظة، بأنهم إن رفع عنهم العذاب، فإنهم سيؤمنون بالتوحيد، ويصدقون بنبوة موسى الكليم عليه السلام، ويتبعونه، ويقتدون به، ويتركون ما هم عليه من الكفر، ويرفعون العبودية والاسترقاق عن بني إسرائيل، والتمييز ضدهم، والاستخدام السيئ لهم، وتسخيرهم في الأعمال الشاقة والوضيعة، ويخلون سبيلهم، ويسمحون لهم بالسفر والهجرة مع موسى الكليم عليه السلام إلى الأرض المقدسة «فلسطين».

وكان موسى الكليم عليه السلام يستجيب إليهم ويخبرهم بالوقت الذي سيرفع

عنهم فيه العذاب ولأجل معلوم، وذلك لغايتين:

١. كي يتهيأوا ويمهد لهم سبيل التوبة والعودة إلى الله ذي الجلال والإكرام.

٢. ليتم عليهم الحجة بأن يعلموا بأن نزول العذاب عليهم ورفعه عنهم لم يكن اتفاقاً وصدفةً أو عملاً محضاً للطبيعة، وإنما هما مقصودين بإرادة ربانية حكيمة وقادرة على كل شيء، وأنهما بسبب أعمالهم القبيحة الظاهرة والباطنة، ولدعائه وطلبه من الله ﷻ ذلك.

ومع كل ذلك، ما إن يرفع عنهم العذاب وينكشف، حتى يبادروا إلى نقض جميع ما أعطوه على أنفسهم لموسى الكليم عليه السلام من العهود والمواثيق، وبشكل عجيب وغير متوقع بحسب المنطق، ويصروا على التمرد والمعصية، والبقاء على ما كانوا عليه من الكفر والظلم والطغيان، واسترقاق بني إسرائيل واستعبادهم واستضعافهم وإذلالهم والتمييز ضدهم، وكان ذلك يتكرر منهم بشكل عجيب إلى التجربة الخامسة، قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[1]. مما يدل على أنها سياسة ثابتة وسلوك دائم لهم، وأنهم لم يستفيدوا بتاتاً من الآيات والبينات التي جاء بها موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين، ولم ينفعهم ما تقدم من الإمهال، وكشف العذاب.

---

١. الأعراف: ١٣٥

وقيل: أن عبارة ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾[١]، تدل على المفاجأة، وسرعة المبادرة إلى النقض، وعدم تأخيره، وتكراره، مما يكشف عن تبييت النية، وإضمار النكث، وذلك كله أمر مخالف للعقل والمنطق والفطرة، والطبع الإنساني السليم، وللمبادئ السامية، والقيم العالية التي تدعوا إلى الوفاء واحترام الوعود والعهود والمواثيق والأيمان، والالتزام الوثيق بها، كتعبير عن الصلاح، وكأساس لبناء الثقة، والمحافظة على متانة العلاقات، وسلامة البناء الاجتماعي، التي هي بدورها أساس للأمن والاستقرار والتنمية والازدهار، وفي الحديث النبوي الشريف: «**لا دين لمن لا عهد له**»[٢].

وعليه: فإن تكرار نكثهم للوعود والعهود والمواثيق يدل على سوء طبعهم، وفساد أخلاقهم، وخبث أنفسهم، وضعف عقولهم ومنطقهم، وسفاهة أحلامهم، واستيلاء الشيطان عليهم بالكامل، واستغراقهم في عالم الدنيا والمادة والمصالح، وانغماسهم الشديد في اللحظة، فهم لا يبصرون الحقائق والعواقب، ويعيشون في ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض، وهذا هو دأب الطواغيت الضالين، والفراعنة المتجبرين، والحكام المستبدين، والمترفين المستغلين، والانتهازيين الأنانيين، والنفعيين الفاسقين المارقين جميعاً عن الحق والعدل والفضيلة دائماً، حيث يعيشون اللحظة، ويعتمدون على القوة والخدعة والمراوغة، وينسون الله ﷻ والآخرة، ويعدون نكث العهود والمواثيق لفرط جهلهم وحماقتهم ذكاء وفطنة وشطارة ودهاء وحسن سياسة!!

---

١. نفس المصدر

٢. النوادر للراوندي، صفحة ٩١

وكان الله ﷻ عالماً بطبعهم، وبما يسرون ويضمرون في أنفسهم من الغدر، ونقض العهود والوعود والمواثيق، إلا أنه ﷻ كان يستجيب لطلبهم؛ لإعطائهم الفرصة الكافية للمراجعة والتصحيح، وإقامة الحجة التامة عليهم، لئلا يكون لهم عند الله سبحانه وتعالى حجة ولا عذر؛ لأن الغاية هي هدايتهم وإيصالهم إلى ما فيه صلاحهم وخيرهم ومصلحتهم وسعادتهم الحقيقة، وليس هلاكهم وشقاؤهم.

ولا يكون الهلاك إلا بعد إقامة الحجة التامة، ورسوخ العناد والاستكبار إلى درجة لا تفيد معها آية أو حجة أو بيان أو موعظة أو نصيحة من أي شخص كان، وتشكيل خطر جدي على المسيرة البشرية، ويعيق تقدم الرسالة الإلهية، ويمنع إيصالها كما هي إلى الناس، فيكون الإبقاء عليهم خلاف الحكمة الإلهية والعدل الإلهي والرحمة الإلهية بالمؤمنين وغاية خلق الإنسان، ولا يكون إلا عن ضعف وعجز القدرة تعالى الله سبحانه عن ذلك علواً كبيراً.

ولهذا قيل: أن عبارة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾[1]، تدل على أن رفع العذاب عنهم مهما تكرر، فهو إلى أجل محدود من الزمن قدر الله ﷻ بقاءه لإقامة الحجة عليهم، وهو معلوم عند الله سبحانه وتعالى، ثم يأتيهم بعده العذاب بالهلاك والاستئصال؛ لتخليص البشرية من شرورهم، وفتح الطريق أمامها للهداية والتكامل المعرفي والتربوي والحضاري بدون حدود ولا عوائق مصطنعة، أي: أن رفع العذاب مؤقتاً وليس مؤبداً.

وبعد أن أقام الله ﷻ الحجة التامة البالغة عليهم بتكرار الآيات

---

١. الأعراف: ١٣٥

والبينات، وتكرر منهم العناد والمكابرة والإصرار على نكث العهود والوعود، والتأويل للآيات على خلاف الوجه الصحيح، وأصبح استمرار وجودهم مع ما هم عليه من الكفر والظلم والطغيان والقوة والتجبر يشكل خطراً جدياً على المسيرة البشرية الكريمة، ويعيق تقدم الرسالة الإلهية، و إيصالها إلى الناس مما يعد مخالفاً للحكمة الإلهية البالغة والعدل والرحمة، أخذهم الله ﷻ أخذ عزيز مقتدر، وانتقم منهم جميعاً في الوقت المعلوم عنده المؤجل لهلاكهم بعد المهلة والأناة و إقامة الحجة التامة البالغة عليهم، بأن أغرقهم أجمعين في اليم بسبب ذنوبهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله ﷻ، وأعرضوا عنها بغير حجة، ولم يفكروا فيها وتجاهلوها، وكأنها لم تكن عناداً منهم وعتواً ومكابرةً واستكباراً على الحق وأهله، ولم ينتبهوا لما تحمله من دلائل على الحق، ولما يترتب على تجاهلها ومخالفتها من عواقب وخيمة، قول الله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[1].

وقيل: صيغ الإخبار عن إعراضهم بصيغة الجملة الاسمية، قوله: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[2]، للدلالة على أن هذا الإعراض ثابت لهم، وراسخ فيهم، وأنه علة التكذيب لديهم المصوغ خبره بصيغة الجملة الفعلية، قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾[3]؛ لإفادة تجدد التكذيب عند تجدد الآيات.

---

١. الأعراف: ١٣٦

٢. نفس المصدر

٣. نفس المصدر

وقيل: المراد باليم، هو البحر الأحمر، المسمى في التوراة بحر سوف، الحاجز بين وادي النيل ووادي سينا، الذي اعترض طريق موسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل حين خرجوا من مصر إلى الأرض المقدسة.

وقيل: المراد باليم، هو نهر النيل العظيم؛ لأن اليم في اللغة يطلق على البحر وعلى النهر العظيم، وقد أطلق القرآن لفظ اليم على نهر النيل العظيم، في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾[1] وذلك بإجماع المفسرين، فاليم واحد. والتعريف في اللفظ هو تعريف العهد الذهني عند علماء المعاني المعروف بتعريف الجنس عند النحاة؛ ولأن النيل هو الأقرب إلى مكان سكن بني إسرائيل والفراعنة؛ ولأنه يجب على بني إسرائيل عبوره حال توجههم نحو الأرض المقدسة؛ لأنهم يسكنون في جهة غرب النيل، ويجب أن يتوجهوا نحو الشرق للوصول إلى الأرض المقدسة «فلسطين»، ولا حاجة لهم بعبور البحر الأحمر، لكي يصلوا إليها، وذلك لوجود منطقة يابسة في مكانهم يمكن العبور منها. أي: قبل حفر قناة السويس في العصر الحديث في العام ١٨٥٩م، وافتتحت بتاريخ ١٧/ نوفمبر /١٨٦٩م.

وقد أغرق الله عز وجل فرعون وجنوده أجمعين في اليم حين لحقوا ببني إسرائيل يريدون منعهم من الخروج من أرض مصر إلى أرض فلسطين؛ لإبقائهم خاضعين لإرادتهم، وتحت سلطتهم، وفي خدمتهم، ولكي لا يقوموا بإعادة بناء قوتهم، ويتقووا على فرعون وقومه، ويقوموا بمهاجمتهم.

---

١. القصص: ٧

فلم يكن لفرعون وجنوده واقٍ يقيهم ولا حام يحميهم من الغرق بيد القدرة الإلهية، ويمنعهم من سوء العاقبة والمصير، وكان غرقهم في اليم وما لحقهم من الخزي والعار هو نصيبهم من العذاب في الدنيا، وما هو مدخر لهم من الخزي والعار والعذاب في عالم الآخرة أشد وأعظم.

والتعليل القرآني واضح لهذه العاقبة السيئة المذمومة والمصير الأسود لفرعون وقومه الظالمين، قول الله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[1]، أي: كذبوا بآيات الله ﷻ رغم وضوح كونها معجزة عظيمة من عند رب العالمين، لا يقدر غيره على مثلها، ولوضوح دلالتها على الحق، والتوحيد والنبوة والمعاد، وعدالة القضية التي يحملها موسى الكليم عليه السلام، وشرعية المطالب الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية التي طالب بها، وشرعية الحركة الثورية لبني إسرائيل؛ وذلك بحسب العقل والمنطق السليم، وتعاملوا معها بتجاهل تام، ولم يفكروا فيها ولم يعتنوا بها وكأنها لم تكن، وأصروا على ما كانوا عليه، مع أنهم لم يكونوا في الحقيقة غافلين عنها، بل كانوا ملتفتين إليها واقعاً بسبب تكرارها، ولأن موسى الكليم عليه السلام كان يذكرهم بها مراراً وتكراراً، وينبههم إليها، وبمختلف الأساليب، والوسائل العديدة، وقد تجاهلوا متعمدين، وتصرفوا معها عملياً كما يتصرف الغافل غير المتلفت.

وكانوا غافلين في الحقيقة عما يترتب على تجاهلها ومخالفتها من العاقبة السيئة المذمومة، والمصير الأسود، والخزي والعار في الدارين الدنيا

---

١. الأعراف: ١٣٦

والآخرة، وذلك لحماقتهم، وضعف عقولهم، وسفاهة أحلامهم، ولجهلهم المطبق بالحقائق الإلهية، وبالسنن الكونية والتاريخية، واستغراقهم في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية الفانية، وبعدهم عن هدى العقل والمنطق والفطرة والشريعة الإلهية والوحي، مما يدل على أنهم قوم مجرمون بحق وحقيقة، ومصرون على المضي قدماً في طريق الإجرام، ولا يملكون القابلية والاستعداد للهداية والإصلاح، ولا تنفع معهم معجزة، ولا حجة ولا دليل ولا برهان ولا موعظة ولا نصيحة لهدايتهم وإعادتهم إلى رشدهم وضمائرهم، مما يعني أن استمرار وجودهم وبقائهم في الحياة شر، ويشكل خطراً جدياً على المسيرة البشرية الكريمة، ومخالف بالمطلق للحكمة والعدل والرحمة الإلهية، مما يفرض حتمية هلاكهم، واستئصالهم، وإزالتهم من الوجود بمقتضى الحكمة الإلهية البالغة وبحسب السنن الكونية والتاريخية الحاكمة.

وهذه العاقبة السيئة المذمومة والمصير الأسود، تنتظر كل طاغية مجرم يصر على الإجرام، ويعتمد على القوة العسكرية والأمنية والاقتصادية والبشرية والأجهزة الإعلامية ونحوها؛ للتنكيل بالمستضعفين والمصلحين والمطالبين بالحقوق، وتشويه صورتهم وسمعتهم لدى الرأي العام الداخلي والخارجي، لفرض حكم الأمر الواقع، وشراء ضمائر أصحاب النفوس الضعيفة والمريضة من الانتهازيين الأنانيين والمنتفعين الفاسدين المارقين من النخبة الفاسدة؛ لتبرير فساده وجرائمه وجناياته، ومنطقه الوحيد هو الخداع والتضليل والكذب ونقض العهود والمواثيق، ولا يقيم وزناً للدين والحقائق والمنطق والقيم والمبادئ، ولعدالة القضية وشرعية المطالب

وواقعيتها، ولا شيء من نحو ذلك.

فالعبرة من الآية الشريفة المباركة واضحة كل الوضوح، وبليغة غاية البلاغة، فقد فرعت الانتقام على التكذيب والعناد والمكابرة ونكث العهود، تفريع النتيجة على المقدمات، مما يدل على العموم، وحتمية هلاك واستئصال الظالمين والمستكبرين والمعاندين، وتخليص المؤمنين والمستضعفين من قبضتهم وشرورهم، وبخصوص فرعون الطاغية وقومه الفاسقين، فإن العاقبة السيئة المذمومة والمصير الأسود الذي انتهوا إليه، كان لسببين: كفرهم، وظلمهم لبني إسرائيل.

وعليه: فما يخسره الطواغيت الضالون والفراعنة المتجبرون والحكام المستبدون والنفعيون الفاسدون المارقون ونحوهم، أكثر مما يكسبونه من الملك والثروة والجاه والسلطة في عالم الدنيا الفانية، وأكثر بكثير مما يخسره المستضعفون في هذا العالم الزائل. وفي الحديث الشريف بما معناه: «**إن فرعون قد خلّى عن بني إسرائيل بعد ما كان من عذاب الدم، لما أصابه من الجزع والخوف الشديد، فاجتمع بنو إسرائيل إلى موسى الكليم عليه السلام، وخرج بهم من مصر متوجهاً إلى الأرض المقدسة «فلسطين»، وبلغ ذلك فرعون، فقال له هامان: قد نهيتك عن أن تخلي عن بني إسرائيل، وقد خالفتني وخليت عنهم، وها هم قد اجتمعوا إلى موسى، وخرج بهم إلى فلسطين، وسوف يجمعون قوتهم، ويتقوون عليك، ويغلبونك، ويزيلون ملكك، فجزع فرعون من كلامه، فحشد الجموع من الجند، وخرج في طلبهم، فكان ما كان من غرقهم جميعاً في اليم، ونجاة موسى الكليم عليه السلام**

وبني إسرائيل جميعاً»[١].

وهذا يدل على أمرين:

١. المنهج السلمي الذي اتبعه موسى الكليم عليه السلام في المقاومة والمطالبة بالحقوق، وأن هدفه في الأساس هو الإصلاح وليس إسقاط النظام الفرعوني، ولو كان هدفه إسقاط النظام لما خرج من مصر إلى فلسطين، ولما ضمن إلى فرعون بقاء ملكه إن هو آمن وأطاع، إلا أن فرعون الطاغية قابله بالعنف والإرهاب والقمع، فقتل السحرة المؤمنين، وذبح أطفال بني إسرائيل الذكور، واسترق نسائهم، وسجن رجالهم، وبالغ في استضعافهم و إذلالهم، فعاقبه رب العالمين على كفره وظلمه بعقوبة الهلاك والاستئصال عن طريق الغرق.

٢. الدور السلبي القذر الذي تلعبه البطانة الفاسدة في تأزيم الأوضاع، و إعاقة عملية الإصلاح، والتحريض على المصلحين الشرفاء، والمطالبين المخلصين بالحقوق المشروعة الواقعية، وقد تبالغ هذه البطانة الفاسدة في التملق إلى درجة التظاهر بالملكية أكثر من الملك نفسه، ليس حقاً و إخلاصاً ووفاء له، فهم لا يقيمون وزناً لهذه القيم، الحب والإخلاص والوفاء ونحوها، و إنما من أجل مصالحهم، والإبقاء على امتيازاتهم غير المشروعة التي حصلوا عليها بدون استحقاقٍ ثمناً لولائهم الأسود للنظام وللجرائم التي يرتكبونها

١. تفسير القمي، جزء ١، صفحة ٢٣٨

ضد المصلحين الصالحين الشرفاء والمطالبين المخلصين بالحقوق المشروعة الواقعية ورغبتهم الجامحة في المزيد منها، والحاكم العادل الرشيد الفطن هو الذي يجمع حوله البطانة الصالحة، التي تعينه على الخير والصلاح، ويميز بين الصالح والفاسد من بطانته ويبعد عنه الفاسدين، ولا يغتر ولا ينخدع بوساوسهم ودسائسهم الشيطانية.

استخلاف بني إسرائيل في الأرض

﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾

لما عاند فرعون وقومه المستكبرون الفاسقون وكابروا واستكبروا على الحق وأهله، ولم يستفيدوا من الآيات النيرات والمعجزات الباهرات والبينات الواضحات والبراهين الساطعة القاطعة والمواعظ البليغة والنصائح الصادقة التي جاء بها الولي الناصح موسى بن عمران الكليم عليه السلام من عند رب العالمين، وأصروا على الكفر والظلم والجور والطغيان واستضعاف بني إسرائيل، و إذلالهم والتمييز ضدهم، ونشر الفساد في الأرض، وسلب بني إسرائيل حقوقهم الطبيعية والسياسية في الحياة، مثل: حقهم في الحياة، وحرية العقيدة والضمير، وممارسة الشعائر الدينية، والمشاركة الفعلية في صناعة القرار، وتقرير المصير، وحقهم في الإقامة والسفر والهجرة، ونحو

ذلك، أخذهم الله ﷻ أخذ عزيز مقتدر وانتقم منهم، بالعقاب الذي استحقوه، بأن أغرق فرعون الطاغية والذين كانوا معه من جيشه وخاصته وأعوانه وأنصاره الذين خرجوا معه لملاحقة موسى الكليم عليه السلام وقومه الإسرائيليين والذين آمنوا معه الذين باشروا الخروج من مصر متوجهين إلى الأرض المقدسة فلسطين؛ لكي يعبدوا الله ربهم بحرية كما يشاؤون، في أمن وسلام.

وأهلك الكثير من قومه الأقباط الذين تخلفوا عن الخروج معه، ودمر ما كان في أيدي من تبقى منهم من الإمكانيات والقدرات المادية والاقتصادية في سكنهم بعوامل طبيعية، مثل: الزلازل والطوفانات ونحوها؛ لئلا تبقى لهم الفرصة لإعادة بناء قوتهم، واستعادة شوكتهم، ثم يعيدوا الكرة على بني إسرائيل، وينتقموا منهم؛ لسبب ما حل بسلفهم، يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**أن جميع الفرعونيين لم يغرقوا في النيل، بل غرق فرعون وجماعة من خواصه وعسكره، الذين كانوا يلاحقون موسى** عليه السلام**، ومن المسلم أنه لو بقيت تلك الثروات العظيمة والإمكانيات الاقتصادية الهائلة بيد من بقى من الفراعنة، الذين كان عدد نفوسهم في شتى نواحي مصر كثير جداً؛ لاستعادوا بها شوكتهم، ولقدروا على تحطيم بني إسرائيل أو إلحاق الأذى بهم على الأقل**»[1]، ليتوصل من ذلك إلى حدوث عوامل طبيعية ضخمة، مثل: الزلازل والطوفانات ونحوها، أهلكت الكثير من قوم فرعون الأقباط، وقضت على ثرواتهم وممتلكاتهم وإمكانيتهم المادية والاقتصادية الضخمة في مناطق سكنهم، وأضعفت معنوياتهم وكسرت شوكتهم، وقضت بشكل كامل على فرصة إعادة بناء

---

١. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ٥، صفحة ١١٦

قوتهم، واستعادة شوكتهم، و إعادة الكرة على بني إسرائيل، للانتقام منهم؛ ليكون بنو إسرائيل في أمن كامل وسلام من شرهم وأذاهم.

وبذلك أنقذ الله ﷻ بني إسرائيل وخلصهم تماماً من ظلم فرعون وقومه وأذاهم، غيرة منه على عباده المؤمنين ونصرتهم، وفتح أمامهم الطريق للإيمان والهجرة إلى الأرض المقدسة ليعبدوه بحرية كاملة، كما يشاؤون في سلام وأمن وأمان، وبناء دولتهم، وأورثهم بعد الذل والمهانة والاسترقاق والسجون وذبح الأبناء والاستضعاف من جميع النواحي، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأمنية والفكرية والدينية، والتمييز ضدهم أمام القانون والقضاء، وبعد طول رزوحهم تحت نير العبودية والأسر، والاستخدام في الأعمال الشاقة والوضيعة، في سبيل مآرب الأقباط ومصالحهم، أورثهم أرضهم الواسعة العريضة مصر وفلسطين وأرض الشام كلها، لا سيما فلسطين «الأرض المقدسة»، التي أفاض عليها الله الرب القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخيرات والبركات والمنافع العظيمة المادية، مثل: الخصوبة العظيمة التي كانت تتمتع بها، والعيون والأنهار والمياه الكثيرة، والأشجار والنباتات والنخيل الباسقات، وكثرة الثمار والإنتاج على أتم وأنفع ما يكون، وكثرة الأموال والأرزاق الواسعة والعيش الرغد الكريم، والعمران الواسع الكثير، ونحو ذلك، والمنافع المعنوية، مثل: النبوة والإمامة، والأماكن المقدسة، بأن مكنهم فيها من السلطة، والثروة، والمقدرات، وتمت بذلك كلمة الرب الجليل، الفائقة في الحسن والجمال والخير على بني إسرائيل، وهي ما وعدهم به ربهم من إهلاك عدوهم، واستخلافهم بدلاً منه، وتمكنهم في الأرض،

قول الله تعالى: ﴿قالَ موسى لِقَومِهِ استَعينوا بِاللهِ وَاصبِروا إِنَّ الأَرضَ لِلهِ يورِثُها مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ وَالعاقِبَةُ لِلمُتَّقينَ ۝١٢٨ قالوا أوذينا مِن قَبلِ أَن تَأتِيَنا وَمِن بَعدِ ما جِئتَنا قالَ عَسى رَبُّكُم أَن يُهلِكَ عَدُوَّكُم وَيَستَخلِفَكُم فِي الأَرضِ فَيَنظُرَ كَيفَ تَعمَلونَ﴾[١]، بأن أخرج ذلك الوعد الإلهي الجميل الصادق من مرحلة القوة والبطون والاستعداد إلى مرحلة الفعلية والظهور.

ووصف الكلمة (الْحُسْنَىٰ) في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ﴾[٢] لأنها توافق ما يحبه بنو إسرائيل، وما فيه خيرهم وصلاحهم وسعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة، وتوافق الإرادة الربانية العليا والحكمة والإلهية البالغة، قول الله وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٣].

وبين الله تبارك وتعالى علة تلك النتيجة والعاقبة الحسنة الممدوحة، أنها بسبب صبرهم على الجهاد في سبيل الله ﷻ، وتحملهم للشدائد، وثباتهم أمام المحن العظيمة، وما ألحقه بهم فرعون الطاغية وقومه الفاسقون المستكبرون من الأذى والسوء، واستمرارهم في المقاومة، وعدم الخضوع لإرادة فرعون وقومه واستسلامهم لمشيئتهم المشؤومة وقبولهم بحكم الأمر الواقع، قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[٤]، هذا يدل على أمور عديدة مهمة، منها:

---

١. الأعراف: ١٢٨-١٢٩

٢. الأعراف: ١٣٧

٣. القصص: ٥

٤. الأعراف: ١٣٧

١. عجيب صنع الله ﷻ، وعظيم قدرته، وحسن تدبيره ولطفه فيما يشاء ويريد؛ إذ جعل النيل الذي هو سبب ما فيه الفراعنة من القوة والرخاء والازدهار سبباً لهلاكهم واستئصالهم وإزالتهم من الوجود، ورفع الوضيع المستضعف على الرفيع المستكبر، ونصره عليه، ومكنه منه، وأورثه أرضه وماله وثروته وسلطته ومقدراته، وهذا التحول العظيم المفاجئ في ميزان القوى، لا يستطيع إحداثه إلا ذو القوة المتين.

٢. أن الله ﷻ ينصر المستضعفين على الفراعنة المتجبرين؛ شريطة أن يصبر المستضعفون، ويتحملوا، ويثبتوا، ولا يستعجلوا النصر قبل أوانه، ويستمروا في المقاومة، ولا يستسلموا لإرادة المستكبرين والحكام والمستبدين، ولا يقبلوا بما يفرض عليهم من حكم الأمر الواقع، فإن من يستسلم للظلم والطغيان كائن حقير، ضعيف الإيمان واليقين والثقة بالله ﷻ، ولا يستحق العون والنصر الإلهي، وأن حصوله على العون والتسديد والتأييد والنصر الإلهي مخالف للحكمة الإلهية البالغة، وفلسفة وجود الإنسان الذي حمل مسؤولية التكليف الإلهي، وتميز بين الكائنات في عالم الوجود بالعقل والإرادة والاختيار، ويتربى ويتكامل بالعلم والعمل، ومن العمل الجهاد في سبيل الله ﷻ ومدافعة الظالمين ومقاومتهم، وعدم الاستسلام إليهم، والسعي الدؤوب والعمل الحثيث؛ لإقامة دولة العدل الإلهي والحكم الرشيد، وتحقيق أهداف الخلافة الإلهية، المعرفية والتربوية والحضارية للإنسان في الأرض.

وقيل: أن لفظ ربك في عبارة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾[1]، تدل على العموم، بمعنى: أن الذي حقق النصر لموسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل على فرعون الطاغية وقومه المستكبرين الفاسقين رغم كل ما كان عليه بني إسرائيل من الضعف وقلة الإمكانيات، وما كان عليه فرعون وقومه من السلطة والقوة وما كان لديهم من الإمكانيات المادية والبشرية الضخمة والهائلة جداً، هو ربك يا محمد ورب جميع المؤمنين والعالمين، وهو سينصرك والمؤمنين والمستضعفين إذا قمتم بما يجب عليكم القيام به، من التخطيط، والعمل، والمقاومة، والصبر، والثبات، كما نصر موسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل؛ لأنه الرب الحكيم الرحيم القادر على كل شيء، وهذه سنته وصنعه في الخلق، فكل شعب مؤمن ومستضعف ينهض ويحاول تخليص نفسه ونيل حقوقه، ويتحلى بالصبر والثبات والتحمل على طريق الكرامة والمقاومة، ويقوم بما يجب عليه القيام به من التخطيط والعمل الجماعي، ولا يستعجل النصر قبل أوانه، فإنه ينتصر في نهاية المطاف حتماً.

وفي الآية الشريفة المباركة دليل على فضيلة الصبر والتحمل والثبات، وأن الصابر صائر إلى النصر وتحقيق الأمل، وبشارة للمؤمنين الصابرين المجاهدين بحسن العاقبة في الدارين الدنيا والآخرة، وإنذار للظالمين والحكام المستبدين بزوال ملكهم وسوء العاقبة في الدارين الدنيا والآخرة.

وبالانتقام الإلهي العظيم من فرعون وقومه الظالمين الفاسدين

---

١. نفس المصدر

المستكبرين في الأرض بغير الحق، تم هلاك معظمهم واستئصالهم وزوالهم من الوجود، وانتهت دولتهم وتحطمت قدرتهم وانكسرت شوكتهم وذهب مكرهم وكيدهم وتدبيرهم أدراج الرياح، وخسروا الملك والثروة، وخسروا حياتهم وكل ما بنوه في قرون عديدة وشيدوه لأنفسهم وأجيالهم من الأبنية الشامخة المزخرفة والعمارات الضخمة والقصور الفخمة والمزارع والبساتين والمصانع، وما جمعوه من ثروات هائلة حيث انتهت إلى الخراب والدمار والزوال، وخسروا الآخرة وما أعده الله تبارك وتعالى فيها للصالحين من النعيم المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال، واستبدلوه بالعذاب العظيم والشقاء الحقيقي الكامل الأبدي، بسبب تكذيبهم بآيات الله ﷻ، و إصرارهم على الكفر والظلم والطغيان والاستضعاف والإذلال لبني إسرائيل، والتمييز ضدهم، ونشر الفساد في الأرض، وهذا هو الخسران المبين الذي ينتظر كل فرعون متجبر، وحاكم مستبد ظالم ومترف مستغل وانتهازي أناني ونفعي فاسد وكل خائن للأمانة؛ لأن هذه النتيجة والعاقبة السيئة المذمومة تعبر عن الإرادة الربانية العليا التي تعلو ولا يعلى عليها أبداً في تدبير المسيرة التاريخية التكاملية للإنسان على وجه الأرض.

وبهذه النتيجة انتهت عمارة آل فرعون إلى الخراب، ونعيمها إلى العذاب والشقاء الأبدي الكامل بما ظلموا، وفيها عبرة بالغة لقوم يفقهون ويتعظون، ويستفيدون من التجارب، ولا يصرون على الخطأ، ولا يكابرون بغير وجه حق تحت تأثير غرور السلطة والقوة والثروة. إلا أن التجارب التاريخية والمعاصرة أثبتت بأن الفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين المارقين، لضيق أفقهم وشدة تعلقهم بعالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية

العاجلة الفانية، ولغرورهم البالغ بالسلطة والقوة والثروة، واعتمادهم الكلي عليها، وانفصالهم عن الواقع والحقائق والسنن والمنطق والثروة، فإنهم غالباً لا يفهمون دليلاً أو حجة، ولا يتعلمون من التجارب، ولا يتعظون بالعبر والآيات، ولا يستفيدون من نصيحة، حتى يهلكوا مصحوبين بالخزي والعار واللعنة من الله جَلَّ جَلالُهُ من فوق عرشه، واللعنة من الملائكة المطهرين في الملأ الملكوتي الأعلى، واللعنة من الناس طوال التاريخ.

وذلك يكون منهم لعظيم الجرائم الشنيعة مثل القتل، والسجن، والتشريد، والتضييق، ونحوها، التي ارتكبوها بحق الأبرياء والأولياء الصالحين والمصلحين المخلصين الشرفاء والمطالبين بالحقوق، ولا يريد الله عَزَّ وَجَلَّ أن يغفرها لهم، قول الله تعالى: ﴿وَقالَ موسى رَبنا إِنكَ آتَيتَ فِرعَونَ وَمَلَأَهُ زينَةً وَأَموالاً فِي الحَياةِ الدنيا رَبنا لِيُضِلوا عَن سَبيلِكَ رَبَنَا اطمِس عَلى أَموالِهِم وَاشدُد عَلى قُلوبِهِم فَلا يُؤمِنوا حَتى يَرَوُا العَذابَ الأَليمَ﴾[1]، فقد دعا موسى الكليم عليه السلام على فرعون وملئه، بأن يجعل قلوبهم قاسية، لا تقبل الحق، ولا تنشرح للإيمان، حتى يروا العذاب الأليم، وذلك يشكل حاجزاً خلاف غاية الرسالة التي جاء بها من أجل هداية الناس رحمة بهم، مما يدل على شديد غضبه عليهم، لتماديهم في الغي والعناد والمكابرة والاستكبار على الحق وأهله، وتكذيب الرسل، وإصرارهم على الكفر والضلال والظلم والجور والطغيان، واستخدام نعم الله تبارك وتعالى العظيمة عليهم، مثل: السلطة والقوة والثروة، في الفساد والظلم والطغيان والإضلال عن الدين الحق، وارتكبوا الجرائم العظيمة ضد الأبرياء والأولياء الصالحين والمصلحين والمطالبين

---

١. يونس: ٨٨

بالحقوق المشروعة، فاستجاب الله ﷻ لدعوة وليه ورسوله الكريم؛ لأنها دعوة حق وإخلاص ونصيحة، تتوافق مع الحكمة الإلهية، والعدل الرباني، والرحمة بالمؤمنين، ولتحذير الناس من مغبة التورط في مثل هذه الجرائم والمنكرات، لخطورتها على أصحابها؛ لأنها تحجبهم عن التوفيق إلى التوبة، ولسوء عاقبتها عليهم في الدارين الدنيا والآخرة.

المحور الثاني

سورة يونس (٧٥-٩٣)

- الفصل الأول: حمل موسى وهارون الرسالة إلى فرعون وملئه وحوارهما معهم
- الفصل الثاني: المبارزة التاريخية وهلاك فرعون

الفصل الأول: حمل موسى وهارون الرسالة إلى فرعون وملئه وحوارهما معهم

قول الله تعالى: ﴿ثُم بَعَثنا مِن بَعدِهِم موسى وَهارونَ إِلى فِرعَونَ وَمَلَئِهِ بِآياتِنا فَاستَكبَروا وَكانوا قَومًا مُجرِمينَ ﴿٧٥﴾ فَلَما جاءَهُمُ الحَق مِن عِندِنا قالوا إِن هذا لَسِحرٌ مُبينٌ ﴿٧٦﴾ قالَ موسى أَتَقولونَ لِلحَقِ لَما جاءَكُم أَسِحرٌ هذا وَلا يُفلِحُ الساحِرونَ ﴿٧٧﴾ قالوا أَجِئتَنا لِتَلفِتَنا عَما وَجَدنا عَلَيهِ آباءَنا وَتَكونَ لَكُمَا الكِبرِياءُ فِي الأَرضِ وَما نَحنُ لَكُما بِمُؤمِنينَ﴾[1].

إيصال موسى وهارون الرسالة إلى فرعون وملئه

﴿ثُم بَعَثنا مِن بَعدِهِم موسى وَهارونَ إِلى فِرعَونَ وَمَلَئِهِ بِآياتِنا فَاستَكبَروا وَكانوا قَومًا مُجرِمين﴾

توالت الرسل على هداية البشرية منذ بداية انطلاقة مسيرتها على وجه الأرض، وكان الإنسان الأول أبو البشر آدم عليه السلام نبياً ورسولاً، ولم تنقطع سلسلة الأنبياء الكرام والأوصياء الهادين والمهديين عليهم السلام حتى نبينا محمد صلى الله عليه وآله

١. يونس: ٧٥-٧٨

خاتم الأنبياء والرسل عليهم السلام، حيث انقطعت النبوة بنبوته، وختمت الرسالة برسالته، وبقى الأوصياء عليهم السلام من بعده، يواصلون طريقه، ويحافظون على دينه من التحريف والتبديل، ويأخذون بأيدي الأفراد المؤهلين، ويوصلونهم إلى أسمى درجات الكمال الإنساني المقدر، ويتصدون لإقامة الدولة الإسلامية، وتدبير شؤون الأمة، وتنفيذ الأحكام، وتطبيق الشريعة.

وعليه: فالحكمة الإلهية في ختم النبوة مرتبطة تماماً بتعيين الإمام المعصوم، الذي يمتلك خصائص النبي كلها ما عدا النبوة والرسالة، والذي يتكفل بالقيام بجميع وظائفه الباقية ما بقيت المسيرة البشرية على وجه الأرض. فالأوصياء باقون إلى نهاية المسيرة البشرية؛ لأن وصول الإنسان إلى كماله وسعادته الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، وتحقيق غاية وجوده، وتحقيق غاية وجود الرسالات، وإنزال الكتب السماوية، يتوقف على ذلك.

وقد تكفل الله عز وجل بهداية جميع المخلوقات، وإيصالها إلى كمالها المقدر لها واللائق بها وتحقيق غاية وجودها، والإنسان أفضل المخلوقات وأكرمها على الإطلاق عند الله تبارك وتعالى، ومن المستحيل عقلاً أن يترك الله سبحانه وتعالى الإنسان بدون هداية، وبدون أن يوصله إلى كماله المقدر له واللائق به وتحقيق غاية وجوده. وليس من المعقول والمنطقي أن يترك الله تبارك وتعالى والرسول صلى الله عليه وآله الرسالة بدون أن يعين من يقوم على العناية بها، وضمان الإبقاء على سلامتها واستمرارها، وضمان سلامة تطبيقها، وإقامة الحجة لله سبحانه وتعالى على الناس، وفي الحديث

الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إن الله أجل وأعظم من أن يترك الأرض بغير إمام عادل**»[1]، وفي حديث آخر: «**إن الله لم يدع الأرض بغير عالم، ولولا ذلك لم يعرف الحق من الباطل**»[2]، وفي حديث ثالث: «**أن الأرض لا تخلو، إلا وفيها إمام، كيما إن زاد المؤمنين شيئاً ردهم و إن نقصوا شيئاً أتمه لهم**»[3].

ومن الأنبياء الكرام العظام عليهم السلام الذين بعثهم الله تبارك وتعالى إلى البشرية لهدايتها والوصول بها إلى كمالها المعرفي والتربوي والحضاري وتحقيق غاية وجودها، موسى بن عمران كليم الرحمن وأخوه ووزيره هارون عليهما السلام.

وموسى الكليم عليه السلام من الأنبياء الخمسة أولي العزم وهم: نوح، و إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه وآله، وهم أفضل الأنبياء الكرام العظام عليهم السلام، ورسالتهم عامة ولكل واحد منهم شريعة خاصة كاملة شاملة تلبي حاجات البشرية جميعها في دورتها الرسالية الخاصة بها، وله كتاب سماوي منزل عليه من عند رب العالمين، وكلهم أنبياء أئمة.

وعليه: فإن عبارة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ﴾[4]، تدل على أن هارون عليه السلام كان شريكاً كاملاً لموسى الكليم عليه السلام في النبوة والرسالة، ولكنه

١. الكافي، جزء ١، كتاب الحجة، الحديث ٦

٢. نفس المصدر، الحديث ٥

٣. نفس المصدر، الحديث ٢

٤. يونس: ٧٥

كان خاضعاً لإمامته، ومتبعاً له في القيادة والتدبير والشريعة، مثلما كان نبي الله لوط عليه السلام خاضعاً لإمامة إبراهيم الخليل عليه السلام، ومتبعاً له في القيادة والتدبير والشريعة، فالمبعوث أصالة بالرسالة والشريعة هو موسى الكليم عليه السلام، وكان هارون عليه السلام مبعوثاً معيناً له وناصراً.

وقد بعث موسى الكليم وهارون عليهما السلام إلى فرعون وقومه الأقباط، بالإضافة إلى بني إسرائيل، وسائر الناس في دورته الرسالية. وقد خص الله جل جلاله بالذكر فرعون وملئه في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[1] لأنهم كبار القوم ورؤساؤهم وساستهم، وبيدهم أزمة التدبير والحل والعقد ولهم الكلمة الكولي فيهم وبيدهم مقدرات البلد كلها، فإن هم آمنوا وصلحوا، آمن من سواهم وصلحوا.

وعليه: فإن كل حركة إصلاحية يجب أن تستهدف هذه الطبقة أولاً في تحركاتها، قول الله تعالى: ﴿فَقاتِلوا أَئِمةَ الكُفرِ إِنهُم لا إيمانَ لَهُم لَعَلهُم يَنتَهونَ﴾[2]، أي: قاتلوا القادة والزعماء والرؤساء في الكفر، الطاغين في الدين الحق، والمحاربين له، الناصرين لدين الشيطان الرجيم، الذين يتبعون في ذلك ويقتدى بهم، وواجهوهم بكل وسيلة وقوة وصلابة وثبات.

وعلة استحقاقهم للحرب والمواجهة، أنهم الأصل وغيرهم تبع لهم، ومقتدى بهم؛ ولأنهم لا يفون بالوعود والعهود والمواثيق؛ ولأنهم متصفون بالخيانة وملازمون لها، ولا يمكن الوثوق بهم، والاطمئنان إليهم، ما دامت

---

١. نفس المصدر

٢. التوبة: ١٢

هـذه صفاتهـم.

والغايـة مـن قتالهـم ومواجهتهـم؛ وضـع حـد لجرائمهـم وجناياتهـم ضـد الديـن الحـق والمؤمنيـن الأبريـاء، وبرجـاء أن ينتهـوا عمـا هـم عليـه مـن الكفـر والطعـن في الديـن الحـق والنكـث بالعهـود والوعـود والمواثيـق، وانتهـاك حقـوق الإنسـان، والاعتـداء على الحريات والحرمات والمقدسـات، وغيـر ذلـك مـن الجرائـم العظـام القائميـن دائمـاً على ممارسـتها، وبـدون هـذه المواجهـة لهـؤلاء المجرميـن لا يمكـن إحـراز تقـدم حقيقـي وفعلـي فـي الحركـة الإصلاحيـة.

وقـد زود الله ﷻ موسـى الكليـم وأخـاه هـارون عليهما السلام بمـا يثبـت صـدق نبوتهمـا ورسـالتهما مـن الحجـج النيـرة والبراهيـن السـاطعة والبينـات الواضحـة والمعجـزات الباهـرة، وهـي المعجـزات التسـع: العصـا التـي تتحـول إلـى ثعبـان حقيقـي عظيـم، واليـد السـمراء التـي تتحـول إلـى بيضـاء جميلـة تشـع نـوراً كالشـمس السـاطعة يمـلأ المـكان، والقحـط، والجـدب، ونقـص الثمـرات، والطوفـان، والجـراد، والقُمّـل، والضفـادع، والـدم.

وقيـل: أن لفـظ ﴿ثُمَّ﴾[1] فـي عبـارة ثـم بعثنـا مـن بعدهـم موسـى وهـارون، يفيـد التراخـي الرتبـي؛ لأن بعثـة موسـى الكليـم وهـارون عليهما السلام كانـت أعظـم مـن بعثـة مـن سـبقهما مـن الرسـل، مثـل: نـوح، و إبراهيـم؛ لأنهـا كانـت انقلابـاً وتحـولاً عظيمـاً وتطـوراً جديـداً متميـزاً فـي تاريـخ الرسـالات والشـرائع السـماوية ومسـيرة الحضـارة الإنسـانية، إذ كانـت الرسـالات السـابقة مقتصـرة علـى الدعـوة إلـى عقيـدة التوحيـد، وتهذيـب النفـوس، وبعـض العبـادات، وبعـض أحـكام

١. يونس: ٧٥

المعاملات، أما رسالة موسى الكليم وهارون عليهما السلام فقد كانت بالإضافة إلى جميع ذلك، قد جاءت لتحرير الأمة من الاستعباد والاستضعاف، وتكوين أمة ودولة مستقلة لها هويتها وثقافتها الخاصة، ووضع نظام تشريعي وسياسي كامل لإدارة شؤونها، ونظام أمني ودفاعي يضمن استقرارها واستقلالها، ونحو ذلك، ونزول كتاب سماوي «التوراة»؛ ليكون مرجعاً لها، ودستوراً ينظم حياتها، وكافة أمورها وشؤونها، وهذه الأمور مجتمعة غير مسبوقة في تاريخ الرسالات السماوية، مما يعطي رسالة موسى الكليم وهارون عليهما السلام أهمية خاصة متميزة في تاريخ الرسالات والشرائع السماوية والحضارة الإنسانية، وفيه دليل على أهمية البعد العملي في الرسالات السماوية، وهو تحرير بني إسرائيل المستضعفين، وإقامة دولة العدل الإلهي، مما يعطي الرسالات السماوية أهمية واقعية في الحياة، تجذب النفوس إليها، وتربط الرسالات بواقع الحياة.

وقد جعل الله جل جلاله هذا البعد، هو الغاية العملية للرسالات السماوية، قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1]، أي: أرسلنا رسلنا بالمعجزات النيرات الباهرات والحجج الساطعة، التي تتضمن كل ما يحتاجه الناس من التعاليم الإلهية، والمعارف الحقة، والعقائد الصحيحة، والتشريعات الربانية، والقيم الأخلاقية العالية، والعبر والسير ونحو ذلك، والدعوة إلى العمل بها من أجل هدايتهم وإرشادهم لما ينفعهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولما فيه

---

١. الحديد: ٢٥

خيرهم وصلاحهم ومصلحتهم وسعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة.

وأنزلنا الميزان المادي الذي توزن به الأثقال والأطوال، وتقاس به الأحوال المادية، مثل: الحرارة، والرطوبة، وضغط الدم، ونسبة السكر، ونحو ذلك، والميزان المعنوي المنطقي والديني الذي توزن به وتقاس الأفكار والمعتقدات والقيم والأعمال، بغية أن يتحرك الناس نحو الصحة والسلامة، و إقامة العدل في الأرض بين الناس، وصيانة الحقوق والحريات والحرمات والمقدسات، وتوفير الأمن والاستقرار، وتحقيق النمو والازدهار ونحو ذلك.

وأنشأنا الحديد بما فيه من الصلابة والقوة لفائدة الناس، مثل: صناعة السلاح للدفاع عن الدين الحق والحقوق والمقدسات، والصناعات المدنية العديدة المختلفة لجميع الأغراض، والغاية هي أن نميز الطيبين الذين يستخدمون الحديد فيما ينفع الناس، وينصرون به الله سبحانه وتعالى ودينه الحق وكتبه ورسله بصدق نية و إخلاص، من الخبيثين الذين يستخدمون الحديد في التخريب والتدمير والقتل ونشر الفساد في الأرض، وينصرون دين الشيطان، ويحققون أهدافه في الحياة.

ولأن الله قوي عزيز، لا يعجزه شيء، ولا يضعف عن شيء، ولا يفوته هارب، وهو قادر على الانتصار على أعدائه، ويهلك من يريد هلاكه، ولا يحتاج إلى أحد أبداً، فإن الجهاد لإعلاء كلمة الحق، ونصرة دين الله ورسله، تعود بالفائدة والمنفعة والمصلحة على الإنسان المجاهد، بأن يصل إلى كماله المقدر له، ويفوز برضوان الله ذي الجلال والإكرام، وثوابه

على الله سبحانه وتعالى.

ولأن الله قوي عزيز فإن الرسل الكرام عليهم السلام والمؤمنون الصالحون الذين يتخلقون بأخلاق الله ذي الجلال والإكرام يجب أن يكونوا أقوياء أعزة، قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، و إنما يحصل ذلك بالجهاد والتضحية.

وفي آية الحديد دليل على أن كل ما جاء به الرسل الكرام عليهم السلام من عند الله رب العالمين سبحانه وتعالى من الأوامر والنواهي والحدود والقصاص والمواريث وغيرها، كلها حق وعدل، وأن الإصلاح و إقامة العدل لا ينفصلان عن الجهاد وما يصاحبه من التضحيات الجسيمة، وتقديم ذلك بصدق نية و إخلاص، وعن إقامة الكتاب السماوي المنزل من عند الله تبارك وتعالى، والعمل بما فيه، واتباع القادة الربانيين الأنبياء الكرام عليهم السلام، وفرض الجهاد في سبيل الله عز وجل واتباع القادة الربانيين، والاقتداء بهم، دليل على حكمة الله سبحانه وتعالى، وكمال شريعته، وهي حلقات مترابطة في سلسلة واحدة معروفة البداية والنهاية.

موقف فرعون وملئه الاستكباري من الرسالة

﴿فَلَما جاءَهُمُ الحَق مِن عِندِنا قالوا إِن هـذا لَسِحرٌ مُبين﴾

وكان موقف فرعون الطاغية وملئه المستكبرين وقومه الفاسقين

---

١. المنافقون: ٨

المارقين من رسالة موسى الكليم وهارون عليهما السلام هو التكذيب والاستكبار على الإيمان بالآيات واتباع الحق وأهله بدون حجة أو برهان ظلماً وعلواً بدل التصديق والإذعان بعد وضوح الحق وقيام الدليل القاطع الذي لا يقبل الشك والريب والتردد عليه، فلم يقبلوا بالآيات، ولم يتواضعوا لها، ولم يذعنوا لما اشتملت عليه من الدلالات القطعية الواضحة، وعلة ذلك أنهم لم يكونوا مستعدين للخضوع إلى رسولين من قوم مستضعفين، كانا تابعين لهم، وخاضعَين لإرادتهم، قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مبِينٍ ﴿٤٥﴾ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾[1].

وهذه النظرة المادية الاستعلائية من الكوارث التاريخية التي سنتها البشرية ولا زالت هي أحد أهم أسباب الظلم والطغيان، ونشر الفساد في الأرض، وتكذيب الرسالات، ورفض الحركات الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية، وأحد أهم العقبات التي تواجه الرسل الكرام عليهم السلام والأولياء الصالحين وقادة الإصلاح في العالم، قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيا وَرَحْمَتُ رَبِكَ خَيْرٌ مِما يَجْمَعُونَ﴾[2]، أي: قال الطغاة والجبابرة والمترفون بحسب منطقهم المادي الأعوج ونظرتهم الطبقية المنحرفة معترضين على اختيار الله تبارك وتعالى لمحمد بن عبدالله نبياً ورسولاً منه إلى عباده،

---

١. المؤمنون: ٤٥-٤٧

٢. الزخرف: ٣١-٣٢

لو كان القرآن منزلاً من عند الله سبحانه وتعالى حقاً لنزل على رجل عظيم من عظماء الدنيا، يمتلك المال والقوة والسلطة، وسيداً في قومه، مثل: الوليد بن المغيرة المخزومي من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف، وليس على محمد بن عبدالله الفقير الضعيف، الذي لا يملك المال والقوة والسلطة، حتى وإن كان له نسب شريف.

فبحسب منطقهم المادي ونظرتهم الطبقية الموروثة، فإن الرسالة الإلهية منزلة عظيمة، لا تنبغي إلا لرجل عظيم من أصحاب المال والقوة، وسيد في قومه، وأنه يجب أن يخضع الفقير للغني، ويكون تبعاً له وخاضعاً لإرادته، حتى وإن كان الغني جلفاً من الأجلاف في المعرفة والأخلاق، وكان الفقير عارفاً وولياً كريماً من الصالحين.

ويرد عليهم القرآن الكريم مستنكراً اعتراضهم وتحكمهم: أهم يعرفون مقامات الخلق ومكان الخير والفضيلة، ويملكون معيار العظمة ووزنها، ليكونوا هم المدبرين والمتولين لقسمة أمر النبوة والإمامة، التي هي وقف على الأكفاء وصفوة الأصفياء، فيختاروا لها من يشاؤون، ويحرموا منها من يريدون، بحسب أمزجتهم وأهوائهم ومعاييرهم ونظرتهم المادية في الحياة؟! والحقيقة أن النبوة منصب إلهي، ورتبة روحانية، تستدعي العظمة المعنوية، التي تقوم على المعرفة بالحقائق الإلهية، والتخلي عن الرذائل، والتحلي بالفضائل، والله سبحانه هو الأعلم بها من غيره. والنبي يبلغ عن الله سبحانه وتعالى، فهو لسانه وبيانه وعينه في خلقه، ووجهه الذي ينظر إليه الناس، فهل يريد هؤلاء الطغاة الأجلاف والمترفون أن

يختاروا لله ﷻ من يبلغ عنه ويتكلم باسمه؟! بينما الواقع هو أن الله ﷻ يتولى قسمة الأرزاق والمعايش ويقدرها بينهم ويدبر أحوالها في الحياة بقدرته، وبحسب علمه وبمقتضى حكمته، ولم يفض تدبيرها إليهم؛ لأنهم عاجزون عن ذلك وغير مؤهلين له، ولو وكلهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم؛ لضاعوا وهلكوا. وأمر الرزق والمعاش أقل شأناً وأقل خطراً من النبوة والرتب والمقاسات الروحية والمعنوية. فكيف يجوز أن يفوضها ويترك أمر تدبيرها وقسمتها إليهم؟! وقد جعل الله تبارك وتعالى التفاوت بين الناس ولم يساوِ بينهم في القدرات، مثل: الذكاء، والعلم، والقوة، والشجاعة، والمال، والسلطة، ومايز بين منازلهم؛ ليستخدم بعضهم بعضاً في قضاء حوائجهم، وينتفع بعضهم من بعض، فيكون التفاوت بينهم سبباً لمعاشهم، ولقيام نظام الحياة، وتطورها وازدهارها. وقد قبلوا بذلك ولم يعترضوا علينا فيه، وجرت عليه الحياة، وقامت وازدهرت، فكيف يعترضون علينا في تدبير ما هو أعلى وأكثر أهمية، وهو أمر الدين والنبوة والرتب والمقاسات الروحية والمعنوية مع جلالة قدرها وعظم خطرها، وهي رحمة الله الكبرى ورأفته العظمى والطريق إلى حيازة حظوظ الآخرة.

وعليه: فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يقسم فضله ونعمه المادية والمعنوية بينكم بالعدل، وبحسب استحقاق كل واحد منكم، وما فيه خيره وصلاحه، واعلموا بأن النبوة وقف على الأكفاء صفوة الأصفياء، وهي وسائر الرتب الروحية العالية وما أعده الله تبارك وتعالى لعباده الصالحين في الدار الآخرة، من الرضوان والنعيم المقيم خير مما يجمعه هؤلاء الطغاة والمترفون من حطام الدنيا الفانية من الأموال والأولاد والجاه

والسلطة ونحوها من متاع الدنيا وزينتها وزخرفها، وفي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «**جاع رسول الله صلى الله عليه وآله في الدنيا مع خاصته (يعني خصوصيته عند الله) وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته**»[1].

وعليه: فإن كل من يزدري الفقير لفقره، ويكرم الغني ويوقره لغناه، فهو جاهل أحمق!! وكذلك الذي يعمل من أجل الشهرة والرياء والسمعة بدل الصلاح والإنتاج والجنة والرضوان، والذين يعملون بدون بصيرة ورؤية استراتيجية سديدة واضحة ولا مناهج عملية واقعية فاعلة، ويكتفون بالكلام الفارغ والشعارات الجوفاء ويحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا، ويمدحوا التخلف والدكتاتورية والاستبداد ويبررون الظلم والفساد ولا يعرفون حرمة للأولياء.

وكان موقف فرعون وملؤه الاستكباري من رسالة موسى الكليم وهارون عليهما السلام إليهم دليلاً على أنهم كانوا يفصلون بين الحقائق الوجودية وبين كمال الإنسان وصلاحه وخيره وسعادته الحقيقية في الدارين الدنيا في دورتها الكاملة عرضاً وطولاً وفي الآخرة، وافتقارهم إلى المنطق السليم والمنهج القويم في عملية التفكير، وإلى الرؤية الواضحة السديدة عن الكون والإنسان والحياة، وتعلقهم المطلق بعالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية الفانية، واتصافهم بالأنانية وحب الذات المتضخمة والعدوانية والطغيان والاستعلاء والاستكبار على الخلق، واغترارهم بالثروة والقوة والسلطة التي

١. نهج البلاغة، خطبة ١٦٠

كانوا يتمتعون بها، واعتمادهم المطلق عليها، واعتبارها المرجع في تحديد مواقفهم والمعيار في الحكم على الأشخاص.

وعليه: فقد أصبحوا بحق وحقيقة قوماً مجرمين عاصين للعقل والمنطق، وخارجين عن الفطرة والطبع الإنساني السليم، وأصبح الإجرام دأبهم وخلقهم وصفة ملازمة لهم وحالة مستمرة معهم، وكان أصل استكبارهم على موسى الكليم عليه السلام ورسالته ونسبه، فلذلك لم يعبؤوا بالبينات والمعجزات التي جاء بها موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين والحقائق الإلهية الوجودية التي كشفها بالعقل والمنطق والبرهان، فخالفوها وتهاونوا بها وتجرؤوا على ردها، ولم يقبلوها، وأصروا على الاستمرار على ما كانوا عليه من الكفر والظلم والجور والطغيان، والتمييز ضد بني إسرائيل واستضعافهم و إذلالهم وانتهاك كامل حقوقهم الطبيعية والمكتسبة، وذلك كله بسبب فساد طبعهم وفطرتهم وضعف منطقهم؛ ولأنهم لا يتوفرون على الرؤية الكونية السديدة الواضحة، التي تهذب تفكيرهم وأخلاقهم، وتقودهم إلى الحق والعدل والخير والفضيلة، ولا الرؤية التاريخية التي تعيدهم إلى رشدهم، وتضبط مواقفهم العامة في الحياة، ولا توجد لديهم قوة داخلية تردعهم عن الجريمة والخيانة بالغيب، مع غياب القوة الرادعة الخارجية، فأصبحوا مجرمين بحق وحقيقة في الظاهر والباطن، في ذواتهم وسلوكهم ومواقفهم، وأصبحوا مستحقين للعذاب الإلهي المؤلم في الدارين الدنيا والآخرة.

والآية الشريفة المباركة دليل على أن كل من يستنكف عن قبول الحق

والرضوخ له بدون حجة أو دليل مجرم بحق وحقيقة، ويتعدى إجرامه الباطن ليسري إلى الظاهر في سلوكه ومواقفه وعلاقاته، وهو يستحق العقاب الإلهي المؤلم في الدارين الدنيا والآخرة.

تمادي فرعون وملئه في الغي والاستكبار

لقد وصل إلى فرعون وملئه وقومه الأقباط الحق الحقيق الواضح الصريح من عند رب العالمين سبحانه وتعالى، الذي خضعت لعظمته وكبريائه السماوات والأرضين ومن فيها، على يد ولي الله الناصح كليم الرحمن موسى بن عمران عليه السلام، وأقام عليه الدليل القاطع الذي لا يقبل الشك والريب والتردد عن طريق تظاهر المعجزات النيرات الباهرات القاهرات، التي جعلها الله تبارك وتعالى حجة على خلقه وآية لرسالته، فلم يكتفوا بالإعراض عنها وتكذيبها وردها، بل عمدوا إلى الكذب والافتراء وقلب الحقائق رأساً على عقب، وتوجيه الاتهامات الباطلة بدون حجة أو دليل، فوصفوا الآيات والمعجزات لفرط خبثهم وعنادهم وتمردهم وضعف منطقهم بالسحر المبين، أي: الواضح حقيقةً كونه سحراً وليس شيئاً غير السحر، فجعلوا الحق الظاهر وهو المعجزة في منزلة الباطل الظاهر وهو السحر، وأن موسى الكليم عليه السلام قد جاء به لأهداف دنيوية، سياسية واقتصادية، وهي قلب نظام الحكم في الدولة بالمكر والخديعة والسيطرة على الحكم والثروة والمقدرات في البلاد، وقد فعلوا ذلك؛ لأنهم لم يمتلكوا وسيلة لمقاومة جاذبية الرسول والرسالة، وتأثير المعجزات والبينات التي أخذتهم أخذاً عظيماً بصورة محيرة سوى هذا الوصف

الباطل في مجتمع يؤمن بالسحر ويعطيه أهمية كبيرة في الحياة العامة والخاصة، وتسيطر عليه الدكتاتورية والاستبداد التي تسلب الحرية وتفسد الفكر والمنطق والطباع والأخلاق.

والوصف، يدل على عظيم تأثير الرسالة والرسول والمعجزات على الناس، وخطرها البالغ على النظام الفرعوني الفاسد والدولة الجائرة وسلطة الملك الخائن للرعاية والأمانة، فاضطروا إلى مواجهتها بالكذب والافتراء. مما يدل على أن الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة لا يكتفون بالإعراض والرفض في صراعهم ومواجهتهم لأئمة الحق وقادة الإصلاح والثورة والمطالبين بالحقوق الواقعية المشروعة، بل يعمدون إلى الكذب والافتراء وقلب الحقائق رأساً على عقب؛ لتشويه صورة المصلحين والثوار والمطالبين بالحقوق وسمعتهم، واللجوء إلى العنف والإرهاب، مثل: القتل، والسجن، والتعذيب، والتشريد؛ لتغييبهم وإسكات أصواتهم، وذلك لأسباب عديدة منها:

١. السعي لإقناع أنفسهم بصحة مواقفهم العدائية من الصالحين والمصلحين والثوار والمطالبين بالحقوق، فهم لا يكتفون بالكذب على الناس وخداعهم وتضليلهم، بل يكذبون على أنفسهم ويخدعونها ويضللونها، فهم أعداء أنفسهم بحق وحقيقة؛ لأن المواقف في جميع الأحوال لا تنفصل عن الفكر والعقيدة، فإن لم تكن للإنسان قناعة حقيقية، أوجد لنفسه قناعات زائفة؛ ليبرر بها سلوكه ومواقفه المنحرفة عن الفطرة والصراط الإنساني المستقيم.

٢. أن القضايا والمسائل التي طرحها موسى الكليم عليه السلام، مثل: عقيدة التوحيد، وتحرير بني إسرائيل، ليست مسائل نظرية بحتة لا علاقة لها بواقع الحياة، بل هي مسائل نظرية فكرية وعقائدية، مثل: عقيدة التوحيد، تترتب عليها نتائج عملية في واقع الحياة، تمس النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني والثقافي الذي تقوم عليه الدولة الفرعونية، وقضايا عملية مباشرة، مثل: تحرير بني إسرائيل، وتمس السلطة، والأوضاع الأمنية، ومصالح القائمين على السلطة والموالين إليها، وتمس الامتيازات التي يتمتعون بها في ظل النظام الفرعوني القائم على التمييز والتفاوت الطبقي، وعليه؛ اعتبرت هذه المسائل محور الصراع بين الطرفين، ولم تعالج معالجة فكرية ومنطقية، وإنما عولجت معالجة عملية، أمنية وسياسية وعسكرية، وكانت الدافع لدى فرعون وملئه وقومه لارتكاب الجرائم ضد الأبرياء والمؤمنين والأولياء الصالحين المطالبين بالإصلاحات الشاملة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحقوقية وغيرها.

٣. أن المحافظة على النظام القائم والدولة والمصالح لا تكفي من أجلها القوات العسكرية والأمنية، والاقتصاد ونحوها، بل تحتاج إلى الحاضنة الشعبية المؤمنة بها والموالية إليها، وهذه تتأثر بالعقل والمنطق والحقائق غالباً، ما لم يتم تضليلها وتعزيز حالة التعصب الديني والمذهبي والطائفي والعرقي لديها، وهذا يحتاج إلى عمل إعلامي وسياسي دؤوب يستهدف قلب الحقائق وتضليل

الجماهير وإخفاء الحقائق عنها، وإضعاف منطقهم بالتعصب وإيجاد الحجب النفسية الكثيفة بينها وبين الحقائق، وما لم يفعل النظام ذلك فإن الجماهير تقبل الحقائق وتميل إليها وتتأثر بها بفطرتها، لا سيما وأن مصلحتها الحقيقية تكون في ذلك، ولا مصلحة حقيقية لها في النظام الدكتاتوري ومع الحاكم المستبد الأناني الظالم، مما يشكل تهديداً جدياً للنظام الدكتاتوري الفاسد والدولة الجائرة والحاكم المستبد الظالم، ويهدد بفقدان المصالح والامتيازات غير الواقعية وغير المشروعة.

وبناءً على ما سبق: فإن جميع الأنظمة الدكتاتورية والطاغوتية والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا يتعمدون دائماً قلب الحقائق، ويلجأون إلى ممارسة الكذب والخداع والتضليل ضد معارضيهم بشكل غير منطقي وغير عقلاني؛ لأن هدفهم الوحيد هو قلب الطاولة على الخصوم، ومنطق هذه السياسة هو اللامنطق، ومظلته الدكتاتورية والاستبداد والعنف والإرهاب. فلا ينفع معهم منطق، ولا قوة حجة أو برهان، ولا وضوح حقيقة. فالحقائق والحجج تحمل بشكل متعمد على أضدادها وما يخالفها في الظاهر والباطن، والبلاغة والشطارة والدهاء هي القدرة على ذلك بلا عقل أو ضمير.

وأدوات هذه السياسة هي الكذب والافتراء والاتهامات الباطلة، ونعت المعارضين بما ليس فيهم من أقبح النعوت والصفات وما هو مخالف

لواقعهم وحقيقتها في النية والسلوك والمواقف والأهداف والغايات، ولا اعتبار لحق أو منطق أو قيمة أخلاقية أو دين أو مصلحة عامة أو نحو ذلك. فالغاية عندهم تبرر الوسيلة، والغاية عندهم هي شيطنة المعارضة وقلب الطاولة عليها وإحراجها، وتشويه صورة المعارضة وسمعتهم والقضاء عليهم، وتصفيتهم مادياً ومعنوياً من أجل المحافظة على النظام القائم الفاسد والدولة الجائرة والحكومة المستبدة والمصالح والامتيازات المحرمة، وتبرير الظلم والفساد ونحو ذلك.

فمن المحال أن يسلم المعارضون المصلحون من افتراءات الطواغيت الضالين الفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة وأعوانهم الفاسدين المفسدين المعاندين المارقين عن الحق والعدل والخير والفضيلة من الإعلاميين وغيرهم، وأكاذيبهم التي يكيفونها بحسب مقتضيات الزمان والمكان والظروف، فاتهموا موسى الكليم عليه السلام بالسحر، ووصفوا الحسين سيد شباب أهل الجنة عليه السلام بالخارجي، وفي أيامنا يتهم المصلحون والمطالبون بالحقوق بالخروج على النظام والقانون والإرهاب والعمالة للأجنبي ونحو ذلك.

وهذا مما ينبغي على الشعوب الحية أن تنتبه إليه، وتكون على حذر شديد من الوقوع في وحله وشراكه وحبائله، فتظلم وتعادي وتحارب المخلصين الشرفاء، الذين يريدون لها الخير والحرية والازدهار، ويضحون بأنفسهم وأنفس ما يملكون من أجلهم.

وإنه لمن أكبر الخزي والعار والإهانة للعقل والفكر والثقافة أن ينحاز المثقف وأصحاب الفكر وحملة الشهادات العليا ونحوهم إلى الأنظمة

الدكتاتورية، ويدافعون عن الحكومات المستبدة والحكام الظلمة، ويُسخرون أقلامهم وقدراتهم ومواهبهم لتبرير ظلمهم وفسادهم وجرائمهم ضد أبناء الشعب أو ضد شعب آخر تحت تأثير الخوف أو الطمع أو التعصب ونحو ذلك.

وإنه لشرف عظيم للمثقف الشريف المخلص الذي يتمتع باحترام الذات واحترام الضمير والعقل والثقافة أن يلقى الشهادة أو يزج به في السجون، ويتعرض للتعذيب والأذى وسوء المعاملة أو يشرد وينفى أو يضيق عليه في رأيه أو رزقه؛ بسبب آرائه التحررية الموضوعية، ومواقفه البطولية ضد الدكتاتورية والاستبداد ومحاربته للظلم والفساد وانحيازه إلى صفوف أبناء الشعب والمستضعفين.

ولكن المؤسف أن المثقف الخائب الرخيص لا يميز بين الخزي والعار وبين الشرف والمجد، أو لا يكترث بهذا التمييز ولا يعني له شيئاً ولا يقيم له وزناً؛ لفرط أنانيته واستغراقه في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية الفانية، فيرتمي في أحضان الدكتاتورية والاستبداد، ويبيع نفسه لهم من أجل الوجاهة والمناصب والمصالح الدنيوية والامتيازات ونحوها، ويتوهم أنه يحصل على الشرف والشهرة والمجد، وهو في الحقيقة والواقع يحصل على الخيبة والخزي والعار والخسران المبين في مشاهدات أهل العلم والمنطق والفضيلة والبصيرة والعرفان، وأن سلوك هؤلاء المثقفين الخائبين لا يقل قبحاً وخيانةً ولا منطقية عن سلوك كبار الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين الظلمة إن لم يكن أكثر؛ لأن الطواغيت والفراعنة والحكام

المستبدين باعوا دينهم وعقولهم وضمائرهم من أجل دنياهم، أما المثقفين الخائبين فقد باعوا دينهم وعقولهم وضمائرهم من أجل دنيا غيرهم!!

رد موسى على أباطيل فرعون وملئه

﴿قالَ موسى أَتَقولونَ لِلحَقِ لَما جاءَكُم أَسِحرٌ هذا وَلا يُفلِحُ الساحِرون﴾

لقد شعر فرعون الطاغية وملؤه المستكبرون الفاسدون من الأشراف والأعيان والرؤساء والقادة المدنيين والأمنيين والعسكريين وكبار الموظفين في الدولة ونحوهم بالخطر الجدي المحدق، الذي تمثله دعوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته وما جاء به من المعجزات والأعمال الخارقة؛ لإثبات صدق نبوته ورسالته على النظام الفرعوني والدولة الفرعونية الجائرة، وعلى مصالحهم والامتيازات الضخمة والصلاحيات الواسعة التي يتمتعون بها في ظل النظام الفرعوني القائم.

وقد فشلوا فشلاً ذريعاً في مقاومة الدليل بالدليل والحجة بالحجة، ولم يبق أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى القمع والعنف والإرهاب وإلى التضليل والخداع والكذب والافتراء؛ لتشويه صورة موسى الكليم عليه السلام وسمعته أمام الرأي العام للحد من نفوذه ونفوذ دعوته إلى الناس، والتقليل من خطرها على النظام والدولة، وبالتالي على مصالحهم وامتيازاتهم التي يحصلون عليها من النظام.

ولم يجدوا أفضل وأنسب من رميه بالسحر، فروج إعلامهم الذي يعد

أضخم إعلام لدولة في ذلك الزمان، بأن ما جاء به موسى الكليم عليه السلام ما هو إلا سحر محض، وليس له حقيقة سوى ذلك، وأن لموسى الكليم عليه السلام من وراء ما جاء به من السحر، أهداف دنيوية سياسية واقتصادية، تتمثل في قلب النظام، والسيطرة على الحكم والثروات والمقدرات، و إقصاء الفرعونيين عن المناصب الرئيسية والوظائف العليا في الدولة، و إخراج الأقباط من أرضهم وديارهم ووطنهم؛ بغية الاستئثار دونهم بالحكم والثروة والمقدرات. ويهدف هذا الترويج الإعلامي إلى تضليل الرأي العام، وصرف الجماهير عن التأثر بموسى الكليم عليه السلام ومعجزاته والإيمان بنبوته ورسالته، والانقلاب على النظام الفرعوني والدولة الفرعونية والحكومة والملك ومناهضتهم.

وتهمة السحر في الحقيقة حجة من لا حجة له، ولا يمكن لعاقل منصف يبحث عن الحقيقة ويطلبها أن يصدق بهذه التهمة، لأنها واضحة البطلان بحسب العقل والمنطق. وقد انطوت على هذه التهمة وتوافقت عليها قلوب المعاندين المجرمين من الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين والمترفين المستغلين وأتباعهم الانتهازيين المتعصبين والأنانيين والمقلدين لهم والتابعين والجامدين على ما ورثوه من الآباء والأجداد، الخائفين من الإصلاح والتجديد، ويستوحشون منه، وقد دأبوا على التكذيب للأنبياء الكرام عليهم السلام ومناهضتهم ومحاربتهم ورفض دعوتهم ورميهم بتهمة السحر؛ لأنها الأفضل والأنسب في التشويش عليهم؛ لوجه الشبه بين الساحر والنبي في تأثير كل منهما في النفوس؛ ولأن المعجزة تشترك مع السحر في كونهما خارقين للعادة.

فلما سمع موسى الكليم عليه السلام مقالتهم الباطلة ووعاها بجميع أبعادها النظرية والعلمية، نهض للدفاع عن نفسه ودينه ورسالته من رب العالمين، ورد عليهم مُنكِراً ومتعجباً من قولهم وموبخاً لهم لردهم الحق المبين بالباطل البين، ومحاولاً كشف الستار عن الحقيقة وتبيينها وإبطال تهمتهم، فقال: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾[1]، أي: أتطعنون في الحق الظاهر المبين، وتعيبونه وتصفونه أو تعدونه سحراً بغير حق وبدون دليل، وكان الأولى بكم أن تصدقوه وتذعنوا له وتتبعوه وتعظموه. فمع التسليم بأن لكل من السحر والمعجزة نفوذ وتأثير لا يقاوم في النفوس، إلا أنه لا تمكن المقارنة بين نفوذ السحر ونفوذ المعجزة، فإن أعمال السحر بطبيعتها وحقيقتها عبثية، تفتقر إلى الهدفية ولا قيمة تربوية أو حضارية لها، بينما المعجزات لها أهداف إصلاحية، معرفية وتربوية وحضارية، ولها نفوذ بالغ في الوصول إلى أهدافها وتحقيقها.

وأن ما جئتكم به في الحقيقة والواقع وبحقيقة الصفة التي رأيتموها وعاينتموها بأنفسكم فيه أبعد ما يكون عن السحر، ولا يمكن أن يشتبه به أو يشابهه أو يلتقي معه في الحقيقة والظاهر والدلالة وإن كان كل منهما خارق للعادة، فانظروا في صفة ما جئتكم به وتأملوا وفكروا فيها؛ لتعلموا حقيقته على وجه اليقين والقطع وبدون شك أو لبس فيه.

وقد اعترف السحرة وأقروا وهم أهل الفن وأصحاب الاختصاص المحترفين فيه، بأن ما جئتكم به من الآيات والمعجزات ليست من

---

١. يونس: ٧٧

السحر ولا مشابه له، وأن لها حقيقة واقعية فعلية وفاعلية ليست في السحر ولا يمكن أن تكون فيه، فآمنوا برب العالمين القادر على كل شيء الذي يقف وراءها وجاء بها من عنده، وصدقوا بالنبوة والرسالة وأذعنوا للرسول عليه السلام وصدقوه، ودفعوا حياتهم ثمناً لهذا الإيمان؛ لفرط يقينهم فيه، بعد أن كانوا يتوسلون بالسحر إلى فرعون، ويتقربون به إليه؛ ليمنحهم المال والمناصب والجاه والامتيازات والصلاحيات الواسعة في الدولة، أي: انقلبوا من الأنانية والأثرة والمطالب الدنيوية المادية والأدبية إلى الغيرية والإيثار والتضحية والمطالب الأخروية والمعنوية، مثل: الفضيلة والخيرية والرضوان الإلهي والنعيم الأبدي القيم في الآخرة.

وهذا هو الفرق البيّن والجوهري بين غاية السحر وغاية الإيمان، فغاية السحر الشهرة والمال وتزييف الواقع وتحريفه و إبعاد الناس عنه بالتمويه والخداع والتضليل، وغاية الإيمان هداية الناس إلى الحقائق وتقريبهم من الواقع وتعريفهم به عن طريق الحجج والمنطق والبرهان والفوز بالجنة والرضوان والنعيم المقيم في الآخرة.

ويعتبر موقف السحرة وتضحياتهم دليل على يقينهم بحقيقة كون ما جئتكم به آية ربانية ومعجزة عظيمة تقف وراءها قوة غيبية مطلقة فوق الطبيعة وفوق البشر، وأنه يختلف في ظاهره وحقيقته ومدلوله عن السحر كل الاختلاف، ولا يلتقي معه ولا يشابهه، فالسحر باطل محض، يقوم على التمويه والخداع والتضليل، يزيف الواقع ويضل الناس عن الحق ويبعدهم عنه، وليس له حقيقة فعلية في الخارج ولا فاعلية له، ولا يلتقي مع الخير

والفضيلة ولا يصلح حجة للهداية والدعوة إلى الحق والعدل والفضيلة والتربية الصالحة والحضارة المستنيرة؛ لعدم التناسب بينها وبينه.

والسحرة خائبون لا يفلحون ولا يفوزون بمطلوب ولا ينتهون بما هم سحرة بسحرهم إلى خير ولا ينجون من مكروه، وما جئتكم به يكشف عن الحقيقة والواقع، ويدل على الحق والعدل والخير والفضيلة، ويصلح حجة للدعوة إليها و إلى سائر القيم العالية والمبادئ السامية والتربية الصالحة والحضارة المستنيرة المزدهرة، ومنتهى أمري إلى الفلاح والفوز بالمطلوب والوصول إلى جميع ما أُريدَ من خير الدنيا والآخرة.

فانظروا بعين البصيرة لمن يكون النجاح والفرح وحسن العاقبة في الدارين الدنيا والآخرة، لي أم لكم؟ ولمن يكون الفشل والخسران المبين وسوء العاقبة في الدارين الدنيا والآخرة، لي أم لكم؟ قول الله تعالى: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾[1]، أي: انتظروا أنتم ما يسوله لكم الشيطان الرجيم من الأماني، وانتظر أنا ما وعدني ربي من النصر والثواب، وما سيفعله بكم من الهزيمة والعذاب؛ بسبب عنادكم وتماديكم في جحود الآيات الباهرات والبينات الواضحات، وستكشف الأيام أياً من هذين الانتظارين أقرب إلى الحقيقة والواقع، وأي الفريقين أحق بالأمن وحسن العاقبة.

وفي الآية إنذار لهم بالهلاك واستئصال شأفتهم و إزالتهم من الوجود، وتضع فرقاً بين الانتظارين؛ لأن انتظارهم هو انتظار من يخشى وقوع العقاب والهلاك، وانتظاره هو انتظار من يرجو من الله ﷻ النصر والثواب.

---

١. الأعراف: ٧١ - يونس: ٢٠

وعليه: فما جئتكم به هو آيات ومعاجز من عند رب العالمين، وليس من السحر، ولا مشابه له، ولا يلتقي معه في شيء، وأنتم تعلمون هذه الحقيقة علم اليقين، ولا تجهلونها ولا تشكون فيها ولا تشتبه أو تلتبس عليكم، فهي واضحة إليكم وضوح الشمس في رابعة النهار، وأن وصفكم له بالسحر وصف غير موضوعي وغير منصف، وهو وصف من لا يريد أن يعرف الحقيقة، ولا يريد أن يرتبط بها ويعمل بمقتضاها، ويستند إلى حكم ذاتي مسبق، تقف وراءه أغراض سياسية بحتة لا تمت إلى الحقيقة والعقل والمنطق بصلة. وأعلموا بأن السحر باطل محض لا خير فيه ولا مصلحة حقيقية ولا منفعة فعلية إلى الناس، وأن الله سبحانه وتعالى لا يأتي بالسحر؛ لأنه باطل، وإنما يأتي بالحق المحض الذي لا يداخله الباطل والشك والريب، وقد جئتكم بالحق من عنده، والدليل ناهض على إثبات كونه حق وخير وصدق وعدل محض، وأن ما أثمرته الآيات والمعجزات التي جئتكم بها من النتائج الطيبة، ومنها: إيمان السحرة وثباتهم على الإيمان، وتقديم حياتهم ثمناً لإيمانهم، وما لابسها من التأييد والتوفيق الإلهي، دليل على حقيقتها، وأنها من عند رب العالمين، ولا يمكن أن تكون من السحر بأي حال من الأحوال. فالسحر لا يمكن أن يأتي بمثل هذه النتائج العظيمة الطيبة المباركة، والدليل على ذلك ما لحقكم من الفشل والخسران وخيبة الأمل الذي عقدتموه على السحر والسحرة؛ فلأن السحر باطل وضلال، فقد كانت نتائجه من جنسه الفشل والخسران وخيبة الأمل، في مقابل النجاح والفوز بالمراد من الآيات والمعجزات الربانية الباهرة.

وعليه: فقد عدتم إلى العنف والإرهاب لفرض إرادتكم بعد أن فشلتم في الوصول إلى مرادكم بالحجة والدليل والبرهان والتوسل بالسحر والسحرة، بينما أثمرت المعجزات الباهرات والآيات البينات ما هو من جنسها من النتائج الطيبة، مثل: إيمان خلق كثير من الناس، وفي مقدمتهم السحرة الذين جئتم بهم من جميع الأنحاء والمناطق في مصر، من أجل إبطال الحق ومناهضته، فإذا بهم يؤمنون بالحق، ويسلمون به، ويضحون بحياتهم من أجل الثبات عليه والتمسك به؛ لفرط يقينهم فيه، فيكونوا حجة عليكم بدلاً من أن يكونوا حجة لكم كما أردتم وخططتم له.

وإني كإنسان عاقل حكيم، أطلب الحق والهدى والفضيلة، وأبحث عنها، لا يمكن أن ألجأ إلى رذيلة السحر، وآتي به؛ لأن السحر الذي يقوم على التمويه والخداع والتضليل باطل محض، ولا يمكن أن يكون طريقاً إلى الحق والعدل والخير والهدى والفضيلة والتربية الصالحة والحضارة المستنيرة المزدهرة التي أطلبها وأدعو إليها وأعمل من أجلها، وكل من يطلب الحق والهدى والخير والفضيلة لا يتوسل إليها بالسحر؛ لأنه يناقضها والحكيم لا ينقض غرضه.

وعليه: فلو لم أكن نبياً ورسولاً من عند رب العالمين، وكنت مجرد إنسان عاقل حكيم، وهو الحد الأدنى الذي لا يمكن أن تنازعوني فيه، فقد عرفت به بينكم قبل أن أفارقكم بالهجرة من مصر إلى مدين، وقبل أن آتيكم بالرسالة من عند رب العالمين تبارك وتعالى، فهذا الحد، العقل والحكمة، يكفي لابتعادي عن السحر وتجنبه ومقته، لا أن آتي به وأباشره

بنفسي، وأحتج به عليكم فيما أدعوكم إليه من الحق والعدل والخير والفضيلة والتربية الصالحة والحضارة المستنيرة المزدهرة والسعي للوصول إلى أعلى رتب الكمال الإنساني المقدر لكم والسعادة الحقيقة الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة.

فأنا بريء تماماً من السحر ومنزه عن مباشرته والإتيان به، وما جئتكم به من الآيات والمعجزات حق ظاهر بيّن، قام الدليل القاطع عليه، وليس من السحر في شيء ولا مشابه له، ولا يلتقي معه في الحقيقة والظاهر والدلالة والهدف، بل هو بعيد كل البعد عنه، وبريء كل البراءة منه، وهذا هو الحق البين الذي تعرفونه يقيناً في داخل أنفسكم وتنكرونه بهتاناً وظلماً بألسنتكم، كفراً منكم وطغياناً وعناداً واستكباراً على الحق وأهله، فهذه هي سمة المبطلين المعاندين التي دأبوا عليها دائماً، فإنهم لا يكتفون برد الحق وتكذيب أهله، بل يفترون عليهم ويقذفونهم بأقبح النعوت والصفات، ويلصقون بهم التهم الباطلة التي يعكسون فيها شعورهم الباطني وما هم عليه من الطباع الخبيثة والصفات القبيحة والنيات السيئة والغايات والأهداف المذمومة، فأبشروا بالخيبة وبسوء العاقبة وبالخسران المبين في الدارين الدنيا والآخرة؛ وذلك بسبب سوء تفكيركم واختياركم، وقبيح ما تعتقدون وما تعملون من أجله، ولأعمالكم السيئة وجناياتكم وجرائمكم بحق الأبرياء والإنسانية.

وقيل: اسم الإشارة في قوله ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾[1]، يفيد التعريض بجهلهم

١. يونس: ٧٧

وفساد منطقهم، فاسم الإشارة يدل على ظهور حقيقة الآيات المعجزات التي جئتكم بها من عند رب العالمين سبحانه وتعالى، وأنها ليس من السحر في شيء.

وبعد أن نفى موسى الكليم عليه السلام عن الآيات والمعجزات التي جاء بها من عند رب العالمين سبحانه وتعالى صفة السحر، وبرَّأ نفسه ونزهها عن مباشرته لها، ارتقى فبين لهم اختلاف حالات السحرة عن حالات الأنبياء الكرام عليهم السلام، وأثبت الخذلان للسحرة، فهم لا يظفرون بمطلوب، ولا ينتهون إلى خير، ولا ينجون من مكروه، بينما الأنبياء الكرام عليهم السلام مؤيدون، مسددون، مفلحون، يحققون ما يطلبون، ويفوزون بما يريدون، وفي ذلك تحقير لشأن السحرة بما هم سحرة، والتقليل من أهمية السحر وفائدته في الحياة ومنفعته للإنسان، في مقابل تعظيم الفراعنة للسحرة وتقريبهم إلى أنفسهم واعتمادهم عليهم، مما يكشف عن الفرق بين غايات الأنبياء الكرام عليهم السلام النبيلة، وغايات الفراعنة الدنيوية الخبيثة، فقال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾[1]، أي: أن السحرة وبحكم طبيعة عملهم وحقيقته، إذ يعتمد على التمويه والخداع والتضليل وله صفه الإغفال، هم أفراد انتهازيون يفكرون في الشهرة والمال والثروة والمناصب والجاه والمنافع الشخصية، ويستغلون الناس ويخادعونهم ويضلونهم عن الحق وأهله، وهم مخذولون ملعونون من الله سبحانه وتعالى، ولا يمكن أن يهدوا إلى الحق والعدل والخير والفضيلة، ويمكن معرفة صفاتهم من خلال حقيقة وطبيعة أعمالهم.

---

١. نفس المصدر

أما الأنبياء الكرام عليهم السلام، فهم رجال أصفياء صالحون مطهرون يطلبون الحق، ويريدون الخير وإصلاح الأفراد والمجتمعات من جميع النواحي المادية والفكرية والروحية والأخلاقية، وهم حريصون كل الحرص على هداية الناس وسعادتهم، وأمينون على أنفسهم ومصالحهم، ولا يقيمون وزناً لمصالحهم الشخصية وللأمور المادية في حياتهم الخاصة.

وقوله: ﴿لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾[1] يدل على أمور عديدة مهمة، منها:

أ. نفي لأن يكون ما جاء به من السحر؛ لأن ما جاء به هو من عند رب العالمين، والله سبحانه وتعالى لا يأتي بالسحر؛ لأنه باطل محض، ومنافٍ لما يدعو إليه من الحق والعدل والخير والفضيلة والتربية الصالحة والحضارة المستنيرة المزدهرة، وإنما أتى بالحق المحض، الذي لا يداخل الباطل والشك والريب، وهو الآيات الربانية والمعجزات الإلهية العظيمة النيرة الباهرة.

ب. أن السحر باطل محض، ولا يصلح حجة لإثبات حقيقة، ولا طريقاً إلى الخير والفضيلة والتربية الصالحة والحضارة المستنيرة المزدهرة؛ لأنه يقوم على التمويه والخداع والتضليل، بينما دعوته إلى التوحيد الخالص، وهو حق محض، ورسالته تقوم على الحق والعدل والفضيلة والتربية الصالحة، وتستهدف قيام حضارة إنسانية مستنيرة ومزدهرة ومتوازنة، تجمع بين الجوانب المادية والمعنوية، فلا يصلح السحر لإثبات دعوته، ولا حجة عليها، ولا

١. نفس المصدر

طريقاً للتبليغ برسالته، و إيصالها إلى الناس.

ج. تنزيه نفسه الطاهرة عن أن يأتي بالسحر أو يباشره بنفسه؛ لأن السحر باطل محض، وطريق إلى الضلال والرذيلة، والساحر مخذول من الله ﷻ، ومصيره إلى الفشل والخسران. وهو رسول رب العالمين سبحانه وتعالى، ويتحلى بالعقل والحكمة، ويدعو إلى الهدى والفضيلة، وهو مؤيد ومسدد ومنصور من الله ﷻ، وينتهي أمره إلى الفوز بمراده و إلى الفلاح.

د. تحذير لفرعون الطاغية وملئه المفسدين في الأرض وأتباعه وأنصاره المستكبرين من سوء العاقبة في الدارين الدنيا والآخرة. ففي الدنيا الخزي والعار وخيبة الأمل والفشل في تحقيق المراد، وما ينتظرهم من عقوبة الاستئصال والهلاك، وفي الآخرة المقت الإلهي والخسران المبين والعذاب المؤلم والشقاء الأبدي في نار جهنم. وفي المقابل البشرى للمؤمنين بالنجاة من عقوبة الاستئصال والهلاك والخلاص من أيدي الأعداء وأذاهم، والظفر بالاستخلاص في الأرض والفوز بنعيم الدنيا، وفي الآخرة النجاة من عذاب النار والفوز بالرضوان الإلهي وبالنعيم المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال في جنات الخلد والفردوس.

تعصب فرعون وملئه واستكبارهم على الإيمان

﴿قالوا أَجِئتَنا لِتَلفِتَنا عَما وَجَدنا عَلَيهِ آباءَنا وَتَكونَ لَكُمَا الكِبرِياءُ فِي الأَرضِ وَما

نَحنُ لَكُما بِمُؤمِنِينَ﴾

لم يقبل فرعون وملؤه بدعوة موسى الكليم عليه السلام، ووصفوا الآيات والبينات والمعجزات الباهرات التي جاء بها من عند رب العالمين بالسحر المبين، وخطَّأوه فيما جاءهم به ودعاهم إليه، وأعربوا عن سوء ظنهم في نيته، والغاية التي تقف وراء دعوته وتحركاته، وزعموا بأن لموسى الكليم عليه السلام غايتان رئيسيتان وراء دعوته وتحركاته، وهما:

أ. العبث بالمقدسات والعمل على تغيير الهوية الدينية والثقافية للأقباط الذين هم قوم فرعون، أي: تغيير العقيدة الدينية والسياسية والاجتماعية الراسخة التي نشأوا وتربوا عليها وعقلوها، والعادات والتقاليد والأعراف الدينية والسياسية والاجتماعية الراسخة التي ورثوها من الآباء والأجداد، وسنتهم وطريقتهم الملازمين لها في الحياة، والأحوال التي كانوا متلبسين بها، واستبدالها بطريقة وسنة وأحوال جديدة زائفة ومزورة وطارئة على المجتمع والدولة قد ابتكرها موسى وهارون عليهما السلام، ووضعاها من عند أنفسهما، ولم يأتيا بها من عند رب العالمين كما زعما، فرب العالمين لا وجود له أو لا علاقة له بالتدخل في شؤونهم، وأن هدف موسى وهارون عليهما السلام هو إرباك وضعهم وقلب النظام والسيطرة على الحكم والثروة والمقدرات بالحيلة تحت ستار الدين؛ ولأن ما يريد موسى وهارون عليهما السلام تغييره هي العقيدة والثقافة وسنة الآباء والأجداد وطريقتهم في الحياة والأحوال التي كانوا متلبسين بها وملازمين لها، فهم يرفضون ذلك

ويستنكرونه غاية الاستنكار، لما بينهم وبينها من تعلق تبعاً لتعلقهم ومحبتهم لآبائهم وأجدادهم، فإن محبة الشيء والتعلق به تقتضي وتنعكس على محبة أحواله وملابساته والتعلق بها، وهذا يعني أنها عندهم حق وصواب ومقدسة وذات قيمة معنوية وتاريخية عالية جداً، لا يمكن التفريط فيها بأي حال من الأحوال، ويعدون تغييرها والتفريط فيها مدعاة إلى الفساد والتحلل، وعليه: فلن يتركوا الدين الذي هم عليه، ولن يتخلوا عن تراثهم وثقافتهم الموروثة التي يريد موسى وهارون عليهما السلام تغييرها بدين وثقافة جديدين، قولهم مستنكرين: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[1]، أي: أجئتنا بدين جديد؛ لتصرفنا وتصدنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا من عقيدة دينية راسخة وعبادات وطقوس وعادات وتقاليد وأعراف ثابتة، ونترك سنتهم وطريقتهم التي كانوا ملازمين لها في الحياة، ونعبد إلهاً واحداً لا شريك له، وهو الإله الذي تسميه برب العالمين؟!

فجعلوا بذلك عقيدة الآباء والأجداد وطريقتهم وسنتهم في الحياة حجة قائمة بنفسها، يردون بها الحق المبين الذي جاءهم به موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين، وأقام الدليل القطعي الذي لا يقبل الشك والريب والتردد على صدقه وصحته.

وهذه معزوفة من أسطوانة مشروخة يرددها المحافظون الجامدون،

---

١. يونس: ٧٨

الذين يريدون أن يحافظوا على ما هو قائم وموجود، ويرفضون تغييره، ويقاومون كل دعوات الإصلاح وعمليات التغيير، رغم كل ما يشمل عليه الواقع من ظلم وفساد وتخلف، ومخالفة للحكمة والعقل والمنطق، فحجتهم ليست بحجة مقبولة، ولا تصلح لرد الحقائق التي تستند إلى الحجج والأدلة العقلية والبراهين المنطقية، التي يجب أن ترد بمثلها، وليس بالتعصب للتراث العادات والتقاليد ونحو ذلك، إذ التراث ليس حجة ولا قيمة له ولا قدسية في نفسه في منطق العقل وقواعد الحكمة عند العقلاء والحكماء العارفين بأدوات التمييز والترجيح بين حقائق الأمور، وقيمة الحق بما يشمل عليه من الحق ويدعمه الدليل، وما فيه من النفع والفائدة إلى الناس، وكل ما فيه مما هو مخالف للحق وضد مصالح الناس يجب أن يُترك إلى ما هو حق، وما هو نافع.

فحجة التراث حجة واهية، وأن دفاع الفراعنة والحكام المستبدين والمترفين والانتهازيين والنفعيين عن التراث ليس حباً منهم للتراث، فهم في الحقيقة والواقع لا يؤمنون بالتراث، ولا يقيمون له وزناً، وما دفاعهم عنه إلا لأنه يضمن مصالحهم الخاصة. فالمسألة الحقيقية هي مسألة الخوف على المصالح، أما الخوف على التراث فهي مجرد شماعة يحملون عليها بضاعتهم، ويتوسلون بها إلى مقاصدهم، ويسوقونها على الجهلة والساذجين.

ب. قلب نظام الحكم والاستيلاء على السلطة والثروة والمقدرات،

والاستئثار بها دون الأقباط، وطردهم من المناصب الرئيسية والوظائف العليا في الدولة، وإخراجهم من أرضهم وديارهم وأملاكهم، والاستيلاء عليها والاستئثار بها، وذلك تحت ستار الدين والدعوة الإلهية، قولهم: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾[1]، أي: تبطلون النظام الفرعوني السياسي وتراثه الديني والثقافي العريق وتستبدلونه بنظام إسرائيلي إسلامي، وتستولون على السلطة والثروة والمقدرات تحت ستار الدين وبدعم بني إسرائيل؛ ليكون لكم الملك والرئاسة والحكومة والثروة وانبساط القدرة، ثم تطردون الفراعنة من المناصب الرئيسية والوظائف العليا في الدولة، وتخرجون الأقباط من أرضهم وديارهم ووطنهم وتستولون على أملاكهم.

وبحسب لغة اليوم، اتهام موسى الكليم وهارون عليهما السلام بالخيانة العظمى، وقيادة الانقلاب على النظام، والإضرار بمصالح الشعب، وهم يعلمون في قرارة أنفسهم طهارة موسى وهارون عليهما السلام وعفتهما، وأنهما لا يريدان علواً أو إفساداً في الأرض، وإنما يريدان الإصلاح والمحافظة على مصالح وحقوق الشعب بحق وحقيقة، ويضحيان بالنفس والنفيس من أجل ذلك، وبأن نبوتهما ورسالتهما حق وصدق، وهما لم يدعوا إلى عنف أو تخريب أو شيء من هذا القبيل، وإنما لجئا إلى الحوار والعقل والحجة والمنطق.

ولكنهم يعلمون أيضاً بأنهم إن أجابوا موسى الكليم عليه السلام وصدقوا

---

١. نفس المصدر

دعوته فإن تقاليد الأمور وتدبير الأوضاع في المجتمع والدولة تصير في يده عملياً، ويديرها بحسب التشريعات السماوية وبمقتضى الحقائق والقيم السماوية المنزلة، ويقيم العدل والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، ويقضي على المحسوبية والفساد، على قاعدة: أن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسة والعادات والتقاليد والأعراف الوضعية؛ ولأن القوم إذا اعترفوا بصدق نبي فإن مقاليد أمرهم تصير إليه عملياً.

وعليه: لا يبقى من تراثهم الديني والثقافي الموروث الذي يقوم على الشرك والوثنية شيء يذكر، فتضيع أمجادهم التي بنوها لقرون من الزمن بغير حق، وينتهي نظام دولتهم وحكومتهم إلى الأبد، ويفقدوا مصالحهم وصلاحياتهم وامتيازاتهم الخاصة التي كانوا يحصلون عليها من النظام الفاسد القائم، ويحرر بنو إسرائيل، ويخرجون عن سلطتهم وولايتهم ويستقلون بأمرهم، فتنقص سيادتهم، ويخسرون ما رأبوا عليه من تسخيرهم واستخدامهم في الأعمال الشاقة والوضيعة، مما يؤثر على اقتصادهم وتعطيل بعض آمالهم ومصالحهم ونحو ذلك.

وبهذا يفصح فرعون الطاغية وجلاوزته الأنانيون المجرمون في الحقيقة عن دوافعهم الحقيقية وراء تكذيبهم بنبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته، وهو خوفهم على ملكهم ومصالحهم الخاصة، وليس خوفهم على النظام والدولة في نفسها، أو خوفاً على الشعب ومصالحه، أو لعدم قناعتهم العلمية والفكرية بصدق نبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته، أو لوجود شبهة

أو أي شيء من هذا القبيل، فهم لا يؤمنون بشيء من ذلك، ولا يقيمون له وزناً أو اعتباراً، فموقفهم الرفضي لدعوة موسى الكليم عليه السلام وإصرارهم على تكذيبه ومحاربته هو من أجل مصالحهم الخاصة، على حساب الحقائق والمنطق والمصالح العامة لأبناء الشعب وسعادتهم.

وقيل: أن المراد من الكبرياء في قولهم: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾[1]، هو الملك والرئاسة والحكومة؛ لأنها أكبر ما يُطلب من أمر الدنيا الفانية؛ ولأن الملوك موصوفون بالكبر والتجبر.

وقيل: لأن القوم إذا اعترفوا بصدق نبوة موسى الكليم وهارون عليهما السلام فإن مقاليد الأمور تصير إليهما عملياً، ويصبحان أكبراهم.

وقيل: أراد فرعون وملؤه ذم موسى الكليم وهارون عليهما السلام، بمعنى: أنهما إن ملكا أرض مصر وصار لهما الملك والرئاسة والحكومة في البلاد، فإنهما سوف يتكبران ويتجبران.

ومقولة فرعون وملئه لموسى الكليم وهارون عليهما السلام بشقيها، تغيير الهوية الدينية والثقافية، والاستيلاء على السلطة والقدرة والمقدرات، قولهم: ﴿لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾[2]، تكشف عن زعمهم بأنهم يمتلكون البصيرة السياسية النافذة والخبرة الواسعة والعلم ببواطن الأمور وخباياها، بحيث أنهم تنبهوا وفطنوا في وقت مبكر ومنذ

١. نفس المصدر

٢. نفس المصدر

البداية إلى غايات وأهداف موسى الكليم وهارون عليهما السلام الخطيرة، وأنهما يعملان من أجل مصلحتهما الشخصية ومصلحة قومهما بني إسرائيل، ويريدان شراً بآل فرعون والأقباط، ولا يريدان بهم خيراً كما يزعمان ويتظاهران به.

فلم ينخدعوا بدعواهما النبوة والرسالة من رب العالمين، التي ثبت لهم بأنها كذب محض ومصيدة للأقباط، ووسيلة إلى قلب نظام الحكم والاستيلاء على السلطة والثروة والمقدرات، ولم يتأثروا بما جاءا به من الأعمال الخارقة للعادة التي ثبت لهم بأنها مجرد سحر وليس أكثر من ذلك ولا فوقه، ولم يخشوهما ولم يخضعوا لابتزازهما وقاوموهما بكل بسالة وشجاعة وثبات.

والحقيقة أن فرعون وملأه المجرمين قد قاسوا موسى وهارون عليهما السلام بأنفسهم ورأوهما بعين طبعهم، فلما كانوا يسعون دائماً وفق رؤيتهم وقيمهم المادية وتعلقهم بعالم الدنيا والمصالح إلى الحكم والثروة والجاه والصلاحيات والامتيازات، فإنهم يظنون أن الآخرين مثلهم، ويشبهونهم، ويسعون لمثل ما يسعون إليه، ويعملون من أجله.

ولهذا جعلوا أهداف موسى الكليم وهارون عليهما السلام ودوافعهما، مثل أهدافهم ودوافعهم، وهنا يجب أن نميز بين الصالحين والمصلحين الحقيقيين، الذين يطلبون الإصلاح بحق وحقيقة ويضحون من أجله بالنفس والنفيس، وبين الذين يطلبون السلطة والثروة ويبحثون عن الامتيازات سواء كانوا في السلطة أو المعارضة، الذين يتخذون الإصلاح

شعاراً للوصول إلى السلطة، فإذا وصلوا إليها أفسدوا كما أفسد الذين من قبلهم، ولا فرق في ذلك بين علماني وإسلامي وغيرهما.

وقد رأيت من الإسلاميين من يضر بالمؤمنين من أجل الزعامة والوصول إلى السلطة أكثر مما أضر بهم العلمانيون في السلطة والمعارضة، وهذا مما ينبغي أن يتنبه إليه عامة المؤمنين، فلا ينخدعوا بالشعارات، وعليهم أن يُقيّموا حقائق السلوك والمواقف، ويُميزوا بين الذين يطلبون الإصلاح بحق وحقيقة، والذين يطلبون السلطة ويتخذون الإصلاح شعاراً ووسيلة لخداع الجماهير والوصول إلى السلطة، قول الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[1]، أي: يهلك عدوكم فرعون وحزبه المجرمين، ويحرركم من التبعية والاستعباد، ويمن عليكم بالاستقلال، ويستخلفكم في الأرض بعد الاستضعاف والإذلال، بأن يجعل لكم الملك والحكم والرئاسة، ويمتحنكم بذلك فينظر كيف تعملون، هل تصلحون وتعدلون بين الناس كما أمركم الله سبحانه وتعالى أم تفسدون وتظلمون وتعملون ما لا يرضى الله سبحانه وتعالى وعلى خلاف ما أمركم كما فعل الذين من قبلكم تماماً؟! ثم يجزيكم بما تستحقون بأعمالكم بعد الاستخلاف، إن أصلحتم أثابكم، وإن أفسدتم عاقبكم، وهذا يعني أن المؤمنين والمستضعفين قد يتحولون إلى مستكبرين ومفسدين في الأرض بعد الوصول إلى الحكم والاستيلاء على السلطة، أو مجرد التمكن من القوة، وأن الله سبحانه وتعالى لا ينخدع بالأسماء والادعاءات، وإنما يجازي على حقائق الأعمال، وفي الآية الشريفة المباركة حث للمؤمنين على الإخلاص

---

١. الأعراف: ١٢٩

والاستقامة والتمسك بطاعة الله سبحانه وتعالى؛ لتحسن عاقبتهم في الدارين الدنيا والآخرة، والتحذير لهم من الوقوع في حبال الدنيا والرئاسة، وعمل مثل ما يعمل المنافقون والمفسدون، فتسوء عاقبتهم في الدارين الدنيا والآخرة!!

وبناءً على ما سبق: قرر فرعون وملؤه المجرمون أن يكون موقفهم مجتمعين متضامنين من دعوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته هو التكذيب والرفض والمواجهة المصيرية بعنف وقوة وبكل وسيلة ممكنة مشروعة أو غير مشروعة؛ دفاعاً عن وجودهم في السلطة وعن مصالحهم وامتيازاتهم حتى يقضي أحد الطرفين على الآخر، قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[1]، أي: وما نحن بمصدقين لكما فيما تدعيانه من أمر النبوة والرسالة من رب العالمين، بل نحن مقاومون ومحاربون لكما حتى النفس الأخير دفاعاً عن منافعنا ومصالحنا وصلاحياتنا وامتيازاتنا التي تريدان أن تحرمانا منها، ولئلا تنالا أمنيتكما وتبلغا غايتكما وتصلا إلى مرادكما من وراء هذه الدعوة المزورة، وهو إسقاط النظام والاستيلاء على السلطة والثروة والمقدرات والاستئثار بها دوننا ودون الأقباط. فالصراع بيننا وبينكم صراع وجودي يحل بالقوة، وليس صراعاً سياسياً يحل بالحوار والتفاهم.

وهذا هو دأب الفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة مع المعارضين لهم والمطالبين بالإصلاح ما داموا يشعرون بالقوة، ولا يستجيبون لمطالبهم مهما كانت واقعية وعادلة ومنطقية وفي مصلحة كافة أبناء الشعب ومن صميم حقوقهم الطبيعية في الحياة إلا بمقدار ما

---

١. يونس: ٧٨

هم مضطرين إليه، فإن لم يكونوا مضطرين إلى شيء، فإنهم لا يستجيبون إلى شيء مهما كان قليلاً أو زهيداً؛ لأن سلطتهم تقوم على فرض حكم الأمر الواقع على الشعب، ولا تستند إلى إرادته ولا علاقة لها بمصالحه، وهذه حقيقة يجب أن يفقهها الجميع، ويُميزوا بين الشعارات الاستهلاكية وبين الحقائق الفعلية على الأرض، ولا ينخدعوا ولا يضلوا.

وعليه: فإن موقف فرعون الطاغية وملئه المجرمين يقوم على التكبر والعناد وإرادة العلو في الأرض بغير الحق، ولا علاقة له بالحقائق والمنطق والحقوق، فلم يكونوا على علم ببطلان ما جاء به موسى الكليم عليه السلام ولا مشتبهين، ولا حريصين على مصالح أبناء الشعب، بل كانوا على علم ويقين بصحته وصدقه، وأنه في مصلحة الشعب ومن أجل صلاحه وسعادته في الدارين الدنيا والآخرة، ولكنهم رفضوه وحاربوه من أجل مصالحهم الخاصة لا غير.

وقيل: أن عبارة ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾[1]، تدل على روح الاستعلاء لدى فرعون الطاغية وملئه المجرمين وقومه الفاسقين المارقين، التي تقوم على التمييز الطبقي الموروث واعتبار أنفسهم طبقة عليا حاكمة، وبني إسرائيل طبقة دنيا محكومة، وأن هذا التمييز يجب أن يبقى ويستمر، بينما يريد موسى عليه السلام بحسب رأيهم أن يلغي هذا التمييز الطبقي، ويحرر بني إسرائيل ويجعل لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات مثلما هو للأقباط، بل يريد أن يعكس المعادلة فيجعل بني إسرائيل حكاماً ولهم

---

١. نفس المصدر

السيادة والكلمة العليا في البلاد، والأقباط محكومين وخاضعين لسيادة بني إسرائيل وحكومتهم، وهذا أمر مرفوض تماماً لدى آل فرعون والأقباط ومستنكر جداً لديهم، قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾[١].

وقيل: أن عبارة ﴿مَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، تدل على عنادهم واستكبارهم على الحق بدون حجة أو برهان، بل استناداً إلى التعصب الأعمى والخوف على ضياع المصالح الخاصة وفقدان الصلاحيات الواسعة والامتيازات الضخمة، التي يحصلون عليها في ظل النظام الفرعوني الفاسد، وذلك لربطهم بين الإيمان بنبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته وبين سقوط النظام أو تغييره تغييراً جذرياً، يفقدون معه كل ما في أيديهم من المصالح والصلاحيات والامتيازات.

وقيل: واو العطف في قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِين﴾[٣] في قوة النتيجة، بمعنى: لما تبين لنا مقصدكما، وأصبحنا على علم بنواياكما وخططكما الهدامة التي تهدفان من ورائها إلى تغيير الهوية الدينية والثقافية للأقباط، والاستيلاء على السلطة والثروة والمقدرات بالحيلة والخداع، أي: أنكما طالبا نفع لأنفسكما وقومكما وقاصدا شرٍ بالأقباط ولا تريدان بهم خيراً كما تدعيان، لهذا السبب فنحن غير مصدقين لكما فيما تدعيانه من أمر النبوة والرسالة من عند رب العالمين، فدعوتكما مزورة، قد ابتكرتموها

١. المؤمنين: ٤٧
٢. يونس: ٧٨
٣. نفس المصدر

ووضعتموها من عند أنفسكم لأغراض دنيوية سياسية واقتصادية، ولا حقيقة غيبية لها وراء ذلك.

وفي الحقيقة، فإن رد فرعون وملئه المجرمين رد سياسي خبيث يهدف إلى التمويه والتضليل على قومهم وتهييجهم وتحريضهم على معاداة موسى الكليم عليه السلام ومحاربة دعوته ورفضها وعدم الإيمان بنبوته ورسالته، فضلاً عن تأييده ومناصرته، وليس رداً علمياً أو سياسياً واقعياً، وهو لا يصلح في مقام الاحتجاج لإبطال دعوة موسى الكليم عليه السلام وردها؛ لأن الحجة لا تدفع إلا بحجة مثلها، والحق لا يتم إبطاله إلا بإثبات عكسه أو عدم واقعيته أو مناسبته، وهذا ما لم يفعله فرعون وملؤه المجرمون، بل لجأوا إلى التهييج والتحريض عن طريق الكذب والافتراء وقلب الحقائق بأسلوب غير منطقي وغير عقلاني، مما يدل على عجزهم وتخبطهم في مواجهة ما جاء به موسى الكليم عليه السلام من عند رب العالمين، وعدم أحقيتهم وعدم أهليتهم للحكم والرعاية لثبات خيانتهم للحقائق والأمانة والمسؤولية والرعاية لمصالح الشعب وحقوقه الطبيعية العامة والخاصة.

ويعتقد فرعون الطاغية وملؤه المجرمون بأنهم يمتلكون القوة الكافية الفكرية والعلمية والسياسية والاقتصادية والأمنية والعسكرية والبشرية لتصفية موسى الكليم عليه السلام وأنصاره، والقضاء بشكل تام على دعوته، وقهر بنى إسرائيل و إخضاعهم، قول فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبناءَهُم وَنَستَحيي نِساءَهُم وَإِنا فَوقَهُم قاهِرونَ﴾[1]، وهذا الموقف الفرعوني الاستعلائي والاستكباري ينظر

١. الأعراف: ١٢٧

إلى الإمكانيات المادية والبشرية المنظورة لدى الطرفين، فرعون وقومه، وموسى مع قومه، ويغفل ويتجاهل ولا ينظر إلى القوة الغيبية الإلهية المطلقة التي لا يعجزها شيء وتقف وراء موسى الكليم عليه السلام وأنصاره المؤمنين، وقد وعدتهم بالنصر على عدوهم، وقد ثبت بالدليل القطعي الذي لا يقبل الشك والريب والتردد وجودها وحضورها الفاعل، وتأييدها لموسى الكليم عليه السلام وأنصاره من المؤمنين، وذلك عن طريق ما جاء به موسى الكليم عليه السلام من المعجزات النيرات الباهرات الخارقة للعادة، والتي هي فوق الطبيعة وفوق طاقة البشر، ولا يقدر على مثلها إلا قوة غيبية مطلقة، كما صرح بذلك السحرة المحترفون المهرة العالمون بدقائق أسرار السحر وخباياه وخفاياه وفنونه، ولا يمكن أن يخدعوا فيه بأي حال من الأحوال.

إلا أن الاستغراق في الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية، والإصابة بغرور السلطة والقوة والثروة، والاعتماد التام على القوة والخداع والتضليل وشراء الضمائر والنفوس الضعيفة لفرض حكم الأمر الواقع للناس، هو الذي أعمى بصائر فرعون وملئه، فلم يدركوا الحقائق الوجودية والسنن الإلهية الحاكمة في الكون والتاريخ، ولم ينفع معهم استدلال منطقي رصين ولا برهان علمي متين ولا حجة ولا معجزة ولا موعظة بالغة أو نصيحة صادقة من ولي ناصح أمين رؤوف رحيم بهم.

وبخصوص التمسك بالتراث الديني والثقافي: ليس هو عيب أو سلبي في نفسه، بل هو إيجابي وضروري في المجتمعات البشرية والتنشئة

الاجتماعية، فقد تميزت به التجمعات البشرية عن تجمعات الكائنات الحية الأخرى، وهو سر ترقي الأفراد والجماعات والمجتمعات البشرية وتطورها وتكاملها المعرفي والتربوي والحضاري، إذ يرث كل جيل في المجتمعات البشرية نتاجات الأجيال السابقة الفكرية والعادات والتقاليد والأعراف والأنظمة والقوانين والعلوم والتكنولوجيا وغيرها في التاريخ الطويل، ويقوم بتصحيحها والإضافة عليها وتطويرها في عملية متواصلة تتراكم نتائجها عبر التاريخ الطويل، مما يعنى الارتقاء والتكامل في المسيرة البشرية بشكل مستمر ودائم، ما لم تتدخل عوامل سلبية لهدم البناء، مثل: الحروب المدمرة والجمود السلفي؛ إذ يتحول التمسك بالتراث الموروث إلى حالة سلبية هدامة معيقة للتقدم والارتقاء والتكامل، حيث يتحول التمسك بالتراث إلى جمود وتقليد أعمى، يمنع من المراجعة والإخضاع إلى النقد العلمي الموضوعي البناء بهدف التصحيح والاختيار الحسن والإضافة والتطوير، فيخالف التمسك بالتراث وظيفته الأساسية في المجتمعات البشرية، وينقض غايته وينقلب إلى ضده، ويكون خلاف الطبيعة والفطرة والحكمة والعقل والمنطق والصالح العام، وحالة غير حضارية وغير إنسانية؛ لما يسببه من التخلف والفساد والتحلل والانحطاط، ولأنه يفصل بين كمال الإنسان وصلاحه وخيره ومصلحته وسعادته الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة وبين الحقائق؛ لأن الوصل بين الطرفين، الحقائق، وصلاح الإنسان وسعادته. يتطلب معرفة الحقائق بالاعتماد على الدليل الصحيح والبرهان العلمي والمنطقي الرصين، والتمسك بها والعمل بمقتضاها في الحياتين العامة والخاصة، وهذا

يتطلب مراجعة التراث باستمرار بشكل منهجي سليم، وإخضاعه إلى النقد العلمي الموضوعي البناء، وتصحيحه وتطويره بالإرشاد إلى الحقائق المكتشفة الجديدة والقديمة، وأخذ ما ثبت بالدليل صحته، وترك ما يثبت بالدليل خطأه. أما التعصب والتقليد الأعمى والجمود السلفي، فهي حالات سلبية هدامة وغير إنسانية وغير منطقية ومخالفة للطبع الإنساني والفطرة، وتعود على الإنسان بالخسران وعلى المسيرة البشرية بالسوء والفشل.

وأما زعم فرعون وملؤه بأن موسى الكليم عليه السلام يهدف من وراء ادعاء النبوة والرسالة من رب العالمين إلى الاستيلاء على السلطة والثروة والمقدرات، فهي المعزوفة القديمة الجديدة من الاسطوانة المشروخة والحجة الموروثة الواهية التي دأب على ترديدها الفراعنة الجبارين والحكام المستبدين الظلمة، الذين يعتمدون على القوة والخداع والتضليل وشراء الضمائر والنفوس الضعيفة؛ لفرض حكم الأمر الواقع على الشعوب المستضعفة في مواجهة المصلحين والمطالبين بالحقوق بالاستناد إلى المنطق والحوار والحقائق والإرادة الشعبية، بعيداً عن الحقائق والحقوق والمنطق السليم، وعلى خلاف إرادة أبناء الشعب ومصالحهم وحقهم في اختيار نظام حكمهم وحكومتهم وتقرير مصيرهم بأنفسهم، وتلاقت عليها قلوبهم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا في اتهام معارضيهم المطالبين بالإصلاح والحقوق الواقعية المشروعة سعياً منهم لتشويه صورتهم وسمعتهم أمام الرأي العام، ولإيجاد الحواجز النفسية بينهم وبين الجماهير؛ لكي لا يصدقوهم فيما يدعونهم إليه، ولا يتعاطفون معهم ولا يناصرونهم، أو على

الأقل لا يفضلونهم عليهم؛ لأنهم مثلهم في طلب السلطة والجاه والثروة والمناصب والامتيازات ونحوها، وذلك سعياً منهم للمحافظة على استمرار الأوضاع المنحرفة القائمة، واستمرار بقائهم في السلطة، وما يدره ذلك عليهم من المصالح والمنافع الخاصة والامتيازات الواسعة غير الواقعية وغير المشروعة، والتي تأتي على حساب المنطق والمصالح العامة لأبناء الشعب ولقمة عيشهم.

وقد لجأ فرعون الطاغية وملؤه المجرمون إلى هذا الأسلوب القذر من الخداع والتضليل والكذب والافتراء رغم علمهم بأن حالة موسى الكليم وهارون عليهما السلام وما تكشف عنه سيرتهما العطرة تثبت طهارتهما وعفتهما وتعلقهما بعالم الملكوت الأعلى، وأن ليس لهما قصد العلو والفساد في الأرض والاستكبار على الخلق، وإنما قصدهما هو عينه قصد إخوانهما من المرسلين عليهم السلام، وهو الإصلاح في الأرض وهداية الخلق وإرشادهم لما فيه خيرهم وصلاحهم ومصلحتهم وسعادتهم الحقيقية في الدارين الدنيا والأخرة، قول الله تعالى على لسان نبيه شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوۡمِ أَرَأَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[1]، أي: أخبروني إن كنت على بصيرة وحجة بالغة في ديني ودعوتي، ويقين وطمأنينة في صحة ما جئتكم به، وقد خصني ربي بالنبوة والرسالة إليكم، وعلمني المعارف الإلهية الحقة والتشريعات الربانية السمحة، والمبادئ السماوية السامية والقيم الإنسانية العليا، وأيدني بالمعجزات

---

١. هود: ٨٨

النيرات الباهرات الخارقة للعادة؛ لإثبات صدق نبوتي ورسالتي وجئتكم به من عنده، ورزقني من عنده رزقاً وافراً حسناً من المال الحلال الطيب، الذي يغنيني عما عندكم وفي أيديكم من المال والثروة، مما يجعل دعوتي إليكم خاصة لوجهه الكريم، ومن أجل هدايتكم ونجاتكم وإرشادكم إلى ما فيه كمالكم الإنساني وصلاحكم وخيركم ومصلحتكم وسعادتكم في الدارين الدنيا والآخرة، بدون أن أنتظر منكم جزاءً ولا شكوراً.

وهذا يكشف عن حقيقة دوافعي وعن ما في نفسي، وما أريده من الخير لكم، فأنا لا أريد ولا أقصد فيما جئتكم به ودعوتكم إليه أن أخالفكم لمجرد المخالفة أو لمصلحة خاصة، بل أريد هدايتكم ومصلحتكم وإصلاح أحوالكم وأوضاعكم الخاصة والعامة، ودفع الفساد والتحلل والانحطاط والضعف والتخلف عنكم، وحفظ كافة حقوقكم العامة والخاصة، الطبيعية والمكتسبة، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً وتمكنت منه قوتي وطاقتي التي أمدني بها ربي.

والدليل على صدق ما أقول وأدعيه أني أبدأ بنفسي دائماً في العمل بما أدعوكم إليه، ولا أسترسل في شهوات النفس وملذات الحياة، ولا أنهاكم عن شيء إلا وأنا أول مبتدر للانتهاء عنه، ولا أميز بينكم في الحقوق والواجبات وفي القانون وأمام القضاء، وهذه شروط يجب أن تتوفر في المطالبين بالإصلاح من أجل تصديقهم والاطمئنان إليهم ومناصرتهم، فأخبروني: أأنا محق في دعوتي ورسالتي إليكم أم سفيه في رأيي كما تصفوني بغير حق ولا دليل؟ وهل علي أن أترك أمركم ونهيكم لمجرد رفضكم لدعوتي

وامتناعكم عن قبولها أم يجب علي أن أستمر وأحاول معكم قدر طاقتي؟ علماً بأن ليس لي ولا لأحد سواي استقلال أو قدرة على شيء ولا تأثير من دون الله سبحانه وتعالى، فهو الذي وفقني لدعوتكم ولكل ما قلت لكم أو فعلته من أجلكم، وهو الذي أمرني به وأمدني بالطاقة والقوة عليه، ولولا هو لما كان مني شيء من ذلك. فله أسلمت فيما يختاره لي في تدبير أمري، وعليه توكلت فيما أرجوه، وبه وثقت، وإليه أنيب وأرجع، يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «**إرادة الإصلاح والهداية في الأنبياء عليهم السلام ليست مجرد شعار أو وصف طارئ يأتي ويذهب، بل هي من مقومات العصمة أو الخصائص التي لا تنفصل عنها**»[1].

وهكذا ينبغي أن يكون المصلحون المخلصون دائماً، وهكذا سيبقى الفراعنة المتجبرون والحكام المستبدون الظلمة في مواجهتهم ومحاربتهم، والعاقبة الحسنة الممدوحة دائماً وأبداً للمتقين، والعاقبة السيئة المذمومة دائماً للفراعنة والحكام المستبدين وأنصارهم الفاسقين المجرمين.

وإذا كان التقليد الأعمى هو المحرك العام للناس، فإن الخوف من فوت وضياع السلطة والثروة وذهاب الصلاحيات الواسعة والامتيازات الضخمة غير المشروعة وغير الواقعية هو المحرك للنخبة الحاكمة وبطانتها المجرمين والخاصة من الانتهازيين الأنانيين والمنتفعين الفاسدين المارقين من حملة الشهادات العليا ورجال الأعمال والكتاب والإعلاميين ونحوهم، قبح الله جل جلاله أعمالهم وتصرفاتهم، الذين أسقطوا ما في بواطن أنفسهم من

---

١. التفسير المبين، محمد جواد مغنية، صفحة ٢٩٧

الخبث والشذوذ والانحراف والتعلق بعالم الدنيا والمادة والمصالح على ولي الله الناصح والصادق الأمين موسى بن عمران الكليم عليه السلام وأنصاره المؤمنين الصالحين، وهو الأمر الذي دأبت عليه هذه الطغمة الفاسدة في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، إذ يتهمون المعارضين المخلصين الشرفاء المطالبين بالإصلاح والحقوق بالتهم الباطلة، مثل: الخيانة والإضرار بمصالح الشعب والفوضى والسعي للاستيلاء على السلطة والثروة والمقدرات ونحو ذلك، ويسقطون عليهم كل ما في أنفسهم من الخبث، وما في طبائعهم من السوء، وما في أخلاقهم من القبح، وما في أعمالهم من الانحراف، وما في مواقفهم من الأنانية والابتزاز ونحو ذلك.

ويكون طرح مسألة التمسك بالتراث والعادات والتقاليد والهوية الثقافية مجرد وسيلة برغماتية «منفعية» للتضليل والخداع واستثارة عامة الناس وتهييجهم لمعاداة المصلحين والثوار ومجابهتهم ومحاربتهم والوقوف ضدهم إلى صف النظام والحاكم، إذ ليس لهؤلاء المجرمين إيمان حقيقي مستقل عن مصالحهم بالتراث والهوية والعادات والتقاليد، التي يتمردون عليها في حياتهم الخاصة.

وقد ثبت بالتجربة التاريخية والمعاصرة، بأن التعصب للتراث والهوية يزداد مع التجييش، لا سيما في أوقات الصراع، وتنتفي جميع تلك المزاعم الباطلة، وتتلاشى في أجواء الحرية حين يستمد النظام والحكومة وجودهما وشرعيتهما من إرادة الشعب والعمل لمصلحته، ويفتح الطريق لتبادل السلطة بالوسائل السلمية عن طريق الاقتراع الحر، الذي يعبر

بصدق وشفافية عن الإرادة الشعبية الحرة، على ضوء الضمانة الدستورية لحرية الاعتقاد والتعبير والبحث العلمي والتنظيم والتجمع وسائر الحقوق الطبيعية المكتسبة للمواطنين، حيث تنتفي الحاجة إلى القمع والعنف والتخوين ونحوها من الأساليب غير الحضارية وغير الأخلاقية، وتتحول إلى جرائم يعاقب عليها القانون.

وعليه: فإن ما احتج به فرعون الطاغية وملؤه المفسدون المجرمون، يدل على عجزهم وضعف منطقهم وأنانيتهم البالغة وفراغهم الفكري والروحي والأخلاقي، وانفصالهم عن عالم الحقائق والقيم العليا والمبادئ السامية والمصالح العامة للناس، وغربتهم عن الواقع واستغراقهم التام في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية، واعتمادهم المطلق على منطق القوة وأساليب العنف والإرهاب والإكراه والإغراء وشراء الضمائر والنفوس الضعيفة؛ لفرض حكم الأمر الواقع على المواطنين واستضعافهم مما يثبت خيانتهم وعدم أهليتهم للحكم وتحمل المسؤوليات وتولي الوظائف العامة.

أضف إلى ذلك: إن تغيير الهوية الدينية والثقافية أو إسقاط النظام ليس بجريمة أو تهمة حقيقية، إذا استند إلى الإرادة الشعبية، واعتمد على الأساليب السلمية، والحجج المنطقية، بل هو حق مشروع ضمنته المواثيق الدولية، ويعبر عن ماهية الإنسان وحقيقته التي تقوم على العقل والاختيار، وبهما تميز بين جميع المخلوقات في عالم الوجود، فلا يضر بمشروعية الدعوة ولا يقلل من أهميتها إذا كان من أهدافها تغيير الهوية الدينية أو إسقاط النظام بالاستناد إلى الإرادة الشعبية، وبالاعتماد

على الأساليب السلمية والإقناع، وهنا تأتي أهمية الإشارة في السجالات الفكرية والسياسية إلى الفرق بين الاستناد إلى الحقائق والمنطق والحقوق المشروعة بما فيها حق الدفاع عن النفس، وبين الاستناد إلى الكذب والافتراء والمغالطات وقلب الحقائق المدعوم بالعنف والإرهاب والعدوان وقمع الحريات بشتى الوسائل، وشراء الضمائر العفنة الرخيصة من أجل فرض حكم الأمر الواقع، الذي يعبر عن إرادة الأقوياء والمستكبرين والجبارين المنفردة على الشعب بعيداً عن العقل والمنطق، وعلى خلاف الحق والعدل والحقوق المشروعة الطبيعية والمكتسبة.

ولاشك فإن الاستناد إلى العقل والمنطق والحقائق والحقوق حالة إنسانية راقية وأسلوب لإقامة نظام عادل وحكومة رشيدة وحضارة إنسانية مستنيرة ومزدهرة، والاستناد إلى العنف والقوة والإرهاب والإغراء والخداع والتضليل وشراء الضمائر ونحوها حالة همجية شيطانية وحيوانية تنسف إنسانية الإنسان وكرامته، وأسلوب لإقامة نظام فاسد متوحش وحكومة جائرة مستبدة وحضارة منحطة مظلمة، وهذه حقائق ثابتة؛ لأن الإنسان بحسب إجماع العقلاء له كمال لائق به ومقدر له، ليس لغيره، وهو الكائن الوحيد الذي يصنع ماهيته بنفسه، وبوسعه أن يكون كائناً أفضل من الملائكة المطهرين أو كائناً أسوء من الشياطين وأحط من الحيوانات، وذلك بحسب اختياره وأعماله التي يقوم بها في الحياة.

وهذا بغض النظر عن الاختلاف حول ماهية الإنسان، فإن ما يوافق كمال الإنسان فهو خير للإنسان وفيه سعادته، ويجب أن يكون موافقاً

للعقل وباختياره، وأن ما ضادّ كمال الإنسان، فهو شر له، وفيه شقاؤه وخسرانه، وهو يشمل كل عمل مخالف للعقل، وتسلب فيه إرادته واختياره، ويفرض عليه بالقوة والإرهاب أو بالإغراء والشهوة، إلا أن الفراعنة المجرمين والحكام المستبدين لا يفقهون المنطق والحقائق والسنن، وهم أعداء أنفسهم في المقام الأول؛ لأنهم يجلبون لها الشقاء والهلاك في الدارين الدنيا والآخرة، وأعداء شعوبهم والإنسانية في المقام الثاني؛ لأنهم يجلبون لها الخراب والضعف والتخلف والتحلل والفساد والانحطاط، وكل ظلم للآخرين فإنه ظلم للنفس؛ لأنه إثم ومعصية تجلب للنفس الهلاك والشقاء في الدارين الدنيا والآخرة.

الفصل الثاني: المبارزة التاريخية وهلاك فرعون

قـول الله تعالـى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَما جَاءَ السحَرَةُ
قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَما أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِحْرُ إِن
اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِن اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِق اللهُ الحق بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلا ذُرِيةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ
يَفْتِنَهُمْ وَإِن فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض وَإِنهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ
كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكلْنَا رَبنَا
لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلى
مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصلاةَ وَبَشِرِ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبنَا إِنكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالا فِي الْحَيَاةِ الدنْيَا
رَبنَا لِيُضِلوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتى
يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتبِعَانِ سَبِيلَ الذِينَ لا
يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتى إِذَا
أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنهُ لا إِلَهَ إِلا الذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾
الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ

خَلْفَكَ آيَةً وَإِن كَثِيرًا مِنَ النَاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوأْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ مُبَوأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطيبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِن رَبكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

المبارزة التاريخية بين موسى والسحرة

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَما جَاءَ السحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَما أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِحْرُ إِن اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِن اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِق اللهُ الحق بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾

لما رأى فرعون الطاغية وملؤه المستكبرون الفاسدون ما جاء به موسى الكليم عليه السلام من الآيات الإلهية والبينات الواضحة والمعجزات النيرات الباهرات من عند رب العالمين، وعلموا وتأكدوا ووثقوا من تأثيرها الكبير في الناس، وخطرها العظيم المدمر على نظام الحكم والدولة والحكومة ومصالحهم الخاصة وما يحصلون عليه من الامتيازات الضخمة من النظام الفاسد ما لم يواجهوها؛ لأنها كانت واصلة وقاطعة في الجزم بصدق نبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته وعدالة قضيته ومشروعية مطالبه الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية، وعلموا بعجزهم عن الرد العلمي والمنطقي والسياسي الواقعي عليه، فرموه بالسحر والتآمر والخيانة العظمى، ونفوا أن يكون ما جاء به من عند رب العالمين، واستبعدوا ذلك غاية الاستبعاد، إذ لا حيلة لهم في دفع ما جاءهم به، ومنع تأثيره في الناس إلا هذه الوسيلة الخبيثة، التي تشابهت عليها قلوب الطواغيت

---

١. يونس: ٧٩-٩٣

والفراعنة والحكام المستبدون والمترفون والانتهازيون والنفعيون المكذبون بالرسالات الإلهية والمعارضون للإصلاح في العالم في طول التاريخ وعرض الجغرافيا، وليس ذلك منهم لاشتباه أو لاعتقاد واقتناع حقيقي لديهم، بأن ما جاء به موسى الكليم عليه السلام هو من السحر فعلاً، ففرعون يتمتع بذكاء خارق وبخبرة عملية واسعة في الحياة والسياسة، وبعلم ومعرفة بالسحر، وكان يمارسه، وبه وصل إلى الملك والسلطة، مما يؤهله لأن يعلم عن يقين بأن ما جاء به موسى الكليم عليه السلام ليس من السحر ولا مشابه له، بل هو آية إلهية ومعجزة عظيمة، تقف وراءها قوة غيبية مطلقة فوق الطبيعة وفوق البشر، ولكنه بسبب استغراقه في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية الخاصة الأنانية، لم يدرك العلاقة الوجودية الوثيقة التي لا تقبل التخلص والانفصال بين كمال الإنسان وخيره وصلاحه ومصلحته وسعادته الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة، وبين معرفة الحقائق والسنن الإلهية الكونية والتاريخية والعمل بمقتضاها.

أو كان يدرك تلك العلاقة، ولكنه بسبب الاستغراق في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية الأنانية الخاصة، وشدة التعلق والطمع في السلطة والثروة والصلاحيات الواسعة والامتيازات الضخمة المتميزة التي تمنحها السلطة، عاند واستكبر على الحق وأهله، وفعل كما فعل إبليس الرجيم، إذ بغى وعصى عن علم ويقين وتحت تأثيرالغرور بالسلطة والقوة والثروة، انفصل عن عالم الواقع والحقائق والسنن، وتوهم بأنه يستطيع أن يتغلب على موسى الكليم عليه السلام ويهزمه ويقهر دعوته، فأراد أن يستخف بعقول قومه والموالين له ويضلهم، ويعارض ما جاء به موسى الكليم عليه السلام

عن طريق السحر والشعوذة والتهويل؛ ليمنع تصديقهم له و إيمانهم بنبوته ورسالته عدالة قضيته وشرعية مطالبه الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية، وربما قدّر بأنه و إن لم يستطع أن يقهر موسى الكليم عليه السلام نفسه، فإنه يستطيع أن يثير الشغب والفوضى الجماهيرية في وجهه، ويشوش الرؤية لمعرفة حقيقة ما جاء به، فيمنع إيمان الناس بنبوته وتصديقهم برسالته ودعوته واتباعهم له ومناصرته أو الحد من ذلك وتأجيله مؤقتاً على أقل تقدير، وهذا يخدم مصلحته الخاصة ومصلحة نظامه، وهذا أمر ممكن عقلاً وثابت بالتجربة التاريخية الطويلة في الصراعات بين الأنظمة والطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين، وبين الأنبياء الكرام والأوصياء المطهرين عليهم السلام والأولياء الصالحين والمطالبين بالإصلاح والحقوق الواقعية المشروعة الطبيعية والمكتسبة، فيؤمن بذلك بقاء نظامه، واستمرار وجوده في السلطة، وتمتعه بالصلاحيات الملكية الواسعة والامتيازات الضخمة، وضمان مصالحه الخاصة المتراكمة والمستجدة.

وقد اختار فرعون مع ملئه في بادئ الأمر المواجهة السلمية الأقل كلفة مادياً وبشرياً ومعنوياً من المواجهة الأمنية والعسكرية العنيفة والدموية، فقرروا مقابلة ما زعموا أنه سحر بسحر مثله، قولهم: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾[1]، وذلك على قاعدة: كل عمل يجب أن يؤتى من طريقه، ليثبتوا أن ما أتى به مجرد سحر لا أكثر، وأنهم قادرين على الإتيان بمثله من خلال الاستعانة بأهل الخبرة

١. طه: ٥٧-٥٨

والصناعة والفن.

فأصدر فرعون أمره الملكي بتكليف فرق من الجيش والجنود والشرطة بالانتشار السريع في جميع المناطق والأنحاء في مصر، وإحضار كل محترف عليم بالسحر وحاذق فيه وماهر ومتقن له ومتدرب على فنونه المختلفة ومتمكن منها غاية التمكين على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم إلى العاصمة السياسية ومركز الحكم في البلاد؛ ليواجه بهم مجتمعين متضامنين متعاونين معجزات موسى الكليم عليه السلام وإبطال تأثيره في الناس.

ولفظ العموم (كُلِّ) في قوله: ﴿ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[1] يعني: إحضار كل ساحر محترف تعلمونه مسبقاً أو تظفرون به في جولتكم، وهذا يدل على أهمية الكثرة بالنسبة إليه، وحصر طلب الإحضار للمحترفين المتمكنين من السحر غاية التمكن كما يدل عليه لفظ (عَلِيمٍ)، يدل على عنايته بالإتقان وإحكام الأمر في المواجهة، وإبعاد جميع عوامل الخطأ والخلل؛ لأن المحترفين أبصر بدقائق السحر وأسراره، وأقدر مجتمعين على إظهار ما يفوق خوارق موسى الكليم عليه السلام أو يشوش عليها، وحضورهم يغني عن حضور السحرة الضعفاء عملياً، ويمنع من ظهور الخطأ والخلل والعجز المتوقع في أعمال السحرة الضعفاء، فلا يوازي العمل في جودته وإتقانه وعظمته ما جاء به موسى الكليم عليه السلام، وأدعى أنه آية إلهية ومعجزة عظيمة من عند رب العالمين، فيكون الخلل والخطأ والعجز مدعاة لتأثر الناس أكثر بما جاء به موسى الكليم عليه السلام، وترويج دعوته بينهم.

---

١. يونس: ٧٩

فأراد فرعون حصر المبارزة بين موسى الكليم عليه السلام وبين السحرة المحترفين؛ لسد كل فجوة وإبعاد كل عامل من عوامل الخطأ والخلل؛ ليضمن لنفسه الانتصار والغلبة في المبارزة من خلال السحرة، غافلاً عما يخبئه له القدر من المفاجآت التي ستصيبه مع ملئه وقومه بصدمة عظيمة، تشعرهم بالفشل وخيبة الأمل والخسران، وتذهب بأحلامهم أدراج الرياح على يد السحرة المحترفين أنفسهم، الذين جاؤوا بهم من جميع المناطق والأنحاء في مصر، وطمّعوهم وبذلوا لهم الأعطيات العظيمة وحرضوهم غاية التحريض وشحنوهم غيضاً؛ ليعارضوا بهم معجزات موسى الكليم عليه السلام، وينتصروا بهم عليه، ويغلبوه بهم. فإذا بهم يؤمنون بنبوته ويصدقون رسالته، ويكفرون بدين فرعون وألوهيته، ويعارضون نظام حكمه الفاسد وحكومته الجائرة، ويعلنون ذلك جهاراً أمام الجماهير المحتشدة في الميدان، وبحضور فرعون وملئه وأعوانه وأنصاره وكامل جهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري والفني، ويتقبلوا الشهادة في سبيل إيمانهم ودينهم الحق الجديد بنفوس راضية مطمئنة، فيظهر الحق على أيديهم ويزهر، وتصبح الوسيلة التي أراد بها فرعون وملؤه الانتصار والغلبة على موسى الكليم عليه السلام وسيلة لانتصاره وغلبته عليهم، وسبباً لهزيمة فرعون وملئه وإثبات فشلهم وعجزهم، وهذا من مكر الله وكيده بهم كما هو فعله بالظالمين والمجرمين دائماً وأبداً.

ولمّا جاء السحرة إلى ميدان المبارزة المفتوح في الصحراء، وواجهوا موسى الكليم عليه السلام، وكانوا على كامل أهبة الاستعداد للمبارزة بما هيؤوه وأعدوه من الحبال والعصي الطويلة والمتوسطة والقصيرة؛ لتظهر في

صور الحيات والثعابين على قاعدة مقابلة الشيء بمثله، خيّروا موسى الكليم عليه السلام بين أن يبدأ هو بإلقاء عصاه أو يبدؤوا هم بإلقاء ما لديهم، وذلك ثقة منهم بأنفسهم بأنهم هم الغالبون؛ لاحترافهم وتمكنهم من السحر وما يتمتعون به من المهارات والحذق والتدريب على فنون السحر والمعرفة بأسراره، ولكثرتهم أيضاً.

فأعطاهم موسى الكليم عليه السلام فرصة السبق، فقال لهم على وجه الثقة والتحدي: ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾[1] أي: ابدؤوا أنتم وألقوا ما تريدون وتستطيعون إلقائه من الحبال والعصي من غير شرط أو تحديد. أي: لا أعين أو أحدد لكم شيئاً، فلكم الخيار الكامل في إلقاء ما تريدون وتستطيعون إلقائه، وأظهروا كل ما لديكم من العلوم والمهارات والقدرات، وما تتمتعون به من الخداع في فنون السحر، وأبرزوها في الميدان، فإنكم مغلوبون لا محالة وبالضرورة؛ بواسطة المنطق السليم وعن طريق المعجزات الإلهية العظيمة النيرة الباهرة القاهرة، فهو يعلم علم اليقين وجازم بغلبته وانتصاره وظهوره عليهم مجتمعين؛ لأنه يعلم أنهم إنما يعملون كيد ساحر، وخيالات عمادها التمويه والخداع والتضليل لا حقيقة فعلية لها في الخارج، وإعطاؤهم فرصة السبق ليكون قضاؤه على سحرهم محقاً وإبطالاً له، فيظهر عجزهم، وينكشف للناس أن ما أتوا به عمل فاسد، وسعي باطل، يريدون به محق الحق وإبطاله وهو محال. وذلك أظهر لقوة حجته؛ لأن شأن المبتدئ بالعمل المتباري فيه، أن يكون أمكن من المتأخر، ويحصل بالابتداء على فرصة إضافية ليست للخصم، لا سيما

---

١. يونس: ٨٠

في الأعمال التي قوامها التمويه والخداع والتضليل، حيث يسبق المبتدئ المتأخر إلى التأثير في الحاضرين وكسب إعجابهم، مما يتطلب من المتأخر إزالته و إحلال تأثيره فيهم محله وكسب إعجابهم، وهذا يتطلب جهداً وعملاً مضاعفاً، وهذا أمر واضح.

وكان ذلك من موسى الكليم عليه السلام ثقة منه بربه العظيم الذي وعده بالفوز والنصر والغلبة، واستخفافاً منه بهم كسحرة، وزيادة في إظهار عدم الاكتراث بمبلغ سحرهم، واستخفافاً منه بفرعون الجبار المتغطرس وكامل جهازه الديني والأمني والعسكري والسياسي والإداري والفني، وبكيدهم ومكرهم السيء وبكل ما جاؤوا به وهيؤوه من الإمكانيات والاستعدادات والقدرات، وبرعاياتهم الإعلامية والتحريضية، وتهيئة منه للقوم الحاضرين بأن يعلموا بأن الله عز وجل قد أبطل سحرهم على يد رسوله الكريم عليه السلام بما أيده به من الآيات والبينات والمعجزات، فهو على ثقة تامة وجزم ويقين بغلبته عليهم وظهور الحق وبطلان الباطل؛ لأنه يعلم بأن ما جاء به السحرة من السحر مجرد خيالات تقوم على الوهم، بسبب التمويه والخداع والتضليل، ولا حقيقة له وراء ذلك ولا نصيب له من الواقع، وأن ما جاء به من عند رب العالمين هو حقيقة فعلية واقعية فاعلة ومؤثرة تأثيراً واقعياً وفعلياً، وسيظهر أثره الفعلي الواقعي في إبطال سحرهم ومحقه و إبطال تأثيره على الناس بفضح سره وكشف حقيقته و إثبات أنه مجرد تخيل ووهم يقوم على التمويه والخداع والتظليل، ولا حقيقة له وراء ذلك والقضاء المبرم عليه و إفنائه وكأنه لم يوجد؛ ولأن ربه العظيم الذي لا يخلف الميعاد قد وعده بذلك، وهو على كل شيء قدير، وعليه

ستظهر حقيقة ما عندهم من السحر، وحقيقة ما عنده من الإعجاز الإلهي الباهر، وينكشف ذلك بكل جلاء ووضوح لجميع القوم الحاضرين، السحرة المحترفين المباشرين للمبارزة، وفرعون الطاغية وملئه المستكبرين الواقفين وراء المبارزة والداعمين للسحرة، والجماهير المحتشدة في الميدان للتفرج على المبارزة، والمتلهفين جداً لرؤية النتيجة ومعرفة الحقيقة.

وتعتبر الآية الشريفة المباركة دليل على أن كل عمل فاسد يقوم على الباطل والكيد والخداع والتضليل يأتي به الجبابرة والدجالون، فإن الله سبحانه وتعالى سيظهر بطلانه ويكون مصيره بما هو فاسد، وبحسب آثاره ونتائجه وفق السنن الإلهية الكونية والتاريخية إلى الزوال والاضمحلال، فليس من شأنه الثبات والبقاء والدوام، بل يتضاءل مع الزمان تدريجياً، حتى يضمحل ويزول ويفنى، حتى وإن حصل له رواج في وقت من الأوقات، وكل عمل صالح يأتي به المؤمنون الصالحون ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى، فإن الله تبارك وتعالى يصلحه ويبقيه، حتى يؤتي أكله وتظهر ثماره الطيبة في الدارين الدنيا والآخرة، حتى وإن ستره كيد الظالمين وبغيهم في وقت من الأوقات، قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾[1].

أي: أن الذين كفروا بالله سبحانه وتعالى والدين الإلهي الحق ولم

---

١. محمد: ٢-٣

يكتفوا بالكفر، بل عملوا وسعوا في إضلال الناس، ومنعهم من الإيمان والهداية بكل وسيلة خبيثة، وأسلوب من أساليب الإضلال والمنع، مثل: الترهيب والترغيب وشراء الضمائر الرخيصة والتضليل الفكري والإعلامي ونحو ذلك، هؤلاء الضالون المجرمون، لن يقبل الله ﷻ عملهم ولن يصلوا إلى مبتغاهم ومقاصدهم، بل يضل الله ﷻ جميع أعمالهم ويضيعها، فلا تهتدي لمقاصدها، كالإبل الضالة ليس لها رب يحفظها ويعتني بها، ويبطل أعمالهم ويحبطها ويشقيهم بآثارها ونتائجها وفق السنن الإلهية الكونية والتاريخية، فلا يدركوا شيئاً مما قصدوا، ويجعل الدائرة عليهم، ويكون نصيبهم من عملهم التعب والنصب والحرمان والخسران المبين، وخيبة الأمل في الدارين الدنيا والآخرة.

وهذا يشمل أعمالهم السيئة التي عملوها ليكيدوا بها الحق والمؤمنين، وأما الذين آمنوا واطمأنت قلوبهم بالإيمان، ولم يكتفوا بمجرد الإيمان، بل عملوا الصالحات وأدوا حقوق الله سبحانه وتعالى وحقوق العباد الواجبة والمستحبة بإخلاص وصدق نية، وآمنوا بالقرآن الكريم وبكل ما جاء به محمد بن عبدالله ﷺ من عند ربه، لا لهوى أنفسهم أو التعصب الأعمى أو لمصلحة دنيوية، بل لأنه الحق الحقيق الذي أتى به من عند رب العالمين، ولا يصح الإيمان ولا يتم إلا به، وسعوا إلى الخير والصلاح وقاموا بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ودينه الحق، هؤلاء المؤمنون الصالحون يقبل الله تبارك وتعالى أعمالهم، ولا يخيب آمالهم فيما قصدوا، بل يكفر عنهم سيئاتهم ويرحمهم ويسددهم ويؤيدهم بالتوفيق ويصلح شأنهم ويسعدهم بآثار ونتائج أعمالهم وفق السنن الإلهية الكونية والتاريخية،

ويوصلهم إلى مقاصدهم ومبتغاهم في الدارين الدنيا والآخرة.

والسبب في الحالتين، حالة الكافرين المجرمين وعقابهم وشقائهم، وحالة المؤمنين الصالحين وثوابهم وسعادتهم، هو أن الذين كفروا اتبعوا الباطل من الشيطان الرجيم، وهو بطبيعته وآثاره ونتائجه ينتهي إلى الزوال والاضمحلال وفق السنن الإلهية الكونية والتاريخية، وهو الخذلان الإلهي لهم، والذين آمنوا واتبعوا الحق من ربهم الباقي سبحانه وتعالى، وهو بطبيعته وآثاره ونتائجه ينتهي إلى الفوز والنجاح والظفر وفق السنن الإلهية الكونية والتاريخية، وهو التأييد الإلهي لهم.

وبهذا يبين الله ﷻ للناس أوصافهم وأحوالهم على حقيقتها على ما هي عليه في واقعها الوجودي الفعلي في عالمي الملك «الشهادة» والملكوت «الغيب»؛ ليعرفوا إلى ما ينتهي إليه مصيرهم في الدارين الدنيا والآخرة، ويتعظوا ويعتبروا وتتم الحجة البالغة عليهم. وتدل الآية الشريفة المباركة على وجوب اقتران الإيمان بالعمل الصالح، فلا يغني أحدهما عن الآخر للنجاة والفوز برضوان الله ذي الجلال والإكرام وثوابه والوصول إلى المبتغى والمقصود في الدارين الدنيا والآخرة.

فاستجاب السحرة لطلب موسى الكليم عليه السلام بأن يبدؤوا بإلقاء ما لديهم، إما تقديراً منهم إليه، و إما لثقتهم التامة بأنفسهم، وما يتمتعون به من الحذق والقدرات والمهارات والتمكن من فنون السحر والعلم بدقائق أسراره وخفاياه وخباياه؛ ولأنهم خيروه؛ ولأن من يبدء يحصل على فرصة السبق والتأثير على الجمهور والمراقبين، أي حين يبدؤون بالإلقاء فهذا

لصالحهم، فألقوا ما لديهم من الحبال والعصي على مختلف الأحجام والأطوال وجاءوا بسحر عظيم، حيث خيل لكل من يراها كأنها حيات وثعابين حقيقية تسعى ويركب بعضها بعضاً، وبعظمة ما جاءوا به من السحر أوجس موسى الكليم عليه السلام في نفسه خيفة من أن يؤثر ذلك المشهد المثير تأثيراً عميقاً في نفوس الجماهير المحتشدة في الميدان، وفي نفوس المراقبين، ويصدرون حكماً لغير صالحه يصعب تغييره.

إلا أن الله عز وجل طمأن عبده ووليه الصالح ورسوله الكريم موسى بن عمران الكليم عليه السلام بأن له الفوز والظفر والغلبة والنصر على عدوه، وسيكون الحكم لصالحه وليس عليه أن يخاف أو يقلق من النتيجة؛ لأنها ستكون في صالحه حتماً وستكون حاسمة جداً، فقال موسى الكليم عليه السلام للسحرة على وجه التقريع والتوبيخ، ومبيناً لهم حقيقة ما جاءوا به وما سيظهره الله عز وجل على يديه المباركتين من الحق من صيرورة العصا ثعباناً عظيماً يلقف جميع ما ألقوه من الحبال والعصي وأظهروه في صورة الحيات والثعابين بسحرهم حتى يتلاشى عن آخره ويفنى وكأنه لم يكن؛ ولكي يهيئ نفوسهم ويفتح عقولهم وقلوبهم عليه تمهيداً لإدراكه بما هو عليه في حقيقته وواقعه، ولهذا السبب بادروا إلى الإيمان حين شاهدوا المعجزات الإلهية النيرة الباهرة، وألقوا أنفسهم على الأرض ساجدين لرب العالمين، قوله: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾[1] أي: إن ما جئتم به من السحر، وإن كان عظيماً في فنه وهذا واضح، فإنه في حقيقته مجرد سحر يقوم على التمويه والخداع والتضليل، وإظهار للشيء وتصويره في أعين الناس

١. يونس: ٨١

وإدراكهم على خلاف صورته وحقيقته الفعلية، وهو باطل وزائف في نفسه ولا حقيقة فعلية له وراء ظاهره الخيالي الزائف ولا نصيب له من الواقع ولا فاعلية ولا تأثير في الخارج.

وعليه: فإن الله سبحانه وتعالى سيبطل تأثيره في النفوس بفضح سره وكشف حقيقته إلى الناس عن طريق ما جئت به من المعجزات الإلهية النيرة الباهرة القاهرة؛ لأن السنة الإلهية جارية على إقرار الحق وإثباته وتقويته، وإبطال الباطل وإزهاقه.

أما ما جئتكم به من المعجزات من عند رب العالمين، فإن له حقيقة فعلية واقعية وفاعلية وتأثير في الخارج، فهو حق بين، وسيظهر تأثيره الواقعي في إبطال سحركم ومحقه، فتنكشف حقيقة ما جئتم به من السحر، بأنه باطل وليس حقاً، وسيعلم الناس بطلانه وتنكشف حقيقة ما جئت به من المعجزات الإلهية بأنها حق، وسيعلم الناس حقانيتها، وسيفتضح أمركم وأمر من يقف وراءكم، فرعون وملؤه المستكبرون، ويفشل كيدكم وستُغلَبون حتماً، ويحبط عملكم على يد القدرة الإلهية المطلقة، لا شك في ذلك ولا ريب ولا تردد. أي: لأن ما جئتم به باطل وما جئت به حق، فإن الله ﷻ وهو الحق المطلق، وقد جرت سنته على إحقاق الحق وإبطال الباطل، سيظهر حقيقة ما جئتم به من الباطل بحقيقة ما جئت به من الآيات الإلهية والمعجزات الربانية القاهرة، وذلك للأسباب التالية:

أ. لأن الله ذا الجلال والإكرام بما هو حق مطلق وعدل وحكيم سبحانه وتعالى، فهو لا يصلح عمل المفسدين في الأرض ومنه السحر، قوله

تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[١] بل يمحقه ويكشف زيفه وبطلانه للخلق، تكويناً بترتيب آثاره المناسبة له المختصة به وفق السنن الإلهية الكونية والتاريخية، وبالدليل والبرهان، ويثبت الحق ويكشف حقانيته للناس تكويناً بترتيب آثاره ونتائجه المناسبة له المختصة به وفق السنن الإلهية الكونية والتاريخية، وبالدليل والبرهان الواضح القاطع؛ لأن أثر العمل الصالح يناسب ويلائم الحقائق الكونية والسنن الإلهية الكونية والتاريخية، ويمتزج بها ويخالطها فيما تقتضيه بطباعها وتجري عليه بجبلتها، فيصلحه الله ﷻ ويجريه على ما كان من طباعه، وأثر العمل الفاسد لا يناسب ولا يلائم الحقائق الكونية والسنن الإلهية الكونية والتاريخية.

فهو أمر استثنائي في نفسه غريب عن نظام الوجود ومضاد له، فتعارضه جميع الأسباب والحقائق الكونية والسنن الإلهية بما لها من القوى والوسائل المؤثرة؛ لتعيده إلى السيرة الصالحة إن أمكن وإلا أبطلته وأفنته ومحقته عن صفحة الوجود. ولو أصلحه الله سبحانه وتعالى وهو فساد، لكان في ذلك إفساد للنظام الكوني، قول الله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[٢]، وهذا محال على الله العزيز الحكيم سبحانه وتعالى.

وعليه: فإن قضاء الله ﷻ ماضٍ وسنته جارية في أن يضرب الحق

---

١. نفس المصدر

٢. المؤمنون: ٧١

والباطل في نظام الكون، فلا يلبث الباطل دون أن يتضاءل تدريجياً مع مرور الوقت حتى يضمحل ويزول ويفنى ويعفى أثره، ويبقى الحق على جلائه ووضوحه، بعد إزالة الأستار والحجب عنه، قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحق وَالْبَاطِلَ فَأَما الزبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَما مَا يَنْفَعُ الناسَ فَيَمْكُثُ فِي الأرض كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ﴾[1]، أي: ضرب الله تبارك وتعالى في هذه الآية الشريفة المباركة مثالين، مثال للباطن في زواله ومفاسده، ومثال للحق في ثباته وصلاحه. أما الباطل فهو كالزبد الذي يعلو فوق ماء السيل أو الذي يعلو فوق ما توقد عليه النار من المعادن، ولا فائدة فيه، وهو يذهب ويضمحل غير مكترث به لعدم فائدته، وأما الحق فهو كالماء الصافي النقي المفيد، الذي يبقى وتظهر آثاره وفائدته في الزرع والعيون والآبار ونحوها، وكالمعادن، مثل: الحديد والنحاس والذهب والفضة، فإنها تبقى بعد أن توقد عليها النار، وتظهر آثارها وفوائدها في المصنوعات المعدنية المختلفة، والحلي وأدوات الزينة ونحوهما.

كذلك يضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال ليبين للناس أن الشبهات والوساوس والأباطيل والخرافات والخيالات قد تظهر في النفوس، وتنتشر في المجتمعات وتقوى وتعظم، إلا أنها في الآخر تبطل وتضمحل تحت ضربات الحق بسياط العقل والأدلة والبرهان، ويبقى الحق ظاهراً لا يشوبه شيء من الشبهات ونحوها.

---

١. الرعد: ١٧

والخلاصة: إن الحق يمحق الباطل ويقضي عليه، وخلاف ذلك إبطال للنظام الكوني ومناقض للحكمة. وعليه: فالغلبة العقلية البرهانية ستكون دائماً للحق بما هو حق على الباطل بما هو باطل، وعلى أرض الواقع ستكون للحق جولة وللباطل جولة بحسب موازين القوى والأخذ بالأسباب، وفي نهاية المطاف ستكون الغلبة المطلقة لأهل الحق على أهل الباطل، فالسنة الإلهية جارية على أن يضرب الله ﷻ الباطل بالحق فتكون للحق الغلبة دائماً على الباطل بالبرهان، وتكون على أرض الواقع لأهل الحق جولة، ولأهل الباطل جولة، ثم لا يلبث الباطل أن يفنى ويعفى أثره ويذهب أهله، ويبقى الحق على جلائه ويظهر أهله ويملكون، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتقِين﴾[1]، وقول الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]، وذلك بما لا يخل بحكمة التكليف القائمة على الإقناع المستند إلى الدليل والبرهان وحرية الاختيار، قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[3] أي: لم نشأ ذلك للإبقاء على حرية الاختيار؛ ليكون المكلف مستحقاً بحق وحقيقة للثواب والعقاب.

والمفسد يضاد الله سبحانه وتعالى؛ لأن المفسد بما هو فاسد

١. الأعراف: ١٢٨

٢. هود: ٤٩

٣. الشعراء: ٣-٤

يتحرى الباطل والتضليل والخداع والشر والفساد في جميعأقواله وأفعاله، بينما يتحرى الله بما هو حق مطلق الحق والصدق والخير والصلاح في جميع أقواله وأفعاله؛ ولأن الصلاح والفساد شأنان متقابلان، فلا يصح بحكم العقل أن يصلح الله سبحانه وتعالى عمل المفسدين، وهو الحكيم العليم القادر على إبطال الباطل وعدم إنقاذه، بل يجب بحكم العقل والمنطق أن يقر ويثبت وينفذ ما هو صالح، ويمحق ويفضح ما هو فاسد، من حيث أنه يلائم وينسجم مع الحقائق الكونية والسنن الإلهية الكونية والتاريخية، ومع طباع الإنسان الفطرية السليمة وغاية وجوده.

وبهذا يثبت ضلال القول: بأن كل الأيديولوجيات تسبب خطراً على الإنسان؛ لأنها سبب انقسامه إلى فرق ومذاهب، والإنسان الواعي هو القادر على أن يكون مستوعباً لها جميعاً في وعاء واحد، فهو قول شاعري، ولكنه مخالف للحقائق والمنطق.

والآية موضوع البحث من سورة يونس تدل على أن السحرة بما هم سحرة مفسدون في الأرض؛ لأن قصدهم تضليل عقول الناس وإبعادهم عن الحقيقة وفصلهم عن الواقع، ليكونوا مسخرين لهم ولا يهتدون إلى صلاح أنفسهم؛ ولأن نتائج السحر في المجتمعات هو الفساد في الفكر والعقيدة والأخلاق والسلوك والأحوال والأوضاع الخاصة والعامة، ومما يؤسف له فإننا نجد المجتمعات الحديثة المتحضرة التي يفترض فيها التقدم العلمي والحضاري وأنها تقدس

العلم والمنطق نجدها تروّج للسحر وتضع له البرامج التلفزيونية الكبيرة ونحوها وتصرف عليها ملايين الدولارات بينما هو يؤدي إلى الفساد والخرافات.

ب. أن الله سبحانه وتعالى بما هو حق مطلق وعدل حكيم رؤوف رحيم بعباده فإنه يحق الحق بكلماته، الآيات الساطعات والبينات الواضحات والمعجزات النيرات الباهرات والبراهين القاطعة، وذلك رغم أنف المجرمين الذين يحاربون الله ﷻ ورسله ﵈ وأولياءه الصالحين، ويكذبون بآيات الله سبحانه وتعالى وبيناته، ولا تنفع معهم حجة ولا برهان ولا موعظة بالغة ولا نصيحة صادقة. قول الله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[1] أي: لأن السحر باطل في نفسه، وأنتم أيها السحرة تريدون بسحركم أن تخدموا النظام الفرعوني الفاسد وتقديم الدعم والمساندة لحكومته الظالمة المستبدة التي تعمل على نشر الفساد في الأرض. أي: أن سحركم من الناحية العملية يصب في مصلحة الظلم والجور والفساد، فأنتم قوم مجرمون مفسدون، فلابد أن يمحق الله ﷻ ما جئتم به من السحر؛ لأنه باطل وفساد، بحيث يعلم الناس جميعاً بطلانه وفساده في نفسه بالدليل والبرهان العقلي الناهض، ثم لا يسمح له بالتمكن والتجذر في الأرض من خلال السنن الإلهية الحاكمة في الكون والتاريخ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يبطل الباطل، وأن الله سبحانه وتعالى سوف يحق ما جئتكم به من حق الإعجاز،

١. يونس: ٨٢

بحيث يعلم الناس جميعاً حقانيته في نفسه بالدليل والبرهان العقلي الصحيح الناهض، ويمكّن له في الأرض بظهور الإيمان وانتشاره وتملك المؤمنين من خلال السنن الإلهية الحاكمة في الكون والتاريخ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] وهذه حتمية تاريخية ضرورية الحدوث والوقوع، لا تستطيع جيوش المجرمين المعاندين الضالين الخائنين للحقيقة ولأمانة العقل والمنطق، الكارهين لظهور الحق والعدل بين الناس، والمتشوقين لظهور الباطل، من الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظالمين المتغطرسين والمترفين المستغلين وأنصارهم وأعوانهم الفاسدين المارقين الانتهازيين الأنانيين والنفعيين الوقحين ونحوهم، ولا وسائل إعلامهم الضالة المضلة العابرة للقارات، وما يمارسونه من الكيد والمكر السيء والعنف والإرهاب وشراء الضمائر ونحو ذلك من الأعمال القبيحة أن تعطل المشيئة الإلهية وأن تمنع حدوث ووقوع تلك الحتمية التاريخية؛ لأنها متناغمة مع الحقائق الكونية والسنن الإلهية الكونية والتاريخية، وتقف وراءها القوة الإلهية المطلقة واللطف الإلهي في التدبير، ومدعومة بقوة العقل والمنطق وميول الطبع والفطرة السليمة، ومنع حدوثها يعني تعطيل المشيئة الإلهية المطلقة النافذة في كل شيء والغالبة على كل إرادة ومشيئة بشرية

---

١. الأنفال: ٤٢

وغير بشرية، وتعطل عمل السنن الإلهية والحقائق الكونية، وهو مستحيل بحكم العقل والمنطق السليم.

وعليه: ينبغي أن يكون المؤمنون الصالحون المجاهدون على ثقة تامة بربهم ودينهم الحق، فيؤدوا ما عليهم من التكليف، مثل: حسن التخطيط والتدبير، ووضع البرامج الواقعية الفاعلة، والصبر، والثبات، والتحمل، والعمل الدؤوب، والأخذ بزمام المبادرة، وتدارك الأخطاء، وعدم السماح بضياع الفرص والمناسبات المؤاتية، والتحلي بالشجاعة التي تلامس ما يملكون من الإمكانيات المادية، والبشرية والمعنوية ولا تقصر عنها، وبذل التضحيات اللازمة، والتسليم لأمر الله سبحانه وتعالى والثقة به والتوكل عليه، وتجميع المكتسبات، ومراكمة النتائج الإيجابية، ويكونوا على يقين تام، بأن عمل الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين والمترفين وأنصارهم وأعوانهم سيبطله الله ﷻ ويضمحل ويزول ويعفى آثاره لا محالة، وينصرهم الله ﷻ عليهم عاجلاً أو آجلاً، فإن انتصروا فإلى حين، ولن يدوم انتصارهم، وستلحق بهم الهزيمة والخزي والعار إلى أبد الآبدين.

وفي المقابل فإن عمل المؤمنين المجاهدين الصابرين المضحين الذين يريدون بعملهم وجه الله سبحانه وتعالى ورضوانه، فإنه مبارك فيه من الله تبارك وتعالى، وينسجم مع الحقائق الكونية والسنن الإلهية ومدعوم بالإرادة الربانية المطلقة، ونافع للبشرية في دنياها وآخرتها، فلا بد أن يصلح الله ﷻ شأنهم، ويظهرهم على أعدائهم، ويصلوا إلى مبتغاهم ومقاصدهم.

ملاحظة: إن النقطة «أ» تمثل جانب النفي في المعادلة، قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[١] والنقطة «ب» تمثل جانب الإثبات في المعادلة، قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾[٢]، وقد جمع الله تبارك وتعالى بين النفي والإثبات، قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾[٣] فهما طرفين في معادلة واحدة.

وهنا ينبغي التمييز كما سبقت الإشارة بين الحق في نفسه وبين أهل الحق من المؤمنين. أما الحق فإن ظهوره في نفسه وملازم له في كل وقت كالنور الساطع، يبدد الظلام دائماً وأبداً وفي جميع الأحوال، وهذا يدل على علو شأنه وعظيم برهانه، وأما أهل الحق من المؤمنين، فإن ظهورهم يتوقف على مدى استقامتهم على الدين الحق والصراط المستقيم واهتدائهم بهديه واستنارتهم بنوره في مصالح الدين والدنيا، وأخذهم بالأسباب المادية، مثل: إعداد القوة وحسن التخطيط والعمل الدؤوب ونحو ذلك، والمعنوية، مثل: الصدق والإخلاص وعدم قصد العلو والفساد في الأرض ونحو ذلك، فإن استقاموا على الحق وأخذوا بالأسباب ظهروا وملكوا، و إذا فرطوا في الحق وقصروا وأهملوا وضيعوا لم ينفعهم مجرد الإيمان والانتساب إلى الدين الحق؛ لتحقيق الظفر والانتصار، وصار إهمالهم وتضييعهم سبباً لتسلط الأعداء عليهم، وهذا ما ثبت بالتجربة التاريخية والمعاصرة.

---

١. يونس: ٨١

٢. يونس: ٨٢

٣. الأنفال: ٨

وقيل: المراد من الكلمات في قوله: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾[١] ما اشتملت عليه الكتب السماوية من الآيات البينات والحجج والأدلة والبراهين القاطعة.

وقيل: المراد منها الأقضية الإلهية في شؤون الأشياء الكونية الجارية على الحق والأمر الإلهي التكويني بالإيجاد، مثل: أمره العصا بأن تكون حية تلقف ما يأفكون من السحر الذي حول الحبال والعصي في الظاهر وليس في الحقيقة إلى حيات وثعابين تسعى ونحو ذلك، وهي استعارة رشيقة؛ لأن الإيجاد يدل على إرادة الموجد كما يدل على إرادة المتكلم.

وقيل: المراد منها ما وعد الله ﷻ به عبده ووليه ورسوله الكريم موسى الكليم عليه السلام من النصر والظهور على الأعداء.

وقيل: غير ذلك.

ولا مانع من ناحية المعنى والمفهوم العام من الجمع بين جميع الأقوال، المعجزات، وما اشتملت عليه الكتب السماوية المنزلة، والأمر التكويني والوعد الإلهي بالنصر. ولكن المناسب في مكان البحث وموضوعه هو الأمر التكويني، واللفظ يدل على نفاذ القدرة الإلهية الجارية في التدبير مجرى الحكمة البالغة وغلبتها على أرض الفعل والواقع على كل قدرة وكل إرادة وكل تدبير.

---

١. يونس: ٨٢

وإن إيمان السحرة وإذعانهم للحقيقة حين تبينت لهم، ثم ثباتهم على إيمانهم رغم كل التهديدات التي توعدهم بها فرعون الطاغية المتجبر من الصلب وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ونحو ذلك، واستمرارهم في إرادة الثبات والصمود إلى درجة الشهادة وتقبلها بنفوس راضية مطمئنة، لهو أول انتصار عظيم وجلي لموسى الكليم عليه السلام على فرعون وملئه الذين أصيبوا بالصدمة والذعر وخيبة الأمل والخسران، فراحوا يتصرفون بعصبية وعدوانية، ويطلقون الوعيد والتهديدات جزافاً وبغير حساب.

ومن المسلم به أن التمهيد النفسي والفكري الذي قام به موسى الكليم عليه السلام بين يدي المبارزة في الميدان، كان له الأثر الكبير في إحداث هذه النتيجة العظيمة والانتصار الكبير، مما يشير إلى أهمية البيان للحقائق من حيث التوقيت والأسلوب في قبول الدعوة أو الفكرة، وحسم النتائج في الحوارت والمفاوضات.

عناد فرعون وقومه واستكبارهم على الحق

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلا ذُرِيةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِن فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض وَإِنهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِين﴾

رغم كل ما جاء به موسى الكليم عليه السلام من عند ربه من البينات الظاهرات الواضحات والمعجزات النيرات الباهرات والبراهين الساطعة القاطعة الدلالة على صدق نبوته ورسالته وعدالة قضيته وشرعية مطالبه الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية بحيث لا تترك لأحد حجة ولا

عذر، فإن فرعون الطاغية وملأه المستكبرين المارقين الفاسدين المعاندين لم يؤمنوا، واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والظلم والطغيان والعصيان.

أما قومه الأقباط فلم يؤمن منهم سوى نفر قليل، وهم حزقيل مؤمن آل فرعون وزوجته، وآسية بنت مزاحم زوجة فرعون وابنتها وماشطتها ووصيفتها، وشخص يسمى حارثة، وقيل: هو خازن فرعون. وامرأته، وقيل: طائفة من شباب قوم فرعون، كانت أمهاتهم من بني إسرائيل وآباؤهم من الأقباط، فاتبعوا أمهاتهم في الإيمان بنبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته، وقد آمنوا وصبروا وثبتوا على إيمانهم، وهم على خوف شديد من فرعون وحزبه الشياطين المفسدين في الأرض من الأشراف وكبار المسئولين والموظفين المدنيين والعسكريين من أن يعذبوهم وينكلوا بهم ويضعوا أمامهم العراقيل والصعوبات بغية أن يصرفوهم عن دينهم الحق، ويعيدوهم إلى دين الدولة الرسمي، قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾[1].

وقيل: المراد بذرية من قومه، هم ذراري بني إسرائيل، وهم قوم موسى الكليم عليه السلام؛ لأن موسى الكليم عليه السلام دعا الآباء من قومه، فلم يجيبوه خوفاً من فرعون وقومه١ ولأنهم قد تربوا على الكفر والعقائد الباطلة وجمدوا عليها، وتعودوا الخضوع لإرادة فرعون وقومه وحياة الذل والهوان والاستعباد، ولم يكونوا متحمسين للثورة عليها. ودعا الأبناء فآمنوا به وصدقوه واتبعوا

١. يونس: ٨٣

سبيله في التوحيد والثورة والتحرير، كما هو دأب الشباب دائماً في كل قوم وملة في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، حيث يقبلون الحق والعدل والفضيلة والصلاح والتغيير ويتحمسون له؛ لما يتمتعون به من الطهارة الروحية وصفاء ولين القلب، وضعف التعلق بعالم الدنيا والمادة والمصالح، وتطلعهم إلى المستقبل الأفضل الواعد، وفراغهم من الحسابات المعقدة في المصالح والحياة والموت، فليست لهم أموال وثروات ضخمة يخافون فقدانها، ولا جاه أو منصب أو مقام يخافون ضياعه من أيديهم أو نحو ذلك، ولهم ميل للبطولة وكامل الاستعداد للتضحية والفداء.

أما الشيوخ وكبار السن الذين تربوا على الكفر والعقائد الباطلة وجمدوا عليها، وتعودوا حياة الذل والهوان والاستعباد، وفقدوا الحماس للثورة من أجل تغييرها، وكونوا الثروات والعوائل، وأصبحت لهم مصالح كثيرة في الحياة لا سيما الأشراف وأصحاب المناصب والوظائف العليا والمقربين من السلطة، الذين ارتبطت مصالحهم بمصالح السلطة وتشابكت معها، فهؤلاء يحسبون الأمور ويقيسونها بالميل لحساب مصالحهم وحفظ مكانتهم، ويتقربون إلى الحاكم المستبد بكل وسيلة، ويتظاهرون له بالولاء والنصح، ويخشون غضبه وسخطه عليهم، فهم يقدمون رِجلاً ويؤخرون أخرى؛ خوفاً على مصالحهم ويراوغون ويخادعون، ومن دأبهم أنهم يتأخرون حتى تتضح النتائج وتظهر بوضوح وجلاء، ويطمئنون على أنفسهم ومصالحهم التي يعيشون من أجلها ولا يرون لأنفسهم قيمة بدونها، فإذا اتضحت وتبين لهم أن الإيمان يصب في مصلحتهم آمنوا أو تظاهروا بالإيمان.

وقد مارس هؤلاء الجهلة مختلف الضغوط على الشبان والمستضعفين وآذوهم، ووضعوا أمامهم العراقيل والصعوبات برجاء إرجاعهم عن دينهم الحق إلى الدين الفرعوني الرسمي للدولة خوفاً منهم من مؤاخذة لهم ومعاقبتهم بجرم الذين آمنوا من قومهم، كما هو دأب الفراعنة المتكبرين والحكام المستبدين وقوى الاستكبار العالمي بأخذ كل القوم بجريرة البعض، فيفدوا أنفسهم أو تضيع مصالحهم.

وقيل: المراد بالذرية، هم بنو إسرائيل كلهم، سماهم ذرية؛ لأنهم جميعاً من نسل إسرائيل «يعقوب» عليه السلام، وأراد التصغير لقلتهم بالقياس إلى كثرة الأقباط «قوم فرعون»، وكان أبوهم يعقوب عليه السلام قد دخل بهم إلى أرض مصر في عهد حكومة ولده يوسف الصديق عليه السلام فيها، في القرن الثامن عشر «١٨» قبل الميلاد، وكانوا اثنين وسبعين فرداً، وأصبحوا في عهد موسى الكليم عليه السلام في القرن الثالث عشر «١٣» قبل الميلاد ستمائة ألف فرداً تقريباً.

وقيل: إن الذين آمنوا من بني إسرائيل قبل مبارزة السحرة لموسى الكليم عليه السلام هم الشبان والضعفاء، آمنوا وهم خائفون من فرعون وملئه ومن الأشراف وأصحاب المصالح والمنافع الانتهازيين من بني إسرائيل، الذين لا يفكرون إلا في أنفسهم ومصالحهم، وكانوا يناصرون فرعون ويتآمرون معه على المؤمنين والمستضعفين من قومهم، ويمنعونهم من الإيمان والمعارضة للنظام، كما هو دأب هذه الفئة الأنانية الفاسدة في كل قوم وملة في كل عصر ومصر، فقد اضطهدوهم وعذبوهم، ووضعوا

أمامهم العراقيل والصعوبات؛ ليجبروهم على الارتداد عن الدين الإلهي الحق، وإرجاعهم إلى الدين الفرعوني الرسمي للدولة، وترك المعارضة للنظام والثورة عليه، وإرجاعهم إلى أحضانه والولاء إليه، والخضوع لإرادة الملك واتباعه وطاعته.

أما الشيوخ وكبار السن لا سيّما الأشراف والأعيان من بني إسرائيل الذين تربوا على الكفر والعقائد الباطلة وجمدوا عليها، وتعودوا على حياة الذل والهوان والاستعباد، وفقدوا الحماس للثورة عليها، والذين كانت تربطهم مع النظام الفرعوني ورموزه وتياراته مصالح ضخمة، فقد تأخر إيمانهم إلى ما بعد المبارزة وظهور نتائجها الحاسمة لصالح موسى الكليم عليه السلام، إذ اطمأنوا على رجحان كفة موسى الكليم عليه السلام، وتأكدوا أن مصلحتهم في الإيمان به ومتابعته، فآمن بعضهم به عن اعتقاد وقناعة، وخضع بعضهم للأمر الواقع وتظاهر بالإيمان؛ حفاظاً على مصالحهم ومكانتهم الاجتماعية بين بني إسرائيل.

وأيّاً كان المراد من الذرية من فرعون، أو الشبان والمستضعفين من بني إسرائيل، أو بني إسرائيل كلهم، فقد كان خوف هؤلاء المؤمنين من فرعون وحزبه القساة خوفاً في محله، ولأسباب واقعية؛ لأنهم قلة، وإمكانياتهم ضئيلة بالقياس إلى كثرة قوم فرعون وإمكانياتهم الضخمة؛ ولأن فرعون كان حاكماً مستبداً وظالماً ومتسلطاً على أرض مصر وأهلها من دون إرادتهم، ويعد من أكثر الفراعنة قهراً لأبناء الشعب وطغياناً وعدواناً وكفراً، وكان شديد القسوة والبطش، ويمتاز بالعتو والبغي والتكبر والغطرسة والاستعلاء

على الخلق، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[١]، وقد ثبت بالحس والتجربة إِسرافه في الكفر والبغي والظلم والاستبداد والطغيان والعصيان وإظهار الفساد والشر في الأرض، وقتل المعارضين للنظام وتشريدهم وسجنهم وتعذيبهم والتضييق عليهم في معيشتهم وأرزاقهم، والتمييز ضدهم، وتنويع العقوبات والتنكيل بهم بدون حد أو رحمة، وادّعى الألوهية والربوبية بغير حق وعلى خلاف العقل والمنطق، واسترق أبناء الأنبياء الكرام عليهم السلام واستعبدهم وأذلهم وأهانهم بغير حق، وأعلن العداوة الصريحة والبغضاء والمحاربة لموسى الكليم عليه السلام وقومه والمؤمنين به، قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[٢]، فحقيق بالمؤمنين أن يخافوا بطشه وقوته؛ لما يتوقعوه منه من المبالغة في إيذائهم والانتقام منهم إذا علم بإيمانهم.

وفي الآية الشريفة المباركة عذر لهم فيما أظهروه من الخوف الشديد من فرعون وملئه؛ لما كان عليه فرعون وملؤه من الظلم والجور والبطش والقسوة والتنكيل بالمعارضين، في حال كونهم خائفين لأسباب واقعية في وقت كانوا مستضعفين، وكان فرعون بما يتصف به من القسوة والشدة قادر عليهم ومتمكن من إيذائهم، فلم يمنعهم ذلك من الإيمان والثبات عليه والصمود أمام التهديدات والوعيد الفرعوني، مما يدل على أن الخوف في مثل هذه الحالات أمر طبيعي ولا ينافي الصدق في الإيمان بشرط أن يقترن بالثبات، ولا يؤدي إلى التراجع والتخلي عن التكليف الإلهي والقيام

١. نفس المصدر
٢. نفس المصدر

بما يجب القيام به من الأعمال وتحمل المسؤوليات العامة والخاصة الواجبة.

دواعي مخالفة الأنبياء والمصلحين ومحاربتهم

لقد دأب الطواغيت الضالون والفراعنة المتجبرون والحكام المستبدون الظلمة والمترفون المستغلون، الذين يفرضون إرادتهم وسلطتهم، ويحكمون بفرض الأمر الواقع على أبناء الشعب بغير إرادتهم ورضاهم وعلى غير مصلحتهم، ولا يتورعون عن ارتكاب الجرائم والجنايات الكبيرة والصغيرة ضد أبناء الشعب، الأفراد والجماعات، الذين يعارضونهم من أجل المحافظة على عروشهم والاستمتاع بلذة السلطة وبامتيازات الحكم الضخمة والصلاحيات الواسعة وغير المحدودة.

لقد دأب هؤلاء المجرمون جميعاً على مخالفة الأنبياء الكرام والأوصياء المهديين والأولياء الصالحين عليهم السلام والمطالبين بالحقوق ومحاربتهم ومقاومة حركات الإصلاح والتغيير، وتبعاً في ذلك الانتهازيون النفعيون الأنانيون من المثقفين، وحملة الشهادات العليا، ورجال الأعمال، والكتاب، والصحفيين الذين أهمتهم أنفسهم، ولا يفكرون في غير مصالحهم ويبحثون دائماً عن الثروة والجاه والمنصب والمكانة، ولا يقيمون وزناً للدين والقيم العليا والمبادئ السامية والمصالح العامة الإنسانية والدينية والقومية والوطنية، وإن ذكروها فمن أجل المتاجرة بها وتسويق أنفسهم بحثاً عن مصالحهم الأنانية الخاصة، قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا

إنا بِمَا أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[1].

وهنا تنبغي الإشارة إلى العوامل والدوافع التي تقف وراء مخالفتهم للأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين عليهم السلام، ومحاربتهم لهم وللمصلحين والمطالبين بالحقوق ومقاومة حركات الإصلاح والتغيير، وهي كالتالي:

أ. بالنسبة إلى الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين والمترفين والنخبة من الأشراف والأعيان وحملة الشهادات العليا ورجال الأعمال والكتاب والصحفيين ونحوهم، فإن سوء طبعهم وانحراف فطرتهم وقبح خصالهم وفرط أنانيتهم وانغماسهم في عالم الدنيا والمادة والمصالح، والطمع الشديد في السلطة والثروة والجاه والمنصب، والامتيازات والصلاحيات الواسعة، والخوف من فقدانها وذهابها وضياعها من أيديهم أعمى بصيرتهم، وحجبهم عن رؤية الحقائق، وحملهم على العناد والاستكبار، وتكذيب الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين عليهم السلام ومحاربتهم، ومناصرة الظالمين والوقوف إلى صفهم ضد المستضعفين، ومقاومة حركات الإصلاح، ومحاربة المصلحين والمطالبين بالحقوق بكل عنف ووسيلة.

ب. وبالنسبة إلى عامة الناس الموالين للنظام القائم الذين لا مصلحة حقيقية لهم في الولاء للنظام، والدفاع عنه فإن جمودهم الفكري وتعصبهم الأعمى للعادات والتقاليد وقلة الوعي، وغياب البصيرة،

---

١. سبأ: ٣٤

والخوف من التغيير والوقوع تحت تأثير التضليل الإعلامي والديني، والتحريض ضد المعارضين وقادة التغيير والإصلاح، هو الذي يقف وراء مخالفتهم للأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين عليهم السلام والمصلحين الناصحين والمطالبين المخلصين الشرفاء بالحقوق الطبيعية والمكتسبة، وتكذيبهم، ومحاربتهم، ورفضهم المطالب الإصلاحية العادلة والواقعية والمنطقية، والمساهمة في المقاومة الشعبية للمعارضة والحركات الإصلاحية، وربما المساهمة المباشرة وغير المباشرة في الأعمال العنيفة ضدهم أو تأييدها وتدبيرها والدفاع عنها كما هو معلوم بالحس والتجربة.

ج. هناك فئة من عامة الناس وخاصتهم قلوبهم مع المعارضة والحركات الإصلاحية، ولكن الخوف على النفس والأهل والعرض والرزق، يمنعهم من الإيمان بالرسالات السماوية، والانخراط في الحركات الإصلاحية، والمطالبة بالحقوق الطبيعية والمكتسبة، إذ يلجأ الطواغيت الضالون، والفراعنة المتجبرون، والحكام المستبدون والمترفون، المستغلون إلى العنف، وممارسة صفوف الإرهاب والتعذيب والاضطهاد ضد المؤمنين والمعارضين للنظام والمطالبين بالحقوق والإصلاح الذين يرون أنهم يشكلون خطراً جدياً على سلطتهم ومصالحهم ومكانتهم الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، مثلما فعلوا مع نبي الله شعيب عليه السلام والذين آمنوا معه. قول الله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ

أَوَلَوْ كُنا كارِهِينَ﴾[١].

وكما فعل الطاغية ذو نواس اليهودي، وهو آخر ملوك حمير في اليمن مع جنده وحزبه الظالمين القساة في المؤمنين النصارى أصحاب الأخدود، قول الله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إلا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[٢]. إذ حفروا خندقاً واضرموا فيه النيران، ثم جاءوا بالمؤمنين الصالحين من النصارى، وعرضوهم على النار، فمن رجع عن دينه الحق ووافقهم على الكفر والبغي تركوه، ومن أبى وأصّر على الإيمان واتباع الدين الحق أحرقوه، وكانوا يجلسون على جوانب الخندق «الأخدود» المضرم بالنيران، ويعاينون لقسوتهم المؤمنين وهم يحرقون أحياء بالنيران ويتشفون منهم ويتلذذون بمشاهدة الأجساد الحية وهي تحترق بالنار ويتألم أصحابها، ويصرخون حتى يغيبوا عن الوعي، ويموتوا حرقاً، وكما فعلوا مع الرسول الأعظم الأكرم ﷺ والذين آمنوا معه، حتى قال الله تعالى لهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنةَ وَلَما يَأْتِكُم مثَلُ الذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مستْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضراءُ وَزُلْزِلُوا حَتىٰ يَقُولَ الرسُولُ وَالذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ أَلَا إِن نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[٣].

فقد عرضوهم للقتل، وأذاقوهم صنوف الأذى والعذاب والتنكيل، وفرضوا عليهم الحصار الشامل، والمقاطعة التامة، حتى اضطروهم إلى الهجرتين

١. الأعراف: ٨٨

٢. البروج: ٤-٨

٣. البقرة: ٢١٤

الأولى والثانية إلى الحبشة ثم الهجرة إلى المدينة المنورة، حيث أظهرهم الله ﷻ عليهم ونصر دينه، والآية دليل على أن كل من قام بالحق، فإنه يمتحن، ويجب أن يصبر ويثبت ويتحمل ويضحي؛ لكي يكون مؤهلاً لحمل الرسالة وتطبيقها، ويحقق أهدافها السماوية العظيمة في الحياة، ويكون مستحقاً لجزيل الثواب من عند الله تبارك وتعالى، فإذا اشتدت المحنة وقابلها بالصبر والثبات والتحمل والتضحية لوجه الله سبحانه وتعالى قاصداً رضوانه، انقلبت المحنة إلى منحة، واعقبها الانتصار المؤزر على الأعداء.

والخلاصة: إن الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين يلجأون إلى أساليب الترهيب والترغيب كافة؛ لفض ضمائر أصحاب النفوس الضعيفة، وكسبهم إلى صفهم ضد الصالحين والمصلحين والمطالبين بالحقوق، على حساب الدين، والأخلاق، والمبادئ السامية، والقيم الإنسانية العليا، والمصالح العامة الإنسانية والدينية والقومية والوطنية، فيبيعون إليهم أنفسهم بثمن بخس ويسلمون إليهم القيادة!!

وفي الحقيقة وعلى جميع الأحوال فإن الفراعنة والحكام المستبدين والمترفين، والنخب الانتهازية الفاسدة الفكرية والأدبية والفنية والمهنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وغيرها، والعامة من الناس الموالين للأنظمة الدكتاتورية الفاسدة، والحكومات المستبدة الظالمة، الذين يقفون متضامنين متعاونين ضد رسالات السماء والحركات الإصلاحية

والثورية الأصيلة التي يقودها الأنبياء الكرام والأوصياء المطهرون والأولياء الصالحون ﷺ، والمصلحون الشرفاء المخلصون المضحون، بدافع الطمع في السلطة والثروة والجاه والمناصب والامتيازات ونحوها، أو الخوف من إرهاب السلطة، وما تمارسه من العنف، أو بدافع التعصب والتقليد الأعمى والجمود على التراث الديني والثقافي والاجتماعي والسياسي، والخوف من التغيير والإصلاح، وكذلك العامة والخاصة من الناس، الذين يمتنعون عن الإيمان برسالات الأنبياء الكرام ﷺ، وعن الانخراط في الحركات الإصلاحية والمطالبة بالحقوق، وإظهار التأييد لها ومساندتها ودعمها مادياً ومعنوياً، بسبب الخوف من إرهاب السلطة على النفس والأهل والأحبة، كل هؤلاء يشتركون في الغفلة عن العلاقة الوجودية الوثيقة بين كمال الإنسان وخيره وصلاحه ومصلحته وسعادته في الدارين الدنيا والآخرة، وبين معرفة الحقائق الإلهية والكونية والسنن والعمل بمقتضاها.

ويختلف العامة من الناس عن الفراعنة والحكام والمترفين والنخبة الانتهازية الفاسدة، بأن العامل الأكثر تأثيراً في العامة، هو قلة الوعي والتعصب الأعمى للعادات والتقاليد والموروث الديني، مما يمنعهم من إدراك الحقائق على ما هي عليه، والخضوع لها عن إرادة حرة وطيب خاطر، أما الفراعنة والحكام المستبدون والمترفون والنخبة الانتهازية الفاسدة، فإنهم يدركون غالباً الحقائق كما هي، لكنهم يعاندون ويكابرون ويخالفون أهل الحق ويحاربونهم عن علم ويقين بغياً منهم؛ بسبب استغراقهم في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية الأنانية العاجلة، الطمع فيها، والخوف من فقدانها وذهابها وضياعها من أيديهم، فهم في

غاية التمسك بها، وغير مستعدين البتة للتفريط فيها، ولتضخم الذات لديهم إلى درجة أن معرفتهم بالحقائق وأهلها غير كافية؛ لأن عملهم على التواضع والتسليم لها واتباعها.

وهناك صنف من هؤلاء المجرمين الشياطين إخوان إبليس الرجيم، الذين يفعلون مثل فعله تماماً، بحيث يصل العناد والاستكبار لديهم إلى درجة أنهم يعلمون عن يقين وبوضوح تام لا لبس فيه ولا شك ولا غموض، بأن موقفهم برفض الحق ومعاندته والاستكبار عليه ومحاربة أهله شر مطلق لهم في الدارين الدنيا والآخرة، وفيه نقصان لكمالهم، وانسلاخ تام من إنسانيتهم، وينتهي بهم إلى الشقاء الأبدي الكامل في الآخرة، ومع ذلك يصرون على رفضه ومخالفته ومحاربة أهله؛ بسبب تضخم الذات الشديد لديهم.

وبخصوص الذين يحركهم الطمع في السلطة والثروة والمناصب والامتيازات من الفراعنة والحكام المستبدين المترفين والانتهازيين، ويخافون فقدانها وضياعها، فيضحون من أجلها بالدين والضمير والمبادئ والقيم والمصالح العامة، والذين يمنعهم الخوف على أنفسهم وأهلهم وأعراضهم وأرزاقهم من الإيمان، والانخراط في حركات المعارضة والمطالبة بالحقوق و إظهار التأييد، وتقديم الدعم والمساندة لها ينبغي عليهم أن يلتفتوا قبل فوات الأوان إلى الصلة الوجودية الوثيقة، التي لا تقبل الانفصال والتعطيل بين كمالهم وخيرهم وصلاحهم ومصلحتهم وسعادتهم في الدارين الدنيا والآخرة، وبين معرفة الحقائق والسنن والعمل

بمقتضاها، وأن لا يكون أعدى الأعداء لأنفسهم بمخالفتها، فخيرهم الوحيد ومصلحتهم الحقيقية في دورة الحياة الكاملة تكمن في معرفة الحقائق والسنن والعمل بمقتضاها، ويترتب على الجهل بها ومخالفتها في الحياة العامة والخاصة نقصان الكمال، وانسلاخ الإنسان من إنسانيته وهلاكه وشقاؤه في الدارين الدنيا والآخرة، فلا ينفعه بعد ذلك شيء، وهو الخسران المبين بحكم العقل والمنطق السليم.

أضف إلى ذلك أن الإنسان لو ملك الدنيا الفانية برمتها، سماءها وأرضها وما فيها، فإنه لا يساوي شيئاً بالنسبة إلى أقل ما سيملكه الإنسان المؤمن الصالح المطيع لله سبحانه وتعالى ورسله الكرام عليهم السلام في الآخرة الباقية التي لا تزول، فملك الدنيا قليل، وملك الآخرة كثير، وملك الدنيا إلى فناء وزوال، وملك الآخرة خالد لا يزول ولا يفنى ولا يبلى ولا يتغير أو يفسد، ونعيم الدنيا محدود ومشوب بالألم، ونعيم الآخرة غير محدود ونقي من الشوائب والألم، فليس من المعقول والمنطقي أن يضحي الإنسان العاقل بملك الآخرة ونعيمها من أجل ملك الدنيا ونعيمها، وليس من المعقول والمنطقي أيضاً أن يوصل الإنسان نفسه إلى عذاب الآخرة المؤلم وشقائها الأبدي الخالد ويهلك نفسه فيها من أجل أن يتفادى شيئاً من عذاب الدنيا وألمها، مهما جسم وعظم.

سُئِل أحد الصالحين عن سر صبره وتحمله وثباته أمام صنوف التعذيب والتهديد، وثباته على إيمانه ومواقفه، فقال: تذكري للوقوف بين يدي الله ذي الجلال والإكرام، وخوفي من عذاب الآخرة، هو علة صبري وتحملي

وثباتي أمام عذابات الدنيا كلها، حتى يفنى جسدي وتخلص روحي.

أضف إلى ذلك أيضاً أن عمر الإنسان وبقائه في الحياة الدنيا، مهما طال، فهو قصير ولا يوجد ضمان لأن يصل الإنسان إلى مراده في عالم الدنيا، فقد تخالفه الأقدار، وقد يخطفه الموت قبل الوصول إلى مراده، ويكون شعور الإنسان عند الموت و إن كان من المعمرين، كأنه من ولادته حتى موته كمن انتقل في لحظة من الشمس إلى الظل أو العكس، ولا يستطيع أن يحمل معه شيئاً من متاع الدنيا قل أم كثر، لا ينفعه شيء من الدنيا سوى حسن عقيدته وعمله الصالح، وكل من يموت فقد قامت قيامته، فالناس في عالم البرزخ على أقسام:-

أ. من يحاسب في القبر بعد الموت ويدخل بعد الحساب إلى جنة البرزخ ﴿عِلِّيِّينَ﴾[1]، وينعم فيها، وفي يوم القيامة يدخل جنة الخلد بغير حساب، وهم المؤمنون الصالحون الذين كمل إيمانهم وحسن عملهم.

ب. من يحاسب في القبر بعد الموت، ويدخل بعد الحساب نار البرزخ ﴿سِجِّينٍ﴾[2]، ويعذب فيها، وفي يوم القيامة يدخل نار جهنم بغير حساب، وهم الذين كمل كفرهم ونفاقهم، وساءت أعمالهم.

ج. من يترك في القبر بعد الموت بدون حساب، وبدون تنعيم أو

١. المطففين: ١٨

٢. المطففين: ٧

تعذيب، ويكونون فاقدين للشعور في عالم البرزخ، ويكون شعورهم حين يبعثون ويحشرون في يوم القيامة، كأنهم لم يمكثوا في عالم البرزخ سوى عشية أو ضحاها، رغم أن مكوثهم في عالم البرزخ قد يمتد في الحقيقة والواقع إلى ملايين السنين، لكنهم لا يشعرون بذلك، وفي يوم القيامة يحاسبون على عقيدتهم وأعمالهم، وينقسمون إلى أهل اليمين ويدخلون جنة الخلد، وإلى أهل الشمال ويدخلون نار جهنم، ولكن إلى حين يطول أو يقصر، وهم المؤمنون الذين كانوا يخلطون العمل الصالح بآخر طالح، والمستضعفون من غير المؤمنين، الذين لم يكونوا قادرين على التمييز بين الحق وبين الباطل.

وعليه: فإن القيامة قريبة جداً جداً من الإنسان، وأن الطمع في نعيم الدنيا، والخوف من عذابها، مهما جسما وعظما لا يستحقان أن يحيلا بحكم العقل والمنطق، بين الإنسان وبين الإيمان والطاعة لله ذي الجلال والإكرام عند أصحاب الحكمة والبصائر الذين يضعون الأمور في نصابها، وهم وحدهم السعداء بحق وحقيقة في الدارين الدنيا والآخرة.

برنامج موسى عليه السلام للمقاومة

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

بسبب خبث فرعون الطاغية وسوء طبعه وقبيح أخلاقه وانحرافه عن

الفطرة، استجاب للتحريض المجنون وغير المتزن له من الأشراف والأعيان وكبار الموظفين والقادة المدنيين والعسكريين الواقعين تحت تأثير غرور السلطة والقوة والمنفصلين عن الواقع وغير المدركين للحقائق والسنن على موسى الكليم عليه السلام وقومه الإسرائيليين والمؤمنين به، وكانت الاستجابة مفرطة في الخطورة وطائشة، وغير محسوبة العواقب، ومن جملة الأخطاء التي يقع فيها الفراعنة والحكام المستبدون الظلمة في الأوقات العصيبة، حينما يتعرضون للأخطار الوجودية الداخلية والخارجية فيحتارون في مواجهتها، ولا يعرفون كيف يواجهونها ولا يهتدون إلى خير؛ بسبب صفاتهم النفسية والروحية واعتمادهم على القوة والخداع والتضليل؛ لفرض حكم الأمر الواقع بعيداً عن الإرادة الشعبية ومصالحها، فراح يتوعد الإسرائيليين بالتنكيل والمزيد من الاضطهاد والظلم والإذلال، مثل: قتل أبنائهم الذكور، واستحياء نسائهم للخدمة والمتعة الجنسية، ونحو ذلك من صنوف التنكيل والاضطهاد والظلم والإذلال، وفي ظل هذا الاستهداف الفرعوني الطائش والمحموم، والتهديدات الأمنية الوجودية شديدة الخطورة على النفس والمصير، والمصالح التي توعد بها فرعون الطاغية بني إسرائيل بهدف فتنتهم عن دينهم الحق، وإجبارهم على التراجع عن معارضة النظام الفرعوني والثورة عليه، وإعادتهم إلى حظيرة دين الدولة الرسمي وأحضان النظام والولاء التام له، حيث يقوم النظام الفرعوني على الدين الرسمي للدولة، ويشكلان ثنائياً لا يقبلان الانفصال عن بعضهما؛ لأن وجود كل منها يتوقف على وجود الآخر، ويترتب على سقوط أحدهما سقوط الآخر، وهذه حالة متكررة تجد لها مثيلات كثيرة في الأنظمة السياسية

الدكتاتورية التاريخية والمعاصرة، وتتمثل فيها أبشع وأقبح صور الاستغلال للدين والمشاعر الدينية، بحيث يسخر الدين والمشاعر الدينية الجياشة، لخدمة أنظمة دكتاتورية فاسدة وحكومات مستبدة جائرة، وتبرير الظلم والفساد والتخلف والتحلل والانحطاط و إرضاء شهوات ونزوات ورغبات حكام فاسدين فجرة، أعداء الدين والإنسانية والقيم العليا والمبادئ السامية والدفاع عنهم وحمايتهم وحماية عروشهم ومصالحهم من غضب الشعوب المظلومة المستضعفة، التي تطالب بالإصلاح والحقوق الواقعية، وتتطلع إلى حياة إنسانية طيبة كريمة أفضل، تسود فيها الحرية والعدالة والتمدن والازدهار، وتحترم فيها حقوق الإنسان، أي: يسخر الدين والمشاعر الدينية النبيلة الجياشة في هذه الأنظمة الدكتاتورية الفاسدة؛ لتعزيز الأوضاع القائمة الشاذة، وترسيخها، ومنع حدوث التغيير والإصلاح في المجتمع والدولة والنظام، وهذه رذيلة وطامة كبرى يجب التنبيه إليها، وتنزيه الدين الحنيف والمشاعر الدينية النبيلة عنها.

في ظل ذلك كله قال موسى الكليم عليه السلام بلسان المحبة والمودة موصياً لقومه المؤمنين بالصبر والثبات والصمود والتحمل، ومن أجل توعيتهم وتبصيرهم وتهدئة خواطرهم وتسكين قلوبهم، ومبيناً لهم ما يجب عليهم أن يستعينوا به في المقاومة ومواجهة المحنة، قوله: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[1]، أي: لقد تسلط فرعون الطاغية وقومه الأقباط المستكبرون علينا، ومن الناحية الواقعية، وبحسب ميزان القوى المادية، فإني و إياكم لا نملك من القوة المادية والبشرية ما نستطيع

١. يونس: ٨٤

بها أن نصد طغيان فرعون وقومه بعدوانهم علينا، فعددنا قليل جداً بالقياس إلى عددهم ولا نملك من المال والسلاح والعتاد عشر ما يملكون أو أقل بكثير، فميزان القوة المادية ليس في صالحنا بل لصالحهم، والفارق بيننا وبينهم كبير جداً ولا مصلحة لدينا ولنا أن نخوض معهم حرب استشهاد في هذه المرحلة، فالمحافظة على وجودنا ضروري لبقاء الدين ومصلحة المسيرة البشرية المتكاملة، و إحداث التغيير التاريخي الضروري المطلوب منا إحداثه، فإن كنتم آمنتم بالله ذي الجلال الاكرام، وصدقتم بآياته وبيناته، وكنتم منقادين لحكمه سبحانه وتعالى بحق وحقيقة كما أعلنتم وأظهرته أقوالكم، وهو ما ينبغي عليكم.

أي: ينبغي عليكم أن تكونوا مؤمنين بصدق و إخلاص نية وكاملي الإيمان، فأنتم تعرفون بما علمكم الله تبارك وتعالى بفضله ورحمته عليكم من مقام ربكم الجليل وشأنه العظيم، أنه فوق الأسباب الطبيعية والملكوتية وسبب كل سبب طبيعي وملكوتي، وهو المدبر الوحيد المطلق للعالم وكافة الموجودات فيه وللمسيرة التاريخية المباركة ولا يستغني شيء عنه في وجوده ابتداءً وبقاءً، وفي صفاته وأفعاله، ولا يستقل عنه في التأثير، ولا يغلبه أحد على ما يريد وما يشاء ويحكم في خلقه، وأن إليه مرجعكم في يوم القيامة وعليه حسابكم وجزاؤكم، وهو اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وعليه: عليكم أن تقوموا بوظيفة الإيمان والانقياد للتكليف الإلهي الشرعي لكم، وهو صدق الإيمان و إخلاص النية في العمل لله رب العالمين

سبحانه وتعالى، فلا يكون للشيطان الرجيم في عملكم نصيب، بل يكون عملكم سالماً خالصاً لوجه الله الكريم سبحانه وتعالى، وأن تتحلوا بالصبر والصمود والتحمل والثبات في المحن وأمام المصائب والنكبات، والمقاومة للأعداء، وعدم الخوف من فرعون الطاغية وملئه المستكبرين الظالمين وما يملكون من العدد والمال والعتاد وأسباب القوة والهيبة والأبهة والعظمة والتخطيط وما يتمتعون به من الكيد والمكر والخداع، وما يمارسونه من الكذب والافتراء والدسائس والتضليل ونحو ذلك، وعدم الخضوع لإرادتهم الاستعلائية وتجبرهم واستكبارهم، وأن تثقوا بالله العلي العظيم ﷻ في تخليصكم منهم ونصركم عليهم واستخلافكم في الأرض بدلاً عنهم كمال الثقة وتمامها، وتطيعوه في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه، وفي ذلك توبيخ وتقريع لضعفاء الإيمان واليقين الذين أظهروا الولاء لفرعون الطاغية ونظامه ومارسوا الضغوط على أبنائهم الشبان والمستضعفين المؤمنين لكي يتراجعون عن الدين الحق وعن إظهار المعارضة للنظام الفرعوني الدكتاتوري الفاسد والملك الظالم المستبد، أو يعملون بالتقية بكتمان الإيمان والمعارضة خوفاً من فرعون وملئه المستكبرين الظالمين ومصانعتهم، وبيان لهم بأن ذلك يتنافى مع صدق الإيمان والإخلاص ومع منطق العقل والفطرة والطبع السليم، وفيه دليل على أن التقية تكون غير جائزة في بعض الأوقات والأوضاع والأحوال، فقد نهاهم موسى الكليم عليه السلام عن كتمان إيمانهم تقية؛ لخوفهم من بطش فرعون وحزبه المجرمين، وهذا ما نص عليه الفقهاء ويقره العقل والمنطق.

وحثهم على اللجوء إلى الله ذي الجلال والإكرام والتوكل عليه وتفويض

أمورهم كلها إليه، وأن يعتمدوا عليه في نصرهم على عدوهم ودفع الضرر عنهم، ولا يعتمدوا في شيء من ذلك على أنفسهم بالاستقلال عنه، ويسندوا إليه بالكلية أمورهم في العصمة من فرعون الطاغية وملئه المستكبرين الظالمين وكيدهم ومكرهم ودسائسهم والخلاص من قبضتهم والنجاة من شرهم كله، وذلك بعد أن يؤدوا ما عليهم من التكليف الإلهي الشرعي، مثل: وضع الخطط الاستراتيجية الواضحة السديدة، وبرامج العمل الواقعية الفاعلة، وإعداد كل ما هو ممكن ومشروع من أسباب القوة المادية والبشرية والعلمية والمعنوية، والعمل الدؤوب المخلص، والصبر والثبات في المحن وأمام الصعوبات والتحديات وفي المواجهة والمقاومة، ورفض الخنوع والخضوع لإرادة العدو الغاشم والإذلال والمهانة، وتقديم التضحيات اللازمة، ونحو ذلك.

فهو القادر وحده على تخليصهم من محنتهم العظيمة ونصرهم على عدوهم، والظفر به والتمكن منه رغم قلة العدد وضعف الإمكانيات المادية، قول الله تعالى: ﴿كَم مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصابِرِينَ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتقُوا اللهَ لَعَلكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢] أي: كم من فئة قليلة العدد ضعيفة الإمكانيات المادية غلبت فئة كثيرة العدد شديدة القوة غزيرة في إمكانياتها المادية بإرادة الله ﷻ ومشيئته النافذة، فالأمر لله ﷻ لا لغيره، وأن العزيز من أعزه الله ﷻ، والذليل من أذله، والمنصور من نصره، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا

١. البقرة: ٢٤٩

٢. آل عمران: ١٢٣

تضر القلة مع تأييده ونصره، وأنه مع المؤمنين الصالحين المجاهدين من الصابرين على الشدائد والمصائب وأداء التكاليف في مرضاته، يؤيدهم بتوفيقه وتسديده ونصره، وعليه: فالنصر يكون مع التقوى والثبات على الحق والإخلاص في النية، والاستماتة في الجهاد والمقاومة والتأييد الإلهي، وليس بكثرة العدد والعتاد.

ومن المصاديق البارزة في ذلك أن الله ﷻ نصر المسلمين على المشركين نصراً عظيماً في معركة بدر في السنة الثانية من الهجرة، مع الحالة التي كان عليها المسلمون من القلة والذلة وضعف الإمكانيات، والحالة التي كان عليها المشركون من الكثرة والقوة والعزة، حيث كان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر، ومعهم من السلاح ستة أدرع، وثمانية أسياف، ومعهم فَرَسَان، وسبعون بعيراً، وكان عدد المشركين نحو ألف مقاتل مع الأسلحة الكثيرة والعدة الكاملة، ومعهم مائة فرس، حيث أمد الله تبارك وتعالى المسلمين بالملائكة، وقوَّى قلوبهم وربط عليها، وألقى الخوف والرعب في قلوب المشركين.

وعليه: فإن المطلوب من المؤمنين المجاهدين والمستضعفين ملازمة التقوى، وإعداد القوة، وحسن التخطيط، والتحلي بالصبر والثبات في المواجهة، والإخلاص في النية، والتوكل على الله ﷻ والاستعانة به، وانتظار الفرج عنده.

وقد بيَّن موسى الكليم عليه السلام لبني إسرائيل، بأن أداء التكاليف الشرعية العبادية والمدنية والأمنية والعسكرية، والتوكل على الله ﷻ، وعدم

الاستقلال بالنفس عنه سبحانه وتعالى، وعدم الاعتماد كل الاعتماد على الأسباب الطبيعية، مثل: المال، والعدد، والعتاد، ونحوها، وعدم إهمالها بالطبع في طلب النصر والظفر على الأعداء والتمكن منهم، والثقة بالله ﷻ والتصديق بوعده والتوكل عليه والاستعانة به، وعدم الوقوع في براثن اليأس والقنوط من رحمة الله تبارك وتعالى مهما كانت الشدة والنكبة والعوائق والصعوبات والظروف والأحوال، هو مما يقتضيه الإسلام الصحيح وصدق الإيمان وكماله وملازم لهما، قوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[1]، أي: إن كان إيمانكم إيماناً صادقاً مخلصاً لله سبحانه وتعالى من شوائب الشرك والشك والتردد في قدرته والثقة بوعده لكم، وقد وعدكم بالنصر والظفر على الأعداء والتمكن منهم واستخلافكم في الأرض مكانهم، وكنتم مسلمين لقضاء الله جَلَّاله وقدره ومنقادين لحكمه جَلَّاله، فعليكم أن تكونوا من المتوكلين على الله ﷻ، وتفعلون كل ما آمركم به، فمن فعل ذلك كان مؤمناً حقاً وكان الله ﷻ معه ومؤيده بتوفيقه وتسديده ونصره، وكافيه عدوه، قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتقِ اللهَ يَجْعَل لهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِن اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[2].

أي: من يتقِ الله جَلَّاله في أوامره ونواهيه والوقوف عند حدوده التي حدها لعباده ويحترم شرائعه ويعمل بها، فإن الله ﷻ يجعل له مخرجاً من الشدائد والأحزان والغموم والمضايق ومشاكل الحياة وأزماتها، ويفرج

١. يونس: ٨٤

٢. الطلاق: ٢-٣

عنه ويعطيه الخلاص ويرزقه من طيب عيشه من حيث لا يتوقع ولا يشعر ولا يخطر له على بال، ومن يتوكل على الله ﷻ فيما نابه من أمور الدين والدنيا، فإن الله ﷻ يكفيه ما أهمه وما توكل عليه فيه؛ لأن أمر الله ﷻ نافذ في كل شيء، ولا يفوته ولا يعجزه شيء، والرزق والموت والحياة والصحة والمرض والسعة والضيق ونحو ذلك لا يكون إلا بتقديره و إمضائه، فقد جعل للشدة والرخاء والضيق والسعة ونحو ذلك مقداراً وأجلاً ينتهي إليه، فلا يبقى إلا التسليم والتوكل عليه.

والآية كما هو الظاهر، بيان لوجوب التوكل على الله سبحانه وتعالى والاستعانة به وتفويض الأمر إليه في كل المهمات؛ ليكفي الله سبحانه وتعالى عبده كل الملمات في الدين والدنيا والآخرة، ومن أخل بشيء من ذلك، فقد أخل بحقيقة الإسلام والإيمان لما بينهما من التلازم، يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**إن حقيقة التوكل هي إلقاء العمل والتصرف في الأمور على كاهل الوكيل، وليس معنى التوكل أن يترك الإنسان الجد والسعي وينزوي في زاوية، ويقول: إن الله معتمدي وكفى. بل معناه: أن يبذل قصارى جهده، فإذا لم يستطع أن يحل المشكلة ويرفع الموانع من طريقه، فلا يدع للخوف طريقاً إلى نفسه، بل يصمد أمامها بالتوكل والاعتماد على لطف الله والاستعانة بذاته المقدسة وقدراته اللامتناهية، ويستمر في جهاده المتواصل. وحتى في حالات القدرة والاستطاعة، فإنه لا يرى نفسه مستغنياً عن الله؛ لأن كل قدرة يتمتع بها هي من الله في النهاية. هذا هو مفهوم التوكل الذي لا ينفك عن الإيمان والإسلام**»[1].

---

١. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ٦، صفحة ٢٦٠

وقيل: إن موسى الكليم عليه السلام أمر بني إسرائيل بالتوكل على الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾[١] ولم يقل توكلوا عليه؛ لأن العبارة الأولى ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُو﴾[٢] بقصد الحصر، كأنه عليه السلام أمرهم بالتوكل على الله سبحانه وتعالى ونهاهم عن التوكل على غيره؛ لأن كل ما سواه فهو ملكه ومسخر له وتحت تصرفه وتدبيره وإليه ينتهي كل سبب، ولازم ذلك بحكم العقل والمنطق السليم التوكل عليه، وتجنب التوكل على غيره.

فأجاب بنو إسرائيل نبيهم الكريم موسى بن عمران الكليم عليه السلام ممتثلين بقولهم: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾[٣]، أي: لقد آمنا بالله سبحانه وتعالى بحق وحقيقة وصدق اعتقاد ويقين، وعليه اعتمدنا في أمورنا كلها وبه استعنا وإليه أسلمنا وتركنا إليه أمرنا؛ لبلوغ مرادنا في كمال الإيمان والسلوك إليه، والخلاص من الذل والاستعباد، والنجاة من فرعون وملئه، والانتصار عليهم والاستخلاف في الأرض، ولا نلتفت إلى أحد سواه، فقولهم: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾[٤] مشتمل على خصوصية الحصر المقتضي تجردهم من التوكل على غير الله سبحانه وتعالى، والثقة التامة بحكمته البالغة وحسن تدبيره وقدرته المطلقة على كل شيء، والتصديق بوعده لهم بالخلاص والنجاة من فرعون وملئه والنصر عليه وهلاكه مع جنوده، واستخلافهم في الأرض بعده، وعدم اليأس والقنوط من رحمته الواسعة، والإخلاص في

---

١. يونس: ٨٤

٢. نفس المصدر

٣. يونس: ٨٥

٤. نفس المصدر

نية العمل من أجله وابتغاء رضوانه.

وقد سأل بنو إسرائيل الله ﷻ بمسألتين بعد أن أعلنوا توكلهم على الله سبحانه وتعالى والتفويض إليه، وهما:

١. قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[١]، أي: انزع عنا لباس الخوف والضعف والمذلة والمهانة والمسكنة، فإن تلك الصفات المذمومة من العوامل التي تشجع الأقوياء الظلمة المتجبرين على استضعاف الأقوام والشعوب والأمم التي تتصف بها، وتساعد على قهرهم وفرض إرادة المستكبرين في الأرض بغير الحق عليهم، وقد قيل بحق وحقيقة: «ضعف الضعفاء فتنة للقوي الظالم» وفي المثل الشعبي: «ويش فرعنك يا فرعون قال ما أحد ردني» وسلّمنا من شر فرعون وملئه وقومه الظالمين المستكبرين، وخلّصنا من كيدهم ومكرهم وظلمهم واضطهادهم واستعبادهم وإذلالهم إيانا، ولا تظهرهم وتمكنهم منا وتسلطهم علينا، فيفتنونا بضعفنا وتسلطهم علينا ويظلمونا ويعذبونا ويحملونا على المعصية لك، والانصراف عن دينك الحق وعن شريعتك العدل وعدم العمل بأحكامك، ويظنون أنهم على الحق ونحن على الباطل؛ فيستضعفونا ويذلونا ويقهرونا ويفرضوا علينا إرادتهم ودينهم، ويمارسون ضدنا صنوف التعذيب والتنكيل والقهر، والتمييز ضدنا، ويسخروننا لخدمتهم ومآربهم، والقيام بالأعمال الشاقة والوضعية، أو يفتنوا بنا غيرنا، بأن

---

١. نفس المصدر

يقولوا لهم: لو كان هؤلاء على الحق ولهم كرامة كما يقولون؛ لما غلبناهم وتسلطنا عليهم وقهرناهم وعذبناهم وأخضعناهم لإرادتنا في الدين والدنيا، فحالنا وحالهم يدل على أننا في الحقيقة والواقع أحسن وأفضل وأكرم منهم؛ فيصدوا قومهم وغيرهم ويضلوهم عن دينك الحق، وفي الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**إن قوم موسى استعبدهم آل فرعون، وقالوا: لو كان لهؤلاء كرامة كما يقولون ما سلطنا عليهم**»[1].

وهنا ينبغي التوقف والإشارة إلى أن اتباع الدين الإلهي الحق لا يمنع بحكم العقل والمنطق السليم والتجربة من ظهور الكفار والمشركين والظلمة والمستكبرين على المؤمنين في وقت من الأوقات، نعم الباطل في نفسه لا يمكن أن يهزم الحق في نفسه، فالحق ظاهر دائماً بالدليل والبرهان على الباطل، وأن الشبهات لا تدوم، بل يكشف زيفها وباطلها وتزول، ولكن المؤمنين في صراعهم مع أعدائهم قد يتعرضون للهزيمة والخسارة ولكن إلى حين، ثم تكون العاقبة لهم في نهاية المطاف، قول الله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] ولولا ذلك لبطلت حكمة التكليف التي تقوم على العقل والاختيار؛ لأن النصر يكون دائماً حليف المؤمنين، وتنقطع صلة النصر والهزيمة بالأسباب الطبيعية المباشرة تماماً، مما يلغي الاختيار الذي هو مع العقل ملاك الإنسانية والجوهر والأساس الذي يقوم عليه التكليف

١. تفسير القمي، جزء ١، صفحة ٣١٤

٢. الأعراف: ١٢٨

الإلهي للإنسان، ويعطل الأخذ بالأسباب الطبيعية المباشرة الذي هو أساس التكامل الإنساني المعرفي والتربوي والحضاري، واستحقاق الإنسان للثواب الإلهي، فلا يحصل الارتقاء والتكامل ولا يستحق الإنسان للثواب الإلهي بدون الأخذ بهذه الأسباب.

وهذا هو السر والحكمة من تلبس الروح بالجسد، ومكوث الإنسان في عالم الدنيا والمادة، الذي هو عالم التكليف والارتقاء والتكامل، ثم الثواب والرضوان الإلهي في الآخرة، أو المعصية والمخالفة للتكليف الإلهي والانحطاط والانسلاخ من رتبة الإنسانية، ثم العقاب الإلهي في الآخرة.

وعليه: ينبغي على المؤمنين الأعزاء الانقياد التام للتكاليف الشرعية الإلهية جميعاً، وإظهار الخضوع المطلق لرب العالمين، وترك التمرد أو المخالفة نهائياً لأمره ونهيه، والأخذ بالأسباب الطبيعية المباشرة، مثل: وضع الخطط الاستراتيجية الواضحة السديدة، والبرامج العملية الواقعية الفاعلة، وبذل الوسع والطاقة في إعداد القوة المادية والبشرية والمعنوية، والعمل الدؤوب لتنفيذ البرامج وتطبيق الاستراتيجيات، والتحلي بالصبر، والتحمل والصمود والثبات أمام الصعوبات والتحديات والعوائق، وحل المشكلات، والرفض والمقاومة للأعداء، وممانعتهم والتمرد عليهم، وعدم الخضوع لإرادتهم، وتقديم ما يلزم من التضحيات، وبذل الوسع والطاقة، والأخذ بالأسباب؛ للارتقاء في سلم ومعارج الكمال العلمي

والمعرفي والتربوي والحضاري، والتوكل على الله ﷻ والاستعانة به، والوثوق بوعده بالنصر والأجر العظيم، وما النصر إلا من عنده والعاقبة للمتقين.

وأن يعلموا بأن الإيمان والثبات عليه في ساعة العسر أدل على اليقين والإخلاص وصدق الإيمان وكماله من الإيمان والثبات عليه في ساعة اليسر، قول الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[1]. وقول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2] أي: ما الذي يمنعكم أيها المؤمنون، وأي عذر لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله تبارك وتعالى وطاعته ولا سيما في شأن الجهاد وأنتم تعلمون أن المال مال الله سبحانه وتعالى، وأن حياتكم وما بأيديكم من المال وغيره لا يدوم، بل هو خارج من أيديكم لا محالة، إما بالموت، و إما بالإنفاق، وخروجه من أيديكم إن لم يستوجب المقت والعقاب، فإنه لا يستوجب المدح والثواب، وخروجه بالإنفاق في سبيل الله وطاعته، يستوجب الثناء والرضوان والثواب الإلهي.

---

١. العنكبوت: ٢-٣

٢. الحديد: ١٠

وعليه: فإنه لا داعي من العقل والمنطق والحكمة للشح والبخل والامتناع عن الإنفاق في الطاعة، فسارعوا واغتنموا الفرصة، واستوفوا حظكم من الإنفاق في سبيل الله تبارك وتعالى وطاعته، ما دامت الحياة والأموال بأيديكم، قبل أن تخرجوا من الحياة، أو تخرج الأموال من أيديكم، فيفوتكم بذلك الخير الكثير، واعلموا بأنه لا يستوي في الفضل عند الله سبحانه وتعالى، من بذل منكم نفسه وماله في أوقات الضعف والشدة والاستضعاف قبل الغلبة والانتصار على الأعداء، حيث الحاجة إلى النصرة والمعونة أكثر، والخوف من الأعداء أشد، والبذل أشق على النفوس، ومن قاتل وبذل ماله في أوقات العزة والمنعة والقوة واليسر والسعة، بعد الغلبة والانتصار على الأعداء، فالذين بذلوا أنفسهم، وقاتلوا في سبيل الله ﷻ، وانفقوا أموالهم في أوقات الضعف والشدة والاستضعاف، أعظم فضلاً وأرفع شأناً ومكانة عند الله ذي الجلال والإكرام، وأعلى درجة وأكثر ثواباً، من الذين قاتلوا وأنفقوا أموالهم في أوقات العزة والمنعة والقوة واليسر والسعة، لما تحلى به الفريق الأول من الصدق والإخلاص والصبر والثبات والتضحية والفداء، وهذا شيء بين واضح، تقتضيه الحكمة والعدالة بحكم العقل والمنطق السليم.

إلا أن هذا التفضيل لا يغلق الباب على الفريق الذي تخلف وتأخر، فقد وعد الله تبارك وتعالى كلا الفريقين الأجر والمثوبة الحسنة على إيمانهم وأعمالهم الحسنة، رغم تفاوت الدرجات، وقد يسبق بعض المتأخرين بعض المتقدمين في الفضل، إذا ندم على تأخره،

أو كان معذوراً فيه، وعمل وجاهد وبذل بصدق و إخلاص.

واعلموا أيها المؤمنون بأن الله سبحانه وتعالى عليم خبير بإيمانكم ونياتكم وأعمالكم وبجميع الجزئيات والتفاصيل المتعلقة بها، ولا يفوته شيء من ذلك، فهو يعلم أسباب التقدم والتأخر، ويعلم أسباب الإنفاق وأوقاته، ويعلم أحوال المنفقين والمجاهدين ونواياهم ونحو ذلك، فيجازي كلاً منكم بما يستحق من الأجر والثواب على إيمانه وأعماله، بما هما عليه ولا يظلم أحداً شيئاً، وفي حديث عمار بن ياسر قبل استشهاده في معركة صفين «٣٧ هـ - ٥٦٧م»، أنه قال: «**والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر، لعلمنا أنّا على الحق، وأنهم على الباطل**»[١]، والسعفات: جمع سعفة، وهي جريدة النخل ما دامت بالخوص، فإن زال عنها قيل لها جريدة وخصت هجر «الأحساء اليوم» بالذكر وهي مدينة بالمنطقة الشرقية بالحجاز؛ لبعد المسافة، ولكثرة النخيل فيها، والمراد أن النصر والهزيمة لا تغيران شيئاً في يقين أصحاب البصائر من أهل الحق وأعمالهم ومواقفهم، و إنما ينفع النصر والقوة والظهور على الأعداء البسطاء وضعفاء الإيمان، ويؤثر البلاء والهزيمة سلباً على إيمانهم ويهز يقينهم، ويحملهم على الضعف والتراجع في مواقفهم والمواجهة مع الأعداء، وذلك بسبب قلة بصيرتهم وضعف إيمانهم وسوء منطقهم وتعلقهم بعالم الدنيا والمادة والمصالح.

---

١. الاختصاص، الشيخ المفيد، صفحة ١٤

٢. قولهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[١]، أي: أرنا الحق حقاً، وثبّتنا عليه قولاً وعملاً، وأرنا الباطل باطلاً وأبعدنا عنه قولاً وعملاً، ولا يوهن عزائمنا وعقيدتنا بالوساوس والشبهات الباطلة، والشكوك التي هي لواقح الفتن، التي يثيرها أمامنا الكافرون والمشككون، وأظهرنا عليهم بقوة الحجة والبرهان والبيان الواضح، وانصرنا على أعدائنا أجمعين ومكّنا من إقامة الدين الحق و إظهاره وتطبيق حدوده والعمل بأحكامه؛ لنسلم بذلك من شرورهم، ونقيم دينك الحق بدون معارض أو منازع أو منغصات، ونحو ذلك.

وقيل: إن لفظ برحمتك في قولهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٢] يدل على التبرؤ من الإذلال والمنة على الله سبحانه وتعالى بإيمانهم؛ لاعتقادهم بأن لله سبحانه وتعالى المنة عليهم بأن هداهم للإيمان، وأن كل ما بهم من الخير والنعمة في الدين والدنيا فهما من الله تبارك وتعالى، قول الله تعالى: ﴿يَمُنونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لا تَمُنوا عَلَي إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُن عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣]، أي: يعدون إسلامهم منة عليك، وهم مخطئون في ذلك من ثلاثة أوجه:

- لأن فائدة الإسلام وشرفه لأنفسهم في المقام الأول، وليس إليك.

---

١. يونس: ٨٦

٢. نفس المصدر

٣. الحجرات: ١٧

- لأن النعمة العظمى في الإيمان والعمل بمقتضاه الذي هو مفتاح السعادة في الدارين الدنيا والآخرة، وليس في مجرد الإسلام.
- لأن الدين لله سبحانه وتعالى، وليس لك من أمره إلا التبليغ به عنه.

وعليه: قل لهم: ليس لكم أن تمنوا على الله سبحانه وتعالى إيمانكم الذي ادعيتموه، بل الله تبارك وتعالى يمن عليكم أن هداكم للإيمان، بأن بينه إليكم وأرشدكم إليه ورغبكم فيه، وشرح صدوركم لقبوله والعمل به؛ من أجل خيركم وصلاحكم وخلاصكم ونجاتكم في الدارين الدنيا والآخرة، وهنا هو الحق والواقع الذي يجب عليكم أن تعتقدوا به إن كنتم صادقين فيما ادعيتموه من الإيمان؛ لأنه لازم عنه.

وعليه: يمتنع عقلاً أن تمنوا على الله سبحانه وتعالى إيمانكم إن ذقتم حلاوة الإيمان وكنتم صادقين فيه، وفي الحديث الشريف: «**أن المدل لا يصعد من عمله شيء**»[1].

وقيل: إن ترتيب الطلبين في قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[2]، يدل على اهتمامهم بأمر دينهم وآخرتهم فوق اهتمامهم بأمر أبدانهم ودنياهم، وهذا

١. معجم مجمع البحرين، الطريحي، مادة دلل، جزء ٥، صفحة ٣٧٢
٢. يونس: ٨٥-٨٦

أمر طبيعي ومنطقي في فكر ورؤية الإنسان المسلم الواعي، وهو من توفيق الله تبارك وتعالى وتسديده لهم.

كما أن الطلب الثاني ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[١]، يدل بحسب البيان السابق على أهمية تمكن المؤمنين وقوة شوكتهم للمحافظة على الدين الحق وتطبيق أحكامه والسعي لتحقيق أهدافه العظيمة المقدسة في الحياة.

ولهذا أمر الله ﷻ المؤمنين بإعداد القوة، قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٢]، أي: أعدوا لمواجهة هجمات أعدائكم الفعليين والمحتملين الساعين في هلاككم وإبطال دينكم الحق وانتقاص حقوقكم، كل ما تتقوون به على الحرب والمقاومة والمواجهة وتحقيق النصر مما تقدرون عليه وتتمكنون منه علمياً ومادياً ومعنوياً، مثل: بناء الجيش وحسن تنظيمه وتدريبه تدريباً ممتازاً على جميع فنون القتال وفي مختلف الظروف والأوضاع، وتقوية عزائم الجنود ورفع معنوياتهم وتحصين عقيدتهم القتالية ونحو ذلك، والتخطيط الاستراتيجي والميداني والتكتيك، وبناء الحصون والقلاع والبنى التحتية، وتصنيع وتجميع أقوى وأسرع وسائل القتال الحديثة وأكثرها فاعلية في الدفاع والهجوم، مثل: الصواريخ والطائرات والدبابات والمدافع والبنادق والرشاشات والقنابل والمتفجرات وغيرها من صنوف وأنواع

١. يونس: ٨٦

٢. الأنفال: ٦٠

السلاح المتطور الفعال والعتاد، ووسائل الإعلام والنشر والثقافة والاقتصاد والسياسة، وحراسة الحدود والثغور ونحو ذلك، والتحلي بالصبر والتحمل والصمود والثبات والجرأة والشجاعة التي تلامس الإمكانيات المتوفرة وتفعيلها بأقصى قدراتها، واختيار أفضل وأقوى الشعارات، ونحو ذلك؛ بهدف ترهيب الأعداء وتخويفهم، فلا يفكرون في مهاجمتكم والاعتداء عليكم وقتالكم، فيندفع بذلك شرهم عنكم.

وعليه: فالاستعداد للحرب والمواجهة هو أحسن أسلوب لمنع الحرب والمحافظة على السلم وتحصيل الحقوق وتحقيق العدالة الدولية والاجتماعية والأمن والاستقلال وحماية الحق والمنجزات، فلا حق ولا عدالة بدون قوة تحميهما؛ لأن المستعمرين وأعداء الإنسانية من الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين والمترفين لا يستمعون لكلمة الحق، ولا يستجيبون لنداء العقل والمنطق والضمير، ولا يعترفون بدين أو مبدأ أو قيمة إنسانية، ولا يفهمون إلا منطق القوة والمصالح.

فإذا كان المسلمون والمصلحون والمطالبون بالحقوق ضعافاً؛ فسوف يفرض عليهم المستكبرون والمستعمرون والطواغيت والفراعنة والحكام المستبدون المترفون المستغلون إرادتهم، فيفقدوا استقلالهم وتُرتَهَنْ بلادهم وثرواتهم ومقدراتهم، وتنتهك كرامتهم وحرياتهم وحقوقهم، ويفرض عليهم حكم الأمر الواقع بغير إرادتهم وبغير رضاهم وعلى خلاف مصالحهم.

أما إذا كانوا أقوياء، فإن أعداءهم سوف يشعرون بالخوف والرعب منهم، فلا يجرؤوا على مهاجمتهم والاعتداء عليهم وانتهاك حقوقهم، و إذا

جازفوا بالاعتداء عليهم فإنهم سيتلقون الرد القوي الحاسم منهم.

بعض الاجراءات العملية في برنامج المقاومة

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

في ظل ما تقدم بيانه من التهديدات والوعيد الفرعوني لبني إسرائيل المستضعفين، حيث اشتد عليهم الأمر وعظمت المحنة، أمر الله ﷻ موسى الكليم وأخاه ووزيره هارون عليهما السلام عن طريق الوحي باتخاذ بعض الاجراءات العملية الاحترازية والاستعدادات اللوجستية والتعليمات الأساسية؛ لمواجهة الموقف والتحديات والتغلب عليها.

ففي البداية أمر الله ﷻ بني إسرائيل بالصبر والثبات في المقاومة، وإعداد ما يلزم؛ لمواجهة الموقف والتحديات، ونهاهم عن الخضوع والخنوع والاستسلام لإرادة الاستكبار والطاغوت الفرعوني وملئه وحزبه الشياطين، وأمرهم بالتوكل على الله ﷻ والتفويض إليه في أمورهم كلها، والثقة بقوته المطلقة وحكمته البالغة وحسن تدبيره، وبوعده لهم بالنجاة من تهديدات فرعون وملئه، والخلاص من أذاهم، والنصر عليهم، والظفر بهم، والتمكن منهم، ووراثة ما يتركون من الأموال والثروات والضياع والأبنية والقصور ونحوها، والاستخلاف في الأرض بدلاً عنهم، واعتبر ذلك من لوازم صدق وكمال الإيمان.

ثم أصدر لهم بعض التعليمات والتوجيهات بشأن الاجراءات والاستعدادات العملية المقومة لوجودهم وبناء كيان الجماعة المؤمنة الموحدة المخلصة في المرحلة الجديدة، وهي:

أ. ترك حياة البداوة والتنقل والعيش في الخيام، واتخاذ مساكن مبنية ثابتة - غير البيوت التي كانوا يسكنونها من قبل في منطقة جاسان قرب مدينة فرعون ومحل سكناه مع قومه -، يأوون إليها ويعتصمون بها ويحتمون من عدوهم فرعون وحربه وقومه، قوله: ﴿أَن تَبَوَّآ لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا﴾[1]، وذلك في منطقة مناسبة، تصلح للعيش الكريم، وقابلة للعمارة والتطوير والازدهار، مثل: أن يتوفر فيها الماء الوفير، والقابلية للزراعة وسهولة التنقل والعمران والتجارة وإقامة الصناعات المتطورة المختلفة، ونحو ذلك. أي: نهاهم الله ﷻ في ذلك الوقت عن الخروج من مصر، وأمرهم بالإقامة فيها، ولكن في منطقة مستقلة وبعيدة نسبياً عن منطقة سكن فرعون وقومه الأقباط، ويعتقد البعض أن المنطقة التي اتخذها بنو إسرائيل للسكن الجديد في مصر بناء على هذا الأمر والتوجيه الإلهي الرباني الشريف، هي الإسكندرية. وقيل: مصر القديمة بجوار القاهرة الحالية.

ولا شك فإن الإقامة في منطقة محددة جغرافياً صالحة للعيش وقابلة للتنمية والتطوير ومستقلة إدارياً وسياسياً واقتصادياً عن

---

١. يونس: ٨٧

الدولة والنظام الفرعوني من شأنه بحسب المعطيات والظروف في ذلك الوقت أن ينقل بني إسرائيل من التنقل والبداوة ومن الحياة الطفيلية في بيوت الأقباط والتبعية لهم وخدمتهم والاعتماد عليهم كلياً في الحياة والاكتفاء بما يقدموه لهم من الفتات إلى الاستقلال والاعتماد على النفس، فيكون لهم كيانهم الخاص المستقل، وتكون لهم برامجهم الخاصة الدينية والتعليمية والتربوية والتنموية ونحوها، وتكون لهم حياتهم الخاصة، ويستقلون بشأنهم وتحفظ أسرارهم، وتتراكم منجزاتهم ومكتسباتهم في الحياة التي تتعاقب الأجيال على وراثتها وتطويرها والزيادة عليها جيلاً بعد جيل، مما من شأنه أن ينمي الشعور بالخصوصية والانتماء إلى الأرض وما عليها ومن عليها، ويدفع إلى الاستماتة في الدفاع عنها وحمايتها من هجمات الأعداء، وبذل الوسع والطاقة في تنميتها وتطويرها بصدق وإخلاص، وهذا من شأنه أن يقوي الرابطة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية، ويسهم في التقدم والتطور المعرفي والعلمي والتكنلوجي والصناعي والزراعي والتجاري والتربوي والعمراني والحضاري، وهذا شرط رئيس؛ لرقي الإنسان ووصوله إلى كماله المقدر له على الصعيد الفردي والمجتمعي.

ب. جعل البيوت متقاربة ويقابل بعضها بعضاً وفي منطقة واحدة أو حي واحد، وليس في مجموعة مناطق أو عدة أحياء صغيرة ومتفرقة، قوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾[1] أي: يقابل بعضها بعضاً،

---

١. نفس المصدر

وهذا إجراء أمني مهم وأساس لانطلاقة حضارية ورسالية جديدة ومتميزة، تتم فيها إعادة بناء وتأهيل الجماعة المؤمنة فكرياً وروحياً وسلوكياً على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والإداري وغيره، حيث يصعب اختراق المنطقة ومهاجمتها من قبل جيوش الأعداء في ذلك الوقت، وتسهل حمايتها والدفاع عنها، وتشكل الأرضية؛ لتكوين قوة ضاربة يهابها الأعداء، ويخافون من مهاجمتها والاعتداء عليها، ويحسبون لذلك ألف حساب.

وأيضا يتيسر فيها الاجتماع لأجل الشعائر والطقوس الدينية وغيرها من الأغراض المدنية والأمنية والعسكرية ونحوها، ويسهل التواصل بين الأفراد والجماعات ما يقوي اللحمة والروابط بينهم، ويسهل التعبئة الانتاجية والعسكرية والروحية والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ودينه الحق، والتناصح والتضامن والتكافل الاجتماعي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتدارس مختلف الأمور والشؤون الخاصة والعامة، ووضع الاستراتيجيات والخطط والبرامج العملية في كافة المجالات التعليمة والتربوية والتنموية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدفاعية وغيرها، بشكل أفضل وأسهل في التطبيق والتنفيذ، أي: تحويل الجماعة إلى كيان حضاري فاعل، وتتهيأ الفرصة بشكل أفضل؛ لإقامة مجتمع إسلامي صالح ومترابط وقوي ومستقل عن النظام والدولة الفرعونية.

وقيل: إن المراد من البيوت في قوله: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾[1]، هي المساجد يتخذونها للعبادة، والمراد من قوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾[2] أي: اجعلوها متوجهةً إلى جهة أو نحو القبلة.

وقيل: كانت قبلتهم إلى نحو بيت المقدس، وقيل: كانت قبلتهم هي قبلة جدهم إبراهيم الخليل عليه السلام إلى نحو الكعبة الشريفة.

وأيٌّ كانت قبلتهم، فهم مأمورون بأن يتوجهوا في صلواتهم المفروضة عليهم نحو القبلة، ويلعب هذا التوجه الجماعي لهم نحو القبلة المشتركة دوراً حضارياً ومعنوياً مهماً للغاية، إذ يساهم في توحيدهم وإبرازهم كجماعة مؤمنة واحدة، مستقلة ومتميزة، مما يعزز لديهم الشعور بالخصوصية وقوة الانتماء والتميز والاستقلالية ووضوح الوجهة والرؤية والطريق.

فالمستفاد من الآيات الشريفة المباركة أن بني إسرائيل كانوا قبل ذلك الحين جماعة متشتتة ضعيفة خائفة مستضعفة ذليلة ومهانة، وليس لهم قيادة واحدة تجمعهم وتقويهم، ولا مأوى مشترك لهم ولا برامج عملية تعليمية وتربوية وتنموية، وكانت حياتهم طفيلية تعتمد اعتماداً كلياً على الأقباط «قوم فرعون» وما يقدمونه لهم من الفتات، مما يجعل وجودهم في خطر شديد دائم في ظل النظام الفرعوني الظالم، الذي يقوم على التمييز والتفاوت الطبقي

١. نفس المصدر

٢. نفس المصدر

والبطش والإرهاب والتنكيل بالمعارضين وإنزال أشد صنوف العذاب والعقوبات بهم، ولم تكن لهم الإرادة والشجاعة والفرصة للثورة والإصلاح وتحسين أوضاعهم.

ومما سبق يثبت أهمية القيادة الشجاعة الواعية، وامتلاك الجماعة لأسباب القوة والتميز والاستقلالية، وتحليها بالجرأة والشجاعة والاستعداد للتضحية والفداء؛ للمحافظة على وجودها وكرامتها ومصالحها في الحياة.

وقد ثبت بالتجربة التاريخية والمعاصرة، وأكد علماء النفس والاجتماع أهمية الرموز المقدسة المشتركة في تعزيز وتقوية الروابط وتنمية الشعور بالوحدة والتميز والاستقلال والانتماء، وتعزز من صلابة الجماعة وقوة مواقفها وصمودها وثباتها في وجه الخصوم والتحديات والعوائق والصعوبات والتغلب عليها والقدرة على تجاوزها والانتصار عليها والظفر بالمطلوب والوصول إلى المقصود، وتحقيق الأهداف والغايات المشروعة المرسومة.

وتكون هذه الرموز مفيدة ومؤثرة حتى لو كانت زائفة وباطلة من قبيل الأصنام، قول الله تعالى: ﴿اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1]، أي: اتخذتم من دون قناعة أو حجة عقلية أصناماً لعبادتها، واشتركتم في الاجتماع على عبادتها والاتفاق على طاعتها على أساس المجاملة والمصانعة بينكم وليس على أساس

١. العنكبوت: ٢٥

الحجة والقناعة، وجعلتموها رموزاً لوحدتكم الفكرية والدينية والقومية، وقامت بينكم المودة والمحبة وسرت بينكم على أساس رمزيتها لديكم وقدسيتها عندكم؛ لتتناصروا بينكم وتتعاونوا وتكونوا أمة متحدة؛ بهدف إصلاح حياتكم الدنيوية القائمة؛ ولتأمنوا مصالحكم الخاصة في الحياة، أي: الأهداف واقعية ومشروعة، والأساس واهٍ وضعيف وباطل وغير منطقي ولا معقول؛ وذلك لأنكم رأيتم بأن أمر العقيدة والدين والحقائق أهون من أن يخالف عليها الصاحب صاحبه والصديق صديقه والمواطن مواطنه، فلا يترك دين قومه وسيرتهم وطريقتهم في الحياة إذا تبين له أنها ليست بحق في نفسها، بل يبقى يستمر عليها حتى لو ثبت له بطلانها في نفسها بالدليل والبرهان؛ من أجل استبقاء ما بينه وبين قومه من المودة والروابط والمصالح؛ لأنه لا يعتقد بأن للعقيدة والدين والحقائق قيمة في نفسها، وإنما قيمتها فيما يترتب عليها من منافع ومصالح ونجاح في الحياة، وهو عين ما تعتقده المدرسة البرغماتية في الوقت الحاضر.

غير أن اتخاذ الرموز الجوفاء الباطلة مخالف للعقل والمنطق السليم والفطرة والطبع الإنساني السليم، وأن اتخاذها رموزاً وإن نجح في إيجاد وحدة اجتماعية قوية، وتحقيق تقدم مادي وعلمي وتكنولوجي واقتصادي وعمراني ونحو ذلك، إلا أنه يمثل في الحقيقة والواقع سبيلاً إلى التخلف الفكري والديني، والتدهور الروحي والأخلاقي، ويعود على الأمة والمسيرة البشرية بالسوء والضرر البليغ، وتسمح لأن تتورط الجماعة أو الشعب أو الأمة في

جرائم وجنايات فردية وجماعية من كل نوع وبدون حدود، وتغير على الجماعات والشعوب والأمم الأخرى متى اقتضت مصلحتها الخاصة ذلك وكانت الفرصة مؤاتية لها وكانت تمتلك القدرة على ذلك؛ كأن تفرض السيطرة والهيمنة عليها واستضعافها والاستئثار بخيراتها وثروتها و إفقار أهلها، ونحو ذلك من الجرائم التي نجدها ماثلة أمامنا بوضوح تام لا لبس فيه في عالمنا المعاصر، وكانت لها مثيلاتها في تاريخ الأمم السابقة.

هذا فضلاً عن الشقاء الأخروي حين تظهر الحقائق كما هي عليه ويزول عمى القلوب، وتتحول تلك المودة التي تقوم على أساس الباطل إلى معاداة وخصومة ويلعن بعضهم بعضاً، ثم يكون مآلهم إلى نار جهنم وبئس المصير والورد المورود، أي: تكون تلك الرموز الزائفة التي تقوم على أساس الباطل سبباً لعذابهم وشقائهم وتباغضهم في الآخرة، بعد أن كانت سبباً لاتحادهم وتضامنهم في عالم الدنيا، مما يدل على سوء عاقبة هذه المودة التي تقوم على أساس الباطل، فيجدر بحسب العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم تركها واجتنابها؛ لأن اللذات المحدودة العاجلة الفانية لا عبرة بها إذا كانت تعقبها ندامة ومصائب عظيمة آجلة، وأن التمسك بها يدل على الجهل والحماقة.

وعلى خلاف ذلك تأتي المودة والأخوة والاتحاد والتضامن التي تقوم على أساس رمزية التوحيد الإلهي، فإنها رمزية واقعية حقة

ومنطقية، وتقوم على أساس واقعي حق ومنطقي، وتنسجم مع الفطرة الإنسانية والطبع السليم، وتتناغم معهما، وتسمو بعقل الإنسان وفكره وروحه، وتهذب مشاعره وسلوكه، وتعرج بالإنسان في معارج الكمال الإنساني الواسع الشامل، الذي لا ينتهي ولا يقف عند حد محدود في عروجه وصعوده؛ لأنه سير نحو المطلق الفعلي «واجب الوجود» على الصعيدين، الفردي التربوي والمجتمعي الحضاري، من خلال تجسيد صفات الكمال الإلهي المطلق، صفات الجمال وصفات الجلال، في واقع شخصية الفرد وصفاته «التخلق بأخلاق الله ذي الجلال والإكرام» وفي واقع المجتمع وخصائصه، في العلم والقدرة والفاعلية والخيرية والعطاء ونحو ذلك. فرمزية التوحيد الإلهي تجمع بين الحقانية الواقعية المنطقية، وبين الإيجابية الشاملة المتوازنة، وبين الاستمرارية والصعود والارتقاء بدون توقف عند حد معين نحو الكمال؛ لأنها سير نحو الكمال المطلق الواقعي الفعلي «واجب الوجود» الجامع لكل صفات الكمال في كل موجود.

ج. قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾[1]، أي: أقيموا الصلاة التي أمركم الله سبحانه وتعالى بها وفرضها عليكم، وواظبوا على فعلها والإتيان بها على الوجه وبالصورة والشروط التي أمركم بإقامتها عليها. وهي ترمز إلى صدق الإيمان والإخلاص في العبودية لله ذي الجلال والإكرام، وتحرر الإنسان من الشعور بالمهانة والدونية، وترفع من شأنه

---

١. يونس: ٨٧

ومكانته، وتسمو بعقله وفكره وروحه، وتهذب مشاعره وسلوكه، وتعصمه من الذل والخضوع والعبودية لغير الله سبحانه وتعالى، وتطهر قلبه وروحه من دنس الذنوب والمعاصي والخطايا، ومن لوث المادة والشهوات والنزوات الدنيئة واللذات الحسية والأغراض الشيطانية الخبيثة والممارسات الدنيئة والتصرفات الوضيعة، وتنمي لديه الشعور بالثقة وبالعزة والكرامة والقوة والعظمة التي تبعده عن كل ما هو دنيء ووضيع وحقير في الصفات والأفعال، وتحثه على الاعتماد على الذات والسعي الحثيث في عطاء الخير بدون انقطاع، والنهوض بالمسؤوليات العظيمة والقيام بالأعمال والمهام الجسيمة في الحياة بدون ضعف أو وهن أو ملل أو تردد، وتجمع القلوب الطاهرة النقية النظيفة على الإحساس المتحد المتضامن على الخير، وتعزز روح الأخوة الدينية والإنسانية في الله سبحانه وتعالى من أجل الوصول إلى ساحة قدسه والفوز برضوانه، وتبعث في الإنسان روح إنسانية سامية متوثبة لعطاء الخير ومتجددة دائماً وبدون توقف، وتعينه على جميع الأمور في الحياة، مثل: طرد الخوف والرعب من العدو، والرهبة من مواجهة الصعوبات والمشاكل والتحديات، وتزيد من القوة المعنوية والقدرة على التحمل والصمود والثبات في مواجهة المحن والصعوبات والمشكلات والتحديات والخصوم والأعداء، وتلهم الإنسان الحلول السديدة للمشكلات، وتوصل الإنسان بالله ذي الجلال والإكرام والفناء فيه واكتساب صفاته، كما له صفات الجمال وصفات

الجلال، الذي هو الأساس لإثراء إنسانية الإنسان وتكامله المعرفي والتربوي والحضاري وصيانة كرامته، وإصلاح سلوكه وتقويم مواقفه العامة والخاصة وعلاقاته في الحياة مع نفسه وربه وإخوانه والطبيعة، وتكون سبيلاً إلى تنمية التلاحم والتضامن على أساس فكري وروحي راسخ ومتين.

فالصلاة هي أفضل وسيلة لتطهير قلوب بني إسرائيل مما دخل إليها من الخوف والرعب والمسكنة التي تراكمت طوال سنين العبودية والتبعية لفرعون وقومه المستكبرين الظالمين الأقباط، حيث استخدموهم في الأعمال الشاقة والوضيعة والمهينة، مما نمى فيهم الشعور بالدونية والمهانة والحقارة، وتعززت لديهم روح المسكنة والخضوع والخنوع لإرادة المستكبرين، الفراعنة والمترفين، وقد أُبتُلِي بنو إسرائيل بذلك رغم شرف نسبهم وكونهم من أولاد الأنبياء العظام الكرام عليهم السلام، وكان فيهم ملوك وحكام، مثل: يوسف الصدّيق عليه السلام الذي حكم مصر في القرن الثامن «١٨» قبل الميلاد لسنين طويلة، وساهم في نجاحها لتجاوز أزمة القحط والجفاف التاريخي الذي أصابها مع الدول المجاورة لها، وساهم في تنميتها فكرياً ودينياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً وعمرانياً وبناء حضارتها المزدهرة والمتميزة جداً، ومثل داوود وسليمان عليهما السلام اللَذين كانا من أعظم ملوك الأرض وغيرهم، وقد وصل بنو إسرائيل إلى ذلك الوضع المأساوي جداً قبل أن يبعث الله تبارك وتعالى فيهم موسى بن عمران الكليم عليه السلام بسبب انحرافهم الشديد عن الدين الإلهي الحنيف، وعدم اتفاقهم على قيادة عليا مؤهلة قوية ونزيهة وشجاعة توحدهم وتجمع شملهم وتوعيهم وتأخذ

بيدهم نحو المعالي وتدافع عن حقوقهم وتصون مصالحهم. ونشوب الخلافات الداخلية والصراعات البينية في صفوفهم، وتعلقهم الشديد بعالم الدنيا والمادة، وخوفهم الشديد من الموت والرحيل عن عالم الدنيا الفانية الزائلة، وعزوفهم عن التضحية والفداء، ونحو ذلك، مما تتطلب إعادة البناء والتأهيل الشامل، فكرياً وروحياً وسلوكياً، وعلى كافة الأصعدة، الصعيد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والأمني والعسكري والإداري والتقني ونحو ذلك.

ولا شك فإن الصلاة والعبادات الروحية، وحياة الاستقرار، وبناء منطقة سكنية خاصة بهم مستقلة تماماً فكرياً وروحياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً و إدارياً وعسكرياً وأمنياً عن النظام الفرعوني، ساهم بدون شك في مهمة إعادة البناء والتأهيل، وسهلها ويسرها كثيراً، بل كانت ضرورية وملحة جداً للتحقيق النجاح في المهمة في ظل الظروف والأوضاع القائمة التي سبق شرحها وبيانها، إلا أنه ينبغي التنبيه إلى أن مثل هذه الخطوة ليست سليمة ومطلوبة في جميع الظروف والأحوال والأوضاع والأوقات، فتجب دراسة الفكرة بعناية فائقة في مختلف الأوضاع قبل الإقدام عليها؛ لمعرفة ما هو مناسب وما هو غير مناسب منها، على خلاف بناء قدرات الجماعة واستقلاليتها، فإنها واجبة للمحافظة على وجودها وصيانة حقوقها ومصالحها.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بأن يقيموا الصلاة جماعة، وأن يؤتوها حقوقها وشروطها، وأن يؤدوها أداءً كاملاً تتحقق به حكمتها

ووظيفتها وأثرها في العقل والفكر والشعور والإرادة والسلوك، وأن يجعلوها معراجاً حقيقياً للارتقاء والتكامل المعرفي والتربوي والحضاري، وأن لا يكتفوا بمجرد الإتيان بصورتها وهيئتها الظاهرية الفارغة من الروح والمضمون.

وقد جاء في الرواية عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «**لما خافت بنو إسرائيل جبابرتها، ومنعوا من إقامة الصلاة في الكنائس والبِيَع العامة، أمروا أن يصلوا في بيوتهم؛ ليأمنوا من بطش فرعون وحزبه المجرمين**»[1]، مما يدل على أهمية الصلاة في بناء الجماعة المؤمنة وتأهليها، وضرورة المواظبة على فعلها والإتيان بها على صورتها الصحيحة التي أمر بها، وعدم تركها أو التفريط بها بأي حال من الأحوال وفي كل الظروف؛ لأنها عمود الدين والدليل على صدق الإيمان، وعلى ضرورة مراعاة الظروف الفعلية القائمة على أرض الواقع وعدم تجاهلها في إدارة وتدبير أوضاع الجماعة المؤمنة والمحافظة عليها والقيام بوظائفها العامة، العبادية والرسالية والاجتماعية والسياسية والأمنية والاقتصادية والإدارية ونحوها، فلا يصح التخلي عن الوظائف العامة الرئيسية وعن الفروض والواجبات العامة والخاصة، ولا يصح تجاهل الظروف الواقعية والأوضاع الفعلية في تدبيرها و إدارتها، و إنما يجب التوفيق وخلق التوازن بين الأمرين، القيام بالوظائف وأداء الفروض والواجبات، ومراعاة الظروف والأوضاع القائمة في إدارتها وتدبيرها، وذلك بشكل دقيق وفعال يحافظ على الظروف العامة والفروض والواجبات، ويضمن الوصول إلى المقاصد ويحقق الأهداف والغايات المطلوبة منها.

---

١. تفسير القمي، جزء ١، صفحة ٣١٥

وقد بيّن الله ﷻ لبني إسرائيل بأنهم إذا التزموا بما أمروا به من التعليمات والنصائح والتكاليف الشرعية، واتخذوا الإجراءات والتدابير العملية المطلوبة منهم، فهذا يدل على صدقهم و إخلاصهم وجديتهم، ووعدهم بأنه سيؤيدهم ويسدد خطاهم وينجيهم من فرعون وحزبه المجرمين وعملهم وينصرهم عليهم ويظهر دينهم الحق ويستخلفهم في الأرض بدلاً منهم، قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[١]، أي: إذا اشتد الكرب وضاق الأمر، فرجه الله ﷻ ووسعه برحمته وبركاته، وأنه كلما وجد عسر وصعوبة وشدة، فإنه يوجد يسر عظيم وسهولة تقارنه وتصاحبه وتغلبه، أي: ترجيح أثر اليسر على أثر العسر، فالمصائب والشدائد والمكاره لا تدوم ولا تبقى، بل تزول وتنتهي، قول الله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[٢]، وربما استبطنت المصائب والشدائد والمكاره الخير الكثير والنفع العميم.

وتعريف العسر في الآيتين يدل على أنه واحد، وتنكير اليسر يدل على تكراره، ولهذا قيل في الروايات: «**لن يغلب عسر يسرين**».

وقيل: في تعريف اليسر بالألف واللام الدال على الاستغراق والعموم دلالة على أن كل عسر و إن بلغ ما بلغ من الصعوبة والشدة فإنه في آخره التيسير والفرج، وهما ملازمان له، مما يدل على العناية الإلهية الفائقة، ومما يوطد الشعور بالرجاء ويدفع إلى السعي والعمل، ويمنع الشعور

١. الشرح: ٥-٦

٢. الطلاق: ٧

باليأس والإحباط والكسل، وفيه بشرى سارة جداً للمؤمنين والمستضعفين، بالإضافة إلى الرضوان الإلهي العظيم والنعيم الخالص من شوائب الألم والمقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال في جنات الخلد في أعلى مراتب الفردوس في الآخرة.

والآية الشريفة المباركة تشير إلى أهمية القيادة المؤهلة ووحدتها في توحيد الجماعة، والمحافظة على وحدتها وتماسكها ورفع معنوياتها وتطهير روحها من الخوف والرعب، وتنمية الوعي والإدارة لديها، وتربية أفرادها على الجرأة والشجاعة والتضحية والفداء، ومحو نقاط الضعف في صفوفها واستبدالها بنقاط القوة، والوصول بها إلى شاطئ الأمان، وصيانة كرامتها وحقوقها ومصالحها، والارتقاء بها في الحياة.

وفي الآية الشريفة المباركة فضلاً عن ذلك، إشارة في غاية الأهمية في التربية الرسالية والسياسية والإدارية والتنظيمية، قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾[1]، فهي تشير إلى القيادة الجماعية في مسألة تتعلق بتدبير شؤون الجماعة، قوله: ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾[2]، مما يدل على ترجيح وتفضيل القيادة الجماعية التي تقوم على التضامن والتشاور بين رؤساء الجماعة على القيادة الفردية المستبدة، في اتخاذ كافة التدابير الأمنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية ونحوها.

---

١. يونس: ٨٧

٢. نفس المصدر

فقد سأل موسى الكليم عليه السلام ربه العظيم أن يجعل أخاه هارون عليه السلام وزيراً له، يشاركه في النبوة والرسالة والنهوض بأعباء القيادة، قوله: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾[1]، وذلك لأنه كلف بمهمتين رئيسيتين، وهما: التبليغ بالدين الإلهي الحنيف، وتكوين الأمة المسلمة. مما يدل على الأهمية العظيمة للقيادة الجماعية للأمة أو الجماعة المؤمنة؛ للوصول بها إلى شاطئ النجاة وتحقيق الأهداف والغايات لوجودها في الحياة، وأن مسألة القيادة لا يجوز أن تترك للصدف، بل يجب أن تكون طريقة اختيارها وتعيينها وصلاحياتها محدودة بشكل واضح لا يقبل اللبس والاختلاف حولها في الدستور، وأن كفاءة القيادة العليا وعظمتها وكرامتها وعلو شأنها لا يعني الاستغناء عن التشاور والقيادة الجماعية أو الجماعة المؤمنة الصالحة.

فإن موسى الكليم عليه السلام نبي عظيم من أولي العزم ومسدد بالوحي والتنزيل، ومع ذلك لم يستنكف ولم يتجاهل أهمية التشاور والقيادة الجماعية، وقد أمره الله سبحانه وتعالى على ذلك، وتعامل مع موسى الكليم وهارون عليهما السلام كشريكين في الرسالة والقيادة لبني إسرائيل، وخاطبهما بما يثبت ذلك ويعززه على أرض الواقع بدون أن يلغي ذلك تقدم موسى الكليم على هارون عليهما السلام وإمامته له، فالقيادة الجماعية لا تعني أبداً نفي ذلك، بل تتطلبه قطعاً وحتماً، ومما يرشد المؤمنين الأعزاء إلى ترك الاستبداد والحذر الشديد من التفرد بالقيادة، فتلك رذيلة خلقية تدل على الأنانية

---

١. طه: ٢٩-٣٥

المفرطة وتضخم الذات والإعجاب بالرأي، وتضر بالإخلاص، وتنتقص من المصداقية، وكل من لازمته ليس جديراً بالقيادة الرشيدة الصالحة، فيبقى على المؤمنين الأعزاء التوجه نحو العمل الجماعي المشترك، والأخذ بالقيادة الجماعية التي تقوم على الترابط والتضامن والإخلاص والتشاور بين رؤساء الأمة أو الجماعة وزعمائها، مع التنبيه إلى ضرورة التقيد والالتزام بشروط العمل الجماعي والقيادة الجماعية، وأهمها:

أ. أن يكون على رأس القيادة الجماعية «مجلس القيادة» قائداً أعلى، يمتلك الكفاءة الفكرية والروحية والمهنية، ويتمتع بصلاحيات تمكنه من الاضطلاع بالمهام الموكلة إليه، وتتناسب معها في الكم والنوع، على قاعدة: «لا مسؤولية بدون صلاحيات تناسبها وتتكافئ معها»، وأن يكون مطاعاً ومحترماً ومقدّراً بين أعضاء مجلس القيادة، فالقيادة الجماعية لا تعني أبداً التساوي في الدرجة «الرتبة» والصلاحيات، لقد كان موسى الكليم وهارون عليهما السلام شريكين في النبوة والرسالة والقيادة وفي نفس الوقت كان موسى الكليم إماماً لهارون عليهما السلام ومتقدماً عليه، وكان هارون عليه السلام خاضعاً لإمامة وقيادة موسى الكليم عليه السلام ومتبعاً له، بدون أن يضر ذلك بشراكتهم في النبوة والرسالة والقيادة، وتصور التساوي في الرتب والصلاحيات بين أعضاء القيادة الجماعية من الوهم والجهل والضلال.

ب. أن تحافظ القيادة الجماعية على وحدتها وانسجامها وتناغم أعضائها فيما بينهم وعلى قوة تماسكها وتضامنها، وأن لا يتخلى

بعضهم عن بعض لا سيّما في وقت الشدائد، ويعتبر الاحترام والتقدير والاعتبار المتبادل شرط لابد منه؛ لتحقيق ذلك، وهو حق ومن لوازم الأخلاق الحميدة التي يجب أن يتحلى بها أعضاء مجلس القيادة، ومن فقدها وضيعها فَقَدْ فَقَدَ الأهلية والصلاحية للقيادة.

ج. أن يتجنب القائد الأعلى وجميع أعضاء مجلس القيادة الاستبداد والخيلاء و إعجاب كل برأيه، فإنها من الانحرافات النفسية والرذائل الأخلاقية والمهلكات العظيمة التي تتنافى مع القيادة الرشيدة الصالحة عموماً والقيادة الجماعية خصوصاً، قول الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: «**إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً و إعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك**»[1]؛ لأن كل من أعجب برأيه منعه ذلك من السؤال والاستفادة من غيره والاستشارة لهم، ويحمله على التعصب لرأيه و إن كان خطأ والاستبداد، ولا يسمع رأي من هو أعلم منه، وعليهم ترك التسرع في إصدار الأحكام والعجلة في اتخاذ القرارات وأن يأخذوا بالتشاور والروية وتقليب الأمور ودراستها بموضوعية ونزاهة قبل اتخاذ القرارات و إصدار الأحكام، لا سيما في المسائل والقضايا المصيرية والجوهرية والحيوية والرئيسية.

د. أن تكون لديهم رؤية استراتيجية واضحة وسديدة قد تمت مناقشتها وتمحيصها بعناية فائقة، ولديهم خطط عملية وبرامج عمل واقعية فاعلة، يتحمل القائد الأعلى مسؤولية الإشراف على

١. جامع السعادات، جزء ١، صفحة ٢٨٤

وضعها ومناقشتها وإقرارها ثم تنفيذها وتطبيقها، وأن يتحلوا بالجرأة والشجاعة التي تلامس الإمكانيات الفعلية المادية والبشرية والمعنوية للجماعة وتفعيلها ولا تقصر عنها.

هـ. أن يعتمدوا آليات محددة بدقة ومختارة بعناية؛ لإدارة التشاور «التداول» بينهم واتخاذ القرارات وإعلانها، بحيث يعلم كل عضو في مجلس القيادة بشكل واضح، كيف يدخل إلى القرار؟ وكيف يخرج به؟ وكيف يتم إعلانه؟

و. أن يلتزم كل عضو من أعضاء مجلس القيادة بتنفيذ جميع القرارات كما هي عليه بصدق وإخلاص، وأن يتضامنوا جميعاً في تنفيذها والمسؤولية عنها، ويستنفذوا جميعاً وسعهم وطاقتهم في عملية التنفيذ والتطبيق، وأن يلتزم كل عضو من أعضاء مجلس القيادة بتنفيذ المهام والواجبات الموكلة إليه من القائد الأعلى، وأن يخلص في القيام بها ويحرص تمام الحرص على أدائها كما هي عليه على أحسن وأكمل وجه، وأن لا يتجاوز حدوده ولا يتخطى صلاحياته ولا يزاحم غيره فيما خول فيه. ويجب تفعيل المحاسبة من قبل القائد الأعلى لجميع أعضاء مجلس القيادة، وعدم التساهل مع التقصير والتراخي في تنفيذ القرارات والواجبات والمهام ومع الأخطاء غير المبررة لا سيما الأخطاء الجسمية، ويجب على الأعضاء تقبل ذلك بروح رياضية، ويعد ذلك دليل على الصدق والإخلاص والمصداقية وشرط لا بد منه للانضباط

والنجاح والوصول إلى تحقيق الأهداف والغايات والمقاصد للأمة أو الجماعة.

دعاء موسى عليه السلام على فرعون وحزبه

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

لقد بالغ موسى الكليم عليه السلام في إظهار المعجزات وفي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى والدين الإلهي الحق، وعرض على فرعون الطاغية وملئه الفاسدين المجرمين المستكبرين من الأشراف والأعيان والمترفين وكبار القادة والموظفين المدنيين والأمنيين والعسكريين الآيات النيرات والبينات الواضحات والحجج الباهرات عرضاً مكرراً لا يحصى عدده، وردد عليهم النصائح الصادقة والمواعظ البالغة زماناً طويلاً كافياً لغرضه، وحذرهم عذاب الله عز وجل وانتقامه، وأنذرهم سوء عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال والعناد والاستكبار في الدارين الدنيا والآخرة، ولكن بدون فائدة ترجى منهم، فلم يزدادوا إلا كفراً وضلالاً على كفرهم وضلالهم، وقسوةً على قسوتهم، وعناداً على عنادهم، واستكباراً على استكبارهم، و إعراضاً عن الحق على إعراضهم، ويئس من إيمانهم يأساً تاماً ولأسباب موضوعية كافية، ولم يبق له مطمع في هدايتهم، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أو بالوحي والتنزيل بأنه لن يأتي منهم إلا المزيد من البغي والضلال والطغيان،

وأن إيمانهم أصبح كالمحال، وقد حرّموا الإيمان على عباد الله المستضعفين والتابعين لهم من عوام الناس، بعد كل ما جاءهم به من المعجزات الباهرات القاهرات والبينات النيرات الواضحات والأدلة القاطعة، وعَلِمَ عِلْمَ اليقين بأنهم مصرين على الجحود والعناد والإنكار، وماضين على ما هم عليه من الكفر والضلال والإفساد في الأرض، ومقيمين عليه ودائمين، وأنهم لن يكفوا أبداً عن أذى بني إسرائيل واستضعافهم والإبقاء على استعبادهم وإذلالهم واستخدامهم بغير حق في الأعمال الشاقة الوضيعة، والسعي لفتنتهم عن دينهم الإلهي الحق، واستهدافهم وقصدهم بالسوء والشر.

وحينئذٍ اشتد غضبه عليهم، وبالغ في مقتهم وكراهية حالهم، ليس غضباً لنفسه، وإنما غضباً لربه ﷻ، وللخير والصلاح خوفاً منه على مستقبل الأمة والمسيرة البشرية، فتوجه أولاً لبني إسرائيل وأوصاهم بالصبر والصمود والتحمل والثبات والتوكل على الله سبحانه وتعالى، والاستعانة به والثقة بوعده الصادق؛ لأنه قادر على كل شيء وهو لا يخلف الميعاد، وحذرهم من الوهن والضعف والخنوع والتراجع والخضوع لإرادة الفراعنة والمستكبرين المجرمين؛ فيكون ذلك سبباً لمقت الله ﷻ لهم وتسليطه لأعدائهم عليهم وتمكينهم منهم، فيخسروا بذلك أنفسهم ويهلكوها ويَشقَون في الدارين الدنيا والآخرة.

ولما علم بأن لا طاقة لبني إسرائيل المستضعفين على مقاومة فرعون وحزبه المجرمين؛ وذلك بسبب الخلل في ميزان القوى المادية والبشرية

وميله الشديد لصالح فرعون وحزبه المجرمين، ولما يتصف به فرعون وحزبه من القسوة والبطش الشديد بدون رحمة ببني إسرائيل، والخوف على بني إسرائيل من الفتنة، رَأَف بحالهم، وتوجه إلى ساحة القدس الإلهي بالتضرع والتوسل، ودعا على فرعون وحزبه المجرمين إخوان الشياطين، وأَمّنَ أخوه ووزيره وشريكه في النبوة الرسالة والقيادة هارون عليه السلام على دعائه، فكانا شريكين في الدعاء، فقال في دعائه: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾[1]، أي: أنك أنعمت على فرعون وحزبه المجرمين الفاسقين من الأشراف والأعيان وكبار القادة والموظفين المدنيين والأمنيين والعسكريين وغيرهم بالنعم العظيمة من الزينة التي يتزينون بها ويتفاخرون بينهم وتجذب النفوس الضعيفة ونفوس العوام إليهم، مثل: الحلي والجواهر من الذهب والفضة والزبرجد والياقوت ونحوها، والثياب والفرش الفاخرة التي تتصف بالحسن والجمال، والبيوت المزخرفة الواسعة، والمراكب الضخمة الفاخرة، والخدم والحشم وصحة البدن وحسن القامة والصورة ونحو ذلك، والأموال الكثيرة التي يتعظمون بها على الناس ويتفاخرون بها، مثل: الأراضي الشاسعة والبساتين الغناء والأنعام الكثيرة ونحو ذلك، والبنين والجاه والملك والسلطان والمكانة الاجتماعية ونحو ذلك، إلا أنهم بدلاً من شكر النعمة وأداء حقها وتوظيفها في الخير والتنمية والازدهار كما هو المفروض بحكم العقل والمنطق والدين الحنيف، مالوا إلى الكفر والضلال والجحود والطغيان والمعصية، واستأثروا بالأموال والسلطة والمقدرات لفرط أنانيتهم، واستعانوا بها

١. يونس: ٨٨

ووظفوها في الإضلال عن سبيل الله ﷻ والحق، وصرف الناس عن الدين الإلهي الحنيف، ومن أجل ترسيخ ملكهم ونظامهم ودينهم الفرعوني، أي: عبادة فرعون الطاغية وطاعته بدلاً من عبادة الله سبحانه وتعالى وطاعته، ومن أجل ظلم العباد والإفساد في الأرض بغير الحق، وهذا يدل على هوان الدنيا على الله ﷻ، وعظيم سخطه وغضبه على فرعون وملئه وعظم مقته لهم وكراهيته لحالهم السيئة المذمومة، وخذلانه لهم واستدراجهم بسبب عنادهم و إصرارهم على الكفر والضلال، واستكبارهم على الحق وأهله، حيث لم تنفع معهم المعجزات الباهرات القاهرات والبينات النيرات الواضحات والبراهين القاطعة والنصائح الصادقة والمواعظ البالغة ونحو ذلك.

وهذا يكشف عن خبث نفوسهم وسوء طبعهم وانحراف فطرتهم وتخلفهم المعنوي، الفكري والروحي الشديد، وتمكن الشقاء منهم وانسلاخهم من رتبة الإنسانية وانحدارهم إلى درك الشياطين وانحطاط الحيوان، وأنهم يشكلون خطراً شديداً جسيماً على الإنسانية، لا سيما على المؤمنين وقادة الإصلاح والمطالبين بالحقوق المشروعة الطبيعية والمكتسبة، وعليه: فإنا نسألك بمسألتين بشأن هؤلاء المجرمين:

١. قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾[1]، أي: أن تديم عليهم مقتك وغضبك وسخطك، وأن تمحق أموالهم وتدمرها وتهلكها وتصيرها إلى الفناء والزوال والاندثار، وتغيرها من حالها إلى حال لا ينتفع

١. نفس المصدر

بها، وتزيل آثار النعمة والخير من حياتهم وتحولها إلى شدة وعذاب ونقمة، وتنزل بهم الشدائد والبلاوي، وعلى قلوبهم الهموم والغموم والأحزان، أي: جازهم جزاء السوء، فهذا ما يستحقون؛ بسبب عنادهم واستكبارهم على الحق، وإصرارهم على الكفر والضلال والجحود والظلم للعباد والإفساد في الأرض بغير الحق، وما يشكلونه من خطر كبير على الإنسانية والمؤمنين وقادة التغيير والإصلاح والمطالبين بالحقوق الواقعية المشروعة الطبيعية والمكتسبة، ومن أجل كسر شوكتهم وتذليل تجبرهم؛ ليرجعوا عن كفرهم وضلالهم وظلمهم للعباد ولا يزدادوا بغياً وطغياناً وإفساداً في الأرض ويسهل قبولهم للحق والإيمان.

فقد ثبت بالتجربة أن النعمة مغرية لأهل الجهل والحماقة بالظلم والطغيان والاسترسال في الإعراض عن الدين الحق، وأن قساوة قلوبهم وشراسة نفوسهم لا تذللها الآلام الجسدية والنفسية، وعليه: فإن دعاء موسى الكليم عليه السلام يدخل في دائرة السعي لإصلاحهم وتقليل الشرور في العالم وفي تاريخ البشرية بوسائل التشديد والضغط على المجرمين بعد أن فشلت الحجج ووسائل اللين في هدايتهم وإعادتهم إلى عقولهم وفطرتهم ورشدهم.

وقد جاء في بعض الروايات أن جميع أموال الفراعنة صارت حجارة، وقيل في تفسير ذلك: إن التدهور الاقتصادي؛ بسبب الثورة وسوء الأوضاع والأمراض وتلف المزروعات بسبب العاهات

وتلوث المياه والبيئة ونحو ذلك؛ بسبب آيات العذاب التي نزلت عليهم من السماء عقوبة إلهية لهم على أعمالهم السيئة المذمومة، قد بلغت قيمتها حداً هبطت معه قيمة الأموال المنقولة وغير المنقولة حتى أصبحت قيمتها كقيمة الحجارة، وهو ما يعرف في الاصطلاح الاقتصادي في أيامنا بالتضخم.

٢. قوله: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[١]، أي: اجعل قلوبهم قاسية مطبوعة، فلا تحسن التفكير والتدبير؛ فيكون ذلك سبباً لتدهور الأوضاع العامة في البلاد وانفتاح أبواب الثورة عليهم، ولا تقبل قلوبهم الحق ولا تنشرح للإيمان ولا توفق للطاعة والتوبة، حتى يروا العذاب الأليم بأم أعينهم حين يعاينون ملك الموت الذي يأتيهم في أبشع صورة مخيفة؛ ليقبض أرواحهم الخبيثة عند الموت، فيؤمنوا حينئذٍ إيمان إلجاء لا إيمان اختيار، وهو إيمان لا ينفعهم بشيء، ثم يعاينوان العذاب الأليم بعد الموت في نار البرزخ، ثم يعاينون العذاب العظيم الذي لا مثيل له على الإطلاق في نار جهنم في الآخرة، فيخسرون بذلك الدارين الدنيا والآخرة، وهو ما يسمى بالخذلان والاستدراج الإلهي.

وقيل: المراد من الآية الشريفة المباركة أن موسى الكليم عليه السلام دعا عليهم بالأنكاد والأحزان التي تجعل قلوبهم في ضيق وحرج ما داموا في الكفر، برجاء أنهم إذا زالت عنهم النعم وضاقت صدورهم

---

١. نفس المصدر

بكروب الحياة تفكروا في سبب ذلك وعادوا إلى عقولهم وفطرتهم ورشدهم، ولجأوا إلى الله ذي الجلال والإكرام، وعجلوا بالتوبة إليه كما هي عادة النفوس الغافلة، قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾[1].

قلت: كان دعاء موسى الكليم عليه السلام على فرعون وملئه المجرمين الفاسقين غضباً منه عليهم؛ بسبب عنادهم واستكبارهم على الحق وأهله وإصرارهم على الكفر والضلال والجحود والإضلال، وجرأتهم على الظلم والإفساد في الأرض بغير الحق وعلى محارم الله عز وجل ومقدساته وشريعته ودينه الحق وصرف الناس عنه، وهنا ينبغي علينا التوقف؛ لأن وظيفة الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين عليهم السلام هي هداية الناس وإرشادهم برجاء نجاتهم من الشقاء والهلاك وتحصيل السعادة الحقيقية لهم في الدارين الدنيا والآخرة، فكيف يجوز ويصح لموسى الكليم وأخيه هارون عليهما السلام أن يدعوا على فرعون وملئه بعدم التوفيق للتوبة والإيمان والطاعة، ثم الهلاك والشقاء في الدارين الدنيا الآخرة؟ أليس ذلك مخالف لوظيفتهما الرسالية وغايتهما في الحياة؟!

والجواب: نعم!! إن وظيفة الأنبياء الكرام والأوصياء الهادين المهديين والأولياء الصالحين عليهم السلام هي الهداية إلى الناس برجاء نجاتهم من الشقاء والهلاك وتحصيل السعادة الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، ولكن بعض المجرمين من الكفار والمنافقين الذين بلغوا الغاية القصوى

---

١. الروم: ٣٣

في الكفر والنفاق، يصل عندهم الإجرام في حق الأمة والبشرية إلى درجة شنيعة، تحمل الأنبياء والأوصياء والأولياء عليهم السلام رغم كل ما يحملونه من الرأفة والرحمة والشفقة بالعباد والصبر والتحمل للأذى على الدعاء على أولئك المجرمين الجناة بالهلاك والشقاء والخسران والعذاب الأليم في الدارين الدنيا والآخرة، وهذا لا يدل على القسوة وقلة الرحمة ولا يخرج عن الوظيفة الرسالية لهم في الحياة، بل يكشف عن عظيم جرم أولئك المجرمين، ويدخل في دائرة شهادتهم عليهم بأن لا أمل في صلاحهم وهدايتهم وأنهم لا يستحقون من الله عزّ وجلّ إلا الخذلان والاستدراج والعذاب الأليم في الدارين الدنيا والآخرة؛ وذلك لما عرفوه عنهم عن معاينة وعلم يقين من خبث النفس وسوء الطبع وانحراف الفطرة وفساد الفكر والعقيدة والمنطق وقبح الصفات والخصال والأعمال الإجرامية الشنيعة بحق الإنسانية والأبرياء والصالحين ونشر الفساد في الأرض.

على غرار شهادة النبي العظيم نوح عليه السلام على قومه، قول الله تعالى ﴿وَقَالَ نُوحٌ رب لَا تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الْكَافِرِينَ دَيارًا ﴿٢٦﴾ إنكَ إن تَذَرْهُمْ يُضِلوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إلا فَاجِرًا كَفارًا﴾[1]، والأنبياء الكرام عليهم السلام جميعاً شهداء لله عزّ وجلّ على الناس بالحق، فهم يشهدون حقائق الأعمال ويعلمون بها عن معاينة ويقين، ويؤدون الشهادة بين يدي الله سبحانه وتعالى في يوم القيامة.

وما جاء في دعاء نوح وموسى الكليم عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء الكرام عليهم السلام هو نوع من الشهادة في صورة الدعاء، وحاشا ساحتهم الطاهرة

١. نوح: ٢٦-٢٧

المقدسة أن يتكلموا بالمظنة وهم يشافهون رب العزة والكبرياء والجلال، ونودي الله سبحانه وتعالى في الدعاء بوصف الربوبية قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا﴾[1]، وقوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ﴾[2]؛ لإظهار العبودية والخضوع والتذلل والإتباع؛ ولمناسبة وصف الربوبية للمراد من الدعاء.

أضف لما سبق: إن هذا الدعاء يجري مجرى الاستدراج الإلهي وعلى منواله، فمع رحمة الله الواسعة وطول أناته في غضبه وإرادته الخير والهداية لجميع عباده، إلا أنه يخذل بعض الكافرين والمنافقين والعاصين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون؛ بسبب عنادهم واستكبارهم على الحق وأهله وإصرارهم على الكفر والضلال والنفاق والمعصية، ولما يتصفون به من الخصال القبيحة المذمومة، وما يرتكبونه من الذنوب والمعاصي والأعمال السيئة والجرائم ضد الإنسانية والأبرياء والصالحين، قول الله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[3]، فالخذلان والاستدراج لا يدلان على ضيق الرحمة، وإنما يدلان على عظيم جرم الكفار والمنافقين، وهو من قبيل المجازاة، أي: مقابلة السوء بسوء مثله على قاعدة: الجزاء من جنس العمل.

وعليه: فدعاء موسى الكليم عليه السلام على فرعون وملئه المجرمين يدل على

---

١. يونس: ٨٨

٢. نوح: ٢١

٣. القلم: ٤٤-٤٥

كمال المعرفة بالله ذي الجلال والإكرام، والتقاء إرادة موسى الكليم وهارون عليهما السلام مع الإرادة الإلهية بإغلاق أبواب الإيمان والتوبة والطاعة على فرعون وملئه المجرمين، أي: دعا عليهم بما علم أنه موافق للحكمة الإلهية البالغة والإرادة الربانية العليا، وبما لن يكون غيره بمقتضى الحكمة الإلهية والإرادة الربانية، كقول القائل: لعن الله إبليس، وأخزى الله الكفرة، وهي شهادة منه عليهم، بأنه لم تبق له معهم حيلة، وأنهم لا يستحقون من الله جل جلاله إلا الخذلان والعذاب، كأنه قال: ليثبتوا على ما هم عليه من الكفر والضلال، وليطبع الله عز وجل على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فهم لا يستحقون من الله جل جلاله بصفاتهم القبيحة وأعمالهم السيئة إلا الخذلان والعذاب، وفي ذلك عبرة وموعظة بالغة لكل ذي لب وعقل وضمير زاجر له عن أن يفعل مثل فعلهم، فيستحق مثل ما يستحقون، ويكون مصيره مثل مصيرهم في الدارين الدنيا والآخرة.

وهنا تجب الإشارة إلى قول البعض، أن الآية الشريفة المباركة دليل على أن الله سبحانه وتعالى يمكن أن يضل الناس ويريد ضلالهم، وهذا خطأ بيّن؛ لأن الضلال قبيح والله سبحانه وتعالى منزه عن القبيح، والإضلال منافٍ للحكمة والكمال المطلق للذات الإلهية. وفي القول المذكور هدم لبنيان الدين الحنيف من أساسه ونقض لغاياته، وفيه إبطال للثقة بالمرسلين الكرام عليهم السلام والكتب السماوية التي ترمي إلى الهداية وترشد الناس إلى الإيمان بالدين الحنيف. وقولنا لا ينفي الإرادة التكوينية لله سبحانه وتعالى في ضلال الكافرين الموافق للاختيار، إذ لا يستقل شيء بفعل أو تأثير عن الله سبحانه وتعالى، ولولا أنه أراد لهم الضلال بالإرادة

التكوينية لكان قد أجبرهم على الإيمان، والجبر مخالف للحكمة الإلهية والغاية من خلق الإنسان وتكليفه، الذي يقوم على العقل والاختيار، وبه تميز من بين جميع الكائنات في الوجود، وعليه: فالهداية والضلال من الله سبحانه وتعالى بعنوان المجازاة ومقابلة السوء بالسوء كما سبق بيانه والاستدلال عليه من القرآن الكريم.

استجابة الله لدعاء موسى وهارون عليهما السلام

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾

لقد استجاب الله تبارك وتعالى لدعاء وليه وحبيبه الناصح الصادق الأمين موسى بن عمران الكليم وأخيه ووزيره وشريكه هارون عليهما السلام فقال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾[1]، أي: قال الله سبحانه وتعالى مخاطباً عبديه ووليه الكريمين موسى الكليم وأخيه ووزيره وشريكه هارون عليهما السلام أن الله ربكما ووليكما وناصركما تبارك وتعالى قد استجاب دعوتكما المباركة على فرعون الطاغية وملئه المستكبرين الظالمين المجرمين المارقين عن الحق من الأشراف والأعيان وكبار القادة والموظفين المدنيين والأمنيين والعسكرين وغيرهم، الذين يقوم على أكتافهم وبجهودهم النظام الفرعوني الفاسد، وتعتمد عليهم الحكومة الفرعونية الجائرة المتجبرة في إدارة البلاد وتدبير الشؤون وممارسة الظلم والجور والأذى والتمييز والاستضعاف والإذلال لبني إسرائيل والإفساد في الأرض بغير الحق وفتنة الناس وصرفهم عن الدين

---

١. يونس: ٨٩

الإلهي الحنيف وتحقيق إرادة فرعون ومقاصده الطاغوتية الجائرة؛ وذلك بإنزال المصائب والنكبات والشدائد المتوالية عليهم، وبالهلاك والعذاب الأليم، والطمس على الأموال بتسليط الآفات عليها، والربط على قلوبهم بالقسوة، فلا تقبل الحق ولا تنشرح للإيمان ولا توفق للتوبة والطاعة لله سبحانه وتعالى.

وهذا الدعاء من موسى الكليم وأخيه ووزيره هارون عليهما السلام والاستجابة الإلهية للدعاء؛ سببهما ما كان عليه فرعون الطاغية وحزبه المجرمين إخوان الشياطين من خبث الأنفس وسوء الطباع والانحراف عن الفطرة وقبح الصفات والخصال والأعمال الإجرامية السيئة الشنيعة، وما تميزوا به من العناد والاستكبار على الحق وأهله، والمكوث على الغي والكفر والضلال والإفساد في الأرض والظلم للعباد، بحيث لا تنفع معهم موعظة بالغة ولا نصيحة صادقة ولا إرشاد سديد ولا حوار علمي منطقي يستند إلى الحجة والدليل والبرهان.

والغاية من وراء ذلك أن يشعروا بحقارتهم وضعفهم وعجزهم أمام عظمة الله عز وجل وجبروته و إرادته ومشيئته وسلطانه، وتلين قلوبهم وتنكسر شوكتهم ويسأموا مقاومة دعوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته، ويتركوا الغرور والتجبر وتنحط غلواؤهم، قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1] فلا يعني الدعاء والاستجابة الإلهية له القسوة وقلة الرحمة أبداً، و إنما يكشفان عن حجم الجريمة التي يرتكبها أولئك المجرمون فرعون الطاغية وملؤه المستكبرون، ومدى خطرهم على

١. الأعراف: ١٣٠

حاضر المجتمع والبشرية ومستقبلهما، وأن الدعاء والاستجابة الإلهية هما من مقتضيات الحكمة الإلهية البالغة في خلق الإنسان وفلسفة وجوده القائمين على ما يتميز به الإنسان بين جميع الكائنات في الوجود من العقل والقدرة على التفكير وحرية الاختيار وتقرير المصير، والرحمة والإلهية الواسعة بالخلق، ويجريان على قاعدة: «الجزاء من جنس العمل وموافق له»، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا﴾[1]، أي: جزاءً موافقاً لأعمالهم في السوء، ولو أن الله ﷻ لم يفعل ذلك بفرعون وملئه المجرمين، لكان في ذلك إغراءٌ لهم على الجريمة، وهو مخالف للحكمة، والتهاون بشأن فتنة المؤمنين وهو مخالف للحكمة ومقتضى الرحمة بالمؤمنين، أو عُدّ دليلاً على عجز الله سبحانه وتعالى عن ردعهم، أو إرادة جبرهم على الإيمان والطاعة بدون اختيارهم؛ لأنهم إنما فعلوا جرائمهم باختيارهم، فيكون منعهم بسلب الاختيار منهم، وهو أمر مخالف لمقتضى الحكمة الإلهية البالغة في خلق الإنسان وتكليفه وفلسفة وجوده وتميزه بين جميع الكائنات بالعقل وحرية الاختيار وصناعة ماهيته بنفسه فيكون إنساناً متسامياً يستحق الثواب والأجر العظيم، أو حيواناً منحطاً، أو شيطاناً متمرداً يستحق العذاب الأليم.

وعلى هذا الأساس يتحمل مسؤولية التكليف الإلهي الذي عجزت السماوات والأرض والجبال عن حملها وحملها الإنسان بما هو عاقل مختار يتكون من روح وجسد، الروح تجذبه إلى عالم الملكوت الأعلى وإلى النور

١. النبأ: ٢١-٢٦

والطهارة، والجسد يجذبه إلى عالم الأرض والمادة عالم الظلمة والشهوة، وكان ظلوماً جهولاً مخالفاً لمنطق العقل وخارج عن ربقة الإنسانية حين يميل إلى الكفر والنفاق والجحود والمعصية.

وفي الحديث النبوي الشريف: إن موسى الكليم عليه السلام كان يدعو، وأخيه ووزيره وشريكه هارون عليه السلام كان يؤمّن على دعائه، والذي يؤمن على الدعاء يكون شريكاً للداعي في ذلك الدعاء؛ لأن قول آمين معناه: استجب، فالذي يؤمّن على الدعاء سائل كما أن الداعي سائل أيضاً، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾[1].

وقيل: لا يبعد أن يكون كل واحد منهما قد دعا بنفس الدعاء، غاية ما في الأمر أن الله تبارك وتعالى قد حكى الدعاء عن موسى الكليم عليه السلام، وفي جميع الأحوال موسى الكليم وهارون عليهما السلام شريكان في النبوة والرسالة والقيادة وأمرها واحد.

وروي عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنة حتى أخذه الله عز وجل أخذ عزيز مقتدر وأهلكه مع جميع جنده وأعضاء حزبه المجرمين، الذين يناصرونه على أمره، وكانوا معه بالغرق في اليم[2]. ولا غرابة في ذلك فقد لبث نوح عليه السلام في قومه يدعوهم ألف سنة إلا قليلاً، قبل أن يهلكهم الله عز وجل بالطوفان الأعظم، فلا ينبغي الاستعجال. ولهذا المكث وظائف عديدة، منها:

---

١. يونس: ٨٩

٢. تفسير العياشي، جزء ٢، صفحة ١٢٧ وغيره

أ. الزيادة في إقامة الحجة الإلهية على فرعون وحزبه المجرمين حتى تبلغ الغاية القصوى بحيث تنقطع حجتهم تماماً ولا يكون لهم عذر أبداً عند الله سبحانه وتعالى، قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَاسِ عَلَى اللهِ حُجَةٌ بَعْدَ الرسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلهِ الحُجَةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]، أي: لله سبحانه وتعالى الحجة البالغة التي تنقطع عندها معاذيركم وتبطل شبهاتكم، وقد ترككم مختارين فيكون منكم المؤمنون المطيعون ويكون منكم الكافرون العاصون، ولو شاء الله لهداكم أجمعين بقدرته كرهاً، ولأجبركم على الإيمان والطاعة وترك الشرك والمعصية، ولكنه لم يفعل ذلك وترككم مختارين؛ لأن إجباركم على الإيمان والطاعة مخالف لمقتضى الحكمة الإلهية البالغة والغاية من خلق الإنسان وفلسفة وجوده وتميزه بين جميع الكائنات بالعقل والاختيار، وعلى هذا الأساس تقوم مسؤولية التكليف الإلهي للإنسان.

ب. ظهور آثار استجابة الدعاء وتجليها بوضوح تام في أحوال فرعون وحزبه المجرمين في الزمن الواقع بين الدعاء وبين موعد الهلاك، فتقام الحجة عليهم، وتتم النعمة على المؤمنين، ويتأهلوا أكثر لحمل مسؤولية الرسالة الإلهية وبلوغ غاياتها وتحقيق أهدافها، وهذا يتطلب منهم بدون شك الوعي واليقظة والمحاسبة والعمل الدؤوب والحراك في معارج الكمال المعرفي والتربوي والحضاري.

---

١. النساء: ١٦٥

٢. الأنعام: ١٤٩

وقد أمر الله ﷻ موسى الكليم وأخاه ووزيره وشريكه هارون عليهما السلام بالثبات على ما هما عليه من الإيمان والهداية والطاعة لله سبحانه وتعالى، والزيادة في إلزام الحجة على فرعون الطاغية وحزبه المجرمين، والاستمرار في المقاومة والجهاد في سبيل الله ﷻ والدعوة إلى الله ذي الجلال والإكرام والدين الإلهي الحنيف، والوعظ والنصح والإرشاد والتوجيه والبيان و إحياء كلمة الحق و إعلائها، والعمل على تربية المؤمنين المجاهدين الصابرين وتأهيلهم من جميع النواحي الفكرية والروحية والعملية كمؤمنين ودعاة إلى الله ذي الجلال والإكرام و إلى دينه الحق، وقادة لمسيرة التكامل البشري المباركة، وأوصاهم بترك الاستعجال في الوصول إلى النتائج قبل حينها وأوانها، فإن ما طلباه كائن لا محالة، ولكن في وقته وحينه وأوانه الذي يختاره الله تبارك وتعالى ويقدره بمقتضى حكمته ورحمته وتكون فيه المصلحة العامة للناس.

وأمرهم كذلك بلزوم الاستقامة على الدين الحق والرسالة الربانية التي حملهما إياها والتمسك بهما غاية التمسك والحرص عليهما تمام الحرص، وعدم الخروج عن أحكام الدين الحنيف وعدم الضجر منه تحت أي ظرف أو ضغط أو نحو ذلك.

ونهاهما مطلقاً عن الخضوع لإرادة المستكبرين والظالمين والجاهلين المضلين من بني إسرائيل، الذين لا علم لهم بالدين الحنيف ولا بعظمة الله ﷻ وحكمته البالغة في التشريع والتدبير وبالحقائق والسنن الإلهية وبتعليق الأمور والاستجابة للدعاء على المصالح بمقتضى الحكمة البالغة والرحمة الواسعة.

والذين يسلكون طريق الاستعجال في الأمور وعدم الاطمئنان والوثوق بوعد الله ﷻ، ويتجرؤون على محارم قدس الله سبحانه وتعالى ومقام العزة والعظمة والكبرياء والجبروت الإلهي المطلق، ويتوهمون أنه متى كان الوعد وكان الدعاء مجاباً كانت الإجابة حاصلة في الحال، والحال أن الله ﷻ قد وعد بالنصر ونحوه ويجيب الدعاء، ولكن التحقيق قد يتأخر إلى الوقت المناسب الذي يقدره وتكون فيه المصلحة بمقتضى حكمته البالغة ورحمته الواسعة بالعباد، والاستعجال يدل على الحماقة والجهل بالحقائق والسنن الإلهية في الخلق والتدبير. ولا تكون لهؤلاء السفهاء الجهال الحمقى عزيمة على السمو الفكري والروحي والاستقامة في السلوك والمواقف والعلاقات من أجل الوصول إلى الكمال الإنساني المقدر لهم واللائق بهم.

وقد حذر الله ﷻ موسى الكليم وهارون عليهما السلام من الاستجابة لما يقترحونه من مطالب جاهلية تنبع من أهواء النفس الشيطانية والغرائز الحيوانية وقصور المعرفة بالمعارف الحقة والشريعة المقدسة وتخالف العقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم، وتقوم على الاستعجال وعدم الاطمئنان والوثوق بوعد الله الصادق، لما في ذلك من الضلال وما ينجم عنه من الفساد في الأرض بغير الحق، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقيل: يعتبر الأمر الإلهي لهما بالاستقامة بمثابة الأمر بالشكر على النعمة؛

---

١. يونس: ٨٩

لأن إجابة الله تبارك وتعالى دعوة عبده يعد إحساناً من الله تبارك وتعالى للعبد و إكراماً له، وتلك نعمة ربانية عظيمة تستحق من العبد الشكر لله تبارك وتعالى عليها، وأعظم الشكر في المقام طاعة المنعم والاستقامة على أمره ونهيه.

وقد أعقب الله ﷻ الأمر بالاستقامة بالنهي عن اتباع طريق الجاهلين، رغم أنه مشمول وداخل في الاستقامة؛ لأهميته ومن أجل توخي الحذر منهم؛ لأنهم موجودون في كل المجتمعات في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا؛ ولأن طاعتهم مخالفة للعقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم والمصلحة العامة للمجتمع والإنسانية؛ لما يترتب على طاعتهم من الفساد ومن العدول عن طريق الحق والدين الحنيف، لهذا لزم التحذير منهم بشكل خاص؛ لأهمية الموضوع «التحذير» لتحصيل الاستقامة على الدين الحق والمنطق السليم، وتحقيق الخير والصلاح والمصلحة العامة، والوصول إلى الكمال والسعادة الحقيقية في الدارين الدنيا والآخرة.

وقيل: الاستقامة حقيقتها الاعتدال وهي ضد الاعوجاج ومستعملة كثيراً في معنى ملازمة الحق والرشاد، فالأمر بها جامع لجميع خصال الخير والصلاح والفلاح والفضيلة.

وقيل: إن في التوجيه الإلهي الظاهر في الآية الشريفة المباركة تلويح وتلميح إلى أن بني إسرائيل سيطلبون بجهالتهم من موسى وأخيه ووزيره وشريكه هارون عليهما السلام أموراً غير مرضية عند الله سبحانه وتعالى وفي دينه

الحنيف وشريعته المقدسة، ومخالفة للعقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم، كما هي العادة لدى الجاهلين وغير الواعين من أتباع الأنبياء الكرام عليهم السلام أو المتظاهرين بالاتباع وهم ليسوا متبعين في الحقيقة والواقع، وإنما هم منافقون مارقون من الدين وخارجون عن الفطرة ومخالفون للعقل، ويظهرون ويعلنون بألسنتهم خلاف ما يبطنون ويسرون في أنفسهم من الكفر والشرك والضلال والمعصية.

كما أمر الله جل جلاله عبديه ووليه موسى الكليم وهارون عليهما السلام برباطة الجأش والصبر والثبات والتحمل والصمود وعدم الخوف والجزع من سيل المشاكل والصعوبات والعوائق والعقبات التي ستقف في وجهيهما وتعترض طريق دعوتهما إلى الله ذي الجلال والإكرام وتربية المؤمنين وإرشادهم وتوجيههم وتأهيلهم، وأن يكونا جازمين وحاسمين في أمور الدعوة والتربية والبناء والجهاد والمقاومة، وعدم التنازل إلى فرعون وملئه المترفين الجاهلين والانتهازيين من بني إسرائيل والخضوع إلى إرادتهم الجاهلية الاستكبارية الجائرة عن الحق والعدل والخير والفضيلة والصلاح، وعليهما بالاستمرار في تنفيذ برامج الدعوة والتربية والبناء والجهاد والمقاومة، والمقاومة للإرادة الفرعونية الطاغوتية والإرادة الجاهلية الجهلاء وللنظام الفرعوني الفاسد والدولة الجائرة والحكومة الاستبدادية الظالمة، ولبرامجهم في الإضلال والفتنة والاستضعاف والإذلال والإفساد في الأرض بغير الحق، والتحلي بالعزة والنخوة والإباء والحرية والكرامة، فإن ذلك من لوازم صدق الإيمان وكماله وإخلاص النية لله رب العالمين، والمؤمن بما هو مؤمن مطيع لله ذي الجلال والإكرام ويتخلق بأخلاقه في سير تكامله،

وأن عزة المؤمن وكرامته وشرفه من عزة الله ﷻ وكرامته وشرف منزلته؛ لأن صفاته وأفعاله من تجليات صفات الله ذي الجلال والإكرام وأفعاله، والمؤمن بمقدار ما يحافظ على عزته وكرامته وشرفه، بمقدار ما يكشف عن كماله ومدى قربه من الله ذي الجلال والإكرام وفنائه فيه والمقام في ساحة قدسه، ويجسد حقيقة الإيمان وكماله، وبمقدار ما يتخلى ويتنازل عن العزة والكرامة والشرف والنخوة والإباء، بمقدار ما يكشف عن نقص إنسانيته وضعف إيمانه ونقصه وبعده عن ساحة القدس الإلهي وحقائق الإيمان، وهي صفات يجب أن يتحلى بها الإنسان بما هو إنسان عاقل، وفي الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إن الله فوض إلى المؤمن أموره كلها ولم يفوض إليه أن يكون ذليلاً. أما تسمع الله تعالى يقول:** ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] **فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلًا، إن المؤمن أعز من الجبل؛ لأن الجبل يستقل منه بالمعاول والمؤمن لا يستقل من دينه شيء**»[2]، وعليهما التوكل على الله ﷻ والاستعانة به والثقة بوعده، وذلك كله من لوازم صدق الإيمان وحقيقته وكماله.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن الأمر الإلهي المشترك لموسى الكليم وأخيه ووزيره وشريكه هارون عليهما السلام بالإجراءات العملية في تدبير شؤون بني إسرائيل و إدارة أوضاعهم السياسة والأمنية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية ونحوها، وبالاستقامة على الدين الحق وعدم اتباع سبيل الجاهلين والخضوع لإرادتهم، ونحوه، يدل على ضرورة احترام مقامات

---

١. المنافقون: ٨

٢. تهذيب الأحكام، جزء ٦، صفحة ١٧٩

القيادات في الجماعة أو الدولة وعدم انتقاصها بأي حال من الأحوال وفي أي ظرف من الظروف؛ لأن ذلك يعكس روح الجماعة والأمة ومكانتها، ويصون وحدتها وقوتها وعزتها وكرامتها، وأن وجود من هو أعلى في سلم القيادة لا يعني انتقاص الآخرين الذين هم أقل درجة منه والتقليل من شأنهم ومكانتهم ومقاماتهم.

كما يدل الأمر على ضرورة تحلي جميع أعضاء القيادة بالوعي والشجاعة والثبات وقوة الإرادة، والاستيعاب الكامل والواضح للرؤية الفكرية والاستراتيجية والتكتيك والخطط وبرامج العمل، وأن يتناسب مدى الوعي والتحلي بالصفات والتمكن من المهام والكفاءة مع الموقع القيادي الذي يحتله العضو والمسؤوليات المنوطة به، وأن لا يتبوء فرد موقعاً وتناط به مسؤولية أكبر من وعيه ومؤهلاته الفكرية والروحية والعملية «المهنية»، ومن يفقد شيئاً من هذه الصفات الرئيسية يفقد الأهلية والصلاحية للقيادة الواعية الرشيدة الناجحة، ولا يليق به أن يتولى القيادة والمسؤولية في الجماعة والأمة المسلمة، وأن الإخلال بهذه الشروط طريق إلى الفشل والخروج عن طريق الحق والاستقامة والنجاح وعدم الوصول إلى الأهداف والغايات وتحقيق القاصد.

كما ينبغي الإشارة كذلك إلى أن الأمر الإلهي لموسى الكليم وأخيه ووزيره وشريكه هارون عليهما السلام بالاستقامة ونهيهما عن المعصية وعن اتباع سبيل الجاهلين بما هما كاملين ومعصومين عن الخطأ، إنما يجوز ويصح من الله سبحانه وتعالى على قاعدة: «أن الأعلى من شأنه أن يأمر وينهى

ويعظ وينصح من هو دونه كائنة ما تكون منزلته ومكانته ووظيفته»، وليس من شأن الأدنى بحكم العقل والمنطق والمقام أن يأمر وينهى من هو أعلى منه، وفي ذلك مخالفة للذوق الإنساني والأدب الرفيع والفضيلة والأخلاق الحميدة، ولمقتضيات المقامات والضبط والتنظيم في الحياة والتدبير وحسن الإدارة. ولأن الله سبحانه وتعالى كامل كمالاً مطلقاً وهو رب العالمين ومربيهم ومدبر جميع أمورهم والقائم على شؤونهم، ولا يستقلون في شيء من شؤونهم عنه بحكم الضرورة الوجودية التي لا تقبل التخلف والتعطيل والتبديل، فقد جاز له وصح منه الأمر والنهي والوعظ والنصح للأنبياء والمعصومين عليهم السلام رغم عصمتهم وكمالهم الإنساني؛ لأن ذلك إنما كان بفضله ونعمة منه عليهم، ولا يجوز لغيره ولا يصح منه أن يفعل ذلك مع الأنبياء الكرام والأوصياء المطهرين عليهم السلام؛ لأنهم كُمّلٌ ومعصومون، نعم يجوز ويصح من المعصوم الأكمل أن يأمر وينهى ويعظ وينصح المعصوم الذي هو دونه في الكمال أو تحت إمامته، كما هو الحال بالنسبة لموسى الكليم مع أخيه ووزيره هارون عليهما السلام، و كما هو الحال بالنسبة إلى إبراهيم الخليل مع لوط عليهما السلام ونحو ذلك.

هلاك فرعون وجنوده وحزبه المجرمين أجمعين

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾

أجاب الله تبارك وتعالى دعاء موسى الكليم وهارون عليهما السلام، وعلى ضوء

ذلك أمرهما بالخروج مع جميع بني إسرائيل من أرض مصر والتوجه إلى أرض الميعاد الأرض المقدسة أرض فلسطين، ويسر لهم أسباب وظروف الخروج، وعيّن لهم الوقت الذي ينبغي أن يخرجوا فيه، وأن يكون خروجهم سراً على فرعون وحزبه المجرمين وقومه الموالين إليه والمساندين إلى نظامه والداعمين إلى سياسته الظالمة الجائرة بحق بني إسرائيل.

فلما علموا بخروجهم وأنهم عازمون على مفارقة مملكتهم لم يتركوهم لحال سبيلهم، بل خرجوا على عقبهم يحثون الخطى للحوق بهم؛ بهدف القضاء عليهم بغياً وظلماً وعدواناً وطلباً للاستعلاء في الأرض بغير الحق، ولا شك فإن اتباع فرعون وجنوده المجرمين لبني إسرائيل بهدف منعهم من السفر وردهم الوطن كرهاً، يعد ظلماً وعدواناً؛ لأن الهجرة من الوطن حق طبيعي مكفول للإنسان، فليس لأحد منعه من ذلك ما لم يكن لأحد عليه حق في البقاء بغية استيفاء حقه، كما ليس لأحد الحق في نفيه من وطنه وتجريده من جنسيته، ويعد ذلك أيضاً جريمةً وظلماً وعدواناً وانتهاكاً لحقوق الإنسان.

وكان الدافع لفرعون وحزبه المجرمين وراء منع بني إسرائيل من الهجرة، ما كان يعيش فيه فرعون وحزبه من الهواجس والوساوس الشيطانية والأوهام الأمنية والسياسية، فرضتها عليهم أنفسهم الخبيثة وطباعهم السيئة وانحرافهم عن الفطرة والمنطق السليم، وخياناتهم للحق والعدالة وأمانة الرعاية والحكومة والمسؤولية، والإفراط في الأنانية وغير ذلك، مما حملهم على العدوانية ضد الغير، والانتهاك المفرط في حقوق الإنسان.

كما أنهم خافوا كثيراً؛ بسبب جرائمهم من أن يقوم بنو إسرائيل بتنظيم صفوفهم و إعادة بناء قوتهم تحت قيادة موسى الكليم وهارون عليهما السلام، وعقد التحالفات مع آخرين يناصرونهم، ثم يقومون بمهاجمة مصر ويقضون على النظام الفرعوني، وينتقمون لأنفسهم عن ما لحق بهم فيما سبق من ظلم وعدوان واضطهاد واستضعاف و إذلال وأذى من فرعون الطاغية وحزبه المجرمين وقومه الفاسقين.

كما أرادوا بمنع بني إسرائيل من الهجرة؛ للاستمرار في إخضاعهم لإرادتهم وتسخيرهم بغير حق في الأعمال الشاقة والوضيعة، أي: يترتب على خروجهم أضرار على الاقتصاد المصري، وخلق بعض المشاكل الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على الفراغ الذي يتركونه في شغل هذه الأعمال، حيث لا يوجد من الأقباط من يشغل هذا الفراغ ويقوم بهذه الأعمال.

وهذا هو حال الفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا في التعامل مع الشعوب المستضعفة والمعارضين لهم.

فأعلن فرعون وحزبه المجرمون النفير العام، قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنكُم متبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝٥٣ إِن هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۝٥٥ وَإِنا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾[1]، وقرروا تشكيل قوة عسكرية ضاربة وملاحقة بني إسرائيل حتى يظفروا بهم؛ لردهم كرهاً إلى أرض مصر، و إخضاعهم لإرادة النظام الفرعوني وسلطته أو القضاء

١. الشعراء: ٥٢-٥٦

عليهم تماماً، ووضع حد لتمردهم وخطرهم والخلاص من شرهم، قبل أن يتمكنوا من تجاوز الحدود المصرية والخروج من سلطة النظام الفرعوني والدخول إلى الأرض المقدسة فلسطين.

فتبعوهم وكادوا يدركونهم لولا رحمة الله تبارك وتعالى ببني إسرائيل وعظيم تدبيره. فقد اقترب فرعون وجنوده كثيراً من ركب بني إسرائيل، وتراءى الجمعان، فخاف بنو إسرائيل خوفاً شديداً من أن يدركهم فرعون وجنوده، فيقضوا عليهم جميعاً ويمحوهم من صفحة الوجود، حيث ليس لهم بقية، إذ خرجوا بأجمعهم وفيهم النساء والأطفال، وقد صاروا بين بحر مغرق أمامهم وجيش مهلك من خلفهم، ولا حول لهم ولا قوة.

إلا أن موسى الكليم عليه السلام طمأنهم بوحي من الله تبارك وتعالى، وأخبرهم بأن الله عز وجل سيجعل لهم مخرجاً، وينجيهم من فرعون وجنوده المجرمين، ويهلك عدوهم ويحقق لهم ما وعدهم من النصر والاستخلاف، وأوصاهم بأن يثقوا بقدرة الله عز وجل ووعده الصادق، ويستعينوا به ويتوكلوا عليه ويفوضوا إليه أمرهم فهو ربهم ووليهم في الدنيا والآخرة، ولن يسلمهم إلى عدوهم.

فإن بلغ موسى الكليم عليه السلام مع بني إسرائيل البحر الأحمر «بحر السويس/ سوف» الذي يحجز بين مصر وسيناء. وقيل: نهر النيل وهو الصحيح، وقد أُطلق عليه اسم البحر لعظمته، أمر الله جل جلاله عبده ووليه ورسوله الكريم موسى الكليم عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه، ففعل ما أمره الله جل جلاله به، فانفلق البحر إلى فلقين كلُ فلقٍ كالطود «الجبل» العظيم، وظهرت بين الطودين اثنا عشر طريقاً يبساً ليمشوا على أرضها بسهولة

ويسر وبدون عراقيل أو صعوبات أو مشاكل، وأمرهم الله ﷻ بالمرور أو العبور فيها بين الطودين العظيمين، ففعلوا ما أمرهم الله ﷻ به، ووصل فرعون الطاغية وجنوده الضالون المجرمون إلى المكان، ورأوا المشهد؛ ولفرط جهلهم وضلالهم وغرورهم لم يتعظوا بما رأوا، وإنما أصروا على كفرهم وضلالهم وإرادة الظلم والعدوان والاستكبار في الأرض بغير الحق، فسلكوا الطرق اليابسة في البحر بين الطودين العظيمين، وجدُّوا في المسير من أجل إدراك موسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل لتصفيتهم والقضاء عليهم؛ بالقتل الجماعي لهم ظلماً وعدواناً.

وفي الحديث الشريف عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «**لما صار موسى في البحر اتبعه فرعون وجنوده، قال: فبهت فرس فرعون أن يدخل البحر، فتمثل له جبرئيل عليه السلام على رمكة (يعني الفرس التي تتخذ للنسل)، فلما رأى فرس فرعون الرمكة اتبعها، فدخل البحر هو وأصحابه فغرقوا**»[1].

قول الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إسرائيل الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾[2]، وهكذا يفعل الجهل وغرور السلطة والقوة والثروة والجاه بأهله من الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين والانتهازيين والأنانيين الفاسدين ونحوهم من عبدة المادة والدنيا والدرهم، حيث تعمى بصيرتهم بسبب استغراقهم في عالم الدنيا والمادة والمصالح، عند إدراك الحقائق والوقائع كما هي عليه،

١. الاختصاص، المفيد، صفحة ٢٦٦

٢. يونس: ٩٠

فيكونوا بمعزل تام عنها وينفصلوا عن الواقع، ويعيشوا الأوهام والخيالات المريضة التي يصنعها جنون العظمة ووساوس الشيطان الرجيم تحت تأثير غرور السلطة والقوة والثروة والجاه.

فلما استكمل موسى الكليم عليه السلام مع بني إسرائيل خروجهم جميعاً من البحر في الطرق الاثني عشر بين الطودين العظيمين، وتجاوزوا الماء إلى البر على الضفة الأخرى من البحر، واستكمل فرعون وجنوده وحزبه المجرمين دخولهم جميعاً إلى البحر، أمر الله عز وجل البحر فالتطم الطودان العظيمان عليهم فأغرقهم أجمعين، وبنو إسرائيل ينظرون إليهم وهم يغرقون جميعاً، ولم ينجوا منهم أحداً وبني إسرائيل سالمين أجمعين.

وتعتبر مثل هذه النتيجة من الضروريات أو حتميات السنن الإلهية العظيمة في تدبير المسيرة التاريخية التكاملية للإنسان؛ لأن الله عز وجل تكفل بإرسال الأنبياء الكرام عليهم السلام لهداية البشرية وإرشادهم إلى الدين الإلهي الحق والصراط المستقيم وما فيه كمالهم وخيرهم وصلاحهم ومصلحتهم وسعادتهم الحقيقة في الدارين الدنيا والآخرة، وتكفل بتزويدهم بما يدل على صدق نبوتهم ورسالتهم وعدالة قضيتهم وشرعية مطالبهم بشكل يقيني لا يقبل الشك والريب والتردد، من المعجزات الباهرات القاهرات والآيات البينات النيرات الواضحات والأدلة القاطعة والبراهين المتينة المحكمة الدلالة.

كما تكفل ببقاء الرسالة وديمومتها واستمرارها، وجعلها في متناول الذين يطلبونها في دورتها الرسالية والمدى الزمني المقرر لها، ضمن ما يسمى في

البحوث القرآنية بسنة الاستبدال، وهنا أشير إلى بعض الأمور المهمة التي تقضيها هذه السنة في موضوع البحث، وهي:-

أ. ضمان حفظ الكتاب الذي فيه الرسالة السماوية، وعليه يتوقف العمل بها ويمتنع التحريف والتغيير والتبديل للرسالة في دورتها الرسالية والمدى الزمني المقرر لها، وحفظ الكتاب من التحريف والتغيير والتبديل إلى الأبد، خاص بالرسالة الخاتمة؛ لأن الرسالات السابقة يتكفل الأنبياء الكرام اللاحقون عليهم السلام بتصحيح ما سلف من التحريف والتغيير والتبديل في الكتاب، الصورة والمضمون، وهذا غير متوفر في الرسالة المحمدية الخاتمة؛ لأنه لا يكون إلا بالوحي، ومحمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله هو خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم السلام وآخرهم، وعليه: فقد تكفل الله عز وجل بالوسائل الطبيعية، مثل: التوجيه إلى حفظ الكتاب «القرآن الكريم» وتدوينه وتحفيظه بدقة بالغة في الضبط، وبالوسائل الغيبية التي لا يعلم حقيقتها ولا كيف هي إلا هو بحفظ الكتاب من التحريف والتغيير والتبديل إلى أبد الآبدين، قول الله تعالى: ﴿إِنا نَحْنُ نَزلْنَا الذكْرَ وَإِنا لَهُ لَحَافِظُون﴾[1]، وأصبح ذلك حقيقة واضحة ثابتة علمياً ومنطقياً لا يجادل فيها إلا مختل أو مجنون، وأسند إلى أوصياء محمد الطيبين الطاهرين عليهم السلام قضية بيانه وشرحه و إزالة التحريف والتغيير والتبديل في فهمه وتطبيقه، وأمر عباده بالرجوع إليهم، وجعلهم حجة عليهم إلى يوم الدين.

---

١. الحجر: ٩

ب. ضمان وجود الحَمَلة للرسالة الصحيحة والمبلغين بها من الأنبياء الكرام والأوصياء المطهرين عليهم السلام في دورتها الرسالية والمدى الزمني المقرر لها، ولأن الإسلام المحمدي الحنيف هو خاتم الأديان والرسالات السماوية، فقد تكفل الله جل جلاله بوجود الحَمَلة من الأوصياء الهادين المهديين عليهم السلام إلى نهاية التاريخ أو ما بقيت حياة الإنسان على وجه الأرض.

فإن عجزت الوسائل الطبيعية عن المحافظة عليهم، تدخلت العناية الربانية بالوسائل الغيبية لضمان بقائهم وحفظهم، وعليه: فقد كان بقاء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إلى ما بعد وفاة الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله رغم مشاركته في الحروب وتقدمه فيها، ضرورة وحتمية تاريخية لمقتضى سنة الاستبدال وغيرها من السنن الإلهية؛ لأن على بقائه إلى ما بعد وفاة الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله يتوقف بقاء الإسلام الصحيح، وفي الدعاء الشريف: «**و لولا أنت يا علي لم يعرف المؤمنون بعدي، وكان بعده هدى من الضلال ونوراً من العمى وحبل الله المتين وصراطه المستقيم**»[1]، وكذلك الحال بالنسبة إلى بقاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام وسلالته من القتل في كربلاء، رغم الظروف الحرجة جداً التي صاحبت قتل والده وأهل بيته وأصحابه، ولم يبق من الرجال غيره، وكانت نجاته بالأسباب الطبيعية ضرب من المستحيل؛ وذلك لأن على بقائه وسلامته يتوقف بقاء الإسلام الصحيح بعد استشهاد أبيه

١. دعاء الندبة

الحسين سيد شباب أهل الجنة عليه السلام، وكذلك بقاء الإمام الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وسلامته في زمن الغيبة حتى الظهور الشريف المبارك؛ لأن على بقائه وسلامته يتوقف بقاء الإسلام الصحيح وتحقيق الوعد الإلهي بإقامة دولة العدل الإلهي العالمية على يديه، وإظهار الدين الإلهي الحق على كل دين، ونفض كل ما علق به من أتربة الزمان وتحريف في العقيدة وتبديل في الأحكام الشرعية، والأخذ بيد البشرية جمعاء إلى أوج رشدها وكمالها المعرفي والتربوي والحضاري، وتحقق بذلك الإرادة الربانية العليا في تحقيق غاية خلق الإنسان، قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَ وَالْإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، أي: عبادة الفرد الكامل «الكمال التربوي» وعبادة المجتمع الكامل «الكمال الحضاري» الذي لا ينفصل عن الكمال العلمي والمعرفي، وتحقيق ذلك كله بعد الظهور الشريف للإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وقد أكد حديث الثقلين المتواتر عند جميع المسلمين الحقيقتين المتعلقتين بالكتاب والحَمَلة، قول الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله: «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[2]، قال ابن حجر الهيتمي في كتابه الصواعق المحرقة:

---

١. الذاريات: ٥٦

٢. صحيح الترمذي، جزء ٢، صفحة ٣٠٨

«وفي أحاديث الحث على التمسك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهل منهم للتمسك به إلى يوم القيامة كما أن الكتاب العزيز كذلك»[١]، والمعنى واضح لكل ذي لب في مدلول ألفاظ الحديث. كما يدخل في الحَمَلة استناداً إلى التحليل العلمي المنطقي العلماء المجددون الذين يتوقف على وجودهم رد الشبهات وهداية المؤمنين وتأهيلهم ما دامت الحاجة الضرورية إلى وجودهم قائمة في عصر الغيبة.

ج. ضمان وجود الجماعة المؤمنة الصالحة المؤهلة السالكة لمنهج الهداية والصلاح والصراط المستقيم، بحيث لا ينقطع وجودهم، ويكون وجودهم ضمانة إلى وجود الرسالة السماوية الصحيحة ووصولها وانتقالها بشكل متسلسل وبدون انقطاع من جيل إلى جيل إلى قيام الساعة، مع قيام الدليل الشرعي والمنطقي الصحيح الناهض عليها جملةً وتفصيلاً. وهذا يدخل ضمن قيام الحجة البالغة لله ﷻ على الناس، قول الله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلهِ الْحُجةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين﴾[٢].

ويعتبر وجود الجماعة الصالحة المؤمنة بالرسالة في الرسالات السماوية السابقة في الدورة الرسالية أو المدى الزمني المقرر لها ضمانة؛ لأن الأنبياء الكرام اللاحقون عليهم السلام يتكلفون بتصحيح ما

١. الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي، جزء ٢، صفحة ٤٤٢

٢. الأنعام: ١٤٩

يحدث في الرسالة من تحريف أو تغيير أو تبديل، ويقومون بتربية الجماعة المؤمنة الصالحة، كل نبي في عهده، ثم يخلفه النبي الذي بعده، فيقوم بنفس المهمة حتى تنقضي الدورة أو الزمن المقرر للرسالة، فيأتي نبي برسالة جديدة وبعهد جديد، حتى جاء محمد بن عبدالله ﷺ بالرسالة الخاتمة.

وبالنسبة إلى الجماعة المؤمنة الصالحة في الرسالة المحمدية الخاتمة، فوجودها باقي ومستمر وبدون انقطاع ما بقي الدهر وبقيت حياة الإنسان على وجه الأرض، قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[١]، وقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[٢]، وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٣]، وغيرها من الآيات الشريفة المباركة.

ويكون هؤلاء دائماً وأبداً تابعون لأئمة الهدى في كل عصر ضرورةً وبحكم الدين والمنطق، قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ

---

١. الأنعام: ٨٩

٢. محمد: ٢٨

٣. المائدة: ٥٤

أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾[١] أي: يوم القيامة، نحضر كل قوم بإمامهم الذي يأمنون به ويتبعونه ويقتدون به في حياتهم، سواء أكان إمام حق وهدى أو إمام باطل وضلال. فيفترقون حينئذٍ إلى فريقين، المؤمنون الصالحون المهتدون أصحاب البصائر، الذين يعرفون أئمة الحق والهدى ويتبعونهم، وهؤلاء يؤتون كتاب أعمالهم بأيمانهم، وذلك لصلاح عقيدتهم وأعمالهم، فيقرؤون كتابهم فرحين مبشرين بما فيه، ولا ينقص من ثواب أعمالهم شيئاً، بل يُوفون أجورهم تامة كاملة ويزيدهم الله تبارك وتعالى من فضله، والضالون فاقدوا البصيرة عميان القلوب الذين يبتغون أئمة الباطل والضلال، ولا يعرفون أئمة الحق ولا يسلكون سبيلهم في الحياة، فهؤلاء الضالون لا يقدرون على قراءة كتاب أعمالهم؛ لما يغشاهم من شدة الغم والحزن، ويكونون عمياناً عن سلوك طريق الخير والنجاة، ولا يجدون السعادة والفلاح، ولا يهتدون إلى المغفرة والرحمة وجنة النعيم، وقول الله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾[٢].

وعليه: فإن هذه الجماعة المؤمنة الصالحة إذا تعرضت إلى خطر وجودي يهدد وجودها، بما يمثل تهديداً لوجود الرسالة واستمرارها، فإن الله ﷻ يتدخل لإنقاذها، فإن عجزت الأسباب الطبيعية عن ذلك، فإن الله ﷻ يتدخل بالأسباب الغيبية.

١. الإسراء: ٧١-٧٢

٢. النساء: ٤١-٤٢

كما حدث للمسلمين في معركة بدر الكبرى في العام الهجري الثاني، حيث يقول الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً**»[1]، فنصر الله ﷻ المسلمين بالأسباب الغيبية على عدوهم رغم قلة المسلمين الشديدة، وكثرة عدوهم الكبيرة بالنسبة إليهم، **قول الله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾[2]، **وقول الله تعالى**: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾[3].

وكان نصر المسلمين على الكافرين في معركة بدر الكبرى في العام الهجري الثاني، ضرورة وحتمية تاريخية وفق سُنة الاستبدال ونحوها من السنن التاريخية؛ لأن عليها يتوقف بقاء الرسالة واستمرارها ووصولها إلى الناس الذين يطلبونها.

وهذا عينه ينطبق على نجاة بني إسرائيل حين سعى فرعون الطاغية

١. تاريخ الطبري، جزء ٢، صفحة ١٤٩

٢. آل عمران: ١٢٣-١٢٧

٣. الأنفال: ١٧-١٨

وحزبه المجرمون للقضاء عليهم، وعجزت الأسباب الطبيعية عن إنقاذهم بسبب حصارهم بين البحر المغرق والجيش المهلك، وكان ميزان القوى المادية والبشرية يميل بشدة إلى صالح فرعون وحزبه، فتدخل الله ﷻ بالأسباب الغيبية «المعجزة القاهرة» لنجاتهم وهلاك عدوهم فرعون الطاغية وحزبه وجنوده أجمعين.

وكما امتن الله تبارك وتعالى على المسلمين بنصرهم على عدوهم في معركة بدر الكبرى، امتن الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل بنجاتهم وهلاك عدوهم، وقول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسرائيل اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾[1].

وبناءً على ما سبق: ينبغي على المؤمنين الأعزاء حفظهم الله تعالى، أن يستوعبوا هذا الدرس الرباني البليغ ويتذكرونه في أوقات الشدة والمحن خاصة، ويعلموا بأنهم بعين الله سبحانه وتعالى وتحت سلطانه ورعايته وفي تدبيره، وأنه قادر على تخليصهم من عدوهم ونصرهم عليه والظفر به، ولا يمكن أن يصيبهم سوء إلا بإذنه، وإن النصر النهائي حتماً لأصحاب الحق مهما طال الزمن وتعسرت الظروف واشتدت الأوضاع وملك الأعداء، قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ

١. البقرة: ٤٧-٥٠

لَهُ عَاقِبَةُ الدارِ إِنهُ لَا يُفْلِحُ الظالِمُونَ﴾[١]، أي: قل يا محمد للمشركين والظالمين أجمعين في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، اعملوا على الحالة التي يستقر عليها أمركم ورضيتموها لأنفسكم من الكفر والضلال والظلم والجور والطغيان والفساد في الأرض بغير حق، والصد عن سبيل الله ﷻ ودينه الحق، وعن الخير والفضيلة والصلاح، وأقيموا على عداوتكم لنا، وكيدوا وامكروا ما وسعكم المكر والكيد، وارسموا الاستراتيجيات وضعوا الخطط والبرامج للكيد بنا، ووظفوا جميع إمكانياتكم المادية والبشرية والعلمية والتكنولوجية والتقنية، واعملوا بأقصى طاقتكم وجهدكم وأنتم في غاية قوتكم وتمكنكم من أمركم، بهدف القضاء علينا وعلى رسالتنا وقضيتنا العادلة والحيلولة دون وصولنا إلى مطالبنا وأهدافنا وغاياتنا في الحياة، فأنا ومن اتبعني من المؤمنين المجاهدين والمناضلين الشرفاء، غير مبالين بكم ولا مكترثين بقوتكم وجمعكم ومكركم ودهائكم، فإنا دائبون في القيام بواجباتنا بأمر الله سبحانه وتعالى، ومتبعون مرضاته في التبليغ بالرسالة والدين الحق وبيان عدالة القضية وشرعية المطالب وواقعيتها، والنصح والإرشاد إليكم و إقامة الحجة عليكم ومصابرتكم والثبات كما أمرنا رب العالمين أمام كيدكم ومكركم وحبائلكم ودسائسكم والعقبات والصعوبات التي تضعونها في طريقنا، والمشاكل والنكبات التي توجدونها في أوضاعنا، غير منصرفين عن تكليفنا وعما أمرنا الله سبحانه وتعالى به، ولا متراجعين عما نحن فيه من الهدى وما نحن عليه من الحق والعدل والخير والفضيلة والصلاح والإصلاح والجهاد في سبيل الله ﷻ، وسوف تعلمون إن كان عاجلاً أو آجلاً من منا على الحق ومن على الباطل،

---

١. الأنعام: ١٣٥

ومن الرابح في عمله وسعيه ومن الخاسر الفاشل، ولمن تكون العاقبة الحسنة الممدوحة في الدارين الدنيا والآخرة ولمن تكون العاقبة السيئة المذمومة، ويقيني أنا ومن اتبعني من المؤمنين المجاهدين والمناضلين الشرفاء نحن الناجحون الفائزون؛ لأننا على الهدى والحق والعدل، وأنتم الخاسرون الفاشلون؛ لأنكم على الضلال والباطل والظلم، ولا يمكن أن يفلح من كان على الضلال والباطل والظلم ويصل إلى مقصوده و إن طال بهم الأمد.

بل يعصف بهم الضلال والباطل والظلم حتى يقضوا عليهم، ويكون طول بقائهم لسوء حظهم؛ ليستكملوا الشقاء والخزي والعار، ويستوجبوا العذاب العظيم، أي: إن عمل المؤمنين وتضحياتهم محفوظة ومباركة عند الله تبارك وتعالى، وسيجزيهم عليها الجزاء الأوفى، فعليهم أن يتحلوا بالإيمان والتقوى والوعي والإخلاص والصبر والتحمل والصمود والثبات، والاستمرار في المقاومة والجهاد، وأداء ما عليهم من التكليف، ولا يضعفوا أمام عدوهم مهما كانت قوته وقساوته وبطشه، ولا يخضعوا لإرادته الاستكبارية الشيطانية، قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[1]، وهذا من حقائق الإيمان الصادق ومقتضيات كماله كما هو واضح.

١. آل عمران: ١٣٩-١٤٢

توبة فرعون في الوقت الضائع

﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

لما أصبح فرعون كالقشة التافهة تتقاذفه الأمواج الهائجة وتلهو به، وأشرف المجرم على الغرق، وأيقن من الموت والهلاك مع جميع جنوده وحزبه المجرمين، قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]، أي: آمنت بالله سبحانه وتعالى الذي هو الإله الحق الذي لا إله غيره في الوجود، وهو الإله الذي دعا موسى الكليم عليه السلام إلى توحيده ووصفه برب العالمين، وآمن به بنو إسرائيل ووحدوه ونفوا الألوهية والربوبية عن كل أحد سواه، وإني راجع وتائب عن دعوى الألوهية والربوبية، وعن الاستعلاء على الناس والاستكبار على الحق وأهله، وأنا من المسلمين المستسلمين المنقادين إلى أمر الله سبحانه وتعالى ونهيه، والمتبعين لدينه الحق الذي بشر به موسى الكليم عليه السلام، وموافق لكل ما جاء من عنده وخاضع لإرادته ومنقاد لها، ومنفذ لكل ما طلبه ويطلبه مني موسى الكليم عليه السلام، مثل: إطلاق سراح بني إسرائيل من العبودية، ورفع اليد عن رقابهم، والمساواة بينهم وبين الأقباط في الحقوق والواجبات وأمام القضاء على أساس المواطنة، والسماح لهم بالإقامة والسفر والهجرة إلى الأرض المقدسة فلسطين متى شاؤوا ذلك، ونحو ذلك من المطالب الواقعية المشروعة بحسب العقل والمنطق والمبادئ والقيم وحقوق الإنسان، التي يطالب بها بنو إسرائيل.

---

١. يونس: ٩٠

أي قال فرعون: إني مؤمن بعقلي وقلبي ومطيع بجميع جوارحي في جميع سلوكي وتصرفاتي وعلاقاتي ومواقفي وراجع عن العناد والاستعلاء والإستكبار والإصرار على الكفر والضلال والمعصية، حيث زالت عن قلبه حجب الغرور بالسلطة والقوة والثروة التي أصبح مجرداً منها بالكامل وأصبح لا حول له ولا قوة، وسطع نور الفطرة وضيائها في قلبه، بعد أن رأى بأن جميع تنبؤات موسى الكليم عليه السلام قد تحققت، وأيقن صدقه وصحة رسالته، وشاهد قدرة رب العالمين وقوته، وأدرك عجزه وضعفه أمام عظيم قدرته وجبروته، وعدم قدرته على المواجهة، وأدراك بيقين الشهود أن لا شيء ينفعه، لا الملك والسلطة، ولا الجنود والحراس، ولا الأبهة والثروة، ولا شيء من نحو ذلك، فلا أحد ولا شيء قادر على اِنجائه وتلخيصه من الهلاك والورطة الوجودية التي وقع فيها والمأزق الصعب الذي هو فيه، إلا رب العالمين الذي أنجى بني إسرائيل.

فقد اضطر إلى إظهار الإيمان على أمل أن ينجو من الغرق المحتوم كما نجا بنو إسرائيل، إذ يكون حاله مثل حالهم فينجو كما نجوا، بمعنى أن لسان حاله كان يقول: إني آمنت كإيمان بني إسرائيل، فاكتب لي النجاة والخلاص كما كتبتهما لهم.

وقد جاء إيمانه مجملاً لضيق الوقت عن التفصيل، ولعدم معرفته بالتفاصيل، فقد كان يسمع من موسى الكليم عليه السلام دعوته؛ لأن يكون مسلماً، فنطق بما كان يسمعه ولم يعرف تفاصيله ولم يهتدِ إليه، وجعل نفسه في زمرة الذين يحق لهم أو ينطبق عليهم الوصف، وألزم نفسه ما التزموه من حيث المبدأ.

وقيل: إن فرعون رغم ضيق الوقت وحراجة الموقف، فقد أظهر إيمانه وكرره ثلاث مرات متتالية، في قوله: ﴿آمَنتُ﴾[1]، وقوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[3]، وقد أراد بذلك إزالة الإصرار على الشرك والضلال والمعصية والاستكبار على الحق وأهله، وتأكيد الحرص منه على أن يقبل منه، إلا أنه لم يُقبل منه إيمانه وتوبته في ذلك الوقت وتلك الحال؛ لأسباب عديدة، منها:

أ. أن إيمانه كان في الوقت الضائع عند نزول العذاب بعد أن عاين ملك الموت وآيس من النجاة وأيقن من الموت والهلاك، حيث انتهى وقت الاختبار والتكليف ودخل وقت الإلجاء والجزاء، حيث لا يقبل إيمان ولا تقبل توبة؛ لأنهما لا يكونان من اختيار وقناعة حقيقية وإخلاص، وإنما عن إلجاء وخوف من هول ما يشاهده، مما يدل على الاستغراق في عالم المادة وتصلبه في الكفر والضلال والمعصية، قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[4]، وقول الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي

---

١. يونس: ٩٠

٢. نفس المصدر

٣. نفس المصدر

٤. غافر: ٨٤-٨٥

إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنا مُنْتَظِرُونَ﴾[١]، وقول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٢]، وغير ذلك من الآيات البينات الشريفة المباركة.

وفي الحديث الشريف عن إبراهيم بن محمد الهمداني، قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: لأي علة أغرق الله عزّ وجلّ فرعون وقد آمن به وأقرّ بتوحيده؟! قال: «**لأنه آمن عند رؤية البأس، والإيمان عند رؤية البأس غير مقبول، وذلك حكم الله تعالى في السلف والخلف**»[٣].

وهذا الإيمان الاضطراري الزائف الذي لا حقيقة تعبدية له ولا إخلاص فيه، يلجأ له كل مجرم معربد في مثل هذه الحالة، وهو إيمان لا قيمة له، إذ لا حقيقة تعبدية له، ولا صدق ولا إخلاص فيه، ولا يغير شيئاً في الحالة الخبيثة لهؤلاء المجرمين السافلين، حتى أن الله تعالى جلّ جلاله قال عنهم لفرط خبثهم وسوء طبعهم وانحرافهم عن الفطرة وتمكن المعصية والجريمة منهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[٤]، أي: ولو تراهم حين يوقفون على نار جهنم ويحبسون بقربها معاينين

١. الأنعام: ١٨٥

٢. النساء: ١٨

٣. عيون أخبار الرضا، جزء ٢، صفحة ٧٨، حديث ٧

٤. الأنعام: ٢٧-٢٨

لها ولما فيها من العذاب في يوم القيامة؛ لرأيت أمراً شنيعاً مهولاً ومذهلاً وغريباً في العقل والمنطق وحالاً فظيعاً؛ لرأيتهم يقولون إقراراً على أنفسهم بالفسوق ومخالفة الحق بدون حجة أو عذر: يا ليتنا نرد إلى عالم الدنيا والتكليف، فلا نكذب بآيات ربنا وبيناته، بل نصدق بها ونكون من المؤمنين.

وفي الحقيقة أنهم أظهروا - حين رأوا العذاب وأيقنوا بالهلاك وزالت الدنيا عنهم وذهبت جميع المصالح والمقاصد الباطلة - ما كانوا يخفونه من قناعة في داخل أنفسهم بصحة الدين الحق وقبح عقائدهم الباطلة وأعمالهم السيئة، وأخفوه وقالوا وعملوا بخلافه لخبث أنفسهم وسوء طبعهم وانحرافهم عن الفطرة والمنطق السليم، ولاستغراقهم في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية والمقاصد الفاسدة وما رسم في نفوسهم من الملكات الرذيلة، وأن أنفسهم وحالتهم الروحية لم تتغير ولم تتبدل، بل هي باقية على ما كانت عليه، وليس لديهم عزم حقيقي صادق على الإسلام والإيمان، بل هي حالة سطحية غابرة يتمنون بها الخلاص من العذاب ولا ثبات لها ولا استقرار.

ولو فرضنا أنهم أُعطوا ما تمنوه، وأُرجعوا إلى عالم الدنيا مرة أخرى كما طلبوا، لعادوا إلى فعل ما نهوا عنه من الكفر والضلال والمعصية؛ وذلك لعدم استعدادهم الروحي لقبول الحق والإيمان عن اختيار، لما بين خبث أنفسهم وبين الإيمان من عدم التجانس،

فهم ليسوا صادقين فيما أظهروه من الإيمان، بل هم كاذبون في وعدهم بأن يكونوا مؤمنين، وهذه شهادة ربانية بحق كل من يعرف الحق ويموت على مخالفته، بأنه خبيث ولا يستحق غير العذاب والشقاء الأبدي الخالد في نار جهنم وبئس المصير والورد المورود.

وكانت العاقبة السيئة المذمومة التي أحاطت بفرعون الطاغية وحزبه وجنوده المجرمين، من تجليات الدعوة الصادقة لولي الله الناصح الأمين موسى الكليم عليه السلام بقوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[1].

وقيل: إن فرعون قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2]، ولم يقل: «آمنت بالله رب العالمين»؛ لأنه بقي فيه عرق أو بقية من دعوى الألوهية.

ب. أنه ذكر تلك الكلمات الشريفة المباركة؛ ليتوسل بها إلى النجاة ويتخلص من البلية الحاضرة والمحنة الناجزة والورطة الشديدة والمأزق العظيم الذي هو فيه ولا حول ولا قوة إلا بإظهار الإيمان، ولم يكن مقصوده منها حقيقة وواقعاً الإقرار بالوحدانية والاعتراف بعزة الربوبية لرب العالمين وذلة العبودية، فلم يكن ذكر تلك الكلمات الشريفة المباركة مقروناً بالصدق والإخلاص.

---

١. يونس: ٨٨

٢. يونس: ٩٠

يقول الشيخ محمد جواد مغنية: «**وهذا هو شأن الخسيس اللئيم، يتعاظم عند النعماء، ويتصاغر عند البأساء**»[1]، وذلك لما يرتسم في نفسه الخبيثة من الملكات الرذيلة، كما هو حال الفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين بعد أن تثور عليهم الشعوب ويتمكنوا منهم.

وعليه: ينبغي على المؤمنين الأعزاء والمناضلين الشرفاء حفظهم الله تعالى، أن لا يثقوا بما يظهره المتقلبون والنفعيون الأنانيون والانتهازيون السيئون الفاسدون من حسن النوايا في أوقات الاضطرار والضيق، ويجب أن يمتحنوا حسن نواياهم في أوقات الاختيار والسعة، وعدم الاكتفاء بما يظهره الأشخاص من القوة والثبات في أوقات السعة والرخاء، بل يجب امتحان ثبات الأشخاص وقوتهم في أوقات الضيق والشدة، وعدم تولية أي شخص المسؤولية والوثوق به قبل امتحانه؛ لكي لا يخسروا مكاسبهم وتضيع مطالبهم على أيدي أشخاص وثقوا بهم ولم يعرفوهم على حقيقتهم، فكثيراً ما يظهر الانتهازيون والمتسلقون القوة والثبات كذباً أوقات السعة والرخاء، ويزايدوا على المناضلين الحقيقيين الشرفاء، ويسلقونهم بألسنة حداد حتى إذا جاءت المحنة والشدة وظهرت الأخطار ولوا على أدبارهم منهزمين فارين بجلودهم من ساحة المواجهة يواجهون قدرهم ومصيرهم.

---

١. التفسير المبين، محمد جواد مغنية، صفحة ٢٨٠

ثم إذا انقضت الشدة وذهبت المحنة وعاد الرخاء والسعة من جديد عادوا إلى تشددهم الكاذب، ومزايداتهم على المناضلين المخلصين الشرفاء ونفاقهم الخبيث، ومن المؤسف جداً أن البعض ينخدع بهم ويصدقهم وينصرف عن الشرفاء المخلصين إلى كذبهم ونفاقهم، قول الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلا قَلِيلاً ۝١٨ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾[1].

فالواجب هو اختبار أحوال المتقلبين والانتهازيين وعدم الوثوق والتصديق لما يظهرونه من حسن نوايا وصفات طيبة في أوقات السعة والرخاء، وعدم تولية أحد من الناس من المسؤوليات والمناصب العامة قبل اختبار صدقهم وصفاتهم، وذلك من أجل المحافظة على المكاسب وعدم التفريط في التضحيات، ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للخديعة والوقيعة والضلال، ويعرض المكاسب والتضحيات للضياع وهو من السفاهة وبعيد كل البعد عن الحكمة والرشد، وأقبح منه تولية إنسان المسؤولية والوثوق به بعد أن ثبت بالتجربة فشله وعدم كفاءته؛ مجاملة له وخضوعاً للتقاليد أو لعناوين باطلة ما أنزل الله تعالى بها من سلطان.

---

١. الأحزاب: ١٨-١٩

ج. أن ذلك الإقرار من فرعون الطاغية كان مبنياً على محض التقليد الأعمى وليس المعرفة واليقين، ولهذا قال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾[1]، ولم يقل: «آمنت بالله» ونحوه، فكأنه قال: أنه لا يعرف الله أو الإله الحق، ولكنه سمع من بني إسرائيل أن للعالم إله هو رب العالمين، وأنه يقول بقولهم ويلزم نفسه بما التزموه.

إلا أن هذا الرأي لا ينسجم مع الحال التي أقرنها فرعون بالإيمان بعد المعاينة ورؤية الحقائق كما هي عليه، ولم يقبل منه؛ لأنه إيمان إلجاء وليس إيمان اختيار.

والآية الشريفة المباركة، قوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إسرائيل الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إلا الذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسرائيل وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2] تتضمن مع إيجازها مجموعة حقائق رئيسية بالإضافة إلى ما سبق، منها:

أ. أن فرعون وجنوده قد حاولوا اللحوق ببني إسرائيل، وبذلوا في سبيل ذلك أقصى غاية الجهد والطاعة والحرص، غير أنهم فشلوا بفضل الله تبارك وتعالى وغلبة إرادته ومشيئته العليا التي لا تقهر ولا تغلب، وفي ذلك فضل وكرامة لبني إسرائيل، ودرس وعبرة لكل فرعون متجبر وحاكم ظالم ومستبد.

---

١. يونس: ٩٠

٢. نفس المصدر

ب. أن فرعون رغم تصلبه في الكفر والضلال وبلوغه الغاية القصوى في العناد والاستكبار، إلا أنه اضطر إلى إظهار الإيمان والإسلام، بعد أن قهرته أدلة الإيمان وشاهد الحقائق كما هي عليه، إلا أنه لم يقبل منه؛ لأنه كان في الوقت الضائع، وكان إيمان إلجاء لا إيمان اختيار، وهذه فضيلة ومنقبة للإيمان والتوحيد، ودليل على غلبة الحق على الباطل في نهاية المطاف.

ج. أن فرعون رغم حنقه وغضبه الشديد على بني إسرائيل، ورغم استضعافه و إذلاله لهم لعقود كثيرة من الزمن، إلا أنه اضطر إلى تصويبهم فيما هُدوا إليه من الدين، واعترف بفضلهم وكرامتهم وعدالة قضيتهم وشرعية مطالبهم الدينية والسياسية والحقوقية، وكانت غايته في نهاية أمره متابعتهم والاقتداء بهم والسير على نهجهم وخطاهم.

وقد انتهى الكثير من الفراعنة في التاريخ القديم والمعاصر إلى مثل هذه النتيجة حين ثارت عليهم الشعوب وألحقتهم بأسلافهم، ولكن في الأوقات الضائعة، وسوف يضطر الكثير من الفراعنة إلى نفس الأمر ويظهروا نفس النتيجة، ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[1]، وفي ذلك عبرة وموعظة لمن يقبل العبرة والموعظة والنصيحة.

---

١. الأحزاب: ٦٢

فوائد وعِبَر

١. إن فرعون الطاغية المجرم كان يعلم من نفسه علماً وجدانياً يقينياً بأنه بشر وليس بإله أو ابن إله، ويعلم أن الناس يعلمون ذلك، ولكنه وجد حوله أناساً جهلة فاقدين للوعي والإرادة والكرامة ولا يقدرون الإنسانية في أنفسهم وفي غيرهم من البشر، فرض عليهم أكذوبة أنه إله ابن آلهة، واستعبدهم لنفسه بغير حق، وسخرهم لنزواته وأغراضه الخبيثة وأهوائه الشيطانية وغرائزه الحيوانية الهابطة، وقبلوا منه وهم يعلمون ببطلان ما دعاهم إليه.

وهذا ما يفعله أمثاله من الفراعنة المجرمين والحكام المستبدين الخونة في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا، حين يجدون حولهم أُناساً بلهاء جهلاء سفهاء فاقدين للوعي والإرادة والكرامة، يقبلون باطلهم ويتابعونهم فيما يدعوهم إليه من الباطل والظلم والرذيلة بغير حجة أو برهان، ويخضعون لإرادتهم الاستكبارية الشيطانية على خلاف العقل والمنطق والفطرة والطبع السليم والمبادئ الإنسانية السامية والقيم العليا والكرامة والحقوق، ويقفون في صفوفهم ضد الأولياء الصالحين وقادة الإصلاح والمطالبين بالحرية والحقوق، ويساهمون معهم في قتلهم وأسرهم وتشريدهم والتنكيل بهم ومحاربتهم في أرزاقهم ومعايشهم والتضييق عليهم بشتى الوسائل والسبل وما هنالك من أصناف وفنون الظلم والعدوان والاستضعاف والإذلال والأفعال والتصرفات القبيحة التي

يرفضها العقل والدين، ويساهمون في تعزيز وفرض حكم الأمر الواقع المنحرف والمتخلف ويمنعون الإصلاح والتطوير والاستقلال والازدهار ونحو ذلك.

٢. ثم إن فرعون الطاغية وحزبه وجنوده المجرمين وقومه الفاسقين، قد وصلتهم الآيات البينات الواضحة، ورأوا المعجزات النيرات الباهرات القاهرات الدالة على صدق نبوة موسى الكليم عليه السلام ورسالته وعدالة قضيته وشريعة مطالبه الإصلاحية الدينية والسياسية والحقوقية، قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1]، ولكنهم تجاهلوها تماماً كأنها لم تكن بغياً بينهم وعدواناً واستكباراً على الحق وأهله وعناداً وإصراراً على الباطل والظلم والعدوان والرذيلة، وكان آخرها آية انفلاق البحر إلى فلقين كل فلق كالطود «الجبل» العظيم، فلم يعودوا إلى عقولهم ورشدهم، ولم يتعظوا ولم يتراجعوا عن كفرهم وضلالهم وغيهم وبغيهم وعدوانهم على الأبرياء والصالحين والمصلحين والمطالبين بالحقوق، وأصرُّوا على الاستمرار فيما كانوا عليه من الباطل والظلم والعدوان، والمضي قدماً في سعيهم لارتكاب جريمة التصفية الجسدية التامة لموسى الكليم عليه السلام وقومه المؤمنين من بني إسرائيل، وذلك تحت تأثير شهوة الملك والحكم والتسلط وغرور السلطة والقوة والثروة والجاه، ولفرط حالة الأنانية والعدوانية لديهم، وهذه هي الحالة المأساوية واللاإنسانية التي تطابقت عليها عقول وقلوب الطواغيت الضالين

---

١. القصص: ٥١

والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين والانتهازيين الموالين لهم من الكُتّاب والصحفيين وحملة الشهادات العليا ونحوهم، الذين تعمي شهوة السلطة والثروة والجاه والمناصب وغرور القوة والاستغراق في عالم الدنيا والمادة والمصالح والمقاصد الفاسدة بصيرتهم وقلوبهم، فلا يفقهون دليلاً بالغ ما بلغ من التمام والوضوح، ولا يرون حقيقة بالغ ما بلغت من الوضوح والنور والضياء ولو كانت كالشمس في رابعة النهار، ولا يسمعون موعظة بالغ ما بلغت من التأثير، ولا نصيحة بالغ ما بلغت من الصدق والصواب، ولا يرون منزلة ولا كرامة لإنسان بالغ ما بلغ من العلم والفضيلة والصلاح والعطاء، فهم لا يرون إلا أنفسهم ومصالحهم وحزبهم وقوتهم، ولا يرون شيئاً غير ذلك، ولا يقيمون وزناً لدين أو حقيقة أو منطق أو حجة أو برهان أو مبدأ أو قيمة أخلاقية أو نحو ذلك، وهم غافلون تماماً عن حقيقة أن كمالهم الإنساني وخيرهم وصلاحيتهم ومصلحتهم الحقيقية في دورة الحياة الكاملة، طولاً على مستوى التاريخ، وعرضاً على المستوى العام للمجتمع أو الأمة وسعادتهم الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، ليست في السلطة والثروة والمصالح الخاصة، وإنما في معرفة الحقيقة والتمسك بها والعمل بمقتضاها، وأن الدنيا زائلة فانية والآخرة باقية خالدة، وأن نعيم الدنيا ولذاتها مشوبة بالألم والعذاب ونعيم الآخرة ولذاتها صاخبة خالصة نقية من جميع الشوائب والنواقص والألم والمعكرات، وأن ملك الدنيا كلها

ولذاتها وما فيها حتى لو اجتمعت لشخص لا تساوي القليل من ملك الآخرة ولذاتها ونعيمها، ولكن من أين لهؤلاء السفهاء الحمقى السفلة المجرمين الوعي وإدراك هذه الحقائق الوجودية العظيمة رغم وضوحها غاية الوضوح، وهم غارقون تماماً في شرك الأهواء والوساوس الشيطانية ووحل ومستنقع الشهوات الحيوانية واللذات الحسية، وتعطيل عقولهم وضمائرهم كل التعطيل عن العمل. وعلى ما سبق، ينبغي أن نفهم مواقف الفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين من المعارضين لهم، وأن لا ننخدع بإعلامهم وتبريراتهم والموالين لهم، فلكل ساقط لاقط، ويجب أن نحكم عقولنا ونتعلم من التجارب التاريخية والآيات والبينات القرآنية ونحوها.

٣. أن المجرمين السفهاء السفلة من الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين والانتهازيين الأنانيين والموالين لهم من النخبة، يعرفون الحق ولا يجهلونه ولكنهم يتجاهلونه عمداً عن قصد وعلم، وذلك لخبث أنفسهم وسوء طباعهم وانحرافهم عن الفطرة وضعف منطقهم ولمقاصدهم الفاسدة وملكات أنفسهم الرذيلة وما غلب عليهم من السفاهة والنحاسة والخسران والشقاء، وما كان الله ﷻ ليعذبهم ويهلكهم وينتهي بهم إلى العاقبة السيئة المذمومة في الدارين الدنيا الآخرة، لولا عنادهم واستكبارهم على الحق وأهله وإصرارهم على الكفر والضلال والمعصية عن علم وبعد قيام الحجة عليهم، وما يشكلونه من خطر حقيقي على المجتمع وعلى المسيرة الإنسانية

التاريخية التكاملية.

وأن هؤلاء المجرمين الخونة يودون لو أنهم كانوا مسلمين ومطيعين لله ﷻ، قول الله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدّ الذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِين﴾[١]، وأنهم يضطرون إلى إظهار هذه الحقيقة، ويعترفون بفسقهم وضلالهم في يوم القيامة، ولكن بسبب ضعف نفوسهم و إرادتهم وتمكن الأمراض الروحية والأهواء والشهوات منهم، فتعطل عقولهم عن العمل وتعمى قلوبهم تماماً عن رؤية الحقائق، فلا يؤمنوا في عالم الدنيا، وفي ذلك يتجلى جهل الإنسان وشقاؤه، وبعده عن العقل والمنطق والنظرة والطبع السليم، وتَنَكُرِهِ للكرامة وقيمة الإنسانية وفضيلتها، فقد ميز الله سبحانه وتعالى الإنسان بالعقل والاختبار وفرض عليه التكليف، وبذلك كانت كرامته وفضله على الخلائق، قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِوَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطيّبَاتِ وَفَضّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[٢]، فلا كرامة للإنسان حين يعمل على خلاف عقله وطبعه السليم، ويتبع أهواءه الشيطانية ويستغرق في ملذاته الحسية وشهواته الحيوانية، فكرامة الإنسان هي بمقدار ما يخضع لعقله ويوافق طبعه الإنساني السليم، ويخالف أهواءه الشيطانية ورغباته وشهواته الحيوانية فلا ينقاد لها، ويفقد من كرامته و إنسانيته بمقدار ما يخالف عقله وفطرته وطبعه السليم ويتبع أهواءه وملذاته وشهواته وينقاد لها.

١. الحجر: ٢

٢. الإسراء: ٧٠

وعليه: يجب على الإنسان المؤمن أن يكون قوياً في دينه، ولا ينخدع بأحوال وشهوات المبطلين، ولا يضعف أمام إغراءات وترهيب الظالمين والمستكبرين.

خطاب رب العالمين إلى فرعون رداً على توبته الباطلة

﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾

لما أشرف فرعون على الغرق وتمكن منه وأيقن بالهلاك مع الهالكين من جنده وآيس من النجاة، أظهر الإسلام والإيمان بغية النجاة حاله في ذلك حال بني إسرائيل، أي: أظهر إيماناً كإيمانهم؛ لينجو من الغرق كما نجوا، لكن ذلك الإيمان الزائف لم يقبل منه؛ لأنه كان عبر إلجاء وليس عن اختبار، ولا يدل على الصدق في الاعتقاد والإخلاص في النية، فقيل له من رب العزة والجلال: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1]، وفي الرواية: إن القائل جبرائيل عليه السلام، أي: أتؤمن الآن في وقت الإلجاء والاضطرار بعد أن أدركك الغرق والعذاب ويئست من نفسك وعاينت ملك الموت، فقد فات الأوان، فلن ينفعك الآن إيمانك ولن تقبل توبتك؛ لأنهما جاءا حال الإلجاء بعد الاختيار، ولا يقبل إيمان ولا توبة حين غشيان العذاب ومجيء الموت، وفي ذلك تأييساً له من النجاة في الدارين الدنيا والآخرة،

---

١. يونس: ٩١

تلك النجاة التي كان يأملها ويطمح إليها حين قال: ﴿آمَنت﴾[١]، مقراً بأن ما كان أصابه كان بسبب غضب الله ﷻ وسخطه عليه، راجياً من اعترافه بالوحدانية أن يعفو الله تبارك وتعالى عنه وينجيه من الغرق والهلاك كما أنجى بني إسرائيل بإيمانهم، فلم يقبل منه إيمانه ولم تقبل منه توبته ولم تكتب له النجاة؛ لأنه أظهر الإيمان والتوبة في الوقت الضائع الذي لا يقبل فيه الإيمان ولا تقبل فيه التوبة.

والمعنى: لا إيمان يقبل منك الآن، ولا نجاة لك من الهلاك والعذاب والخزي والعار في الدارين الدنيا والآخرة، وقد عصيت بترك الإيمان والتوبة قبل هذا الوقت طول عمرك، حيث كان الاختيار والتكليف قائماً وباب التوبة والعودة إلى الحق مفتوحاً، ولكنك عاندت واستكبرت وبغيت وطغيت وأفنيت عمرك كله في الكفر والضلال والمعصية، وأدعيت ما ليس لك بحق من الألوهية والربوبية والمالكية، وزعمت أنك الرب الأعلى للناس المدبر لهم وبيدك مقادير أمورهم وعليك رزقهم ونحو ذلك من الأكاذيب، وأوغلت في الظلم والطغيان ونشر الفساد في الأرض والإضلال وصرف الناس عن الدين الحق، ولم تترك جريمة أو جناية ضد الإنسانية - مثل: قتل الأبرياء والتنكيل بالصالحين والمصلحين، والمطالبين بالحقوق المشروعة، واستضعاف الخلائق واستعبادهم وإذلالهم - إلا ارتكبتها، ولم تترك حرية لإنسان ولا مقدس ولا مبدأ ولا قيمة ولا حق إلا انتهكته، فلا ينفعك إيمانك وتوبتك في هذا الوقت حيث الإلجاء وانتهاء زمان الاختيار والتكليف وحضور زمان الجزاء، الثواب والعقاب على الأعمال، فذق جزاء كفرك وضلالك وعملك السيء.

---

١. يونس: ٩٠

وأخبره رب العزة والجلال بأنه سوف يغرقه في البحر ويهلكه مع جميع جنده، وأنه سينجي بدنه كاملاً سوياً لم ينقص منه شيء ولم يتغير، ولكن جثة هامدة بلا روح، قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾[١]، إذ يلقي بك على مرتفع من الأرض على الساحل؛ ليشاهدك كل من كان يعظم شأنك بغير حق، وأما روحك الخبيثة التي تمثل حقيقتك وراء بدنك فلا نجاة لها، فسوف نقبضها ومصيرها إلى العذاب المؤلم الشديد في نار البرزخ، ثم في نار جهنم في الآخرة.

وقيل: إن فرعون حينما قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٢] في وقت الإلجاء والاضطرار، كان بحكم الميت، فصارت روحه إلى العذاب وبدنه إلى النجاة.

وقيل: لم يعدم فرعون فائدة من إظهار إيمانه ذلك الباهت في تلك اللحظة اليائسة في ساعة الاحتضار، فإيمانه في ذلك الوقت والحال، كان كالجسد بلا روح، وعليه: قدر الله ﷻ بحكمته له الخروج ببدنه من غمرات ماء البحر، فلم يبق في الماء أكلة للأسماك والقروش والحيتان، وتلك حالة أقل خزياً من حالات سائر جيشه بما يظهر نفع ما حصل في نفسه من الإيمان في آخر أحواله. إلا أن هذا القول لا دليل عليه، ويقتضي أن يفعل الله ﷻ مثل ذلك بكل من قال مثل قوله من جنده، وما حصل من آية فلق البحر أولاً، ثم اِلتطامه ثانياً، يقتضي أن يقول الكثير من جنود

---

١. يونس: ٩٢

٢. يونس: ٩٠

فرعون مثل قوله؛ لأن هذا ما يحكم به طبيعة الحال وإصرارهم على الكفر والضلال والمعصية ليس بأكثر منه.

وقول الله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[1] يدل على أن نجاته ببدنه مقصور في الحكمة الإلهية والتدبير الرباني، فقد أراد الله ﷻ أن تكون نجاة بدن فرعون آية من آيات الله سبحانه وتعالى لكل من سيأتي بعده من الأمم والأقوام والفراعنة والحكام المستبدين الظلمة وكل من تحدثه نفسه بالسير على طريق الباطل والظلم والعدوان والفساد، تدل على تفاهته وعبوديته وبطلان كل ما كان يدعيه من الألوهية والربوبية والمالكية بغير حق، ويعلموا بأن الله ﷷ على كل شيء قدير، وهو أعظم من أن يغلب أو يقهر من أحد أو من شيء.

ويكون موعظة يعتبرون منها إذا سمعوا بها ويتفكرون فيها، فتوقظهم من غفلتهم وتعيدهم إلى رشدهم، فيحذروا من التكبر على الحق وأهله والتجبر على العباد والتمرد على رب العزة والجلال رب العالمين سبحانه وتعالى، ولا يجترئون على ما اجترأ عليه فرعون من أعمال قبيحة وجرائم شنيعة، والسير على طريقته وسنته الباطلة في الحياة، وذلك بعد أن يشاهدوا بدنه جثة بلا روح مرمياً في العراء، ويتيقنوا من هلاكه مع جميع جنوده وأنصاره الذين كانوا معه يلاحقون موسى الكليم عليه السلام وبني إسرائيل؛ لقتلهم جميعاً والقضاء عليهم وإنهائهم من الوجود والخلاص من شرهم وما يسببونه لهم من أوجاع وآلام نفسية شديدة، أو يعلموا بذلك فيكون

١. يونس: ٩٢-

لهم عبرة حيث يعلمون العاقبة السيئة المذمومة التي تقشعر منها الأبدان وترجف منها القلوب للمجرمين من أمثاله، فلا يجترئون على مبارزة رب العالمين ومعصيته وتكذيب رسله وتعطيل أحكامه وسننه، والتجبر على الناس واستضعافهم واضطهادهم و إذلالهم وظلمهم والاعتداء على حقوقهم وحرماتهم ومقدساتهم.

ويعلمون عن يقين كذب كل مدعي للألوهية والربوبية والمالكية من الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين والمترفين المستغلين، وكل من يزعم أنه الرب الأعلى للناس بيده التشريع والتدبير والتقدير لأمورهم ونحو ذلك، ويعلمون عن يقين وبالدليل الحسي والمشاهدة الوجدانية، أن أولئك بشر كسائر الناس عبيد مقهورين ومغلوب على أمرهم، لهم ما لسائر الناس من الحقوق وعليهم ما على سائر الناس من الواجبات، ولا يتميزون عليهم من حيث الأصل والمبدأ بشيء، ولا يحق لهم أن يستعبدوا الناس أو يفرضوا عليهم إرادتهم بغير رضاهم وعلى خلاف مصلحتهم ويخضعوهم لأنفسهم ولحكم الأمر الواقع بالقوة ووسائل العنف والإرهاب، وتجب مقاومتهم والثورة عليهم بحكم العقل والمنطق والفطرة والطبع الإنساني السليم.

ويعلمون أن الله ﷻ هو القاهر فوق عباده وأنه الغالب على أمره وهو على كل شيء قدير، وأن لا قوة في الوجود كله تستطيع أن تقهره أو تغير شيئاً قليلاً أو كثيراً من مشيئته. فالجيوش الجرارة والأساطيل الحربية الضخمة والطائرات القاذفة والصواريخ العابرة للقارات والقنابل الذرية

والهيدروجينية وغيرها والأموال الطائلة والتحالفات الدولية والإقليمية ونحوها، كلها لا يمكن أن تغير شيئاً ولو بمقدار ذرة أو أقل أو أكثر من مشيئة الله ﷻ النافذة القاهرة، وفي ذلك بشرى للمؤمنين المجاهدين والمناضلين الشرفاء والمستضعفين في الأرض، فلا ييأسوا من النجاة والخلاص من الطواغيت والفراعنة والمستكبرين والحكام المستبدين والظفر بهم والتمكن منهم والانتصار عليهم والحصول على كامل حقوقهم المشروعة في الحياة، بما في ذلك حقهم في الاستقلال والحرية وتقرير المصير واختيار نظام دولتهم وحكومتهم بأنفسهم وبالوسائل الديمقراطية والشرعية التي يرتضونها لأنفسهم ويتوافقون عليها بينهم.

روي أن موسى الكليم عليه السلام أخبر بني إسرائيل أن الله ﷻ قد أغرق فرعون فلم يصدقوه، فأمر الله ﷻ البحر فلفظ به على ساحل البحر حتى رأوه ميتاً[1]، وذلك لما دخل في نفوسهم من عظيم شأنه ومكانته حتى خُيّلَ إليهم أنه أجل شأناً من أن يغرق أو يهلك.

إذ عملت جميع وسائل الإعلام الفرعوني على تضليل الرأي العام وترسيخ أكذوبة أن فرعون إله وابن آلهة في العقل الجمعي الجماهيري في مصر، وأنه الرب الأعلى للناس الذي بيده تقدير أمور أرزاقهم ومعايشهم وآجالهم ونحو ذلك من الأكاذيب والأوهام والخيالات الباطلة التي لا أساس لها في العقل والمنطق السليم، حتى قبلوا به إلهاً وعبدوه وخضعوا لإرادته وأطاعوه طوعاً تحت تأثير الخداع والتضليل أو كرهاً تحت تأثير الخوف

١. تفسير القمي، جزء ١، صفحة ٣١٦

والترهيب المستمر، وتوهموا أنه عزيز كريم لا يصح عليه الغرق والهلاك.

وأيضاً لما دخل في قلوبهم من الخوف والرعب بسبب العقود المديدة التي مارس فيها ضدهم صنوف الإذلال والاضطهاد والعنف والتعذيب والتنكيل، فحصل لهم والحال هذه الشك في غرقه وهلاكه مع جنوده بسبب الوهن والضعف النفسي لديهم، فأمر الله ﷻ البحر أن يلقي ببدنه بلا روح على نجوة «المرتفع من الأرض» فشاهدوه وعرفوه.

وقيل: كان فرعون يرتدي درعاً من الذهب يعرف بها، وشوهد بدنه على النجوة وعليه ذلك الدرع فعرفوه.

وقيل: كان فرعون من قرنه إلى قدمه في الحديد، وقد لبسه على بدنه، وكان ضخم الجثة طويل القامة، فشاهده الناس وعرفوه بعلاماته، وفي ذلك آية إلهية أخرى؛ لأن من شأن وجود الحديد على كامل بدنه أن يغوص في أعماق الماء وأن يلقي به البحر على الساحل مخالف للطبيعة، فهو آية أو معجزة إلهية.

فأيقن الناس أنه بشر يجري عليه ما يجري على سائر الناس، وأنه ليس بإله وابن آلهة، وأنه ضعيف وعاجز وذليل وحقير، وأن نهايته المأساوية تدل على ذلك وعلى خسته وخيانته، فقد غرق مع الغارقين وهلك مع الهالكين، فثبت بذلك بطلان دعوى الألوهية والربوبية له ولأمثاله من الفراعنة والطواغيت المجرمين الدجالين، وثبتت خيانته للحقيقة والأمانة والمسؤولية والرعاية وخسة طبعه وحقارته وعجزه وضعفه وعدم

أهليته واستحقاقه للحكم وتولي المناصب والمسؤولية العامة.

ومن ناحية الآثار، توجد في الزمن المعاصر في المتحف المصري جثة من جثث الفراعنة عثر عليها في العام «١٩٠٠م» في الحفريات في الأقصر في قبر امنحتب الثاني، وهي جثة منفتاح بن رعمسيس الثاني المعروف عند اليونان باسم «سيزوستريس» من ملوك العائلة التاسعة عشر من الأسر الفرعونية في حدود العام «١٤٩١» قبل الميلاد، وقد ظهر أن القبر لم يكن مهيأً كما يجب لدفن ملك مثله، مما يفيد التوقع بأن موته كان فجأة ولم يكن منتظراً، فلم يهيأ له قبر خاص به.

وعليه: لم يستبعد بعض المفسرين أن تكون الجثة لفرعون موسى الكليم عليه السلام الذي غرق في البحر، وألقى البحر ببدنه على الساحل؛ اعتماداً على قول الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[١]، أي: إن الله عز وجل أخبر بأن جسم فرعون سيبقى محفوظاً ليراه الناس، ويكون عبرة لكل الأجيال القادمة في المستقبل، وليس للجيل المعاصر له فحسب، وقد توافقت الآيات القرآنية مع نتائج الآثار والبحوث التاريخية في المضمون وتحديد مسرح الأحداث وزمانها تقريباً.

ويحسن بنا الوقت هنا مع حقيقة إلهية تربوية عظيمة، وهي موافقة الجزاء الإلهي دائماً وأبداً لنوع العمل، قول الله تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾[٢]، أي: يجزون جزاءً موافقاً لأعمالهم.

---

١. يونس: ٩٢

٢. النبأ: ٢٦

وعليه: فإن الله ﷻ يجازي الفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة المستكبرين على الحق وأهله والمستعلين على العباد بعذاب الذل والهون في الدارين الدنيا والآخرة، قول الله تعالى: ﴿فَأَما عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأرض بِغَيْرِ الحق وَقَالُوا مَنْ أَشَد مِنا قُوةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَن اللهَ الذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدّ مِنْهُمْ قُوةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾[١]، وشبه الله تعالى جثامين قوم عاد بعد هلاكهم بجدوع النخل؛ استهزاءً بهم وتهكماً، قول الله تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَة﴾[٢]، وقال الله تعالى عن عذاب الهون في الآخرة: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[٣]، أي: أخذت صاعقة العذاب المهين قوم عاد وثمود، وهو العذاب الذي يفضحهم ويخزيهم في الدنيا جزاءً لهم على استكبارهم على الحق وأهله وعلى أعمالهم السيئة المذمومة، ويجزون في الآخرة بعذاب الذل والهون بشكل أخزى وأمرّ لذات السبب.

وعلى نفس الأساس ولذات السبب أغرق الله ﷻ الطاغية وأهلكه مع جميع جنوده، ثم رمى ببدنه جثة هامدة بلا روح إلى الساحل في العراء المكشوف، فشاهده الناس جميعاً جيفة ملقاة بالساحل، وأيقنوا بأنه بشر وليس بإله وابن آلهة، وأنه خسيس وذليل وخائن وضعيف وعاجز وحقير؛

---

١. فصلت: ١٥-١٦

٢. الحاقة: ٧

٣. الأحقاف: ٢٠

ليكون عبرة لكل فرعون ولكل حاكم مستبد ظالم مترف يأتي بعده، فلا يفعلوا مثل فعله ويسيروا على نهجه وسيرته وطريقته في الحياة والحكم؛ فيصيبهم عذاب الذل والهون والخزي والعار ويفتضح أمرهم في الدنيا ويكونون لعنة ومسبة التاريخ، ثم ينادى بهم في الآخرة من رب العزة والجلال لملائكة العذاب: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ. إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾[1]، أي: يقال له تهكماً واستهزاءً به وتقريعاً وتوبيخاً له: يا صاحب الجلالة أو العظمة أو الفخامة أو السمو أو السعادة أو المعالي أو الوجيه أو نحو ذلك من الألقاب الفارغة التي كنتم تتنافسون عليها وتتقاتلون وترتكبون من أجلها صنوف الذنوب والمعاصي والجرائم والجنايات وتبنونها على الخيانة والخسة والرذيلة، ويا صاحب القصور والمباني الفخمة المزخرفة والقلاع والحرس والخدم والمواكب والأبهة ونحوها، و يا من تتبعه الجيوش الجرارة والأجهزة الأمنية والمؤسسات المختلفة ونحو ذلك، ذق عذاب الذل والهون في نار جهنم خالداً فيها؛ لأنك كنت تزعم أنك العزيز الذي لا يوصل إليك ولا يمتنع عنك شيء تريده أو تقصده، والكريم الذي لا يمكن أن يهان أو يعذب أو تخالف وتعصى كلمته وإرادته، فاستكبرت على الحق وأهله، وارتكبت الجرائم الشنيعة والجنايات الفظيعة ضد الإنسانية، وتجرأت على الدين والقيم والمبادئ والحقوق والحرمات والمقدسات، ولم تعرف لأحد غيرك فضيلة أو كرامة، وقد تبين لك بواقع الحال أنك أنت الخسيس الحقير الذليل المجرم المهان في الحقيقة والذي تستحق

---

١. الدخان: ٤٧-٥٠

بأعمالك القبيحة السيئة المذمومة وجرائمك أشد العذاب وأخزاه في نار جهنم على يد زبانية ربانيون لا يرحمون المجرمين من أمثالك، فإن نجوت من حساب وعذاب الدنيا، فلن تنجوا من حساب وعذاب وخزي الآخرة.

ويقال لهؤلاء المجرمين الجناة في يوم القيامة يوم يعرضون على نار جهنم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِالحق وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُون﴾[1]، مما يدل أن على الجلالة والعظمة والفخامة والسمو الحقيقي، وهي ضد الحقارة والخساسة والدناءة، تكمن حقيقةً وواقعاً في الكمال المعرفي والروحي ومحاسن الأخلاق والخيرية وصالح الأعمال والنفع إلى الناس، وليس في الجهل والتعصب وخيانة الأمانة والاستغراق في الشهوات الحيوانية والملذات الحسية والأهواء الشيطانية والرذائل والظلم والاستبداد وارتكاب الجرائم والجنايات ضد الإنسانية ونحوها، والملك والسلطة والقوة والثروة والجاه والمناصب ونحوها، وسكن القصور والمباني الفخمة المزخرفة والقلاع والمواكب الضخمة والأبهة والاستعراضات وتبعية الجيوش والأجهزة الأمنية والمؤسسات ونحو ذلك، مما يؤكد عليه ويتمسك به الشواذ الذين ابتلاهم الله ﷻ بجنون العظمة.

ويتوهمون لأنفسهم المراتب العليا، وينسبون لأنفسهم الألقاب البراقة اللامعة بغير حق ولا حقيقة، وأن صاحب الجلالة والعظمة حقيقةً

---

١. الأحقاف: ٢٠

وواقعاً هو العظيم في صفاته وخصاله وأعماله، ولا يعمل الأعمال القبيحة والحقيرة، ولا يتصرف التصرفات الدنيئة، وما يتحلى به من يطلقون على أنفسهم ألقاب، مثل: صاحب الجلالة وصاحب العظمة وصاحب الفخامة وصاحب السمو وصاحب السعادة وصاحب المعالي ونحو ذلك من الرذائل والخصال المذمومة، مثل: الظلم والاستبداد والاستغراق في الشهوات والملذات الحسية والمصالح الأنانية الخاصة والأعمال السيئة والجرائم والجنايات، هي دليل على تفاهتهم وحقارتهم وخستهم ودناءتهم السيئة وبعدهم كل البعد عن صفة وحقيقة الجلالة والعظمة والسمو والفخامة والسعادة والمعالي ونحوها.

وهذه حقائق وجودية في غاية الوضوح والظهور والتجلي وقد قام عليها الدليل بالعقل والدين والمشاهدة عند ذوي البصائر، ومن شأنها أن توجب التأمل والتفكر والاعتبار، وتوقظ القلوب الساهية الغافلة من سهوها وغفلتها، ولكن كثيراً من الناس لجهلهم المطبق ولقلة حيائهم ووعيهم وبعدهم عن مصادر النور الإلهي والهداية ولاستغراقهم في عالم الدنيا والمادة والمصالح الدنيوية العاجلة الفانية الزائلة والأوهام والخيالات وانفصالهم عن الواقع، وابتعادهم عن الله ذي الجلال والإكرام والقيم والمبادئ السامية، فإنهم ساهون عن هذه الحقائق والآيات وناسون لها وجاهلون بدلائلها وأبعادها، فلا يدركونها ولا يعرفون عنها شيئاً أو يتجاهلونها تماماً، وكأنها لم تكن، فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ولا ينتفعون منها رغم ظهورها في العقل والحس؛ بغياً منهم واستكباراً على الحق وأهله، على خلاف أصحاب البصائر والقلوب الحية الحاضرة

المنفتحة على الحق من المؤمنين، الذين يرون فيها دليلاً على صحة ما جاءت به الرسل الكرام عليهم السلام وأخبرت عنه، قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[1].

وكان العلاج الوحيد المناسب لهؤلاء المجرمين الفاسقين هو عذاب الهلاك والاستئصال، لما يتصفون به من صفات قبيحة وخصال مذمومة، مثل: العناد والاستكبار والإصرار على الكفر والضلال والمعصية، ولما يقومون به من أعمال سيئة مذمومة وجرائم شنيعة وجنايات فظيعة، مثل: قتل الأبرياء والصالحين والمطالبين بالحقوق العادلة المشروعة وسجنهم وتعذيبهم والتضييق عليهم ونفيهم ونحو ذلك، ولما يشكلونه من خطر على الإنسانية و إعاقة تقدم مسيرتها التكاملية التاريخية، كما فعل الله عزّ وجلّ بقوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وغيرهم، أي: كان مصيرهم إلى الخزي والعار والشقاء والخسران المبين في الدارين الدنيا والآخرة.

وهو المصير الذي ينتظر أمثالهم في العالم المعاصر، والآية الشريفة المباركة تبين لنا بأن عدم استفادة المعاندين من آيات الله تبارك وتعالى والحجة والأدلة المنطقية وعدم اهتدائهم بها لا ينقص من شأنها وقيمتها، فهي ذات قيمة ودلالة بالغة في نفسها، والعيب والنقص فيهم لعدم استفادتهم منها واهتدائهم بها وليس فيها.

---

١. يونس: ٩٢

تمام النعمة الإلهية على بني إسرائيل

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

لقد كانت المعادلة الربانية في حسم الصراع المحتدم بين الطرفين، بين فرعون الطاغية وحزبه المجرمين وقومه الفاسقين بما هم عليه من الكفر والضلال والمعصية والظلم والفساد والعناد والاستكبار على الحق وأهله، وبين موسى الكليم عليه السلام وقومه من بني إسرائيل المؤمنين المستضعفين المظلومين المهانين من قبل فرعون الطاغية وحزبه المجرمين، الذين آمنوا بالدين الإلهي الحق واتبعوا ولي الله الأعظم والرسول الكريم موسى بن عمران الكليم عليه السلام، وسعوا في تزكية أنفسهم وتطهير قلوبهم و إصلاح شؤونهم، وصبروا على الحق وثبتوا في وجه الظلم والطغيان، وقاوموا ولم يخضعوا لإرادة فرعون وحزبه المجرمين، وقدموا ما يلزم من التضحيات الجسيمة في سبيل الحق والعدل والحرية والحقوق والقيم والمبادئ السامية، أن أهلك الله عز وجل فرعون الطاغية وحزبه المجرمين بأن أغرقهم في البحر أجمعين، ونجا موسى الكليم عليه السلام وجميع الذين كانوا معه من المؤمنين من بني إسرائيل المستضعفين الصابرين المحتسبين المتوكلين على الله سبحانه وتعالى الواثقين به وبوعده الصادق لهم بالنصر لهم على عدوهم في الدنيا وبالأجر العظيم في الآخرة، وبخلاصهم من أذى فرعون الطاغية وأذى حزبه المجرمين وقومه الفاسقين ومن شرورهم أجمعين، وباستخلافهم في الأرض بدلاً عنهم، وأن يوضع السلطة والثروة ومقدرات

الدول والبلاد في أيديهم ويمكنهم منها غاية التمكين وتمامه، وأن يسكنهم مساكن آل فرعون ويورثهم أرضهم وديارهم بالحق.

ويعد هذا الاستخلاف من تمام النعمة الإلهية على بني إسرائيل، فقد بعث فيهم رسولاً كريماً منهم، يهديهم إلى الدين الإلهي الحق وإلى الصراط المستقيم، ويقودهم قيادةً رشيدةً رحيمةً توحد صفوفهم وتجمع شملهم وترأب صدعهم وتواسيهم في الأحوال جميعاً، وتشاركهم في الأفراح والأحزان وتوجههم لما فيه الخير والصلاح والصواب والرشد في السلوك والمواقف والعلاقات ونحو ذلك.

ثم أنعم عليهم بهلاك عدوهم وتخليصهم من أذاه وشروره. ثم أتم النعمة عليهم باستخلافهم في الأرض وإنزالهم منزلاً صالحاً كريماً مرضياً محموداً، وتمكينهم من السلطة والثروة والمقدرات في مصر وبلاد الشام، ومنها أرض المعاد أرض فلسطين المقدسة بخيراتها وبركاتها المادية والمعنوية، ووضع أزمة الأمور وقدرات الدولة جميعها في أيديهم وسهلها عليهم، وأسكنهم في مساكن آل فرعون في مصر، وأورثهم أرضهم وديارهم وثرواتهم بالحق، وجعلهم في عيشة طيبة كريمة راضية هنيئة، تتوفر لهم فيها جميع المستلزمات المطلوبة للحياة الإنسانية الكريمة المرضية، وتلبي لهم فيها جميع احتياجاتهم الأساسية، حيث يسودها الأمن والأمان وحرية الاعتقاد والعبادة والضمير والرخاء والازدهار الفكري والروحي والمادي، ويعيشون في الأرض الطيبة المباركة بما تتمتع به من طيب الهواء «جودة المناخ» وخصوبة التربة وكثرة الماء العذب الصالح للشرب والري وغيره، والغلات

الكثيرة، والثروات الطائلة، المال والمعادن والموقع الاستراتيجي المهم جداً.

وتحت مظلة قيادة مؤمنة صالحة تتصف بالحكمة والرشد والرحمة والشجاعة والإقدام والثبات والأمانة ونحو ذلك، توحد كلمتهم وتنظم صفوفهم وتجمع شملهم وترأب صدعهم وترد قاصيهم على دانيهم.

وقد توفرت لهم فيها المساكن الصالحة للسكن والعيش الطيب والحياة الكريمة، والمشارب الطيبة السائغة والمواد الغذائية اللذيذة المختلفة المفيدة جداً للصحة والعافية، والمصانع الضخمة والتجارة الرائجة النشيطة الداخلية والخارجية، وكانت التجارة الداخلية هي الأكثر أهمية والأكثر نشاطاً عندهم، ونحو ذلك من أسباب الرفاهية والازدهار والعيش الكريم، وذلك من الغايات الدنيوية التي يطمع فيها الإنسان في كل المجتمعات في العالم على طول التاريخ وعرض الجغرافيا.

وقيل: وصف بـ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾[1] إشارة لما فيه من القدسية والطهارة والطيب والصلاح والمنافع المناسبة لغرض الحياة والدعوة والرسالة، إذ أن من عادة العرب أنهم إذا مدحوا شيئاً لوجود لوازم معناه وآثاره المطلوبة منه، أضافوه إلى الصدق كأنه لم يكذب في شيء من معناه وآثاره التي يعدها بلسان دلالته لطالبه، فيقال: رجل صدق ولسان صدق ونحوه.

وقيل: وصف بذلك؛ لأنه فضله على غيره من المنازل كفضل الصدق على الكذب.

---

١. يونس: ٩٣

وقيل: وصف بذلك إشارة إلى وفاء الله سبحانه وتعالى بوعده الصادق لبني إسرائيل.

وذلك كله بعدما كانوا يعيشون في الفرقة والاختلاف والتشتيت والذل والهوان والقهر والحرمان من تلك النعم والاستضعاف والإذلال والاضطهاد والاسترقاق والاستعباد والتمييز ضدهم، وصنوف الفتن والمحن والابتلاء والأذى لمدة طويلة وحقب متعاقبة امتدت لقرون من الزمن على أيدي الفراعنة وقومهم الأقباط في ظل النظام الفرعوني الجائر عن الحق والعدل والإنصاف والفضيلة والقائم على التفاوت الطبقي الموروث الذي يقسم المجتمع إلى سادة وهم الأقباط وعبيد وهم بنو إسرائيل.

وكان التمييز بين العاقبتين، عاقبة السوء المذمومة لفرعون الطاغية وحزبه المجرمين وقومه الفاسقين، وعاقبة الحسنى الممدوحة لبني إسرائيل المؤمنين المستضعفين الصابرين المحتسبين المتوكلين على الله ﷻ والموفضين إليه أمورهم كلها؛ ليظهر لأصحاب العقول المستنيرة والقلوب الحية الفرق بين مصير فريقين جاءهم رسول كريم صادق أمين بالمعجزات الباهرات القاهرات والبينات الواضحات النيرات والبراهين الساطعة القاطعة، فآمن به فريق ففازوا ونجوا وسعدوا في الدارين الدنيا والآخرة؛ ليكون في ذلك ترغيب في الإيمان وتحذير من العناد والاستكبار، وبشارة للمؤمنين و إنذار للمشركين والمنافقين والعاصين، وهو درس بليغ وعبرة واصلة لأصحاب العقول المستنيرة والقلوب الحية.

مقابلة بني إسرائيل النعم بالجحود

لم يعرف بنوا إسرائيل قدر تلك النعم التي أنعم الله تبارك وتعالى بها عليهم، وقابلوها بالجحود والنكران، ولم يؤدوا حقها بالنسبة للمنعم بها عليهم وما أوجبه عليهم فيها إلى الناس، فقد اختلفوا في الدين الإلهي الحق الموجب لاجتماعهم عليه وتوحد صفوفهم والإئتلاف بينهم، ووظفوا النعمة في الضلال والإضلال ونشر الفساد في الأرض، وخالفوا الرسل والأولياء الصالحين عليهم السلام بعد العلم بما هو الحق والصواب وقيام الدليل عليه وعلى لزوم التمسك به والثبات واتحاد الكلمة وتوحيد الصفوف عليه، حيث بيّن لهم جميع ذلك ووضعت لهم الضوابط والثوابت والمبادئ بما لا يجعل مكاناً للشك أو اللبس أو الغموض.

وقرأوا ذلك كله في الكتاب «التوراة»، فكان منهم من آمن وصدق وأطاع، وكان منهم من كفر وكذب وعصى، واختلفوا في الدين وانقسموا وتشعبوا إلى شعب وأحزاب وطوائف ومذاهب كثيرة متناحرة، بعدما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفين في الدين، كما اختلفوا في السياسة والتدبير إلى جماعات متنافرة متناحرة ترفض التنسيق والتكامل بينها، وبغى بعضهم على بعض، وحصل بينهم من الاختلاف والصراع والتنافر والتباغض والحسد الشيء الكثير، مما يفرق شملهم ويشتت أمرهم ويحل رابطتهم ونظامهم ويضعف أمرهم وعزمهم ويفت من عضدهم ويكسر شوكتهم ويذهب بقوتهم وهيبتهم، فيفوتهم بذلك من مصالحهم ما يفوت، ويتسلط عليهم عدوهم ويتمكن منهم، ويموت من دينهم الحق ما يموت، قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ

لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[1] فكان اختلافهم في الدين والسياسة بغياً وعدواناً ولم يكن اختلاف حق ولمصلحة ولم يكن لعذر، مثل: عدم العلم أو الجهل أو لوجود غموض أو شبهة أو لعدم وضوح الدليل أو لاختلاف موضوعي في التشخيص أو نحو ذلك، بل كان عن علم ويقين وإصرار، وقد لعب فيه علماؤهم وساستهم دوراً كبيراً.

أي: أنهم وقعوا في نفس الرذائل والمآثم والمعاصي والذنوب والأعمال السيئة المذمومة والجرائم الشنيعة والجنايات الفظيعة التي كان عليها فرعون الطاغية وحزبه المجرمين، والدوافع هي نفسها الدوافع الحسد لأولياء الله الصالحين، وطلب الرئاسة والزعامة، والتعلق بحطام الدنيا الفانية وعالم المادة والملذات الحسية، والنسيان لله ذي الجلال والإكرام والآخرة، والابتعاد عن القيم السماوية والإنسانية العليا والمبادئ السامية، والتكالب على السلطة والثروة والجاه والمناصب والصلاحيات والامتيازات ونحوها، وضعف المنطق ومخالفة العقل والفطرة والطبع السليم والدين الحنيف، فصارت لكثير منهم أهواء شيطانية وشهوات حيوانية وأغراض تخالف الحق والعدل والفضيلة والعقل والمنطق والدين الحنيف والمصالح العامة للدين والأمة.

واستخدموا جميع الأساليب والوسائل المتاحة المشروعة وغير المشروعة في الصراع، وإدارة الاختلاف بينهم في سبيل الفوز بالمراد

---

١. فاطر: ٣٢

والغلبة على الطرف الآخر في الصراع البيني، على قاعدة: «الغاية تبرر الوسيلة» وزخرفت الضلالات بآيات الكتاب المبين والأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة والأحاديث الموضوعة، كما يزخرف النحاس المموه بالذهب والفضة، وجيشوا الجيوش واستخدموا كافة وسائل الإعلام وحركوا الغوغاء ووظفوا الانتهازيين والنفعين الفاسدين المارقين من الدين حتى التبس الحق بالباطل، وظهرت الاختلافات الكثيرة في الدين والدنيا في العقيدة والشريعة والسياسة والمعايش وتشعبت وترسخت، وظهرت العصبيات وتجذرت، وافترقت الكلمة واختلفت الصفوف ونشبت الحروب والصراعات وسفكت الدماء وانتهكت الحرمات والمقدسات والحقوق ونشبت القوى الأجنبية الاستكبارية مخالبها في الأمة وفقدت الأمة استقلالها وخسرت ثرواتها ومقدراتها ونحو ذلك.

الجدير بالذكر: إن الوحدة الدينية السياسية والاستقامة على الدين الحق والصراط المستقيم والنهج القويم في الحياة، لا يمكن أن يحصل بدون الإجماع على مرجعية دينية وروحية وسياسية واحدة، هو إمام الهدى والحق والعدل الذي يتمتع بالعلم الكامل بالدين وبالتقوى والشجاعة وبالمعرفة بأوضاع زمانه «الكفاءة الموضوعية» ونحو ذلك من الصفات التي يجب أن تتمتع بها القيادة الرشيدة الدينية الكفؤة؛ لأن الاختلاف يحصل في حال عدم الاتفاق على المرجعية الواحدة المؤهلة «إمام الهدى» في فهم الكتاب والسنة وتطبيقها، والكل يزعم بأن له الدليل فيما يقول من الكتاب والسنة.

كما يفسح عدم الاتفاق على مرجعية إمام الهدى المجال للمنافقين والانتهازيين والنفعيين وأصحاب النفوس المريضة وعبدة الدنيا والمادة والباحثين عن السلطة والثروة والجاه والزعامة والامتيازات ونحوها؛ للتنافس على الوصول إلى السلطة، ثم فرض الحكم الأمر الواقع على الناس والانحراف بالناس وبالواقع عن الشريعة الإلهية المقدسة كما يثبت ذلك وتحكم به التجربة التاريخية الطويلة والمعاصرة.

والحقيقة أن ذلك الاختلاف في الدين والسياسة لن يبقَ ولن يمر بدون حساب وجزاء، قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يَرَه﴾[1]، فالسنة الإلهية التي جرت على فرعون الطاغية وحزبه المجرمين، سوف تجري على بني إسرائيل كما جرت على سائر الأمم قبلهم وستجري على جميع الأمم بعدهما، قول الله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[2]، فسوف يكون بنو إسرائيل عرضة للبلاء الشديد، ومنه عودة سلطة الطواغيت وحكومات الفراعنة والمستبدين، ونفوذ المترفين الفاسدين والانتهازيين الأنانيين الساقطين عليهم من جديد، وسيذيقهم الله ﷻ بسوء أعمالهم واختيارهم مرارة الذل والهون والظلم والاستضعاف في الدنيا، ثم يحاسبهم في الآخرة على أفكارهم المنحرفة وعقائدهم الباطلة وأخلاقهم القبيحة وخصالهم المذمومة وأعمالهم الطالحة السيئة وميلهم عن الحق وأهله إلى الباطل وأهله، ومخالفة أئمة الهدى واتباع أئمة الضلال ونحو ذلك.

١. الزلزلة: ٧-٨

٢. الأحزاب: ٦٢

ويفصل بين أهل الحق وبين أهل الباطل منهم فيما اختلفوا فيه بحكمه العدل الناشئ عن علم تام بحقائق الأعمال وظواهرها، وبالنيات وما تخفي الصدور، وتعلن بقدرته المطلقة الشاملة، فيثيب المحق ويعاقب المبطل، ويميز بينهما بالإنجاء للمحق والإهلاك للمبطل، حيث لا مكان في ذلك اليوم إلى الكذب والافتراء والتبريرات الوهمية الباطلة والرياء والسمعة ونحو ذلك، ولا شيء في ذلك اليوم سوى الحق الحقيق والعدل الصريح المطلق، حيث يظهران للجميع في أبهى وأجمل وأحسن وأكمل صورة، ظهوراً جلياً واضحاً للعيان لا تشوبه شائبة ولا يدخله شك أو لبس أو غموض أو نحو ذلك، قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] أي: لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن هذا الذي تراه وتشاهده اليوم بأم عينك وعن هذا المصير الأسود وكنت تكذب به وتاركاً للعمل بمقتضاه مع أنه كان في الدنيا نصب عينك لا يغيب، وقد ذُكرت به مراراً وتكراراً وحُذرت منه، لكن تعلقك بنعم الدنيا والمادة والمصالح والمقاصد والأغراض الباطلة أذهلك عنه وصرفك وأغفلك، فكشفنا عن قلبك حجاب غفلتك الذي كان منك في عالم الدنيا، وأصبحت أمام عملك ومصيرك وجهاً لوجه، فبصيرتك وعين قلبك اليوم حادة قوية نافذة لا يحجبها شيء؛ لزوال الغواشي والحجب والموانع، فأنت تبصر اليوم ما لم تكن تبصره وما كنت غافلاً عنه من الحق ومن أنواع العذاب والنكال مع وجوده في عالم الدنيا، وتعترف وتقر اليوم بما أنكرته من الحق وتنكر ما كنت تقره وتوقن به من الباطل، ولكن

---

١. ق: ٢٢

في وقت لا يمكن فيه التدارك، فالحجة قائمة عليك في الدارين الدنيا والآخرة.

وعليه: فقد خسر هؤلاء المبطلون الضالون العاصون الدين والدنيا والآخرة، وفي الآية موضوع البحث: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِن رَبكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1] تهديد ووعيد من الاختلاف في الدين ومخالفة أئمة الحق، وأنه يجب على المؤمنين التفكر بجدية وعمق في وسائل الخلاص من الضلال بهدف النجاة من المؤاخذة في يوم القيامة.

لأن هذه السنة الإلهية الحكيمة المحكمة جارية وباقية في جميع الأمم إلى يوم القيامة، فهي جارية في أمة الإسلام، أمة محمد بن عبدالله ﷺ وهو خاتم الأنبياء الكرام والمرسلين العظام عليهم السلام وسيدهم، إذ أن الشيطان الرجيم (عليه اللعنة) إذا عجز عن إخراج الإنسان من الدين الحق كلياً، سعى في تضليله وإثارة الوساوس والشبهات في نفسه، وإثارة الأطماع الشيطانية والأغراض الباطلة والعصبيات الجاهلية، والعداوة والبغضاء والتشاحن والحسد؛ ليصرفه عن الصراط المستقيم والنهج القويم، فيحصل بذلك الاختلاف بين اتباع الدين الإلهي الحق، ويحصل التنازع والصراع بينهم، فيكفر بعضهم بعضاً، ويبغي بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضاً، وينتهك بعضهم حقوق بعض وحرماته ومقدساته ظلماً وعدواناً، تحت تأثير الأهواء الشيطانية والوساوس والأغراض الدنيوية الدنيئة، ثم

١. الجاثية: ١٧

تلبيسها لباس الدين والشريعة لتبريرها ونحو ذلك من الرذائل والضلالات، فسيئول أمرهم إلى الشتات، وجمعهم إلى الفرقة، وتذهب ريحهم وقوتهم وهيبتهم وتضيع وسطيتهم واعتدالهم، ويصيبهم التحلل والانحطاط والتخلف، ويفقدوا قدرتهم على الإبداع والمنافسة، ويفتقدوا مكانتهم بين الأمم، ويتسلط عليهم الأعداء ويفقدوا استقلالهم وتضيع ثرواتهم ومقدراتهم، وتفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية الكثير، ونحو ذلك مما تقر به عيون اللعين إبليس الرجيم وحزبه المجرمين من الجن والإنس، يقول آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: «**فإن الله قد نصر المسلمين بفضله مرات كثيرة، وقهر أعدائهم الأقوياء بصورة إعجازية، ونصر بفضله ورحمته هذه الأمة المستضعفة على أولئك المتجبرين، إلا أنهم وللأسف الشديد، بدل أن يجعلوا هذا النصر وسيلة لنشر دين الإسلام في جميع أرجاء العالم، فإنهم قد اتخذوه ذريعة للتفرقة و إيجاد النفاق والاختلاف بحيث عرضوا كل انتصاراتهم للخطر!! اللهم نجنا من كفران النعمة هذه**»[1].

ونفس القول يمكن أن يقال بشأن الثروات الطائلة التي أنعم الله تبارك وتعالى بها على المسلمين فضيعوها ووضعوها في الضلال والإضلال والتفرقة والحروب والإفساد في الأرض، فبدلاً من أن تكون نعمة وسبباً لنشر الهدى وتعزيز الوحدة والاستقلال والرقي والازدهار، جعلوها نقمة وسبباً لنشر الضلال وتعزيز الفرقة والتبعية للأجنبي والتخلف والانحلال والانحطاط فإنا لله و إنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!!

---

١. تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، جزء ٦، صفحة ٢٦٦

وإنه من العجب العجاب الذي لا يخضع لعقل أو منطق ولا يوافق الدين والشريعة والفطرة والطبع السليم، أن يحدث كل ذلك الاختلاف والانقسام والتناحر مع كل ذلك البيان الواضح وقيام الدليل الصريح القاطع في الكتاب، ومع أن سلامة المصير وحسن العاقبة وحفظ المصالح لا تتأتى إلا مع الاستقامة على الدين الإلهي الحق والاجتماع عليه والمحافظة على وحدة الصف والكلمة واجتماع الشمل واتباع أهل الحق وأئمة الهدى، وفي الحديث النبوي الشريف: «**ما اختلفت أمة بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها**»[1].

سبق القول بأن الله ﷻ تكفل ببعث الأنبياء عليهم السلام لهداية البشرية وإرشادهم لما فيه خيرهم وصلاحهم ومصلحتهم وسعادتهم الحقيقية الكاملة في الدارين الدنيا والآخرة، وضمن بأن لا تبقى الأرض بغير حجة، وتكفل بإقامة الدليل القاطع على صدق النبوة والرسالة والإمامة لكل عاقل منصف يطلب الحقيقة كما هي ويبحث عنها ويسلم إليها إذا عرفها ويعمل بمقتضاها.

كما تكفل ببقاء الرسالة وديمومتها في دورتها الرسالية وجعلها في متناول الناس، فإذا عجزت الأسباب الطبيعية عن تحقيق ذلك، تدخلت العناية الإلهية لتحقيقه بالأسباب الغيبية، ومن الأسباب الطبيعية: الدعوة إلى الله ذي الجلال والإكرام وإلى الدين الإلهي الحنيف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله ﷻ والمقاومة وعدم الخضوع

---

١. كنز العمال، جزء ١، صفحة ٩٢٩

لإرادة الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين والمترفين المستغلين والانتهازيين والنفعيين والأنانيين الفاسدين، في هذا السبيل قد يستشهد خلق كثير من الأنبياء الكرام والأوصياء المطهرين والأولياء الصالحين عليهم السلام ومن المؤمنين المجاهدين، أو يتعرضون إلى الأذى الشديد من المجرمين الأشرار، مثل: السجن والتعذيب والتنكيل والحرمان والتشريد والنفي ونحو ذلك، ويعد ذلك من أسباب رفع المقام والمنزلة عند الله ذي الجلال والإكرام والفوز بالرضوان الإلهي والنعيم الأبدي الخالد في الدرجات العالية في جنة الفردوس في الآخرة، وليس ذلك لتقصير منهم أو معصية، و إنما هو من سنن التدبير الإلهي المحكم الحكيم للمسيرة التاريخية التكاملية للإنسان، وفي الحديث الشريف عن حمران بن أعين، قال: «**قلت لأبي جعفر «الإمام الباقر» عليه السلام: أرأيت ما كان من أمر قيام علي ابن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام وخروجهم وقيامهم بدين الله عز ذكره وما أصيبوا من قتل الطواغيت إياهم والظفر بهم حتى قتلوا وغلبوا؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: «يا حمران!! إن الله تبارك قد كان قدر ذلك عليهم وقضاه وأمضاه وحتمه على سبيل الاختيار ثم أجراه، فبتقدم علم إليهم من رسول الله صلى الله عليه وآله قام عليٌ والحسن والحسين عليهم السلام وبعلم صمت من صمت منا، ولو أنهم يا حمران حيث نزل بهم ما نزل من أمر الله عز وجل و إظهار الطواغيت عليهم سألوا الله عز وجل أن يدفع عنهم ذلك وألحوا عليه في طلب إزالة ملك الطواغيت وذهاب ملكهم إذاً لأجابهم ودفع عنهم ثم كان انقضاء مدة الطواغيت وذهاب ملكهم أسرع من سلك منظوم انقطع فتبدد، وما كان في ذلك الذي أصابهم يا حمران لذنب اقترفوه ولا لعقوبة معصية خالفوا الله فيها، ولكن**

لمنازل وكرامة من الله أراد أن يبلغها فلا تذهب بك المذاهب فيهم»[1].

ولكن ينبغي التنبيه إلى أن التقصير في الواجبات وارتكاب المعاصي يجر حتماً إلى البلاء الإلهي؛ ليكون ذلك سبباً للتنبيه من الغفلة واللجوء إلى التوبة والعودة المحمودة إلى الله ذي الجلال والإكرام، فينبغي على المؤمنين الأعزاء التمييز بين الحالتين:

أ. الحالة التي يجاهد فيها المؤمنون الصالحون ويتعرضون إلى الأذى الشديد من الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين وأتباعهم من الانتهازيين والنفعيين والجهلة؛ ليكون ذلك سبباً لصلاح أحوال الناس، قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2] وسبيلًا لكمالهم الإنساني المعرفي والتربوي، وارتفاع مقامهم ومنزلتهم ومكانتهم عند الله ذي الجلال والإكرام وقربهم منه والزلفة لديه والفوز بالرضوان الإلهي والنعيم المقيم في أعلى الدرجات في الجنة.

ب. الحالة التي يقصر فيها الناس وعامة المؤمنين بواجباتهم الدينية ويعصوا ربهم فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، بما في ذلك الإخلال بالإخلاص في نية العمل والجهاد، فيبتليهم الله ﷻ ببعض البلاء من أجل تنبيههم من غفلتهم ولجوئهم إلى التوبة وعودتهم إلى

---

١. الكافي، جزء ٢، صفحة ٢٢٤

٢. البقرة: ٢٥١

الله ذي الجلال والإكرام، ومن ذلك تسليط حكام الجور والفراعنة عليهم و إصابتهم بالأذى الكثير منهم، ونحو ذلك لزمان قد يطول أو يقصر بحسب مقتضى الحكمة الإلهية في التدبير وحصول الغاية.

وعليه: ينبغي على المؤمنين التمسك بالدين الإلهي الحق واتباع أئمة الهدى، والاستقامة على الصراط المستقيم والنهج القويم والتحلي بالتقوى وأداء الواجبات، ومنها: الدعوة إلى الله ذي الجلال والإكرام و إلى الدين الإلهي الحنيف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ﷻ بإخلاص تام ومجرد من الأغراض الدنيوية الباطلة، والمقاومة وعدم الخضوع لإرادة الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين والمترفين والانتهازيين والنفعيين، والتحلي بالصبر والثبات والتحمل والصمود أمام المشكلات والعقبات والصعوبات والتحديات وبذل النفس والنفيس في ذلك؛ لتعلو منزلتهم ومكانتهم عند الله ذي الجلال والإكرام ويفوزوا بالرضوان الإلهي والنعيم الأبدي الخالد في جنات الفردوس، وأن يكونوا في غاية الحذر من التقصير والمعصية والإخلال بالصدق والإخلاص في النية، ومن أن يصيبهم الضعف والوهن في جنب الله ذي الجلال والإكرام ويخضعوا لإرادة الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين والمترفين والانتهازيين فيذلوا بذلك أنفسهم، ويبتليهم الله ﷻ بحكم الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين ويسلطهم عليهم ويمكنهم من رقابهم فيستضعفوهم ويذلوهم ويؤذوهم كثيراً في الدنيا، ويخسروا في الآخرة الرضوان الإلهي العظيم والمنازل والدرجات الرفيعة والمراتب العالية في الجنة. قول الله

تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، أي: لقد مضى أنبياء كرام عظام كثيرون جاهدوا في سبيل الله ﷻ، وقد قاتل معهم كثير من الربانيين الأصفياء المطهرين عليهم السلام والأولياء الصالحين العارفين بالله ذي الجلال والإكرام والمختصين به ولم يشتغلوا بغيره، والعلماء الأتقياء المتألهين، والعباد المخلصين لله سبحانه وتعالى في الطاعة والعبادة، والمؤمنين الصالحين الذين تربوا على أيدي الأنبياء الكرام عليهم السلام واقتدوا بهم واتبعوهم في اليسر والعسر، فما وهنت أبدانهم وما فتروا في قتال أعدائهم وما ضعفت نفوسهم وما جبنوا ولم يفروا من ساحة القتال والمواجهة والمقاومة، ولم يستسلموا بسبب قتل نبيهم في ساحة القتال؛ لأن هناك من يخلفه ويقدم مقامه بالحق دائماً، ولا بسبب قتل من قتل منهم من الشهداء السعداء، أو بسبب ما أصابهم من الجروح والإصابات والخسائر المادية الكثيرة في المال والسلاح، أو نزل بهم من الكرب والبلاء الشديد ونحو ذلك، ولم يشعروا بالذل أو يصابوا بالاستكانة وينكسروا ويخضعوا لإرادة الأعداء من الطواغيت والفراعنة والحكام المستبدين والمستكبرين والمترفين ونحوهم، ولم يتخلوا عن استقلالهم وعن قضيتهم العادلة ومطالبهم المشروعة، بل ثبتوا وتحملوا وصمدوا وكانوا من الصابرين المحتسبين، والله تبارك وتعالى يحب الصابرين المحتسبين ويرضى عنهم ويثبتهم على الحق وعلى القول

---

١. آل عمران: ١٤٦-١٤٨

الثابت ويقوي إرادتهم وعزائمهم ويؤنسهم فلا يستوحشون ويؤيدهم ويسدد خطاهم وينصرهم على أعدائهم ولا يتركهم يقطعون الطريق منفردين عنه.

وكان قولهم المتكرر دائماً وأبداً في تلك المواطن الصعبة: ربنا اغفر لنا ذنوبنا الكبيرة والصغيرة، و إسرافنا في أمرنا وتقصيرنا وأخطائنا في القيام بواجباتنا التي فرضتها علينا، وانصرنا على القوم الكافرين ولا تكلنا إلى أنفسنا، كأنهم أرادوا بجهادهم في سبيل الله ﷻ وصبرهم وتحملهم أن يغفر الله تبارك وتعالى لهم ذنوبهم ويصفح عن تقصيرهم وأخطائهم؛ ليقدموا عليه في يوم القيامة وهم طاهرون مطهرون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم.

وفي ذلك دليل على حسن العقيدة وصدق اليقين وكمال الإيمان و إخلاص النية، وأن همهم وعزيمتهم في رفعة الدين ونشره، وعزة المؤمنين وصلاح أحوالهم وشؤونهم، وليس في مغانم الدنيا وزخارف الحياة والوصول إلى السلطة وكسب الثروة ونحو ذلك من الأغراض الدنيوية الباطلة.

وفي قولهم دليل على إدراكهم إلى كون الذنوب والمعاصي من أعظم أسباب الخذلان الإلهي، وحسن العقيدة والطاعة والأعمال الصالحة من أعظم أسباب التأييد الإلهي والظفر والنصر، فسألوا ربهم سبحانه وتعالى المغفرة من الذنوب والمعاصي والخطأ والتقصير، وأن يثبت أقدامهم وينصرهم، فلم يعتمدوا على أنفسهم ويستقلوا عن ربهم سبحانه وتعالى، بل توكلوا عليه واستعانوا به، فآتاهم الله تبارك وتعالى لسبب ذلك كله ثواب الدنيا من النصر والظفر والغنيمة والعزة والكرامة وحسن الذكر والحياة

الطيبة والعيش الكريم ونحو ذلك، وحسن ثواب الآخرة من الرضوان الإلهي العظيم والنعيم المقيم في الدرجات العالية والمنازل الرفيعة في الجنة؛ لأن الله تبارك وتعالى محسن كامل الإحسان يحب المحسنين في عقيدتهم وسلوكهم وأعمالهم الصالحة فيحسن جزاءهم على إحسانهم بالحسنى في الدارين الدنيا والآخرة، قول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلا الْإِحْسَانُ﴾[1]، وقد خص الله تبارك وتعالى ثواب الآخرة بالحسن؛ إشعاراً بارتفاع منزلتها وقدرها على الدنيا، وبفضل ثوابها وتقدمه على ثواب الدنيا عند الله سبحانه وتعالى وفي ميزان العقل والمنطق السليم.

الجدير بالذكر: إن الابتلاء الإلهي من السنن الإلهية الحكيمة المحكمة في تدبير المسيرة التاريخية التكاملية للإنسان، وتقوم على أساس العقل والاختيار، وهي سبيل لتنبيه الناس وإيقاظهم من غفلتهم، وسبباً يلجأهم إلى التوبة والعودة المحمودة إلى الله ذي الجلال والإكرام، فمن وعى وتاب وعاد إلى الله ذي الجلال والإكرام فقد ربح وفاز وكان من السعداء، ومن بغى وطغى وعاند واستكبر وأصر على الاستمرار على ما كان عليه من الضلال والمعصية فهو على خطر شديد، وقد يتطور به الحال وفق السنن الإلهية الحكيمة المحكمة في التدبير، فينتقل من الخذلان إلى الإملاء والاستدراج، فيخسر بذلك الخسران المبين، فيكون مصيره إلى الهلاك والشقاء الأبدي الكامل في الدرك الأسفل في نار جهنم وبئس المصير مصيره وبئس المورد مورده، قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ

١. الرحمن: ٦٠

حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1] أي: ما أرسلنا في بلد من البلدان من نبي ليهدي أهلها سبيل الهدى والرشاد فكذبوا ولم يؤمنوا، إلا أخذناهم بألوان من المصائب والمحن، مثل: الفقر والمرض والنكبات من أجل أن يتذكروا وينتبهوا ويعودوا إلى رشدهم، ويكفوا عن عنادهم واستكبارهم ويتوبوا عن غيهم وضلالهم ويؤمنوا بالدين الإلهي الحق ويتضرعوا إلى ربهم سبحانه وتعالى بغية كشف البلاء عنهم، فإن الإنسان مادام على النعمة فإنها قد تشغله عن التوجه إلى النعم ويستغني بها عنه، فإذا سلبت منه أحس بالحاجة والفقر والعجز فيلجأ إلى من بيده رفع حاجته وفقره وعجزه ويتضرع إليه من أجل ذلك.

فإذا لم ينفع ذلك معهم ولم يتعظوا، تركهم الله ﷻ إلى أنفسهم وما يشتهون وما يريدون ويقصدون، وهو الخذلان، فيكونوا على خطر شديد.

فإذا تورطوا أكثر في الذنوب والخطايا والمعاصي والتعلق بعالم الدنيا والمادة والاستغراق في الشهوات والملذات الحسية واتباع الأهواء الشيطانية، فإن الله ﷻ يبدل السيئة حسنة والنقمة نعمة، فتكثر أموالهم وأولادهم وثرواتهم ويتمكنوا من الدنيا يصيروا في خير وسعة وأمن، حتى ينسوا الله تماماً وما كانوا عليه من الشدائد والمحن والمصائب والنكبات، وتنمحي آثار الامتحان الإلهي فتقسوا قلوبهم وينصرفوا تماماً عن الهدى

---

١. الأعراف: ٩٤-٩٦

والحق والإيمان، وينسبوا الشدة والرخاء والضيق والسعة إلى عوامل الطبيعة وتدبير الإنسان، وأبعدوا الله سبحانه وتعالى تماماً عن حياتهم وهو الاستدراج.

فإذا وصلوا إلى هذا الحال السيء جداً أهلكهم الله ﷻ فجأة وبدون مقدمات تدل على هلاكهم، فيكون ذلك أشد في عقوبتهم؛ ليكونوا عبرة لكل معتبر يأتي بعدهم، ولو أن أهل القرى التي أهلكهم الله ﷻ آمنوا بالله سبحانه وتعالى ورسله، وحسنت عقيدتهم وأحيوا شريعة الحق والعدل، واتقوا الله سبحانه وتعالى وعملوا الصالحات؛ ليسّر الله تبارك وتعالى لهم الخيرات وأغدق عليهم البركات الكثيرة المادية والمعنوية من كل جانب، من السماء والأرض، مثل: الأمن والرخاء والصحة والمال والأولاد وغير ذلك، وعاشوا جميعاً حياة طيبة كريمة.

لكنهم كذبوا بالآيات والرسل، وأهملوا شريعة العدل والمساواة، ولجأوا إلى الدكتاتورية والاستبداد والظلم والطغيان، وعملوا الأعمال السيئة المذمومة، وأفسدوا في الأرض بغير الحق، فأخذهم الله ﷻ أخذ عزيز مقتدر بما كانوا يعملون من الذنوب والمعاصي والجرائم والأعمال السيئة، فعاقبهم الله ﷻ بالعقوبات الشديدة ونزع عنهم البركات وأهلكهم حتى يكونوا عبرة لكل معتبر يأتي بعدهم.

والآيات الشريفة المباركة تقسم الناس إلى ثلاث فئات أو طوائف، وهم: المؤمنون الصالحون، والتائبون العائدون إلى الله ذي الجلال والاكرام، والضالون المعاندون، وكل طائفة من هذه الطوائف الثلاث، تعبر في

الحقيقة عن جوهرها وكنهها وحقيقة معدنها وطبعها وما هي عليه من القابلية والاستعداد العقلي والروحي، وماهي عليه بالاختيار إلى نفسها من الخيرية والشرية، والحسن والسوء، والسعادة والشقاء، قول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَالِمِينَ إِلا خَسَارًا. وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسهُ الشر كَانَ يَئُوسًا. قُلْ كُل يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾[1]، وقول الله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطيبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبهِ وَالذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[2].

وعليه: ينبغي لكل إنسان عاقل الالتفات والحذر الشديد والمحاسبة، فلا يتجاهل الآيات والعبر، ولا يفرط في نعمة الهداية والمواعظ والنصائح الصادقة، ويخالف العقل والمنطق وأئمة الحق والهدى، ويتبع هواه وشهواته ومن لا يرتضي الله ﷻ طاعته، أو يستخدم النعم المادية والمعنوية والمكانة الاجتماعية والمنزلة والجاه والسلطة والعلم والمعرفة ونحو ذلك في الضلال والإضلال والإفساد في الأرض كما يفعل حملة الشهادات العليا والكتاب والصحفيون والفنانون والأدباء والمفكرون بدعمهم للأنظمة الدكتاتورية والحكام والمستبدين تحت تأثير الخوف من إرهابهم أو الطمع في عطاياهم، ويساندونهم في ظلمهم وطغيانهم وتكريس التخلف والتحلل والانحطاط على حساب الإرادة الشعبية والمصلحة الوطنية والقومية والعزة والكرامة والحقوق الإنسانية، أو يخضع لإرادة الطواغيت الضالين والفراعنة المتجبرين والحكام المستبدين الظلمة والمترفين المستغلين

---

١. الإسراء: ٨٢-٨٤

٢. الأعراف: ٥٨

وأراجيف الانتهازيين الأنانيين والنفعين الفاسدين المبطلين والمستكبرين المتغطرسين ومن على شاكلتهم ويدور في فلكهم ويعمل مثل عملهم من السيئين المجرمين، فيكون بذلك عرضة للبلاء الشديد من الله ﷻ؛ لتحصل منه التوبة والرجوع إلى الله ذي الجلال والاكرام.

وإن عاند وكابر وأصر على ما هو عليه من الضلال والعصيان، فقد يحصل له الخذلان ثم الاستدراج الإلهي، فيختم الله ﷻ على سمعه وبصره وقلبه، فلا ينفع معه دليل صحيح ولا موعظة مؤثرة ولا نصيحة صادقة ولا شيء من نحو ذلك، فيوغل في الضلال والإضلال والإفساد في الأرض بغير الحق، حتى يلاقي ربه ظالماً لنفسه ويكون من الهالكين الأشقياء الخالدين في الدرك الأسفل في نار جهنم وبئس المصير، وذلك هو الخسران المبين الذي ليس بعده خسران ولا يمكن تداركه، نعوذ بالله الرؤوف الرحيم ونستجير به من ذلك المصير الأسود والعاقبة السيئة المشؤومة، قول الله **تعالى**: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[١].

١. الأعراف: ١٨٢-١٨٣

صدر لدار الوفاء للثقافة والإعلام

سلسلة نهج الولاية:

١- العمل المؤسساتي في فكر الإمام الخامنئي

٢- الاستغفار والتوبة، الإمام الخامنئي

٣- التحليل السياسي في فكر الإمام الخامنئي

٤- العبد الصالح، رواية الإمام الخامنئي عن الإمام الخميني

٥- سيد شهداء محور المقاومة، الشهيد القائد قاسم سليماني

٦- عهد الأمير إلى المسؤول والمدير، الإمام الخامنئي

٧- النفوذ في فكر الإمام الخامنئي

كتب أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين:

١- الشهادة رحلة العشق الإلهي

٢- في رحاب أهل البيت

٣- الإنسان رؤية قرآنية - الجزء الأول

٤- الإنسان رؤية قرآنية - الجزء الثاني

٥- الدولة والحكومة

٦- قراءة في بيانات ثورة الإمام الحسين عليه السلام

٧- إضاءات على درب سيد الشهداء عليه السلام

٨- القدس صرخة حق

٩- الجمري في كلمات أمينه وخليله

١٠- الإسلام والعلمانية

١١- رسول الرحمة

١٢- الإسلام دين الفطرة

١٣- اللامنطق في الفكر والسلوك (مجلدين)، مواجهة النبي موسى (ع) لفرعون (هذا الكتاب)

سلسلة رجالٌ صدقوا:

١- هكذا عرفوه، الشهيد رضا الغسرة

٢- المؤمن الممهد، الشهيد علي المؤمن

٣- فخر الشهداء، الشهيد عبدالكريم فخراوي

٤- الخارجون من الماء، رواية المحرر من السجون الخليفية محمد طوق، كمال السيّد

٥- القادم من هناك، رواية الشهيد القائد رضا الغسرة، كمال السيّد

سلسلة من داخل السجن:

١- التغيير في سبيل الله، الشيخ زهير عاشور

٢- تأملات في الفكر السياسي، الشيخ زهير عاشور

٣- الإسلام والعلمانية، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين

٤- الرحيل نحو الأبدية، الساعات الأخيرة للشهيد علي العرب قبل إعدامه، كمال السيّد

٥- يسألونك عن عاشوراء، محمد فخراوي

٦- رسول الرحمة، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين

٧- على ضفاف الحسين، الأستاذ محمد سرحان

٨- نشيد الشهادة، شرح وصية الشهيد القائد قاسم سليماني، الأستاذ محمد سرحان

٩- ماضون على دربك، قصص أسرى البحرين بعد استقبال خبر شهادة الشهيد قاسم سليماني

١٠- مرج البحرين يلتقيان، حياة الإمام علي وفاطمة الزهراء عليهما السلام، الأستاذ محمد فخراوي

١١- خط الإمام الخميني، الشيخ جاسم المحروس

١٢- الإسلام دين الفطرة، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين

١٣- شقشقة المظلوم، شرح الخطبة الشقشقية لأمير المؤمنين عليه السلام، الشيخ زهير عاشور

١٤- إلى أحبتي، نصائح تربوية إلى الشباب، الشيخ زهير عاشور

١٥- وذكرهم بأيام الله، شذرات من فكر الإسلام المحمدي الأصيل للإمام الخميني، الأستاذ محمد سرحان

١٦- اللامنطق في الفكر والسلوك (مجلدين)، مواجهة النبي موسى (ع) لفرعون، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين (هذا الكتاب)

سلسلة تاريخ البحرين:

١- شهادة وطن، إفادات قادة الثورة المعتقلين وعذاباتهم

٢- آل خليفة الأصول والتاريخ الأسود

٣- الإبادة الثقافية في البحرين

٤- تيار الوفاء الإسلامي، المنهج الرؤية الطموح

كتب أخرى:

١- قافلة الخلود - شهداء البحرين

٢- عاشوراء البحرين ٢٠١٩

٣- كتيّب المقاوم العارف، الشهيد المقاوم أحمد الملالي

٤- عاشوراء البحرين ٢٠١٨

٥- حصاد البحرين ٢٠١٧

٦- عاشوراء البحرين ٢٠١٧

٧- في رحاب مدرسة الإمام الخميني ﷺ

٨- المهدوية في الفكر الولائي

٩- الحصاد السياسي ٢٠١٦

١٠- ألم وأمل، السيد مرتضى السندي

كتب باللغة الفارسية:

١- تغيير در راه خدا (التغيير في سبيل الله)، الشيخ زهير عاشور

٢- بازخوانى خطبه هاى امام حسين (قراءة في بيانات ثورة الإمام الحسين)، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين

٣- بر آستان اهل بيت (في رحاب أهل البيت)، أستاذ البصيرة عبدالوهاب حسين

٤- رنج و اميد (ألم وأمل)، السيد مرتضى السندي

٥- گواه ميهن (شهادة وطن)، إفادات قادة الثورة المعتقلين وعذاباتهم

٦-تاريخ سياه آل خليفة (آل خليفة الأصول والتاريخ الأسود)

٧-بت شكن (رواية الخارجون من الماء)

أنّ بني إسرائيل قد لا يكونون بأنفسهم وبالاعتماد على قوتهم وقدراتهم الذاتية وإمكانياتهم الخاصة قادرين على إنقاذ أنفسهم من قبضة فرعون وقومه وتخليص أنفسهم من أذاهم والانتصار عليهم، ولكنهم إذا أخلصوا لله سبحانه وتعالى وتوكلوا عليه ووثقوا به وعملوا بتكليفهم الشرعي وقاموا بما يجب عليهم القيام به من الرفض والمقاومة والصبر والتخطيط والعمل المبرمج والممنهج وتقديم ما يلزم من تضحيات، فإنّ الله عز وجل قادر على نجدتهم ونصرهم وإنقاذهم من أذى فرعون وقومه وتخليصهم من شرهم وقبضتهم والانتصار عليهم، قول الله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وقول الله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾

ISBN: 978-622-95092-7-2

دار الوفاء للثقافة والإعلام